

القرآن كما يراه أهل الكتاب

فساد هذه الرؤية ونقدها.

إعداد: محمد أحمد صبرة

<https://www.facebook.com/m.s.tartus>

m.s.tartus@gmail.com

موبايل ٩٨٨٢٨٩٨٩٢/٠٠٩٦٣

فهرس الكتاب

مقدمة الكتاب... ص ٤

فصل تمهيدي بعنوان:

القرآن تليفق من اليهودية والنصرانية، والقصص القرآني تكرار لقصص العهد القديم؟!.

ترويج المزاعم وإثارة الشبهات ص ١٠
منهج أهل الكتاب في إلقاء الشبهات حول الإسلام.

الأساليب والمسالك الأربعة المتبعة في إثارة الأباطيل حول القرآن..... ص ١٤

الفصل الأول: نقد عام لجدل أهل الكتاب في القرآن.

تمهيد ص ٢٠

نظرة تفصيلية..... ص ٢٧

إن محمداً استوعب جميع الديانات السابقة، متصنّعا ما يسميه الوحي، وما هو إلا عرض من أعراض

الهيستيريا والصرع..... ص ٣٧

الإسلام موافق لليهودية والجاهلية! فهو متأثر بهما وتابع لهما..... ص ٥٣

الانفرادات الفطرية القرآنية ودلالات الإتفاق والإختلاف على ربانية القرآن..... ص ٨٠

الفصل الثاني: النقد التفصيلي لشبهة النقل من التوراة والإنجيل.

مقدمة: ماذا يعني قولهم إن محمداً مدّعي النبوة، مؤلفاً للقرآن..... ص ٨٧

البحث الأول: شخصية النبي محمد وأميته، وقضية بحيرا الراهب وورقة ابن نوفل..... ص ٨٩

البحث الثاني: الاختلاف بين المسيحية واليهودية والإسلام في أصول الإيمان وحقائقه..... ص ١١٦

البحث الثالث: الاختلاف في الأحكام التشريعية بين القرآن والكتاب المقدس..... ص ١٢٦

البحث الرابع: التباين الشديد في قصص الأنبياء والأمم السابقة في القرآن عن الكتاب المقدس..... ص ١٣٢

البحث الخامس: إعجاز النظم القرآني (سحره، وتأثيره)، علامات إلهية في القرآن..... ص ١٦٠

البحث السادس: أثر القرآن والتوراة والإنجيل في الارتقاء بجوانب الحضارة الإنسانية..... ص ١٧١

البحث السابع: تاريخ كتب العهدين ونسخهما العربية..... ص ١٨٩

البحث الثامن: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية..... ص ١٩٦

البحث التاسع: القرآن الكريم والكتاب المقدس وجهها لوجه، تصحيح القرآن لأخطاء الكتاب المقدس..... ص ١٩٩

البحث العاشر: رمتي بدائها وانسلت (اقتباسات الكتاب المقدس)..... ص ٢٢٨

البحث الحادي عشر: نظرة شاملة حولة الإنفرادات والإختلافات بين القرآن والكتب السابقة..... ص ٢٥٨

الفصل الثالث: يقولون آيات القرآن تدعم النصرانية والتثليث.

القرآن وألوهية المسيح.....	ص ٢٩١
الضمير نحن في القرآن المقصود به عيسى (التثليث له وجود في القرآن)!!.....	ص ٢٩٧
هل نسب القرآن إلى المسيح صفة الخالقية؟.....	ص ٣٠٠
ادعاء ثبوت صور للتثليث في العقيدة الإسلامية.....	ص ٣٠٦
هل امتدح القرآن النصارى؟.....	ص ٣١٥
أتباع المسيح موعودون بالظفر على الكافرين؟.....	ص ٣١٦
سؤال أهل الكتاب فيما يشكل على النبي.!!.....	ص ٣١٨
إن القرآن يقر الإنجيل بصورته الحالية ويوجب على أهل الأديان جميعا الإيمان به وفيه حكم الله.....	ص ٣٢٠
الزعم أن القرآن يقر عقيدة الفداء النصرانية.....	ص ٣٣٧
هل الذكر المحفوظ هو كتب أهل الكتاب؟.....	ص ٣٣٩
الكتاب الذي لاريب فيه هو الإنجيل وليس القرآن؟؟!.....	ص ٣٣٩
كيف يمكن القول بأن عيسى لم يموت في الوقت الذي يؤكد فيه القرآن وفاته في سورة آل عمران؟.....	ص ٣٤٠
روح القدس في القرآن المؤيد للمسيح؟.....	ص ٣٤٠
لم تنزل مائدة من السماء.!!.....	ص ٣٤٥
الاستدلال بالآية ١٤٦ من سورة البقرة على عدم تحريف الإنجيل.....	ص ٣٤٦
ما معنى { حتى يقيموا التوراة و الإنجيل }؟؟.....	ص ٣٤٨
معنى الإحتكام لكتب القوم في قوله: { فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب }.....	ص ٣٤٩
دعوى عدم حسم القرآن مسألة صلب المسيح عليه السلام.....	ص ٣٥١
إنّ القرآن ينكر صلب المسيح والأنجيل تثبته، فهل كان الصلب أولا ثم القتل أم القتل ثم الصلب.....	ص ٣٧٤
ادعاء أن الوضوء مأخوذ من التعميد في المسيحية.....	ص ٣٧٩
توهم أن التكبير في الصلاة مأخوذ عن المسيحية، وعادات الجاهلية.....	ص ٣٨٣
توهم أن المسلمين يرسمون الصليب في صلاتهم.....	ص ٣٨٥
ادعاء أن القرآن والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح على محمد صلى الله عليه وسلم.....	ص ٣٨٧
ادعاء أن القرآن الكريم أقر أزلية المسيح.....	ص ٣٩١
ادعاء أن القرآن الكريم يقرر ألوهية المسيح عليه السلام.....	ص ٣٩٣
الزعم أن القرآن ينص على أن المسيح ابن الله.....	ص ٤٠٠
دعوى تناقض القرآن حول تصويره للمسيح عليه السلام.....	ص ٤٠٣
ادعاء أن بنوة المسيح عليه السلام لله سبحانه وتعالى لا تنافي التوحيد.....	ص ٤٠٩
قالوا إن المسلمين يثبتون العصمة للمسيح وينفونها عن محمد صلى الله عليه وسلم.....	ص ٤١٢

مقدمة الكتاب

إن الحوار أصل ومبدأ، وهو وسيلة التفاهم الإنساني عامة، والعقائد السماوية ينبغي توصيلها لبني البشر عن طريق الحوار والمناقشة والمجادلة بالحسنى، وهذا هو الأصل في الدعوة إلى الإسلام، "الحوار بالنسبة إلينا هو في صلب العقيدة.. الحوار تعبير عن قيمة عظيمة، بل القيمة الكبرى في التكوين الأساسي للإنسان والبشرية والفترة، و"الحوار والمخاطبة والتخاطب" ورد في عشرات المواضع في القرآن الكريم، خصوصاً في صيغ المجادلة والتي هي أحسن، ولعل الحوار الأول هو ذلك الذي دار بين الله وملائكته في خلق آدم، فجاءت المخاطبة بصيغة "قال، وقالوا"، ثم كان الحوار الثاني بين الله عز وجل وإبليس، وتنقل لنا آيات القرآن الكريم صوراً عدة لهذا الحوار الذي شكل مادة خصبة للتأملات الفكرية والتفسيرات الفقهية.

ثم كان الحوار بين الله ورسله وأنبيائه: آدم ونوح ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، والحوار بين هؤلاء الرسل والأنبياء وبين قومهم وأهلهم، وهي كلها حوارات غنية تغطي مساحة كبيرة من متون الكتاب، وشكلت مادة تاريخية وأخلاقية وحكومية وسياسية واجتماعية لاتنضب.

ويمكن الإجمال والقول بأن هذه الحوارات التي ينقلها لنا القرآن الكريم تحمل في مضامينها وأبعادها المعاني الآتية: إن الاختلاف سنة إلهية، وهو رحمة للناس، وهو ركن المعرفة، إن الفترة هي قبول الآخر والحوار معه: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٩٩)} (يونس). الحوار إذن هو جوهر ولب الرسالات السماوية والفترة الإنسانية، وهو طريق الرشد والرشاد في الدنيا والآخرة. ذلك بأن الله غني عن الناس، ولو شاء لما خلقهم أصلاً، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة، ولكن حكمة الله في الخلق وفي اختلاف الناس نعمة ورحمة ولطف إلهي وسنة لا تبدل لها.^(١)

لقد بدأ الإسلام الحوار، وهذا أمر طبيعي، فهو الدين الذي أنزله الله بعد النصرانية، فواجه حين بعث به النبي محمد وضعاً دينياً سائداً في العالم يتمثل في النصرانية، وقد تجلّى هذا الحوار أول تجلياته في القرآن وكان ذا اتجاهين وهما: ١. دعوة المسيحية إلى الإيمان به باعتناقه والاعتراف له بأنه يمثل الكلمة الأخيرة والكاملة في التاريخ الديني للإنسانية

٢. دعوة المسيحية إذا رفضت الإيمان به إلى التعايش معه بعد الاعتراف به إذ لا يمكن التعايش مع الرفض والإنكار المطلق ولكن هذا الحوار باتجاهيه بقي وحيد الجانب، لقد كان رد فعل المسيحية على نداءي الحوار اللذين وجههما الإسلام نحوها كمؤسسة ثقافية ونظام سياسي هو الحرب ثم علم الكلام، وشهد التاريخ بعد توسع الإسلام السياسي التعايش المسيحي الإسلامي داخل عالم الإسلام.

وهكذا ولد نتيجة لرفض المسيحية الحوار الإسلامي ثلاثة أشكال من الحوار بين المسيحية والإسلام: الأول: حوار السلام والحرب: وقد بدأ هذا منذ استشهاد رسول الله الذي بعثه إلى حاكم بصرى في سوريا حيث فتكت به حامية بيزنطية.

الثاني: حوار اللاهوت وعلم الكلام: بدأ في هجوم اللاهوت المسيحي على النبي القرآن أهون ما يقال فيه أنه كان بعيداً تماماً عن العلم والموضوعية وآداب الحوار، ونجد الانعكاسات الإسلامية الأولى لهذا الهجوم في آيات القرآن^(٢)

^١ - الحوار الإسلامي للمسيحي ضرورة الغامرة، د. سعود المولى، دار المنهل، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٢: ٣٦. يتصرف
٢ - وقد ازداد هذا الهجوم الشرس على الإسلام ونبي الإسلام سوءاً ووقاحة في الآونة الأخيرة، بدءاً بسلسلة التظاهرات السخيفة في وسائل الإعلام المختلفة، وانتهاج
برأس الكنيسة الغربية والبابا، مروراً بكل أشكال العداء من قبل ما يسمى حديثاً "التيار الصهيونيمسيحي" للتحكم في صنع القرار في الغرب الآن، وما ترتب عليه من
اعتداء واحتلال لأقطار إسلامية؛ كالعراق وأفغانستان... إلخ.

الثالث: حوار التعايش بين أتباع الديانتين في مجتمع واحد، والتعاون المستمر بينهما على صعيد الثقافة والحياة اليومية: وهذا الشكل من الحوار كان وحيد الجانب مدة طويلة من الزمان، فحيث كان الإسلام ذا سلطان ونفوذ، كان يعيش النصارى وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى، ولم يتح للمسلمين أن يمارسوا في الماضي حياة مستقرة آمنة حيث كان للمسيحية سلطان^(١)، أما الآن فيوجد ذلك على نطاق ملموس، وإن كان هذا النوع من الحوار يعاني مصاعب ومتاعب التمييز والعنصرية بالنسبة للأقليات المسلمة في معظم المجتمعات الغربية.

ذلك أن اليهودية والمسيحية تعتبر الإسلام هو العدو الأكبر لها، وقد حاولت إجهاضه قديما بالقوة العسكرية كما حدث في صدر الإسلام ثم في الحروب الصليبية ثم في الاستعمار الحديث، فلم تتمكن من ذلك، فبدأت أسلوبا جديدا هو الحوار لعله يحقق ذلك، وهو دعوة قد يبدو من ظاهرها وعنوانها الرغبة في التعاون والتفاهم واحترام الآخر وتقديره، إلا أن باطنها وحقيقتها وغايتها هو القضاء على القرآن وتشويه مبادئه وصورته عند أهله وغيرهم، فلا يبقى على الساحة الدولية إلا العولة والعلمانية^(٢).

إن الحوار عندهم جسر لنقل الثقافة الإنجليزية إلى الآخرين أو ما صار يعرف بالغرس الثقافي، إنه الحوار الذي يكتف النشاط التنصيري باستخدام كافة وسائل التقنية الحديثة، ومن أخطرها مشروع القمر الصناعي (نور ألفين) المخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية، لقد طالب البابا وأعلن ضرورة تنصير العالم وهو وأعوانه ماضون في ذلك بشتى الطرق ومنها الحوار^(٣).

يرى اليهود أن موسى نبي الله وأن بني إسرائيل شعبه المختار، وأن عيسى ومحمدا كليهما رجلان دعيان ليست لهما رسالة، وأن أتباعهما قطعان من المضللين لا يقام لأديانهم وزن، ولا يمنحون أية حرمة. والنصارى في نظرهم مخدوعون في لقيط حملت به أمه سفاحا، والمسلمون في نظرهم مخدوعون في أعراي جاء من الصحراء لا يعقل شيئا. والمسيحيون، وإن اعترفوا بموسى وتوراته، إلا أنهم ناقمون على اليهود وافترائهم على عيسى وأمه، ولذلك سنوا في معاملتهم قوانين الإذلال والاستئصال، وكما نقموا على اليهود موقفهم من المسيح، فهم كذلك ناقمون على المسلمين؛ لأنهم يرون الإسلام ديانة ملفقة، جاء بها من عند نفسه رجل كاذب في دعواه النبوة، والدين الذي نسخ ما قبله، وأنكر ما بعده هو المسيحية، التي يجب أن تنفرد وحدها بالحياة والسيادة.

أما المسلمون ففي دينهم قاسم مشترك بين الديانات كلها، فهم يؤمنون بموسى ويوقرونه ويعتبرون التهجم على مكانته كفرا بالإسلام. وهم بذلك يؤمنون بعيسى، ويكرمون مولده وينزهون نسبته، ويرون الطعن في عفاف أمه أو شرف ابنها كفرا بالإسلام، وهم يضمون إلى إيمانهم بموسى وتوراته، وعيسى وإنجيله، إيمانا جديدا بمحمد وقرآنه، على أساس أن النبوة الأخيرة جاءت تصديقا لما قبلها، ومحوا للفوارق والخلافات التي مزقت شمل العالم أجمع: {وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٦٤)} (النحل). فالإسلام هو يهودية موسى ونصرانية عيسى معا، وهداية من قبلهما من رسل الله الأكرمين جميعا: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١٣٦)} (البقرة).

^١ - الحوار الإسلامي المسيحي: ضرورة للمغامرة، د. سعود المولى، دار المنهل، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٩: ١١.

^٢ - قضايا معاصرة، د. محمد نبيل غنام، دار الهداية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٩٣.

^٣ - قضايا معاصرة، د. محمد نبيل غنام، دار الهداية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٠٧: ١٠٩.

ومن هذا الشرح نجد أن الانكماش والتعصب والاتهام والتهجم ليس من طبيعة الإسلام وأهله، ولكنه طبيعة من يرون أن يؤمنوا بموسى فقط، ويتعبدوا لله بالطعن في عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، أو يريدون الإيمان بعيسى فقط، ويعتبرون من جاء بعده دجالاً يحاربه النصارى بالسيف إن كانوا أكثرية، ويحاربونه بالدس والمؤامرات إن كانوا قلة. ومن هذا الشرح ترى لماذا اتسع صدر الإسلام للأديان الأخرى، فهو يعطيها حق الحياة معه، في الوقت الذي ضمن فيه المسيحيون بحق الحياة، لا على المسلمين فحسب، بل على المذاهب المسيحية الأخرى.

ومن هذا الشرح تعرف السر في جحود صنيعة الذي أسديناه طوال أربعة عشر قرناً. إن إخواننا المسلمين الذين أوقعهم سوء الحظ بين جماهير المسيحيين في روسيا ويوغوسلافيا وأسبانيا وجنوب إيطاليا... إلخ؛ قد هلكوا جميعاً، أما الأقليات المسيحية في ربوعنا الفسيحة، فقد اعتنت وتكاثرت وعزت، ولكنها مع ذلك لا تستريح لما ترى، ولماذا؟ لأنها لا تقر عينا إلا إذا طمست معالم الإسلام، وارتد عامره بلقعا، إن المسلمين في نظرهم خوارج على المسيحية، وهم قوم يتبعون أمياً أساء إلى الكنيسة وكهنوتها. وعندما تطوي قلبك على شعور التنقص والازدراء لامرئ ما فإنك لن تقر له بإحسان، ولن تعترف له بجميل"^(١).

والإسلام كدين يحمل أسباب البقاء في ذاته وبملك من وسائل التأثير والتغيير مالا يوجد في غيره من الأديان لذا رأينا الإسلام ينتشر رغم تقصير المسلمين في نصرته وتبليغه ورأينا الإسلام يفرض نفسه على الأحداث ويظهر بقوة من جديد على الساحة رغم أن أعداءه لا يألون جهداً في محاربته وتحجيمه لذلك كله لجأ الأعداء إلى وسيلة خبيثة تصرف المسلمين عن دينهم أو تزرع الشك في نفوسهم وهي وسيلة الشبهات التي تثار حول الإسلام وهم بذلك يريدون ليطلقوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون لذا رأينا أن نجتمع هذه الشبهات في كتاب واحد ثم نذكر رد العلماء .

إنّ دعوى الاقتباس القرآني من أسفار أهل الكتاب؛ هي الشبهة القديمة المتجددة، والتهمة الطافية المكررة، قد شطّط فيها الأوهام وزلّت فيها الأقلام، وهي تعود إلى جذر واحد، وتسعى إلى هدف فرد، الجذر هو العلم بأنّ التشابه بين القرآن الكريم والكتاب المقدس إذا لم يُفسّر بأنّ الرسول ﷺ قد أخذ من أسفار أهل الكتاب مباشرة أو بطريق واسطة، فإنّه لا دلالة أخرى له غير الإقرار أنّ مصدر هذا التشابه هو الوحي الربّاني، وإذا كان لا مجال عند القوم للتسليم برّبانية القرآن، فلا محيص عندها عن إعلان الاقتباس القرآني المدّعى، والهدف هو إسقاط ربّانية القرآن وافتراء بشريته المزعومة، فكانت نهاية الدعوى؛ هي مبتدأ الفكرة!

وقد مرّت هذه الشبهة بطباق متعددة وأطوار متأرجحة، وأخذت ألواناً غير منتظمة، ووُجّهت وجهات متباعدة، حتّى إنّ بدايتها على يد **يوحنا الدمشقي** في زعمه أنّ الرسول قد حاور راهباً أريوسياً^(٢) حواراً لا تلمذة، (أريوسي لا نسطوري) وقد صارت فكرته قطعة من التاريخ القديم، واليوم صارت الشبهة أوسع، وأعقد، وأكثر ضبابية رغم ما أريد لها من وضوح، وصرنا نقرأ عن مصادر يهودية، ونصرانية، ومجوسية، وحتّى هندوسية، وفرعونية للقرآن الكريم^(٣).

ولما كان الذبّ عن كتاب الله سبحانه، هو من الفروض التي حثّ الشرع على القيام لها، والقيام بها فإننا سنتولى في هذا الكتاب الردّ على هذا الطعن مستضيئين بنور العقل الواعي، والتاريخ القاطع، والعلم اليقيني .. جاعلين الحقائق

^١ - التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، نخضة مصر، القاهرة، د. ت، ص ٦٥، ٦٦.

^٢ - انظر؛ 'the Fount of Knowledge,' in The Fathers of the Church, St. John of Saint John of Damascus Writings, tr. Frederic H. Chase , CUA Press, 2000, , p.153

^٣ - انظر؛ Ibn Warraq, ed. What the Koran Really Says: Language, Text, and Commentary, NY: Prometheus Books, 2002, pp.245- 318

الموضوعية التي تستوي المناهج العلمية في التسليم بحجيتها والثقة في دلالتها، الفيصل في الحكم في هذه الدعوى. ولن يكون القرآن الكريم فيصلاً في إعلان الحكم النهائي من هذه الدراسة؛ لأنه الخصم الذي لا يُسَلَّم له المخالف بالحجة، بل ويتخذ مرمى لشبهاته، فإن استدللنا بالقرآن الكريم فإثماً من باب أنه (وثيقة تاريخية) معتبرة عند مخالفينا، وهذا أمر لا يمكن لمن لا يسَلَّم برئانية القرآن الكريم أن يردّه، قال المستشرق هاملتون جب: **إن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينياً جديداً متميزاً... ومن هذه الوجهة يغدو التساؤل عن مصادر الدين الذي جاء به محمد أمراً غير وارد بالمرّة.**^(١)

ولعل من الإنصاف الذي ارساه القرآن أن نعلن أن المستشرقين ليسوا سواء، فمنهم من وقف مع الحق وأنصفه ومنهم من أساء واعتدى وكذب وظلم، أهمهم:

١- كتاب تيودور نولدكه: (تاريخ القرآن) من أهم الكتب التي ألفها المستشرقون في تاريخ القرآن وتأثر به وبنائجه من جاء بعده وبنوا عليه وأسسوا دراساتهم اعتماد عليه وأصبح هذا الكتاب انجيل المستشرقين في مرجعية الدراسات القرآنية (ترجم الكتاب للعربية) .

٢- كتاب جولدتسيهر بعنوان (مذاهب التفسير القرآني) ترجمه للعربية د. عبد الحليم النجار .

٣- كتاب جون وانسبرو بعنوان (دراسات قرآنية :مصادر الكتب المقدسة وطرق تفسيرها) .ويعد هذا الكتاب من أخطر كتبه ،حيث تأثر به جانب كبير ممن جاؤوا بعده في البحث القرآني ،علما أن مزاعم وانسبرو تجاوزت أمام الدراسة العلمية التي قام بها الباحث : سعد بن عبد العزيز الرشيد بعنوان : (كتابات إسلامية من مكة المكرمة) ، حيث برهن الباحث أن النقوش القرآنية التي وجدت مكتوبة على الصخور بمكة المكرمة تثبت بشكل قطعي فساد نظرية وانسبرو التي تزعم أن القرآن الكريم لم ينتج بمكة .

٤- كتاب دون ريتشاردسون بعنوان : (أسرار القرآن) وهو يخلط بين الدراسات القرآنية والسياسة .

٥- كتاب نيل روبنسون بعنوان : (اكتشاف القرآن: مقارنة عصرية لنص محجب) .

٦- كتاب كريستوف لوكسنبورج بعنوان: (قراءة سريانية-آرامية للقرآن: مساهمة في تحليل لغة القرآن)، وكريستوف هنا في الأعم الأغلب اسم مستعار وهمي وهي ظاهرة شاعت في السنوات الأخيرة في الهجوم على القرآن.

٧- كتاب ابن الوراق بعنوان : (لماذا أنا لست مسلماً؟) ، يقدم الكتاب نقداً لاذعاً قويا ضد الاسلام في منهجية علمية في العرض خالية من الصدق في المضمون .^(٢)

وهذا غيض من فيض من حجم الهجمة الشرسة على القرآن والإسلام وصف العلامة محمود شاكر هذه الهجمة أبليغ وأصدق وصف فقال: " لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو ينال ضلال بحدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة، بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في عقولنا لا تدرك إلا ما يريد لها أن هو تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى اليوم ، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل " ^(٣).

١- د. سامي العامري ، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحت عنوان حائتي (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم). ص ٣٦ - ٣٩ ، سلسلة إصدارات المؤسسة العلمية الدعوية العالمية ، مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان .

١- موسوعة بيان الاسلام المجلد الأول ص ٤٧ - ٤٨ ، مرجع سابق ، وانظر د. عبد الراضي محمد عبد المحسن، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ص (١-١٥) أ. ل شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي، ص ٩ ، مرجع سابق، نشرة محب الدين الخطيب. بيروت.

٢ - عن مقدمة كتاب (الظاهرة القرآنية) مالك بن نبي ص ٢١ . ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر. دمشق ١٤٠٢ هـ . ١٩٨١ م.

يلاحظ الباحث والمتتبع للشبهات المثارة اليوم أنها تكررنا مجوجاً لأباطيل قديمة أجاب على معظمها السابقون مثل: الجاحظ (ت ٢٥٥) في "الرد على ابن الراوندي"، وابن قتيبة (ت ٢٧٦) في "مشكل القرآن"، والإمام الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) في كتابه "التمهيد"، اعجاز القرآن"، والقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥) في "تنزيه القرآن عن المطاعن"، والفراء (ت ٢٠٧) في معاني القرآن، والزجاج (ت ٣١١) في "معاني القرآن وأعرابه"، والعكبري (ت ٦١٨) في "التبيان في أعراب القرآن".

وأكثر المطاعن التي توجه للقرآن اليوم مأخوذة من هذه الكتب ونحوها، غاية ما في الأمر أنهم أخذوا الشبهة وأغفلوا الرد عنها مع المبالغة في التنوع في عرض الشبهة حتى تتعد الشبهة الواحدة في عشرات الصياغات، فيهيأ لك أنك أمام عشرات الشبهات ولست أمام شبهة واحدة مع كيل التهم للقرآن وللنبي ﷺ والإعراض عن التهم خير دواء لها والتهم غير الشبهات.

وما أدركه أعداء القرآن في القديم حول مركزية القرآن لهذه الأمة أدركه الأعداء الجدد، يقول حاخام إسرائيل الأكبر مردخاي الياهو: "هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يقصد العرب والمسلمون فيه كتاباً يتحدث عنا بكل هذه السلبية؟! "^(١). ويقول الحاكم الفرنسي للجزائر إبان الاستعمار الفرنسي: "إننا لن نتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية"^(٢). ويقول وليم جيفور بالكراف: "متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه"^(٣) ومقصود بالكراف بالحضارة الغربية: ما نشاهده في الغرب اليوم من تحلل أخلاقي وتفكك اجتماعي ومظاهر سلبية استعصت على الإحصاء والإحاطة، وما أعظمه من كتاب ذاك الذي يتصدى لهكذا حضارة! ويقول اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر: "جئت لأخو ثلاثاً: القرآن والكعبة والأزهر"^(٤). وأما المبشر جون تاكلي فيقول: "يجب أن نستخدم القرآن وهو أمضى سلاح ضد الإسلام نفسه، بأن نعلم هؤلاء الناس (يعني المسلمين) أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد ليس صحيحاً"^(٥). وهكذا توجهت المهمم الشريرة إلى إبعاد الأمة المسلمة عن القرآن عبر صنوف من الافتراءات والأكاذيب التي بلغت من كثرتها الألوف من الكتب كما نقل ادوارد سعيد في مقال له في مجلة "التايم" في إبريل ١٩٧٩م بقوله: "إن أكثر من ستين ألفاً من الكتب ألقت ضد الإسلام بواسطة المسيحيين الغربيين"^(٦)، فكم تراه ألف بواسطة الشرقيين!!

والهجمة المعاصرة على القرآن الكريم أشدُّ ضراوةً من كلِّ ما سبق؛ اتخذت في سبيل تحقيق غرضها وسائل متعددة ما بين كتب مؤلفة وقنوات فضائية متخصصة بالطعن، ومواقع على شبكة الإنترنت، وندوات ومؤتمرات يصرح المنصرون برغبتهم في إقصاء الإسلام؛ فالمنصر حسب يود أن يمحو الإسلام من العالم، ويصرح غيره بأن الغاية من عملهم هي: (القضاء على الأديان غير النصرانية)^(٧)، بل قامت أمريكا بتأليف قرآن مزعوم تحت عنوان "الفرقان الحق"، والمدهش في كل ما ذكر أن القرآن الكريم هو المنتصر فكراً، لأن البون شاسع بين كلام الله الذي جعله الله هداية ورحمة وطمأنينة

١- مجلة البيان، العدد: ١٥٩، بتاريخ ذو القعدة ١٤٢١هـ، وجريدة البلاد (السعودية): ٣٠ رجب ١٤٢١هـ.

٢- قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أريدوا أهله، جلال العالم، ص (٣١). مكتبة الصحابة جدة. مكتبة التابعين، القاهرة. ١٩٩٤م.

٣- محمد جمعة عبد الله، رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم، ص (٢٧٨). ط١، ١٤٠٥هـ.

٤- أنور الجندي، الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون، ص (٢٩)، دار الاعتصام، سلسلة دائرة الضوء.

٥- محمد جمعة، رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم ص (٢٦٣). مرجع سابق. مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ص: ٣٢٩)، الدورة السابعة، العدد ٧، الجزء الرابع لعام ١٩٩٢، واجب المسلمين في نشر الإسلام للأستاذ زيد الفياض (ص: ١٩).

٦- خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس، أحمد ديدات ص (٢٠)، عن تنزيه القرآن للسقار ص ٨، مرجع سابق

٧- د. فروخ. الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية، ص ٣٦، ٤٥، المكتبة العصرية. بيروت ١٩٨٦م.

لمن لا ذ به وآمن به، وبين تخاريف البشر وزيفهم، وسيظل الصراع دائر بين الخير والشر بين الحق والباطل وتلك سنة الله في خلقه^(١).

وما أكثر الكتب المأجورين وعدد المواقع (الغربية والعربية) لا من أجل مهاجمة وشيطة الإسلام والمسلمين فحسب، ولكن خاصة من أجل إدانة القرآن الكريم ومحاولة تفنيده. فالخلية الفاتيكانية التي لا تكل ولا تهدأ من تقديم كتبه جدد لمواصلة هذه الحرب، القائمة على عدم أمانة لا مثيل لها، من أجل استبعاد الإسلام والمسلمين ومحاولة المساس بمصداقية القرآن الكريم وتحميلة كافة مآخذ ونواقص الكتاب المقدس، تعمل بلا هوادة.. والمعادلة جد ساحرة بما أننا حيال كتاب مقدس تم تحريفه، ملئ بالمفاسد والتبديل والتحريف والحذف إلى درجة اختفت معها النصوص الأصلية تحت ذلك الزخم، ومن ناحية أخرى نجد نصا متزلا، لم يخضع لأي عملية من عمليات التحريف نص متفرد، لا يمكن محاكاته، مبهر ومعجز في آن واحد، فقد تم توثيق القرآن الكريم بدقة متناهية تفوق التصور، بحيث من المحال أن يناله أي تلاعب إذ أننا نعلم أن عدد السور ١١٤؛ والآيات ٦٢٣٦؛ وكلماته ٧٧٤٣٩. وإن كان العدد يختلف وفقا للقراءات؛ وعدد الجذور ١٧٩٠^(٢).

إن ربانية هذا الكتاب المُحَمَّل بالهداية الربانية مَسَّتْ قلب كل قارئ للقرآن ومطلع عليه، والمدعش حَقًّا أنه على الرغم من هزائم المسلمين المتلاحقة إلا أن القرآن الكريم هو الذي انتصر فكريًّا؛ لأن البَوْن شاسع بين كلام الله الذي جعله الله هداية ورحمة، وبين تخريف البشر وزيفهم، والسؤال لماذا يخرج القرآن منتصرًا في كل المعارك التي قامت ضده؟ باختصار: إذا تجاوزنا سحره الروحي وتأثيره النفسي وبيانه الساطع ونقاشه العقلي والمنطقي فالقرآن الكريم يملك ما لا تملكه الكتب الأخرى. ويكفي أن نتدبر التالي :

القرآن هو الكتاب المتفرد، وحده الذي بَرَّأ المرأة من خطيئة إخراج آدم من الجنة، وحده الذي وصف الإله بما يليق به من كمالات، وحده الذي أثبت العصمة للأنبياء لأنهم أسوة للبشرية، وحده الذي أنصف الآخر وجعله جزءًا من نسيجه، وحده المتفرد في وضوح العقيدة فلا لبس فيها، وحده المنفرد باللغة الراقية والأخلاق الرفيعة، وحده الذي حَفِظَ حفظًا إلهيا من التحريف أن تعبت به يد البشر، وحده هو الذي توافقت مع حقائق العلم الحديث، لهذا كله كانت ولا تزال كل المعارك التي ضد القرآن خاسرة.. لماذا؟.. الجواب في كلمة واحدة.. لأنه كلمة الله.^(٣)

وفي الختام أسأل الله القبول والرحمة لكل من طرقوا هذا المجال من الأئمة والباحثين كابن تيمية وابن القيم وغيرهم وأصحاب موسوعة بيان الإسلام والشيخ العَلَم أحمد ديدات والدكتور منقذ السقار والدكتور سامي عامري واللواء أحمد عبد الوهاب والدكتور عبد الراضي عبد المحسن والدكتور عبد الرحمن بدوي وغيرهم الله أعلم بهم، لكني أحص هؤلاء فقد اعتمدت كتبهم وردودهم وعدت إليهم أكثر من غيرهم، ومنهم من نقلت رده كاملا في ثنايا هذا الكتاب وأحيانا قد بلغ رده عشر صفحات وذلك لنفائته!

نَتَيْنَا خدمة كتاب الله تعالى بقدر المستطاع، نسأل الله القبول من لدنه، وأن يبارك في هذا الجهد، وأن يثيبنا عليه، وأن يجعل لهذا الكتاب القبول في الأرض والسماء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والله من وراء القصد.

١ - موسوعة بيان الإسلام : الرد على الافتراءات والشبهات (ج ١ ص ٤٥) نخبة من كبار العلماء . دار نخبة مصر للنشر ، ط ١ / يناير ٢٠١٢
٢ - أ. د. زنب عبد العزيز مقال منشور على صفحة صيد الفوائد بإسم: "القرآن: إعجاز علمي". وراجع د. محمد عمارة، استراتيجية التفسير في العالم الإسلامي ص ٢٨، مركز دراسات العالم الإسلامي، المطبعة، ١٩٩٢ م. ود. فروخ. الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية، ص ٣٩ المكتبة العصرية. بيروت ١٩٨٦
٣ - موسوعة " بيان الاسلام " بقلم كبار العلماء ، ج ١ ص ٤٦ وما بعدها . مرجع سابق

فصل تمهيدي

القرآن تلفيق من اليهودية والنصرانية، والقصاص القرآني تكرار لقصاص العهد القديم.
عرض الفكرة.

١- ترويج المزاعم وإثارة الشبهات

اتجه أهل الكتاب في جدياتهم ضد القرآن إلى إثارة الشبهات والمزاعم حول المصدر الإلهي للقرآن الكريم، وكانت أفكار وجدال يوحنا الدمشقي ضد الإسلام هي المنطلق والفرضية الأساسية التي بنيت عليها مزاعم وشبهات الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم ومصدره، فمنذ أرسى الدمشقي دعائم جدليته الأساسية (الإسلام هرطقة مسيحية) ولا زال الجدل التنصيري يردد لها عبر مراحلها المختلفة ففي العصور الوسطى تلقفها توما الاكوييني الذي صبغ العصور الوسطى برؤيته فوصف الإسلام بأنه دين زائف وهرطقة بدعية مسيحية^(١)

وفي العصر الحديث أكد المبشر الأمريكي ماكدونالد مؤسس مدرسة كنيدي لإعداد الإرساليات التبشيرية، وصاحب الدراسات الواسعة عن الإسلام ومؤلف أكثر من مادة من مواد دائرة المعارف الإسلامية، أكد فيها على أن (الإسلام مسيحية مهرطقة)^(٢)، وتجسدت هذه الجدلية في الأعمال الأدبية والفنية التنصيرية ففي الكوميديا الإلهية لدانتي الذي كان يتبنى الفلسفة اللاهوتية لتوما الاكوييني يظهر محمد ﷺ في فصل (كانتو) ٢٨ من الجحيم، وقد وُضع في الدائرة الثامنة من دوائر الجحيم التسع، وهي دائرة من الخنادق الكثيرة التي تحيط بمعقل الشيطان ولا يفصل بين محمد وقعر الجحيم حيث يقبع الشيطان سوى المزيفين والخونة مثل: (يهوذا الإسخريوطي، وبروتس الروماني). كما أن عقابه فريد مثير للاشمئزاز حيث يقطع نصفين من ذقنه إلى شقين، وهو يسوّي بينه في استحقاق العقوبة وبين قسيس شهواني مرتد ادعى لنفسه مكانة دينية بارزة اسمه: (فرا دولشينو)، بينما يضع كلاً من ابن سينا وابن رشد وصالح الدين في الدائرة الأولى من الجحيم حيث يقاسون أخف ألوان العقاب لأنهم أفاضل فاتهم فقط نعمة الوحي المسيحي^(٣).

فالقرآن ليس كتاباً سماوياً أصيلاً بل كتاب هرطقة وكفر وزندقة فهو تلفيق من اليهودية والنصرانية، يقول المستشرق اليهودي إبراهيم جيحر في كتابه (ماذا اقتبس محمد من اليهودية): "إن القرآن مأخوذ باللفظ أو بالمعنى من كتب اليهود"^(٤)، ويؤكد اليهودي برنارد لويس: "أن محمداً خضع للتأثيرات اليهودية والمسيحية كما يبدو ذلك واضحاً في القرآن"^(٥)، ويشرح جولد تسهر قائلاً: "تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي رآها جديدة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يُعد هذه التعاليم وحياً إلهياً"^(٦).

لقد صيغت مؤلفات عديدة بجميع اللغات الأوروبية في تغذية عروق هذه الدعوى بالبراهين المركبة، دون أن يخضع البرهان إلى الفحص والتقويم، في استحضر للواقع الفكري القروسطي الذي لخصه لنا قول نورمان دانيال: كل الكتاب النصارى في القرون الوسطى يميلون إلى التمسك بخرافات غريبة حول الإسلام ونبيه، فاستعمال دليل باطل لمحاربة

١ - Montgomery Watt , The Influence of Islam on Medieval Europe , p. 74, Edinburgh up 1972

٢ - إدوارد سعيد ، الاستشراق ، بترجمة كمال أبو ديب، ص ٢٢٠ مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ط٢: ١٩٨٤م.

٣ - إدوارد سعيد ، الاستشراق ، ص ٩٧ ، مرجع سابق .

٤ - محمد صالح البنداق ، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص ١٠٨، دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت ١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م.

٥ - غراب ، رؤية إسلامية للاستشراق، ص ١١٢، المنتدى الإسلامي، لندن ١٤١١هـ.

٦ - جولد تسهر ، العقيدة والشبهة في الإسلام، ص ١٢ ، بترجمة محمد يوسف موسى وآخرون ، القاهرة ١٩٤٨م .

الإسلام كان أمرًا شائعًا في العالم.^(١) إلا أن كتاب المستشرق اليهودي الألماني أبراهام جايجر^(٢) ماذا أخذ محمد من اليهودية؟^(٣) قد فتح لهذه الفرية الطريق إلى المنصّات الأكاديمية ودراسات أعلام المستشرقين^(٤) فقد استنسخ جوهر هذا البحث Nöldeke^(٥)، الصديق الحميم (لجايجر)، وتابع هذا المنهج الذي رسمه جايجر Gustav^(٦) Goldziher^(٧) Josef Horovitz^(٨) Abraham Katsh^(٩) Weil^(١٠).

ثم خرج ويليام سنت كلير تسديل William St. Clair Tisdall^(١١) على القراء بكتابه *The Original Sources of the Qur'an* ليفتح الباب على مصراعيه لنسبة قصص من القرآن الكريم إلى النصرانية الهرطقة، ووجد مؤلفه رواجًا كبيرًا رغم أنه ليس بحثًا علميًا، وإنما هو مُنْعَرِدِيَّة من الدعايات التنصيرية على حد تعبير الناقد فرنسوا دو بلوا^(١٢) (١٣).

وتكاد الدراسات الحالية القائلة بهذا الاقتباس، تتوقف فيما يتعلق بالأصول الكتابية عند المصادر التي حدّدها كل من جايجر وتسديل لتبقى أصول الشبهة دائرة في مجال كتابيهما، مع تعديلات طفيفة للإيجاء بطرافة البحث وجدّيته، من أهم المؤلفات التي نشرت لاحقًا وروجت لنفس الدعوى:

الأثر اليهودي الحاسم في صناعة القرآن:

Arent Jan Wensinck, Mohammeden de Joden te Medina (1908)

Ch. C. Torrey, The Jewish Foundation of Islam (1933)

الأثر النصراني الحاسم في صناعة القرآن:

J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums (1897)

Tor Andrae, Der Ursprung des Islams and das Christentum (1926)

Richard Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment (1926)

Karl Ahrens, Muhammad als Religionsstifter (1935)^{١٤}

^١ - Norman Daniel, *Islam and the West*, Oxford: Oneworld, 1993, p.267

^٢ - أبراهام جايجر (١٨١٠-١٨٧٤م): لاهوتي يهودي ألماني، شغل وظيفة حبر. من أعلام اليهود الإصلاحيين.

^٣ - ألف الكتاب أولًا باللغة اللاتينية تحت عنوان *Inquiratur in fontes Alcorani seu legis Mohammedicae eos, qui ex Judaismo derivandi sunt* وشارك به مؤلفه في مسابقة في كلية الفلسفة في بون سنة ١٨٣٢م، ثم ترجم إلى الألمانية ليكون أطروحة دكتوراه في ماربورغ سنة ١٨٣٤م.

^٤ - كتب أبراهام جايجر بعد هذا المؤلف ثلاثين سنة كتابًا لإثبات أن النصرانية تعود في أصولها إلى اليهودية الفريسية، وفي حين استقبل كتابه ضد القرآن بترحاب غامر في أوروبا، لقي كتابه عن النصرانية ردودًا عنيفة وقاسية. (انظر؛ Susannah Heschel, *Abraham Geiger and the Jewish Jesus*, (Chicago: University of Chicago Press, 1988, p.52)

^٥ - لقي الكتاب مع ذلك معارضة من عدد من النقاد؛ فقد طعن المستشرق Henrich Lebrecht Fleischer في موضوعية مؤلفه معتبرًا أن عقيدته كانت حاسمة في صياغة الكتاب، وقال للمستشرق دو ساسي إن المؤلف قد بالغ في ادعاءاته؛ إذ إن الكثير من الأفكار المشتركة بين الإسلام واليهودية التي أوردها جايجر تنبأها جلّ الأديان في العالم. (انظر؛ المصدر السابق، ص ٥٩)

^٦ - تيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠م): من أعلام المستشرقين الألمان. له اهتمام بدراسة الإسلام واللغات السامية.

^٧ - جولدتسيهر (١٨٥٠-١٩٢١م): مستشرق يهودي هنغاري. من أهم من اشتغل في التشكيك في السّنة النبوية، وقد نسب الفقه الإسلامي إلى القانون الروماني.

^٨ - غوستاف فيل (١٨٠٨-١٨٨٩م): مستشرق يهودي ألماني. له مؤلفات في القرآن والسيرة وتاريخ الخلفاء.

^٩ - جوزف هورونز (١٨٧٤-١٩٣١م) حبر يهودي أرثوذكسي. مستشرق ألماني. أسس قسم الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية في القدس، وكان رئيسه.

^{١٠} - أبراهام كاتش (١٩٠٨-١٩٩٨م): يهودي. كان والده وحده من الأبحار. متخصص في اللغة العبرية. أدخل تدريس اللغة العبرية الحديثة في مقررات الجامعات الأمريكية.

^{١١} - ويليام سنت كلير تسديل (١٨٥٩-١٩٢٨م): منصر بريطاني، كانت له عناية باللغات الشرقية.

^{١٢} - François de Blois, "Review of Ibn Warraq's *The Origins Of The Koran: Classic Essays On Islam's Holy Book*", in *Journal Of The Royal Asiatic Society*, 2000, Volume 10, Part 11, p. 88 (Quoted by, M S M Saifullah & Intiaz Daniel, *Comments On Geiger & Tisdall's Books On The 'Sources' Of The Qur'an*)

^{١٣} - حصر (هـ. شفارنيزوم) بيبلوغرافيًا عناوين الدراسات التي تناولت موضوع اقتباس القرآن الكريم من مصادر يهودية ونصرانية حتى سنة ١٩٨٢م، انظر؛ H. Schwarzbaum, *Biblical and Extra-Biblical Legends in Islamic Folk Literature*, Waldorf-Hessen: Verlagtrur Orientkunkne, 1982

^{١٤} - Oliver Leaman, *The Qur'an*, New York, Routledge, 2006, p.477

لا ريب أنَّ الاستشراق التنصيري هو المصدر الأول لدعوى الاقتباس القرآني من أسفار أهل الكتاب فهو الذي اختلقها، وهو الذي رعاها نطفة، فجنيناً، فوليداً، وهو الذي وظّف كتابات الاستشراق غير الكنسيّ لخدمة هدفه، وهو الذي يروج لهذه الدعوى بكثافة في كلّ اللغات المتاحة لديه وهي كثيرة جدّاً.

ويستدلّ الخوري الحداد المبشر اللبناني في جدليته الضخمة ضد أصالة القرآن^(١) على صحة مزاعم أسلافه من المنصرين، بقوله: " فوجود العالم المسيحي ورقة بن نوفل في جوار محمد خمسة عشر عاماً قبل البعثة ، وأعواماً بعدها في أوائل الدعوة ووجود هذه الحاشية الكريمة في المدينة مع النبي في كل زمان ومكان حجة قاطعة على أن بيعة النبي والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها ، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها ، وذلك بمعزل عن الوحي والتنزيل"^(٢) . وساق مجادلو التنصير تبعاً لما سبق أن القرآن تكرر لقصاص العهد القديم والجديد يقول جولد تسهر: " لقد أفاد محمد من تاريخ العهد القديم وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ليذكر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم ووقفوا في طريقهم"^(٣) ، ويستطرد موضحاً طريقة الإفادة ، بقوله : " إن محمداً أخذ يجمع ما وجدته في اتصاله السطحي أثناء رحلاته التجارية مهما كانت طبيعة هذا الذي وجدته ، ثم أفاد من دون أي تنظيم"^(٤) . أما المستشرق اليهودي فنسك فيخرج بدائرة الإفادة عن حدود العهد القديم ، ويربط لنا بوضوح بين هذا الزعم وسابقه والفرضية الأساسية والمنطلق الذي تفرعت عنه هذه الادعاءات قائلاً : " النبي كان يُبشّر بدين مستمد من اليهودية والنصرانية ، ومن ثمّ كان يردد قصص الأنبياء المذكورين في التوراة والإنجيل ، لينذر قومه بما حدث لمكذّبي الرسل قبله ، وليثبت أتباعه القليلين من حوله"^(٥) .

رغم افتقار النصرانية لأدنى الأصول العلميّة السليمة التي تسمح لها أن تطأ بقدمها أرض التدافع الديني، ورغم أنّ (دلائل صدق النصرانية) كما يقدمها أئمة التنصير هي نفسها عند العقلاء (دلائل بطلان النصرانية)^(٦) فإنّ المنصرين إذا ما ولّوا أمرهم إلى الطعن في الإسلام، فإنهم يصنعون من الخاطر العابر أسطورة شائكة، ومن الأثر الساقط رواية متواترة، ومن الظنّ المرجوح حقيقة قاطعة ..

والذي يعجب له الناظر في مصنّفات الدفاعيين^(٧) النصاري يرى أنّ هؤلاء الكتّاب إذا كانوا بصدد الردّ على الطعون في أسفارهم وعقائدهم، يعمدون إلى أبعد الفروض وأغرب الاحتمالات لدفع التناقض وردّ الزلل عن مقدساتهم^(٨)، لكنهم إذا ما أنشبوأ أقلامهم في صحائف القرآن الكريم، تبدّل الحال وتهيّجت النفوس فينكر القوم على المسلمين أوضح البراهين، وأصحّ الأسانيد، وأنقى المتون، متشبّثين بأوهى اعتراض، وأوهن شبهة، وأرق احتمال.

^١ - صدرت هذه الجدلية منتصف القرن العشرين في أربع مجلدات طبعها مطبعة حريصا البولسية في لبنان بعنوان دروس قرآنية ، مع عنوان خاص لكل كتاب ، يجسد فيه مضمون جدليته ، وجاءت على النحو التالي : ١. الإنجيل والقرآن ٢. القرآن والكتاب ٣. القرآن والكتاب وهو تكملة للجزء الثاني ٤. نظم القرآن والكتاب . وقد تصدى له الشيخ محمد عزّة دروزة في ردّ تفصيلي في كتابه القرآن والمبشرون الصادر عن المكتب الإسلامي بدمشق ، في مؤلف عدّه الدكتور فريد مصطفى من أفضل ما كتب الشيخ دروزة . راجع : فريد مصطفى سليمان ، محمد عزّة دروزة وتفسير القرآن الكريم ، ص ٤٢٤ ، مكتبة الرشد ، الرياض ١٤١٤هـ ١٩٩٣ م . عن كتاب الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم ، د. عبد الراضي محمد عبد المحسن ص ٦٠ .

^٢ - الحداد ، القرآن والكتاب (٢ / ١٠٦٠) مرجع سابق .
^٣ - جولدتسيهر ، العقيدة والشرعية في الإسلام ، ص ١٥ مرجع سابق ، والمعنى نفسه أوردته بلفظ مقارب في مذاهب التفسير الإسلامي ، ص ٧٥ ، بترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة ١٩٥٥ م .

^٤ - جولدتسيهر ، العقيدة والشرعية ، ص ٢٥ ، مرجع سابق .
^٥ - غراب ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

^٦ - أشهر هذه (الدلائل) نبوءات العهد القديم بظهور يسوع المسيح، ولا يكاد يخلو كتاب تنصيري من ذكرها أو ذكر بعضها، وقد فندت كلّ هذه النبوءات التي ادعاها مؤلفو الأنجيل الأربعة، في كتابي محمد صلى الله عليه وسلم في الكعب المقدسة ص ١٨٨-٢٢٩ مكتبة النافذة ٢٠٠٧م، وهي في حقيقتها، قاطعة أنّ كتاب الأنجيل كانوا بشراً مسوقين باجتهادهم الشخصية التي تعارض العقل والوحي.

^٧ - (Apologists)، يسمون أيضاً الاعتذاريين.

^٨ - انظر مثلاً منيس عبد النور في كتابه شبهات وهمية حول الكتاب المقدس الذي يعتبر إنجيل المنصرين العرب.

وبالنظر إلى أصول شبهة المنصرين وعناصرها، فإنه من الممكن أن نلاحظ أنها مبنية على عدة دعاوى تحتاج كل واحدة منها إلى دراسة، وتحليل، وتفنيد وهي:

محمد صلى الله عليه وسلم كان يقرأ، بل هو صاحب مطالعات دينية جمة!
محمد صلى الله عليه وسلم كان مطلقاً على الأسفار المقدسة لأهل الكتاب، من يهود ونصارى!
محمد صلى الله عليه وسلم كان مطلقاً على الكتب المقدسة الأبوكريفية^(١) التي لا تعترف بها الفرق اليهودية والنصرانية الكبرى، وكان عميق المعرفة بالكتب الدينية التي هي أدنى في قداستها من الكتاب المقدس مع حجيتها عند أهلها!

كانت بلاد العرب تعيش ثقافة كتابية مزدهرة!
استفاد محمد صلى الله عليه وسلم من رؤوس الطوائف الدينية في زمانه، أخذاً عنهم الكثير من المعارف الدينية الدقيقة!

عكف محمد صلى الله عليه وسلم على مراجعة أسفار أهل الكتاب؛ بحذف أخطائها، وجبر نقصها!
كان محمد صلى الله عليه وسلم مع ذلك حريصاً على مراعاة الإعجاز في النظم القرآني!
كان محمد يتحدى بهذه المعارف الشخصية، العرب الوثنيين وأهل الكتاب على السواء!
كان محمد صلى الله عليه وسلم يرد من كيس ثقافته الخاصة على أسئلة أهل الكتاب واختباراتهم، باقتدار وإتقان!
هذه الادعاءات لم يملك المستشرقون والمنصرون لإثباتها دليلاً صحيحاً واحداً، وإن كانوا قد بنوا عليها مزاعم طويلة عريضة منتفشة، ومع ذلك فإننا سنناقشها^(٢).

استدلوا على تشابه القرآن بالكتاب المقدس ببعض الآيات التي تذكر كلمات ورد ذكرها في هذه الكتب، وأكثر هذه الآيات من سور: الرحمن والنحل والنور وإبراهيم والجنات، كما استدلوا ببعض الكلمات التي ذكرت في القرآن، ويزعمون أنها من الكتب المقدسة عندهم، ومن هذه الكلمات: فرقان، أمر، أمانة، بركة، تبارك، بهيمة، مثاني، خلاق، سكين، قيوم، كفارة، ماعون، منهاج، جبار، سورة، قدوس... إلخ. فمثل هذه الآيات والكلمات دليل في زعمهم على أن القرآن ليس من عند الله، بل هو مأخوذ أو منحول من الكتب السابقة عليه.

وإن القرآن ترجم عن التوراة بدليل قوله {ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة} (هود: ١٧). ويتساءلون: ما الجديد الذي أتى به محمد ما دام قد أخذ القرآن وأصول دينه وأخبار الأنبياء عن "بحيرا الراهب" عندما لقيه بالشام، وعن ورقة بن نوفل، وعن الغلام الرومي الأعجمي الذي كان يعمل حدادا في مكة المكرمة؟؟!

مع العلم إنه لا يوجد أدنى شبه بين معنى الكلمات في القرآن الكريم ومعناها في نصوص التوراة والإنجيل، أو اللغات التي ترجمت هذه الكتب، أضف إلى ذلك أن النبي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب باعتراف أكثرهم، فكيف يترجم هذه الآيات وتلك الكلمات؟! وإذا سلمنا جدلاً أن القرآن ترجم عن التوراة، فعن أي تورا ترجم، الصحيحة أم المحرفة؟ وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا لم يؤمنوا به؟! ولماذا لم يترجمه أحد أحبارهم أو رهبانهم، بل ترجمه رجل أمي كمحمد!! والآية التي يستدلون بها ليست دليلاً على أن القرآن مترجم عن التوراة، ولكنها تثبت أن الإمامة انتقلت إلى القرآن بعد نزوله لشموله كل ما سبقه من كتب وعموم رسالته.

^١ - أبوكريفية، أي مخفية، اصطلاحاً: النصوص والأسفار المرفوضة من طرف الفرق النصرانية (الأرثوذكسية): (الأبوكريفيا النصرانية)، أو اليهودية: (الأبوكريفيا اليهودية).

^٢ - د. سامي العامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحت عنوان جانبي (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم). ص ٤٧ - ٤٨،

ومن الثابت تاريخيا أن النبي لم يسافر إلى الشام إلا مرتين في حياته: مرة بصحبة عمه أبي طالب، والأخرى بصحبة ميسرة غلام خديجة، وهذا يؤكد أنه يستحيل عقلا أن ينتج عن هذين اللقاءين العابرين بين النبي وبحيرا كل هذا الفيض المعجز البليغ في هذا الوقت المحدود، وإذا كان بحيرا هو مصدر القرآن فلماذا لم ينسبه لنفسه، وترك هذا الفضل العظيم لغيره؟ لقد سلمنا يقينا بأن القرآن بليغ معجز، فهل يعقل أن يكون مصدره هذا الحداد الرومي الذي كان منهكا بين مطرقة وسندانه طوال يومه؟! ولم يثبت عن النبي أنه كان يتردد على ورقة بن نوفل، إذ الثابت تاريخيا أنه لم يقابله إلا مرة واحدة، وذلك عندما نزل عليه الوحي أول مرة، وتمنى أن يكون فتيا يدافع عن الإسلام والنبي فكيف يتهمونه بالأخذ عنه!!

٢- منهج أهل الكتاب في إلقاء الشبهات عن الإسلام

الأساليب والمسالك الأربعة المتبعة في إثارة الأباطيل حول القرآن (١)

١- الكذب والتلاعب في النصوص لإختراع الشبهة:

وهو مسلك درج في ظلماته مثيرو الشبهات والأباطيل حول القرآن الكريم حين أعيتهم الحيل أن يجدوا في القرآن مطعنا، فلما علموا أن الكذب بضاعة ينطلي باطلها على الكثيرين من الدهماء والعامه الذين لن يتيسر لهم اكتشاف هذه الأكاذيب؛ أشرعوا فيه سفنهم، فما زالوا يكذبون، حتى إخالهم لكثرت صدقوا أنفسهم فيما يدعون. وصور كذبهم كثيرة، أكتفي بالتمثيل لها مبتدئا بما قاله وهيب خليل في سياق حديثه عن معجزات المسيح المذكورة في القرآن: "وإن كان بعض المفسرين يحاولون أن يقللوا من شأن السيد المسيح في المقدرة قائلين: إنه يصنع هذا بأمر الله، فنجد أن الإسلام يشهد أن هذه المقدرة هي لله فقط"^(٢). ومن المعلوم عند كل مسلم أو غيره مطلع على القرآن الكريم أن الذي أحال معجزات المسيح إلى قدرة الله وإذنه هو القرآن الكريم، وليس مفسروه {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني} (المائدة: ١١٠) .

ومن الكذب زعم مؤلفي كتاب شهير؛ اختص بإثارة الأكاذيب على القرآن "التعليقات على القرآن" أن حفاظ القرآن الأربعة ماتوا قبل جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد .. فإن هؤلاء الأربعة ماتوا قبل جمع القرآن .. ولما رأى أبو بكر هذا الحال جزع من ضياع القرآن"^(٣) وقولهم هذا كذب صراح ولا ريب، لأن هؤلاء الأربعة أدركوا جميعا عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، أي أدركوا جمع أبي بكر فأبو الدرداء ولي قضاء دمشق في عهد عمر، ومات قبل موت عثمان بسنتين. ومعاذ بن جبل مات في خلافة عمر في طاعون عمواس سنة ١٧هـ. وأما ثالثهم زيد بن ثابت فهو من جمع القرآن في عهد الصديق ثم عثمان، ومات سنة ٤٥ هـ، أي في زمن معاوية رضي الله عن الجميع. ورابعهم أبو زيد سعد بن عبيد الأنصاري، وقد قتل يوم القادسية في زمن الخليفة عمر بن الخطاب .

ومن صور الكذب أيضا طعن القس العربي الفلسطيني أنيس شروش في عربية القرآن أمام جمهور من الأعاجم الذين لا يعرفون العربية، بقوله: "لكن محمدا استعمل كثيرا من الكلمات والجميل الأجنبية في القرآن ... في كتاب ادعى أن الله أوحاه بالعربية"^(٤)، ومن المؤكد أن القارئ العربي يعرف أنه لا يوجد في القرآن جملة واحدة غير عربية، فقد نزل

١- عن كتاب تنبيه القرآن عن دعاوى المبطلين، د. منقذ السقار ص ١١-٢٢، مرجع سابق

٢- استحالة تحريف الكتاب المقدس، وهيب خليل، ص (١٣٣)، والقس وهيب خليل هو الاسم الحقيقي للقمص مرقس عزيز الذي يجد حاليا في الطعن بالإسلام والكذب عليه في قناته الفضائية.

٣- تعليقات على القرآن، ص (٢٩). نقلا عن كتاب منقذ السقار تنبيه القرآن ص ١٢، مرجع سابق

٤- مناظرة: القرآن الكريم والكتاب المقدس. أيهما كلام الله؟ أحمد ديدات وأنيس شروش، ص (١١٥ - ١١٦).

بلسان عربي مبين، لكن الدكتور شروش يهذي بهذا أمام أعاجم، ولا يستحي من الكذب عليهم. ولما أراد القبطي الأرثوذكسي ثروت سعيد تركية المسيحيين واعتبارهم مؤمنين بشهادة القرآن الكريم قال في كتابه "حقيقة التجسد"، الذي قدمه وراجع له كل من الأنبا الكاثوليكي يؤانس زكريا والقس البرتستنتي الدكتور منيس عبد النور: "إذا كان اعتقاد القرآن بشرك النصارى؛ فلماذا يصرح في آياته بحلال الزواج من أهل الكتاب .. كما أن نبي الإسلام تزوج من اليهوديات والمسيحيات، وهن: مريم القبطية، وأنجب منها إبراهيم (المسيحية)، وريحانة بنت شعون النضيرية (اليهودية)، وصفية بنت حبي بن أخطب القريظية (اليهودية)، وجويرية بنت الحارث المصطلقية (اليهودية) (١).

وقوله بزواج النبي ﷺ من يهوديات ومسيحية كذب صراح، وإنما تزوجهن رسول الله ﷺ بعد دخولهن في الإسلام . ويكفي في بيانه أن ننقل بعضا من الحوار الذي جرى بين النبي ﷺ وصفية حين أراد الزواج بها، فقد قال لها: «اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقني بقومك». فقالت صفية: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي (٢). فتزوجها رسول الله وهي مسلمة.

وأما ريحانة فتكذب دعوى المبطلين، وتذكر أن رسول الله ﷺ تزوجها بعد أن أسلمت، وتقول: إني اختار الله ورسوله، فلما أسلمت أعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني، وأصدقني اثنتي عشرة أوقية (٣). ويواصل ثروت سعيد الكذب فيزعم أن قوله تعالى: {وإن منكم إلا وادها} (مريم: ٧١) ينبئ بدخول النار والإحراق فيها لكل بني آدم، وينقل عن "جلال الدين يفسر كلمة {وادها} بالدخول والاحتراق" (٤)، وقد كذب في نسبة الإحراق إلى السيوطي، فهو غير موجود في شيء من كتبه.

ثم يمضي المبطل فيستشهد لكذبه وباطله بقول النبي ﷺ: «الورود الدخول، ولا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها»، والحديث الذي يستشهد به ضعيف لا يصح نسبته إلى النبي ﷺ وهو أمر قد يجمله فيعفى عنه في ذلك، لكن شيئا لن يبرر نقله من الحديث ما يروق له، وإعراضه عن تمامه، لمناقضته قوله ودحضه كذبه، فالحديث بتمامه: «الورود الدخول، ولا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار أو قال: لجهنم ضحيجا من بردهم {ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا} (مريم: ٧٢) (٥)، فخاتمة الحديث تثبت نجاة المؤمنين من الإحراق، لكن الكذب والتدليس حيلة من لا حيلة عنده.

ومن ذلك ما قاله صاحب كتاب "الحق" حين زعم أن رسول الله ﷺ لما مات انتظر المسلمون قيامه كما قام المسيح، فلما لم يقم ارتد المسلمون عن الإسلام، ومن المعلوم أن القرآن صرح بمثلية رسول الله ﷺ لسائر البشر في خاصية الموت، وقد صرح القرآن بموته، ولم يرد شيء فيه أو عن رسولنا يفيد قيامته ﷺ من الموت، وقد روي عن عمر أنه قال مثل هذا القول لحظة ذهوله عند فاجعته برسول الله ﷺ وسرعان ما أفاق منه، وأما حركة الردة فقد بدأت إبان حياته ﷺ بظهور الأسود العنسي، وفشت بعد وفاته، ولم يكن من دواعيها مثل هذا القول الذي ذكره النصراني،

٢. تحريف معاني النصوص وتفسيرها بمعان مشككة:

١ - حقيقة التجسد، ثروت سعيد رزق الله، ص (١٩٢ - ١٩٣). عن تنزيه القرآن للسقار ص ١٣
٢ - أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٢٣/٨). الناشر: دار صادر بيروت، تحقيق احسان عباس، ط ١/ ١٩٦٨
٣ - أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٣٠/٨). الناشر: دار صادر بيروت، تحقيق احسان عباس، ط ١/ ١٩٦٨
٤ - حقيقة التجسد، ثروت سعيد رزق الله، (٣٥). عن السقار مرجع سابق .
٥ - أخرجه أحمد في المسند ح (١٤٥٦٠)، والحاكم في المستدرک (٦٣٠/٤)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح (٤٧٦١).

يلجأ الطاعنون في القرآن إلى تحريف ألفاظ النصوص الإسلامية وتفسيرها بمعان مشككة لا يوافق عليها عالم من علماء المسلمين، ومن ذلك قول البابا شنودة: "ولم يقتصر القرآن على الأمر بحسن مجادلة أهل الكتاب، بل أكثر من هذا، وضع القرآن النصارى في مركز الإفتاء في الدين، فقال: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك} (يونس: ٩٤)، وقال أيضا: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} (النحل: ٤٣) ^(١). ومثله في تحريف معاني النص القرآني قول مؤلفي كتاب "تعليقات على القرآن" في تعليقهم على قوله تعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} (الأنعام: ٣٨): "ولا شك أن القرآن لا يشمل على أكثر العلوم من المسائل الأصولية والطبيعية والرياضية والطبية، ولا على الحوادث اليومية، بل ولا على ذات قصص الأنبياء؛ فإذا لا يكون كلامه هذا مطابقا للواقع" ^(٢)، فقد جهلوا أو تجاهلوا أن آية سورة الأنعام لا تتعلق بالقرآن، بل باللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء، قال الطبري: "قال الرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض، والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء؛ أخرى أن لا يضيع أعمالكم، ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تبحثونها" ^(٣).

والآية بمنطوقها واضحة في الدلالة على هذا المعنى الذي ذكره الطبري: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون} [الأنعام: ٣٨]، ومثلها قول الله: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين} [هود: ٦]، فالكتاب الذي حوى مقادير الخلائق وأرزاقها هو اللوح المحفوظ؛ لا القرآن الكريم.

ثم لو فرضنا أن القرآن هو مقصود قوله تعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} فإن هذا العموم يفهم منه العقلاء معنى مخصوصا يفهم من السياق، إذ من السخف بل والخل أن يظن ظان أن النبي ﷺ حين قرأ هذه الآية قصد أن القرآن يحوي أسماء رجال قريش أو أطعمة فارس أو أسماء البهائم التي خلقها الله، فهذا لا يخطر ببال عاقل ولو كفر بالقرآن وجحدته، لأنه سيحمل العموم في قوله {من شيء} على المعنى المخصوص اللائق به ككتاب ديني، أي ما فرطنا في الكتاب من شيء يصلح حياة الإنسان في دنياه وأخراه، فالقرآن حوى كل ما تحتاجه البشرية مما تختص بذكره النبوات ^(٤).

ومن صور التحريف للمعاني ما صنعه القس أنيس شروش مع مستمعيه الإنجليز بقوله: "أنتم معشر المسلمين تعتقدون أن المسيح ما زال على قيد الحياة .. لكننا إذا قارنا هذا بما جاء في القرآن؛ فإننا سنجد تناقضا، فإن القرآن يقول: {والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا} (مریم: ٣٣) "قرأها بالعربية صحيحة، ثم ترجمها لمستمعيه: "وسلام علي يوم ولدت، ويوم مت، ويوم أبعث حيا" ^(٥)، فحول الأفعال المضارعة التي يراد منها المستقبل إلى أفعال ماضية؛ مستغلا جهل مستمعيه بلغة العرب، ومن تحريف المعاني زعم القمص زكريا بطرس في برنامجه في قناة الحياة أن في القرآن كلمة يستحي القمص من قولها أمام المشاهدين، وهي كلمة (النكاح) التي يفهمها - عقله الكليل - بمعنى الجماع (ويأتي جواب هذه الأبطولة في الردود).

١ - بين القرآن والمسيحية، البابا شنودة، ص (٤)، وسيأتي دفع هذه الأبطولة . عن السقار ص ١٤ .

٢ - تعليقات على القرآن، ص (٢٠) عن تنزيه القرآن للسقار ص ١٥ .

٣ - جامع البيان (١١/ ٣٤٥)، الناشر مؤسسة الرسالة بتحقيق أحمد شاكر، ط ١/ ٢٠٠٠.

٤ - وأمثال هذا العموم - الذي يراد به خصوص يفهمه العقلاء - كثير في القرآن وفي كلام العرب وحديث العقلاء، كقوله تعالى عن ملكة سبأ: {وأوتيت من كل شيء} (النمل: ٢٣)، فلم يفهم منه سليمان عليه السلام - ولا العقلاء من بعده - أن ملكة سبأ أوتيت الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية، بل معناه عند جميع العقلاء أنها أوتيت من كل شيء يؤتاها الملوك عادة، ومثله أيضا في كلام الناس اليوم كثير، كقول الأستاذ: لم ينجح أحد من الطلاب، ومقصوده الحديث عن طلاب مادته أو فصله أو مدرسته فحسب، فهو عموم يراد به معنى مخصوص. تنزيه القرآن ص ١٦ .

٥ - القرآن والكريم والكتاب المقدس. أيهما كلمة الله؟ أحمد ديدات، ص (٤٥) بدون بيانات .

٣. بتر النصوص وإخراجها عن مساقها:

ويعمد مثيرو الأباطيل وهم يستشهدون بالمصادر الإسلامية إلى بتر النصوص واجتزائها، فيختارون من النص ما يعجبهم، ويدعون ما لا يوافق هواهم وباطلهم، ومن ذلك ما صنعه القمص زكريا بطرس وهو يستدل لعقيدة التثليث بقوله تعالى: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} (النساء: ١٧١)، فقد تعامى عن أول الآية وتاممها؛ لما فيهما من تنديد بالتثليث ووعيد لأهله {ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً} (النساء: ١٧١ - ١٧٢).

وهذا البتر للنصوص عادة للقمص زكريا بطرس لا يمل من معاودتها في برامج الفضائية، فحين أراد الاستدلال على صحة كتابه المقدس زعم أن القرآن لا يقول بالتحريف اللفظي للتوراة والإنجيل، بل يقول بوقوع التحريف المعنوي فقط، واستدل لذلك بما جاء في تفسير البيضاوي بعد اجتزاء كلام البيضاوي وبتره، فيقول القمص: يقول البيضاوي: " {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم} يعني اليهود، {وقد كان فريق منهم} طائفة من أسلافهم {يسمعون كلام الله} يعني التوراة، {ثم يحرفونه} أي تأويله فيفسرونه بما يشتهون"، ثم عقب على كلام البيضاوي بالقول: (مش [لم] يغيروا الألفاظ والكلام). وقد تعمد القمص بتر كلام البيضاوي الذي تحدث عن نوعين من التحريف: أولهما تحريف الألفاظ، والآخر تحريف المعاني الذي ذكره القمص، وعبارة البيضاوي بتمامها: " {ثم يحرفونه} كنعت محمد ﷺ، وآية الرجم. أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون^(١)، فحذف من عبارة البيضاوي قوله: "كنعت محمد ﷺ وآية الرجم" لما فيها من إشارة إلى تحريف الألفاظ.

وأعاد القمص هذا الصنيع ثانية، وهو ينقل قول البيضاوي في تفسير قول الله تعالى: {من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه}، فنقل عن البيضاوي أنه قال بالتحريف المعنوي دون اللفظي، فقال: قال البيضاوي: " {يحرفون الكلم} أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها؛ أي يؤولونه على ما يشتهون، فيميلونه عما أنزل الله فيه". وقد بتر منه ما يخالف مقصده ويفند استدلاله، فعبارة البيضاوي بتمامها: " {يحرفون الكلم} أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها؛ بإزالته عنها وإثبات غيره فيها. أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه".^(٢) ومن صور البتر والتحريف ما رأيته عند عدد من كتاب النصارى وقسسهم^(٣)، فقد زعموا أن الرازي كان يستشكل القول بنجاة المسيح من الصلب ووقوع الشبه على غيره، ونقلوا عنه قوله: "بالجملة فكيفما كان، ففي إلقاء شبهه على الغير إشكالات: الإشكال الأول: إنا لو جوزنا إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر لزم السفسطة .."، ثم يسوقون كلاماً طويلاً للرازي ملخصه أن القول بصلب غير المسيح بدلا عنه فيه ست إشكالات، نقل هذه الإشكالات عنه ثروت سعيد، وعقب عليها بالقول: "انتهى للإمام فخر الدين الرازي، ولا تعليق"، وهو يوهم قراءه أن هذه الإشكالات يستشكلها الرازي، فيقول: "ولهذا لم يكن بد لعالم نزيه كالإمام العلامة فخر الدين الرازي أن يفند قصة الشبه تفنيدياً محكما".^(٤)

١ - أنوار التنزيل، البيضاوي (٨٩/١). الناشر: دار احياء التراث العربي بيروت، تحقيق محمد المرعشلي، ط ١/١٤١٨

٢ - المصدر السابق (٧٧/٢). مرجع سابق

٣ - انظر: حقيقة التجسد، ثروت سعيد، ص (٣٢٥)، وقد صنعه القس أسعد وهبة في مناظرته لي حول مسألة "صلب المسيح في العهد الجديد"، وهي منشورة على الشبكة العنكبوتية.

٤ - حقيقة التجسد، ثروت سعيد، ص (٣٢٤ - ٣٢٦). عن تنزيه القرآن للسقار ص ١٩

والحق أن الرازي رحمه الله ذكر الإشكالات الستة التي يستشكلها النصارى وغيرهم على قول القرآن بنجاة المسيح، ثم لما انتهى من سردها شرع في الرد عليها جميعاً، فقال: " فهذا جملة ما في الموضوع من السؤالات: والجواب عن الأول ... والجواب عن الثاني ... "

وبعد أن رد عليها واحداً واحداً؛ ختم بنتيجة شافية كافية فقال: " وبالجملة فالأسئلة التي ذكرها أمور تتطرق الاحتمالات إليها من بعض الوجوه، ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد في كل ما أخبر عنه؛ امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع" ^(١)، فتعاضى ثروت سعيد وغيره من المبطلين عن إتمام قول الرازي، ووقعوا في التدليس المشين حين نسبوا إليه قول النصارى الذي كان يرد عليه.

٤. محاكمة القرآن إلى مصادر ومعلومات غير موثوقة:

ويلجأ الطاعنون في القرآن من النصارى في إلقاء شبهاتهم إلى محاكمة القرآن إلى مصادر مرفوضة ومطعون في موثوقيتها كالكتاب المقدس الذي يرى المسلمون والمحققون من أهل الكتاب أنه أسفار تاريخية كتبها مجهولون، ونسبت إلى الأنبياء بلا سند يوثقها، وعليه فهذه الكتب مجروح في شهادتها، ولا اعتداد ولا موثوقية في أخبارها، التي يحاكم الطاعنون القرآن بموجبها، فيعرضونها وكأنها مستندات ووثائق تاريخية متفق على صحتها، ثم يخطئون القرآن حين يخالفها ويناقضها، أما إذا رأوه موافقا لها فإنهم لا يحجلون من الزعم بأنه نقل منها، فلا يسلم منهم القرآن حال الموافقة ولا المخالفة.

ومن ذلك تكذيبهم القرآن حين خالفهم في تسمية والد إبراهيم عليه السلام بـ "آزر" (الأنعام: ٧٤)، وحتجتهم أن التوراة سمته "تارح" التكوين (١١ / ٢٧).

وكذلك كذبوا القرآن الكريم حين تحدث عن كفالة زوجة فرعون لموسى (القصص: ٩)، لأن التوراة تقول: إن الذي كفله ابنة فرعون الخروج (٢ / ٥ - ٧).

وكذلك كذبوا أن يكون لون بقرة بني إسرائيل الصفار الفاقع (البقرة: ٦٩)، لأن التوراة تقول تجعلها حمراء اللون العدد (١٩ / ١ - ٤)، وكل هذه الأخبار التوراتية خاطئة، لا اعتداد بها، وهي أضعف من أن تكون حجة على إخباري أو مؤرخ؛ فضلاً عن القرآن العظيم.

كما يولع الطاعنون في القرآن بالغرائب الموجودة في كتب بعض المفسرين، وهي في جملتها منقولة من مرويات وأخبار أهل الكتاب، فيخلطون بينها وبين القرآن، ويجعلون معانيها المنكرة حجة عليه، وفي هذا محافة للموضوعية؛ فإن كتب الرجال يحتج لها بالقرآن، ولا يحتج بها عليه، ولعل من أهم صور ذلك قصة الغرائق التي أطبق على ذكرها الطاعنون في القرآن، وقد بين علماء الإسلام بطلانها؛ وإن أوردوها مفسرون ومؤرخون وصفهم القاضي عياض بأنهم "المولعون بكل غريب، المتلقون من الصحف كل صحيح وسقيم" ^(٢)، فلولعهم بذكر الغرائب أثقلت مؤلفاتهم العظيمة بالإسرائيليات وسخيف مقولات الأمم التي تروي ما ترويه بلا زمام ولا قيد؛ فنقل الطاعنون هذه المرويات، ولبسوا على عوام المسلمين حين أوهموهم بصحة هذه الأقوال المنقولة في بعض كتب التفسير، ولا ينسى الخبثاء في مثل هذه الحال ذكر أرقام الصفحات التي نقلوا عنها؛ يرومون بذكر هذه التفاصيل مزيداً من الخداع لعوام المسلمين لإيهامهم بصحة ووثاقة المعاني المستقبحة الموجودة في تلك الروايات التي نقلها المسلمون الأقدمون في كتبهم عملاً بالقاعدة المشهورة عندهم "من أسند لك فقد أحالك".

^١ - التفسير الكبير، الرازي (٨ / ٢٤٠)، الناشر: دار احياء التراث العربي بيروت، ط ٣ / ١٤٢٠.

^٢ - الشفا (٢ / ٢٩٠)، الناشر: دار الفحاء عمان، ط ٢ / ١٤٠٧، وسيأتي بيان هذه الأبطولة.

ومن ذلك ما نقله الطاعنون عن بعض كتب التفسير لقوله تعالى: {وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب} (ص: ٢١)، فقد أوردوا قصة مزعومة باطلة، وملخصها أن داود عليه السلام رأى امرأة جاره تستحم، فأولع بها، فأرسل زوجها للقتل في الحرب، ثم تزوجها، وأن الله عاتبه على فعله، فبكى أربعين يوماً حتى نبت العشب من دموع عينيه^(١)، فهذه القصة الخرافية المستنكرة في معانيها منحولة في أصلها من أسفار التوراة صموئيل (٢) (١١ / ١ - ٢٦)، ولم ترد في كتب المسلمين مرفوعة إلى النبي ﷺ بإسناد صحيح أو ضعيف.

ومثله استشهاد الطاعنين في القرآن بما روي عن بعض السلف أنهم قالوا في تفسير قوله تعالى: {ق والقرآن المجيد} (ق: ١ - ٢): "ق، جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف"، وعقب ابن كثير على هذا القول الغريب: "وكأن هذا من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم"^(٢) ومثله الاستشهاد بما ذكره المفسرون في تفسير قول الله: {ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب} (ص: ٣٤)، فذكروا قصة عجيبة، ملخصها أن شيطانا ألقى عليه شبه سليمان، فكان يأتي نساءه^(٣).

قال أبو حيان الأندلسي: "نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وإنما هي من أوضاع اليهود والزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، وأقرب ما قيل فيه: إن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، وجاءته بشق رجل»^(٤). فهذه المنقولات وأمثالها في كتب التفسير، والكثير منها لا ينسب إلى النبي ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف، ولا يحل أن تعتبر تفسيراً لآيات القرآن، فإن فيها ما يصد عن القرآن، ويفسح المجال لأصحاب الأباطيل للطعن في القرآن الكريم والتلبيس على الناس بهذه المرويات الفاسدة.

^١ - انظر: جامع البيان، الطبري (٢١ / ١٨٤). مرجع سابق.

^٢ - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣٩٤ / ٧). الناشر: دار طيبة للنشر ط ١٩٩٩/٢، تحقيق سامي سلامة.

^٣ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥ / ٢٠٠). الناشر: دار الكتب المصرية القاهرة، ط ١٩٦٤/٢، تحقيق أحمد البردوني.

^٤ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٩ / ١٥٥)، دار الفكر بيروت، والحديث مروي في الصحيحين، أخرجه البخاري ح (٣٤٢٤)، ومسلم ح (١٦٥٤) ..

الفصل الأول: نقد عام لجدل أهل الكتاب في القرآن.

١. تمهيد

كم كان عميقا ومؤثرا الدكتور عبد الرحمن بدوي في قوله: " ولكي نفترض صحة هذا الزعم، فلا بد أن محمداً كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود، والأنجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات، وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين، وكتب مختلف الكنائس والمذاهب المسيحية".^(١) !!

فكما أن مشركي مكة من قريش أعيانهم زمن النبي ﷺ أن يأتوا بمثل علوم القرآن وأخباره وفصاحته، فاتحموا النبي باقتباسها من أساطير الأولين { وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً } (الفرقان: ٥)، وقالوا: تعلم القرآن من غلام نصراني رومي اسمه جبر، وكان غلاما لعامر بن الحضرمي، وكان يعمل حدادا بمكة، وردّ عليهم القرآن فريتهم بما أسكتهم ودحض باطلهم: { لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين } (النحل: ١٠٣). فقد تجددت تلك الدعوى القديمة في تحديد أسماء المصادر المزعومة للنبي، فقريش اتهمته بالتعلم من حداد رومي بينما الطاعنون اليوم زعموا أن النبي ﷺ تعلم القرآن من الراهب النسطوري النصراني بحيرا حين لقيه في بصرى الشام عندما زارها غلاما مع عمه أبي طالب، كما زعموا تعلمه من ورقة بن نوفل الأسدي القرشي، ابن عم أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وهو راهب متنصر، وهذان [بحيرا وورقة] لم يخطرا في بال قريش ولا يهود المدينة اسم واحد منهم في طعنهم في نبوة النبي ﷺ وإلهية كتابه، ولأن هذه المزاعم التنصيرية تستمد أصولها من مزاعم مشركي مكة حول أصالة القرآن الكريم كما اتضح ذلك من خلال رصد خصائص الجدل التنصيري في مرحلة بداياته المشرقية، فإن القرآن الكريم نفسه قد تصدى لهذه المزاعم مُفَنِّدًا إياها من طرق عدة^(٢)

إن مجادلي التنصير ألبسوا مزاعمهم ثوب المنهجية العلمية وبثوها للجالسين تحت أقدامهم من المخبرين الثقافيين عبر بوابات العلم ومداخله، لذلك فإن المنهج المقارن إلى جانب منهج النقد التاريخي ومنهج نقد النصوص وبحوث تاريخ الأديان هي الأبرز شأنًا في مناقشة مزاعمهم، ولهذا المناهج القدرة على إثبات أصالة الحقيقة التاريخية لتلقي النبي محمد ﷺ الوحي من ربه، عبر البحوث التاريخية ونتائج بحوث تاريخ الأديان ومقارنة النصوص ونقدها.

ابتداءً لا شك أن العلاقة بين الإسلام واليهودية والنصرانية لا ينكرها القرآن إذ يقول: { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين } (الشورى: ١٣) وكذلك يثبت القرآن العلاقة بينه وبين الكتب السابقة فيقول: { وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب } (يونس: ٣٧) بين يديه أي سابقه وما أنزل قبله، ولكن نوع العلاقة بينهما كما يحددها القرآن هي هيمنة وتصديق: { وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه } (المائدة: ٤٨)، فهو مهيم على الكتب السابقة ويحدد لصحيفتها من سقيمها ومصحح لخطئها فالعلاقة هي كشف للمستور يقول: { قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب } (المائدة: ١٣)، فهو يفصل ويبين لهم في مواضع الخلاف والاختلاف بينهم: { إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون } (النمل: ٧٦) .

^١ - عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد متقديه، ت/كمال جاد الله، القاهرة: الدار العالمية للكتب والنشر، ١٩٩٩م، ص ٢٤

^٢ - راجع د. عبد المحسن عبد الراضي، العارة التنصيرية على أصالة القرآن ص ٥٧ - ٦٢ .

ومثل هذه العلاقة التغيرية التقابلية بين القرآن وكتب العهدين القديم والجديد علاقة المهيمن بالمهيمن عليه، المبين المفصل بالمستبين والمفصل له تتضمن اختلافًا بعيدا بين المؤثر القرآن والمتأثر العهدين، مما يجعل القول باقتباس القرآن من التوراة والإنجيل مناقضا لطبائع الأشياء ومنافيا لحقيقة الاختلاف والتباين البعيد بين القرآن وكتب العهدين، وهو ما نطق به المبشر الراهب دي مونت كروس " يا محمد أنا لا أصدق أنك تسلمت هذه الآراء من الله لأنك عجيب غريب في رسالتك لأنك لا تتفق مع أي كتاب مقدس آخر...! يجب أن ننبد ما ادعى محمد أنه تسلمه من الله، لأنه مناقض تماما للأحكام التي كتبها موسى والأنبياء والرسل بعده " ^(١) .

إن وحدة المصدر تستلزم وجود التشابه، والتشابه بينهما يكون بقدر ما يشتمل عليه الكتاب المقدس من حق وما بقي فيه من هدي الأنبياء {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط} (النساء : ١٦٣) لكن التشابه بين الكتابين ليس مطردا، فثمة فروق كبيرة بينهما سنعرض لبعضها بعد أن نبين أن الكثير مما يظنه البعض تشابها هو في حقيقته مشتمل على مفارقة كبرى تبطل زعم الزاعمين بالتشابه بين الكتابين.

فمثلا: لا تشابه ولا توافق بين ما جاء في الإنجيل وما جاء في القرآن عن المحرومين من دخول الجنة رغم ما قد يظن من تشابه السياقين، ففي الإنجيل أن المسيح قال لتلاميذه: "الحق أقول لكم: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غني إلى ملكوت الله" (متى ١٩ / ٢٣ - ٢٥) ، فهذا النص في تجريم الأغنياء وحرمانهم من الجنة؛ بينما القرآن ضرب هذا المثل في حديثه عن الكفار المكذبين المجرمين، لا الأغنياء {إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين} (الأعراف: ٤٠)، فالتشابه بين النصين ينطبق عليه تشبيه العلامة ديدات بالشبه بين الجبن والطباشير، وإن كنت لا أشك بتشابه القرآن مع ما أنزله الله على المسيح عليه الصلاة والسلام، مما أضاعوه وحرفوه.

ونود أن ننبه هنا إلى أن آيات القرآن بلغت ٦٢٣٦ آية، وأن التشابه بينها وبين النصوص الكتابية لا يزيد بحال من الأحوال عن مائة آية، ونعتقد جازمين أن هذه الكتب قبل تحريفها كان فيها من صور التشابه مع القرآن ما هو أكثر من ذلك بكثير، كما أنّ البون كبير بين موضوعات القرآن وموضوعات الكتاب المقدس، فالعهد القديم (التوراة) في حقيقته هو تاريخ بني إسرائيل وأنسابهم وأعدادهم وسير ملوكهم وأنبيائهم وقصص حروبهم، فهو في الجملة كسائر كتب التاريخ المعروفة، كالبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، ولا يستثنى من ذلك إلا سفران فقط (اللاويون والثنية)، فهما معنيان بالأحكام التشريعية.

وأما العهد الجديد (الإنجيل) فيتكون من أناجيل أربعة، تضمنت سيرة المسيح من الولادة إلى الصلب المزعوم، فهي أشبه ما تكون بسيرة النبي ﷺ التي يرويها ابن إسحاق أو تهذيبها لابن هشام، كما يتضمن العهد الجديد أيضا رسائل التلاميذ، وهي تحكي عن قصصهم ورحلاتهم وأعجوباتهم ووصاياهم الموجهة إلى أصدقائهم ومعارفهم لتوضيح بعض المفاهيم اللاهوتية أو لطلب بعض القضايا الشخصية.

أما القرآن الكريم فهو مختلف في تكوينه وموضوعه، فهو يحوي (شرح حقائق الإيمان - قصص السابقين - أحكام تشريعية - توجيهات للمجتمع المسلم - معالجة قضايا في العصر النبوي - وصف اليوم الآخر وما يتعلق به)، وينحصر المشترك بين موضوعات القرآن وموضوعات الكتاب المقدس في ثلاثة محاور:

(حقائق الإيمان - قصص السابقين - الأحكام التشريعية).

^١ - قاسم السامرائي ص ٦٢ .

لكن نظرة فاحصة ستكشف التباين الكبير بين حديث القرآن وحديث الكتاب المقدس في هذه الموضوعات الثلاثة، وهو ما نفضله بإذن الله في الفصل التالي^(١).

وكيف يقرأ محمد تلك الكتب ويطلع عليها وهو لا يعرف القراءة والكتابة، ولو عرفها لما خفي هذا على معاصريه، يقول المؤرخ الفرنسي سيديو: ^(٢) «كان محمد أمياً كأبناء بلده، فكان لا يستطيع حتى القراءة». ويقول المستشرق الفرنسي الكونت هنري دي كاستري: «كان محمد لا يقرأ ولا يكتب؛ بل كان كما وصف نفسه نبياً أمياً، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه، ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلوم بحيث لا يعلم الناس، لأن حياة الشرقيين ظاهرة للعيان.. ثبت إذاً مما تقدم؛ أن محمداً لم يقرأ كتاباً مقدساً، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه»^(٣). ويقول المستشرق الإنكليزي (بالمر) في مقدمته لترجمته للقرآن الكريم إلى اللغة الإنكليزية: «وإني لا أبالغ إذا قلت: إن شريعة محمد تحمل إلى الناس تعاليم ونظماً وقوانين ليست في غيرها مما سبق عليها».

أما احتواء القرآن على بعض التعاليم اليهودية والنصرانية، ودفاعه عن هاتين الديانتين في مواطن كثيرة كما يقول بعض المتهمين؟ لأن الإسلام الذي جاء به محمد هو دين الله الذي جاء به جميع الأنبياء قبل محمد بمن فيهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، تقول الآية الكريمة: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} (الشورى: ١٣). فهو لم يأت بدين جديد، وأن ما جاء به لا يتناقض أبداً مع ما جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بل هو يدعمه ويشهد له. وإن الإله الذي عبده محمد ودعا الناس إلى عبادته؛ هو الإله ذاته الذي عبده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ودعوا الناس إلى عبادته، ولهذا تجد في القرآن الكريم ذكراً طيباً لجميع أنبياء الله منذ آدم وحتى محمد بن عبد الله عليهم السلام، وتجد فيه إشارات لبعض ما جاؤوا به، وبخاصة أساس دعوة دين الله على مر العصور والأزمان؛ وهو التوحيد: أن لا إله في السموات والأرض إلا الله سبحانه، وعلى هذا اتفقت دعوة جميع الأنبياء والرسل.

وفي هذا يقول الكاتب الفرنسي (موريس بوكاي)^(٤): «أما الوحي القرآني الذي نزل عقب ستة قرون من المسيح، فقد احتفظ بالعديد من تعاليم التوراة والإنجيل اللذين أكثر من ذكرهما، بل وفرض على كل مسلم الإيمان بالكتب السابقة (سورة ٤ آية ١٣٦) كما أبرز المكانة المهمة التي شغلها في تاريخ الوحي رسل الله كنوح وإبراهيم وموسى؛ وعيسى الذي كان له من بينهم مقام مرموق؛ وقد أظهر القرآن ولادته كحدث معجز، كما كرم والدته مريم تكريماً خاصاً وأطلق اسمها على السورة رقم ١٩/. ولا مفر من الاعتراف بأن هذه التعاليم الإسلامية مجهولة على العموم في بلادنا الغربية، وقد يعجب البعض من هذا! ولكن سرعان ما يزول ذلك إذا ذكرنا الطريقة التي لُفّن بها العديد من الأجيال الغربية قضايا الإنسانية الدينية، والجهالة التي تُركوا فيها تجاه كل ما يخص الإسلام...».

قالوا إن كان الأنبياء قبل محمد قد جاؤوا بالإسلام دين الله، فما الحاجة إلى بعثة محمد؟ لقد تناسوا أن الناس حَرَفُوا الدين الذي جاء به الأنبياء وخرجوا به عن التوحيد الخالص إلى الشرك، فالعرب أتباع ملة إبراهيم حرفوا ما جاء به إبراهيم وصاروا يعبدون الأوثان والأصنام ويشركونها مع الله سبحانه، واليهودية والنصرانية حُرِفَتَا ودخل عليهما من الطقوس والعبادات والعقائد ما لم يأت به موسى ولا عيسى عليهما السلام. فكان لا بد من بعثة نبي يجدد دعوة الأنبياء قبله ويعيدها إلى مسارها الصحيح في الاعتقاد بوحداية الله سبحانه؛ الوحداية النقية الخالصة من كل شرك.

^١ - د. منقذ السقار، تنزيه القرآن عن دعاوى الميظلين، ص ٦٥-٦٧.

^٢ - في كتابه (تاريخ العرب العام) ص ٥٩ ترجمة عادل زعيتر - ط. الباني الحلبي

^٣ - في كتابه (الإسلام - المسمى في الترجمة العربية: خواطر وسوانح) ص ١٥٢ ترجمة فتحي زغلول ط. مصر.

^٤ - في كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) ص ٧. طبعة دار الكندي ١٩٧٨ بيروت.

ولهذا بُعث نبي المسلمين خاتم الأنبياء. يقول المفكران (هنري توماس و دانلي توماس)^(١): «في القرن السابع الميلادي حين بدا على الدنيا أنها قد أُصيبَت بالجفاف، وحين فقدت اليهودية مولدها، واختلطت النصرانية بموروثات الأمم الرومانية والبربرية؛ ينبع في الشرق فجأة ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم».

يقول المستشرق الأمريكي (سنكس): «إن محمداً لم يأت لمكافحة التوراة والإنجيل، بل إنه كان يقول: إن هذين قد أنزلا من السماء لهداية الناس إلى الحق مثل القرآن، وإن تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما، ولكنه لم يأخذ منهما.. وقد رفض محمد نبي الإسلام جميع الرموز والأساطير، ودعا إلى عبادة إله واحد قادر رحمان رحيم كما يصفه القرآن في كل سورة من سوره»^(٢).

وتقول المستشرقة والأستاذة الجامعية د. لورافيشيا فاغليري^(٣): «دعا الرسول العربي عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية مخرفتين، إلى أصفى عقيدة توحيدية.. إذ كان واثقاً من أن كل عاقل لا بد أن يؤمن آخر الأمر بالإله الواحد، الواجب الوجود» وتقول: «هناك من يقول: إن الإسلام لم يقدم أيما عنصر جديد لتصوير العلاقة بين الإنسان والله. ولكن أية قيمة لمثل هذا النقد إذا عرفنا أن محمداً نفسه لم يزعم أنه جاء بأفكار جديدة، ولكنه أعلن في جلاء أن الله أرسله ليعيد ملّة إبراهيم التي حُرّفت من بعده إلى أصلها، وليؤكد ما كان الله قد أوحى به إلى أنبيائه السابقين مثل موسى ويسوع المسيح؟ لقد كان هو آخر الأنبياء حملة التشريع؛ ليس غير»، وتقول: «وبفضل الإسلام هُزمت الوثنية في مختلف أشكالها.. لقد أدرك الإنسان آخر الأمر مكانته الرفيعة.. لقد هوى الكهان وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون، وسامسة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان، والذين اعتقدوا بالتالي أن سلطتهم فوق إرادات الآخرين. نقول لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم. إن الإنسان أمسى عبداً لله وحده.. وأعلن الإسلام المساواة بين البشر».

هل يدّعي كذاب ملفق ويعلن للناس جميعاً أنه أعجز من أن يستطيع نفع نفسه أو الإضرار بها! وبالتالي فهو أعجز من أن يستطيع نفع غيره أو الإضرار به، يعلن للناس جميعاً أنه بشر مثل غيره من بني البشر لا يعلم الغيب، وأن ذلك كله مرده إلى الله سبحانه؛ مردداً الأمر الإلهي الذي أوحى إليه في القرآن الكريم: ﴿قُلْ لَا أَفْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨) هل هذا كلام مشعوذ ملفق؟ ولهذا قال المؤرخ ول ديورانت: «ولم يدّع النبي في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب». وقبل ديورانت قال الشاعر الفرنسي الشهير لامارتين في كتابه السفر إلى الشرق: «لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق»^(٤).

وقد أثبت البحث التفصيلي في القيم الأخلاقية السامية الواردة في الكتاب المقدس، أنها كلّها مثبتة في القرآن الكريم^(٥) غير أنّ هذا القرآن لا يكتفي بالموافقة والجمع، وإنما هو يجمع إلى الأخلاق المثبتة في أسفار الأولين، أنماطاً جديدة في السلوك والتعامل بما يوافق عالميّة هذا الدين وإحكام أحكامه التي لا سبيل لنسخها؛ إذ لا رسالة بعد رسالة محمد! كما جبر القرآن الكريم ما في أحكام التوراة من شدة وتضييق، وما في الكثير من أحكام الإنجيل من رخاوة

^١ - في كتابهما (القادة الدينيون) عن كتاب (محمد في الآداب العلمية المنصفة) ص ١١٠ محمد عثمان عثمان

^٢ - في كتابه (ديانة العرب) عن كتاب (محمد رسول الإسلام) لمحمد فهمي عبد الوهاب - ط. تونس ص ٤٣

^٣ - في كتابها (دفاع عن الإسلام) ص ٨٣، ٦٧، ٥٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ٤٣. تعريب ترجمة منير البعلبكي طبعة دار العلم للملايين ١٩٦٠ بيروت

^٤ - ول ديورانت في قصة الحضارة ٧ / ٤٣ و لامارتين في السفر إلى الشرق ص ٢٧٧ .

^٥ - انظر هذا التفصيل الشائق في: محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٩٣- ١٠٢ وهي رسالة دكتوراه له، استغرق المؤلف ست سنوات (١٩٤١ م - ١٩٤٧ م) في تحضير رسالتي الدكتوراه باللغة الفرنسية وهما (المدخل إلى القرآن) و (دستور الأخلاق في القرآن) . ونوقشت هذه الرسالة أمام لجنة من كبار المستشرقين ومنهم: ماسينيون - ليفي بروفنسال وغيرهما. وفتح المؤلف شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف العليا في ١٥ / ١٢ / ١٩٤٧ م.

وتحاون فكانت الخلاصة: أخلاقاً متقنة مصلحة لكل زمان ومكان. قال المستشرق هاملتون جب: (إن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينياً جديداً متميزاً... ومن هذه الوجهة يغدو التساؤل عن مصادر الدين الذي جاء به محمد أمراً غير وارد بالمرّة.)^(١)

أما نظريات بعض المستشرقين وأتباعهم الذين يقولون نقل محمد عن الكتاب المقدس فهل كان الكتاب المقدس مترجماً للعربية زمن النبي؟ وهل ثبت أن محمداً كان قارئاً؟ وهل قال عنه قومه أن يقرأ أو عرف بينهم بالقراءة والدراسة البحث؟ إن إثبات علم الرسول ﷺ بدقائق الأسفار المقدسة السابقة لا يستقيم إلا بإثبات ثقافة موسوعية للرسول في أسفار أهل الكتاب وعقائدهم وفرقهم ولغاتهم.. وقد صدق الدكتور عبد الرحمن بدوي في قوله: ولكي نفترض صحة هذا الزعم - نقل الرسول عن أهل الكتاب -، فلا بد أن محمداً كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود، والأنجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات، وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين، وكتب مختلف الكنائس - والمذاهب المسيحية. (٢)!!

وقد ثبت علمياً في الدراسات التاريخية أن العهد القديم والجديد لم يكن مترجماً إلى اللغة العربية قبل الإسلام، وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم وقد قرّر الناقد آرثور فووبوس^(٣) في بداية بحثه عن أقدم ترجمة عربية للعهد الجديد في كتابه الترجمات المبكرة للعهد الجديد أن المحاولة التي ادّعى من خلالها معرفة محمد ﷺ ببعض كتب العهد الجديد في اللغة العربية، وأنه استعمل هذه الكتب في تأليف القرآن، محتجين (بافتباس) (!) القرآن الكريم من إنجيل متى والمزامير والأسفار الخمسة، هو احتمال خاطئ وليس فيه تحقيق. ولا يفيدنا القرآن هنا، ولا بد أن يُترك خارج النقاش.^(٤) وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي، وكانت بأحرف عبرية^(٥).

شهد لغياب الترجمة العربية لهذه الأسفار، العديد من الأكاديميين المحققين، وأقرت بذلك الموسوعات المتخصصة التي لم تحمل همّ دعوى نقض أصالة القرآن الكريم، وذلك بعد أن ثبت بالاستقراء التاريخي غياب الترجمة العربية للكتاب المقدس زمن البعثة النبوية، ولعلّ أهم من كتب في موضوع تاريخ ترجمات الكتاب المقدس في لغات العالم، الباحثة بروس متزغر^(٦)، أستاذ لغة العهد الجديد وآدابه، في كتابه المرجعي The Bible in Translation المتعلق بصورة مباشرة بتاريخ ترجمات الكتاب المقدس؛ فقد قال في هذا الشأن: من الراجح أن أقدم التراجم (العربية) للكتاب المقدس تعود إلى القرن الثامن.^(٧) وكتب المستشرق المنصّر توماس باتريك هوغز في معجمه الذي خصّه للمصطلحات الإسلامية The Dictionary of Islam - نقلاً عن المستشرق ج. م. رودويل^(٨): لا توجد حجة على أن محمداً قد اطلع على الأسفار المسيحية المقدسة... لا بد أن يُعلم أنه لا توجد آثار واضحة على وجود ترجمة عربية للعهد القديم

^١ - هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ت/ إحسان عباس وآخرين. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤، ص ٢٥٤-٢٥٥
^٢ - عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ت/ كمال جاد الله، القاهرة: الدار العلمية للكتب والنشر، ١٩٩٩م، ص ٢٤، وانظر ((هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟)) للدكتور سامي العامري فإنه رائع ومميز في هذا المجال.

^٣ - آرثور فووبوس: أستاذ العهد الجديد والتاريخ المبكر للكنيسة في ((The Lutheran School of Theology at Chicago)). له عناية خاصة بالدراسات السنيانية والنصرانية المبكرة.

^٤ - Arthur Vööbus, Early Versions of the New Testament: Manuscript Studies, Stockholm: 1954, pp.274-275

^٥ - دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه، س. د. جوتين، نقلاً عن كتاب الوحي القرآني في المنظور الاستشرافي ونقده، لمحمد ماضي، ص: ١٤٨
^٦ - بروس متزغر (١٩١٤م-٢٠٠٧م): أحد أئمة دراسات النقد النصي للعهد الجديد. له مؤلفات متنوعة في موضوعات متعددة في الدراسات الأكاديمية المتعلقة بالعهد الجديد. شارك في إعداد أهم نص يوناني قياسي للعهد الجديد في القرن العشرين. كما شارك في تحرير العديد من الترجمات الإنجليزية للعهد الجديد والتعليق عليها. تعتبر مؤلفاته مراجع أساسية في الدراسات المتخصصة في الجامعات الغربية.

^٧ - Bruce Metzger, The Bible in Translation, Grand Rapids: Baker Academic, 2001, p. 46-

^٨ - جون مدوز رودويل (١٨٠٨م-١٩٠٠م): مستشرق إنجليزي.

والجديد سابقة لزمن محمد ... أقدم ترجمة عربية للعهد القديم بلغنا أمرها، هي ترجمة الحبر سعديا الفيومي^(١) واحتج بالاختلاف الثابت في الصياغة الأدبية بين الترجمات العربية المتأخرة لأسفار العهدين واختلافها أيضًا في رسم أسماء الأعلام؛ للقول إنَّها لا تعود لترجمة عربية قديمة سابقة للإسلام، وإنَّما هي ترجمات متأخرة عن ذلك، من أصول لغوية مختلفة السبعينية، والفولجات، وسريانية، وقبطية.^(٢)

وخلص الباحث الإنجليزي المصري ألبرت إستيرو^(٣) في خاتمة أطروحته للدكتوراه حول الترجمة العربية التي اعتمدها ابن قتيبة في اقتباساته من الكتاب المقدس: الاقتباسات الكتابية لعبد الله مسلم بن قتيبة ومصدرها: التحقيق في شأن أبكر الترجمات العربية للكتاب المقدس^(٤) إلى القول: ربَّما ظهرت الترجمات العربية للكتاب المقدس في الفترة الأخيرة من الحكم الأموي-في بداية القرن الثامن.^(٥)، ومما استدلل به لغياب ترجمة عربية قبل ظهور الإسلام؛ عدم حاجة يهود البلاد العربية لهذه الترجمة في لغة العرب؛ إذ دلَّت النقوش على استعمالهم للآرامية، أمَّا النصارى فيشهد عدم وجود مجتمع نصراني في الحجاز، واعتماد الليتورجيا على اللغات الأخرى، على أنَّه من غير المعقول أن يواكب ذلك وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس.^(٦)

ومن لطائف الاستدلال على أنه لم ينقل من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول أنه من الله تعالى من ناحية الارتجال، فنزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين، أو من كتب السابقين، فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يترث حتى يراجع الكتب التي عنده، وينظر ماذا تقول في هذه المسألة ثم يجيب، ولكن النبي لم يكن يفعل، بل يسأله الرجل فيعطيه الجواب الموافق للصواب، الذي لم يكن قرأه ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها^(٧).

ومن أوضح الأدلة على رد دعوى النقل من غيره التحدي أن يأتي بمثله، فلو كان القرآن مأخوذا من التوراة والإنجيل والكتب السابقة لما استطاع محمد أن يتحدى الناس ويقدم على هذا الخطأ الفادح؛ لأن هذه الأصول المنقول عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود، ألا يخشى أن يقوم بعض الناس بالرجوع إلى مراجعه والعمل مثل عمله، فينكشف؟ ثم هذه الأساطير والمراجع ليست خاصة بمحمد بل هي كتب متداولة بيد الجميع. إن افتراض تعلم النبي من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛ لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات^(٨)، وإن وجود بعض الشرائع في القرآن، التي تتفق مع ما في التوراة والإنجيل، أو حتى ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها، فالقرآن لم يأت لهدم كل شيء، بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق،

^١ - Thomas Patrick Hughes, The Dictionary of Islam, being a cyclopaedia of the doctrines, rites, ceremonies, and customs, together with the technical and theological terms, of the Muhammadan religion, London: W.H. ALLEN, 1895, pp.516-516

^٢ - انظر؛ المصدر السابق، ص ٥١٦

^٣ - يكتب بالحرف اللاتيني (Albert Istero)، والمقابل العربي تقريبي إذ لم أعر على اسمه كما يكتب باللغة العربية. جاء في مخطوطة الدكتوراه تعريفه أنه من مواليد سنة ١٩٣٠م، في (بورسعيد) بمصر. رسم قسيسًا سنة ١٩٥٨ في الكنيسة الإنجيلية. انتخب سنة ١٩٦٥م كسكرتير عام لمجلس كنائس الشرق الأوسط. وهو يدرس الأدب الكتابي في إحدى مدارس الكنيسة الإنجيلية المصرية.

^٤ - ناقشها سنة ١٩٩٠م في جامعة (Johns Hopkins) الأمريكية.

^٥ - Albert Istero, 'Abdullah Muslim Ibn Qutayba's Biblical Quotations and their Source: An inquiry into the earliest existing Arabic Bible Translations, p.236, manuscript

^٦ - انظر المصدر السابق، ص ٧-١٧

^٧ - ذكر هذه الفائدة الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير (٥٠/١). وراجع د. عبدالحسن المطيري، دعاوى الطاعنين في القرآن ص: ٢١٤ وما بعدها

^٨ - المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، محمد باقر الحكيم (ص: ٤٣).

فالصدق والشجاعة والكرم والحلم والرحمة والعزة كل هذه المعاني موجودة عند كفار مكة ومع هذا جاء الإسلام ولم يغير منها شيئاً بل باركها وحث عليها، لذلك قال النبي: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(١) ولم يقل: لأنشئها إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل، أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآن بعض الشرائع، سواء في الكتب السابقة السماوية أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره^(٢) وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله تعالى: {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} (يونس: ٣٧) .

وكيف يمكن اعتبار التوراة والإنجيل من أهم مصادر القرآن مع أن القرآن، خالفها في كثير من الأشياء؛ ففي بعض الأحداث التاريخية نجد القرآن يذكرها بدقة متناهية، ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها، على الأقل تفادياً للاصطدام بالتوراة والإنجيل، ففي قصة موسى يشير القرآن إلى أن التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أن سفر الخروج يؤكد أنها كانت ابنته، كما أن القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق، لا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه، في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل؛ حيث تذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون، وفي قصة ولادة مريم للمسيح وغيرها من القضايا^(٣) ومن المعلوم أن في القرآن ما لا وجود له في كتب اليهود والنصارى، مثل: قصة هود وصالح وشعيب، فكيف أتى بها النبي ﷺ؟^(٤)

والأهم لو كان محمدٌ هو مؤلف القرآن الكريم لاحتاج إلى جيوش من المترجمين والنُقاد وخبراء المخطوطات والجيولوجيين وعلماء يهود ونصارى من جميع الطوائف اليهودية والنصرانية!! والسبب أنه كما يقول الباحث هشام طلبة في كتابه "محمد في التوراة والترحوم والتلمود" أن بعض القصص التي ذُكرت في القرآن الكريم تشبه القصص الموجودة في كتب اليهود والنصارى وسنطلق على هذه التشابهات اسم **الشواهد القرآنية** وهذه الشواهد القرآنية أو التشابهات تتضمن مفاجأة كبرى وهي كالتالي: سنجد دائماً هذه الشواهد القرآنية في كتب اليهود والنصارى مع أن عدد هذه الكتب كبير جداً، كما أن الكتاب الواحد له أكثر من نص، التوراة نفسها سينية لها ستة نصوص أساسية (البشتيا - الفولجاتا - الشبعينية - السامرية - الترحوم - القياسية) النسخة القياسية لها ثلاث نصوص فرعية (الالوهيمي - اليهودي - الكهنوتي) هذه هي النصوص الأساسية عدا العديد من النصوص الفرعية، وأي ناشر للكتاب المقدس يجب أن يستخدم أكثر من نص من هذه النصوص مستعيناً بعلم يسمونه علم نقد النصوص ليصلوا لنص اقرب ما يكون للنص الأصلي المفقود سنجد دائماً هذه الشواهد القرآنية مع أن هذه الكتب المذكورة كُتبت بلغات مختلفة العبرية السامرية اللاتينية اليونانية الآرامية السريانية القبطية الحبشية المندائية وغيرها ما عدا العربية.

مع أن هذه الكتب لم نجدها مرة واحدة بل لقد جُمعت على مر قرون طويلة منذ القرن الرابع الميلادي وحتى الآن، أغلب هذه الكتب وجدناها بعد وفاة محمد ﷺ وآخر ما وجدناه كانت مخطوطات البحر الميت (١٩٤٧ - ١٩٥٦)، سنجد دائماً هذه الشواهد القرآنية في كتب السابقين مع أن هذه الكتب لم نجدها في مكان واحد بل في أماكن متعددة كسيناء ونجع حمادي والقاهرة كهوف البحر الميت الحبشة الفاتيكان مكتبات نبلأ أوروبا، ومع أن

^١ - أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة (٨٧٢٩)، رواه الإمام مالك في الموطأ بلاغا من غير إسناد (كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق) بلفظ (بعثت لأتمم حسن الخلق)، وأخرجه البزار بلفظ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (انظر فتح الباري (٦/٦٦٥) .

^٢ - المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (ص: ٤٦٠) .

^٣ - المرجع السابق ص : ٤٧

^٤ - الوحي القرآني من المنظور الاستشرافي ونقده، لماضي (ص: ١٤٨)، الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/٢٥)، (٤/٥٧) .

هذه الكتب كانت نادرة في عهد النبي ﷺ لأن النسخ كان يدويا ولم تكن هناك طباعة وكذلك بسبب حرق كُتب اتباع الأديان المضطهدة خصوصا النصارى سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية مع ان حجم الكتب أيامه ﷺ كان كبيرا و كانت على هيئة قراطيس من العسير تداولها سرا.

واليك مثلا لهذه الخاصة الشواهد القرآنية في اسفار السابقين:

من المعروف ان قصة يوسف هي الوحيدة التي نجدها في القرآن متتالية في موضع واحد، هذه القصة لا نجدها كما هي في أي كتاب من كتب اليهود او النصارى، سنجد قسما منها في التوراة التي بين ايدينا الآن (قياسية - سبعينية) مع وجود تفاصيل في الرواية التوراتية لا نجدها في القرآن كقطع التوراة لسرد قصة يوسف دون اي مناسبة لتروى لنا قصة أخرى و هي مضاجعة يهودا لزوجته ابنة! اما القسم الثاني من رواية يوسف في القرآن فسنجده في عدد كبير من كتب اهل الكتاب غير التوراة وسنجد هذا القسم مشتتا تماما فجزئية إخبار يوسف رؤياه لأبيه اولا نجدها في كتاب: العاديات اليهودية للمؤرخ يوسيفوس!.

و جزئية {أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبُ} في كتاب بسكيتارباتي وسيفر عدد هذان الكتابان اتفقا مع القرآن في ذلك واختلفا فيها مع التوراة نفسها، وجزئية {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا} في كتاب وجزئية {وَشَرُّهُ يَثْمَنُ بَخْسٍ} في كتاب آخر، وجزئية {وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ} في كتاب (عهود الاسباط وهو من كتب الاسرار) وجزئية {فَأَكَلَهُ الذُّبُّ} في كتاب yashar wa yesheb وهكذا اكثر من ٢٦ جزئية كتلك التي ذكرناها انفا في اكثر من ٣٠ كتابا... كل هذه الكتب سالفة الذكر وجدنا لها تفاصيل عديدة غير منطقية لا تُذكر في القرآن الكريم كذكر كتاب تنهوما أن يهودا حين أخذ منه بنيامين دخل في صراع مع يوسف و نزلت الملائكة لتشاهد الصراع بين يوسف الثور و يهودا الأسد!! ويضيف كتاب br والتلمود هنا أيضا ان رجال يوسف الأقوياء فقدوا اسناتهم بسبب صرخة يهودا!! ويذكر الكتابان في موضع آخر ان ملاك العاطفة هو الذي حث يهودا على مضاجعة زوجة ابنة المذكورة في التوراة! هذا عن القسم الثاني في الرواية القرآنية اما القسم الاخير فلا نجد في التوراة او غيرها فلا بد إذن أن محمدا ﷺ كانت لديه مخطوطات أخرى إضافة لكل ما ذكر من مصادر لم نجدها حتى الان وهذا مستحيل بكل المقاييس!!.

هذه الخاصة: "الشواهد القرآنية في كتب السابقين" نستنتج منها أنه من المستحيل على رجل مثل محمد ﷺ أن يقرأ كل صحيفة في كل كتاب من كُتب لم نعرف نحن الان أكثرها إلا متأخرا جدا ^(١)، ثم يستبعد التفاصيل غير المنطقية ثم يأخذ من هذا ما يتناسب مع ذلك، ثم يقدم هذا النتاج في صورة بيانية رائعة و لا بد أنه قد فعل كل هذا في السر أيضا ! إن هذا هو المستحيل بعينه خصوصا إذا أضفنا لذلك معرفته واطلاعه على كتب الأسرار apocrypha الخاصة بكل طائفة!! فكثير من طوائف اليهود والنصارى لديهم كتب لا يطلع عليها إلا كبار رجال الدين عندهم ، فهل اطلع محمد ﷺ على تلك الكتب أيضا ليؤلف القرآن الكريم !!؟ ومن أيسر سبيل لتبَيّن أصالة النصّ القرآني واستقلاله عن دعوى الاقتباس من (الكتاب المقدس) النصراني؛ هو النظر المباشر في كلا الكتابين، والمقارنة الصارمة بينهما لينجلي عن الحقّ غبارُ الشبهة، ومن أهم ما يكشف الأوجه التي توضح أنّ القرآن الكريم لم يقتبس من أسفار اليهود والنصارى، تصحيح القرآن الكريم لأخطاء أسفار أهل الكتاب، وفصله بين أصيل الوحي ودخيل التحريف.

٢- نظرة تفصيلية

هل ادعى اليهود والنصارى في أيام نزول الوحي أن القرآن مستوحى من الكتاب المقدس؟

^١ - الباحث هشام طلبة، محمد في الترجوم والتلمود والتوراة "ظهور نصوص اخفت ألفي عام" ص ٢٨٥-٢٩٠ دون دار نشر

فلو كان هذا القرآن من عند النصارى أو اليهود لكانوا أسرع الناس في نسبة هذا النص لأنفسهم منذ بداية ظهوره، ولكن لم يقل أحد من اليهود والنصارى في زمان نزول الوحي وتتابعه بأن هذا النص من كتابه المقدس؛ لأنه يعرف الفرق الواضح بين الكتابين، سواء في التشريعات أو العقائد التي جاء بها، ولم يقل أحد من العرب إن هذا النص من عند محمد لأنهم أصحاب هذه اللغة ويعرفونها معرفة جيدة، ولذلك تحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة من مثله، بل بآية واحدة، وكل ما قاله العرب في عصر النبي أنه حاشا لله ساحر أو مجنون أو كاهن، أو غير ذلك من الادعاءات الباطلة أيضا.

وإن تضارب الكتب التي أوردت هذه الشبهة في حديثها عن إلهية القرآن وبشريته ردا على هذه الدعوى الباطلة، من تلك الكتب الكتاب الذي ألفه القس جورج بوش الجد تحت عنوان "محمد مؤسس الدين الإسلامي، ومؤسس إمبراطورية المسلمين" ففي هذا الكتاب بعض النصوص التي تؤكد فكرة بشرية القرآن، وفيه نصوص أخرى تشكك في هذه الفكرة، فمن النصوص الأولى: "والاعتقاد الأكثر شيوعا هو أن محمدا تلقى العون الرئيسي لوضع القرآن أو تأليفه من راهب مسيحي على المذهب النسطوري اسمه "سرجيوس" يفترض أنه نفسه "بجيرا الراهب" الذي تعرف عليه ﷺ في فترة مبكرة من حياته في بصرى في الشام"، وقال أيضا: فإن القرآن قد تمت صياغة محتواه على حد كبير من مواد العهدين القديم والجديد^(١).

فالنصوص السابقة تقرر أن القرآن الكريم حسب زعمهم من وضع محمد اعتمادا على نصوص العهدين القديم والجديد، ولكننا نجد في مكان آخر من هذا الكتاب ردا على هذه الدعوى، حين يقول الكاتب: "فمن هو القادر في هذه الفترة الحالكة على وضع نص كهذا"^(٢) يعني: النص القرآني وفي موضع آخر: "هذا الوحي المدعى بادعائه استقلاليته (أي القرآن) عن كتبنا المقدسة يضم رغم هذا فقرات (آيات) أرقى كثيرا من أية بقايا أدبية تعود للقرن السابع، سواء كانت يهودية أو مسيحية، فهذه الآثار الأدبية أي اليهودية والمسيحية أدنى كثيرا من محتويات ذلك الكتاب المقدس".^(٣) يعني القرآن. ويقول في موضع ثالث: "وعلى هذا فستظل مسألة حقيقة القرآن مسألة لا حل لها إلى الأبد، فليس لدينا أدلة حاسمة على تاريخ وضع القرآن، ولا نعرف إلى أي مدى كان محمد عارفا بالكتب المسيحية المقدسة"،^(٤) وفي موضع رابع يقول: "وليس من السهل ترجمة القرآن بالنسبة للذين تعرفوا عليه في لغته الأصلية، فهناك اعتراف عالمي بأنه أي القرآن يتسم بامتياز لا حد له، لدرجة أنه لا يمكن ترجمته لأية لغة أخرى، إنه نموذج يحتذى به اللسان العربي، إنه مكتوب في معظمه بأسلوب أنيق".

كل هذه النصوص وغيرها يبتغي أعداء الإسلام من ورائها التشويش على معتقدات المسلمين الراسخة في أذهانهم، ولكن هذا لن يكون باعترافهم أنفسهم، فما هي إلا مجرد مكابرة باطلة، وعدم سماع لصوت الحق الذي يخرج من داخلهم عند سماع القرآن الكريم.

ومن يطالع آيات القرآن الكريم ونصوص الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) يرى فرقا كبيرا بين المصدرين، ويرى العديد من الأمور التي يتعارض فيها القرآن مع الكتب المقدسة، فكيف يمكن القول: إن النبي هو الذي وضع القرآن

^١ - الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، مكتبة الولاء الحديثة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٨٠. وراجع الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين"، د. عبد الرحمن حيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

^٢ - الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، ص٨٢.

^٣ - الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، ص٨٢.

^٤ - الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، ص٨٢.

واعتمد في وضعه على كتب السابقين؟! أينقل عن مصدر وينص على تحريف هذا المصدر وعدم صحته؟! إن هذا لشيء عجاب.

ومن العقائد التي يخالف فيها القرآن الكتب المقدسة المخرفة عقيدة التوحيد، فالله عند المسلمين واحد لا شريك له ولا يعبد أحد سواه، أما عند النصارى فإن الله ليس واحداً، بل هو ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، وهو عند أصحاب الكتب السابقة يندم على أفعاله ويرجع فيها وهو يتعب من خلق السماء والأرض فيستريح بعد خلقها، وغير ذلك من العقائد الفاسدة، فكيف نقول إن القرآن أخذ من الكتب السابقة عليه؟!

وفي جانب التشريعات نجد الصلاة عند المسلمين تختلف عن الصلاة عند أصحاب الكتب السابقة، وكذلك الصوم والحج والزكاة، وجانب المعاملات أيضاً يختلف كثيراً عن معاملات أهل الكتاب، فالغش والرشوة في الإسلام حرام، أما عند اليهود فيجوز أن تأخذ الرشوة من غير اليهودي، وتحرم من اليهودي، والإسلام يدعو لحسن معاملة أهل الذمة من اليهود والنصارى، أما أهل الذمة فيعتقدون أن المسلمين مجرد عبيد لهم، والإسلام يدعو إلى مجادلة أهل الكتاب بالحسنى، فقال سبحانه وتعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} (العنكبوت: ٤٦). والآيات في ذلك كثيرة، أما المخالفون للإسلام فلا يعترفون بأي حوار بين المسلمين وبينهم، فلا يعرفون إلا مبدأ القوة والسلاح. فأين عقائد الإسلام وتشريعاته ومعاملاته من عقائد وتشريعات ومعاملات أصحاب الديانات السابقة؟!

ولقد استندوا واستدلوا ببعض الآيات التي تذكر كلمات ورد ذكرها في كتبهم كما استدللوا ببعض الكلمات التي ذكرت في القرآن، ويزعمون أنها من الكتب المقدسة، ومن هذه الكلمات: فرقان، أمر، أمانة، بركة، تبارك، الخ والكلمات دليل في زعمهم على أن القرآن ليس من عند الله، بل هو مأخوذ أو منحول من الكتب السابقة عليه، لكن تناسوا اختلاف معنى الآيات في القرآن الكريم عن معناها في الكتاب المقدس!!

إذا كان النبي قد نقل نصوص القرآن الكريم من الكتب السابقة، فهذا يستدعي معرفته بالعديد من اللغات الأخرى غير اللغة العربية، مثل: العبرية والسريانية واليونانية، ويستدعي أيضاً وجود مكتبة ضخمة من الكتب بهذه اللغات تحت يديه، فأنى له أن ينقل بعض هذه الآيات من الكتب السابقة عليه، وأمية النبي أمر مسلم به بين أعداء الإسلام، فضلاً عن المسلمين، فهذا يؤكد بطلان الادعاء، والآيات التي يتوهم أن بينها وبين نصوص الإنجيل تشابهاً كما أوردوها هي:

سفر المزمور ١٣٦

من سورة الرحمن

الشمس لحكم النهار (٨)

{الشمس والقمر بحسبان} (٥)

القمر والكواكب لحكم الليل (٩)

{والنجم والشجر يسجدان} (٦)

الصانع السماوات بفهم (٥)

{والسما رفعها} (٧)

الباسط الأرض على المياه (٦)

{والأرض وضعها للأنام} (١٠)

ويمكن الرد على التشابه بما يأتي:

يتحدث القرآن عن الطابع الدوري لحركة الشمس والقمر، ولا يذكر العهد القديم شيئاً عن هذا.

النبات والشجر في القرآن يسجد لله، ولا يوجد لهذا مثيل في العهد القديم.

يتحدث القرآن عن رفع السماء فحسب، بينما العهد القديم يتحدث عن الحكمة من هذا الرفع.

يتحدث القرآن عن بسط الأرض لصالح الإنسانية جمعاء، بينما يذكر العهد القديم حالة جغرافية من حالات

الأرض، فأين هذا التشابه المزعوم بين القرآن الكريم والكتاب المقدس المخرف؟!

المزمور ١٠٤

من سورة النحل

ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده الصانع ملائكته رياحا، وخدامه نارا ملتهبة (٤)
أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون (٢)

تتحدث آية القرآن عن مطلق إرادة الله في اختيار من يشاء من عباده، ويضع على عاتقه عبء تبليغ الرسالة والنبوة، وينزل على هذا النبي جبريل عليه السلام بالرسالة من عنده، بينما يتحدث نص المزمور عن مجرد ظواهر طبيعية، فأين هذا التشابه المزعوم بين آية القرآن الكريم وبين نص الإنجيل.

من سورة النحل المزمور ١٠٤

{ خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون (٣) اللابس النور كثوب، الباسط السماوات كشقة (٢)
المؤسس الأرض على قواعدها (٥)

أين هذا التشابه المزعوم بين نص الآية الكرمة ونص الإنجيل، فالآية الكرمة تتحدث عن حكمة الله تعالى في خلق السماوات والأرض، وعن مدى الانسجام التام بينهما دون أي خلل في نظامهما، وكل هذا دليل على مدى عظمة الله وقدرته في خلقه، أما المزمور فيتحدث عن تشبيه السماء بالستار، والتأكيد على أن الأرض مثبتة على قواعد راسخة، فمن أين لاحظ هؤلاء المتوهمون تشابها بين القرآن والإنجيل؟!

ومن سورة النحل: { هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) } (النحل).

ومن المزمور ١٠٤: المسقف علاليه بالمياه. الجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح (٣)
ومن سورة النحل: { ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (١١) } (النحل).

ومن المزمور ١٠٤: المنبت عشبا للبهائم، وخضرة لخدمة الإنسان، لإخراج خبز من الأرض، وخمر تفرح قلب الإنسان، لإلماح وجهه أكثر من الزيت، وخبز يسند قلب الإنسان (١٤، ١٥)

هناك فرق كبير بين حديث القرآن الكريم وحديث الإنجيل، ففي حين يتحدث القرآن عن المنفعة التي نزلت بالناس المتمثلة في الماء، فهو الذي يخرج به الزرع والزيتون، والنخيل والأعناب وجميع ثمرات الأرض، وجعل هذا كله آية؛ لكي يتفكر فيها الخلق لمعرفة مدى قدرة الله تعالى، وفي مقابل هذا يتحدث نص الإنجيل عن الرياح التي يمتطيها الله تعالى، ويتحدث عن صفات الله، وكأنها مثل صفات البشر المادية، وكذلك لم يذكر نص الإنجيل إلا العشب، ولم يتطرق إلى الثمار والأشجار التي في القرآن، والخمر التي في المزمور لا وجود لها في نص القرآن، فأين تشابه بين النصين أيها المتوهمون؟!

مثل هذا الكلام يقال عن آيات كثيرة في سورة النحل، توهم هؤلاء المدعون أن بينها وبين نصوص من الإنجيل تشابها كبيرا، ولكن هذا الادعاء غير صحيح، وقد اتضح مما سبق بطلان هذا الزعم^(١).

يرون أن هناك تشابها بين قوله: { الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم (٣٥) } (النور)، وبين الإنجيل، ويدعون أنها مأخوذة منه ويفسرون هذا النور عدة تفسيرات منها:

^١ - لمتابعة هذه الآيات انظر كلام هؤلاء المتوهمين عن التشابه بين الآيات (١٤، ٣٨، ٦٥، ٦٨، ٧٠، ٣٢، ٤٩، ٥٠، ٦١، ٧٩) من سورة النحل، وما يقابلها من نصوص الإنجيل في المزمور (١٠٤) تحت الأرقام الآتية (١٢، ١٧، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٦، ٣٧، ٣٣، ٣٤، ٣٥)، فسوف ترى عجا، وهذا كله في كتاب: الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص ٣١: ٢٨.

النور الذي في القرآن مأخوذ من الأنوار التي في الكنائس والأديرة التي تضاء للخدمة.

هذا النور له علاقة بـ "نور الكون" في الإنجيل، و "نور النور" في الإعلان العقائدي لمجمع نيقيا.

ولكن هذا الزعم ليس صحيحاً؛ لأن النور في الآية نور واحد، وهو في الكنيسة أنوار متعددة، وهو كذلك في القرآن "نور على نور" ولكنه في الإعلان العقائدي نور يأتي من نور، ويحاول بعضهم الربط بين الآية الكريمة، وبين فقرة من كتاب زكريا من العهد القديم الإصحاح الرابع الآيات ١: ٣، ولكن هذا زعم مفتري مثل سابقه^(١).

وبهذا، فلا يوجد أدنى تشابه بين الآيات القرآنية المشار إليها، وبين آيات الإنجيل، فضلاً عن أن يكون هذا التشابه واضحاً، فضلاً عن أن تكون آيات القرآن مأخوذة منها، فدعواهم تلك لا تستند إلى دليل، ومثلما حاول المخالفون للإسلام وللقرآن وللنبي محمد ﷺ أن يثبتوا أن القرآن الكريم مأخوذ من الإنجيل، حاولوا كذلك الربط بين بعض الألفاظ القرآنية وبين ألفاظ أخرى تقابلها في العبرية؛ لا لشيء إلا لكي يصفوا القرآن بالنقص والنقل من الكتب السابقة، ويمكن الرد على هذا الادعاء بما يأتي:

اللغة العربية واللغة العبرية لغتان تنتميان إلى أصل واحد، وهذا الأصل هو الأصل السامي، فهناك كلمات عربية موجودة في اللغة العبرية والعكس صحيح، وكل منهما فرع عن أصل، وهذا الفرع يأخذ من الأصل بعض الصفات المشتركة.

وادعاء أن الرسول أخذ هذه الكلمات من اللغة العبرية أو الآرامية يستدعي معرفة النبي بهذه اللغات معرفة جيدة قراءة وكتابة، وهذا ما تتوافر المصادر على نفيه عن الرسول فهو رجل أُمي لا يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية، ومن الثابت أنه لم يتعلم أية لغة أخرى، فهل ألهم العلم بتلك اللغات؟! وهل يصل الإلهام بالشخص إلى أن يتعلم لغة قراءة وكتابة؟! ولماذا لم يحدث مثل هذا الإلهام لغيره؟!

الكلمات التي يستشهد بها أصحاب هذا الادعاء نجدها موجودة في المعاجم العربية القديمة، وفي نصوص الشعر العربي الجاهلي، ومعنى هذا أنها معروفة قبل بعثة النبي وليس هو الذي أدخلها في القرآن الكريم، كما يدعي هؤلاء. من هذه الكلمات كلمة "خلاق" التي قيل: إن أصلها اليهودي هو "حليق" أو أصلها آرامي وهو "حولاق"، وهي تعني في هذه اللغات "جزء" أما معناها في اللغة العربية فهو "نصيب" كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما له في الآخرة من خلاق (٢٠٠)﴾ (البقرة). فأين التشابه بين المعنيين؟ ونجدها في شعر حسان بن ثابت الجاهلي الذي كتبه قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك كلمة "بعير" التي قيل: إن أصلها العبري هو "Beir" وتعني الماشية، ولكن معنى هذه الكلمة في المعاجم العربية القديمة هو: الجمل القوي أو الحمار، وعليه الآية التي جاءت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ (يوسف: ٧٢). وهذه الكلمة مستخدمة في المعاجم القديمة بمعنى الحمار، وكذلك استخدم أحد الشعراء الجاهليين الجمع من هذه الكلمة، "أباعير".

ومن هذه الكلمات التي ادعى هؤلاء أنها ذات أصل عبري كلمة "بهيمة" ويدعون أن أصلها هو الكلمة العبرية "Berema"، وهذه الكلمة في القرآن تعني: الحيوان ذا اللون الخالص الذي لا تتخلله ألوان مثل الأبيض، أو الأسود، وعليه ما جاء في معاجم اللغة القديمة، فهذه الكلمة في العربية تستعمل صفة دائمة للأنعام، ولكنها في العبرية تستعمل اسماً لا صفة، فأين التشابه بينهما؟!

^١ - الدفاع عن القرآن ضد متقديه، عبد الرحمن بدوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص٣٨: ٣٧ بتصرف.

وكذلك كلمة "سورة" التي قيل: إن أصلها عبري وهو "Shura" بمعنى الخط أو الطابور، وقيل: إن أصلها آرامي هو "Sidra"، وكلا المعنيين لا يتفق مع المعنى القرآني لهذه الكلمة، وقد ورد لهذه الكلمات تفسيرات عدة في كتب المفسرين، فقيل: هي المنزل، وبقية الشيء، والمرتبة العليا وغير ذلك، فهي من الكلمات غير واضحة الدلالة. ومنها كلمة "مثاني" التي قيل: إن أصلها آرامي Mathnitha بمعنى التقليد أو العرف، ولكن هذا يخالف كل المعاني التي ذكرها المفسرون لهذه الكلمة التي جاءت في كتاب الله عز وجل في مواضع عدة، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾ (الحجر). فقيل: هي الفاتحة، وقيل: ما ثني مرة بعد مرة، وقيل: لأنها يثنى بها في كل ركعة.

ولم تسلم كلمة "خاتم" من هذه الشبهة، فقد قيل: هي مأخوذة من سفر حجي الإصحاح الثاني الآية ٢٣ التي تقول: "وأجعلك كخاتم، لأني قد احتزتك"، وكذلك في سفر الملوك الأول الإصحاح ٢١ الآية التي تقول: "ثم كتبت رسائل باسم أخآب، وختمتها بخاتمه". وهي عندهم تعني الختم الذي يوضع على الأوراق، أو الختم المعلق في الصدر، أو الختم الذي يحمل في اليد لشدة الحرص عليه، وكل هذه المعاني لا تتفق مع المعنى الذي جاء في القرآن لهذه الكلمة التي جاءت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾ (الأحزاب)، فهي في القرآن تعني الأخير الذي ختمت به الرسالات والنبوات، وكلمة "خاتم" من ألقاب النبي ولم لا والإسلام هو آخر الديانات السماوية المنزلة من قبل الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩).

وهناك العديد من الآيات التي تؤكد أن معنى كلمة خاتم هو الأخير، ومن هذه الأحاديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا خاتم النبيين».^(١) فأين هذا التشابه المزعوم بين معنى كلمة "خاتم" في الإسلام ومعناها في العبرية؟ أو غيرها من اللغات الأخرى؟^(٢)

ومن الكلمات التي تعرضت لظلم كبير من قبل أعداء الإسلام كلمة "فرقان" التي جاءت في العديد من سور القرآن الكريم، فمن هؤلاء من ينسبها إلى الكلمة العبرية "بيركي Pirke" أو مأخوذة من "بيركي أبوت Pirke Abot" وتعني الأحكام الدينية التي نص عليها حكماء ورجال الدين اليهودي، ومنهم من ينسبها إلى الكلمة السريانية "فرقانا Furqana"، أو الكلمة اليهودية الآرامية "فرقان Furqan" التي تعني الإنقاذ. وعلى هذا قيل: إن النبي قد أخذ هذه الكلمة من هذه اللغات وأدخلها إلى القرآن الكريم بعد أن خلطها باللفظ العربي "فرق"، ونرد على هذا الزعم بما يأتي:

١. الأحكام الدينية التي تشير إليها كلمة "Pirke Abot بيركي أبوت"، من وضع حكماء المعبد اليهودي، وليست من وضع موسى أو هارون، فهي إذن ليست من النصوص المقدسة الصحيحة.

٢. هل كان النبي على علم باللغة العبرية أو السريانية أو الآرامية حتى يأخذ هذه الكلمة من هذه اللغات ويدخلها إلى القرآن الكريم؟

٣. الأصل السرياني للكلمة "فرقانا" يعني الإنقاذ، وهذا المعنى لا يوجد له أية صلة بالمعاني التي جاءت لهذه الكلمة في المعاجم العربية، إذ في هذه المعاجم أن هذه الكلمة تعني التفريق بين أمرين: الحق والباطل، الخير والشر...

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين (٣٣٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين (٦١٠١).

^٢ - الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٤٣: ٥٤ بتصرف.

فأين التشابه؟! وكذلك جاء معناها في كتب المفسرين للقرآن على عكس المعنى الذي توهمه هؤلاء لهذه الكلمة، فهي في كتب المفسرين تعني شيئا مما يأتي:

-مصدر للفعل "فرق"، وكل ما يدل على التفريق بين أمرين متناقضين، مثل الخير والشر، والمشروع واللامشروع...

إلخ.

-أي كتاب من الكتب المقدسة، مثل التوراة، والإنجيل، والقرآن، وعلى المعنى الأول جاء قوله سبحانه وتعالى: {وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان} (الأنفال: ٤١)، ومن المعنى الثاني قوله سبحانه وتعالى: {نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل} (٣) من قبل هدى للناس وأنزل} (آل عمران)^(١).
فقبل أن ينظر أصحاب هذا الادعاء في القرآن الكريم، وقبل أن يفتشوا فيه عن تشابه بينه، وبين الكتب السابقة، عليهم أولا أن ينظروا في كتابهم المخرف بنص القرآن الكريم، واعتراف بعض أحبارهم بهذا التحريف، فكلما جاء خبر، أو راهب كتب له كتابا مقدسا ليشتري به ثمنا قليلا، فقال سبحانه وتعالى: {يحرفون الكلم من بعد مواضعه} (المائدة: ٤١) ومنه قوله سبحانه وتعالى: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون} (البقرة: ٧٩).

ونحن نسأل: إذا كان القرآن ترجم عن التوراة، فعن أي تورا ترجم، التوراة الحقة أم المحرفة، وقد ثبت تاريخيا أن التوراة لم تسلم من التبديل والتغيير، ومن حيثيات ذلك^(٢): أن نسخة التوراة التي بأيدي السامريين تزيد في عمر الدنيا نحو من ألف عام على ما جاء في نسخة العنانيين، وأن نسخة النصارى تزيد ألفا وثلاثمائة سنة.
أن نسخ التوراة التي بأيديهم تحكي عن الله وعن أنبيائه وملائكته أمورا ينكرها العقل وبمجهها الطبع، ويتأذى بها السمع، مما يستحيل معها أن يكون هذا الكتاب صادرا عن نفس بشرية مؤمنة طاهرة، فضلا عن أن ينسب إلى ولي، فضلا عن أن ينسب إلى نبي، فضلا عن أن ينسب إلى الله رب العالمين، ومن هذه الأباطيل أن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم، وأنه بكى حتى رمدت عيناه، وأن يعقوب صارعه -جل الله- فصصره، ومن ذلك أيضا أن لوطا شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه.

ما جاء في بعض نسخ التوراة يفيد أن نوحا أدرك جميع آبائه إلى آدم، وأنه أدرك من عهد آدم نحو من مائتي سنة، وجاء في نسخ أخرى ما يفيد أنه أدرك من عمر إبراهيم ثماني وخمسين سنة، وكل هذا باطل تاريخيا.
ما ثبت بالتواتر عند المؤرخين، بل عند اليهود أنفسهم من أن بني إسرائيل، وهم حملة التوراة وحفاظها قد ارتدوا عن الدين مرات كثيرة، وعبدوا الأصنام، وقتلوا أنبياءهم شر تقتيل.

وإذا ثبت وقوع التحريف في التوراة الحقيقية فنحن المسلمين نؤمن بأن هناك كتابا مقدسا، هو التوراة نزل على نبي الله موسى إذا ثبت ذلك فعن أي التوراتين ترجم القرآن؟، وهب أن القرآن ترجم عن التوراة، فلماذا لم يؤمنوا به؟ إن كلمة ترجم الكلام: أي بينه ووضحه، تعني أيضا نقله من لغة إلى لغة أخرى، فإذا كان القرآن كما يزعمون منقولاً عن التوراة، فلماذا لم يؤمنوا به، أو ما يشتمل المترجم على ما يشتمل عليه المترجم عنه من أوامر ونواه وحقائق ومعارف، ومعان وكلمات مترجمة عن اللغة الأصل؟!.

ليس الأمر كما يرون، فالبون شاسع بين القرآن والتوراة، فأسلوب القرآن فصيح بليغ، أما أسلوب التوراة فضعيف ركيك، وأوامر التوراة تختلف عن أوامر القرآن، فتوراتهم المحرفة تأمرهم بقتل الأبرياء وتشريد الضعفاء، وبخاصة

^١ - الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص٦١، ٦٢ بتصرف.

^٢ - نظرية النسخ في الشرائع السماوية، شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٤، ٣٥.

وإذا كانوا مسلمين: {ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل} (آل عمران: ٧٥) وما يحدث في فلسطين والعراق، وشتى بقاع العالم الإسلامي خير شاهد على ذلك.

تورا تم تقول لهم: إنهم شعب الله المختار، وكل الشعوب سواهم عبيد لهم، وهم أسياد عليهم، بنست العنصرية هي، أما إسلامنا وقرآننا فالأمر فيه مختلف، فما عرفت مساواة كمساواة الإسلام بين الناس، هذا نبيه يطلقها في الآذان مدوية: «ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمري على أسود، ولا أسود على أحمري إلا بالتقوى»^(١).

فالقاضي شريح يحكم بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأحد اليهود في درع، فينادي القاضي على أمير المؤمنين بكنيته، وعلى اليهودي باسمه، فيأبى أمير المؤمنين ذلك، وينكر على القاضي ما فعل، ثم لضعف حجة أمير المؤمنين يحكم القاضي لليهودي بالدرع.

والفاروق عمر يشتكي إليه القبطي من صفع ابن عمرو بن العاص له؛ لأنه سبقه قائلًا له: خذها وأنا ابن الأكرمين، فيرسل على الفور إلى عمرو وولده أمرا إياه بالحضور، ويطلب من الرجل القبطي أن يقتص من ضربه، ثم قال كلمته المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدته أمرا إياه بالحضور، ويطلب من الرجل القبطي أن يقتص من ضربه، ثم قال كلمته المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدته أمرا إياه بالحضور".

هذا قرآننا، وهذا فعله في أتباعه، وما هي توراتهم وفعلها في أتباعها، ثم يقولون: إن القرآن ترجم عن التوراة!! فإذا كان القرآن ترجمة عن التوراة، فلماذا لم يترجمه أحد من أحبار اليهود، أو رهبان النصارى، أو فطاحل اللغة من العرب، وتقدم لذلك النبي الأمي؟

وقد ثبت تاريخيا أن النبي كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ودليل ذلك كتبة الوحي أمثال حسان بن ثابت وغيره، فلم يكتب النبي القرآن بنفسه، ثم إننا نتساءل: كيف يقرأ النبي التوراة ويترجم عنها، ولم يكن له حظ حتى من قراءة "أشعار العرب"؟ فقد روت كتب التاريخ أن النبي كان يتمثل قول أحد الشعراء "كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا" بزيادة باء على كلمة الشيب، فكان يقول: "كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهيا" فيصوبها له أبو بكر الصديق معقبا: صدق من قال فيك: {وما علمناه الشعر وما ينبغي له} (يس: ٦٩)، ثم أين أحبار اليهود؟ وأين رهبان النصارى، وأين أرباب اللسان من العرب؟ ما الذي عدل بهم عن أن يكسبوا هذه الشهرة الواسعة بترجمة التوراة، وجعلها كتابا يدون عليه اسمهم؟ فهل يقبل العقل أن يتحرك النبي الأمي في هذا الصدد ويكسل الفطاحل وكبار القوم؟

ولأقول إن كتاب كذا مترجم عن كتاب كذا، ومجالهما العلمي واحد، فيجب أن يكون مضمونا الكتابين واحد، والمعاني التي أوردتها واحدة، فكلمة ترجمة تعني نقل كلام من لغة إلى أخرى، فبالله عليكم هل معاني القرآن كمعاني التوراة؟ هل أسلوب القرآن البليغ كأسلوب التوراة الركيك؟ هل حقائق القرآن الثابتة علميا كأباطيل التوراة التي تناقض العلم؟ فهذا موريس بوكاي ينظر ويتأمل الكتب السماوية الثلاث - القرآن والتوراة والإنجيل، فيقول شهادته للتاريخ، وللأجيال القادمة على ألا تنخدع: لقد نظرت في التوراة والإنجيل والقرآن، فوجدت أن الحقائق العلمية الواردة في الكتابين المتقدمين (يعني التوراة والإنجيل) كما متهافتا فيه، أما في القرآن الكريم فوجدت كما هائلا من الحقائق العملية، وهي متطابقة تماما مع حقائق العلم الحديث.

واستدلوا بقوله: {ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة} (هود: ١٧) أن القرآن ترجم عن التوراة، وحينما نحللها نجد أنها تذكر أن التوراة كانت قبل القرآن إماما ورحمة، ولكن لمن؟ هل للقرآن؟ والله ما سمعنا أبدا أن كتابا يرحم كتابا، قد يكون له إماما، لكن عطف الكلمتين: إماما ورحمة، تعني أن حكمهما واحد، وفقهاء اللغة العربية يقولون:

^١ - صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، (٢٣٥٣٦)، والطبراني في الأوسط (٤٧٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

إن في الآية محذوفا معلوما من السياق، هو من تقع عليهم إمامة الكتاب ورحمته وهم الناس، فيكون المعنى بعد رد المحذوف، إن التوراة كانت قبل القرآن إماما ورحمة للناس.

وهنا نتجلى الحقيقة الناصعة، هي أن الإمامة والرحمة قد انتقلتا إلى القرآن، وبقيّة الآية تدل على صدق هذا المعنى، {وهذا كتاب مصدق} (الأحقاف: ١٢) يعني أن القرآن يثبت هذه الإمامة والرحمة للتوراة قبل نزوله، ويعني أيضا أن القرآن قد اشتمل على هذه الإمامة والرحمة بعد نزوله، فقد انتقلت إليه الإمامة والرحمة، وذلك لأن الإسلام دين عام شامل لكل الأديان السابقة.

أما زعم أخذ النبي القرآن عن بحيرا زعم لا يؤيده عقل ولا منطق، فالتاريخ لا يعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلى الشام في تجارة مرتين: مرة في طفولته، ومرة في شبابه، ولم يسافر غير هاتين المرتين، ولم يجاوز سوق البصرة فيهما، ولم يسمع من بحيرا ولا من غيره شيئا من الدين، ولم يكن أمره سرا هناك، بل كان معه شاهد في المرة الأولى هو عمه أبو طالب، وشاهد في المرة الثانية، هو ميسرة غلام خديجة التي خرج الرسول بتجارتهما يومئذ، وكل ما هنالك أن بحيرا رأى سحابة تظلل من الشمس، فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن، ثم حذره من اليهود، وقد رجع به عمه خوفا عليه، ولم تتم رحلته، كذلك روي هذا الحديث من طرق في بعض أسانيد ضعف، ورواية الترمذي ليس فيها اسم بحيرا، وليس في شيء من الروايات أنه سمع من بحيرا الراهب أو تلقى منه درساً واحداً، أو كلمة واحدة لا في العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق، فأنى يؤفكون؟

إن تلك الروايات التاريخية نفسها تنفي أن يقف هذا الراهب موقف المعلم لحمد لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي يزفها، ثم ينصب نفسه أستاذا لصاحبها الذي سيأخذ عن الله ويتلقى من جبريل، ويكون هو أستاذ الأساتذة وهادي الهداة والمرشدين، وإلا كان هذا الراهب متناقضا مع نفسه، فلو كان بحيرا الراهب مصدر هذا الفيض القرآني المعجز لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة.

إنه من المستحيل أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف، بحيث يصبح أستاذ العالم كله؛ لمجرد أنه لقي مصادفة أو اتفاقا راهبا من الرهبان مرتين، على حين أن هذا التلميذ كان في كلتا المرتين مشغولا عن التعليم بالتجارة، وكان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان صغيرا تابعا لعمه في المرة الأولى، وكان حاملا لأمانة ثقيلة في عنقه لا بد أن يؤديها في المرة الثانية، وهي أمانة الإخلاص في مال خديجة وتجارتهما.

إن طبيعة الدين الذي ينتمي إليه الراهب بحيرا، تأبى أن تكون مصدرا للقرآن وهدايته، خصوصا بعدما أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف، وحسبك دليلا على ذلك أن القرآن قد صور علوم أهل الكتاب في زمانه بأنها الجهالات ثم تصدى لتصحيحها، وصور عقائدهم بأنها الضلالات ثم عمل على تقويمها، وصور أفعالهم بأنها المخازي والمنكرات ثم حض على تركها، ثم تذكر أن فاقد الشيء لا يعطيه، وأن الخطأ لا يمكن أن يكون مصدرا للصواب، وأن الظلام لا يمكن أن يكون منبعاً للنور.

إن أصحاب هذه الشبهة يقولون: إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل، فإذا كانوا صادقين في هذه الكلمة فإننا نحاكمهم في هذه الشبهة إلى القرآن نفسه، وندعوهم ليقروا ولو مرة واحدة بتعقل وإنصاف، ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماءها وكتبها في عصره؟ ولتعلموا أنها ما كانت لتصلح لأستاذية رشيدة، بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة، إنهم إن فعلوا ذلك فسيستريحوا ويريحوا الناس من هذا الضلال والزيف، ومن ذلك الخبط والخلط: {ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٤٠)} (النور).

أما أن يكون الغلام الرومي الحداد هو مصدر القرآن، فهذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة لفرح بها قومه، وقاموا لها ولم يقعدوا؛ لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله وكانوا أحرص الناس على تبيته وتكذيبه، وإحباط دعوته بأية وسيلة، ولكنهم كانوا أكرم على أنفسهم من هؤلاء المدعين، فحين أرادوا طعنه بأنه تعلم القرآن من غيره، لم يفكروا في أن يقولوا: إنه تعلم من بحيرا الراهب كما قال هؤلاء؛ لأن العقل لا يصدق ذلك، والهزل لا يسعه، بل لجئوا إلى رجل في نسبة الأستاذية إليه شيء من الطرافة والهزل، حتى إذا مجت العقول نسبة الأستاذية إليه لاستحالتها، قبلتها النفوس لهزلها وطرافتها، فقالوا: إنما يعلمه بشر، وأرادوا بالبشر حدادا روميا منهمكا بين مطرقة وسندان، يظل طول يومه في حث الحديد وناره ودخان، غير أنه اجتمع فيه أمران حسبوهما مناط ترويج تهمتهم:

أحدهما: أنه مقيم بمكة إقامة تيسر لمحمد صلى الله عليه وسلم الاتصال الدائم الوثيق به والتلقي عنه. والآخر: أنه غريب عنهم وليس منهم؛ ليحيلوا إلى قومهم أن عند هذا الرجل علم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم، فيكون ذلك أدنى إلى التصديق بأستاذيته لمحمد وغاب عنهم أن الحق لا يزال نوره ساطعا يدل عليه؛ لأن هذا الحداد الرومي أعجمي لا يحسن العربية، فليس بمعقول أن يكون مصدرا لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية {لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين (١٠٣)} (النحل)^(١).

ثم قالوا إن ورقة بن نوفل هو مصدر القرآن فهو كان يلقي ورقة بن نوفل، فيأخذ عنه ويسمع منه، وورقة لا يخل عليه؛ لأنه قريب لخديجة ويريدون بهذا أن يوهمو قارئهم وسامعهم بأن هذا القرآن استمد علومه من هذا النصراني الكبير، الذي يجيد اللغة العبرية ويقرأ بها، فإذا كان هؤلاء يدعون ذلك فإننا نقول لهم: ما الدليل على تلك الدعوى؟ وما الذي تعلمه محمد من ورقة بن نوفل؟ كما أنهم لم يذكروا لنا: كم لقاء التقى فيه بورقة بن نوفل، بل إنهم لم يذكروا كم عاش ورقة بعد لقائه الأول مع رسول الله ونحن نقرر هنا: إنه لا دليل عندهم على هذا الذي يتوهمون، وأن خديجة ذهبت بالنبي ﷺ حين بدأه الوحي إلى ورقة، ولما قص الرسول قصصه قال ورقة: هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى.

وليس هذا فقط بل تمنى أن يكون شابا فيه حياة وقوة ينصر بها الرسول ويؤازره حين يخرج قومه، ثم لم يلبث أن مات ورقة، وفتر الوحي مدة ستة أشهر (على خلاف بين العلماء) ولم تذكر الروايات الصحيحة أنه ألقى إلى الرسول عظة، أو درس له درسا في العقائد أو التشريع، ولا ذكر أن الرسول كان يتردد عليه حتى يتلقى منه، بل تؤكد الروايات أن ورقة لم يعيش بعد هذا اللقاء إلا بضعة أشهر، ثم مات وهذه مدة قصيرة لا تكفي لأخذ كل هذا الفيض الإسلامي العظيم^(٢).

وإذا كان ما يدعيه هؤلاء حقا، وأن النبي أخذ عن ورقة عقائد النصراني، فهل ما جاء به النبي هو ما عند النصراني من عقائد وتشريعات، أم أنه يخالف عقائدهم وينكرها عليهم، وينقضهم فيما حرفوه من الكلم وما كتموه من الحق؟! إن كل الذي كان من أمر ورقة أنه بشر النبي وتمنى أن يعيش حتى يكون جنديا مخلصا في الدفاع عن الإسلام.

^١ - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ج ٢، ص ٣٤٠: ٣٣٨ بتصرف.

^٢ - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ج ٢، ص ٣٤٣ بتصرف.

٣- إن محمداً استوعب جميع الديانات السابقة، متصنعا ما يسميه الوحي، وما هو إلا

عرض من أعراض الهستيريا والصرع؟!!

أولاً: في أسلوب حوارِي رشيق يتحدث أحمد ديدات تحت عنوان "ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد صلى الله عليه وسلم" فيقول: "يدافع المسيحي بالحجة عن النبوءات المذكورة في الكتاب المقدس، ويقول: إن الكتاب المقدس تنبأ بقيام روسيا السوفيتية واليوم الآخر وعن قيام البابا، وإنه هو الوحش ٦٦٦ المذكور في سفر الرؤيا وإنه وكيل عيسى على الأرض. وآخر تصريح في تفسير هذه النبوءات أن الوحش ٦٦٦ هو هنري كيسنجر، كما أن بعض هذه النبوءات يذكر قيام إسرائيل وتشكيل دولة الصهاينة العنصرية الباغية المغتصبة!!

إننا نسأل المسيحي: إذا كانت هذه النبوءات قد تحدثت عن قيام روسيا السوفيتية وعن البابا وهنري كيسنجر وتأسيس دولة البغي إسرائيل، فلا بد لهذه النبوءات إذا أن تذكر شيئاً عن النبي صلى الله عليه وسلم. إننا نسأل: ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد؟ يجيب المسيحي: لا شيء. نعود لنقول له: إن هذا الرجل الذي يؤمن به وبرسالته ملايين وملايين الناس، والذين يؤمنون:

- بولادة عيسى المعجزة.
- بأن عيسى هو المسيح.
- وبأن عيسى أحيا الموتى وشفى الأعمى والأكمه والأبرص بإذن الله، لا بد لهذا الكتاب المقدس أن يذكر شيئاً عن هذا الرجل العظيم الذي تكلم كلاماً حسناً عن عيسى وأمه مريم. يجيب المسيحي قائلاً: لا يوجد أي ذكر أو أية نبوءة في الكتاب المقدس عن محمد!

يدعي المسيحي أن هناك مئات بل آلاف النبوءات عن قدوم عيسى المسيح في أسفار العهد القديم إننا لن نتساءل عن هذه النبوءات؛ لأن العالم الإسلامي بأسره قبل بعيسى المسيح دون العودة إلى نبوءات الكتاب المقدس، ونحن نعتز، ونقبل عيسى المسيح بشهادة سيدنا محمد وحده. وهنالك الآن في العالم أكثر من مليار مسلم ممن يحبون ويحترمون ويقدرّون نبي الله العظيم ورسوله عيسى المسيح دون الحاجة إلى أن يقنعهم المسيحي ببطله الإنجيلي الديالكتيكي.

ولكننا نسأل الآن العالم المسيحي بملايينه أن يذكر لنا نبوءة واحدة من هذه الآلاف التي تذكر عيسى بالاسم؟ إن كلمة (مسيح) ليست اسماً بل لقباً، هل توجد نبوءة واحدة تقول بأن اسم المسيح سيكون عيسى؟ وأن اسم أمه سيكون مريم؟ و(والده) المفترض يوسف النجار؟ وأنه سيولد في عهد هيردوس الملك؟ لا. لا توجد هذه التفاصيل. إذا كيف توصل المسيحي إلى أن آلاف هذه النبوءات تشير إلى عيسى؟

يجيبك قائلاً: النبوءة هي حدث سيحصل في المستقبل، وعندما يحل هذا الحدث فإننا نتحقق من وقوع ما تم التنبؤ به في الماضي، إذا إننا نقول لك بأنك تستدل، تستنتج، تستنبط بالمنطق، تجمع (١+١)، (٢+٢). تعال معنا إذا أيها الأخ المسيحي نطبق هذه القاعدة لنفتش عن النبوءات التي تشير إلى سيدنا محمد في كتابك المقدس: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به". (التثنية ١٨: ١٨).

يجيب المسيحي: تشير هذه النبوءة إلى عيسى المسيح. نقول: ولكن لماذا عيسى؟ فاسمه لم يذكر هنا، يرد قائلاً: يصف هذا النص المسيح تماماً. انظر كلمة (مثلك) أي مثل موسى، وعيسى مثل موسى، فموسى كان يهودياً وعيسى

يهودي. موسى كان نبيا وعيسى نبيا، لذا فعيسى مثل موسى، وهذا ما قاله الله لموسى، نقول: هل يمكنك أن تجد أوصافا أخرى يتوافق فيها موسى وعيسى؟

يجيب المسيحي: لا، لا أعتقد أنه يوجد أكثر من ذلك.

نقول: إذا كان هذا هو المعيار الذي تعتمد عليه في قولك بأن هذه النبوءة: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به" تشير إلى عيسى، فإن هذا المعيار ينطبق أيضا على كل الشخصيات التي ذكرها الكتاب المقدس والتي أتت بعد موسى: سليمان، أشعيا، حزقيال، دانيال، هوشع، يوشع، ملاخي، يوحنا المعمدان؛ لأن هؤلاء كانوا يهودا وأنبياء.

إننا نقول: إن عيسى ليس مثل موسى، وسنبرهن لك على ذلك بالعقل والمنطق، فالمثل هو الشبه أو النظير بأدق الصفات والمميزات:

عيسى ليس مثل موسى؛ لأن المسيحي يقول: إن عيسى هو الله، بينما موسى ليس هو الله.

يقول المسيحي: إن عيسى مات لأجل خطايا البشرية، بينما لم يموت موسى لأجل خطايا البشرية.

يقول المسيحي: إن عيسى ذهب إلى الجحيم ثلاثة أيام، بينما لم يذهب موسى إلى الجحيم، ولو ليوم واحد، إذا عيسى ليس مثل موسى، ونقول: إن ما ذكرناه إلى الآن هي مسائل إيمانية، وليست حقائق، قد نختلف عليها، تعال إذا نتكلم منطقيا وعقلانيا.

١. كان لموسى أم وأب، كما كان لمحمد أم وأب. بينما كان لعيسى أم فقط وبدون أب. وهذا يعني أن عيسى ليس مثل موسى، بل إن محمدا هو مثل موسى.

٢. ولد كل من موسى ومحمد ولادة طبيعية - أي بثمره علاقة رجل مع امرأة - بينما خلق عيسى بمعجزة. يقول لنا إنجيل القديس متى: "أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوסף، قبل أن يجتمعا، وجدت حبلى من الروح القدس". (متى ١: ١٨)، كما يخبرنا القديس لوقا عندما أخبرت مريم عن ابنها المقدس: "فقلت مريم للملاك: «كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا»؟ فأجاب الملاك وقال لها: «الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظلللك، فلذلك أيضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله»". (لوقا ١: ٣٤، ٣٥).

إذا كانت ولادة عيسى بمعجزة بينما كانت ولادة كل من موسى ومحمد ولادة طبيعية، لذا فإن عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٣. تزوج كل من موسى ومحمد وأنجبا أولادا، بينما لم يتزوج عيسى وبقي عزبا طوال حياته، إذا: عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٤. اعتنق اليهود ديانة موسى في حياته، كما اعتنق العرب الإسلام في حياة محمد، ولقد عانى موسى من شعبه كثيرا، ولكنهم في النهاية قبلوه نبيا أرسل إليهم، كما عانى محمد من العرب واضطر إلى الهجرة للمدينة المنورة بعد ثلاث عشرة سنة من الإقامة في مكة، واعتنق العرب الإسلام قبل وفاته وقبلوه نبيا أرسل إليهم، بينما يقول الكتاب المقدس عن المسيح: "إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله". (يوحنا ١١: ١)، وحتى هذا اليوم وبعد ألفي عام، فإن شعبه أو خاصته (اليهود) لم تقبله. إذا عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٥. كان موسى ومحمد نبيين ورئيسي دولة - ملكين - والمعنى بكلمة نبي شخص يتنزل عليه وحي سماوي لإرشاد البشرية، والوحي الذي يتنزل عليه ينقله إلى البشر دون إضافة أو نقصان، ورئيس الدولة أو الملك شخص لديه القرار

بالحكم بالموت أو الحياة على أتباعه، ولا يهم إذا وضع رئيس الدولة أو الملك تاجا على رأسه أو اكتسى لباس الملك، أو لباس رئيس الدولة، فإن تمتع بالقدرة على إنزال العقوبة القصوى فهو ملك.

امتلك موسى هذه القدرة، ففي قصة الإسرائيلي الذي كان يجمع الخطب يوم السبت، أمر برجمه حتى الموت: "فأخرجته كل الجماعة إلى خارج الحلة ورموه بحجارة، فمات كما أمر الرب موسى". (العدد ١٥ : ٣٦)، وهنالك جرائم أخرى مذكورة في الكتاب المقدس أمر موسى فيها بالعقوبة القصوى على اليهود، وتمتع محمد أيضا بالقرار لإصدار الأحكام بالموت على أتباعه.

وهنالك نبوءات في الكتاب المقدس عن أنبياء لم يتمكنوا من تنفيذ الوحي السماوي على البشر، وقد فشل هؤلاء القديسون في إقناع الناس بدعوتهم، كلوط ويونان ودانيال وعزرا ويوحنا المعمدان، لقد بلغوا الرسالة فقط ولم يتمكنوا من تطبيقها، وللأسف فإن سيدنا عيسى ينتمي إلى هذه المجموعة، والكتاب المقدس يؤكد هذه الحقيقة.

عندما أحضر عيسى أمام الحاكم الروماني بيلاطس متهما بقذف الدولة، دفع التهمة الباطلة عنه بحجة مقنعة قائلا: "أجاب يسوع: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا»". (يوحنا ١٨ : ٣٦)، أقنعت هذه الحجة بيلاطس الوثني بأن عيسى لا يملك قواه الفعلية، ولا يشكل خطرا على حكمه، لقد ادعى عيسى مملكة سماوية فقط، أي بعبارة أخرى ادعى أنه نبي فقط. إذا عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٦. لقد أدخل كل من موسى ومحمد تعاليم وقوانين جديدة لأتباعهما وشعبيهما، ولم تقتصر دعوة موسى بوضع الوصايا العشر للإسرائيليين، بل اشتملت أيضا على طقوس وقوانين شاملة لرشاد شعبه، ولقد ظهر محمد في وقت كان العرب فيه في جهل وبربرية عمياء. كان العربي في ذلك الزمن يتزوج زوجة أبيه ويند بناته أحياء، وكان يتعاطى الخمر ويمارس الزنا، وكانت عبادة الأصنام والمقامرة شغله الشاغل.

ويصف جيبون العرب قبل الإسلام في كتابه "سقوط وتدهور الإمبراطورية الرومانية" قائلا: "يصعب تمييز الصفات الإنسانية عن الصفات البهيمية الحيوانية، يصعب التمييز فيها بين الإنسان والحيوان، لقد كان الإنسان في تلك الفترة بهيمة في صورة إنسان".

ومما لا شك فيه أن محمدا قد انتشل العرب من هذه البربرية الوضعية، كما يقول توماس كارليل، وجعلهم حملة مشعل النور والمعرفة: "لقد كان ذلك بالنسبة للعرب ولادة من ظلام إلى نور، ولقد ولد بسببه شعب رعاة تائه في صحرائه منذ بدء الخليقة، ترى المنسي ملء سمع العالم، والصغير كبيرا، وأصبحت الجزيرة العربية خلال قرن واحد من الزمان في غرناطة من جهة ودلحي من جهة أخرى - تضيء شجاعة ومهاء، ونور العبقريّة يشع على الجزيرة العربية وعلى أجزاء كبيرة من العالم، لقد أعطى محمد شعبه قانونا ونظاما لم يعرفه من قبل.

شك اليهود في أن عيسى قد يكون أفاكا يريد إفساد تعاليمهم، ولقد حاول عيسى جاهدا أن يؤكد لهم بأنه لم يأثم بدين جديد (لا قوانين جديدة ولا تعاليم جديدة) وهي أقواله: "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل". (متى ٥ : ١٧، ١٨).

وبعبارة أخرى، فإنه لم يأت بقوانين جديدة أو تعاليم جديدة، بل أتى لإنجاز الناموس القديم. هذا ما أراد عيسى أن يفهمه لليهود، إلا إذا كان يخدعهم ليقبلوه نبيا محاولا فرض دين جديد عليهم، ولكن لا يلجأ هذا النبي العظيم إلى هذه الوسيلة لتخريب دين الله. هو نفسه قد أنجز الناموس وأتمه، وتقيد بالوصايا، واحترم السبت، فلم يتهمه

أي يهودي يوما ما قائلا: لماذا لم تصم، أو لماذا لم تغسل يديك قبل تناول الخبز، صحيح أن التهم ألصقت بتلاميذه، لكنه هو نفسه لم يرم بأية تحمة مطلقا، ولو لمرة واحدة، وذلك لأنه كيهودي مؤمن احترام تعاليم الأنبياء الذين سبقوه، وبإيجاز فإنه لم يأت بدين جديد ولا تعاليم جديدة كما فعل موسى ومحمد. إذا: عيسى ليس مثل موسى، بل موسى مثل محمد.

٧. دفن موسى ومحمد في التراب في هذه الأرض، بينما يقول النصارى إن عيسى في السماء، إذا عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

لقد حاولنا حتى الآن التركيز على زاوية واحدة فقط من هذه النبوءة، أي "أقيم لهم نبيا مثلك"، مثلك أنت؛ أي: مثل موسى، ولكن النبوءة تقول أكثر من هذه العبارة: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك".

سنركز الآن على العبارة: "من وسط إخوتهم" يخاطب الله اليهود هنا، موسى وشعبه كمجموعة عرقية، لذا فإخوتهم هم حتما العرب، يخبرنا الكتاب المقدس أن إبراهيم خليل الله كان له زوجتان: سارة وهاجر. وولدت هاجر لإبراهيم ولدا (البكر) يذكر الكتاب المقدس أن اسم إبراهيم كان إبرام، ثم غيره الله إلى إبراهيم: "فولدت هاجر لأبرام ابنا. ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل". (التكوين ١٦ : ١٥).

"فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه، وجميع ولدان بيته، وجميع المبتاعين بفضته، كل ذكر من أهل بيت إبراهيم، وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله... وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته". (التكوين ١٧ : ٢٣. ٢٥).

كان إسماعيل الابن الوحيد لإبراهيم وذرية إبراهيم عندما جدد الله العهد مع إبراهيم. أعطى الله إبراهيم ولدا آخر من سارة، وكان اسمه إسحاق، وكان أصغر من أخيه إسماعيل. إسماعيل وإسحاق هما ابنا الأب الواحد إبراهيم، فهما أخوان. إذا فأولاد الأخ هم إخوة أبناء الأخ الآخر. أولاد إسحاق هم اليهود، وأولاد إسماعيل هم العرب، فهم إذا إخوة، يؤكد الكتاب المقدس فيقول: "وإنه يكون إنسانا وحشيا، يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن". (التكوين ١٦ : ١٢). "وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو آشور. أمام جميع إخوته نزل". (التكوين ٢٥ : ١٨). أولاد إسحاق هم إخوة أولاد إسماعيل، ومحمد من أولاد إسماعيل إخوة بني يعقوب - الإسرائيليين - هذا ما تقوله هذه النبوءة: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك...". (التثنية ١٨ : ١٨)، تحدث النبوءة بوضوح أن هذا النبي الذي يكون مثل موسى لن يكون من الإسرائيليين، بل من إخوتهم، وكان محمد من إخوتهم. إذا كانت النبوءة تتحدث عن محمد.

ونتابع النبوءة فنقول: "... وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به". (التثنية ١٨ : ١٨). فما هو المقصود بهذه العبارة عندما تقول: "اجعل كلامي في فمه"؟ إذا طلبنا إليك أيها القارئ العزيز أن تردد من بعدنا عبارة، فإننا نكون قد جعلنا كلامنا في فمك، أو إذا أردنا أن نعلمك لغة أجنبية، وقلنا لك: ردد من بعدنا، فإننا نضع الكلمات في فمك. وهكذا فإن القرآن الكريم يصدق هذه النبوءة من خلال الوحي الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه السلام، وسنرى فيما يلي كيف جعل الله كلامه في فمه.

يخبرنا التاريخ أن محمدا كان في الأربعين من عمره في كهف على بعد ثلاثة أميال من مكة يدعى "غار حراء"، وفي الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان نزل الملاك جبريل عليه السلام على محمد فقال له: "اقرأ"، فأجابه محمد: "ما أنا بقارئ"، يعني: أنه لا يعرف القراءة، فطلب إليه جبريل للمرة الثانية، وسمع منه نفس الجواب، وفي المرة الثالثة قال له جبريل: {اقرأ باسم ربك الذي خلق (١)} (العلق)، تأكد عندئذ لمحمد أن عليه أن يردد ما قاله جبريل، فردد

الكلمات التي وضعت في فمه: {اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥)} (العلق)، هذه هي الآيات الخمس الأولى التي أنزلها الله على محمد، وهي أولى الآيات في سورة العلق.

عاد محمد ﷺ إلى منزله من الغار، بعد أن تركه الملاك جبريل يرتعد خوفاً، وطلب إلى زوجته خديجة أن تضع عليه غطاءً، وبعد أن استراح وهدأت نفسه شرح لزوجته ما سمعه ورآه، فشجعتته وشدت من عزيمته، قائلة له: لا يريد الله بك شراً. هل هذه اعترافات أفك أو محتال؟ هل يعترف الأفك عندما يقابل ملاكاً أرسله الله، يخاف يرتعد، يتعرق، ويجري مسرعاً إلى منزله؟ لا يمكن لأي إنسان مهما كان متحيزاً إلا أن يقر ويعترف بأن هذه الانفعالات والاعترافات لا تصدر إلا عن إنسان صادق أمين.

وخلال الثلاث والعشرين سنة من نبوة محمد "وضعت في فمه" آثار راسخة لا تمحى من قلبه وعقله، ومع استمرار نزول القرآن الكريم وحيا عليه كانت هذه الكلمات التي وضعت في فمه تسجل على جلد الحيوان، وعلى قلوب صحابته، وقد رتبت هذه السور قبل وفاته وجمعت ووضعت على الشكل الذي نرى عليه القرآن الكريم اليوم. كلمات الله (الوحي) وضعت في فمه، كما تقول النبوءة: "... وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به".

إن تجربة محمد في الغار في الجبل الذي أطلق عليه اسم "جبل النور"، وتحاوله مع أولى كلمات الوحي ينطبق أيضاً على نبوءة أخرى في سفر إشعياء، والتي تقول: "أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له: «اقرأ هذا». فيقول: «لا أعرف الكتابة». (النبي الأمي) لقد أجاب محمد جبريل بقوله: "ما أنا بقارئ"، وتقول النبوءة: "يدفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة ويقال له: «اقرأ»، فيقول: «لا أعرف القراءة»" (إشعياء ٢٩: ١٢)

لم يكن يوجد كتاب مقدس في اللغة العربية في القرن السادس الميلادي في الفترة التي ظهر فيها محمد، إضافة إلى أن محمداً كان أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة، لم يتعلم من أي إنسان حرفاً، بل علمه خالقه شديد القوى كل شيء: {وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤) علمه شديد القوى (٥)} (النجم).

وقد يجيب المسيحي قائلًا: لا بأس بكل ما تقدم من أدلة وبراهين، ولكني كمسيحي أؤمن بأن عيسى المسيح هو الله، وقد خلصنا من الخطيئة. والجواب على هذا بأن الله عز وجل لا يقبل هذا الكلام؛ لأنه أمر بتسجيل تحذيره. يعلم الله بأنه سيأتي زمن يترك فيه الناس كلامه ويفسرونه كما يشاءون ويرغبون، لذا فإنه أتبع هذه الفقرة من التثنية: "وأجعل كلامي في فمه". (التثنية ١٨: ١٨)، وحذر الناس قائلًا: "ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه". (التثنية ١٩: ١٨).

ألا يخيفك هذا التهديد والوعيد يا أختانا المسيحي؟ معجزة المعجزات! ففي التثنية دليل آخر على تحقيق النبوءة التي تشير إلى النبي محمد الذي سيتكلم كلاماً باسم الله: "لكلامي الذي يتكلم به باسمي"، فويل للإنسان الذي لا يسمع ويطيع كلامه فالله سيطلبه وسيحاسبه.

نسألك أيها الأخ: من قبل محمد تكلم باسمه تعالى؟

وأنت ترى وتسمع الكلام الذي أنزل على محمد تبدأ كل سورة فيه بالآية الكريمة {بسم الله الرحمن الرحيم}، حتى صارت هذه الآية شعار المسلم عند قيامه بأي عمل، فكيف تقبل أيها المسيحي أن تخالف الأمر الذي نزل في كتابك المقدس، وأن تنحرف عن مقولة "باسم الله" لتبدلها بشعار "باسم الآب والابن والروح القدس"؟!

أضف إلى ما سبق أن مجلة "التايم" الأمريكية الصادرة في ١٥ تموز ١٩٧٤ نقلت آراء مؤرخين وكتبة وقادة عسكريين ورجال أعمال عن الموضوع: من هم أعظم رجال التاريخ؟ قال البعض: هتلر، وقال آخرون: غاندي، بوذا، لنكولن، ومن شابههم.

وضع جول ماسر مان وهو عالم نفساني أميركي مشهور معيارا للحكم، وقال: إن على القائد أن ينجز ثلاث وظائف:

- أن يؤمن الخير للذين يقودهم.
 - أن يؤمن نظاما اجتماعيا يوفر الأمان لأتباعه.
 - أن يقدم لهم مجموعة معينة من العقائد.
- سلط هذا البرفيسور هذا المعيار على التاريخ وحلل شخصياته: الإسكندر، بوذا، هتلر، باستور، سالك، قيصر، موسى، عيسى، كونفوشيوس، وغيرهم، ووصل في الختام إلى هذه النتيجة:
- أنجز باستور وسالك الوظيفة الأولى.
 - أنجز عيسى وبوذا الوظيفة الثانية.
 - أنجز محمد أعظم القادة في كل الأزمنة الوظائف الثلاث مجتمعة، وشاركه موسى بهذا الإنجاز ولو بدرجة أقل.
- غابت صورتنا عيسى وبوذا من لوحة رجال الإنسانية العظام حسب هذا المعيار الموضوعي الذي وضعه هذا البروفيسور الكبير في جامعة شيكاغو، وكانت النتيجة وبمحض الصدفة انتماء موسى ومحمد إلى نفس المجموعة من الرجال العظام، مما أضاف دليلا آخر على الأدلة والبراهين التي سبق الإتيان بها وشرحها وتفصيلها على أن: عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به"^(١).

ثانياً: وهنا يرد السؤال حول الحنفاء وهم أفراد قلائل من العرب دانوا في الجاهلية ببقايا مبادئ الحنفية دين إبراهيم عليه السلام، ساخطين على ما عجت به أحوال المجتمع الجاهلي من عبادات وثنية وضیعة وأحوال متردية ذنیة، لكن أمر هؤلاء الحنفاء (لندرتهم واعتزالهم في الغالب) لم يكن ظاهرا، وحركتهم لم تكن ملحوظة، وفي تنفيذ احتمال اقتباس النبي منهم يقول د. إبراهيم عوض: "زعم المستشرقون أن النبي قد أخذ منهم: الحنفاء، وهم أفراد من العرب ظهروا قبيل البعثة النبوية، لم يقنعهم ما عليه أقوامهم من عبادة أصنام وتظام، وغير ذلك من مظاهر التحلل الروحي والفساد الاجتماعي، وبدلا من أن يرى المستشرقون في ذلك دليلا على أن الجو كان يستدعي ظهور نبي يصلح هذه الحال المائلة في جزيرة العرب وفي العالم معا، إذ كانت الأوضاع في الإمبراطوريات العالمية في ذلك الوقت مثلها في شبه الجزيرة تزداد سوءا بل إلى أسوأ دائما، نراهم كعهدهم فيما يتعلق بالإسلام ونبیه، يتهمونه بالأخذ من هؤلاء الحنفاء، وفي مناقشتنا لهذا الادعاء نحب أن نضع تحت بصر القارئ الحقائق التالية:

إن أحدا من الحنفاء لم يدّع هذا، ولو حدث أن النبي قد تعلم من أي منهم لانبزى واحد منهم على الأقل وليكن أمية بن أبي الصلت، الذي لم يشأ أن يؤمن بالنبي لأنه كان يطمع أن يكون هو الرسول المختار وقال: لا تصدقوا محمدا، فإنه دعوى كذاب، لقد تعلم منا، وأخذ ما علمناه إياه ولفق منه ديننا، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث،

^١ - أعضاء على المسيحية، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص١٥٥: ١٦٩ بتصرف. المسلمون في إنجيل متى، د. ممدوح جاد، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢١١. آلام المسيح: رؤية نقدية إسلامية، ياسر أنور، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٧٤.

فكيف يحق لأي مستشرق أن يتقدم بهذا الاتهام بعد أكثر من أربعة عشر قرناً، وليس في يديه أي دليل؟ أهذه هي الموضوعية التي يتشدقون دائماً بها، بينما يرموننا بأننا ندافع عن ديننا بالحق والباطل؟!

ثم إن محمداً لو كان قد تعلم من الحنفاء، فمن كان أولى إذن بادعاء النبوة؟ واحد من الأساتذة الأصلاء أم محمد تلميذ هؤلاء الأساتذة الأجلاء؟ ولا يقولن أحد: إنهم كانوا مشغولين فقط بمصايرهم الفردية، فقد كانوا دائماً يعيرون على أقوامهم قبح ما يعتقدون ويصنعون، وكان لبعضهم مواعظ في الأسواق والجامع، ولكن أحداً منهم قط لم يدع النبوة، فما السبب في ذلك ما دام ادعاؤها سهلاً إلى حد أن تلميذاً من تلاميذهم مثل محمد قد زعم أنه نبي يوحى إليه من السماء".

أضف إلى هذا أن من الحنفاء من أسلم وآمن بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أسلم ورقة بن نوفل بعد أن استحكم في النصرانية، كما أسلم أيضاً عبيد الله بن جحش بعد الالتباس الذي كان فيه، ثم ظل مسلماً إلى أن هاجر إلى الحبشة، وهناك تنصر ومات على النصرانية، ولا يفوتنا أنه لو كان سمع أو شهد أن محمداً قد سرق أفكاره من أحد لما آمن به في البداية أو لفضحه بذلك عند النجاشي ومطارنته.

ومن الحنفاء أيضاً عثمان بن الحويرث، وقد قدم على قيصر فتنصر وحسنت منزلته لديه (لاحظ أن من تنصر منهم قد تنصر في الغربية). ويذكرون أن قيصر توجه وولاه أمر مكة ولكن أهل مكة رفضوه. وقد مات بالشام مسموماً على يد عمرو بن جفنة الملك الغساني، وهو ما يعطينا فكرة عن نواياه ودوافعه.

أما زيد بن عمرو بن نفيل فقد اتبع دين إبراهيم واعتزل الأوثان والميتة والقرايين، ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وقد دخل في الإسلام ابنه سعيد بن زيد، وابن عمه عمر بن الخطاب، وابنة عمه (أخت عمر وزوجة سعيد بن زيد نفسه) فلو أن سعيداً هذا أحس أن محمداً قد تعلم من أبيه أو لو أن أباه صارحه بشيء من ذلك لما أسلم البتة، أو لو أن عمر صاحب العين اليقظة والعقل اللماح واللسان الجريء حاكت في قلبه أية ذرة من ريبة حول محمد وأخذه المزعوم عن الحنفاء أو عن ابن عمه بخاصة لما دخل في الإسلام أبداً^١.

ويضاف إلى ما سبق أن ما كان باقياً وقتها من مبادئ الحنيفية لم يكن سوى أفكار باهتة، ولمع خافته لم تنر طريق السائرين عليها بشكل تام فظلوا تائهين هائمين كما يروى عن كثير منهم حتى جاء الإسلام، فأين هذا من الصرح العظيم الهائل الكامل؛ عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملة؟! ذلك الدين الحنيف الذي أظهره الله على الدين كله رغم أنف الصادين المعاندين.

ثالثاً: فهل الإسلام دين محرف عن اليهودية والنصرانية؟

أجبنا بشكل عام فيما سبق ونزيد فنقول: بغض النظر عن المزاعم القائلة بأن محمد ﷺ أخذ عن بحيرا الراهب، الذي لقيه بشكل عابر في رحلة تجارية إلى الشام، وهو ما يزال صغيراً، كما تروي المصادر التاريخية. أو عن ورقة بن نوفل الذي صدقه فور علمه بخبر نزول الوحي عليه، عندما أخذته إليه السيدة خديجة كما تروي المصادر أيضاً، فإن المقارنة العلمية لجوهر هذه الأديان (الذي يستوحي من كتبها المقدسة) توضح اتساع البون بين مبادئ الإسلام وبين هذه الأديان السابقة المدعى عليه أنه نسخة محرفة منها.

حول هذه المقارنة يحدثنا الأستاذ أحمد عبد الوهاب، قائلاً:

١. **الإله:** يرفض المسلم كل قول ينسب لله تجسيدا أو تشبيها، أو حلولاً في أشياء، وما إلى ذلك من أوهام وضلالات، كما يرفض كل حديث يصور الله وقد لحقت به عواطف الإنسان وانفعالاته وضعفه، فكل ذلك باطل

^١ - مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ١٢٩: ١٣٦ بتصرف.

الأباطيل، إن القاعدة الأصلية التي يقوم عليها فكر المسلم في الإله الحق أنه واحد أحد صمد: { لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤) }، وأنه: { ليس كمثله شيء } وأنه: { لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار } { ولله على كل شيء قدير }، { وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم } وفيما يلي بعض ما يرفضه الفكر الإسلامي مما نجده في الأسفار: خاصا بهذا الموضوع الخطير، بل إنه أخطر موضوعات العقيدة على الإطلاق:

الراحة بعد خلق السماوات والأرض: يقول سفر التكوين: "وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقُدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً". (التكوين ٢: ٢، ٣).

ولقد صحح الله هذا المفهوم في القرآن فقال: { ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب (٣٨) } (ق)، وفي صيغة استفهام استنكاري نقرأ قول الحق: { أفبعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥) } (ق).

الندم على خلق الإنسان وغيره: "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه. فقال الرب: «أخو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقتة، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم»". (التكوين ٦: ٥ - ٧). لكن القرآن يصحح المفاهيم حول عمليات الخلق، فيقول: { وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعين (٣٨) ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٩) } (الدخان)، { إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) } (القمر)، { الذي أحسن كل شيء خلقه } (السجدة: ٧)، { يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (٢) } (الرعد)، { عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير (٧٣) } (الأنعام).

بلبله ألسنة البشر ليتفرقوا فلا يتقدموا في الحياة: "وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: «هلم نصنع لبنا ونشويه شيا». فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا: «هلم نبين لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض». فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: «هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداءهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض». فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعى اسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض". (التكوين ١١: ١ - ٩).

لكن القرآن يعلم الناس جميعا أن اختلاف ألسنتهم كاختلاف ألوانهم، إنما هو آية دالة على قدرة الله وبديع صنعته: { ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢) } (الروم). ويعلمنا القرآن أن الله يرضى عن تقدم الإنسان في هذه الحياة، إذ يقول: { وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١٣) } (الجاثية).

مصارعة إنسان والعجز عن التغلب عليه: إنما حقا تصدم كل مسلم حين يقرأ هذا العنوان الفرعي في الأسفار: "يعقوب يصارع الله"، تقول هذه الأسطورة: "فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فأنخلع حق فخذه يعقوب في مصارعة معه. وقال: «أطلقني، لأنه قد طلع الفجر».

فقال: «لا أطلقك إن لم تباركني». فقال له: «ما اسمك؟» فقال: «يعقوب». فقال: «لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت». وسأل يعقوب وقال: «أخبرني باسمك». فقال: «لماذا تسأل عن اسمي؟» وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان «فنيئيل» قائلا: «لأنني نظرت الله وجهها لوجه، ونجيت نفسي». (التكوين ٣٢: ٢٤-٣٠).

ونجد في القرآن ما يعزينا عن مثل تلك الأوهام ومثيلا لها كثير، حين نقرأ قول الحق: {ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز (٧٤)} (الحج).

الحلول في الإنسان: تلك عقيدة مستقاة من أساطير الأقدمين، هنودا ومصريين وإغريق وغيرهم، حيث تصوروا أن آلهتهم تحل في الإنسان، بل في الحيوان والطير، ولهذا عبدوا تلك المخلوقات وسجلوا ضلالاتهم هذه على معابدهم وآثارهم، وها هو كاتب إنجيل يوحنا ينفرد - دون غيره من كتبة الأناجيل - بتقرير أن الله قد حل في المسيح، إذ ينسب إليه هذا القول: "ألمست تؤمن أنني أنا في الآب والآب في؟ الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلّم به من نفسي، لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال. صدقوني أني في الآب والآب في، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها". (يوحنا ١٤: ١٠، ١١).

وفكرة الحلول هذه التي تسربت إلى الإنجيل الرابع - قد جاءت من رسائل بولس الهلينستي التي كتبت قبله بأكثر من خمسين عاما، فقد كتب يقول عن المسيح: "فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا". (رسالة بولس إلى أهل كورنثوس ٢: ٩).

إن القول بأن المسيح إله أو ابن إله، وأنه الأقنوم الثاني من الثالوث، أو أن الله قد حل فيه، كل ذلك قد تسرب إلى المسيحية من الديانات البشرية القديمة. لقد وصف القرآن الذين يعتنقون مثل هذه الأفكار بأنهم يحاكون ما كان عليه قدامى الكافرين، وذلك في قوله: {وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل (٣٠)} (التوبة: ٣٠).

يقول أدولف أدلمان في كتابه "ديانة مصر القديمة" عند الحديث عن معتقدات المصريين القدماء: "اعتقد المصري أن روح الإله تسكن الحيوان المقدس في معبده. وقد أعطى هذا الاعتقاد رجال الدين المتفقهين فيه فرصة طيبة لكي يضموا في تعاليمهم هذه الحيوانات المقدسة، فتمتعت العجول والثيران والبقر والصقور والتماسيح والثعابين بقداسة لا شك فيها. وانتهى الأمر بهم أنهم لم يكتفوا بجعل روح واحدة لكل إله، بل زادوا العدد، فمثلا رع كانت له سبعة أرواح. ولما كان الملك في اعتقادهم ذا صفات إلهية؛ لذلك وجب أن يكون له أرواح كثيرة. وكفينا أن نختتم هذه الكلمة بحقيقة أخرى وهي أن الإله يمكن أن يكون بمثابة روح لإله آخر. فمثلا آمون كان روح شو أو روح أوزوريس، وعندما عانق أوزوريس إله منديس الممثل على شكل التيس - تكون من هذا العناق روح مزدوجة".

إن الإسلام حازم وواضح تماما في كل ما يتعلق بألوهية المسيح، فالقرآن يقول: {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل (٥٩)} (الزخرف)، وقال جل شأنه: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا (٨٨) لقد جئتم شيئا إدا (٨٩) تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا (٩٠) أن دعوا للرحمن ولدا (٩١) وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا (٩٢) إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا (٩٣) لقد أحصاهم وعدهم عدا (٩٤) وكلهم آتية يوم القيامة فردا (٩٥)} (مريم)، وقال سبحانه وتعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين

من أنصار (٧٢) لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٧٣) أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم (٧٤) { (المائدة).

إن المسيح ليتبرأ من كل من يحاول الخلط بينه وبين الله، أو ينسب له ألوهية على أي صورة من الصور، فلا يزال قوله الحق في الأناجيل واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، وغير محتاج إلى شرح المفسرين وتأويل المتفهبين: "وفيما هو خارج إلى الطريق، ركض واحد وجثا له وسأله: «أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟» فقال له يسوع: «لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله». (مرقس ١٠: ١٧، ١٨، متى ١٩: ١٦، ١٧، لوقا ١٨: ١٨، ١٩)، لقد أجمعت الأناجيل الثلاثة التي لا تعرف شيئاً عن الزعم بحلول الله في المسيح على هذه الحقيقة الأساسية التي هي المفتاح لحل الخلافات العقائدية بين المسيحيين أنفسهم، وبينهم وبين المسلمين. لقد كان ما قرره المسيح هنا متفقاً تماماً مع ما يقرره القرآن في آيات كثيرة من أبرزها: {ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم (٦٠)} (النحل)، {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٧)} (الروم: ٢٧).

٢. الأنبياء: إن المسلم ليرفض كل ما ألحق بسير الأنبياء من نقائص ومخاز، فهم عباد الله المصطفون الأخيار، جعلهم الله هداة للبشرية وأسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، فالقرآن يقول فيهم: {وأولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبننا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً (٥٨)}، تلك هي عقيدة المسلم في أنبياء الله، ومن ثم فهو ينكر بل يستنكر كل الخطايا والسقطات التي نقرؤها عنهم في الأسفار، ومن أمثلة ذلك ما يقال عن:

زنا لوط بابنتيه: وكان من ثمرته ابنا الزنا موآب وعمون ومن ذرية أولهما جاء داود، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه «موآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عمي»، وهو أبو بني عمون إلى اليوم". (التكوين ١٩: ٣٠ - ٣٨).

خيانة موسى وهارون لله: وكان هذا الاتهام الخطير هو آخر وحي تلقاه موسى قبل موته، (التثنية ٣٢: ٤٨ - ٥١)، لكن القرآن يبرئ موسى وهارون من هذه الخيانة وأمثالها، فيقول: {واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا (٥١) وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً (٥٢) ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا (٥٣)} (مريم)، وقال سبحانه وتعالى: {ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) وآتيناهما الكتاب المستبين (١١٧) وهديناهما الصراط المستقيم (١١٨) وتركنا عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى وهارون (١٢٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢١) إنهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢)} (الصافات).

زنا داود بامرأة أوريا الحثي: ثم تأمر عليه وقلته: (صموئيل الثاني ١١: ٢٧)، ويكفي أن نقرأ ما يقوله القرآن في شأن داود حتى نقول كما علمنا القرآن في مواجهة مثل تلك التهم الخطيرة أن نقول: {ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم (١٦)} (النور). فالقرآن يقول في داود: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً (٥٥)} (الإسراء)، {ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد (١٠)} أن يعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير (١١).... اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور (١٣) (سبأ).

كفر سليمان في أواخر أيامه (الملوك الأول ١١ : ١ - ٩)، لكن القرآن يذكر سليمان بالخير ويبرئه تماما من تهمة الكفر هذه: {ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٣٠)} (ص)، وقال تعالى: {واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا} (البقرة: ١٠٢).

أنبياء بني إسرائيل قبل المسيح كانوا لصوصا: إن هذا ما ينسبه إنجيل يوحنا إلى المسيح حين يقول: "فقال لهم يسوع أيضا: «الحق الحق أقول لكم: إني أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص، ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى. السارق لا يأتي إلا ليسرق ويدبح ويهلك، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل. أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف". (يوحنا ١٠ : ٧ - ١١).

وكل ما سبق قليل من كثير مما يصدم المسلم حين يقرأ سير النبيين في الأسفار.

٣. قضية صلب المسيح: يختلف الإسلام مع النصرانية في قضية أساسية من قضايا الإيمان في عقائد المسيحيين، وهي القول بأن المسيح انتهت حياته بالصلب، وأن ذلك كان ضرورة للتكفير عن خطايا البشر حسب نظرية بولس، إن القرآن يقرر بوضوح عدم صلب المسيح، وأن الله نجاه من محاولات اليهود قتله، بأن رفعه إليه، وأن الأمر كان فتنة اختلطت فيها حقيقة الأمر على كثير من الناس، فالقرآن يقول: {وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما (١٥٨)} (النساء).

ويكفي أن نرجع إلى الأسفار في هذه القضية لنعلم فيها الآتي:

١. حين شعر المسيح بالخطر يتهدد به وهو في الحديقة كانت صلاته حارة إلى الله كي ينجيه من الموت. فقد: "ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا، وابتدأ يدهش ويكتئب. فقال لهم: «نفسي حزينة جدا حتى الموت! امكثوا هنا واسهروا». ثم تقدم قليلا وخر على الأرض، وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن. وقال: «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس. ولكن ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت»". (مرقس ١٤ : ٣٣ - ٣٦)، (لوقا ٢٢ : ٤٣، ٤٤).

٢. حين جاءت قوة الظلم وتقدم يهوذا الخائن ليدلهم على سيده: "فقال له يسوع: «يا صاحب، لماذا جئت؟»، حينئذ تقدموا وألقوا الأيدي على يسوع وأمسكوه". (متى ٢٦ : ٥٠).

٣. وفي المحاكمة "اجتمعت مشيخة الشعب: رؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجتمعهم قائلين: «إن كنت أنت المسيح، فقل لنا!». فقال لهم: «إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني»". (لوقا ٢٢ : ٦٦، ٦٨).

وهنا وقفة، لنفرض جدلا أنه كان المسيح، فإن هذا يعني أنه كان يرجو إطلاق سراحه، وهذا ينفي ما نقرؤه في رسائل بولس وما اقتبس منها في الأناجيل، مثل القول بأن المسيح: "بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الشرير"، أو أنه "بذل نفسه فدية لأجل الجميع"، ومعنى ذلك أنه لو كان المسيح قد قتل حقا، لكان ذلك رغما عنه. وبهذا تتعاضد خطيئة البشرية التي قتلته ظلما وقهرا. ومن يكفر عن تلك الخطيئة العظمى بعد ذلك؟! وإذا افترضنا أنه ليس المسيح فإن هذا ما يفيد المضمون، خاصة إذا علمنا أن الفقرة التالية لهذا هي قول ذلك الذي يستجوبونه: "منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله". (لوقا ٢٢ : ٦٩)، وهذا يقطع بأن الشخص الذي قبضوا عليه

وحاكموه وصلبوه، إنما كان شخصا آخر غير المسيح، وأنه رآه بعيني رأسه، وقد صعد إلى السماء ولهذا قال: "منذ الآن".

٤. ولقد كانت آخر صرخة للمصلوب هي قوله: «إلوي، إلوي، لما شبقطني؟» الذي تفسيره: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟ (مرقس ١٥: ٣٤). لكن المسيح قرر في الإنجيل أن الله معه ولن يتركه أبدا. وهذا ما يعتقد كل المؤمنين. فهو يقول: "والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الأب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه". (يوحنا ٨: ٢٩)، فمن المؤكد أن الذي أطلق صرخة اليأس تلك على الصليب إنما كان شخصا آخر غير المسيح الذي أكد أن الله معه في كل حين.

٥. لقد تنبأ المسيح بنجاته من القتل (كما تنبأت المزامير كثيرا وكثيرا)، فلا يزال بين أيدينا ما قاله المسيح في تحد لليهود حين حاولوا اصطیاده في إحدى المرات: "فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خداما ليمسكوه. فقال لهم يسوع: «أنا معكم زمانا يسيرا بعد، ثم أمضى إلى الذي أرسلني. ستطلبوني ولا تجدوني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا»". (يوحنا ٧: ٣٢-٣٤)، لا نظن أحدا يشك في وضوح هذا القول الذي يعني أن اليهود حين يطلبون المسيح لقتله فلن يجدهوه؛ لأن الله سيحفظه بالرفع، ومن الطبيعي أن يقال: إن السماء مكان يعجز اليهود عن الوصول إليه تعقبا للمسيح.

٦. هذا وقد اختلفت الأناجيل الأربعة في عناصر قصة الصلب، ويكفي أن نذكر أن العشاء الأخير كان حسب الثلاثة الأولى: متى ومرقس ولوقا هو عشاء الفصح، وأما الإنجيل الرابع فقد جعله قبل الفصح بأيام. وقد ترتب على هذا أن كان يوم الصلب حسب الثلاثة يوم الجمعة، بينما هو حسب إنجيل يوحنا يوم الخميس الذي ذبحت فيه خراف الفصح. (يوحنا ١٨: ٢٨، ويوحنا ١٩: ١٤)، ولما كانت المقبرة التي وضع فيها جسد المصلوب قد وجدتها مريم المجدلية خالية صباح الأحد، فإن هذا يعني أن جسد ذلك المصلوب لم يدفن في الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال حسبما هو شائع في الأناجيل. (متى ٤٠: ١٢، ومتى ٢٣: ١٧، مرقس ٣١: ٩، لوقا ٢٢: ٩)، فالفترة بين يوم الجمعة يوم الصلب ويوم الأحد يوم القيامة، لا تزيد على يوم واحد وليلتين، وهذا قليل من كثير مما يبرهن على عدم صلب المسيح^(١).

هل يعقل بعد كل ما سبق عن جوهر الأديان السابقة ومضامين كتبها المقدسة المحرفة، أن يقال إن الإسلام قد اشتق منها؟ على ما بينها وبينه من اختلافات جذرية شاسعة؟!

رابعا. موضوع الوحي والصرع: زعم المغرضون أن ما كان يعتري رسول الله عند تلقي الوحي، أعراض للهستيريا والصرع! أما ما كان يعتريه فهو (كما وصفته الأحاديث) تفصد جبينه بالعرق في اليوم شديد البرد، وتريد وجهه واحمراره وإغماض عينيه. فهل هذه أعراض مرض الصرع المعروف؟ وهل يمكن له إن كان الأمر كما زعموا أن يبلغ ﷺ فور إفاقته ما أنزل إليه، أحكاما وتشريعا وأخلاقا في نظام دقيق معجز؟!

يقول د. محمد حسين هيكل في الرد على هذه الفرية: "وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو خاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ، فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسيانا تاما، ولا يذكر شيئا مما صنع أو حل به خلالها؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل، هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك مما يصيب النبي العربي أثناء الوحي، بل كان تنتبه حواسه والمدارك في تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة غاية الدقة

^١ - الإسلام والأديان الأخرى: نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٤٩: ٦٠ بتصرف يسير.

ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه، ثم إن نزول الوحي لم يكن يقتزن حتما بالغيوبة الجسمية، مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه، بل كان كثيرا ما يحدث والنبي في تمام اليقظة العادية. فالصرع يعطل الإدراك الإنساني، وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس، أما الوحي فسمو روحي اختص الله به أنبياءه ليلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس، وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سنتها وأسرارها بعد أجيال وقرون، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.^(١)

لندع الحديث للأستاذ محمد فريد وجدي: الهستيريا كما يصفها الأساتذة الأعلام: كريكه ولا ندوزي وشاركو داء عصبي عضال، أكثر ما يعترى النساء، وهو وراثي، صفاته المميزة: شذوذ خلقي حاد، وحساسية متطرفة تصل إلى حدود غير معقولة، ثم يزداد المرض حدة فيشعر المصاب به بالاختناق، وبضيق في الصدر عظيم وبخفقان مزعج وارتعاش وباضطرابات خطيرة في الهضم، وقد يصحب هذه الأعراض شلل في بعض الأعضاء، فإذا تابع هذا المرض تقدمه، جاء دور التشنج، فيسببه بكاء وعويل وكرب عظيم، وهذيان ينتهي بالإغماء، فإن تجاوز هذه الدرجة دخل في دور أشد خطورة من كل ما مر، فيرى المريض أشباحا تهدده أو تسخر منه أو ترعجه ويسمع أصواتا لا وجود لها في حس غيره. ومن أخص مميزات هذا الدور: شعور المصاب بكربة تأخذ بمخنقه، فلا يزال يضطرب منها حتى تفقده الحس تماما، فيقع في الإغماء وسط حركات مضطربة بيديه ورجليه، وقفز من مكان إلى مكان على صورة تثير الذعر في قلب كل من يراه، فلا يجد لإنقاذه حيلة غير الصبر حتى تزول عنه يسيرا يسيرا لتعاد الكرة عليه بعد حين، فهل كان للنبي هيسيريا تنتابه بهذه الأعراض؟

لو كان كذلك، لوجب وضعه في أقصى درجات هذا المرض؛ لأنه كان يرى شبحا يظنه ملكا، ويسمع صوتا يتخيله وحيا. وهذه الأمور من مميزات الدور الأخير لهذا الداء، حين يتفاقم أمره وتشتد وطأته ومتى بلغ المصاب هذا الدور أصبح هدفا لجميع أعراضه، أولها شذوذ الأخلاق والحساسية المتطرفة والخفقان المزعج والبكاء والنشيج والهذيان أي المملوسة وآخرها التخييط باليدين والرجلين والقفز بالجسم كله من مكان إلى مكان.

فهل نقل عن خاتم المرسلين شيء من هذه الأعراض، على كثرة الذين تتبعوا حياته وتعقبوا أعماله؟ وهل عهد في تاريخ العالم أن مريضا يمثل هذه الداء الذي أعجز الطب قديما وحديثا، يندب نفسه لتطهير أمة برمتها من أرجاس الوثنية، وتوحيد كلمتها وجمع متفرقها، وإيثارها بدستور ينظم شعوبها ويسدد خطواتها، وينقلها من طورها المتحجر الذي كانت فيه إلى أطوار متعاقبة تندفع فيها اندفاعا طبيعيا مرتبا على موجب النواميس الاجتماعية، حتى تصل بعد ثمانين سنة إلى درجة دولة لا تغرب الشمس عن أملاكها، هي أكبر دولة عرفها تاريخ البشر إلى اليوم؟ إذا كان محمد - وهو هيسيري مريض في رأيهم - يوفق إلى مثل هذه الأمور الجسام، حتى يغير سطح المعمورة من حال إلى حال، مما لم تأت بمثله أجيال الفاتحين ولا كبار الملوك والسلاطين، بل ولا أولو العزم من المرسلين، فماذا كان صانعا لو كان رسولا حقا، يرى الملك ويسمع منه الوحي؟ ولو كان هذا حال رجل خيالي مريض شاذ الأخلاق، وعرضة لجميع الأعراض التي ذكرناها فماذا بقي للصادقين الكاملين وللأصحاء العاملين من الذين إذا رأيتهم افتخرت أن تكون واحدا من أشياعهم؟

هل عهد أحد في تاريخ الإنسانية أن المرضى المهوسين يصلحون لقيادة أنفسهم؟ فضلا عن التصدي لقيادة الأمم والبلوغ بها إلى أوج لم تصل إليه أمة قبلها ولا بعدها؟! هب أن الهذيان يؤدي بالمصاب بالهستيريا إلى التصدي لمثل هذه الخطوة، فهل يكون حاله في الدعوة إليها أمثل من حال المجنون يضحك من يسمعه يهذي بها، ويستدعي غيره

^١ - الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدي عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ٤٩٥: ٥١٠.

ليشاركه في التلهي بما يقول؟ هل بلغت أن العرب الجاهليين ضحكوا من دعوة محمد واتخذوها هزوا ولعبا، أم قابلوه بالاضطهاد، وصبوا على أتباعه ألوان العذاب، حتى اضطروهم للهجرة إلى الحبشة مرتين، ثم إلى المدينة، وهناك شنوا عليهم الغارات الشعواء، وتألّبوا عليهم، ولم يتركوا وسيلة إلا استخدموها لحل جماعتهم، ثم انتهى أمرهم بالخضوع للنبي خضوعا لا حد له؟

إن ما أثمرته شخصيته الفذة من الثمرات لم يتسن مثله لمصلح أو لرسول قبله تدحض كل فرية تلفق للحط من قدرها، وتبني لصاحبها صرحا من المجد جديدا، وتوحي إلى الذائدين عن كرامته أدلة تجعل ما لفقه خصومه هشيما تذروه الرياح^(١).

هذه المفارقة الواضحة والمسافة الشاسعة بين طبيعة شخصية سيدنا رسول الله وما يمثله في حياة البشرية وبين حال مصروع متهوس، يهذي وهو لا يدري كما زعم المبطلون هي التي حملت د. محمد المسير على أن يتساءل قائلا: "وإذا كان الواحد منا عندما يهيمه شيء ويحرص عليه يشغل باله وفكره حتى لا يكاد يحس بمن حوله، فينادي عليه أقرب الناس منه مكانا فلا يسمع له نداء، فما بالك بالاتصال بالملا الأعلى والاستغراق في لقاء الملك الروحاني والتلقي عن الله تعالى؟! ثم إن الناس في كل زمان ومكان يرون المصروع ويعرفون الصرع، فهل من المعقول أن يخدع الصحابة جميعا في رسول الله ويصعب عليهم التفريق بين حال الوحي وحال الصرع؟!

إن فاقد الشيء لا يعطيه، والمصروع لا يشفي مصروعا، ولقد كان الصرعى يأتون إلى رسول الله طلبا للشفاء، «فعن عطاء بن رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك"، فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف، فادع الله ألا أتكشف، فدعا لها»^(٢). فإذا كان الصرعى يأتون رسول الله طلبا للشفاء، فهل يكون الصرع خفيا على الناس يؤمئذ حتى يختلط بالوحي؟! ألا ساء ما يحكمون^(٣)!

الناظر في مزاعم المستشرقين هذه وفي حال الرسول الكريم وفي كتاب الله تعالى الذي أوحى به إليه، يتبين له بطلان هذه المزاعم من عدة وجوه:

الأول: أن القرآن الكريم نفسه ينفي أن يكون من صنع البشر وتأليفهم، وإنما هو كلام الله المنزل على رسوله محمد لهداية الناس وإصلاح حالهم وذلك من عدة نواح:

١. من ناحية أسلوبه البليغ المعجز المغاير لأسلوب النبي فيما صدر عنه من الأقوال غير القرآن، فالحديث يختلف اختلافا كبيرا عن القرآن الكريم من جهة الأسلوب، وكل قارئ يفهم العربية يدرك ما بين الأسلوبين من فرق كبير، فلو كان القرآن صادرا عن محمد نتيجة انفعالاته بما يحدث في حياته وما يجري في مخيلته من أفكار لكان أسلوبه هو نفس أسلوب الأحاديث؛ لأنه لا يمكن أن يكون لكاتب واحد مهما بلغ من الذكاء والعبقرية أسلوبان يختلفان هذا الاختلاف الكبير، وبهذا يتبين لنا بطلان دعوى المستشرقين أن القرآن صادر عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٢. من ناحية ما تضمنه من إشارات علمية دقيقة ونبوءات غيبية وأخبار القرون الماضية والتشريع العظيم، وغير ذلك من العلوم والمعارف يزخر بها هذا النهر العظيم، كل ذلك ينفي أن يكون القرآن بشريا، وإلا فمن أين لمحمد ﷺ الأمل هذه الحقائق العلمية التي لم يتوصل إلى معرفتها إلا في هذا العصر، ومن أين له معرفة أخبار الأولين.

١ - الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وحدي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ١٧٠: ١٧٤ بتصرف.

٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى (٥٣٢٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب (٦٧٣٦).

٣ - النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٠م، ص ٢٢١.

ومن أين له معرفة دقائق التاريخ وأحوال الأمم السابقة، هل عاصرها واطلع على أخبارها؟! وإن إخبار القرآن الكريم بقصص الأمم السابقة وما حل بهم بدقة وتفصيل يؤكد أنه من عند الله، وليس من عند محمد الذي لم يقرأ كتابا ولم يدرس علما قط. وهذه النبوءات الغيبية الموجودة في القرآن من أين لمحمد بها؟! إن الإنسان مهما بلغ من العبقريّة والذكاء لا يستطيع أن يكشف حجب الغيب المكنون بعبقريته وذكائه. إن كل ذلك يؤكد أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند محمد وإنما هو من عند الله الذي أحاط بكل شيء علما.

٣. إن القرآن الكريم لا يعكس شخصية الرسول في أفراده وأحزانه، لقد توفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة في عام واحد، وحزن عليهما حزنا شديدا حتى سمي ذلك العام بعام الحزن، فهل يوجد في القرآن أي إشارة لكل هذا؟! فلو كان القرآن كما يزعمون نابعا من ذاته لظهرت تلك المشاعر في سور القرآن، ثم إن القرآن في بعض المواقف كان يخالف رأي الرسول بل كان يعاتبه ويلومه على أفعاله كعتابه في موقفه من الرجل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم حيث قال سبحانه وتعالى: {عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢)} وكعتابه له في مسألة أسرى بدر حيث قال: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم (٦٧) لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٦٨)} (الأنفال)، وكعتابه له في مسألة الإذن للمنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، حيث قال: {عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣)} (التوبة).

فلو كان القرآن الكريم نابعا من ذاته لما ظهر فيه مثل ذلك، والعتاب على تلك التصرفات؛ لأن طبع البشر أن يخفوا أخطاءهم وتقصيرهم ولا يذكروها في مؤلفاتهم، وبهذا يظهر أن القرآن الكريم ليس من صنعه وإنما هو خارج عن ذاته صلى الله عليه وسلم، وليس أدل على أن القرآن ليس من عند محمد من اشتداد حاجة الرسول إلى شيء منه، فلا يجده إلا بعد فترة من الزمن، فقد كان تمر به بعض المواقف المحرجة يحتاج فيها إلى القرآن لحسم الموقف فلا يجد، مثال ذلك ما حل به من الضيق والحرج عندما رماه المنافقون في أهل بيته السيدة عائشة فلم يستطع أن يفعل شيئا حتى جاءه الوحي ببراءة أهله، وقطع بذلك ألسنة المروجين والخائضين، فلو كان القرآن من عنده لأعلن منذ اللحظة الأولى براءتها وحسم الموقف.

الثاني: انتفاء أن يكون الوحي من داخل نفسه صلى الله عليه وسلم:

إن أعراض الوحي الظاهرة على النبي التي لا دخل له بها تؤكد أن الوحي خارج عن ذاته صلى الله عليه وسلم، فهذه الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه الشريف، تنفي أن تكون ظاهرة الوحي تكلفا من قبله صلى الله عليه وسلم؛ إذ لو كان الأمر كذلك لكانت طوع بنانه، يأتي بشيء جديد من الوحي في أي وقت يشاء بهذه الطريقة، والكل يعلم أنه كان يمر بطروف معينة أحوج ما يكون فيها إلى شيء من الوحي فلا يأتيه.

ثم إن هذه الظاهرة كانت تحل به فجأة دون سابق إنذار أو استعداد لذلك، فقد يكون جالسا مع أصدقائه أو أعدائه يحادثهم فيأتيه الوحي فجأة ويقطع عليه حديثه، وقد يكون راكبا على دابته أو ماشيا على رجله فيفاجئه الوحي، ولو كان الوحي من عند نفسه لاستعد لذلك، ولحدد أوقاتا معينة لإظهار ما عنده من الوحي.

إن موقف النبي عند تلقي القرآن عن أمين الوحي جبريل يؤكد أن الوحي خارج عن ذاته الشريفة، وأن القرآن لم يصدر عنه صلى الله عليه وسلم، لقد كان يتلقى القرآن من أمين الوحي على عجل، يحرك لسانه وشفته طلبا لحفظه وعدم نسيان شيء منه؛ لتبليغه للناس كاملا كما أنزل، فأمره الله عز وجل بترك ذلك؛ لأنه هو الكفيل بتعليمه وترسيخ

ذلك في نفسه، قال سبحانه وتعالى: { لا تحرك به لسانك لتعجل به (١٦) إن علينا جمعه وقرآنه (١٧) فإذا قرأناه فاتبع قرآنه (١٨) ثم إن علينا بيانه (١٩) } (القيامة).

فلو كان القرآن الكريم نابعا من تفكيره لجرى على سنته في كلامه العادي؛ لأنه لا يتكلم إلا بعد تفكير عميق وتمحيص دقيق، ولكن هول المفاجأة بالوحي الخارج عن ذاته هي التي تدفعه إلى التعجل والتزديد باللسان والشفته، كما أخبرنا الله في كتابه الكريم، وكذلك موقفه المليء بالخشية والتقديس للقرآن الكريم، يؤكد أنه ليس من عند نفسه كما يزعم الحاقدون.

الثالث: انتفاء فرية الصرع عن النبي صلى الله عليه وسلم:

إن اتهام المستشرقين للنبي بأنه نسي الليل والنهار، والحلم واليقظة، وأنه كان يهيم بين شعاب الجبال ويخر مغشيا عليه، ما هو إلا نسيج خيال لا أساس له من الصحة، فلم يثبت عنه أنه بلغ به الجهد في خلوته مثلما يصوره هذا هؤلاء، وإن الروايات الصحيحة ترد كل هذه المزاعم والأقوال الباطلة.

لقد عاش النبي طيلة حياته في صحة نفسية وعصبية وعقلية دائمة، لم يطرأ عليه أي خلل في عقله أو أعصابه في يوم من الأيام، بل كان كمال عقله مضرب الأمثال. وليس أدل على انتفاء هذه الفرية وبطلانها من كفاحه المير في سبيل نشر دعوته، ومن سياسته الحكيمة، وخططه الحريية، وتنظيماته الاجتماعية، فلو كان مصابا بالانحياز العصبي كما يزعمون فهل يقوى على مثل هذا النضال الطويل، وهل يؤثر عنه تلك السياسة البارعة، والتنظيمات الدقيقة؟! يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب: أمجنون مصروع يبني دولة وينشئ نظاما ويقوم دينا ويعيش في أجيال الناس منذ قام إلى اليوم دون أن يصاب بنكبة أو خلل؟ أمجنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزججة، وحيدا في وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع، ثم لا يكون منه في حال من الأحوال، تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام عليلية وريح رخاء؟!

ألا ما أبعد هذا الكمال الإنساني عما يتخبط به الحاقدون من المستشرقين وغيرهم. ولقد شهد بعض المنصفين من المستشرقين على انتفاء هذه الفرية عنه مستدلين بحياته المشرفة، وما أثر عنه من أمور عظيمة على ذلك، يقول ماكس مايرهوف: "أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلا مصابا بمرض عصبي، أو بداء الصرع، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع، والإدارة يناقض هذا القول. أما ادعاؤهم بأن ما كان يظهر على النبي من أعراض حين كان يتصل بالوحي أنها أعراض صرع فادعاء باطل يدل على جهلهم المستحكم بحقيقة الوحي؛ لأن وحي الله لأنبيائه لا يمكن إخضاعه لقوانين البحث العلمي؛ لأنه فوق العقل، وفوق العلم البشري. وأعراض الصرع تختلف تمام الاختلاف عما كان يعتري النبي عند اتصاله بالوحي، فهي أعراض مرضية مصحوبة باصفرار في الوجه وبرودة في الأطراف واصطكاك في الأسنان وغيوبة كاملة، إذ يحتجب نور العقل ويخيم الجهل، فلا يذكر من يصاب بذلك أي شيء مما حدث له، بل ينسى هذه الفترة من حياته نسيانا تاما. أما ظاهرة الوحي فتكون مصحوبة بإشراق وارتفاع في درجة الحرارة، وهي مبعث للنور الهادي الذي لا ظلمة فيه، ومصدر للعالم المشرق الذي لا جهل فيه، ثم إن نزول الوحي لم يقتصر بالغيوبة دائما، إذ كان يأتيه أمين الوحي أحيانا في صورة رجل فيحادثه، ويوحي إليه بما شاء الله أن يوحي به إليه^(١).

^١ - راجع: موسوعة بيان الاسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار نضضة مصر، ط ١/٢٠١٢.

٤ - الإسلام موافق لليهودية والجاهلية! فهو متأثر بهما وتابع لهما.

الإسلام موافق لليهودية من عدة جوانب: فمن حيث العقيدة: فكلا الديانتين يدعو إلى عقيدة التوحيد، وكذلك النظام التشريعي متقارب فيهما، وهنالك تشابه بين أسلوب القرآن والتوراة ومضمونهما!!!! فهل هذا صحيح؟! ربما يكون أبلغ في الرد على هذه المغالطات أن نرجع إلى متون الكتب المقدسة، وأصول العقائد في هذه المسائل عند المسلمين واليهود؛ لنتبين أوجه الشبه والاختلاف في الأصل، ثم نتابع تطوراتها لدى الطرفين.

أولاً: وحدة منبع الرسالات السماوية:

إن وحدة الأصل الذي نبعت منه تلك الرسالات الثلاثة: الإسلام والنصرانية واليهودية يفرض بعض الشبه على بعض تشريعاتهم، وإن كان الشبه اسمياً فقط لا يتعدى ذلك لا إلى الصورة ولا إلى المغزى منها، فقد نبع الإسلام من نفس المشكاة التي نبعت منها الديانات السابقة؛ مما يحتم وجود بعض الشبه بينه وبينها، إلا أنهم حرفوا، أما هو فقد حفظه الله من التحريف، فالكتب السماوية مصدرها واحد: {نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (٣) من قبل هدى} (آل عمران)، والكتب السماوية كلها أنزلت لغاية واحدة وهدف واحد، أنزلت لتكون منهج حياة للبشر الذين يعيشون في هذه الأرض، تقودهم بما فيها من تعاليم وتوجيهات وهداية، أنزلت لتكون روحاً ونوراً تحي نفوسهم وتنيرها، وتكشف ظلماتها وظلمات الحياة.

"لقد جاء كل دين من عند الله، ليكون منهج حياة واقعية، جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها، ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير، ولا ليكون مجرد شعائر تعبدية تؤدي في الهيكل والخراب. فهذه وتلك على ضرورتها للحياة البشرية وأهميتها في تربية الضمير البشري لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها، ما لم يرق على أساسها منهج ونظام وشرعية تطبق عملياً في حياة الناس، ويؤخذ بها بحكم القانون والسلطان، ويؤخذ الناس على مخالفتها، ويؤخذون بالعقوبات، والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة.

فأما حين تتوزع السلطة وتتعدد مصادر التلقي... حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطات لغيره في الأنظمة والشرائع... وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا... حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين، وبين اتجاهين مختلفين... وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى: {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا}، {ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن}، من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة، وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى، أو لأمة من الأمم، أو للبشرية كافة في جميع أجيالها، فقد جاء معه شريعة معينة لحكم واقع الحياة، وإلى جانب العقيدة التي تنشئ التصور الصحيح للحياة، إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله... وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله، حيثما جاء دين من عند الله؛ لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة.

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى على هذا التكامل في الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها القرية أو القبيلة، وهنا يعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث الكبرى: اليهودية، والنصرانية، والإسلام، يقول تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور} فالتوراة كما أنزلها الله هداية لبني إسرائيل، وإنارة طريقهم إلى الله، وطريقهم في الحياة، قد جاءت تحمل عقيدة التوحيد، وتحمل شعائر تعبدية شتى، وتحمل كذلك شريعة: {يحكم بها النبيون الذين

أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار} (المائدة: ٤٤)، أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونورا للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب، ولكن كذلك لتكون هدى ونورا بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله، وتحفظ هذه الحياة في إطار هذا المنهج، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله، فليس لهم في أنفسهم شيء، إنما هي كلها لله، وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى في خصيصة الألوهية - وهذا هو الإسلام في معناه الأصيل - يحكمون بها للذين هادوا؛ فهي شريعتهم الخاصة نزلت لهم في حدودهم هذه وبصفتهم هذه، كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار، وهم قضاتهم وعلمائهم، وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء، فيؤدوا له الشهادة في أنفسهم، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم^(١)

نزل الإسلام خاتماً للرسالات على خاتم الرسل محمد ﷺ فجاء عاماً وشاملاً لكل البشر في كل زمان ومكان، ويناسب كل الظروف، وشرائعه تشمل العالم كله منذ نزول القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا يقتضي أن تمتاز هذه الرسالة عن غيرها من الرسالات بما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وقد جعلها الله كذلك، وأنزل على رسوله قبيل وفاته: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (المائدة: ٣)، حتى إذا أراد الله أن يختم رسالته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة خاتم النبيين برسالة للإنسان، لا لمجموعة من الناس في بيئة خاصة، في زمان خاص، في ظروف خاصة، رسالة تخاطب الإنسان من وراء الظروف والبيئات والأزمنة؛ لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل، ولا تتحور، ولا ينالها التغيير، وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها، وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتغير بتغير الزمان والمكان، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتغير بتغير الزمان والمكان... وكذلك كانت الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات، لكي تستمر وتنمو وتتطور وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار.

وهذا المعنى وهو كمال الرسالة وشمولها أشار إليه القرآن في غير موضع كقوله عز وجل: {ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء} (النحل: ٨٩)، وقال الله عز وجل: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} (الأنعام: ٣٨)، لقد جمعت الشريعة الخاتمة محاسن الرسالات السابقة، وفاقته كمالاً وجلالاً، يقول الحسن البصري رضي الله عنه: "أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان"^(٢).

ومما يؤكد وحدة منبع الرسالات السماوية كلها وجود مواضع اتفاق بين هذه الرسالات وأهم هذه المواضع هي:

١. **الدين الواحد:** من خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن نجد أن الدين الذي دعت إليه الرسل جميعاً واحد هو الإسلام: {إن الدين عند الله الإسلام} (آل عمران: ١٩)، والإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء؛ فنوح يقول لقومه: {وأمرت أن أكون من المسلمين} (٧٢)، والإسلام هو الدين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام: {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} (١٣١)، ويوصي كل من إبراهيم ويعقوب أبناءه قائلاً: {فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}

^١ - في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٣، ١٩٨٧م، ج٢، ص٨٩٥، ٨٩٦. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار الفائس ص٢٣١: ٢٣٥

^٢ - الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، ٢٠٠٥م، ص٢٣٦: ٢٣٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٣، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج٦، ص٤٨٢. مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص١٠: ٢١ بتصرف.

مسلمون (١٣٢) { (البقرة) وموسى عليه السلام، يقول لقومه: { يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين (٨٤) } (يونس)، والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام: { آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون (٥٢) } { (آل عمران)، فالإسلام شعار عام كان يدور على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية، والذي يعني الطاعة والانقياد والاستسلام لله تعالى بفعل ما يأمر به، وترك ما ينهى عنه.

٢. **لب دعوات الرسل:** ولَبَّ دعوات الرسل وجوهر الرسائل السماوية هو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ ما يعبد من دونه، فنوح يقول لقومه: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (الأعراف: ٥٩)، وإبراهيم قال لقومه: (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١٦)) (العنكبوت)، وهود قال لقومه: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (الأعراف: ٦٥)، وصالح قال لقومه: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (الأعراف: ٧٣)، ومرة ينص على أنه أرسل الرسل جميعا بهذه المهمة الواحدة: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢٥)) (الأنبياء).

٣. **وحدة مسائل العقيدة:** تشكل مسائل العقيدة تصورا واحدا لدى الرسل جميعا من لدن نوح إلى آخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وتمثل هذه المسائل في الإيمان بالله والملائكة والرسل والكتب السابقة والإيمان بالقدر واليوم الآخر والبعث، وكل الرسل أُنذروا قومهم من فتنه المسيح الدجال، قال ﷺ: «إني أنذركموه، وما من نبي إلا قد أُنذر قوموه، لقد أُنذره نوح قوموه، ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور»^(١)

٤. **وحدة القواعد العامة:** تتفق الكتب السماوية كلها في وحدة القواعد العامة التي تحكم البشر، وتعمل على نشر العدل بين الناس، والبعد عن الظلم والجور دون وجه حق، وكل الرسائل تؤكد على وجود مبدأ الثواب والعقاب، فكل إنسان سيحاسب على عمله، فإن كان خيرا فلنفسه، وإن كان شرا فعليها، ويوضح لنا القرآن الكريم أن الرسل جميعا حملوا ميزان العدل بين الناس، فقال عز وجل: { لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط } (الحديد: ٢٥)، ومما اتفقت عليه الرسائل أنها بينت المنكر والباطل ودعت إلى محاربتها، سواء أكان عبادة أوثان أو استعلاء في الأرض أو انحرافا عن طريق الفطرة... إلخ^(٢) وعليه فإنه لا يوجد أدنى شك في أن الشبه الذي يترأى لنا بين الدين الإسلامي والأديان السماوية السابقة عليه إنما مرجعه إلى وحدة الأصل الذي نشأت عنه هذه الأديان جميعا، وليس منشؤه أخذ الإسلام من هذه ولا تلك.

ثانيا: تشابه بعض تشريعات الإسلام مع تشريعات الديانات الأخرى تشابه في الاسم فقط دون المضمون والتطبيق:

إن تشابه بعض تشريعات الإسلام مع تشريعات الديانات الأخرى تشابه في الاسم فقط دون المضمون أو التطبيق، إن شرائع الأنبياء مختلفة، فشريعة عيسى تخالف شريعة موسى في بعض الأمور، وشريعة تخالف شريعة موسى وعيسى في أمور، قال عز وجل: { لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا } (المائدة: ٤٨)، وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافا كلياً، فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية، والاختلاف بينها إنما يكون في بعض التفاصيل، فأعداد الصلوات وشروطها وأركانها، ومقادير الزكاة، ومواضع النسك، ونحو ذلك قد تختلف من شريعة إلى شريعة، وقد يحل الله أمراً في شريعة لحكمة، ويحرمه في شريعة أخرى لحكمة، ونضرب لهذا ثلاثة أمثلة: فمما أحله الله

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، (٢٨٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن الصياد (٧٥٤٠).

^٢ - الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م، ص ٢٤١: ٢٤٨. بصرف.

لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم الله هذا بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم الله مثل هذا في التوراة على بني إسرائيل، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغا، وقد فعله يعقوب عليه السلام، ثم حرم عليهم في التوراة، وحرم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبان الإبل، ومما حرمه الله على اليهود كل ذي ظفر من البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والوز والبط، وحرم عليهم شحوم البقر والغنم إلا الشحم الذي على ظهور البقر والغنم، أو ما حملت الحوايا وهي المباخر والمرابض، أو ما اختلط بعظم، ثم جاء عيسى فأحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم: {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم} (آل عمران: ٥٠)، وجاءت الشريعة الخاتمة لتكون القاعدة لإحلال الطيبات وتحريم الخبائث^(١).

أما عن الشرائع التي ظن بعض المتوهمين أن الإسلام أخذها من الديانات السابقة، فهذا زعم باطل لا يقوم على دليل واضح، ويبين د. ناصر محمد السيد الشرائع المتشابهة بين الإسلام وغيره من الديانات على النحو الآتي:

١. الصلاة: هي الركن الثاني من أركان الإسلام، فرضت في القرآن الكريم، ووضحت السنة المطهرة هيئتها وشكلها، فهي من أهم العبادات في الإسلام.

الصلاة في اليهودية: لم تأخذ الصلاة في اليهودية شكلا واحدا، بل تدرجت حسب إسهامات رجال الدين اليهودي فيها على النحو التالي:

• الصلاة في عصر الآباء: كانت عبارة عن الدعاء باسم الرب، وكانت تتميز بالتوجه مباشرة إلى الله عز وجل، وكانت ترتبط في بعض الأحيان بتقديم ذبيحة، فالصلاة بهذا الشكل عبارة عن أدعية وأذكار وليست شعيرة محددة بتوقيات معينة.

• الصلاة في مرحلة ما قبل السبي: تتميز بملامح خاصة منها: التوسل والابتهاال من أجل الآخرين، والأسفار الخمسة لم يرد فيها لفظ الصلاة، وهي التي بني عليها التشريع اليهودي، وهذا من عجائب اليهودية المحرفة. ويقول د. هلال فارحي أحد علماء الشريعة اليهودية: إن الصلاة في عهد ما قبل السبي لم تكن محدودة أو إجبارية، بل كانت تتلى ارتجاليا حسب الأحوال والاحتياجات الشخصية والعمومية.

• الصلاة في فترة السبي وما بعدها: في هذه الفترة حدثت تطورات جديدة للصلاة اليهودية، كان من أهمها ظهور دور الجمع بعد أن تم تدمير الهيكل على يد البابليين، ولم يعد في الإمكان تقديم ذبائح في أرض بابل، وظهرت أهمية الصلاة في هذه الفترة، فبعد أن يقرأ اليهود جزءا من الكتاب المقدس يتم تفسيره، ثم الصلاة، ومن خلال ذلك نرى خضوع الصلاة اليهودية للأهواء البشرية، وهذا عكس الصلاة في الإسلام.

وإذا عدنا إلى عدد الصلوات في اليهودية نجدها ثلاثة في كل يوم:

- صلاة الفجر ويسمونها السحر.
- صلاة نصف النهار أو القيلولة.
- صلاة المساء ويسمونها صلاة الغروب.

وكانت قبلة اليهود في الصلاة إلى بيت المقدس، وكان المسلمون يتوجهون إليه في أول الأمر حتى تحولت قبلتهم إلى الكعبة المشرفة، وكأنه إعلان إلهي بوارثة المسلمين لكل بقايا الحق في الديانات السابقة.

^١ - الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م، ص ٣٢٤٨: ٢٥١ بتصرف. مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م، ص ١٠: ١٧ بتصرف.

أما عن كيفية أداء الصلاة في اليهودية: فإننا نؤمن بأن الصلوات في صورتها التي أنزلها الله على رسله، كانت تتضمن ركوعا وسجودا، فقد خاطب الله بني إسرائيل في القرآن فقال عز وجل: {واركعوا مع الرَّاكِعِينَ (٤٣)} (البقرة)، ولكن الصلاة تطورت بفعل التدخل البشري في دين الله وتغيرت حركات اليهود أثناء الصلاة عبر العصور، ففي الماضي كان اليهود يسجدون، ويركعون في صلواتهم، ولا يزال الأرثوذكس يفعلون في الأعياد، ولكن الغالبية العظمى تصلي الآن جلوسا على الكراسي، كما هو الحال في الكنائس المسيحية، ولا يخلع اليهود نعالهم أثناء الصلاة، وهذا دليل واضح على بشرية بل وثنية هذه الديانات في صورتها الحالية.

الصلاة في النصرانية:

الصلاة في المسيحية عبارة عن أدعية وأذكار في حالات ومناسبات خاصة أو عامة، ليس لها شكل محدد ولا هيئة محددة ولا وقت محدد. ومررت هذه الصلاة بعدة مراحل متدرجة، نتيجة ارتباطها بالآباء الذين يغيرون فيها حسب أهوائهم وميولهم الخاصة.

وعن الصلاة في المسيحية يفصل لنا د. أحمد شليبي فيقول: وليس للصلاة المسيحية ترتيب خاص، وإنما هي أدعية تختلف من مكان إلى مكان، وإن كلمة الصلاة في المسيحية تختلف اختلافا كبيرا عنها في الإسلام، فهي عبارة عن أدعية وأذكار لا توقيت لها، وهي ليست واجبة، بل يرى الكثير من المسيحيين أن الانتظام في الصوم والصلاة توجيه اختياري لا إجباري. ويقول المستشار الطهطاوي: لا يوجد لدى المسيحيين نص عن عدد معين من الصلوات كل يوم أو مواقيت لها، إلا أنهم يقتبسون من اليهود العدد والوقت للصلاة، لذا قرروا لهم صلاتين واحدة في الصباح والأخرى في المساء.

ونحن كمسلمين لا ننعي استقاء النصرانية من اليهودية؛ لأننا نؤمن أن رسالة المسيح مكمل لرسالة موسى ولكننا ننعي هذا الإقرار النصراني بأن ثمة خبرة وثنية وأمية تأثرت بها الصلاة المسيحية، فالصلاة المسيحية بشهادة أهلها توليفة من الصلاة اليهودية والوثنية والأمية.

فالصلاة المسيحية تطورت أيضا عبر العصور، وتأثرت بالأحداث كاليهودية أيضا، وهذا يدل على بشرية هذه العبادة وتحريفها حسب الأحداث والأهواء، ومن العجائب أن الصلاة في المسيحية لا تشترط لها طهارة، فهم يصلون بلا طهارة، ولا بد لها من الاجتماع في الكنيسة مع اختلاط النساء بالرجال وتلطخهم بالنجاسات في أثوابهم وأبدانهم وأمكنهم أيضا، لا بسين أحذيتهم مع تحقق النجاسات فيها، ومن يطلع على الفرق بينها وبين صلاة المسلمين يجد فروقا عظيمة، فمن أهم أحكام الصلاة عند المسلمين الطهارة من النجاسات وهذا شرط واجب لصحة الصلاة.

ونصت الشريعة اليهودية على الطهارة، ولكن اليهود غيروا الصلوات، ونقلوا التشريع من درجة التنزيه الإلهي إلى دركة التشويه البشري، والطهارة في الإسلام واحدة لكل الناس على اختلاف طبقاتهم وأقذارهم، ولكن الطهارة في اليهودية طبقات؛ فالأفراد العاديون لهم طهارة، والكهنة لهم طهارة أخرى، وهي لا شك مخالفة جوهرية، وعنصرية يهودية حتى في العبادات التي يفترض أن يقف فيها الجميع سواء أمام الخالق، فإن اليهود حرفوا دينهم وضيعوا من دينهم شعائر الطهارة فشاعت فيهم القذارة.

وجاء الإسلام فأحيا ما طمسوه من الطهارة التي نعتقد يقينا أن الله شرعها لسيدنا موسى عليه السلام، وعلى الرغم من هذا فإن كمال التشريع الإسلامي في الطهارة لا تدانيه هذه الصورة العنصرية الساذجة للطهارة عند اليهود. فماذا استقى الإسلام من هذه الصلاة اليهودية أو النصرانية إذن؟! اللهم لا شيء إلا في لفظ الصلاة، والتوجه بها إلى المعبود في الفرح والحزن، والفرج والشدة، والسراء والضراء، وما يكون قاسما مشتركا بين كل من يعرف له معبودا

مهما كان هذا المعبود، فهو يطلبه لرغبة أو رهبة، سواء كان معبودا بحق أم بباطل، فكم ركع وسجد أشخاص وسالت دموعهم، وخشعت قلوبهم، وتعالص صيحاتهم أمام الشمس أو الكواكب أو الشجر أو البقر وغيرها من الأشياء التي عبدها بنو آدم.

إن البعد العقدي والأخلاقي والاجتماعي والصحي للصلاة في الإسلام، لا يمكن أن تطاله تلك الصلوات اليهودية والمسيحية التي شابتها عناصر وثنية انخرت بها عن القدسية، وقطعتها عن مصدرها الإلهي. إن دقة التشريع الإسلامي في الصلاة وشموله، وكماله في عددها وأركانها وسننها وهيئاتها، وفيما يتقدمها من نوافل، وما يتأخر عنها، في أوقاتها، وفيما يسبقها من طهارة وما يخلفها من أذكار وختام. كل هذا يدل على قدسية مصدرها، وعظمة المقصود بها، وطهارة من علمها للناس واقتداء الخلف بعد السلف في أدائها بالمعصوم صلى الله عليه وسلم، بحيث لو قام في الناس اليوم لم ينكر منها شيئا^(١).

٢. يوم الجمعة:

إن الجمعة يوم من الأيام المحدودة منذ أن خلق الله السماوات والأرض، وقد ذكر النبي الذي لا ينطق عن الهوى أنه: «خير يوم طلعت عليه الشمس؛ فيه خلق آدم...»^(٢). وكما قال ﷺ في فضل هذا اليوم العظيم: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أن كل أمة أتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فعدا لليهود وبعد غد للنصارى»^(٣).

وما قيل من أن أول من جمع الناس هو كعب بن لؤى أحد أجداد النبي وأنه كان يخطبهم، فعلى فرض صحة هذا الخبر، فيحتمل أن يكون ذلك من الاهتداء الفطري الذي يهتدي إليه أولو الفطر السليمة ويوافق الحق وأشبه بتوارد الخواطر وما أكثر ما يحدث، ويحتمل أن يكون ذلك من بقايا شرائع سابقة تغلغت إلى أعرافهم كغيرها من بقايا دين إبراهيم، كما قيل عن يوم الجمعة: "لم يزل أهل كل دين يعظمونه".

وإن كان العرب أو غيرهم يعظمون يوم الجمعة، وجاء الإسلام موافقا لهم في مجرد تعظيمهم له، إلا أن الإسلام تميز عن غيره بما خصه من إقامة الشعائر من: صلاة، وخطبة جامعة في بيت الله مسبقة بالطهارة، وأخذ الزينة، مما لا نجده في عرف أو دين آخر.

٣. الصوم:

الصوم الركن الرابع من أركان الإسلام، ويختلف في شكله ومضمونه عن الصوم في غيره من الشرائع سماوية وغير سماوية. وإذا سلمنا جدلا أن الإسلام أخذ الصيام من الديانات الأخرى، فهل إذا قارنا بين الصوم في الإسلام، وفي الديانات الأخرى سنجد تشابها؟ أم أن الإسلام ميز المسلمين بهذه العبادة ووضحها جلية للأعين المنصفة، فنحن كمسلمين نؤمن بما أخبرنا به الله أن الصيام فرض على الأمم السابقة علينا؛ لأن الإسلام يرث بقايا الحق من موارث النبوات، فلم ينكر الإسلام هذه الشعيرة عند الأمم السابقة، بل أقرها وأثبتها وجعل فرضيتها في الإسلام محققا للتقوى في قلوب المسلمين، وقد ذكر ابن كثير: أن الصيام كان أولا على الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام ولم يزل هذا مشروعا من زمن نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان وفي تعيين الله شهر رمضان دون ترك الأمر للإنسان ليختار شهرا معينا إشعار للمسلمين بالوحدة والنظام

^١ - شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م، ص ١١٠: ١٣٠ بتصرف.

^٢ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة (٢١٠٣)، وفي مواضع أخرى.

^٣ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، (٣٢٩٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٥).

الفرق بين الصيام في الإسلام واليهودية والنصرانية:

الصيام في اليهودية:

الصيام في العقيدة اليهودية هو عبادة لدفع ضرر واقع أو متوقع، وليس بهدف تركية النفس وتطهيرها، فهو رمز للحداد والحزن، وكان اليهود يصومون مؤقتا إذا اعتقدوا أن الله سخط عليهم، أو إذا حلت بالبلاد نكبة عظيمة، أو وباء فاتك، أو جذب عام، وفي بعض الأحيان عندما يعزم الملوك على مشروع جديد، فهو إذا ليس تركية للنفس، ولكنه دفع للشر وتعبير عن الذل والضعف، وهكذا كان الصوم عند المصريين القدماء، وعند السومريين وغيرهم، ولما لا نقول إن اليهود نقلوا هذه الشعيرة من الديانات القديمة السابقة عليهم؟

الصيام عند النصارى:

من الراجح أن صيام رمضان كان واجبا على النصارى، فكان يأتي أحيانا في الحر الشديد، والبرد الشديد، وكان يشق ذلك عليهم في أسفارهم، ويضرهم في معاشهم، فاجتمع علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع، وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا، فصار أربعين يوما، ثم إن ملكا لهم اشتكى فمه، فجعل لله عليه إن هو برئ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعا، فبريء، فزاد عليه أسبوعا، ثم مات ووليهم ملك آخر فقال: أتموه خمسين يوما، فأتموه.

ومن خلال هذه الأحداث يظهر التحريف البشري الذي أصاب هذه الشعيرة عند النصارى، وعلى الرغم من كل هذا فإن تقنين هذه الشعيرة وثباتها في الإسلام واستمرارها فقط من القرآن الكريم والسنة النبوية، وعدم خضوعها لعوامل التغيير والتبديل الذي حل عليها في الديانات السابقة وشموها وكما لها وتماها، كل ذلك من أدل الدلائل على تميز الصوم في الإسلام عنه في غيره من الديانات.

وعند إنعام النظر في الفرق بين شريعة الصوم في الإسلام والديانات الأخرى نجد فروقا جوهرية من حيث: طبيعة الصيام، وعدد الأيام، والحكمة من الصيام وتنظيم الشعيرة؛ حيث إن الصيام يؤدي إلى الصحة، وهذا ما أثبتته الطب، ومن خلال هذه القراءة للصيام في الديانات السابقة تظهر عظمة الإسلام في تشريع العبادات التي شرعها الله عز وجل لعباده، وفي عودة العبادة إلى مصدرها الأول الذي جاءت به الرسل جميعا دون تحريف أو تبديل، أو تدخل بشري؛ لأن الإسلام دين الفطرة الذي جاء للناس كافة^(١).

٤. الحج:

الحج شعيرة من الشعائر التي عرفت في معظم الديانات السابقة للإسلام، ولكن ما جاء عنها في الإسلام يخالف ما جاء في سائر هذه الديانات المحرفة، ولا يوجد أدنى تشابه بين شعائره في الإسلام وشعائره في الديانات الأخرى، ويبين د. ناصر محمد السيد هذا الفرق الشاسع فيقول:

من الجدير بالذكر أن الحج ليس شعيرة خاصة باليهود والنصارى، بل إنه من ضمن الشعائر التي مارسها معظم الملل والنحل، فظهر في الديانات الهندية، والصينية، واليهودية، والمسيحية، وغيرها، فأصل الحج موجود في كل أمة على أشكال شتى، فالإسلام جاء بالحج على نهج الحنيفية السمحة التي جاء بها أبو الأنبياء إبراهيم امتثالاً لأمر الله عز وجل: ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ (الحج).

ولو نظرنا في شعيرة الحج في اليهودية والنصرانية، لتبين لنا بوضوح الفروق الجوهرية في هذه الشعيرة بين الرسالات الثلاث، بل لا نغالي إذا قلنا: إن الحج كشعيرة لا وجود له في اليهودية، والنصرانية المحرفتين.

^١ - شيهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م، ص ٢٨١ : ٢٩٦

فليس في اليهودية حج بالمعنى الذي يسبق إلى الذهن، وإنما هو مجرد أعياد مرتبطة بمواسم الحصاد في سفر التثنية: "ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره، في عيد الفطير، وعيد الأسابيع، وعيد المظال، ولا يحضروا أمام الرب فارغين، كل واحد حسبما تعطيه يده". (التثنية ١٦: ١٦، ١٧).

ما قيل في اليهودية يقال مثله في المسيحية، فليس في النصرانية الحالية شعيرة يمكن أن يطلق عليها اسم الحج كما هو الحال في شعيرة الحج في الإسلام؛ في كمالها وشمولها، ووضوح معالمها وأبعادها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وفوائدها الروحية والتربوية، فلم يرد أي نص بالحج في كتبها المقدسة، فما نراه من حج النصارى الكاثوليك إلى روما، حج المسيحيين إلى القدس، لم يرد في الديانة المسيحية وأسفارها المقدسة لدى المسيحيين، وإنما هو تقليد اتبع فيما بعد المسيح بقرون، والحج المسيحي إلى القدس ليس فريضة من فرائض المسيحية المنصوص عليها، وإنما نشأ بعد الإمبراطورة "هيلانة" أم الإمبراطور "قسطنطين"، وقد زارت القدس سنة ٣٢٤م، وعرفت بعد ذلك بالقديسة، وليس الحج طقوساً أو مناسك، إنما هو عندهم عبارة عن سياحة دينية، وزيارة لبعض الأماكن التي يعتقدون أنها مقدسة، وقدسية هذه الأماكن لا يوجد عليها أدلة نصية من كتبهم، وإنما هي من وضع الرهبان ورجال الدين النصراني ولا علاقة لها بالمسيح عليه السلام.

هذه الشعائر بقايا بقيت من دين إبراهيم عند العرب، توارثوها عن أسلافهم وتواترت إليهم واحتللت بعبادتهم الجاهلية، كعبادة الأصنام، وطوافهم بالبيت عراة، وإدخالهم الشرك في التلبية قائلين: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك"، فجاء الإسلام ليعيد ملة إبراهيم عليه السلام إلى نقائها وصفائها فقال عز وجل: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾ (الحج: ٧٨).

ولو كان النبي ناقلاً شريعته عن غيره لمجرد التشابه بينها وبين نبوته؛ لكانت هذه نفسها حجة تنسحب على نبوة كل نبي، ولكانت سارية على عيسى عليه السلام؛ لأنه جاء ببعض ما جاء به موسى عليه السلام، ولكانت سارية على موسى كذلك؛ لأنه جاء بمثل ما جاء به من قبله أحياناً، ولما ثبتت بناء على ذلك نبوة نبي، والإسلام أعاد الأمور إلى نصابها الصحيح، وإلى مصدرها الأول من أول الأنبياء إلى خاتمهم محمد فشعيرة الحج لم تكن إلا إلى بيت الله الحرام من آدم إلى محمد وإلى أن تقوم الساعة، وأما ما ابتدعه اليهود والنصارى من مزارات وطقوس وعبادات تقوم عندهم مقام الحج فلا أصل له حتى في أديانهم المحرفة^(١).

وبعد هذا العرض للتشريعات في الإسلام وفي الشرائع الأخرى السابقة عليه نقرر الآتي:

تعاليم الإسلام وشعائره وعباداته مستمدة من القرآن والسنة سواء اتفق مع غيره أم اختلف، وإن وافق بعض الشرائع وبعض الأعراف في بعض الأمور فهذا دليل على أنه الحق الذي جاء الإسلام به مكملًا وموضحًا وشاملاً لكل الشرائع التي جاء بها الأنبياء جميعاً، بعد أن تم تحريفها وتغييرها على أيدي أتباع هذه الملل، أليس ذلك يليق بهذا الدين الشامل الذي جاء به الإسلام بهوية جديدة لأتباعه، بما يتميزون عن سواهم في العقيدة الصادقة والعبادة الصحيحة والمعاملات والأخلاق؟ ومن ثم كان الاختصاص والتميز ضروريين للجماعة المسلمة في التصور والاعتقاد وفي القبلة. وعلى هذا الأساس الفطري أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها، فهي لا تؤدي بمجرد النية، ولا بمجرد التوجه الروحي، ولكن هذا التوجه يتخذ شكلاً ظاهراً قايماً، واتجاهاً إلى القبلة، وتكبيراً وقراءة، وركوعاً وسجوداً في الصلاة، وإحراماً من مكان معين، ولباساً معيناً، وحركة وسعيًا، ودعاء وتلبية، ونحراً وحلقاً في الحج، ونية وامتناعاً عن الطعام والشراب والمباشرة في الصوم، وهكذا في كل عبادة حركة، وفي كل حركة عبادة؛ ليؤلف بين ظاهر النفس وباطنها، فجاء

^١ - شيهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م، ص ٣٨٠: ٤١٢ بتصرف.

الإسلام يلي دواعي الفطرة بتلك الأشكال المعينة لشعائر العبادة، مع تجريد الذات الإلهية عن كل تصور حسي وكل تحيز لجهة، فيتوجه الفرد إلى قلبته حين يتوجه إلى الله بكلية؛ بقلبه وحواسه وجوارحه، فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد الذي جاء به الإسلام.

دأب المستشرقون على أن يردوا كل تعاليم الإسلام إلى أصول سابقة، ومن بين ذلك الأحكام التشريعية، فهم يردونها أحياناً إلى أعراف الجاهلية العربية، ويردونها أحياناً أخرى إلى اليهودية، وثالثة إلى القانون الروماني، وهم بهذا الرد والتردد يكشفون عن طويتهم، في أنهم يحرصون كل الحرص على تجريد الإسلام من كل فضل ومن صفته الجوهرية، وهي أنه وحي منزل من عند الله، وسواء اتفق في بعض الأحكام مع بعض النظم السابقة، أم اختلف معها، فبعض التشابه في الأحكام وارد، لكن هذا التشابه الجزئي القليل لا يعني نسبة نظام متكامل متضافر محكم في ترتيبه وتنظيمه إلى هذا الأصل المشوه أو ذاك الهراء المضطرب المتناقض.

وليس في النظام القبلي العربي قبل الإسلام نظام يستحق الأخذ به، بل إن العرب قبل الإسلام لا يعرفون مثل هذا النظام المتقن في الأسرة والموارث، اللذين عهدناهما في التشريع الإسلامي. كذلك نظام العقوبات الإسلامي تنزيل من حكيم حميد، وقد أحاط بتفاصيل دقيقة في الإثبات، والإشهاد، والتنفيذ لا نجد لها مثيلاً في أعراف الجاهلية، وإقرار الإسلام لبعض الأمور الحميدة - كعقوبة الدية التي تحملها العاقلة كما كان في عرف العرب - لا يعني أخذ نظام العقوبات بأكمله من أعراف العرب، كما أن إقراره فكرة الدية على العاقلة لا يبرر أنها بكل تفاصيلها المدونة في كتب الفقه مأخوذة من عرب الجاهلية، ولا يعني أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون هذا النظام الدقيق، بل هو مستوحى من القرآن والسنة كغيره من التشريعات الإسلامية.

ثالثاً. عقيدة التوحيد بين التوراة والقرآن، وبين اليهودية والإسلام:

لا شك أن عقيدة التوحيد في التوراة المنزلة من عند الله تعالى قبل تحريفها، وكذلك في القرآن الكريم باعتبارها كتابين سماويين من لدن الإله الواحد الأحد عقيدة متماثلة جوهرها التوحيد الخالص، والتنزيه الكامل للذات الإلهية، فيعترف المسلمون بأن الله واحد، وأنه ليس كمثله شيء {قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢)}، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، ويعترف المسلمون بأن هذا الإله الواحد يعلم ما خفي في الضمائر، لقوله سبحانه وتعالى: {وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (٣)} (الأنعام).

وفي التوراة عبارات تدل على أن الله واحد، وليس كمثله شيء، ويعلم ما خفي في الضمائر، ففي سفر الخروج: "ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأنني أنا الرب" (الخروج ٢٠: ٥٠).

ولكن أية توراة هذه التي نقصدها حين نقول إن مضمون عقيدة التوحيد فيها يماثل ما في القرآن، لا شك أنها التوراة الكتاب السماوي الصحيح، قبل تحريفه، وإلا فإن التوراة التي بين أيدي الناس الآن، والتي سقنا منها الشاهد السابق تحفل بمئات الشواهد على طمس عقيدة التوحيد، وبسبب هذا التحريف اختلط الحابل بالنابل، والغث بالسمين، والصحيح بالسقيم، والأصلي بالخراف.

تحت عنوان "إله التوراة: وثنية وتجسيد" نقل د. عبد الحليم عويس ما يأتي: "يقول المؤرخ العالمي أرنولد توينبي عن إله اليهود: كان يهوه إله قبيلة بدوية، وتطورت هذه الديانة حتى بلغت مرحلة متقدمة على يد الأنبياء في القرن الثامن ق. م. فلما نقل نبوخذ نصر ملك البابليين بالعراق جماعة من أشراف اليهود وكهانهم وصناعهم وعمالهم الماهرين

فيما عرف بالسبي البابلي لا يزيد عددهم على ٤٦٠٠ بلغت الديانة اليهودية نضجها... مما استمده الأسرى اليهود من المجتمع البابلي من عقائد وأفكار، وتأثر اليهود بالديانة الزرادشتية، واستمدوا منها بعضاً من عقائدهم في الجن والشياطين، وربما أخذوا منهم بعضاً من عقائدهم المهمة.

فاليهودية بسبب الميل اليهودي الثابت للوثنية والحسية والنفعية تعرضت في كثير من العصور، لغلبة الوثنية عليها، وهذا مكن لمدارس التحليل الأنثروبولوجي والسيكولوجي أن تجد فيها مجالا خصبا لدراسات منحرفة. وحسبنا أن نقرأ أسفار الملوك والقضاة لنرى صورا كثيرة من تعدد الآلهة المبحلة المعبودة، ليس من جانب عامة الناس فقط، بل من جانب الأنبياء أنفسهم بل إننا نجد ما هو أسوأ من ذلك بكثير، حيث يُعزى إلى النبي هارون شقيق موسى نفسه أنه هو الذي صنع للناس العجل أثناء ذهاب موسى لميقات ربه، بعد أن استبطأ بنو إسرائيل عودته التي لم تزد عن المقرر لها إلا عشرة أيام.

والثورة تحكي هذه الواقعة بكلمات وأساليب لا يمكن أن تقبل ديناً ولا عقلاً، بل من العجيب أنهم نسبوا إلى موسى عليه السلام أنه عمل حية نحاساً ظل بنو إسرائيل يعبدونها حتى ملك عليهم حزقيا بن آحاز فأزالها، ولكن على خلاف هذه النظرة الحمقاء العيثية التي ترسمها التوراة للأنبياء والتي يراد من خلالها تشويه مقام النبوة المعصوم نجد القرآن الكريم يبرئ موسى وهارون من الشرك ومن هذه الخيانة لرسالة التوحيد التي أرسلها بها: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا (٥١) وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا (٥٢) ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا (٥٣)﴾.

وعن براءة موسى وهارون من عبادة العجل يقول القرآن: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين (١٤٨)﴾ (الأعراف)، وفي سورة طه يبين القرآن إنكار هارون على بني إسرائيل عبادتهم العجل ووعظهم من أجل ردهم إلى الحق وإقلاعهم عن هذا الضلال من الشرك والكفر. يقول القرآن: ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربيكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري (٩٠) قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى (٩١)﴾ (طه).

كما يبين القرآن الكريم موقف موسى الحاسم من الشرك وعبادة الأصنام ورفضه لكل ما يمس التوحيد، عندما طلب منه بنو إسرائيل أن يجعل لهم وثناً إلهاً يعبدونه من دون الله، قال تعالى: ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين (١٤٠)﴾ (الأعراف)، مما دفعه إلى تحطيم العجل الذي اتخذ السامري لهم إلهاً في غيبة موسى عندما ذهب للقاء ربه على مرأى ومسمع من بني إسرائيل، وطرده لمن صنعه لهم.

هذه هي الصور الوضيئة لموسى وهارون في القرآن الكريم، تناقض تماماً الصورة المشينة التي تحط من قدرهما في التوراة المخرفة، فما أبعد الشقة بين الصورتين، فهل بعد ذلك يجوز لإنسان أن يتجرأ ويدعي وجود أدنى توافق بين الإسلام الصحيح واليهودية المخرفة؟!

وإذا ما عدنا إلى التوراة نجد أنه على خطى موسى وهارون جاء نبي الله سليمان لينهي هو الآخر حياته بعد أن آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده بعبادة الأوثان والأصنام تقرباً لزوجاته الألف، وعلى رأسهم في الإغراء بالطبع زوجته المصرية ابنة فرعون التي نقلت إلى قصور سليمان معبوداتها الوثنية، وبدلاً من أن يقودها نبي الله سليمان بن داود إلى توحيد الله، قادتته هي ولا أدري لأي سبب؟ أفليس في زوجاته الألف ما يعصمه من الخضوع لامرأة واحدة؟! إلى نبذ التوحيد وخيانة عهده وعهد أبيه مع الله، ونحن نجد تصوير هذه الواقعة في (الملوك الأول ١١: ٥ - ١٠)، وهكذا

تحول نبي الله سليمان بن داود النبي ابن النبي الذي كان يدعو الناس إلى التوحيد، هو وجنوده من الجن والإنس والطير، إلى داعية للوثنية يبني لها المعابد والمذابح في الأماكن المرتفعة الواضحة.

ولكن القرآن يذكر سليمان بالخير ويبرئه تماما من تهمة الكفر هذه: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٣٠)﴾، وإذا كان هذا هو مستوى الأنبياء أو الصالحين القدوة الذين يكلمهم الله حسب زعم التوراة فمن الطبيعي أن يكون هذا هو حال الشعب، فالناس على دين ملوكهم، ولهذا نجد أن عامة بني إسرائيل يتورطون في عبادة الأوثان لأوهن الأسباب، ويستمررون مع ذلك سنوات طويلة إلى أن تكثر عليهم المصائب، ويحمي عليهم غضب الرب، "فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنينهم وعبدوا آلهتهم. فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب، ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليليم والسواري. فحمني غضب الرب على إسرائيل". (القضاة ٣: ٨.٥).

وفي النسيج العام للأسفار الخمسة الأساسية التي تشكل التوراة يبدو التساهل مع الأصنام أمرا عاديا في حياة أنبياء بني إسرائيل، فراحيل زوجة نبي الله يعقوب تسرق الأصنام (الآلهة) من لابان وتخفيها تحتها وتجلس عليها، وترفض أن تقوم من فوقها وقت البحث عنها بحجة أن عليها عادة النساء ولا تستطيع أن تقوم. ولابان يعتب على يعقوب أنه يريد الهرب دون وداعه، ولكن هذا لا يهمه، بل الذي يهمه هو: لماذا سرق منه آلهته؟

وفي مقابل هذه الصور الرذيلة للأنبياء في التوراة نجد صورة حسنة سامية في القرآن الكريم ترفض كل ما ألحق بسيرتهم من نقائص ومخازي فهم عباد الله المصطفون الأخيار، جعلهم الله هداة للبشرية وأسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين (٩٠)﴾ (الأنعام). وإذا ما تركنا الحديث عن الأنبياء والرسل وذهبنا إلى عقيدة التوراة في الإله، رأينا من النسيج العام للتوراة أيضا أن **إله اليهود نفسه يهوه لا يشعر في حديثه أنه إله واحد فرد صمد، بل هو يطالب حتى في الوصايا العشر بألا يعبد إسرائيل آلهة أخرى: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي". (الخروج ٢٠: ٣)، "فإنك لا تسجد لإله آخر، لأن الرب اسمه غيور إله غيور هو. احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض، فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم، فندعى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنينك، فتزني بناتهم وراء آلهتهن، ويجعلن بنينك يزنون وراء آلهتهن". (الخروج ٣٤: ١٤ - ١٦).**

وحتى أزمنة قريبة جدا، بل حتى القرن العشرين، نسمع عبارات تتردد في التراث اليهودي مثل: آلهتك وآلهتهن.. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بالنسبة إلى الذات الإلهية ومكانتها عبر العصور، بل تضمن العهد القديم حتى في أسفار التوراة الخمسة المعتمدة.. نعوتا بالغة الهبوط، ليس بالنسبة لله فحسب، بل بالنسبة للبشر الأسوياء، فضلا عن بشر في مستوى الأنبياء عليهم السلام.

إننا نجد في أسفار التوراة حديثا عن الله يجعله أقرب إلى البشرية والتجسيد منه إلى الألوهية والتنزيه. ومن المعروف أن تشويه صورة الله وتشبيهه بالصفات البشرية الناقصة من شأنه أن يقضي على مكانة الألوهية، وأن يقضي على الشعور بعظمة الله وقدرته وتعالیه، واستحقاقه للعبادة، فإذا لم يكن الله إلها بحق منزها عن صفات النقص، والعجز، والنسبة، فكل شيء مباح في هذه الدنيا، إن التوراة تصف الله بالتعب والإجهاد، والشعور بالإرهاق، ولهذا فإنه يأخذ عطلة ليستريح من عمله. (التكوين ٢: ١ - ٣).

كما وصفت التوراة الله بالجهل وعدم العلم بالوقائع، يذكر سفر التكوين أن آدم عندما أخطأ احتبأ من وجه الرب الإله: "فنادى الرب الإله آدم وقال له: «أين أنت؟» فقال: «سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان

فاختبأت». فقال: «من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟» فقال آدم: «المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت». فقال الرب الإله للمرأة: «ما هذا الذي فعلت؟» فقالت المرأة: «الحية غرتني فأكلت». (التكوين ٣: ١٣-٩).

فهل يليق أسلوب هذا الحوار بجلال الله؟ وهل يقبل مع هذا الأسلوب البعيد عن التنزيه والعلم المطلق اللائق بعظمة الله، أي تكلف في التأويل أو محاولة للتبرير؟ أوليس من الواجب بالنسبة لقضية الألوهية تنزيه الله عن هذا الأسلوب؟! وهذا الإله كما تصوره التوراة يتوتر ويقلق ويخشى على مستقبله من آدم بعد أن أكل من الشجرة، تقول التوراة: "وقال الرب الإله: «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويجيا إلى الأبد». فأخرجته الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها". (التكوين ٣: ٢٢، ٢٣).

ولنلاحظ هنا لغة الجمع في الإله "كواحد منا" فهل هناك أكثر من إله؟!

إن حكايات العهد القديم وحيالاته السارحة، تنال من جلال الألوهية، ولا تبعث النفوس على إعظام الله وأين له هذا القاع المعتم مما حفل به القرآن الكريم من ترديد لأسماء الله الحسنى وأوصافه السنية؟ فنلاحظ أن سورة بني النضير وتسمى سورة الحشر ختمت بأكثر من عشرين اسماً ووصفاً لله الكبير المتعال، كأنها تذكر القوم "اليهود" بما نسوه، أو تعلمهم ما جهلوه، عن إله انتسبوا إليه، ولم يقدروا قدره، ولم يعرفوا حقه، يقول الله تعالى بعدما وبخ اليهود على غدرهم وفسقهم: {هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم (٢٢) هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون (٢٣) هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٤)} (الحشر).

أسماء وأوصاف يتألف فيها الكمال الإلهي نورا على نور، أين من هذه القمة السامقة حديث التوراة عن إله جهول أكل يصارع عبداً له طول الليل؟! من أجل ذلك حدد الإسلام عقيدته الكبرى في كلمات قلائل واضحة حاسمة: {قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفواً أحد (٤)}.

فالإسلام يرفض كل قول ينسب لله تجسيد أو تشبيه أو حلولاً في أشياء وما إلى ذلك من أوهام وضلالات، كما يرفض كل حديث يصور الله تعالى وقد لحقت به عواطف الإنسان وانفعالاته وضعفه، فكل ذلك باطل الأباطيل. وليس مهماً أن يعج العهد القديم بهذه الصور التي لا تليق بالله، ففي كتب الوثنيين أكثر من هذا. لكن أن يقال: إن هذا كتاب مقدس موصول النسب بالله، فهذا ما يستحيل نقلاً وعقلاً، والأسوأ من ذلك أن تشل العقول أمامه وتغلق، ويبلغ الأمر برجل كالرئيس الأمريكي ريجان أن يرفعه بيديه ملوحاً وقائلاً: هذا الكتاب يجب أن يحكم العالم!! وللأسف فهذا ما يقع فعلاً، وهذا ما يقود البشرية إلى الدمار^١.

أي شبه بعد هذا يمكن أن يشتبه على عاقل بين "التوحيد" في صفاته ونقائه في الإسلام، وبين ما رسمته التوراة "المحرفة" من صورة للإله، وهي أقرب ما تكون إلى الوثنية، والجسدية، والبشرية؟!

هذه الصورة المغشوشة المزيفة الشريكية التي رسمتها هذه التوراة لمقام الألوهية، شوهت وجه التوحيد وجعلته للوثنية والتجسيد أقرب منه للتوحيد.

رابعاً. التشريع والأخلاق بين القرآن والتوراة والتلمود:

^١ - الفكر اليهودي بين تأجيح الصراعات وتدمير الحضارات، د. عبد الحليم عويس، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٩ وما بعدها.

يشتهر عن اليهودية أنها ديانة تشريعية اهتمت بالتشريع والتقنين لحياة اليهود، وهي بهذا أشبه بالإسلام، ولكن الفارق الجوهرى في هذا الشأن، هو الاختلاف كما وكيفاً بين الديانتين، بالإضافة إلى ما أصاب كتب اليهودية المقدسة من تحريف يجعل الاختلاف في هذا المجال واضحاً والبون شاسعاً.

من مطالعة أسفار موسى الخمسة يتضح لنا أن الوصايا العشر وردت في صيغتين: إحداهما أكثر اتصالاً بالدين والعقيدة، وقد جاءت في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج، وفي الإصحاح الخامس من سفر التثنية، وهناك في الصيغتين توافق في بعض الوصايا، ثم اختلاف في البعض الآخر، فتتجه الصيغة الأولى للعقيدة وتهتم بالقرابين التي تقدم، والثانية للتقاليد والآداب.

ونص الصيغة الأولى كالآتي: "احفظ ما أنا موصيك اليوم... لا تسجد لإله آخر، لأن الرب اسمه غيور... لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة... تحفظ عيد الفطير. سبعة أيام تأكل فطيراً كما أمرتك في وقت شهر أبيب، لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر... لي كل فاتح رحم، وكل ما يولد ذكراً من مواشيك بكراً من ثور وشاة. وأما بكر الحمار فتفديه بشاة، وإن لم تفده تكسر عنقه. كل بكر من بنيك تفديه، ولا يظهروا أمامي فارغين... ستة أيام تعمل، وأما اليوم السابع فتستريح فيه... وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة... وعيد الجمع في آخر السنة... لا تذبح على خمير دم ذبيحتي، ولا تبت إلى الغد ذبيحة عيد الفصح... أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك. لا تطبخ جدياً بلبن أمه...". (الخروج ٣٤: ١١ - ٢٨).

ونص الصيغة الثانية كالآتي: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لمن ولا تعبدن، لأنني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحساناً إلى أئوف من محبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً. اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك ويهيمنتك ونزيلك الذي داخل أبوابك. لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه. أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزني. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك...". (الخروج ٢٠: ٣ - ١٧).

هذه هي الوصايا العشر في أسفارهم يلاحظ عليها اختلاط الحق بالباطل بسبب تدخل البشر فيها بالزيادة والنقصان عبثاً وتحريفاً واتباعاً للأهواء، أما في القرآن الكريم فنجد تشريعات أخلاقية راقية محكمة في كل جوانب التشريع الإسلامي أساسها قاعدة: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون} (٩٠) وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون} (٩١) {النحل}.

وقد جمع القرآن الكريم معظم التشريعات الماثوثة في تضايف التوراة والإنجيل في آيتين من آياته في قوله عز وجل: {قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون} (١٥١) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون} (١٥٢)

وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١٥٣) {
(الأنعام).

والقرآن الكريم يمتلئ بمثل هذه الأحكام والوصايا الأخلاقية الراقية التي تحض على التحلي بالفضائل والتخلي عن
الزائل واتباع الهدى والصراط المستقيم.

وفي أسفار التوراة الموجودة بين أيدينا، يلاحظ ازدحام التشريعات في سفر الخروج واللاويين والعدد والثنية، وفيما
يلي نماذج من تشريعات سفر الخروج:

"من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا. ولكن الذي لم يتعمد، بل أوقع الله في يده، فأنا أجعل لك مكانا يهرب
إليه... وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه. لكن إن بقي يوما أو يومين لا ينتقم منه؛
لأنه ماله... وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات، يرحم الثور ولا يؤكل لحمه. وأما صاحب الثور فيكون بريئا. ولكن إن
كان ثورا نطاحا من قبل، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه، فقتل رجلا أو امرأة، فالثور يرحم وصاحبه أيضا يقتل".
(الخروج ٢١: ١٢ - ٢٩).

"إذا سرق إنسان ثورا أو شاة فذبحه أو باعه، يعرض عن الثور بخمسة ثيران، وعن الشاة بأربعة من الغنم. إن
وجد السارق وهو ينقب، فضرب ومات، فليس له دم. ولكن إن أشرقت عليه الشمس، فله دم" (الخروج ٢٢: ١ - ٣)
وفي سفر اللاويين أحكام تتصل بالقربان والطقوس والأعياد والنذور والمحرمات وكفارات الذنوب، وفيه كذلك
شروح ضافية لمكانة اللاويين، وخيمة الاجتماع، والمحرمات في الزواج، والطعام الذي يحل والذي يحرم، ومن هذا السفر
يمكن أن نقبس بعض التشريعات:

"متى ولد بقر أو غنم أو معزى يكون سبعة أيام تحت أمه، ثم من اليوم الثامن فصاعدا يرضى به قربان وقود
للرب". (اللاويين ٢٢: ٢٧). "والأرض لا تباع ألبنة، لأن لي الأرض، وأنتم غرباء ونزلاء عندي". (اللاويين ٢٥: ٢٣)
وفي سفر العدد بالإضافة إلى العد والإحصاء توجد تشريعات حول نقاط كثيرة؛ منها ما سمي بـ "شريعة الغيرة
واللعان والاعتراف". وقد ورد ذلك مفصلا في الإصحاح الخامس، وهناك تشريعات أخرى بهذا السفر نقبس منها ما
يلي: "من مس ميتا يكون نجسا سبعة أيام. يتطهر به في اليوم الثالث، وفي اليوم السابع يكون طاهرا. وإن لم يتطهر في
اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهرا... هذه هي الشريعة: إذا مات إنسان في خيمة، فكل من دخل الخيمة،
وكل من كان في الخيمة يكون نجسا سبعة أيام. وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس". (العدد ١٩: ١١ - ١٥).

"وكلم موسى رءوس أسباط بني إسرائيل قائلا: «هذا ما أمر به الرب: إذا نذر رجل نذرا للرب، أو أقسم قسما أن
يلزم نفسه بلازم، فلا ينقض كلامه. حسب كل ما خرج من فمه يفعل. وأما المرأة فإذا نذرت نذرا للرب والتزمت بلازم
في بيت أبيها في صباها، وسمع أبوها نذرها واللازم الذي ألزمت نفسها به، فإن سكوت أبوها لها، ثبتت كل نذورها.
وكل لوازمها التي ألزمت نفسها بها تثبت. وإن نهاها أبوها يوم سمعه، فكل نذورها ولوازمها التي ألزمت نفسها بها لا
تثبت". (العدد ٣٠: ١ - ٥).

وفي سفر الثنية تكرار للتشريعات والتعاليم التي وردت في الأسفار السابقة، بالإضافة إلى تشريعات أخرى
استحدثت فيه، وفيما يلي نماذج من تشريعات هذا السفر:

"احفظ شهر أبيب واعمل فصحا للرب إلهك، لأنه في شهر أبيب أخرجك الرب إلهك من مصر ليلا. فتذبح
الفصح للرب إلهك غنما وبقر في المكان الذي يختاره الرب ليحل اسمه فيه. لا تأكل عليه خيرا. سبعة أيام تأكل عليه

فطيرا، خبز المشقة، لأنك بعجلة خرجت من أرض مصر، لكي تذكر يوم خروجك من أرض مصر كل أيام حياتك". (التثنية ١٦: ١ - ٣). "لا يقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التي يخطئ بها. على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر". (التثنية ١٩: ١٥).

هذا جانب من التشريعات التي تخص الجانب العقابي أو الجنائي في اليهودية، وكما هو واضح نجده لا ينضبط بقاعدة، أو يقوم على مقصد وهدف، فهي أحكام مضطربة مشوشة مشوهة عبثت بها أهواء البشر وأمزجتهم. أما في الإسلام فإن الشريعة الإسلامية قائمة كلها على حكم وعلل منضبطة بقواعدها ومقاصدها، لذلك فإنها احتوت على أفضل القوانين والتشريعات على مر التاريخ، التي كانت تهدف دائما إلى تحقيق العدالة والمساواة داخل المجتمع البشري؛ مما يؤدي إلى الأمن والطمأنينة والاستقرار.

ولكن المجال لا يتسع هنا لعرض جميع تشريعات الإسلام سواء في الجانب العقابي أو غيره فقد تم الحديث عن ذلك في أماكن أخرى من هذه الموسوعة وفيها الكفاية.

ونورد الآن نماذج لبعض التشريعات المتصلة بمسائل مهمة كموقف اليهودية من المرأة، ومن الرق والاعتراف ورأيها في الميراث، والمحرمات في الزواج وغيرها. وسيمكننا بعرض هذه المسائل أن نبرز المقارنة بين التشريعات في اليهودية والتشريعات في الإسلام:

١. الاعتراف والتطهير: في الفكر اليهودي تكثر الخطايا، ففي كل شهوة من الشهوات تكمن الخطيئة، فالخطيئة تدنس المخطئ، والحيض والولادة كالخطيئة يندسان المرأة، ويتطلبان تطهيرا ذا مراسم وتقاليد وتضحية وصلاة على يد الكهنة، والهبات والقرايين هي الوسيلة للتكفير عن الخطايا، على أن تقدم للكهنة بعد الاعتراف الكامل بما ارتكب الإنسان من إثم، وعلى هذا كان المجتمع اليهودي مجتمع خطايا، ومجتمع تكفير وغفران في نفس الوقت، حتى إن التاجر كان ولا يزال يطفف الكيل ويغش في الميزان، ثم يحاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة.

وقد أورد سفر العدد صورة مفصلة للمرأة التي تريد أن يغفر لها وضرة أن تذهب للكهنة، لتعترف عنده بخطيئتها، وذكر السفر أن الكاهن يوقفها أمام الرب، ويأخذ ماء مقدسا في إناء خزف، ويتلو عليه ترانيم وأدعية، ويطلب الكاهن من المرأة الاعتراف، فإن رفضت سقاها من هذا الماء الذي يسمى ماء اللعنة، وهددها بأن هذا الماء إذا دخل أحشاءها وهي مذنبه لم تعترف، ورم بطنها وسقط فخذها، وإذا اعترفت استطاع الكاهن أن يطهرها بالقرايين والهبات والأدعية؛ وهذه هي الفقرات التي تعبر عن هذا المعنى: "وكلم الرب موسى قائلا: «كلم بني إسرائيل وقل لهم: إذا زاغت امرأة رجل وخانته خيانة، واضطجع معها رجل اضطجاع زرع، وأخفى ذلك عن عيني رجلها، واستترت وهي نجسة وليس شاهد عليها، وهي لم تؤخذ، فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي نجسة، أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست نجسة، يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقربانها معها: عشر الإيفة من طحين شعير، لا يصب عليه زيتا ولا يجعل عليه لبانا، لأنه تقدمه غيرة، تقدمه تذكرك تذكر ذنبا. فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب، ويأخذ الكاهن ماء مقدسا في إناء خزف، ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأس المرأة، ويجعل في يديها تقدمه التذكرك التي هي تقدمه الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر. ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضطجع معك رجل، وإن كنت لم تريغي إلى نجاسة من تحت رجلك، فكوني بريئة من ماء اللعنة هذا المر. ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجلك وتنجست، وجعل معك رجل غير رجلك مضجعه يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة، ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفا بين شعبك، بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارما. ويدخل ماء اللعنة هذا في أحشائك لورم البطن،

ولإسقاط الفخذ. فتقول المرأة: آمين، آمين. ويكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ثم يحوها في الماء المر، ويسقي المرأة ماء اللعنة المر، فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة، ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح. ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء. ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها، يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة، فيرم بطنها وتسقط فخذها، فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة، تتبرأ وتحبل بزرع". (العدد ٥: ١١ - ٢٨). وإذا ما ذهبنا إلى نظام التطهير من الذنوب في الإسلام وجدنا نظاما آخر يختلف تماما عن هذا النظام الآسن الذي لا يزيد الإنسان إلا خبالا ورجسا، بل يدفع الإنسان إلى الاستمرار في السيئات والفواحش، حيث لا يوجد في الإسلام واسطة بين العبد وربه، وليس فيه مراسم للتطهير، وإنما من أخطأ واركب إثما أو فعل منكرا عليه أن يتوب ويرجع إلى الله، ولا تقبل التوبة إلا بشروط، منها: الإقلاع عن الذنب وعدم الرجوع إليه، والندم على فعله، ورد الحقوق إلى أهلها، ثم الاستزادة من الحسنات التي تذهب السيئات، قال تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون (١٣٥)} (آل عمران)، وقال تعالى: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين (١١٤)} (هود)، وقال تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (١٧)} وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما (١٨)} (النساء).

٢. الرق: أبحاث التوراة الاسترقاق بطريق الشراء، أو سبيا في الحرب، فجعلت للعبري اليهودي أن يستعبد العبري إذا افتقر، فيبيع الفقير نفسه للغني، أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفي له الثمن، ويبقى عبدا له ست سنين ثم يتحرر، ففي سفر الخروج: "إذا اشتريت عبدا عبرانيا، فست سنين يخدم، وفي السابعة يخرج حرا مجانا". (الخروج ٢١: ٢)، وإذا سرق العبري ماشية وذبحها، أو أي شيء استهلكه، ولم يكن في يده ما يعرض به صاحبه، يباع السارق بسرقة كما نصت التوراة على ذلك في سفر الخروج، وأبحاث التوراة للعبري أن يبيع بنته فتكون أمة للعبري الذي يشتريها.

أما الاسترقاق سبيا في الحرب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم، وقد نص العهد القديم على ما يلي: "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسلمك، بل عملت معك حربا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة - كل غنيمتها - فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك". (التثنية ٢٠: ١٠ - ١٤).

فأين هذا من التشريعات الإسلامية المنضبطة في مسألة الرق والاسترقاق وغيرها؛ إذ إن الإسلام حرص على تحرير الرقيق تدريجيا في المجتمعات؛ وذلك بتضييق روافده وتوسيع أبواب الخروج من الرق، فجعل عتق الرقاب كفارات لكثير من الذنوب كالقتل والظهار والحنث في القسم وغيرها... والأعظم من ذلك تلك الحقوق التي أعطاه الإسلام للرقيق على سادتهم من المعاملة الحسنة وتلبية حاجاتهم وضرورياتهم، وفي الحديث الصحيح: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».

وهذه الحقوق التي أعطاها الإسلام للرقيق نابعة من نظرة الإسلام للناس كافة، التي لا تفرق بين غني وفقير أو عبد وسيد أو امرأة ورجل، فالكل عند الله سواسية، لا تميز إلا بالإيمان والعمل الصالح، قال عز وجل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (١٣)}

(الحجرات).

٣. الميراث: إذا نظرنا إلى نظام الإرث في التوراة فإننا نجد أن أول من يرث الميت ولده الذكر، وإذا تعدد الذكور الأولاد للذكور حظ اثنين من إخوته، ولا فرق بين المولود بنكاح صحيح أو غير صحيح من الأولاد في الموارث، فيعطي لكل منهم نصيبه بصرف النظر عن النكاح الذي ولد منه، ولا يحرم البكري من امتيازته إذا كان من نكاح غير شرعي.

أما البنات فمن لم تبلغ منهن الثانية عشرة فلها النفقة والتربية حتى تبلغ هذه السن تماما، وليس لها شيء بعد ذلك، وإذا لم يكن للميت ولد ذكر فميراثه لابن ابنه، وإذا لم يكن له ابن انتقل الميراث إلى البنت فأولادها وهكذا. ويرى القراءون أن يكون للبنت نصيب مع الولد، سهمان للولد وسهم للبنت. وإذا لم تكن له ذرية فميراثه لأصوله، وأحق الأصول بميراث الميت أبوه، وله كل التركة، فإن لم يكن له أب فجده. وإذا لم يكن له أصول انتقل الميراث إلى درجات الأقارب الفرعية من الذكور، وإذا لم يكن للميت وارث من فروع أو أصول أو حواش، كانت أمواله مباحة بملكها أسبق الناس إلى حيازتها، وتظل وديعة في يد حائزها مدة ثلاث سنوات، فإذا لم يظهر للميت وارث خلاها صارت ملكا لحائزها، وعند اختلاف الدين يرث اليهودي أقاربه من غير اليهود، ولا يرث الأقارب غير اليهود اليهودي. أما الميراث في الإسلام فله نظام بدعي في توزيع التركة وأهم ميزة تميز النظام الإسلامي عن غيره في هذا المجال أنه أبطل قاعدة: لا ترث البنات إلا عند فقد الذكور، المعمول بها في الشرائع السابقة، فأصبحت البنات يرثن في أبيهن المتوفى، سواء ترك أبناء ذكورا أو لا، وترث الأم في ابنتها المتوفى مع أبيه إن كان على قيد الحياة، أو كان قد توفي، وترث الزوجة في زوجها المتوفى كما يرث الزوج زوجته المتوفاة.

فالميراث في الإسلام قائم على مبدأ العدالة وإعطاء كل ذي حق حقه، ويعتمد في توزيعه للإرث - حتى يحقق العدالة والمساواة - على جهة القرابة ودرجتها والعبء المالي، وليس على النوع، فلا تفاوت في الميراث حسب الذكورة والأنوثة، والمرأة في الإسلام لا ترث نصف الرجل إلا في أربع حالات، وترث في إحدى عشرة حالة مثل الرجل، وترث في أربع عشرة حالة أكثر من الرجل، وترث في خمس حالات ولا يرث نظيرها من الرجال، والحالات الأربع التي ترث فيها نصف الرجل ترجع إلى العبء المالي الذي يوجبه الإسلام على الرجل في مقابل معافاة المرأة من هذه الالتزامات. هذه هي القواعد العامة في توزيع الميراث في الإسلام، ونجد أنها تختلف كلية عن نظام الإرث في التشريعات اليهودية والتشريعات الأخرى، ومن ثم فلا مجال للمقارنة بينهما.

٤. النكاح وتعدد الزوجات: السن المفروضة لصحة الزوج في اليهودية هي الثالثة عشرة للرجل، والثانية عشرة للمرأة، ولكن يجوز نكاح من بدت عليه علامات بلوغ الحلم قبل هذه السن، ومن بلغ العشرين ولم يتزوج فقد استحق اللعنة، وتعدد الزوجات جائز شرعا بدون حد، ولم يرد بالتوراة ولا أحكام الأنبياء نهي عن تعدد الزوجات ولا عن تحديد عددهن، وعلى العكس من ذلك فقد ورد في التوراة ما يفيد تعدد الزوجات للأنبياء، ولغير الأنبياء. وحدد الربانيون الزوجات بأربع، وأطلقه القراءون.

ويقول غوستاف لوبون: وكان مبدأ تعدد الزوجات شائعا كثيرا لدى بني إسرائيل على الدوام، وما كان القانون المدني أو الشرعي ليعارضه.

وغير اليهود يعتبرون وثنيين في نظر اليهود، ومن أجل هذا لا يجيزون زواج اليهودي أو اليهودية من غير اليهود. وعن المحرمات في الزواج تمنع الديانة اليهودية أن يتزوج الرجل من كانت زوجة لعمه، ومن كانت زوجة لأخيه إذا أنجبت منه، ولا تجعل اليهودية الرضاة سببا للتحريم. وفيما يتعلق بزوجة الأخ المتوفى فقد نصت التوراة على أنه إذا لم يكن للمتوفى ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي، بل يدخل عليها أخو زوجها ويتخذها لنفسه زوجة، والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت، لئلا يمحي اسمه من إسرائيل، ولا يزال الربانيون يعملون بهذا التشريع. أما القراءون فيرون أن هذا التشريع قد نسخ من زمن ولا يزال منسوخا.

وبعض القرائين يحرمون امرأة زوج الأخت، فإذا تزوج زوج الأخت زوجة أخرى ثم طلقها، أو مات عنها فإنها تكون محرمة على إخوة زوجها، وبعضهم يجعل الزوج والزوجة كشخص واحد، ويجرون التحريم على هذا الأساس، ومعنى هذا أنه يحرم على الزوجة ما يحرم على زوجها لو قدر زوجها امرأة، أي أنها يحرم عليها أخوه وعمه وخاله وابنه.

٥. المرأة: وقد ورد بالعهد القديم عن المرأة ما يلي:

"درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماسة أنها جنون. فوجدت أمر من الموت: المرأة التي هي شبك، وقلبيها أشراك، ويدها قيود. الصالح قدام الله ينجو منها. أما الخاطيء فيؤخذ بها". (الجامعة ٧: ٢٥، ٢٦).

والزواج في اليهودية صفقة شراء تعد المرأة به مملوكة، وتشتري من أبيها فيكون زوجها سيدها المطلق، ويتم الزواج إذا باركه أحد الكهنة، وقدم الرجل للمرأة خاتما، أو هدية أخرى لها قيمة في حضور شاهدين على الأقل، ويعتبر ذلك عقدا، وإذا حضر العقد عشرة رجال فأكثر أتبع العقد بصلوات وأدعية يشترك فيها الجميع. ومن تقاليد الفكر اليهودي أن الرجل إذا تزوج لا يلتحق بالجيش، ولا يرتبط بأعمال تبعده عن زوجته مدة عام، فشهر العسل في الفكر اليهودي عام كامل.

والمرأة المتزوجة كالقاصر والصبي والمجنون، لا يجوز لها البيع أو الشراء، وينص الفكر اليهودي على أن جميع مال المرأة ملك زوجها، وليس لها سوى ما فرض لها من مؤخر الصداق في عقد الزواج، تطالب به بعد موته، أو عند الطلاق منه، وعلى هذا فكل ما دخلت به من مال، وكل ما تلقته وتكسبه من سعي وعمل، وكل ما يهدى في عرسها، ملك حلال لزوجها، يتصرف فيه كيف شاء بدون معارض ولا منازع.

وبالنسبة لكثرة ما شوهد من وقوع الشقاق والفرقة بين الأزواج، فقد استقر رأي السادة على وجوب الأخذ بمشروع "وقف الزوجية" ومعنى وقف الزوجية أن توقف أموال الزوجة، ويصير الزوج قيما عليها يستغلها، دون أن يبيعها أو يرهنها، فتصبح الزوجة بذلك مالكة لرقبة الأموال والزوج مالكا للمنفعة، فإذا حصلت الفرقة عادت الثروة للزوجة^(١). وإذا كانت المرأة في اليهودية تباع وتشتري، وهي المسئولة عن الخطيئة الأولى، وتعامل معاملة الصبي القاصر أو المجنون، وتملك هي ومالها لزوجها، فإن هذه النظرة الدونية للمرأة قد رفضها الإسلام، وأعطاها حقوقا لم تكن المرأة نفسها تحلم بها، بل إن الإسلام سوى بين الرجل والمرأة في سائر الحقوق والواجبات إلا في بعض الأحكام القليلة، وأعطاها حرية اختيار زوجها ونهى عن إكراهها في النكاح، وأعطاها حق تملك المال والتصرف فيه بحريتها دون وصاية من أحد، وجعل لها حق المشاركة في الأمور العامة والسياسة كالبيعة والحسبة وغيرها، حتى في أمور العبادات والطاعات لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا في بعض الأحكام القليلة: {ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (١٢٤)} (النساء).

^١ - اليهودية، د. أحمد شلبي، النهضة المصرية، القاهرة، ١٢٢، ١٩٩٧م، ص ٢٩١ وما بعدها.

وقد كرم الإسلام المرأة في جميع أحوالها: بنتا وأما وأختا وزوجة ورحما، كرمها أما وجعل حقوقها أضعاف حقوق الأب: {ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي (١٥)} (الأحقاف)، وجاء رجل إلى رسول الله فقال: «يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أهلك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أهلك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أهلك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أهلك"، قال: "ثم أبوك»^(١).

وكرمها زوجة جعل نفقتها وكسوتها وطعامها وشرابها على زوجها، وجعل أساس الزواج المودة والرحمة والسكن وليس مجرد التمتع والشهوة كما في غير الإسلام من أديان، وكرمها بنتا وجعل الجنة جزاء تربيتها ورعايتها، والكلام في مجال تكريم الإسلام للمرأة لا يتسع له هذا المقام.

٦. الأخلاق اليهودية:

لعله قد ظهر بعض ملامح التشريع وظهر الفارق الواضح بين التشريع الإسلامي الرباني، وبين تشريع التوراة والتلمود، الذي طالته يد التحريف والتزييف؛ فحفل بالمتناقضات والغرائب. فماذا عن الجانب الأخلاقي، لا شك أن الملم ببعض المضامين في الجانبين والروح السائدة فيهما، سوف يتوقع أن الاختلاف بين القرآن وبين التوراة والتلمود سيكون أوضح والفارق أبين في الجانب الأخلاقي والإنساني.

في هذا المجال، وتحت عنوان "نظرة اليهود إلى باقي الأمم على أنهم كلاب وحمير وخنزير" كتب د. محمد عبد الله الشرقاوي يقول: "جاء في التلمود، أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب أمي إسرائيلي فكأنه ضرب العزة الإلهية، ويعتقد اليهود فيما سطره لهم حاخاماتهم أن اليهودي جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، ولذلك ذكر في التلمود أنه إذا ضرب أمي إسرائيلي فالأمي يستحق الموت، وأنه إذا لم يخلق اليهود، لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب، وجاء في تلمود أورشلين أن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان... ويعتبر التلمود أيضا الأجانب كلابا، وفي سفر الخروج (١٢، ١٦) أن الأعياد المقدسة لم تجعل للأجانب ولا للكلاب... وذكر في كتب أخرى: أن الكلب أفضل من الأجانب؛ لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم الأجانب، وغير مصرح له أن يعطيهم لحما، بل يعطيه للكلب؛ لأنه أفضل منهم.

والأمم الخارجة عن دين اليهود ليست فقط كلابا بل حميرا أيضا. وقال الحاخام "أباريانيل": الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير.. فالخارج عن دين اليهود حيوان على العموم، فسمه كلبا، أو حمارا، أو خنزيرا. والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان.. فبناء على هذه القواعد لا يعتبر اليهود باقي الأمم أقارب لهم؛ لأنه لا يمكن اعتبار الحيوان قريبا للإنسان.

ويعتبر اليهودي الوثني الذي لا يتهود والمسيحي الذي على دين المسيح كلاهما عدو الله وعدوهم، كما يعتبر اليهود كل خارج عن مذهبهم غير إنسان، ولا يصح أن نستعمل معه الرأفة، ويعتقدون أن غضب الله موجه إليه، وأنه لا يلزم أن تأخذ اليهود شفقة به.

وجائز لبني إسرائيل على حسب تعاليم التلمود أن يغشوا الكفار؛ لأنه يقول: يلزم أن تكون طاهرا مع الطاهرين، ودنسا مع الدنسين، ومحظور على اليهود حسب التلمود أن يحيوا الكفار بالسلام، ما لم يخشوا ضررهم أو عداوتهم،

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، (٥٦٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٦٦٦٤).

فاستنتج الحاخام بشاي من ذلك أن النفاق جائز، وأن اليهودي يمكنه أن يكون مؤدبا مع الكافر، ويدعي محبته كذبا إذا خاف أن يؤذيه. وذكر التلمود أنه جائز استعمال النفاق مع الكفار، والكفار هم كل الخارجين عن الدين اليهودي^(١).

وفي مقابل هذه النظرة العنصرية البغيضة في اليهودية نجد أن أعظم ما امتاز به الإسلام وشرائعه هو تكريم الإنسان عموما دون النظر إلى جنسه أو لونه أو دينه قال تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٧٠)} (الإسراء)، وكذلك فإن الناس سواسية لا فرق بينهم لدين أو جنس أو عنصر {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (١٣)} (الحجرات)، وفي الحديث: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»^(٢). وهذه الأمم والشعوب على تنوع دياناتها ومللها وثقافتها وحضاراتها كان العدل هو معيار النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية والسماحة أساس التعامل مع كل الفرقاء المختلفين.

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون (٨)} (المائدة)، وقال تعالى: {وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين (١٢٦)} (النحل).

وفي عيد الفصح يأمر التلمود بذبح الآدميين من غير بني إسرائيل وتقديمهم قربانا لألهتهم، ومزج دمائهم ببعضين الفطائر المقدسة التي يتناولونها في أعيادهم وأفراحهم الدينية، ويستنزف اليهود دم ضحاياهم بطرق كثيرة منها ما يسمى "البرميل الإبري" وهو برميل يثبتون على جانبه من الداخل إبراً حادة توضع فيها الضحية حية، فتغرز هذه الإبر في جسمها حتى يسيل الدم ببطء من مختلف أعضائها، وتظل كذلك في عذاب أليم حتى تفارقها روحها، بينما يكون اليهود الملتفون حول هذا البرميل في نشوة تامة؛ لما يبعث هذا المنظر في نفوسهم من لذة وسرور، وينحدر الدم إلى قاع البرميل، ثم يصب في إناء معد لجمعه، وأحيانا تقطع شرايين الضحية من عدة مواضع ليتدفق الدم من جروحها، وأحيانا يذبح الضحية كما تذبح الشاة، ويؤخذ دمها وبعد أن يجتمع الدم يقدم للحاخام أو الكاهن، لإعداد الفطائر المقدسة. واليهود لا يشمئزون من مزاولة هذه الجريمة البشعة حتى في العصر الحاضر، لو تمكنوا من ذلك، وخاصة بعد إقامة دولتهم غير الشرعية على أرض فلسطين الإسلامية، بل أكثر من هذا لقد جاء في التلمود أنه: "محرم على اليهودي أن ينجي أحدا من الأميين من هلاك أو يخرجهم من حفرة يقع فيها، بل إذا رأى أحد الأميين يقع في حفرة لزمه أن يسدها بحجر"؛ لأن السكان الذين كانوا في أرض كنعان وقضت التوراة المزعومة بقتلهم جميعا لم يقتلوا عن آخرهم، بل هرب بعضهم واختلط بباقي أمم الأرض، ولذلك يلزم قتل غير اليهودي لاحتمال أن يكون من هؤلاء الهاربين^(٣).

خامسا. بين أسلوب القرآن وأسلوب التوراة وتهافت مزاعم اقتباسه:

تتمة هذه المزاعم أن هناك تشابها بين أسلوبي القرآن والتوراة، مع أن المتصفح للكتابين يدرك بيسر وبداهة الفرق بين الأسلوب القرآني البليغ البديع الفصيح، عالي المستوى قوة وجزالة، ووضوحا ودقة، وبين أسلوب التوراة الركيك في معظمه الهزيل، مفكك البنية غامض المعنى في أحيان كثيرة، لا تستشعر فيه جلال الأسلوب القرآني وبلاغته المهيبة.

^١ - الكنز المصود في فضائح اليهود، د. محمد عبد الله الشوقاي، دار عمران، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص ٢٠٠ وما بعدها.

^٢ - صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٥٣٦)، والطبراني في الأوسط (٤٧٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

^٣ - دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، د. محمد الأعظمي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص ٢٤٢ : ٢٤٤.

يقول د. الجديع: " يعسر أن تحد وجوه الإعجاز في القرآن العظيم، فكل شيء منه لا نظير له، فهو باهر في ألفاظه وأسلوبه، في تأليفه ونظمه، في بيانه وبلاغته، في تشريعه وحكمه التي حيرت الألباب، في أنبائه وأخباره، في تاريخه وحفظه في علومه التي لا تنقطع ولا تقف عند غاية.

ومن أنواع الإعجاز القرآني: الإعجاز اللغوي: هذا النوع هو أبرز ما تحدى به القرآن العرب في حياة النبي وهو التحدي في أبرز خصائصهم، فمع أنه بلسانهم، وأتى بما لا يخرج عن وجوه فصاحتهم، وأساليب بياضهم، وهم يومئذ في الذروة في ذلك نثرا ونظما. لكنهم عجزوا عن معارضته ولو بسورة من مثله، فصاروا يتخبطون، فتارة يقولون "هو شعر" وتارة "قول كاهن" وتارة "أساطير الأولين" لا يثبتون على شيء؛ لأنهم يعلمون أنه ليس كما يقولون، وما كانوا ليغفلوا عن صفة الشعر ولا صيغة النثر، وهم أهل ذلك وعباقرته، وإنما شأهم شأن من قال الله فيهم: {فلما جاءهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين (١٣)} وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (١٤) { (النمل).

ثم إن هذا القرآن قد اشتمل من القاموس العربي على أحسن الكلمات وأفصحها، {الله نزل أحسن الحديث { (الزمر: ٢٣)، أما في تركيب جملة وتناسق عباراته، ومقاطع آياته، فهو الفرد الذي لا نظير له، فكم ترى يكون في الكلام من المعاني، أو البيان، أو البديع، فإن القرآن في ذروة ذلك، بل به عرف كل ذلك، فما وضعت علوم البلاغة إلا بسببه طريقا إلى فهمه، وإبرازا لعظيم قدره، وتأصيلا لبنى سائر الكلام على قاعدته ونهجه.

وأهل التفسير في القدم والحديث، يراعون هذه الخصوصية للقرآن، فلم يتكلم أحد في تفسير هذا الكتاب، وبيان دلائله ومعانيه من لدن أصحاب النبي وإلى اليوم، إلا وهو يراعي الجوانب البلاغية فيه، وأسرار ذلك لا تنتهي، ولن تنتهي: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٨٢)} { (النساء)^(١).

فأين هذه البلاغة وتلك الفصاحة في أسلوب التوراة، ولغتها أشبه ما يكون بلغة الأطفال، حيث الجمل التي لا رابط بينها، والتكرار المعيب، والحشر والإقحام؟! إن التوراة بوضعها الحالي يعود تاريخها إلى سنة ٩٠ قبل الميلاد بعد وفاة موسى بمئات السنين فكيف يمكن الوثوق بها؟! هذا بالإضافة إلى السطحية والخرافات والأباطيل التي تطفح بها هذه الأسفار وكل ذلك يؤكد عدم ارتباطها بالوحي الإلهي.

وقد اعترف كثير من الدارسين والباحثين بهذه الحقيقة؛ لأن التناقضات وعدم التجانس المعهود في نصوص التوراة تؤكد حقيقة أن الأناجيل تحتوي على فصول ومقاطع ما هي إلا النتائج الوحيد للخيال البشري، فقد جاءت من خلال فكر الكنيسة وآراء المؤلفين يقول جراهام سكروجي: نعم إن الكتاب المقدس بشري، هذه الكتب المقدسة قد مرت عبر عقول الناس، وهي مكتوبة بلغة الناس، وخطت بأقلام الناس وأيديهم تحمل في أساليبها خصائص البشر".

لقد سمع هذا القرآن كل من قال الشعر من أصحاب المعلقات أو غيرهم ممن اشتهر وعرف بالشعر والفصاحة والبلاغة، فأطرق وأدرك أن هذا الكلام ليس من صنع البشر، وليس بمقدور أحد أن يأتي بمثله مهما أوتي من قوة الكلم^(٢)، فقد سمعوا عنه ما أدهشهم وسلب لبهم، ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، وهو ما عبر عنه الوليد بن المغيرة يوم قال لقومه من بني مخزوم: "والله لقد سمعت من محمد أنفا كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه".

وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا وفشلوا جميعا، وهم أمة البيان والفصاحة،

^١ - المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص ١٧: ٢١ بتصرف.

^٢ - دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، دار العقيدة، القاهرة، د. ت.

والقرآن الكريم معجز من وجوه كثيرة نسوق هنا طائفة منها:

تأليفه العجيب وأسلوبه الغريب في المطالع والمقاطع والفواصل، مع اشتماله على دقائق البيان وحقائق العرفان وحسن العبارة ولطف الإشارة، وسلامة التركيب وسلاسة الترتيب.

ما أخبر به عن القرون السالفة والأمم الهالكة، وقد علم أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدرسة مع العلماء ولا مجالسة مع الفضلاء، بل ترى بين قوم كانوا يعبدون الأصنام ولا يعرفون الكتاب، وكانوا عارين عن العلوم العقلية أيضاً، ولم يغب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم. والمواضع التي خالف فيها القرآن كتب أهل الكتاب كقصص صلب المسيح عليه السلام وغيرها، فهذه المخالفة قصرية، إما لعدم كون بعض هذه الكتب أصلية كالطورا والإنجيل المشهورين، وإما لعدم كونها إلهامية. ويدل على ما ذكرت قوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون (٧٦)﴾ (النمل).

ما فيه من كشف أسرار المنافقين حيث كانوا يتواطئون في السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد، وكان الله يطلع رسوله على تلك الأحوال ويخبره عنها على سبيل التفصيل، وما فيه من كشف حال اليهود وضمائرهم جمعه لمعارف جزئية وعلوم كلية لم تعهدها العرب عامة ولا محمد ﷺ خاصة، من علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقلية، والسير والمواعظ والحكم، وأخبار الدار الآخرة ومحاسن الآداب والشيم وتحقيق الكلام. كونه بريئاً عن الاختلاف والتفاوت مع أنه كتاب كبير مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم. كونه معجزة باقية متلوة في كل مكان مع تكفل الله بحفظه، بخلاف معجزات الأنبياء التي انقضت بانقضاء أوقاتها، وهذه المعجزة باقية على ما كانت عليه من وقت النزول إلى زماننا هذا. أن قارئه لا يسأمه، وسامعه لا يجمه بل تكرر يوجب زيادة محبته، وغيره من الكلام يمل مع التكرار والترديد كونه جامعاً بين الدليل ومدلوله. سهولة حفظه لمتعلميه.

الحشية التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماع القرآن والهيبة التي تعتري تاليه^(١).

ولما أدهش القرآن عقول هؤلاء، ولما كانت لديهم الرغبة لنفيه ونفي إعجازه عن النبي حاولوا أن يذهبوا به بعيداً عن وحي السماء، فدارت الافتراضات حول هذا القرآن، من أين استقاه محمد صلى الله عليه وسلم؟ افترض بعضهم أن يكون أحد من الناس قد علم النبي القرآن، فقالوا: لقد علمه غلام رومي أعجمي يشتغل في مكة حدادا، وحين أسقط في أيديهم قالوا: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٥)﴾ (الفرقان)، ثم قالوا إن محمداً علمه ورقة بن نوفل، فجاء القرآن يضرب بأقوالهم عرض الحائط، ويسفه أحلامهم بتحديه لهم أن يأتوا بمثله، ولو اجتمعوا له، وتساهل معهم لعلمه بعجزهم، فتحداهم بعشر سور مثله، ولو كانت مفتريات فعجزوا عنها، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، ثم قالوا إن بحيرى الراهب النسطوري هو الذي أملاه عليه، وهو الذي أفنعه بنبوته، وعلمه أكثر ما كان يعلم من القصص والأخبار وغيرها، وهذا بالطبع زعم باطل لا يقوم على تصور واضح لرحلة النبي إلى الشام.

وأصل ذلك أن رسول الله حين بلغ سن المراهقة كان لا بد أن يتجه إلى عمل قومه وهو التجارة، فخرج مع عمه للتجارة بالشام، فحلت القافلة بأرض مدينة بصرى، وبصرى كانت موطناً لصوامع الرهبان، يقيمون بها، منصرفين إلى عبادتهم، فكان لهم مع الرهبنة والزهادة علم بالكتاب وإشاراته وتبشيراته. وقد كان ببصرى راهب في صومعة اسمه

^١ - انظر: إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الهندي، دار الحرمين للطباعة، مصر، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ج ٣، ص ٧٥٥: ٨٢١.

بحيرى، وكان على علم بالكتاب، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوي علم بالتوراة والإنجيل، يتوارثون ذلك العلم كابرا عن كابر.

خرج بحيرى من صومعته للقاء القافلة التي كان فيها رسول الله مع عمه، وكان لا يخرج من صومعته، وما خرج إلا لما رأى الأمارات والبشارات التي تلوح بوجود نبي من بين هؤلاء؛ أي: في تلك القافلة، فقد رأى غمامة تظلمهم تسير حيث يسرون وتقف حيث يقفون، وأنهم إذا آووا إلى فيء شجرة، رأى أغصانها تنهصر وتميل حتى تظل واحدا منهم. ورأى غير ذلك من الأمارات الدالة على أنه المذكور في الإنجيل، فأعد للقوم وليمة ودعاهم إليها واشترط على ألا يتخلف منهم أحد فأجابوه، وتخلف رسول الله لحداثة سنه، فلم رآهم لم ير العلامات والامارات التي دعاهم ليتثبت منها فطلب منهم أن يحضروا هذا الغلام فأحضروه، فأخذ بحيرى يلحظه لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، سأله بحيرى بحق اللات والعزى أن يجيبه عما يسأله، فكره النبي سؤاله باللات والعزى وأنكر عليه ذلك؛ لأنه ما أبغض شيئا قط بغضهما، وجعل بحيرى يسأله عن رحلته وهيئته وأموره ورسول الله يخبره، ويقول ابن اسحاق: فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته. ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، فلما فرغ أقبل على عمه أي طالب، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني!! قال بحيرى: ما هو ابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا. قال أبو طالب: هو ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر من اليهود، فوالله، لئن رأوه وعرفوا ما عرفت ليبلغن شرا، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده^(١).

وزعم المستشرقون أن بحيرى قد علم النبي الديانة، وأنه هو الذي كان يلقي الرسول السور الواردة في القرآن! وهو زعم لا شك باطل؛ فإن الرسول عندما قابل الراهب بحيرى في بصرى بجوار الشام كان ذلك عام ٥٨٢ م، وهذه كانت أول مرة في حياته وآخر مرة. ولكن بداية نزول الوحي بالقرآن كان عام ٦١٠ م أي: بعد أربعين عاما من ولادة الرسول أي: إن الوحي نزل على الرسول بسور القرآن بعد ثمانية وعشرين عاما من مقابلة الراهب بحيرى النصراني. فلا سبيل إلى أن يلقي الراهب بحيرى القرآن للنبي وهو يبعد عنه مئات الأميال، ولم يقابله إلا مرة واحدة في حياته، وبعد هذه الرحلة عاد الرسول إلى مكة ومضى بها من ٥٨٢ م حتى ٦٢١ م، ثم بعد ذلك هاجر إلى المدينة ومكث بها حتى ٦٣٢ م وهو العام الذي توفي فيه.

إذن فالنبي لم يلتق الراهب بحيرى إلا مرة واحدة وعمره اثنا عشر عاما، فكيف يصل الخيال بالمستشرقين وخاصة المستشرق هوارت إلى هذا الحد ليقولوا: إن بحيرى علم الديانة للرسول، وذكر له بعض السور القرآنية، إنه كلام لا يصدقه عاقل وبدون أي سند من التاريخ، ولا دليل عليه^(٢).

والمعروف أن النبي لم يغيب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم، فكيف يأخذ عن بحيرى وهو بعيد عنه آلاف الأميال، ولم يلتق به ثانية؟! كما أن المرة التي التقاه فيها النبي كانت في صغره، وهو طفل، ولمدة لا تتجاوز استراحة المسافرين! فهذه هي حقيقة المقابلة بين الرسول وبين الراهب بحيرى، كما تذكرها كتب السيرة النبوية فمن أين لهم الزعم بأن بحيرى كان يلقي النبي القرآن؟!!

ولو فرضنا جدلا صحة ما ذهبوا إليه، فلماذا سكنت عنه اليهود والنصارى. وقد بين القرآن زيفهم وضلالهم وكفرهم، وكذلك تحريفهم للكتب المنزلة من عند الله؟!، لو كان الأمر كذلك لكان لهم مع رسول الله وقفة أخرى،

١ - خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ج ١، ص ١٢٨.
٢ - محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بياوي، دار البياوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٣: ٥١ بتصرف.

ولأعلنوا على الملأ تكذيبه في الوحي، ولأذاعوا أن بحيرى هو الذي كان يعلمه القرآن والقصص، وهذا ما لم يحدث منهم، ثم كيف يلحق بحيرى الراهب النصراني تلك النصوص التي تغلق العقيدة النصرانية من جذورها وتثبت كفرهم وضلالهم، فهل يعينه على بني قومه ودينه؟ ولم؟

لقد تواترت الشواهد أن رسول الله كان أمياً لم يقرأ كتاباً، ولا اكتسب علماً، وقد وردت كلمة "أمي" بلفظها المفرد مرتين في القرآن الكريم، وكلتاها وصف للرسول بالأمية التي تعني عدم القراءة والكتابة، قال تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل (١٥٧)} (الأعراف)، وجاء في السورة ذاتها: {فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون (١٥٨)} (الأعراف). فقد توجه الخطاب إلى النبي الأمي ليأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً... وهي الرسالة الأخيرة، ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية إلا تعليم الله^(١)، قال الطبري: إن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب نسبة إلى أمه؛ لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتابة دون أبيه كما ذكرنا عن النبي من قوله: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»^(٢)، وقد فسر هذا الوصف في سورة العنكبوت: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون (٤٨)} (العنكبوت)، أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتاباً ولا تقدر على ذلك؛ لأنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، {ولا تخطه بيمينك} أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً لا يخط ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية. وذلك دليل على نبوته؛ لأنه لا يكتب ولا يخاطب أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، {إذا لارتاب المبطلون} أي: لو كنت تقدر على التلاوة والخط لقالوا: لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة أو من الكتب المدونة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا محل للشك أبداً، وسماهم "مبطلين"^(٣).

إن سياق النص يتحدث عن إيمان بعض أهل الكتاب بالقرآن، على حين يكفر به المشركون الذين أنزل الله الكتاب على نبيهم، غير مقدرين لهذه المنة الضخمة، ولا مكتفين بهذا الفضل المتمثل في تنزيل الكتاب على رسول منهم يخاطبهم به، ولم يكن يتلو من قبله كتاباً، ولا يخطه بيمينه، فتكون هناك أدنى شبهة في أنه من عمله وتأليفه^(٤). فرسول الله عليم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغ في نبوته.

ما كان النبي يخاطب أهل الكتاب، فضلاً عن أنه لم يكن بمكة أهل كتاب، وكان ينهى أصحابه عن مشاهجة أهل الكتاب في المدينة أو التأسى بهم أو حتى سؤالهم، وكان حريصاً على أن يظهر المسلم بشخصية متميزة مستقلة بعيدة عن مشاهجة أهل الكتاب، قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق. والله، لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»^(٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»^(٦)، وعن جابر بن عبد الله «أن عمر بن الخطاب أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي فغضب فقال: أمتهوكون (التحيز والتردد) فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا

^١ - دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، دار العقيدة، القاهرة، د. ت.

^٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي (١٨١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (٢٥٦٣).

^٣ - فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣ م، ج ٤، ص ٢٩٥.

^٤ - في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١٣، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ج ٥، ص ٢٧٤٦.

^٥ - حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٤٦٧٢)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

^٦ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة (٤٢١٥)، وفي مواضع أخرى

تسألهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني»^(١).

فالثابت أن رسول الله ما كان يخالط أهل الكتاب، وكان يأمر أصحابه بعدم التشبه بهم أو الأخذ عنهم؛ لأنهم حرفوا الكتب التي أنزلت عليهم، فكيف يزعم هؤلاء أن رسول الله أخذ عنهم وتعلم منهم وهو الذي يأمر أصحابه بتجنبهم؟! ثم كيف يزعمون ذلك وما جاء به رسول الله كان يختلف تماما عما هو بين أيديهم من الكتب السماوية التي تلحق صفات النقص بالله والأنبياء، وتقول بإله مع الله وهو المسيح كما يزعم النصارى؟ وثبت أيضا أن رسول الله كان أميا، كيف يأخذ عنهم عقيدته وهو أمي على فرض أن هناك فئة نسطورية باقية على دين المسيح؟!

"إن النبي لم يعرف أنه كانت له عناية خاصة بتاريخ النصارى ولا بأخبار اليهود ولا بشيء من ذلك، بل عنايته في مطلع حياته بكسب الرزق، وفي شبابه الأول بالتجارة، ثم بعد أن توفر له الرزق انصرف إلى العبادة والتحنن الليالي والشهور، وفي كل أحواله كان كثير التأمل، يتعرف الخالق من خلقه والمنشئ مما أنشأه، ولكن كتاب الغرب يدعون أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة يتتبع أخبار اليهود، ويستمع إلى ما يحدث به أحبار اليهود، وربهان النصارى، وهم يرمون بهذا الرأي إلى أمرين:

أحدهما: إثبات أن محمدا ما وصل إلى ترك الأوثان إلا بتعاليم اليهود والنصارى وأنه ما وصل إليها بمنطقه وفطرته وبقايا ديانة إبراهيم عليه السلام، وثانيهما: ادعاء أن القرآن أخذ أخبار النبيين وقصصهم من التوراة والإنجيل، وأن العلم بهذا تلقى، وليس بوحي من الله تعالى، مع أنه من الثابت أن قصص الأنبياء في القرآن هو الصدق وغيره فيه الفساد والضلال؛ كخبر سكر لوط ومواقعة ابنتيه، وكزنا داود بامرأة قائد جيشه، فهي أكاذيب ليست في القرآن^(٢).

سادسا. الإسلام جاء حربا على الجاهلية، وعلى كل تقاليد العمياء يستحيل عليه أن يقلد سلوكياتها أو

أن يأخذ منها:

لو أخذ الإسلام من الجاهلية شيئا لما شنت الجاهلية حربها الشعواء على الإسلام حينما بزغ لأول مرة، بل إن الجاهلية حاولت أن تقايض نبي الإسلام على التنازل عن بعض ما فيه من تعاليم؛ ليقبل زعمائها على الإسلام، فما كان من الإسلام بعزته المستعلية ليسمح للجاهلية أن تخترق منه ولو جزءا من تعاليمه، فقال عز وجل مخاطبا رسوله: {فلا تطع المكذبين (٨) ودوا لو تدهن فيدهنون (٩)} (القلم)، أي: إنهم تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وترك بعض ما لا يرضون مصانعة لهم، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك.

وعليه فإن محاولة إصااق بعض شرائع الإسلام ببعض مبادئ الجاهلية هي محاولة جد كاذبة، وافتراء شنيع على حقيقة الإسلام، لا يعتمد على دليل، بل على فكرة شوهاء وهي أن مجرد التشابه بين بعض ما كان عليه عرب الجاهلية وبين بعض ما قرره الإسلام قاض بأن الجاهلية هي مصدر الإسلام، ولم يسألوا أنفسهم لماذا كان هذا التشابه وما منبعه وكيف نكيهه أو نصوره؟

الجدور التاريخية لعادات العرب وعباداتهم في الجاهلية:

١. الحنيفية الموروثة عن إبراهيم عليه السلام: وهذه قد بقيت غير مشوبة لدى بعض أناس كزيد بن عمرو بن نفيل، الذي حافظ عليها بعد أن لم يقنع باليهودية ولا بالنصرانية ورفض عبادة الأصنام، والحنيف عند عرب الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن، فلما جاء الإسلام كان الحنيف هو المسلم، ولذلك فإن العرب لم

^١ - حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٥١٩٥)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩).

^٢ - خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ج ١، ص ٢٦٢. بتصرف.

يعترضوا أبداً على الوحدانية بإقرار القرآن، قال عز وجل: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) (العنكبوت)، وإنما كان اعتراضهم على المنهج الذي جاء بغير منهجهم في الحياة، والتشريعات التي قاومت الكثير مما كانوا قد ألفوه؛ حيث حرم عليهم كثيراً مما كانوا يمارسونه في حياتهم، وأقر عليهم ما لم يألفوه.

٢. الفطرة السليمة: التي قادتهم إلى كثير من الأخلاق الحميدة الفطرية؛ كالكرم والشجاعة ونصرة المظلوم، ويشهد لهذا "حلف الفضول" الذي دعا إليه ابن جدعان.

٣. دخول بعضهم في ديانات إلهية: كورقة بن نوفل الذي اعتنق النصرانية.

٤. إقحاماتهم المنحرفة: كعبادة الأصنام التي أدخلها عمرو بن لحي وغيره.

٥. النعرة القبلية: التي ألجأتهم إلى عادات مستقبة؛ كالقتل والثأر ووأد البنات وحرمان المرأة والذكر الصغير من الميراث.

هذه هي الأطر التي يمكن أن تكون مرجع سلوك العرب في الجاهلية سواء على مستوى العبادات أو العادات فماذا كان موقف الإسلام منها؟

أما بالنسبة للحنيفية الإبراهيمية، فالقرآن يقرر أنه قد جاء ليحافظ عليها؛ لأنها ربانية المصدر، قال عز وجل: قال عز وجل: {قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (٩٥)} (آل عمران)، وقال عز وجل: وقال عز وجل: {قل إنني هداي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (١٦١)} (الأنعام).

فالقرآن يقرر أن ما جاء به محمد هو ما جاء به إبراهيم من قبل، وإذا كان العرب هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم؛ فلا شك أنهم قد توارثوا عن آبائهم الكثير من هذه الآثار عادة وعبادة؛ ولهذا لم يحتج الكفار على النبي بأنه قد جاء بما شرعوه هم لأنفسهم؛ لعلمهم بأن ما كانوا يقومون به هو من ميراث إبراهيم عليه السلام، الذي جاء الإسلام مجدداً لدعوته، وخير مثال لذلك هو الحج، فقد كان الناس قبل الإسلام يحجون البيت على ميراث إبراهيم عليه السلام، لكن هذا الميراث قد دخله بعض التغيير والتعديل، كما أدخلت قريش فكرة الحرس وكما اختلقوا لأنفسهم تلبية خاصة، خالفهم فيها غيرهم، فجاء الإسلام بتليته المنزهة لرب العباد من الشرك، كما ألغى فكرة الحرس، ولا يمكن لأحد أن يقول: إن الحج هو من ميراث الجاهلية، وعلى هذا قس العديد من التشريعات التي أقرها الإسلام مما كان معروفاً في الجاهلية.

وأما بالنسبة لما يرجع إلى الأخلاق الفطرية التي كانوا متخلقين بها، فهذا مما تتفق عليه كل الفطر السليمة، وقد قرر القرآن أن الدين الإلهي هو دين الفطرة، ومن ثم لا نقول: إن هذه الأخلاق ميراث الجاهلية؛ بل هي فطرة الله في جميع خلقه بدليل أننا نجد الكثير من الصفات يتفق فيها أصحاب المعتقدات المختلفة، فالكرم والشجاعة والحلم واحترام الآخرين قدر مشترك بين جميع من يتحلى بها؛ لأنها مكتسبات فطرية، وإنما دور الأديان والشرائع هو في تهذيبها وتنميتها فقط، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١) أي: هو لم يدع أنه أنشأ مكارم الأخلاق، بل هي موجودة بالفطرة السليمة، وكان دوره تنميتها فقط وتنميتها، ومن ثم أشار إلى "حلف الفضول" الذي دعا إليه في الجاهلية عبد الله بن جدعان، وقال: "لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت".

^١ - صحيح: أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها (٢١٣٠١)، والحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ومن كتاب آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي دلائل النبوة (٤٢٢١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

أما مختزعات الجاهليين وانحرافاتهم عن حنيفية إبراهيم عقديا وتشريعا، وكذا تصرفاتهم النكراء التي كانت تلحجهم إليها عصبيتهم وقبليتهم، وهذا هو القسم الذي جاء الإسلام بهدمه من الأساس، وهو القسم الأكبر؛ ولأجله كفر من كفر، بل حارب من أجل بقائه ونصرته من حارب بحجة أنه موروث آبائهم، ولقد بلغ من حرصهم على بقاء ميراث الآباء من تلك العبادات والعادات المنحرفة أن عرضوا على النبي الملك والمال والجاه، فقال قولته المشهورة: «ما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا لي منها شعلة»؛ يعني الشمس^(١).

وأول ما حاربه الإسلام هو أساس عقيدتهم فقد صعدوا حينما فاجأهم النبي بأن الدين الحق هو دين التوحيد، وأن هذا الكون ليس له إلا إله واحد هو الذي خلق ورزق وهو الجدير بالعبادة، قال عز وجل: {حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق (٣١)} (الحج)، نعم ترك عبادة الأصنام هي حنيفية إبراهيم التي دعا ربه وسأله المداومة عليها: {واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبي وبني أن نعبد الأصنام (٣٥) رب إنهم أضللت كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم (٣٦)} (إبراهيم).

وعاب رسول الله بأمر ربه ووحيه على قومه عبادة الأصنام، ولم يجار الإسلام عرب الجاهلية في عبادتهم للأوثان، وجعلها آلهة مع الله تقرهم إليه زلفى، ناهيك عن كثير من التشريعات التي كانت حائط صد في وجه الكفار؛ حيث حرم عليهم القرآن في الفترة المكية التي يصير بعض الناس على أنها كانت فترة مهادنة ومداينة وأد البنات، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنا، والظلم، وقطع الرحم، والكذب... وغير ذلك مما لا تقتضي الحكمة تأخيرها؛ لأنه مما يتعلق بالكليات التي ضمن الدين حفظها، وهي: النفس والعرض والدين والمال والعقل.

ونذكر موقف جعفر بن أبي طالب حين عقد للنجاشي موازنة بين موقفهم في الجاهلية، وما دعاهم إليه الإسلام، فقال: «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عز وجل، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث»^(٢).

وعندما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن النبي كان من بين ما سأله عنه أن قال: «ماذا يأمركم؟ فقال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آبائكم، وأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة...» ولم يكن أبو سفيان قد أسلم بعد حين قال ذلك^(٣). فهذا كله وغيره ناطق بأن ثورة الكفار على الإسلام سببها هو أنه قد جاءهم بخلاف ما يعرفون، وبنقض ما يعتقدون ويسلكون، ولا ينافي ذلك التوافق فيما هو فطري ككرهم الأخلاق أو ما هو من ميراث الحنيفية، أو الديانات الربانية التي تشارك الإسلام في وحدانية المصدر^(٤).

^١ - حسن: أخرجه الزوار في مسنده، مسند عقيل بن أبي طالب (٤/ ٢١٧٠)، والطبراني في المعجم الكبير، (٥١١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢).

^٢ - صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث جعفر بن أبي طالب (١٧٤٠)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ١١٥).

^٣ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧).

^٤ - راجع: موسوعة بيان الإسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط ٢٠١٢.

٥- الانفرادات الفطرية القرآنية، ودلالات الاتفاق والاختلاف على ربانية الكتاب

١ - القرآن وحده هو الذى برأ المرأة من خطيئة إخراج آدم من الجنة. {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} (طه : ١٢٠)، ففي القرآن الشيطان هو سبب الخطيئة هو الذى وسوس لآدم وأغراه بالخلود وأغواه بالملك. فى الكتاب المقدس المرأة سبب الخطيئة الأولى: (فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ ، وَأَنَّهَا بَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ . فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ) التكوين (٣ : ١-١٦) المرأة فى الكتاب المقدس شر: (وَإِذَا بِامْرَأَةٍ جَالِسَةٍ فِي دَاخِلِ الْمِكْيَالِ . فَقَالَ لِي هَذِهِ هِيَ زَمْرُ الشَّرِّ) ، زكريا (٥ / ٨-٥) ، (فَوَجَدْتُ أَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي قَلْبُهَا أَشْرَاكَ وَشَبَاكَ، وَيَدَاهَا فُيُودٌ، هِيَ أَمْرٌ مِنَ الْمُوتِ، وَمَنْ يُرْضِي اللَّهَ يَهْرُبُ مِنْهَا، أَمَّا الْخَاطِئُ فَيَقَعُ فِي أَشْرَاكِهَا). الجامعة (٧ / ٢٥ : ٢٨) .

أضف أن العلاقة التي تجمع بين الرجل والمرأة فى القرآن الكريم تقوم العلاقة على المودة والرحمة قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} (الروم : ٢١)، أما الكتاب المقدس يأمر المرأة بالخضوع للرجل: (أَيْتُهَا الزَّوْجَاتُ، اخْضَعْنَ لِأَزْوَاجِكُنَّ، كَمَا لِلرَّبِّ. فَإِنَّ الزَّوْجَ هُوَ رَأْسُ الزَّوْجَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا هُوَ رَأْسُ الْكَنِيسَةِ (جَسَدِهِ). وَهُوَ نَفْسُهُ مُخْلِصُ الْجَسَدِ. فَكَمَا أَنَّ الْكَنِيسَةَ قَدْ أَخْضَعَتْ لِلْمَسِيحِ، فَكَذَلِكَ الزَّوْجَاتُ أَيْضًا لِأَزْوَاجِهِنَّ، فِي كُلِّ شَيْءٍ) . أفسس (٥ : ٢٢-٣٣) .

٢ - ومن انفرادات القرآن أن القرآن الكريم هو الذى وصف الإله بما يليق به من كمالات فאלله عظيم القدرة، على كل شيء قدير، ليس كمثله شيء ، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وهو الحليم اللطيف الخبير .. الكبير المتعالي وهو الجبار المتكبر .. قال الله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)} (الحشر: ٢٢ - ٢٤) . فى الكتاب المقدس إساءات بالغة إلى الله، من ذلك: الشيطان يسيطر على الرب الإله أربعين يوماً!! ويوم يتركه، يتركه إلى حين؟ لوقا (٤ : ١-١٣) كما أن الرب يندم فى الكتاب المقدس: (فَمَلَأَ قَلْبُهُ الْأَسْفَ وَالْحُزْنَ لِأَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ. وَقَالَ الرَّبُّ: " أَتُحُو الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالزَّوْاجِفِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لِأَنِّي خَزَنْتُ أُنِّي خَلَقْتُهُ) التكوين (٦ : ٦-٧) . الرب شاة سيقن للذبح فى الكتاب المقدس: أعمال الرسل (٨ : ٣٢) وأحيانا غير ذلك كمثل : (لِهَذَا أَكُونُ لَهُمْ كَأَسَدٍ، وَأَكْمُنُ كَنَمِرٍ لَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ. وَأَنْقَضُ عَلَيْهِمْ كَدُيَّةً ثَاكِيلًا، وَأُمَرِّقُ قُلُوبَهُمْ أَشْلَاءَ وَأَفْتَرِسُهُمْ هُنَاكَ كَلْبُوءَةً، وَوَحْشٍ الْبَرِّ يَفْطَعُهُمْ إِرْزَابًا إِرْزَابًا ") هوشع (١٣ : ٤-٨) كما أنه يجب المحارق ورائحة اللحم المشوي جدا ولا يرضى عنهم حتى يشمها

٣ - من أهم انفرادات القرآن الكريم أنه الكتاب الوحيد الذى أعطى العصمة للأنبياء ووصفهم بأكمال الأخلاق والصفات لأنهم أسوة وقدوة. قال تعالى: -{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ} (النمل: ٥٩) {وَأِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} (ص: ٤٧). توضح هاتان الآيتان أن عصمة الأنبياء عليهم السلام إرادة إلهية تمتنع معها وقوعهم فى المعصية . فى الكتاب المقدس إساءات بالغة للأنبياء، من ذلك: نبي الله لوط سكر وزنى بابنتيه: تكوين (١٩ : ٣٠ / ٣٨) و نبي الله راوبين زنى بزوجة أبيه بلهة. تكوين (٣٥ : ٢٢) و يعبدون غير الله: نبي الله هارون عبد العجل ودعا لعبادته: الخروج (٣٢ / ١-٦). نبي الله سليمان يعبد آلهة أخرى غير الرب: ملوك الأول (١١ : ٩-١٠) ، الصراع مع الرب: نبي الله يعقوب صارع الرب وهزمه: تكوين (٣٢ : ٢٢-٣٠) .

الانتحار: نبي الله شاول انتحر: صموئيل الثاني (١ : ٤-١١) القتل: نبي الله أبشالوم قتل أخيه أمنون: صموئيل الثاني (١٣ : ١-٢٩).

ولنا أن نتساءل بعد نسبة الكتاب المقدس للأنبياء هذه السوءات: الزنا، القتل، الانتحار، الصراع مع الرب، وعبادة غير الله. وكلها صفات شنيعة لا تليق برجل صالح عادى فأين الأسوة والقُدوة للأنبياء؟! وما الحكمة من إرسالهم إلى البشر إن كانوا يمارسون الخطايا؟! وكيف يحاسب الرب عباده إذا كان صفوة خلقه عصاة؟!

٤ - من انفرادات القرآن الكريم أنه دين التسامح، دين أنصف الآخر المغاير فكراً له وجعله جزءاً من نسيجه، فالبر والمودة عنون تعامله مع الآخر: { إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُم وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (المتحنة: ٨) أحل القرآن ذبائح أهل الكتاب، وأجاز الزواج من نسائهم، ومن فرائضه العدل مع الخصوم وإيجاب الحكم بالعدل مع الأعداء والمخاصمين: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } (المائدة: ٨).

أما القتال في الإسلام والسماح به فهو لمن ظلم دفاعاً عن العقيدة والنفس والمال. { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } (الحج: ٣٩) ومشروط بعدم العدوان: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (البقرة: ١٩٠) وإن رغب الخصوم في الصلح فالموافقة السريعة: { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (الأنفال: ٦١). والمدهش والغريب أن أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف فإننا لا نجد كلمة السيف في القرآن أبداً ولا مرة واحدة في حين. أن المدهش حقاً. أن كلمة السيف ورد في الكتاب المقدس (عدد نتائج البحث ١٦٩٧ حسب موقع الأنبا تكلا هيمانوت) كما أن لفظ القتل ومشتقاته في الكتاب المقدس (٢٠٨٤ حسب نفس الموقع) مرة في مقابل [٩٨] مرة في القرآن. وفي العدوان على الآخر اسمع معي إلى هذا النص من سفر التثنية: (وَحِينَ تَتَقَدَّمُونَ لِمُحَارَبَةِ مَدِينَةٍ فَادْعُوهَا لِلصُّلْحِ أَوَّلًا. فَإِنْ أَجَابَتْكُمْ إِلَى الصُّلْحِ وَاسْتَسَلَمَتْ لَكُمْ، فَكُلُّ الشَّعْبِ السَّاكِنِ فِيهَا يُصْبِحُ عَبِيدًا لَكُمْ. وَإِنْ أَبَتِ الصُّلْحَ وَحَارَبَتْكُمْ فَحَاصِرُوهَا فَإِذَا اسْقَطَهَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ فِي أَيْدِيكُمْ، فَاقْتُلُوا جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ، وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَشْلَابٍ، فَاعْمُرُوهَا لِأَنفُسِكُمْ، وَتَمَتَّعُوا بِغَنَائِمِ أَعْدَائِكُمُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ الْأُمَمِ الْقَاطِنَةِ هُنَا. أَمَّا مُدُنُ الشُّعُوبِ الَّتِي يَهْبُهَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لَكُمْ مِيرَاثًا فَلَا تَسْتَبِقُوا فِيهَا نَسَمَةً حَيَّةً، بَلْ دَمَرُوهَا عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهَا، كَمُدُنِ الْحِثِّيِّينَ وَالْأَمُورِيِّينَ وَالْكَنَعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحَوِثِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ كَمَا أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ، لِكَيْ لَا يُعَلِّمُوكُمْ رِجَاسَاتِهِمُ الَّتِي مَارَسُوهَا فِي عِبَادَةِ إِلَهَتِهِمْ، فَتَعْمُرُوا وَرَاءَهُمْ وَتُخَطِّتُوا إِلَى الرَّبِّ إِلَهُكُمْ). سفر التثنية: (٢٠ / ١٠-١٨).

٥ - من انفرادات القرآن وضوح العقيدة وصفافها وفطريتها فلا لبس فيها ولا خفاء وأسرار: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤). فالإله واحد أحد في مقابل أن الإله في الكتاب المقدس ثلاثة في واحد... وأسئلة يحار العقل في إيجاد إجابة مقنعة لها بشأن عقيدة الصلب: من الذي صلب الإله؟! لا بد أنه أقوى من الإله. ومن الذي حكم العالم وأدار شئونه ساعة أن كان الإله مصلوباً؟! ومن الذي أحيا الإله بعد موته؟!... وألا يستحق أن يكون هو الإله لأنه هو الذي أحيا؟! وكذلك أسلوب معالجة الخطيئة: فالقرآن جعل الاستغفار والتوبة سبيلاً نحو الخطايا وتكفير الذنوب وهو أمر بين العبد وربه. قال تعالى: { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا } (النساء: ١١٠) والمذنب هو الذي يستغفر، والعقوبة لمن لم يتب يستحقها المذنب نفسه. أما في الكتاب المقدس فإن معالجة الخطيئة أمر صادم للعقل فصلب المسيح يعلل بأنه فداء

لل بشرية عن خطيئة آدم ، آدم أخطأ فعوقب عيسى عليه السلام؟ هل يُقبل عقلاً أن يعاقب غير المخطئ عند البشر في القانون ، المسألة لا تحتاج إلى هذا التعسف في التفسير. إن مسألة الخطيئة أوجد لها الإسلام الحل المثالي الاستغفار والتوبة

٦ - انفراد القرآن باللغة الراقية والأخلاق الرفيعة: القرآن يدعو لقيم العدالة والخلق الحسن والأمانة ولا تجدد في القرآن كلمات خادشة للحياء . . حتى في أحص الأمور التي تعبر عن اللقاء الخاص بين الرجل وزوجته . فيعبر عنه بالنكاح . . وبالملازمة أما في الكتاب المقدس نص نشيد الإنشاد كلام جارح ومثير جنسياً: وتسأل نفسك هل يمكن أن يكون هذا الكلام الجارح من كلام الرب ؟! هل يمكن أن يكتب الرب كتابات مثيرة جنسياً؟! : ومن أمثلة ذلك : (١ دَوَائِرُ فَخْذَيْكَ مِثْلُ الْحُلِيِّ صَنْعَةُ يَدَيَّ صَنَاعٍ . ٢ سُرَّتْكَ كَأَنَّ مُدَوَّرَةً لَا يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مُمَرِّجٌ . بَطْنُكَ صُبْرَةٌ حَنْطَةٌ مُسَيِّجَةٌ بِالسُّوسَنِ . ٣ تَذْيَاكَ كَحِشْفَتَيْنِ تَوَامِي طَبِيَّةٍ . ٤ مَا أَجْمَلُكَ وَمَا أَخْلَاكَ أَيُّهَا الْحَبِيبَةُ بِاللَّدَاتِ ! ٧ قَامَتْكَ هَذِهِ شَبِيهَةً بِالنَّخْلَةِ وَتَذْيَاكَ بِالْعَنَاقِيدِ . ٨ قُلْتُ وَتَكُونُ تَذْيَاكَ كَعَنَاقِيدِ الْكَرْمِ وَرَائِحَةُ أَنْفِكَ كَالْتَفَاحِ) نشيد الإنشاد (٧ : ١-٨) (١) لَيْتَكَ كَأَخٍ لِي الرَّاضِعِ تَذْيِي أُمِّي فَأَجِدَكَ فِي الْخَارِجِ وَأُقْبَلُكَ وَلَا يُخْزُونِي . ٢ وَأَقْوَدُكَ وَأَدْخُلُ بِكَ بَيْتَ أُمِّي وَهِيَ تُعَلِّمُنِي فَأَسْقِيكَ مِنَ الْحَمْرِ الْمَمْرُوجَةِ مِنْ سُلَافٍ زُمَايَ .) نشيد الإنشاد (٨ : ١-٤) .

٧ - من انفرادات القرآن الكريم أنه الكتاب الوحيد الذي حُفظ حفظاً الهيئاً من التحريف أو أن تعبت به يد البشر قال تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (الحجر: ٩) . { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (يونس: ٣٧) وحتى القراءات القرآنية التي يطنطنون حولها بالشبهات هي قرآن من عند الله بَلَّغَهُ النبي محمد صلي الله عليه وسلم، في حين أن علماء الكتاب المقدس يُقرون بما وقع فيه من تحريف وتغيير وإضافة وحذف بأيدي البشر ... وعلماء الكتاب المقدس (كما ذكر روبرت كيل تسلي) أقرأوا جملة من الحقائق المذهلة بشأن تحريف الكتاب المقدس : س ١ : أين الأسفار المفقودة والتي جاء ذكر عنها في الكتاب المقدس وبأنها ليست أقل من عشرين ؟ س ٢ : ماذا عن عدم وجود مخطوطة أصلية للكتاب المقدس . توجد مخطوطات مختلفة ، وتحتوي على أكثر من ٥٠٠٠٠ خطأ ؟ س ٣ : ماذا عن الإضافة والحذف الذي يتم حتى اليوم مع كل طباعة جديدة ؟ !

٨ - ومن انفرادات القرآن الكريم : ونترك المجال لها لعالم فرنسي معاصر (موريس بوكاي) يذكر لنا هذه الملاحظة والتي هي خلاصة دراسة علمية قام بها وفريق علمي تحت إشرافه بعنوان: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم وترجم الكتاب إلى الإنجليزية والعربية وغير ذلك من اللغات يقول د. موريس بوكاي: « إن العهد القديم (التوراة) يتكون من حشد من الكتابات التي صاغها أفراد من البشر مَثَلُهُمْ مَثَلُ الأفراد الذين يصوغون أيّ كتابات أدبية وفقاً لِقُدْرَاتِهِمْ عَلَى الصِّيَاغَةِ وَالْإِنْشَاءِ اللَّغَوِيِّ وَالْكِتَابَةِ فِي شَتَّى الْمَوْضُوعَاتِ الْأَدْبِيَةِ literary works وذلك على مدار حوالى تسعمائة سنة. إن أجزاء وأسفار العهد القديم تشبه قطعاً من أحجار الفسيفساء كثيراً ما قام البشر على توالى القرون بالتغيير فيها وتبديلها » ، « ولقد كان الهدف من صياغة الأناجيل صياغة كتابية هو أن يعرف الناس من خلال أقوال وأفعال المسيح التعاليم teachings التي كان يرغب المسيح في أن يتركها للناس لإكمال رسالته، ولسوء الحظ لم يكن مؤلفو الأناجيل شهود عيان للمعلومات التي كتبوها وقاموا بتسجيلها كتابةً... لقد كانوا ببساطة ووضوح مجرد متحدّثين رسميين spokesmen يعبرون عن معلومات كانت مودعة ثانياً وفي غمار التراث الشفهي للجماعات اليهودية / المسيحية بشأن حياة المسيح بوجه عام كما استقرت المعلومات عنها وتم تناقلها وتداولها في ثانياً التراث الشفهي أو في ثانياً بعض النصوص المكتوبة التي لم تعد موجودة الآن إذ هي مفقودة.

هكذا يلزم أن ننظر اليوم إلى تلك النصوص اليهودية / المسيحية، ولو شئنا أن نكون موضوعيين ملتزمين بالاعتراف بالحقائق وحدها فمن الضروري أن نتخلى عن محاولات التفسير والتبرير الكلاسيكية التي تحاول أن ترقى بهذه النصوص إلى مرتبة الوحي الإلهي باعتبار أنها كلام الله وحده لم يخالطه كلام البشر، ولقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر في أنجيل العهد الجديد هي وجود كثير من التناقض التي أعطينا أمثلة عديدة لها. إن التناقضات والمعلومات الخاطئة من وجهة النظر العلمية في العصر الحديث في نصوص الأناجيل قد غدت واضحة تمام الوضوح ويستحيل الدفاع عنها دفاعاً مجدياً مقبولاً.

لكننا نجد لنصوص القرآن الكريم شأنًا آخر وطريقة أخرى في التدوين وطبيعة أخرى في محتوى النصوص ومضمونها ومدى اتساقها التام وانعدام تناقضها مع حقائق العلم الحديث، لقد امتد بالفعل تنزيل القرآن الكريم مُنْجَمًا ينزل الله عددًا قليلًا من الآيات ثم عددًا آخر على امتداد حوالي ثلاثة وعشرين عامًا، وهي مدة كافية لاستيعاب وحفظ أي قدر من نصوص القرآن الكريم كل نص في حينه أولًا بأول حتى تم حفظ نصوص القرآن الكريم كاملة في ذاكرة جمٍّ غفير من المسلمين الأوائل فضلًا عن تدوين وتسجيل عدد من آيات القرآن الكريم كتابة في حياة النبي وتحت إشرافه ومراجعته.

إن القرآن الكريم يتمتع بميزتين هامتين هما خُلُوهُ التام من التناقض بأي حال من الأحوال، والتناقض هو الآفة التي أصابت روايات التوراة والأناجيل بما لا يدع مجالاً للشك، وكذلك تمتاز نصوص القرآن الكريم بالاتساق وعدم التعارض مع حقائق العلم الحديث. التي تم الكشف عنها في العصر الحديث، وإجراء مقارنة بين كثير من روايات التوراة لأحداث ووقائع مُعَيَّنة مع روايات نفس الموضوعات والأحداث والوقائع في القرآن الكريم تُظهِرُ لنا بوضوح الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميًا ولا منطقيًا وبين رواية القرآن الكريم لنفس الموضوعات رواية تتفق مع النظرة العلمية وتتسق مع المعقولة دون إعطاء أي تفاصيل يمكن دحضها وإثبات أي تناقض فيها بعكس التوراة التي تعطى تفاصيل كثيرة غير صحيحة وغير معقولة وغير مقبولة. ^(١)

دلالات الاتفاق والاختلاف على ربانية القرآن:

لقد ادعى النصارى أن أوجه التشابه بين القرآن الكريم وأسفار النصارى، دليل على أن محمدًا ﷺ قد اقتبس من أسفار القوم، كما ادعوا أن مخالفة القرآن لما جاء في تلك الأسفار حجة على أن محمدًا قد أخطأ في النقل، ودليلنا على ربانية القرآن وبطلان دعوى الاقتباس هو نفسه دليل القوم على إنكار ربانية القرآن وإثبات دعوى الاقتباس .. إنه التشابه والمخالفة .. التآلف بينهما، والتنافر أيضًا ..

تَرَدَّد في الكتابات التنصيرية في بداية التأليف الاستشراقي أن القرآن الكريم ما هو إلا نسخة ذات تعديل طفيف لما ورد في أسفار الكتاب المقدس، وكان الداعي الأول لهذه التهمة هو التشابه الكبير الموجود بين القرآن الكريم والكتاب المقدس في تفاصيل قصص الأنبياء، وأخبار الأمم السالفة، وبعض العقائد .. وكانت القناعة قائمة على أن المرء أمام حلين لا ثالث لهما لضبط مصدر هذا التشابه وداعيه؛ إما الاقتباس من أسفار أهل الكتاب -سواء مباشرة أو عن طريق معلّم بشري- أو أنه الوحي .. ولما كان الإقرار بربانية القرآن من الأمور المرفوضة ابتداءً عند المخالفين؛ صار من المحتّم الانحراف إلى الخيار الآخر وهو دعوى الاقتباس، ثم وُطِّت الأدلة على هذا الاقتباس من طرف هذا الفريق؛ فكان (الدليل) المدعى تابعًا للنتيجة لا العكس؛ في انتكاس غير علمي لمنهج الاستنباط والاستدلال.

^١ - د. موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة والقرآن والعلم الحديث، دراسة مقارنة، عن صفحة بيان الإسلام.

ولما ثبت عندنا من قبل أن الرسول ﷺ لم يكن له سبيل لمعرفة التفاصيل الواردة في الكتاب المقدس؛ تحتم الإقرار بالأصل السماوي للقرآن الكريم؛ لما ورد فيه من خبر وأحكام .. كما أنه لا بد من القول هنا أيضًا إن التشابه بين ما جاء في القرآن الكريم وما ورد في الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون بذاته دليلًا على بشرية القرآن عند النصراني؛ لأنهما قد اشتركا في صواب، وليس نقل الأخبار الصادقة من نواقض الوحي ومبطلات العصمة!! إن التشابه الثابت بين القرآن الكريم والكتاب المقدس لا يمكن أن يكون حجة تدعم قول المنصرين بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد نقل ما وجده لدى علماء أهل الكتاب في عصره، إلا أن يثبت أن ما اتفق عليه القرآن الكريم والكتاب المقدس ليس إلا باطلاً وزورًا من الدعوى، وهو ما لم يثبتته المنصرون، وليس إلى إثباته سبيل ما كانوا على نصرانيتهم.

أما إن استدلل غير النصارى (كالملاحدة) بهذا التشابه لرد رثانية القرآن الكريم؛ فعليهم عندها أن يثبتوا أن القدر الذي شارك فيه القرآن الكريم الكتاب المقدس، يتضمن أخطاء وأباطيل يأبأها العقل أو ينفيها التاريخ؛ فذاك مركبهم الوحيد لاتخاذ هذا التشابه مطعنًا في كتاب المسلمين .. وتشهد الدراسات النقدية لهذه الطائفة في الشرق والغرب أنها لم تقدم شيئًا في هذا الباب من الممكن تتبعه بالنقد، وإنما هي أقوال مجاملة لا تستند إلى دليل محكم، وعمدتها القول العام الفضفاض إن أسفار الكتاب المقدس لا تضم غير الأساطير والخرافات، وإن كل ما فيها هو من اختلاق الكتاب واختراع الأمم التالفة التي كانت تصنع الأساطير ثم تتخذها دينًا..

وقد كان هذا النوع من الدراسات التي لا ترى في أسفار الكتاب المقدس إلا نوعًا من (الفولكلور) الساذج، شائعًا ورائجًا في القرن التاسع عشر، حيث كانت الدراسات الأركيولوجية والأنثروبولوجية تعيش مرحلة الديب أو الزحف الوئيد بسبب ضعف المادة القديمة التي تسمح بالنظر والمقارنة، لكن مع تطور الأبحاث وتوسع المادة المشترحة؛ تبين أن عددًا من هذه الدعاوى لا تستند إلى برهان، وإنما هي رد فعل رافض لكل ما تمثله النصرانية أو تدعو إليه. ولعل أشهر مثال على هذا الأمر ما ذاع في القرن التاسع عشر، خاصة على يد مدرسة (توينجتن) في ألمانيا، من أن المسيح ابن مريم ليس إلا شخصية خرافية اختلقها خيال بعض الناس في بداية القرن الأول، وقد انحصر هذا المذهب في أيما في قلة قليلة من الباحثين، بل إن أشهر الداعين إليه في القرن العشرين الألماني جورج ألبرت ولز قد نقضه بنفسه في ما كتبه في آخر نفس القرن!^(١)

إنه لا يسع المنصف إلا أن يخلص إلى النتيجة المنطقية التي يقدمها لنا القاضي ((عياض))، عندما قال معدداً وجوه إعجاز القرآن الكريم، في كلام رصين، سلس، لا افتعال فيه، ولا تكلف:

الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه، ويأتي به على نضه. فيعترف العالم بذلك بصحته، وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أمي؛ لا يقرأ، ولا يكتب، ولا اشتغل بمدرسة، ولا مثافنة، ولم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم.

وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه صلى الله عليه وسلم عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا؛ كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى، والخضر، ويوسف، وإخوته، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنباء، وبدء الخلق، وما في التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى، بما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موقف آمن بما سبق له من خير، ومن شقى معاند حاسد، ومع هذا لم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه، وطول

^١ في كتابه *The Jesus Myth* (١٩٩٩م) حيث اعترف بتاريخية المصدر Q الذي هو أحد مصادر الأناجيل الرسمية.

احتجاجه عليهم بما في كتبهم، وتقريرهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له صلى الله عليه وسلم، وتعنيهم إياه عن أخبار أنبيائهم، وأسرار علومهم، ومستودعات سيرهم، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم، ومضمنات كتبهم، مثل سؤالهم عن الروح، وذى القرنين، وأصحاب الكهف، وعيسى، وحكم الرجم، وما حرم إسرائيل على نفسه، وما حرم عليهم من الأنعام، ومن طيبات كانت أحلت لهم فحرمت عليهم بغيرهم. وقوله: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ} ^١، وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن فأجابهم، وعرفهم بما أوحى إليه، من ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرح بصحة نبوته، وصدق مقالته، واعترف بعناده، وحسده إياه، كأهل نجران، وابن سوريا، وابن أبي أخطب، وغيرهم.

ومن باهت في ذلك بعض المباهتة، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة، دعى إلى إقامة حجته، وكشف دعوته، فقليل له: {قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ^٢ إلى قوله {الظَّالِمُونَ} ^٣. فقرح، ووبخ، ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فمن معترف بما جحد، ومتوافق يلقي على فضيحتهم من كتابه يده. ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً، ولا سقيماً من صحفه؛ قال الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} ^٤)).

فانظر وتدبر كيف خلص هذا العالم المحقق إلى أن التشابه المذكور هو حجة لربانية القرآن الكريم لا حجة لبشريته! لقد سأل أهل مكة على اختلاف خلفياتهم، محمداً صلى الله عليه وسلم عن أخبار الأمم السابقة والفرق النافذة والأنبياء الذين اندرس ذكرهم، فكان القصص القرآني يأتي موافقاً للكثير مما جاء في أسفارهم .. فلا يردون عليه ما ذكره، ولا يرون في ما رتلته نقصاً أو مُدخلا للطنع في نبوته..

إن مجرد توجه أهل الكتاب ووثنيي العرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم لسؤاله عن أخبار الأولين، للدليل قاطع باهر على أن هذا الاختبار قاس جداً على هذا الرجل العربي الأمي .. إذ لو أن القوم كانوا يعلمون، أو حتى يشككون في علمه بأخبار الأولين، لما عرضوا أنفسهم ليكونوا حجة على نبوته صلى الله عليه وسلم .. إن المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا ليقينهم -وهم المكذبون له- أنه لا يعلم من أمر السابقين شيئاً .. وليس من المنطقي أن يهدي المرء إلى عدوه حجة يدعم بها رصيده، وإنما المنطقي أن يسعى إلى تعجيزه، وقطع حجته، وإلزامه بالإقرار بنفي دعوته الأولى.

إن المطالع للقرآن الكريم ولأسفار النصارى، ليرى عياناً مدى تعدد أوجه الاختلاف بين ما جاء بينهما .. وأوجه الاختلاف تضمّ مواضيع طريفة مطروقة، ومواد سابقة وردت في الكتاب المقدس مع تعديل في العناصر أو الغايات أو الحكم! ولما كانت مادة الاختلاف بين القرآن الكريم والكتاب المقدس النصارى واسعة ومتنوعة، فإننا سنعرض لبعض منها بما يكشف بجلاء نقاء النصّ القرآني واستعلائه على رغام أسفار النصارى..

في ختام هذا الفصل نقول: ليست طبيعة العلاقة بين القرآن والكتب قبله هي العائق الوحيد أمام زعم اقتباسه منهم بل العوائق كثيرة جدا يمثل كل واحد منها دليل تهافت شبهة اقتباس القرآن من كتب اليهود والنصارى فكيف بمجموعها وهي على التوالي في الفصل التالي.

^١ سورة الفتح/ الآية (٢٩)

^٢ سورة آل عمران/ الآية (٩٣)

^٣ سورة آل عمران/ الآية (٩٤)

^٤ سورة المائدة/ الآية (١٥)

^٥ القاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، ت/ طه عبد الرؤوف سعد وخالد بن محمد بن عثمان، القاهرة: مكتبة الصفا، ٢٠٠٢م، ١/ ١٧٨-١٧٩

الفصل الثاني:

النقد التفصيلي لشبهة النقل من التوراة والإنجيل.

ليست طبيعة العلاقة بين القرآن والكتب قبله هي العائق الوحيد أمام زعم اقتباسه منهم بل العوائق كثيرة جدا يمثل كل واحد منها دليل تحافت شبهة اقتباس القرآن من كتب اليهود والنصارى فكيف بمجموعها وهي على التوالي في الفصل التالي.

مقدمة: ماذا يعني قولهم إن محمدا مدعيا للنبوّة، مؤلفا للقرآن.

البحث الأول: شخصية النبي محمد وأميته، وقضية بحيرا الراهب وورقة ابن نوفل.

البحث الثاني: الاختلاف بين المسيحية واليهودية والإسلام في أصول الإيمان وحقائقه.

البحث الثالث: الاختلاف في الأحكام التشريعية بين القرآن والكتاب المقدس.

البحث الرابع: التباين الشديد في قصص الأنبياء والأمم السابقة في القرآن عن الكتاب المقدس.

البحث الخامس: إعجاز النظم القرآني (سحره، وتأثيره)، علامات إلهية في القرآن.

البحث السادس: أثر القرآن والتوراة والإنجيل في الارتقاء بجوانب الحضارة الإنسانية.

البحث السابع: تاريخ كتب العهدين ونسخهما العربية.

البحث الثامن: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية.

البحث التاسع: القرآن الكريم والكتاب المقدس وجهها لوجه (تصحيح القرآن لأخطاء الكتاب المقدس).

البحث العاشر: رمتي بدائها وانسلت (اقتباسات الكتاب المقدس).

البحث الحادي عشر: نظرة شاملة حولة الإنفرادات والاختلافات بين القرآن والكتب السابقة.

مقدمة: ماذا يعني قولهم إنّ محمدا مدعيا للنبوّة، مؤلّفا للقرآن؟

أخذ محمد مصادر القرآن من الشعر الجاهلي كما قال بذلك "تسدال" و"شيوخ" و"شبرنج"، ومن الحنفاء كما قال غيرهم، ومن الصابئة والزرادشتية والهندية القديمة ومن اليهودية والنصرانية المخرفة كما يقول "سميث" و"حداد" اللبناني وغيرهم، وأخذ عن "ورقة" و"بحيري"^(١). هذه الأسئلة أو هذه الافتراضات حتى تكون قد حدثت، بعضها أو حتى مجتمعة لا بد أن يكون محمدا قد فعل الآتي:

أ - تعلّم القراءة سرا: إذ أنه كان أميا واشتهر عنه ذلك بين العرب: ﴿وما كنت تتلوا من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ (العنكبوت: ٤٨).

ب - تعلم لغات كتب أهل الكتاب، على كثرتها، سرا، وكما ذكرنا سابقا قول د. عبد الرحمن بدوي في قوله: ولكي نفترض صحة هذا الزعم -نقل الرسول عن أهل الكتاب-، فلا بد أن محمداً كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود، والأناجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات، وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين، وكتب مختلف الكنائس - والمذاهب المسيحية.

ج - لم يدع صحيفة من صحف أهل الكتاب وغيرهم.. إلا وقراها سرا،
- مع أن هذه الكتب لم نجد لها مرة واحدة ولا في مكان واحد.
- مع العلم أن عدد هذه الكتب كبير جدا يستحيل الاطلاع عليها كلها من شخص واحد.
- مع أن حجم الكتب أيامه كبيرا جدا و في قراطيس . يستحيل تداولها سرا.
- مع أن عدد النسخ من الكتاب الواحد كان قليلا، لأن النسخ كان يدويا ولحرق كتب أصحاب الديانات والفرق من الأباطرة.

- مع أن جزء كبيرا من هذه الكتب كان أسراراً لا يسمح بتداولها إلا بين علماء كل طائفة . هذا عدا المخطوطات التي لم نجد لها إلا في القرن الحالي. فهل كان لديه علماء للتنقيب عن المخطوطات ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير﴾ (المائدة: ١٥).

ث - استبعد التفاصيل غير المنطقية من كل كتاب بالرغم من أن هذه التفاصيل تعج بها تلك الكتب. فلم يحدث أن اتفق القرآن مرة في جزئية غير معقولة مع وجود تفاصيل كثيرة مشتركة بين القرآن وتلك الكتب، أي أنه ﷺ قد أدرك أن هناك أناسا متعلمين في القرن العشرين وما بعده سيقروا الكتاب (القرآن) وأدرك أنهم لن يستسيغوا إلا المنطقي، فاستبعد من القرآن كل ما يتناقض مع العقل والمنطق ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ (النساء: ٨٢)

ج - أخذ يجمع التفاصيل من كل كتاب ما يستقيم مع الكتاب الآخر، ثم عرض كل قصة في موضوع محدد ولغرض معين، ثم عرضها في صورة بيانية معجزة بعد إضافة تفاصيل أخرى من عنده ثم وضعها في موضعها المناسب في القرآن بل وتحكم في مشاعره الإنسانية؛ حيث تختلف الحالة الوجدانية لكثير حال نزولها، مع حالته النفسية حال نزولها مثل سورة النور التي نزلت في حادث الإفك حيث اتهم في عرضه كان المتوقع أن يكون جو السورة حزن وغضب، فإذا بها تسبح بقارئها وسامعها في جو من السلام والروحانية والنور.

^١ - د. عمر بن إبراهيم رضوان، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره"، دار طيبة - الرياض جزء ١ ص ٢٥٥، ٣٩٨، ٣٨٢.

د - أضاف ﷺ إلى كتابه (القرآن) نبوءات بالغيب في أمور عدة مثل أدائه وأصحابه لعمره القضاء وضمن تحقيقها وكالتنبؤ بانتصار الروم مثلاً على الفرس (سورة الروم)!! (في وقت كانت هذه النبوءة أبعد ما تكون عن التحقيق وخاطر بدعوته مخاطرة حاسمة، مثل ذلك أيضاً التنبؤ بانتصار الإسلام وتمكينه من أكبر قوى الأرض في ذروة الضعف والاضطهاد للمسلمين.

هـ - أضاف تفاصيل من العلوم الكونية لم نعلم نحن أغلبها إلا متأخراً جداً، كما سيرد في بحث القرآن ف - لاحظ كيف اضطهدت المرأة - وغيرها من الضعفاء - وعلم أن أناساً سيأتون في القرن العشرين وما بعده ينادون بتحريها، فأراد سبقهم وفعل ذلك .

ق - علم صفات وألقاب النبي المنتظر عند أهل الكتاب فخطها في القرآن لنفسه، ثم تحكم في مسار حياته حتى تطابق صفاته صفات ذلك النبي!!

إن هذا هو المستحيل بعينه... فالكاذب مدعي النبوة رجل شرير فاجر، شره المطامع، ديني المطالب مثل مدعو النبوة في القرن الأول الميلادي... لذلك فإنه إذا تظاهر في البداية بالتدين والصالح للتغريب بالبعض فإنه لا يطبق في البقاء عليه صبراً... ولا يلبث أن يفتضح أمره وتظهر حقيقته لأعين الملائكة^١.

^١ - الباحث هشام طلبة ، محمد في الترجوم والتلمود و التوراة ص ٤٥٥ - ٤٦١ .

أولاً: شخصية خاتم النبيين ﷺ الواضحة وأميته وعلاقته بالراهب بحيرا وورقة بن نوفل.

تقدم حياة النبي ﷺ برهانا ساطعا على صحة تلقيه الوحي وعدم صحة الزعم باقتباسه عن كتب اليهود والنصارى أو تعلمه من أحدهم ، فحياته معروفة بتفاصيلها ودقائقها، فلم يؤثر عنه الجلوس إلى أحد النصارى أو اليهود بمكة أو غيرها للتعلم والمدارسة وليس هنالك دليل محسوس أو ملموس على تعلمه شيئا عن أهل الكتاب ، بل لا دليل على جلوسه للتعلم على يد أحد من غيرهم في أي فرع من العلم والثقافة أو الصناعات والحرف ، وهو ما قاله القرآن لقومه : {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون} (يونس: ١٦)، وهو الصادق الأمين فيهم وهو لقبه عند قومه ولم يكن هذا الصادق ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ربه ، كما قال هرقل الروم لأبي سفيان حين قابله في الشام في جماعة التجار بعد وصول رسالة النبي له " أسلم تسلم " وهو يسأله عن النبي الذي ظهر فيهم ماهي صفاته والحديث في البخاري .

أما ما تقدمه جدليات التنصير ضد مصدر القرآن وأصالته من مصادر تعليمية حيّة مثل ورقة بن نوفل حيث يقدم لنا علم نقد النصوص البرهان الكافي على أصالة تلقي النبي ﷺ القرآن من ربه حيث يقول ورقة ما نصه : " وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا"^(١) فكيف يؤمن وينصر ورقة رجل متعلما منه ويتنبأ بنبوته وهجرته من بلده و يتمني نصرته له ! أما بحيرا الراهب ونسبة تعلم النبي ﷺ منه فهي كالتخيل القصصي الذي يتهاوى أما الفحص النقدي حيث تقطع وقائع القصة أنها تمت في جزء من نهار أما أعين قريش وأن بحيرى أخبرهم أن محمدا ﷺ رسول إلى العالمين بدليل خاتم النبوة تحت كتفه ﷺ ، كما أن النبي كان مستخبر عنه ولم يكن مخبر بشي^(٢) ، ثم إن لديهم مصدر آخر مضحك وهو نقله من صهيبي الرومي وبلال الحبشي ومارية القبطية وهؤلاء لا يقوم فيهم دليل على شبهة تعلم ، فهم لم يظهروا في صحبة النبي ﷺ وفي حياته إلا بعد بدء نزول الوحي وظهور الاسلام ، ثم هم مسلمون آمنوا بصحة نبوته ﷺ ونزول الوحي عليه، وضحوا في سبيل نشر الاسلام !!.

وأهم ما يميّز شخصية النبي محمد ﷺ وهو دليل نبوته (أميته) وقد سماه القرآن { النبي الأمي } وأنه تعالى : { بعث في الأميين رسولا منهم } (الجمعة : ٢)، وأثنى على الذين يتبعونه من أهل الكتاب فهم يعلمون أنه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل باسمه النبي الأمي فقال : { الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت } (الأعراف : ١٥٧)، ولا نحتاج إلى كبير عناء للعثور على نص الكتاب المقدس في ذلك، يتوعد إشعياء النبي بني إسرائيل الذين يحرفون كتاب الله ولا يلتزمون شريعته، يتوعدهم بالنبي صاحب السفر المختوم، النبي الذي لا يعرف القراءة: " أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة (قديما الكتابة) " (سفر إشعياء ٢٩ : ١٢) ونلفت الانتباه إلى أن هذا النص في صورته العربية التي نقلناها، محرف، والسبب أن أصحاب الترجمة العربية التي بين أيدينا يعلمون معنى هذا النص، ولذلك شوهد، والمقارنة بين التراجم الإنجليزية والفرنسية ... وبين النص العربي السابق سيكشف لك الأمر:

:The New International Version

،Or if you give the scroll to someone who cannot read, and say

^١ - صحيح البخاري كتاب بدء الوحي ح (٣) .

^٢ - ابن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك (٢ / ٢٧٨ ، ٢٧٩) ط ٥ دار المعارف مصر ، ابن هشام ، السيرة النبوية (١ / ١٨٠ - ١٨٣) ط ٢ مطبعة الحلبي القاهرة ١٣٧٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٣ / ٤٣٥ - ٤٤٢) دار هجر القاهرة ١٩٩٧ ، والحديث أخرجه الترمذي ح (٣٦٢٠) .

"، dont know how to read.I "he will answer , "Read this ,please"

:The New American Standard Bible

Then the book will be given to the one who is

illiterate, saying

" .And he will say ,=I "Please read this

=.cannot read

:The New American Bible

When it is handed to one who can not who can not read, with the

request: read this

=he replies,= i can not read ,

:Louis Segond

Je ne sais pas lire =:Et qui repondne sait pas lire ,en disant:Lis donc cela! Ou

comme un livre que Ion donne A un homme qui

وتعريب هذه النصوص، على اختلاف طفيف بينها: " أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة، مع الرجاء: " اقرأ هذا" فيجيب: " لا أعرف القراءة"، من أهم مواضع الخلاف بين هذه التراجم وبين النص العربي، إضافة عبارة " مع الرجاء"، وهذه الزيادة لا تعنينا في هذا المقام، وإنما الذي يعنينا هو استعمال كلمة " القراءة" في هذه التراجم محل كلمة " الكتابة" في المقابل العربي، ويبدو أن آباء الكنيسة الأولين لم يجدوا لهذه الكلمات معنى، فها هو القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره لسفر إشعياء (نشر كنيسة مارجرجس باسبرنتج) والذي جمع مادته من " نخبة ممتازة من تفسيرات آباء الكنيسة الأولين"، قد فسر الفصل ٢٩ من سفر إشعياء بأكمله إلا العدد موضوع حديثنا، ولكن نصارى اليوم يعرفون معنى هذا النص ولذلك حرفوا ترجمته العربية!!

إنه من البين لكل ذي عينين، التطابق الواضح بين ما جاء في حديث البخاري حول بدء الوحي وبين ما جاء في سفر اشعياء ٢٩: ١٢ "لقد دفع كتاب الوحي إلى نبي الإسلام ليقرأه: " اقرأ.." فقال هذا النبي: " ما أنا بقارئ" أي أنا أُمي لا أعرف القراءة. ملاحظة أخرى لا بد من ذكرها وهي أن الكلمة العبرية المستعملة في النص العبري هي " اقرأ"، وهي نفس الكلمة الواردة في الحديث سابق الذكر.. فتأمل!!!

اعتراض النصارى: جاء في هامش الترجمة الكاثوليكية " الكتاب المقدس الأمريكي الجديد The New American Bible "أن نص إشعياء ٢٩: ٩-١٢ متعلق بالقدس (أورشليم) ، وهو يشير إلى رفض القدس (أهلها) تصديق أن الله سيخلصها..

الرد: أسطورة خلاص القدس على يد المسيح (النصراني) لم تتحقق، بل قام القائد الروماني تيتوس سنة ٦٦ م باحتلال القدس وتخريب المعبد، وقام الإمبراطور الروماني أدريانوس سنة ١٣٥ م بإزالة معالم القدس والهيكل تماما، ثم أصبحت المدينة وما جاورها قرونا طويلا في ملك المسلمين الموحدين، ثم ها هي اليوم مأسورة في قفص اليهود الذين وصفهم المسيح بأنهم " أولاد الأفاعي" .. إن حمل نص إشعياء على محمد صلى الله عليه وسلم يحافظ على المعنى التنبئي الحرفي للنص، في حين أن حمله على " القدس" وأهلها ينقله إلى المعنى المجازي.. البعيد.. والأول أولى بل هو الحق!

نكمل مع رواية البخاري: ونزل النبي من على غار حراء خائفاً فرعاً، وذهبت به زوجته خديجة إلى ورقة بن نوفل - وكان من علماء أهل الكتاب - فقص عليه الخبر، فعرف ورقة نبوة النبي بما قرأ في سفر النبي إشعيا، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، لم يأت رجل بما جئت به إلا أودي، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً.^(١)، وأما معرفته بإخراج قريش للنبي ومعاداته، فقد عرفه ورقة من سفر إشعيا أيضاً حيث جاء في البشارة بالنبي الذي يبعث في بلاد وعرة من أرض العرب، يقول السفر التوراتي في الإصحاح الحادي والعشرين: "وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب تبيتين، يا قوافل الددانيين هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبره، فإنهم من السيوف قد هربوا" (إشعيا ٢١ / ١٣ - ١٤)، فالنص التوراتي يتحدث إلى قبائل الددانيين في أرض تيماء، لينجدوا النبي الذي خرج مع أصحابه هرباً من وجه السيوف، ويشير إلى مكان بعثته الوعر من بلاد العرب، وهي صفة مكة المكرمة، مكان مولده وبعثته، فشهادة ورقة وهو من علماء أهل الكتاب دليل ساطع على نبوة النبي وهذه الشهادة موثقة معتبرة، فقد استخرجها من كتب أهل الكتاب، مما تبقى بها من آثار الأنبياء وأنوار الوحي {ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} (الرعد: ٤٣).

يعتبر التأكيد الإسلامي على أمية الرسول عقبة تقف دونها ركائب المنصرين وعامة المستشرقين، فلا يمكن أن تعبر إلى إثبات الدعوى، إلا بإبطال حقيقة هذه الأمية! وأول ما يواجه المنصرين والمستشرقين في هذا الشأن هو أنّ مصنفات الحديث والسيرة بالإضافة إلى القرآن الكريم، هي المصادر التاريخية الوحيدة المعتبرة لمعرفة خبر محمد فيما يتعلق بكل أمره، وليس للمنصرين والمستشرقين مدخل آخر لهذا الموضوع ولا أدوات أخرى موضوعية حاسمة للبحث فيه.. والناظر في منهج هؤلاء المخالفين؛ يرى بوضوح أنهم يعمدون إلى الضعيف من النقول، أو إلى المتشابه من الأقوال، أو البعيد من الاحتمالات التي لا تطبقها النصوص.. ويتركون في مقابل ذلك نصوص صريحة، صحيحة، محكمة، مباشرة.

ويبدو أنّ من أسباب هذا النهج أمرين أولهما: الرغبة المستحكمة في الوصول إلى النتيجة المرادة التي هي إدانة محمد صلى الله عليه وسلم وإنكار ربانية القرآن الكريم، وثانيهما: التأثر بالمناهج الغربية في نقد النصوص الدينية حيث يرفض الباحث النصوص الدينية منطوقاً ومفهوماً ويتعلق بهوامش تاريخية ولغوية يبني عليها فهمه للشأن الديني والتاريخي كله. ولئن كان الناقد الغربي له شيء من العذر في نهج ذلك المسلك مع تلك الأسفار التي ثبت قطعاً أنها ساقطة تاريخياً وأنها كتابات ظرفية متشعبة بالكثير من المعائب العلمية والأدبية، حتى اختفت معالم الوحي فيها وراء الدخيل الكثيف، فإنّ الأسفار الإسلامية (قرآنًا وسنة) لا تحمل من تلك الأضرار شيئاً، وإنما هي في طهرها التاريخي ناصعة نقية، فهنا نحتاج للتفصيل وكشف الملابسات والشبهات في قضيتين هما:

١- الشبهات المثارة حول معنى أمية النبي ﷺ.

٢- موضوع بحيرى وورقة بن نوفل والقرآن.

القضية الأولى: أمية الرسول ﷺ والشبهات المثارة :

إنّ المنصرين إذا ما ولّوا أمرهم إلى الطعن في الإسلام، فإنهم يصنعون من الخاطر العابر أسطورة شائكة، ومن الأثر الساقط رواية متواترة، ومن الظنّ المرجوح حقيقة قاطعة.. والذي يعجب له الناظر في مصنفات الدفاعيين النصارى يرى أنّ هؤلاء الكتاب إذا كانوا بصدد الردّ على الطعون في أسفارهم وعقائدهم؛ يعمدون إلى أبعد الفروض وأغرب

^١ - حديث البخاري في الصحيح رقم (٤)

الاحتمالات لدفع التناقض وردّ الزلل عن مقدساتهم، لكنهم إذا ما أنشبوأ أقلامهم في صحائف القرآن الكريم، تبدّل الحال وتحيّجت النفوس؛ فينكر القوم على المسلمين أوضاع البراهين، وأصحّ الأسانيد، وأنقى المتون، متشبّثين بأوهى اعتراض، وأوهن شبهة، وأرق احتمال.. إنّ أصول شبهة المنصّرين وعناصرها، نلاحظ أنّها مبنية على عدة دعاوى، وهي بالإنّاس تعتمد على إنكار أميّة محمد صلّى الله عليه وسلّم. وأنّ الأسفار النصرانية كانت متاحة بين يدي محمد للنقل عنها. وأنّ مكة كانت مرتعاً تعليمياً رافقاً للدراسات الدينيّة المقارنة.

وقد فتّدنا امتلاك محمد صلّى الله عليه وسلّم للأدوات العلميّة المكتسبة للاطلاع المباشر على الأسفار المقتبس منها في الكتاب ونبحث هنا في التأكيد الإسلامي على أميّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأنها عقبة تقف دونها ركائب المنصّرين وعامة المستشرقين، ولا يمكنهم إثبات ما سبق إلا بإبطال حقيقة هذه الأميّة!

وأوّل ما يواجه المنصّرين والمستشرقين في هذا الشأن هو أنّ مصنفات الحديث والسيره بالإضافة إلى القرآن الكريم، هي المصادر التاريخيّة الوحيدة المعتمدة لمعرفة خبر محمد صلّى الله عليه وسلّم فيما يتعلّق بكلّ أمره وليس للمنصّرين والمستشرقين مدخل آخر لهذا الموضوع ولا أدوات أخرى موضوعية حاسمة للبحث فيه والناظر في منهج هؤلاء المحالفين يرى بوضوح أنّهم يعمدون إلى الضعيف من النقول أو إلى المتشابه من الأقوال أو البعيد من الاحتمالات التي لا تطيقها النصوص ويتركون في مقابل ذلك نصوص صريحة صحيحة محكمة مباشرة

ويبدو أنّ من أسباب هذا النهج أمرين أولهما: الرغبة المستحكمة في الوصول إلى النتيجة المرادة التي هي إدانة محمد صلّى الله عليه وسلّم وإنكار ربّانية القرآن الكريم، وثانيهما: التأثير بالمنهج الغربيّ في نقد النصوص الدينية حيث يرفض الباحث النصوص الدينية منطوقاً ومفهوماً ويتعلّق بهوامش تاريخية ولغوية يبني عليها فهمه للشأن الديني والتاريخي كلّه. ولئن كان الناقد الغربي له شيء من العذر في نهج ذلك المسلك مع تلك الأسفار التي ثبت قطعاً أنّها ساقطة تاريخياً وأنّها كتابات ظرفيّة متشبّعة بالكثير من المعائب العلميّة والأدبيّة، حتّى اختفت معالم الوحي فيها وراء الدخيل الكثيف، فإنّ الأسفار الإسلامية (قرآنًا وسنة) لا تحمل من تلك الأضرار شيئاً، وإنّما هي في طهرها التاريخي ناصعة نقيّة.

لقد جاء أمر نسبة الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الأميّة في الكتاب والسنة في مواضع عدة، والمنصّرون ومن شايعهم من المستشرقين، يعمدون أمام هذه النصوص إلى أحد نهجين:

أ- ردّ النصوص واعتبارها افتعالاً إسلامياً لا حقيقة تاريخيّة. وهو موقف أيسر تكلفة من ناحية ترتيب المصادر والتوفيق بينها، لكنه الأعسر في نفس الآن من حيث علمية المنهج وحجّة المصادر.

ب- قبول محمل النصوص التاريخيّة (الإسلاميّة)، ولكن مع رفض مضمونها المباشر، وإنّما استنطاقها خارج الحقل الدلالي النبوي، والأثري عامة.

ولما كان النزاع مع المنصّرين هو في فهم عبارة (الأميّة)؛ فإنّه علينا أن نفسّر هذا الاصطلاح في إفراده اللغوي، ثمّ في سياقه القرآني والنبوي؛ حتّى نكون قد استنطقنا بحق وعدل المرجع العلمي الوحيد في هذا الشأن.

شهادة اللغة

لا يسلم التعريف اللغوي للفظ العربي من الخطأ، إلا أن نعود إلى أهل اللغة الذين تتبعوا استعمال العرب للألفاظ المراد تبين معناها؛ لاستخراج نقشها الدلالي في ذهن الجماعي زمن الخطاب وقد شطّ في الطرح وتكلّف في

الاستدلال، من جنح إلى تفسير اللفظ العربي خارج سياقه بين أهله؛ وإنما بالعودة ابتداءً^(١) إلى مقابله الكتابي -متجاهلاً تمايز الدلالة الاصطلاحية حين وجودها- أو استنطاقه في مشتركة السامي، بالعودة أساساً إلى اللغة السريانية أو العبرية اللتين تشاركان اللغة العربية الجذر السامي الأول، حال وجود تمايز دلالي محكم.^(٢)

وفيما يتعلق بمبحثنا هنا نلاحظ ربط الكتابات الاستشراقية/ التنصيرية بين الكلمة القرآنية أمي والكلمة الكتابية أمي إذ يتم في الأغلب رد هذه الكلمة العربية القرآنية إلى المصطلح اليهودي العبري: جويم الذي يطلق على غير اليهود بمعنى أمم كمقابل لأمة بني إسرائيل المصطفاة، ومفردها جوي أي أمة (غير يهودية). وظاهر من استعمال هذا اللفظ، دلالة السلبية على غير الإسرائيليين فهم أمم في مقابل الإسرائيليين الأمة، ولسنا نجد هذا المعنى في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم لنفسه أو وصف القرآن له، وإنما قد وضع وصف الأميين للعرب باعتبارهم أمة لا تعرف الحق والهدى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (الجمعة: ٢). {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ} (آل عمران: ٢٠).

فضبط الدلالة القرآنية للأميين والأميين بمعنى من ليسوا من أمة الإسرائيليين أي الأغيار، لا تستنسخ له الآيات القرآنية التي تأبي سياقاتها حصر معنى هذا اللفظ ضمن إطار الدونية الدينية أو العرقية وهو ما أكدته Cyril Glasse^(٣) في موسوعته موسوعة الإسلام الموجزة بقوله في مقالة (أمي): لقب للنبي رغم أن كلمة أمي قد فهمت من المسلمين على أنها تشير إلى أن النبي كان أمياً، فإن بعض النقاد الغربيين نازعوا في إتيولوجية الكلمة لزعمهم أنها تعني (gentile) وذلك بربط كلمة أمي بكلمة أمة، ويقولون إن ذلك بسبب أن محمداً قد دعى إلى الوحي الإبراهيمي الـ (gentiles) أو غير اليهود. إن كلمة أمة لا تعني (nation) بالمعنى العبري لكلمة جوي وليس الإسلام ديانة منبثقة من اليهودية، على خلاف المسيحية... وليس فهم المسلمين لكلمة أمي كفهم المستشرقين لها.^(٤) إن نكارة الأمر من الناحيتين الإتيولوجية^٥ والفيلولوجية^٦ ترجع إلى:

- تجاهل المتعمد للعرف اللغوي للكلمة العربي.
- اللجوء إلى اللغة العبرية لتحقيق الدلالة المعنوية للفظ القرآني، مع وجود ثروة لسانية هائلة من الشعر والخطب والأمثال العربية السابقة للإسلام.
- الإعراض عن تفسير اللفظ القرآني من خلال (العرف) القرآني والنبوي لنفس الكلمة!
- تجاهل نظرة العرب إلى اللغة العبرية على أنها لغة أجنبية يُعامل معها عن طريق الترجمة.

^١ - اللغات السامية مفيدة في فهم ما غمض من الألفاظ العربية، إذا كانت هذه الألفاظ دخيلة على اللسان العربي أو كانت من المشترك السامي، لكنها غير معتبرة إذا ثبت لنا من خلال التصريح أو الاستقراء معنى محكم في العرف اللساني البياني العربي ضمن السياق الزمني المقصود.

^٢ - لعل هذه (الموضحة) هي الأكثر رواجاً هذه الأيام في المكتبة الاستشراقية بين أصحاب (الفاتانينا) الفكرية و(التقليعات) النقدية الحديث؛ ولو كان رصيدها من الواقع شديد الهزال؛ ولذلك لا نستغرب أن نقرأ قول ((جبرائيل صاوما)) ((Gabriel Sawma)) في كتابه: ((The Qur'an: Misinterpreted, Mistranslated and Misread : the Aramaic Language of the Qur'an)) ص ١٠٣، مخاطباً (الكائن الغربي) في سبيل إثبات أن القرآن كتاب (سنياني اللفظ والدلالة) (!): ((اليوم، من يتكلمون السنيانية أفدر على فهم معاني القرآن أكثر ممن يتكلمون العربية؛ رغم أن الكثير من الألفاظ القرآنية قد تم تعريبها على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية)). .. لا شك أنه لا يمكن أن يجهر هذا المؤلف بمثل هذه الدعوى (المؤودة) في بيتنا العربية .. علماً أن هذا الكاتب الذي زعم أنه يفسر القرآن بالسنيانية (!) والذي يحسن فهم لغة القرآن أكثر من أصحاب اللسان العربي (!)، قد عجز في بعض الأمثلة التي عرضها، عن قراءة اللفظ العربي أو نقحرة (transliteration) الآيات وأسماء الأعلام .. (إلا الحماسة أعييت من يداويها!!)

^٣ - كيرلس جلاسي (ولد سنة ١٩٤٤م): مستشرق أمريكي من أصل روسي. اهتم إلى الإسلام في شبابه. تخرج في كلية كولومبيا. درس مقارنة الأديان في العديد من البلاد (نيويورك، وموسكو، ولاحور ...)

^٤ - Cyril Glasse, The Concise Encyclopedia of Islam, San Francisco: Harper and Row, 1989, p.409.

^٥ - اصطلاحاً: نسق علمي تاريخي في اللسانيات لدراسة أصول الكلمات يعتمد أساساً على ملاحظة التطور الصوتي للكلمات في اللغات المختلفة ودلالاتها.

^٦ - اصطلاحاً: علم يهتم بدراسة اللغة من ناحية تاريخية انطلاقاً من النصوص المكتوبة بالنظر إلى التعبير اللساني شكلاً ومضموناً. (وهذا من أوسع التعريفات)

إنّ استكشاف البيان العربي، يحتاج إلى استنطاق العرف اللغوي العربي القديم، خاصة الجاهلي منه الذي شكّل المعجم اللساني في القرن السابع ميلادياً، وقد جمع علماء اللغة في معاجمهم الموروث اللغوي القديم، وقدموا لنا ما يلي: قال ابن منظور: معنى الأمي المنسوب إلى ما عليه جَبَلَتُهُ أمه أي لا يكتب فهو أمي لأن الكتابة مكتسبة؛ فكأنه نسب إلى ما يولد عليه أي على ما ولدته أمه عليه.^(١)

وقال أبو حيان: الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب، أي لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها.^(٢)

أما ابن قتيبة: فقد نسب كلمة أمي إلى أمة العرب التي لم تكن تقرأ أو تكتب، فقال: قيل لمن لا يكتب أمي، لأنه نسب إلى أمة العرب أي جماعتها، ولم يكن من يكتب من العرب إلّا قليل؛ فنسب من لا يكتب إلى الأمة...^(٣) ومن الشهادات المبكرة في تفسير معنى كلمة أمي قول المؤرخ ابن إسحاق (ت ١٥١ هجرية) صاحب السيرة النبوية المشهورة: كانت العرب أميين لا يدرسون كتاباً، ولا يعرفون من الرسل عهداً.^(٤) ووقول الحافظ يحيى بن معين (ت ٢٢٣ هجرية): كان جعفر بن برقان أمياً، لا يكتب و لا يقرأ. وقال أيضاً: كان أبو عوانة أمياً يستعين بإنسان يكتب له.^(٥)

لقد كانت كلمة أمي بين أهل اللسان العربي مرادفة للعجز عن القراءة والكتابة، وكان العرب (أميين) لغلبة الجهل بالقراءة والكتابة عليهم.

شهادة القرآن الكريم

قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا زَتَابَ الْمُبْطِلُونَ}. (العنكبوت: ٤٨) تنفي هذه الآية الشريفة المحكمة عن الرسول دراسة أسفار أهل الكتاب كما تنفي عنه نسخ هذه الكتب -وبدلالة التضمن، تداولها- وفي هذا ردّ صريح مباشر على الزعم أنّ الرسول كان على علم واطلاع عميقين بأسفار القوم، إنّ هذه الآية تقرّر أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لا علم له بأسفار أهل الكتاب، وجعلت سكوت مخالفه دليلاً على صحة هذه الحقيقة وصواب هذه الدعوى، ولكن يأبي (المولّدون) إلا الجدال فيما لم يجادل فيه الدّ خصوم هذا النبي من المعاصرين له، ممن لم يتورعوا عن محاولة سفك دمه وإهدار عرضه!! وتؤيد آيات أخرى علم أهل مكّة بعدم دراية محمد صلى الله عليه وسلم بأسفار أهل الكتاب كقوله تعالى: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} (الشورى: ٥٢) وقوله: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (يونس: ١٦)

وفي مقابل جحد المعاندين لمنطوق هذه الآيات التي تبطل أصل دعاويهم، يقول من استقام عندهم منطق الاستدلال، أمثال الإمام النحاس: وذلك دليل على نبوته، لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم وزالت الريبة والشك.^(٦)

شهادة السنة

شهادة السيرة: تعددت الوقائع والأحداث الثابتة في السيرة، المظهرة لأمية الرسول، كما غابت المواقف التي تكشف ارتياد الرسول مجالس التعلّم والكتابة أو استعماله للقرطاس والقلم، وهي مواقف لا يمكن أن تغيب عن حياة

^١ - ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، د.ت، ٣٤/١٢.

^٢ - أبو حيان، تفسير البحر المحيط، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ٤٤٢/١.

^٣ - ابن قتيبة، غريب الحديث، ت/ عبد الله الجبوري، بغداد: مطبعة العاني، ١٣٩٧هـ، ٣٨٤/١.

^٤ - ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ت/ محمد حميد الله، معهد الدراسات والبحوث، د.ت، ٦٢/٢.

^٥ - ابن معين، تاريخ ابن معين، رواية الدوري، دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٠هـ، ٤١٩/٣.

^٦ - الشوكاني، فتح القدير، بيروت: دار الفكر، د.ت، ٢٠٧/٤.

رجل يحسن القراءة والكتابة في بيئة عَمَّها الجهل واستوطنتها الأمية، وقد كانت المرحلة المدنية من الدعوة متميزة بالحاجة إلى الكتابة بصورة خاصة، مع ظهور مراسلات الملوك، وتنظيم الجيش، والدولة، حتى إنه كان للرسول واحدٌ وستون كاتباً^(١) ومع ذلك لم تظهر في هذه المرحلة (المعرفة المزعومة) للرسول بالقراءة والكتابة كما أنَّ طفولة الرسول كانت على درجة كبيرة من الشدة والقسوة مما يمنعه من تقصي أسباب التعلم بما تتطلبه من تفرغ ولين عيش في تلك البيئة القاسية والحياة المرهقة.

وهل التعلم يكون من غير معلم؟ فأين سيرة من علم الرسول في أخبار الصحابة عن نبيهم، وقد عُلم أنهم كانوا يعظمون كل أمره ويحللون كل من كان عظيم الصلة به؟ أليس معلم الرسول أخرى الناس بالتعظيم؟! ويعظمون كل أمره ويحللون كل من كان عظيم الصلة به؟ أليس معلم الرسول أخرى الناس بالتعظيم؟!

والأمر كما قالت المستشرقة كارن أرمسترونج^(٢): يبدو أنه من الانحراف في الرأي تحدي التراث الإسلامي التفسيري لكلمة (أمي). لا توجد أية إشارة في المصادر الأولى إلى ممارسة محمد للقراءة أو الكتابة. كان محمد يلمي كلامه على غيره، كعَلِي المتعلم، إذا ما أراد إرسال رسالة إنَّها لخدعة كبيرة أن يكون محمد قد أحفى طوال حياته قدرته على القراءة والكتابة بعيداً عن أن ذلك ليس من الأمور المعهودة، فإنَّه يبدو من العسير جداً المحافظة على هذا الغش نظراً للتقارب الشديد في المعيشة بين محمد وقومه.^(٣)

وقد أقر بأمية الرسول صلى الله عليه وسلم عدد من المستشرقين مثل (Marracci)^(٤) (Prideaux)^(٥) (Ockley)^(٦) (Gerock)^(٧) (Armand-Pierre Caussin de Perceval)^(٨) (J. M. Arnold)^(٩) (Palmer)^(١٠) (١١).

شهادة الرسول: قال صلى الله عليه وسلم: إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا وعقد الإجماع في الثالثة والشهر هكذا وهكذا يعني تمام ثلاثين.^(١٢) قال المباركفوري: قال صلى الله عليه وسلم إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب؛ أراد أنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى.^(١٣) لقد ورد هاهنا الشرح المحكم لمعنى الأمية على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم بما يمنع من الدخول في محادثات تأويلية، وبما يدفع عن هذا اللفظ أي غموض أو اشتراك دلالي موهم، إنَّ الأمية التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم هي عدم الدراية بالكتابة والحساب ..

^١ - حقق أمر هذا العدد من الكتاب، الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في كتابه: كتاب النبي صلى الله عليه وسلم انظر؛ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت: دار النفائس، ط٦، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص ٤

^٢ - كارن أرمسترونج (ولدت سنة ١٩٤٤م): كاتبة بريطانية لها عناية بالحضارات الشرقية والأديان الكبرى. تعتبر عاتمة كتبها من أهم المؤلفات مبيعاً في الغرب.

^٣ - Karen Armstrong, Muhammad: a biography of the prophet, New York: HarperCollins, 1993, p.88

^٤ - لودفيجيو منشي (١٦١٢-١٧٠٠م): قسيس كاثوليكي إيطالي. دَرَس اللغة العربية في جامعة سابينزا بروما. ترجم القرآن الكريم إلى اللاتينية. صاحب نزعة عدوانية اتجاه الإسلام.

^٥ - همفري بريدو (١٦٤٨-١٧٢٤م): ناقد وأستاذ دين. ألف كتاب ((حياة محمد)) (Life of Mahomet)، وهو مؤلف مشحون بالافتراء والظعن.

^٦ - سيمون أوكلي (١٦٧٨-١٧٢٠م): مستشرق بريطاني. دَرَس اللغة العربية في جامعة كامبردج. اشتهر بكتابه ((The History of the Saracen Empires))

^٧ - ك. ف. جروك: مستشرق. صاحب كتاب Versuch einer Darstellung der Christologie des Koran في التصور القرآني لطبيعة المسيح.

^٨ - أرمون-بيير كوسن دو برسفال (١٧٩٥-١٨٧١م): مستشرق فرنسي. دَرَس اللغة العربية في (كوليج دو فرنس). أشهر مؤلفاته: ((بحث عن تاريخ العرب قبل الإسلام وأثناء عصر محمد)) (Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet)

^٩ - ج. م. أرنولد (توفي ١٨٨٢م): منصر إنجليكاني.

^{١٠} - إدوارد هنري بلر (١٨٤٠-١٨٨٢م): مستشرق بريطاني. دَرَس اللغة العربية في جامعة كامبردج. تعتبر ترجمته الإنجليزية للقرآن الكريم أشهر أعماله.

^{١١} - انظر؛ Samuel Marinus Zwemer, The Muslim Doctrine of God: an essay on the character and attributes of Allah according to the Koran and Orthodox tradition, New York: Young People's Missionary Movement, 1905, p.92

^{١٢} - رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا نكتب ولا نحسب، ح/ (١٩١٣)، ومسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال، ح/ (١٠٨٠)

^{١٣} - المباركفوري، تحفة الأحوذ، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ٢١٢/٨

اتَّخَذَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا لِلْوَحْيِ وَلِشُؤْنِهِ الْأُخْرَى: كان للرسول صَلَّى الله عليه وسلّم عدّة كتاب كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد ومعاوية رضي الله عنهم يكتبون الوحي ويكتبون العهود، ويكتبون كُتُبَهُ إلى مَنْ بعثه الله إليهم من ملوك الأرض ورؤوس الطوائف، وإلى عَمَلِهِ، وولاته، وسعاته. ولم يذكر التاريخ الصادق أنه صَلَّى الله عليه وسلّم قام بكتابة الوحي بنفسه أو أنّه تَوَلَّى كتابة أيّ من رسائله.

الاصطلاح في البيئة العربية زمن البعثة النبوية: قال المؤرّخ ابن خلدون إنّ الكتابة في العرب كانت أعزّ من بيض الأنوق، وإنّ أكثرهم كانوا أميين، ولا سيما سكّان البادية، لأنّ هذه الصناعة من الصنائع التابعة للعمّان^(١)، ولذلك ما كان العرب يشيرون على الأميّ بالأميّة، وإنّما كانوا يشيرون على من يعلم القراءة والكتابة، بالعلم في هذا الأمر إذ إنّ علم القراءة والكتابة كان الاستثناء لا الأصل في الناس وصمّت نصوص الوحي وكتب التاريخ الإسلامي عن وصف محمد صَلَّى الله عليه وسلّم بالقراءة والكتابة يكفي لإلزام الباحث أن يستصحب الأصل في ذاك الزمان؛ وهو أنّ هذا النبي صَلَّى الله عليه وسلّم لا يقرأ ولا يكتب.^(٢)

حجم المعرفة العلميّة المشترطة: إنّ دفع الأميّة عن الرسول لا يجدي -في حقيقته- المنصرين والمستشرقين في شيء لأنّ العلم بخط الحروف ورصف الكلمات لا يثبت شيئاً من دعاوى الاقتباس إذ إنّ إثبات علم الرسول بدقائق الأسفار المقدّسة السابقة لا يستقيم إلّا بإثبات (ثقافة موسوعية) للرسول في أسفار أهل الكتاب وعقائدهم وفرقهم ولغاتهم، وقد صدّق الدكتور عبد الرحمن بدوي في قوله: ولكي نفترض صحة هذا الزعم، فلا بد أنّ محمداً كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود، والأنجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات، وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين، وكتب مختلف الكنائس - والمذاهب المسيحية.^(٣)!! إنّ التاريخ يخبرنا أنّ ذاك الزمان لم يعرف رجلاً من أهل الكتاب أنفسهم، يحمل هذه العلوم الجمّة، بسعته ودقّتها وتلوّنها!

شبهة:

روى البخاري في قصّة الحديبية عن البراء رضي الله عنه قال: لما اعتمر النبي صَلَّى الله عليه وسلّم في ذي القعدة، أبا أهل مكة أن يدعوهم يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله! فقال صَلَّى الله عليه وسلّم: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله! ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: امح رسول الله! قال علي: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول صَلَّى الله عليه وسلّم الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القرب.

الردّ: أولاً: ليست كلمة كتب في هذا الحديث قاطعة في الدلالة على أنّ الرسول قد كتب الكلام التالي بنفسه فإنّ العرب كانت تنسب الفعل إلى الرجل، إذا كان قد جاء به من ائتمر بأمره فيه؛ من ذلك ما رواه أنس بن مالك أنّ النبي صَلَّى الله عليه وسلّم اتخذ خاتماً من فضّة، نقشه محمد رسول الله.^(٤)، ومعلوم أنّ الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم لم يباشر ذلك بنفسه، وإنّما باشره غيره بطلبه صَلَّى الله عليه وسلّم.

^١ - أحمد بن حجر آل بوطامي البعلبي، الرّد الشافي الوافر على من نفى أميّة سيّد الأوائل والأواخر، ضمن مجموعة الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي البعلبي رحمه الله، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ٢٤٨/٦

^٢ - انظر في شأن الأميّة في الأمم القديمة؛ William Harris, Ancient Literacy, MA: Harvard University Press, 1989

^٣ - عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضدّ متقديه، ت/كمال جاد الله، القاهرة: الدار العلميّة للكتاب والنشر، ١٩٩٩م، ص٢٤

^٤ - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب نقش الخاتم، ح/ (٥٨٧٢)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب في اتّخاذ النبي صَلَّى الله عليه وسلّم خاتماً لما أراد أن يكتب إلى العجم، ح/ (٢٠٩٢)

ثانياً: جاءت الرواية عن البراء في صحيح ابن حبان مصرّحة أنّ الرسول كان أمراً بالكتابة لا مباشراً لها: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فأمر فكتب مكان رسول الله محمداً فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.

ثالثاً: روى هذا الحديث المسور بن مخزومة ومروان وأنس بن مالك واتفقت تلك الروايات كلها على أمر النبي لعلي بالكتابة، فقد روى البخاري عن المسور بن مخزومة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالوا: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني، كتب محمد بن عبد الله^(١) وكذلك قال أنس بن مالك في صحيح مسلم ما نصّه: فقال النبي: كتب من محمد بن عبد الله^(٢) أما رواية البراء فنلاحظ أن الرواة الذين نقلوها قد اقتصروا على بعض الألفاظ دون بعض، ومن هنا حصل اللبس والإيهام في هذه الرواية^(٣).

رابعاً: جاء في رواية البخاري أنّ الرسول قد قال: فأرنيه وفي ذلك دلالة على أنّه لم يكن يعرف القراءة، فكيف سيجيد الكتابة؛ إذ إنّ من لا يقرأ لا يكتب؟!!

خامساً: نفس الحديث الذي يحتج به المنكرون لأمية الرسول قد جاء فيه قول الراوي: وليس يحسن يكتب وهو مثبت -بدلالة قاطعة- لأمية الرسول صلى الله عليه وسلم.

سادساً: لو قبلنا الزعم أنّ الرسول قد باشر في هذه القصّة الكتابة بنفسه، فإنّ ذلك لا يرفع عنه الأميّة قال الإمام العيني: الأمي من لا يحسن الكتابة لا من لا يكتب^(٤)، وقال الإمام ابن حجر: وعلى تقدير حمله على ظاهره فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم وهو لا يحسن الكتابة أن يصير عالماً بالكتابة ويخرج عن كونه أمياً، فإن كثيراً ممن لا يحسن الكتابة يعرف تصور بعض الكلمات ويحسن وضعها وخصوصاً الأسماء، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً ككثير من الملوك^(٥)، أمّا عامة الأحاديث الأخرى التي استدلل بها لردّ أميّة الرسول صلى الله عليه وسلم، فهي لا تصحّ، قال الإمام ابن حجر بعد أن أوردها: وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث^(٦).

وقفات مع دعاوى المنصّر زويمر: صاموئيل زويمر^(٧)، عمل على تأكيد الارتباط بين العمل الأكاديمي والعمل التنصيري من خلال مجلّته الشهيرة العالم الإسلامي التي استقطب لفريق الكاتبين فيها أئمة الاستشراق، وإن مقاله: النبي "الأمي"، هل كان محمد قادراً على القراءة والكتابة؟ الذي صدر في مجلة العالم الإسلامي سنة ١٩٢١ م، ورغم قدّمه إلّا أنّه لم يستجدّ عند المستشرقين بعده جديد في هذا الموضوع؛ فهو نفس الكلام المكرّر وذات الاستدلالات المستنسخة قديماً وحديثاً؛ لمقام صاحبه بين المنصّرين، ولأنّ أسلوب كاتبه يمثّل الخط الكلاسيكي الكنسي المتجدد في تناول هذا الموضوع، بالإضافة لما تميّز به هذا المقال من استفادة من الأبحاث الاستشراقية السابقة وحشد للأدلة المتراكمة. وهو مقال ذائع بين المستشرقين، بل هو من أهم ما كُتب في هذا الموضوع مع العلم أن مقاله امتد على مساحة عشرين صفحة.

^{١١} - رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ح/ (٢٧٣١)

^٢ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، ح/ (١٧٨٤)

^٣ - خالد كبير علان، أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، دحض أباطيل عابد الجاهلي وخرافات هشام جعيط حول القرآن ونبي الإسلام، دار المنحسب، نسخة الكترونية

^٤ - العيني، عمدة القاري، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٦٣/١٧

^٥ - ابن حجر، فتح الباري، ٥٠٤/٧

^٦ - ابن حجر، فتح الباري، ٥٠٣/٧، ٥٠٤، الأحاديث هي: ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب وفرأ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر معاوية أن يكتب للأقوع وعيينة، فقال عيينة: أتراني أذهب بصحيفة للملثم؟ فأخذ رسول الله الصحيفة فنظر فيها فقال: قد كتب لك بما أمر لك، ضع القلم على أذنك فإنه أذكر لك. ألق الدواة، وحرف القلم، وأقم الباء، وفرق السين، ولا تعور للميم، لا تمد بسم الله.

^٧ - صاموئيل زويمر (١٨٦٧-١٩٥٢ م): منصّر أمريكي، مؤسس العمل التنصيري البروتستانت في العالم الإسلامي، في صورته الحديثة. عمل في التنصير في عدد من البلاد الإسلامية. له عدد كبير من المؤلفات حول الإسلام وتنصير المسلمين. درس تاريخ الأديان في (Princeton Theological Seminary).

ردّ على هذا المقال السابق (د. سامي عامري) ردّ مفصل فأنتى على قواعده وأسسهِ في كتابه هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحت عنوان جانبي (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم. ص ٥٠-٨٧ وقد نقلت منه العبارات الهامة في النقد على المقالة السابقة ومن يريد التوسع فليرجع للكتاب المذكور.

استشهد زعيم المنصرين زويمر بمن خالف من أهل العلم (وهم قلة شاذة) كما أن فهمهم وقولهم يختلف عن مقصوده، فإنّهم لم يثبتوا ما تُؤهمه عبارة زويمر من أنّ الرسول كان يحسن القراءة والكتابة من أول أمره، وإنما قالوا إنّهُ اكتسب القراءة والكتابة في آخر سنيّ عمره، وكانوا في ذلك على قولين الأول أنّه اكتسب ذلك بالطريق البشري المؤلف، والثاني أنّه اكتسب ذلك على سبيل الخارقة دون جهد تعلّم^(١) والحجّة الأساسية لأصحاب هذين القولين هي حديث الحدييّة، وقد دفعنا هذا الفهم من هذا الحديث في ما مضى فقولهم إذن لا يلتقي مع زعم المنصرين أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يحسن القراءة والكتابة بما أهله للاطلاع على الكتب الدينيّة الأخرى قبل أن يخرج على الناس معلناً نبوّته؛ فقول هؤلاء غير قول أولئك!

كما أن إثبات معنى الأمي بأنه من كان من مكة أم القرى لقوله تعالى: {لتنذر أم القرى ومن حولها} (الشورى: ٧) يعارضه القرآن الكريم إذ يقول: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} (البقرة: ٧٥)؛ فلا سبيل هنا لربط (الأميّة) بالسكن في مكة أم القرى إذ هو وصف لفريق من اليهود بأنهم أميين على خلاف الطائفة الأخرى من اليهود التي أوتيت العلم^(٢)، كما أنّ هذه الآية ترد على الذين يقولون إنّ الأميين هم من كانوا من غير أمة اليهود.

وادّعى زويمر أن التجارة التي مارسها النبي علمته القراءة، لكن لم يمارس الرسول التجارة إلّا لفترة قصيرة، ولم يثبت لنا من طريق واضح أنّ التجارة التي مارسها الرسول كانت تحتاج معرفة بالقراءة والكتابة، بل لم يثبت لنا من النظر التاريخي أنّ التجارة التي كان يمارسها أهل مكة في الداخل والخارج كان تقتضي تعلّم القراءة والكتابة، فهو إذن احتجاج (عائم) (مائع) (سائل)!

وخطب بحديث عبيد الله بن مسلم: كان لنا غلامان فكان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما، فكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يمرّ عليهما، فيقوم يستمع منهما.. الحديث ليس بحجّة؛ لأسباب:

● الحديث مروي عن عبيد الله بن مسلم الحضرمي وهو من المختلف في صحبته قال فيه الحافظ مغلطاي في كتابه الإنابة إلى معرفة المختلف فيهم من الصحابة: عبيد الله الحضرمي تابعي روى عن: معاذ ابن جبل^(٣) فالحديث بذلك مرسل لا يصح!

● صيغر سن الغلامين^(٤) وعجمة لسانهما ينفيان أن يكون لهما فضل أو أثر على النبي صلّى الله عليه وسلّم.

● قال الشيخ ابن عاشور: كان في مكة غلام روميّ كان مولى لعامر بن الحضرمي اسمه جبر كان يصنع السيوف بمكة ويقرأ من الإنجيل ما يقرأ أمثاله من عاتمة النصارى من دعوات الصلوات، فاتّخذ زعماء المشركين من ذلك تمويهاً على العامة، فإن معظم أهل مكة كانوا أميين فكانوا يحسبون من يتلو كلمات يحفظها ولو محرّفة، أو يكتب حروفاً

^١ - انظر في عرض هذين القولين؛ قحطان الدروي، أميّة الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص ٣٣-٦١

^٢ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د. ٥٧٣/١

^٣ - مغلطاي، الإنابة إلى معرفة المختلف فيهم من الصحابة، ت/ محمد عوض المنقوش ومن معه، الرياض: مكتبة الرشد، د. ٤٤/٢

^٤ - قال الطبري: حدثني المثنى، قال: حدثنا عمرو بن عون، قال: أخبرنا هشيم، عن حصين، عن عبد الله بن مسلم الحضرمي: أنه كان لهم عبدان من أهل غير اليمن، وكانا طفلين، وكان يُقال لأحدهما يسار والآخر جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما، فانزل الله تعالى: لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيّ مُبِينٌ.

يتعلّمها، يحسبونه على علم، وكان النبي صَلَّى الله عليه وسلّم لما جّانبه قومه وقاطعوه يجلس إلى هذا الغلام، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام؛ فقالت قريش: هذا يعلم محمداً ما يقوله.^(١)

● لا تعلق لهذا النص بمعرفة الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم القراءة والكتابة.
نقل زويمر خلاصة دراسة نولدكه وهي أنّ:

(١) الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم كان يخادع قومه موهماً إياهم أنه لا يقرأ ولا يكتب، بل وكان يجعل كتابه يقرؤون ما تأتيه من مراسلات، لنفس الغرض. (٢) لم يُتَح للرسول صَلَّى الله عليه وسلّم الاطلاع على الأسفار المقدسة للنصارى. (٣) استعمل الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم التراث اليهودي - النصراني الشفوي المتداول بين قومه.

نقل زويمر اتهام الكفار للرسول صَلَّى الله عليه وسلّم الوارد في القرآن: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان: ٤-٥]، وأحال أيضاً إلى سورة النحل، الآية (١٠٥)، ويبدو أنه يقصد الآية (١٠٣): {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}، وعقب على ذلك بقوله إنّ محمداً صَلَّى الله عليه وسلّم لم يرد على أيّ من التهمتين بالقول إنه لا يحسن القراءة والكتابة. استدلت مجموعة من الروايات هي:

حديث: ألق الدواة، وحرف القلم، وانصب الباء، وحسن الله، ومد الرحمن الرحيم
حديث رواه ابن أبي شيبة: ما مات النبي حتى كتب وقرأ. سمعت أشخاصاً أكدوا ذلك.^(٢)، وأضاف أنه إذا كان هذا الأثر صحيحاً فلا بدّ أن يولى أهمية كبيرة لأنّ ابن أبي شيبة قد توفي سنة ١٠٥ هـ.
ما نسبته المستشرق موير إلى الواقدي من أنّ الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم قد كتب في أسفل صحيفة صلح الحديبية كلاماً من عنده.

قول الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم عند مرضه الذي قبض فيه: هلّم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده.
حديث بدء الوحي وقول جبريل للرسول صَلَّى الله عليه وسلّم: اقرأ ورُدّ الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم: ما أنا بقارئ، فقد ادعى زويمر أنّ هذا النص ليس إلّا صياغة عربية لنص سفر التكوين ٨/١٢ مع وصله بنص تكوين ٢٦/٤، كما أنّ ابن إسحاق والبغوي والبيضاوي وغيرهم قد اعتبروا هذه الحادثة مجرّد منام! وأضاف زويمر أنّ قول الرسول: ما أنا بقارئ! لا يعني أنّه لا يحسن القراءة وإنما يعني: أنا لا أقرأ الآن!.

النقد:

أولاً: الزعم أنّ الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم كان يخادع قومه؛ موهماً إياهم أنه أميّ لا يحسن القراءة والكتابة، لا يستند إلى دليل نقلي ولا يركن إلى اشتباه عقلي، وإنّما هو تعبير عن حالة مرضيّة تسمى في علم النفس (بالوسواس القهري) (Obsessive-compulsive disorder)، وهو مرض كثيراً ما يصيب المستشرقين دافعاً إياهم إلى البحث عن كلّ احتمال -دون النظر إلى ثقافته أو تفاهته- لرّد ربّانية القرآن الكريم^(٣). وإنّنا لو فتحنا الباب لمثل هذه الفرضيات؛ فلن يبق في عالم الناس (يقين) ولا (حقيقة)؛ فكل (شيء) يحتمل عندها أن يكون على غير (كينونته) ليستقر بنا المقام في ببداء (اللاأدرية) البائسة ..

^١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٨٦/٧

^٢ - عتبت الصيغة التي أوردتها زويمر ولم أنقل الحديث كما رواه ابن أبي شيبة؛ لغرض سببتيّن لك لاحقاً.

^٣ - العرض المرضي الوحيد للوسواس القهري الذي لم يتلبس به عامة المستشرقين هو (نفرة المريض من هذا الشعور المرضي)؛ إذ يُعتبر هذا الشعور المرضي -في المقابل- من أهم الدوافع (العلمية) للكتابات الاستشراقية!

السؤال (الجاد) هو: هل في السيرة ما يفتح الباب للقول إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخفي عن أصحابه تمكّنه من القراءة والكتابة؟ الإجابة: ليس في السيرة شيء من ذلك!

ثانياً: ما قيمة كل ما سرده زويمر من أدلة لصالح الزعم أنّ الرسول كان يحسن القراءة والكتابة ويفعلهما بمحض من أصحابه، إذا كان الرسول مع ذلك يخفي علمه بالقراءة والكتابة عن أصحابه؟!!

ثالثاً: جلّ الذين اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه افترى القرآن من عنده، أسلموا بعد ذلك وفتحوا الأمصار، فكيف لم ينسخ إيمانهم تهمتهم القديمة للرسول صلى الله عليه وسلم؟!!

رابعاً: الآية التي نقلها زويمر هي نفسها ترد على دعواه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} (الفرقان: ٤-٥) .. إنّ هذه الآية لم تنسب إلى الرسول إتقان القراءة فضلاً عن أن تنسبه إلى إجادة الكتابة إذ هي تخبرنا أنّ المشركين قد قالوا إنّ الرسول قد اكتتب ما أورده في قرآنه؛ فهو لم يكتبه، وإنّما كُتب له. كما أنّ آية سورة النحل لا علاقة لها بتهمة معرفة الرسول القراءة والكتابة؛ فإنّ التهمة في هذه الآية قائمة على الزعم أنّ الرسول كان يسمع أو يستمع إلى أعجمي يرطن بلغته وليس فيها نسبته إلى القراءة أو الكتابة.

خامساً: لم يكن كفّار مكّة يرمون الرسول بتهمة قراءة الكلمات أو رصفها، وإنّما كانوا يريدون إثبات معرفته الكسبيّة بما جاء في الكتب المقدسة للسابقين ولذلك جاءهم الرد القرآني الحاسم الذي يليق بسياق الأحداث: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا تَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت: ٤٨) .. لم يكن الرسول يقرأ الكتب السابقة، ولم يعهد الناس عنه نسخها بيده، فما جاء في القرآن من خبر السابقين إنّما هو -إذن- وحي من ربّ العالمين! سادساً: حديث: ألقِ الدواة، وحرف القلم، وانصب الباء، وحسن الله، ومد الرحمن الرحيم، ضعيف ففي إسناده من لا يُعرف بتعديل، وفيه أيضاً الوليد بن مسلم وهو مدلس، وفي السند انقطاع بين مكحول ومعاوية^(١)، وقد قال فيه الإمام ابن حجر: باطل.^(٢)

سابعاً: حديث ابن أبي شيبّة أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم ما مات حتى قرأ وكتب:

- ١- ضعيف ففيه مجالد بن سعد بن عمير الهمداني وضعفه أئمة علم الرجال كابن معين ويحيى القطان^(٣)
- ٢- توفي ابن أبي شيبّة سنة ٢٣٥ هـ وليس سنة ١٠٥ هـ، وهو إمام شهير من أئمة الحديث، بل ولقب بإمام الحفاظ فكيف يجهل منصرّ سخر حياته لدراسة الإسلام خبر هذا الإمام؟!!
- ٣- لم يكن ابن أبي شيبّة في هذا الأثر -هو من قال إنّ الناس قد أكّدوا له أنّ الرسول قد مات وهو يعرف القراءة والكتابة، وإنّما هو في هذه الرواية الشعبي وهو الذي قيل إنه قد مات سنة ١٠٤ هـ!
- ٤- حتّى لو فرضنا صحّة الرواية إلى الشعبي فإنّه مع ذلك لا يُعتد بها؛ لأنّها رواية عن مجاهيل، وهي بذلك ساقطة إجماعاً عند علماء الحديث. وقد أخرج البيهقي هذا الحديث، وقال فيه: هذا حديث منقطع، وفي رواه جماعة من الضعفاء والمجهولين^(٤)

ثامناً: لم يحل زويمر إلى مصدر رواية الواقدي، واكتفى بالإشارة إلى أنّه نقل ما ذكره موير في هامش كتابه دون أن يحدد اسم الكتاب وصفحة الإحالة! وبالنظر في ما كتبه موير تبين أنّ الإحالة هي إلى المجلد الرابع من سلسلة حياة

^١ - انظر؛ عبد الله الجديع، للمقدمات الأساسية للقرآن الكريم، لينز: مركز البحوث الإسلامية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص ١٥١

^٢ - ابن حجر، لسان الميزان، ت/ عبد الفتاح أبو غدة، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ١٣٨/٧

^٣ - انظر؛ ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، ٢٤١٤-٢٤١٧

^٤ - البيهقي، السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب لم يكن له أن يتعلم شعراً ولا يكتب، ح/ (١٣٢٩) (ت/ محمد عطا، بيروت: ٢٠٠٣م، ط ٣، ٦٨/٧)

محمد: *The life of Mahomet and History of Islam, to the era of the Hegira*, الصفحة ٣٤، وقد ذكر فيها أنه كان ينقل عن سكرتير الواقدي (!)؛ وهو يقصد تلميذ الواقدي وكتابه: ابن سعد، وبالنظر في كتاب الطبقات لابن سعد وجدنا أن الرواية ليست عن الواقدي^(١) فلم يفهم زويمر حتى إحالة موير الذي نسب الرواية إلى سكرتير الواقدي لا إلى الواقدي نفسه!! رواية ابن سعد تقول: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفل الكتاب: ولنا عليكم مثل الذي لكم علينا. والاحتجاج بها مردود من أوجه:

- ١- نسبة الكتابة إلى الرسول لا تعني مباشرته لها بصورة شخصية كما سيأتي في الوجه الثامن من الرد.
- ٢- متن هذا الحديث مخالف لما جاء في الأحاديث الصحيحة من أن شروط العقد لم تكن تمنح المسلمين ومشركي مكة نفس الحقوق؛ فقد ثبت أن على المسلمين أن يردوا إلى قريش من يأتيهم منها، وليس على قريش أن ترد من يأتيها من المسلمين.^(٢)
- ٣- الحديث ضعيف لا يصح من جهة الإسناد؛ فهو مرسل عن عكرمة مولى ابن عباس. ومن (عجيب) ما قال إمام المنصّرين في تمهيده لهذه الشبهة: بالنسبة لما يتعلّق بالاتفاق الذي كان بين محمد وقريش في الحديبية والمعروف باسمبيعة الرضوان^(٣) فانظر كيف أظهر تعامله (البارد) ليقنع القراء أنه مدرك لدقائق السيرة، بل ويعرف حتى الكثير من خبرها باللفظ العربي؟! رغم أن بيعة الرضوان هي غير صلح الحديبية فما كان بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش هو (صلح الحديبية) أما (بيعة الرضوان) فكانت بين الرسول والصحابة على قتال المشركين بعد أن بلغهم قتل عثمان بن عفّان لما ذهب إلى مكة ليخبر كبارها أن الرسول يريد العمرة^(٤) وهذا المسلك في التعامل الأجذب معروف عند المنصّرين الأعاجم، وقد رأيت منه نماذج (سخيفة) وأشكالاً طريفة خاصة عند رغبتهم في إقناع بقية الخوارج أنهم يحسنون اللغة العربية إذ تخرج منهم كلمات -لا أراك الله (مطحوناً) - قد لفظتها أرحام المعاجم .. ومن شابه زويمر فما ظلم!

تاسعا: قول الرسول عند مرضه الذي قبض فيه: هلمّ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده. صحيح، في الصحيحين وفي نفس الحديث أن الرسول لم يكتب شيئاً لكثرة الغلط من الصحابة رضوان الله عليهم حوله. وقد أورد زويمر نفسه الرد الأمثل على هذه الشبهة بما نقله عن المستشرق نولدكه في قوله إن كلمة كتب عند العرب تستعمل أحياناً بمعنى أملى^(٥) ولا شك أن هذا هو المعنى الصحيح بدلالة سيرته صلى الله عليه وسلم حيث ثبت أنه كتب إلى الملوك، مع إيراد مؤلفات السيرة نفسها أنه كان للرسول كتاب يكتبون له مراسلاته..

عاشرا: بحث زويمر وأصحابه عن قشة يتعلقون بها : نص تكوين ٨/١٢: ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب. نص تكوين ٢٦/٤: ولشيث أيضاً ولد ابن فدعا اسمه أنوش. حينئذ ابتدئ أن يدعى باسم الرب. قلت: تشبّث زويمر -في

^١ - ابن سعد، الطبقات الكبير، ت/ علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ٩٧/٢

^٢ - ثبت ذلك في الصحيحين؛ البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ح/ (٤١٨٠-٤١٨١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ح/ (١٧٨٤) ^٣ - Samuel Zwemer, 'The 'Illiterate' Prophet, Could Mohammed Read and Write?', in The Moslem World, V.11, October, 1921, No.4, p. 359

^٤ - انظر؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ت/ عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ط ٣، ٢٦٢/٣

^٥ - انظر؛ Samuel Zwemer, 'The 'Illiterate' Prophet, Could Mohammed Read and Write?', in The Moslem World, V.11, October, 1921, No.4, p. 355

متابعة للمستشرق هيرشفيلد-بالمشاهدة اللفظية بين ما جاء في سفر التكوين وما جاء في نص حديث بدء الوحي، دون أن يبيّن وجه التشابه؛ وذلك لأنّ زويمر مجرّد قَمَّاش، متكثّر من (الرقع)؛ يجمع الشبهات دون فهم لها! جلي أنّ هيرشفيلد كان يحتج بالأصل العبري لما جاء في سفر التكوين: تكوين ١٢/٨: ودعا باسم الرب، أصله العبري **((وִיקרא בשם יהוה))** (ويَقْرأ بشيم يهوه). تكوين ٢٦/٤: يدعى باسم الرب، أصله العبري **((לָקרא בשם יהוה))** (لَيَقْرأ بشيم يهوه).

يبدو أنّ القشة التي تعلّق بها هيرشفيلد هي فعل **((قرا))** (قارا) الذي يزعم أنه نفسه في حادثة بدء الوحي قرأ.. وليس الأمر كذلك إذ إنّ هذه القشة ليست إلّا سراباً؛ فإنّ هذه الكلمة في العبريّة الكتابيّة لا تعني قرأ كما في اللغة العربيّة إلّا في مواضع محدودة في العهد القديم؛ فمعناها الأكثر تداولاً هو نادى ودعى^(١)، والمعنى الثاني هو المقصود في النصين المشار إليهما في سفر التكوين، بدلالة السياق وشهادة كلّ الترجمات.. إنّ الصلة السياقية واللغوية منعدمة بين سفر التكوين وحادثة بدء الوحي، فضلاً عن أنّ الرسول لم يقرأ سفر التكوين في شكله العبري ولا حتى العبري وهو ما يجعل هذا الاستدلال من الإسفاف الإستشراقي في أجلى سفوره!

الحادي عشر: تشكيك زويمر في أنّ حادثة الوحي كانت يقظة لا حجة له: رواية ابن إسحاق لقصة بدء الوحي وأنها كانت في المنام، ضعيفة لا تصحّ؛ فهي مروية عن عبد الملك بن عبد الله عن مجاهيل^(٢) وروى البغوي حادثة بدء الوحي بإسناده إلى الإمام البخاري إلى أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها في تفسيره للآيات الأولى لسورة العلق: أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل (أي البخاري)، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عُقَيْل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي.. الحديث^(٣) فكيف يكون البغوي قد خالف ما جاء في رواية البخاري التي تثبت رؤية جبريل يقظة، رغم أنّه قد نقل نفس الرواية لبيان سبب نزول الآيات القرآنيّة المتعلقة بتلك الحادثة.

ولم يُحدث البيضاوي ذكرًا لنسبة هذه الحادثة إلى المنام في تفسيره لسورة العلق، ولا وجود لهذا القول في تفسير الكشاف للزمخشري الذي هو الأصل الذي اختصره البيضاوي ولو فرضنا -جدلاً- أنّ البيضاوي قد ذهب إلى هذا القول، فليس لقوله قيمة لأنّه لم تكن عنده مرويات بإسناده؛ فليس له إذن أن يأتي برواية تنقض الرواية الصحيحة الثابتة في الصحيحين؛ فالخلاف هنا بيننا وبين زويمر هو حول ثبوت الروايات وليس حول فهمها.

الثاني عشر: القول إنّ رسول الله قد قال لجبريل عليه السلام: ما أنا بقارئ بمعنى أنّه ليس بصدد القراءة، لما قال له: اقرأ، لا معنى له البتة في سياق ذلك الحوار؛ فالسياق حجة في كشف دلالة اللفظ!

الثالث عشر: من الغريب نسبة زويمر رواية خبر الحديبية بإفاضة إلى كتاب المواهب اللدنيّة للطبري إذ ليس للطبري كتاب بهذا الاسم، والصواب هو أنّه كتاب للقسطلاني، وعنوانه الكامل: المواهب اللدنيّة بالمنح المحمديّة وهو في السيرة والشمائل النبويّة حيث أطلال الحديث عن كتابة صلح الحديبية وأمّيّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم.^(٤) استدلل زويمر برسالة الرسول إلى المقوقس التي عثر عليها في إحدى الأديرة للقول إنّ الرسول قد كتبها.

^١ - انظر؛ William Gesenius, A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, tr. Edward Robinson, Boston: Crocker and Brewster, 1858, p.937-939

^٢ - ابن إسحاق، السيرة النبوية، ت/ أحمد فريد الميزدي، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، ص ١٦٧

^٣ - البغوي، معالم التنزيل، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص ١٤٢٠

^٤ - انظر؛ القسطلاني، المواهب اللدنيّة بالمنح المحمديّة، ت/ صالح الشامي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ط ٢، ١/٤٩٦-٥٠١

النقد:

أولاً: لا تتضمن هذه الرسالة ما يدل على أنها قد كتبت من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فليس فيها اسم من كتبها تصريحاً أو تلميحاً!

ثانياً: الثابت —باعتراف زويمر— أنه كان للرسول صلى الله عليه وسلم من يكتبون له الرسائل فلماذا استثنى هذه الرسالة منها؟!

ثالثاً: قال الباحث المحقق د. أكرم ضياء العمري في كتابه القيم في السيرة النبوية الذي صاغه على منهج المحدثين في توثيق الأخبار: وقد أخرج البخاري في صحيحه نص كتاب الرسول الذي بعث به دحية إلى عظيم بصري فدفعه إلى هرقل، وهو النص الوحيد الذي ثبتت صحته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الملوك والأمراء التي ينبغي أن تنقد من جهة المتن والسند معاً قبل اعتمادها تاريخياً^(١) فأمر هذه الرسالة لا يصح من ناحية التوثيق التاريخي مما يفقد تلك المخطوطة قيمتها العلمية.

رابعاً: من دلائل الموضوعية العلمية المهدرة عند زويمر أنه قد انتصر للقول إن التراث الإسلامي كله غير أمين في نقل التاريخ الإسلامي المبكر، غير أنه يقول هنا: لا يوجد شك أن النبي قد أرسل مثل هذه الرسالة إلى المقوقس حاكم الإسكندرية، لقد ذكر في كل كتب السيرة النموذجية أنه من بين الملوك الذين أرسلت إليهم مثل هذه الرسائل المتعلقة بالدعوة إلى الإسلام^(٢)، إن كلام زويمر هنا —أيضاً— ليس علمياً؛ فكم من مسألة تواتر ذكرها في كتب السيرة النموذجية، ولم يتواتر إسنادها بل لم يصح لها حديث فرد^(٣) فتكرر نقل الرواية في كتب السيرة، ليس بحجة عند أهل العلم المسلمين على صحة النقل لعلمهم أن (فقه الرواية) عند كتّاب السيرة غير فقه الرواية عند المحدثين ولذلك لا بد أن تفحص الرواية الواردة في السيرة متناً وسنداً قبل أن تكون حجة في دين الله تؤخذ منها العقائد وتُستنبط منها الأحكام! إن التاريخ يخبرنا أن ذاك الزمان لم يعرف رجلاً من أهل الكتاب أنفسهم، يحمل هذه العلوم الجمّة، بسعته ودقّتها وتلونها!^(٤)

لا يعرف القراءة والكتابة ونشأ في أمة أمية، ندر أن تجد فيها من يقرأ ويكتب، لقد كانت أمية النبي حجر العثرة الذي أعثر أصحاب الأباطيل الزاعمين أن النبي نقل من كتب السابقين وعلومهم، وشغب أصحاب الأباطيل على أمية الرسول بذكر نصين من كلام النبي زعموا أن فيهما شهادة على معرفة النبي بالقراءة والكتابة، أولهما: حين شارك في كتابة صلح الحديبية، فكتب فيه ما يقارب السطر والآخر حين قال للصحابة قبيل وفاته: «اثنوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده»^(٥)، فأروا في هذين النصين الصحيحين ما يدل على معرفته ﷺ بالقراءة والكتابة. فأما كتابة النبي يوم الحديبية فكان معجزة له إذ كتب ما كتب، ولم يكن كاتباً من قبل، بدليل رواية البخاري التي أخبرت أنه كتب وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ففيها أن قريشا اعترضت على الكتاب الذي يكتبه علي فقالت:

^١ - أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، ٤٥٦/٢، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م. الكلام هنا منصرف إلى مضمون الرسائل، وهذا لا ينفي مراسلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حكام البلاد المجاورة.

^٢ - Samuel Zwemer, 'The 'Illiterate' Prophet, Could Mohammed Read and Write?', in The Moslem World, V.11, October, 1921, No.4, p. 361

^٣ - انظر أمثلة من هذه الروايات، محمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، الرياض: دار طيبة، د. ت

^٤ - د. سامي العامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحت عنوان جانبي (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم). ص ٥٢ - ٦١.

^٥ - أخرجه البخاري ح (٣١٨٤)، ويأتي نصه. أخرجه البخاري ح (١١٤)، ومسلم ح (١٦٣٧).

اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فقال ﷺ: «أنا والله محمد بن عبد الله، وأنا والله رسول الله» قال: وكان لا يكتب، فقال لعلي: «امح: رسول الله» فقال علي: والله لا أمحها أبداً، قال: «فأرنيه»، فأراه إياه، فمحاها النبي بيده ^(١) وفي رواية مسلم أنه قال: «أرني مكانها» فأراه مكانها، فمحاها ^(٢)، فرسول الله لم يعرف قراءة المكتوب، ولم يستدل على مكانه في الصحيفة إلا حين دله علي ثم تمضي الروايات الصحيحة فتبين أن النبي كتب بدل ما حي، مع تأكيدها على أنه لم يكن قبلها كاتباً، فكانت كتابته أعجوبة لمن رآها، ففي رواية البخاري أن رسول الله (أخذ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب ..) ^(٣) فقصته كتابته كانت على غير المعهود منه .

وأما قول النبي ﷺ في آخر حياته: «اثنوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده»، فلا يفيد معرفته بالقراءة والكتابة، وأنه سيكتب بنفسه هذا الكتاب، فإن الناس لم تزل تقول: قتل الأمير، وكتب الأمير وجلد وضرب، وإنما تقصد أنه وجه بذلك وأمر به، من غير أن يفهم السامع أنه فعله بنفسه، ولتأكيد صحة هذا الفهم نذكر روايتين يرويهما الإمام أحمد في مسنده من حديث البراء بن عازب يتحدثان عن نزول قوله تعالى: { لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر } (النساء: ٩٥). ففي الأولى يقول البراء بن عازب: لما نزلت هذه الآية أتاه ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، ما تأمرني؟ إني ضريب البصر، فنزل قوله: { غير أولي الضرر } فقال النبي ﷺ: «اثنوني بالكتف والدواة، أو اللوح والدواة» ^(٤)، فهذه الرواية تفيد أن النبي طلب أدوات الكتابة، ولربما فهم منها أنه يريد كتابة الآيات بنفسه، كما فهم من قصة الكتاب الذي أراد ﷺ كتابته في آخر حياته، لكن ذلك غير مقصود، إذ تفسره الرواية الأخرى للحديث، حيث يقول فيها البراء: كنت عند رسول الله فقال: «ادعوا لي زيدا يحيى أو يأتي بالكتف والدواة أو اللوح والدواة، كتب: { لا يستوي القاعدون من المؤمنين } ..» ^(٥)، فالمقصود من قوله: «اثنوني بكتاب أكتب لكم كتاباً» طلب أدوات الكتابة مع من يكتب بها، لا أنه سيكتب بها بنفسه وهكذا يتبين أنه ﷺ كان أمياً، وأن النصين يكملان ما جاء في القرآن الكريم من التصريح بأميته ﷺ { فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون } (الأعراف: ١٥٨)، ولعل من المفيد التنبيه إلى أن أول ترجمة عربية للكتاب المقدس ظهرت بعد وفاة النبي بقرن من الزمان، وهي ترجمة أسقف أشبيليا يوحنا عام ٧٢٤ م ^(٦)، فالكتاب لم يكن متداولاً بين الناس زمن النبي فقد كان حكرًا على بعض القسس ولم يطلع عليه عوام المسيحيين إلا في عصر الطباعة في القرن الميلادي السادس عشر رغم محاولات الكنيسة منع انتشاره بقرارات الحرمان التي أصدرها مجمع تريدين نوتردام في ١٥٤٢ - ١٥٦٣ م ^(٧)

القضية الثانية : هل من معلم بشري لمحمد ﷺ؟! حول "ورقة وبحيرى"

إذا كان القول باطلاع محمد ﷺ على أسفار أهل الكتاب ودراسته لها دراسة نقدية عميقة، فاقداً للمستند التاريخي لما ثبت من أميته، وكذلك عدم وجود ترجمة عربية في زمنه فلم يبق بعد ذلك إلا أن يفترض المخالف أن محمداً ﷺ العربي الأمي قد تلقى علوم أهل الكتاب عن غيره، بعد أن ثبت عجزه عن الاطلاع المباشر على أسفار القوم، والاحتمالات المتاحة أمام المنصرين لا تخرج عن الآتي :

^١ - أخرجه البخاري ح (٣١٨٤).

^٢ - أخرجه مسلم ح (١٧٨٣).

^٣ - أخرجه البخاري ح (٤٢٥١).

^٤ - أخرجه أحمد ح (١٨١٧٤).

^٥ - أخرجه أحمد ح (١٨٢٠٤).

^٦ - انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (٧٧١).

^٧ - انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٦٠٨).

- قد تعلّم محمد صلى الله عليه وسلم على يد علماء أهل الكتاب قبل بعثته.
 - أو تعلّم على يد علماء أهل الكتاب بعد بعثته.
 - أن محمدًا ﷺ قد درس التوراة والإنجيل على يد العرب أهل مكة، وهو احتمال لا يُعرف له صاحب يتبناه.
 - أن يكون تعلّم القرآن من حداد رومي كما قالت قريش.
- تثور في وجه هذه الاحتمال الأول وأمثاله أسئلة منطقية كثيرة: إذا كان القرآن منقولاً عن ورقة وبحيرا فلم لم ينسباه إلى أنفسهما؟ ولم أمكنوا محمداً ﷺ من ذلك؟ وكيف اطلع هؤلاء على علوم القرآن التي سجلت قصص الأولين والآخرين وحوت المبهر من أخبار الغيوب التي كشف عنها العلم الحديث اليوم؟
- ثم إنّ حياة محمد ﷺ معلومة للقاصي والداني مما يجعل الزعم بأنه قد عكف الشهور والسنين في دراسة التوراة والإنجيل قولاً مردوداً بدهاة، ولو أن قومه كانوا قد علموا أنه قد قضى ردحاً من عمره يدرس الدين اليهودي والدين النصراني على يد علماء أهل الكتاب لحدّدوا لنا المكان والزمان اللذين قدّمت له فيهما هذه العلوم الكتابية الغريبة والمعقدة والتي جعلته يجيب ببراعة فائقة على كل الأسئلة التي وجهها له أهل الكتاب حتى إنه لم يتراجع عن إجابة قدمها.

مقابلة محمد ﷺ لعلماء اليهود والنصارى قبل بعثته لم تكن تسمح له بأن يحصل كل تلك العلوم الواسعة والدقيقة لأنه لم يلتق قبل بعثته - كما ورد في كتب السيرة - سوى بالراهب بحيرى (وهو في الثانية عشرة من عمره)، وهو لقاء حضره عمه (أبو طالب)، ومضمون هذا اللقاء هو إخبار هذا الراهب أبا طالب أنّه قد رأى في الرسول ﷺ علامات النبوة!! وهو لقاء سريع وخاطف، ولم يكشف عن عمل تعليمي من هذا الرجل للرسول ﷺ. على أنّ الراجح - بعد بحث أصالة الرواية متناً وسنداً - أنّ قصّة لقاء الرسول ﷺ ببخيرى هي قصّة مختلفة منكورة تخالف ما ثبت من صحيح السيرة في المرحلة التالية حيث لا يبدو من أبي طالب علم بنبوة الرسول ﷺ، بل ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل لقائه بجبريل عليه السلام يحسب أنّه سيكون ممّن اصطفاهم المولى عزّ وجل لهذا المقام، كما أنّه ﷺ قد فوجئ بلقاء جبريل عليه السلام، واضطر إلى سؤال ورقة بن نوفل عن الذي وقع له في الغار!

وقد كذب الإمام الحافظ الذهبي هذه الرواية، وقال فيها: وهو حديث منكر جداً! وأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف؛ وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإنّ أبا بكر لم يشتره إلّا بعد المبعث، ولم يكن ولد بعد؛ وأيضاً، فإذا كان عليه غمامة تظله كيف يتصوّر أن يميل فيء الشجرة؟ لأنّ ظلّ الغمامة يعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها، ولم نر التّي ﷺ ذكر أبا طالب قطّ بقول الراهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ، مع توقّر همهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك، فلو وقع لاشتهر بينهم أيما اشتها، ولبقي عنده ﷺ حسن من النبوة؛ ولما أنكر محيي الوحي إليه، أوّلاً بغار حراء وأتى خديجة خاتماً على عقله...

وأيضاً فلو أثر هذا الخوف في أبي طالب وردّه، كيف كانت تطيب نفسه أن يمكّنه من السفر إلى الشام تاجرًا لخديجة؟ وفي الحديث ألفاظ منكورة، تشبه ألفاظ الطّرقية، مع أنّ ابن عائذ قد روى معناه في مغازيه دون قوله: وبعث معه أبو بكر بلالاً إلى آخره، فقال: ثنا الوليد بن مسلم، أخبرني أبو داود سليمان بن موسى، فذكره بمعناه. ^(١)، وقال الإمام المحقّق (الذهبي) أيضاً في تعليقه على مستدرک الحاكم: "أظنه موضوع، وبعضه باطل." ^(٢).

^١ - الذهبي، تاريخ الإسلام، ت/ عمر عبد السلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ٥٧/١

^٢ - الحاكم، المستدرک على الصحيحين، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي، القاهرة: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ٧٢٤/٢

وَمَنْ أشار أيضًا إلى نكارة متنه ابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر إذ قال فيه: "في متنه نكارة وهي إرسال أبي بكر مع النبي ﷺ بلائًا. وكيف وأبو بكر حينئذ لم يبلغ العشر سنين فإنَّ النبي ﷺ أسَّ من أبي بكر بأزيد من عامين، وكانت للنبي تسعة أعوام على ما قاله أبو جعفر الطبري وغيره، أو اثنا عشر على ما قاله آخرون، وأيضًا فإنَّ بلائًا لم ينتقل لأبي بكر إلا بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عامًا فإنَّه كان لبني خلف الجُمَحِيِّين، وعندما عُذِّب في الله على الإسلام اشتراه أبو بكر رضي الله عنه رحمة له واستنقاذًا له من أيديهم^(١)

وخلاصة البحث في هذه المسألة هي أنَّ: " قصة بحيرى لا تثبت أمام النقد الحديثي، ولو افترضنا جدلاً أنها وقعت فإن اللقاء بينهما لا يعدو الساعة أو الساعتين، وعمر النبي ﷺ اثنتا عشرة سنة. ولو حدثت قصة اللقاء لأثارت جدلاً في قريش. لكننا لا نجد صدى لها مما يؤكد بطلانها. وماذا يتحمل صبي في الثانية عشرة من عمره عن بحيرى؟ وقد اجتمع به بحضور قريش ساعة من زمان؟"^(٢)

فالقصة لا تثبت إذا ما أخضعت إلى مناهج النقد العلمي التاريخي الصارمة. وحتى لو ثبتت -جدلاً- فإنها لا تؤدي إلى ما أراده المنصرون لأنَّ هذا اللقاء كان سرعياً خاطئاً لا يمكن أن يتعلَّم منه المرء شيئاً!! ومن الغرب، والمثير، أنَّه رغم أنَّ هذه الشخصية -بحيرى الراهب- مغمورة إلا في هذه القصة الواهية -حتى اضطرت الموسوعة الإسلامية الاستشراقية المختصرة (Shorter Encyclopaedia of Islam) إلى القول في أصالة القصة بأكملها إنَّ كلَّ مفاتيحها مفقودة ولذلك " لا يمكن أن يقال فيها من الكلام إلا القليل"^(٣)، فإنَّ المنصرتين قد ادَّعوا أنَّهم على معرفة بوجودها التاريخي من مراجع غير إسلامية! ولأنَّهم يخترعون القصص من أوهامهم؛ فقد تخطوا في معرفة الاسم، والموطن، وحتى مذهب هذا الراهب !!!^(٤).

وقد نشر المنصرون المصريون أتباع الكنيسة الأرثوذكسية المرقسية، وثيقة على (الت) قالوا إنَّها مذكرات بحيرى الراهب، وقد اعترف فيها بحيرى أنَّه هو الذي علَّم الرسول حقائق الدين!! والحقيقة هي أنَّ هذا النصَّ مأخوذ -حرفياً- من كتاب A Christian Bahira Legend لعالم الساميات ريتشارد غوتهيل وقد أورد فيه هذه القصة في صورتها السريانية والعربية، عن مخطوطات قديمة، والغريب أنَّ ريتشارد غوتهيل قد صرَّح في العنوان، وفي الكتاب، في فقرته الأولى، أنَّ هذه القصة ليست إلا خرافة Legend تمَّ توظيف بعض المرويات التاريخية فيها لأغراض جدلية^(٥)، كما أشار إلى أنَّ كاتب أو كتَّاب فهرس المخطوطة العربية في المكتبة القومية قد كتب: خرافة كتبت نحو القرن الثاني عشر. (Legende composée vers le 12 siecle)^(٦) تعليقاً على النص العربي للقصة، وهو قريب مما قرَّره

^١ - انظر؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، ت/محمد العيد الخطراوي وبحي الدين مستو، المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٠٨/١

^٢ - د. أكرم ضياء العمري، مرويات السيرة النبوية، بين قواعد المحدثين وروايات الأخباريين (نسخة الكترونية).

^٣ - H. A. R. Gibb and J. H. Kramers, Shorter Encyclopaedia of Islam, New York: Cornell University Press, 1905, p.56

^٤ - يقول الدكتور ((أكرم ضياء العمري)): ((أما بالنسبة لمعلوماتنا عن بحيرا فإن المصادر لا تكاد تتفق على شيء بشأنه، بل هي متضاربة في اسمه فمرة جرجيس وأخرى جرجس وثالثة سرجيس ورابعة سرجس. ومرة أنه مشتق من الآرامية معناه المشتب، وأخرى من السريانية معناه المشجر. ومرة ينسب لقبيلة عبد القيس فهو عبقسي. ومرة هو نصراني وأخرى يهودي)). (السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ط٦، ص ١١٠-١١١) وقال الشيخ ((الألباني)) في تسمية هذا الراهب ((بحيرا)): ((إن تسمية الراهب بـ (بحيرا) إنما جاء في بعض الروايات الواهية، في إحداهما الواقدي وهو كذاب، وفي الأخرى محمد بن إسحاق صاحب السيرة رواها بدون إسناد، وهاتان الروايتان هما عمدة كل المؤرخين الذين سموه بهذا الاسم)) (ناصر الدين الألباني، حادثة الراهب المسمى (بحيرا) حقيقة لا خرافة، مجلة التمدن الإسلامي، ٢٥)

وانظر في اختلاف الدفاعين النصاري في الاسم والمعتقد؛ A. Abel, 'Bahira,' in P. Bearman, Th. Bianquis, C. E. Bosworth, E. van Donzel and W. P. Heinrichs, eds. Encyclopaedia of Islam, Brill Online, 2010

^٥ - انظر؛ Richard James Horatio Gottheil, A Christian Bahira Legend, New York: 1903, p. 189 and others

^٦ - المصدر السابق، ص 192

الموسوعة الاستشراقية (The Encyclopaedia of Islam) برد تاريخ تأليف هذه القصة إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر.^(١)

وتعود أقدم المخطوطات التي اعتمدها غوتهيل للنص العربي، إلى بداية القرن الخامس عشر^(٢)، أما النص السرياني فقد اعتمد في إعادة بنائه على ثلاث نسخ، اثنتان من القرن التاسع عشر^(٣)، وواحدة من القرن السابع عشر أو الثامن عشر!!^(٤)

والقصة بأكملها كما رجّح ذلك غوتهيل نفسه، ربما ألّفت في فارس في بيئة فيها نشاط شيعي بارز إذ تحدّث الكاتب عن المهدي المنتظر: المهدي ابن علي ابن فاطمة^(٥)، وما سيحدث على يديه من أمور عظيمة^(٦) ويتميّز هذا النصّ بعدة أمور قاطعة أنّ مؤلّفه راهب، وأنّ ثقافته الإسلامية غير محكمة؛ وتم إظهار بحيرى في صورة التائب النادم على فعلته، وكتبت هذه القصة في وسط نصراي انغزالي، ولم يُردّ منها الكاتب إنشاء حالة نقاش علمي مع المسلمين، إذ إنه يقدّم رواية مشبعة بالرغبة في التشفي وبعبدة عن آية أصول تاريخية معتبرة، حتى إنه قد جعل الراهب بحيرى ملازمًا للرسول في مكة والمدينة (!)، يقدّم له تفاصيل العقائد والشرائع كلّما احتاج إلى أمر يلقيه إلى الناس! رغم أنّ الرواية الإسلامية (الضعيفة) التي هي أصل هذه القصة لا تذكر غير لقاء عابر مع راهب في طفولة الرسول

وكما ذكر ذلك البحّانة سدني غريفت، فإنّ النقاد قد أشاروا إلى زيف النصوص الجدلية النصرانية التي لم يشتهر مؤلّفوها بأعيانهم المعروفة للناس، والتي كتبت بلغة نصارى البلاد العربية (السريانية، والقبطية، والأرمنية)، ومنها هذا النصّ^(٧).. علماً أنّ سدني يرى أنّ المؤلّف سرياني مجهول، وأنّ النصّ السرياني - الذي هو أصل النص العربي - يعود إلى آخر القرن الثامن أو أوّل القرن التاسع.^(٨)

لقد كان التحريف والاختلاق منهجًا بارزًا في النشاط الرهباني السرياني ضد الإسلام على مدى قرون طويلة^(٩). ولقد وقف عدد من النقاد الغربيين أنفسهم ضدّ أصالة رواية لقاء الرسول ببجيرى الراهب، ومنهم Clément Huart^(١٠) الذي قال في مقاله مصدر جديد للقرآن: النصوص العربية التي اكتشفت، ونشرت، ودرست منذ ذلك الوقت، لا تسمح بأن يُرى في دور هذا الراهب السوري غير الخيال الصرف.^(١١)

لو فرضنا أنه ﷺ تعلم من بحيرا وورقة أخبار السابقين، فماذا عن مئات الآيات التي نزلت بخصوص أحداث حصلت بعد وفاة بحيرا وورقة بزمان طويل، فعالجها القرآن في حينها، كسورة آل عمران التي تتعلق ثمانون آية منها بقدم

^١ - انظر؛ E. J. Brill's first Encyclopaedia of Islam, 1913-1936, BRILL, 1993, 2/577

^٢ - انظر؛ Richard James Horatio Gottheil, A Christian Bahira Legend, pp. 200-201

^٣ - لم يذكّر الزمن بدقّة عند حديثه عن مخطوطات النص السرياني، وإنما اكتفى بالقول: ((القرن الماضي))؛ ولما كانت النسخة التي أنقل عنها قد طبعت سنة ١٩٠٣م؛ فقد ذكرت أنّ (القرن الماضي) يعني القرن التاسع عشر.

^٤ - انظر المصدر السابق، ص ١٩٩-٢٠٠

^٥ - بهذا الرسم!

^٦ - ذكر أيضًا ((المهدي بن عايشة)) الذي يفسد في الأرض!! وهذا ما يؤكّد وجود ثقافة شيعية سائدة في المنطقة التي كتب فيها هذا النصّ.

^٧ - Sidney Griffith, The Church in the Shadow of the Mosque, Christians and Muslims in the World of Islam, N. J.: Princeton University Press, 2008, p.39

^٨ - المصدر السابق، ص ٣٨، وقد ذهب ((Armand Abel)) إلى أنّ هذه القصة تكشف عن خلفية تاريخية للكاتب تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع (انظر؛ Armand Abel, 'L'Apocalypse de Bahira et la notion islamique de Mahdi,' in Annuaire de L'Institut de Philologies et d'Histoire Orientales 3(1953) 1-12

^٩ - انظر في تحريفات الرهبان السريان - المتعلقة بالإسلام - للمخطوطات التي قاموا بنسخها، Michael Philip Penn, 'Monks, Manuscripts, and Muslims: Syriac textual changes in reaction to the rise of Islam,' in Hugoye: Journal of Syriac Studies, Vol. 12.2, 235-257

^{١٠} - كليمن هوارت: عمل أستاذًا في مدرسة اللغات الشرقية الحية، ومديرًا للدراسات في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس. عمل في خدمة الاستعمار الفرنسي للبلاد الإسلامية. ^{١١} Journal Asiatique, Juillet- aout, 1904, p.127

^{١١} - د. سامي العامري، مرجع سابق، ص ٣٩٨ - ٤٠٥

نصارى نجران، وستون آية أخرى بأحداث غزوة أحد، وسورة التوبة التي تحدثت عن أحداث تتعلق بغزوة تبوك، وسورة الأحزاب التي تناولت أيضا أحداث تلك الغزوة، ومثل هذا كثير لا يحفى.

ويلزم هنا التنبيه إلى أن لقيا النبي الراهب بحيرا إبان شببته ليس محل اتفاق المسلمين، فقد حسن رواية هذا الخبر بعض أهل العلم، وضعفها آخرون منهم^(١). وعلى فرض صحة الرواية وهي تحوي مشاكل كثيرة فماذا عساه يتعلم غلام يبلغ من العمر التاسعة أو الثانية عشرة في لقاء واحد من هذا الراهب النسطوري! لقد صدق توماس كارلايل: "لا أعرف ماذا أقول بشأن الراهب النسطوري (سرجيوس) الذي قيل إنه تحدث مع أبي طالب، كم من الممكن أن يكون أي راهب قد علم صبيا في مثل تلك السن، لكنني أعرف أن حديث الراهب النسطوري مبالغ فيه بشكل كبير، فقد كان عمر محمد ﷺ أربعة عشر عاما، ولم يعرف لغة غير لغته"^(٢)، وعلى فرض صحة رواية لقيا الراهب للنبي ﷺ يوصلنا إلى نتيجة أعرض عنها الطاعنون في القرآن، فقد قال الراهب الذي زعموا أن النبي ﷺ تعلم منه: (هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة)^(٣).

هذا ولم تنقل الروايات أن النبي ﷺ جلس إلى بحيرا يتعلم منه أخبار السابقين أو غيرهم، بل ذكرت أن بحيرا كان يسأل النبي عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره^(٤)، يستثبت فيها من كونه نبي آخر الزمان بما يعرفه من بشارات أهل الكتاب عنه^(٥) إنه من المحال في مجرى العادة أن يُتَمَّ إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتتقف؛ ليصبح أستاذ العالم كله، مجرد أنه لقي -مصادفةً واتفاقاً- راهباً من الرهبان، فقد كان هذا التلميذ مشغولاً عن التعليم بالتجارة، وكان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان صغيراً تابعاً لعمه في المرة الأولى، وكان حاملاً لأمانة ثقيلة في عنقه لا بد أن يؤديها في المرة الثانية، وهي أمانة العهد والإخلاص في مال خديجة وتجارها عندما سافر إلى الشام في المرة الثانية^(٦).

وأما ورقة بن نوفل الأسدي فلم تذكر كتب السيرة والسنة أن النبي لقيه إلا يوم نزل عليه الوحي في غار حراء، وكان شيخا كبيرا قد عمي، وتوفي بعدها، أي لم يدرك من القرآن إلا تنزل خمس آيات فقط، وقد قالت عائشة وهي تحكي قصة لقيا النبي ﷺ له بعد نزوله من غار حراء: ثم لم ينشب [يلبث] ورقة أن توفي^(٧)، ولو تأمل المنصف بقية القصة لرأى فيها دلائل نبوته ﷺ فقد شهد له بالنبوة هذا العالم من علماء أهل الكتاب، فقال: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك .. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرنا مؤزرا.

^١ - قصة لقيا النبي ﷺ بحيرا أخرجها الحاكم في مستدركه (٢/ ٦٧٢)، قال: صحيح على شرط الشيخين، فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: "أظنه موضوعا، فيعضه باطل"، وأخرجه الترمذي ح (٣٦٢٠)، وقال: "حسن غريب"، وأبو نعيم الأصفهاني في معرفة الصحابة ح (١٢٠٢)، والطبري في تاريخه (٢/ ٢٨٧)، ونقلها ابن هشام في تهذيبه للسيرة (١/ ١٨٠).

^٢ - الأبطال، توماس كارلايل، ص (٦١).

^٣ - أخرجه الترمذي ح (٣٦٢٠)، وقال: "حسن غريب".

^٤ - انظر: تهذيب سيرة ابن هشام (١/ ١٨٠).

^٥ - انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر (٦٦/ ٣١١).

^٦ - انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ٢/ ٣٢٦.

^٧ - أخرجه البخاري ح (٤)، ومسلم ح (١٦٠).

لقد عرف ورقة نبوة النبي ﷺ مما سمعه منه عن ظهور جبريل له في غار حراء، حين قال له: اقرأ فأجاب النبي ﷺ : «ما أنا بقارئ»^(١)، فهو مصداق ما يجده في صحف أهل الكتاب في سفر النبي إشعيا: "أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف القراءة" (إشعيا ٢٩ / ١٢).

فورقة العالم بالكتب السابقة يشهد للنبي ﷺ بالرسالة، ويتحسر على أيام فتوته، ويود لو قدر على نصرته هذا الحق الفتي، ولو كان هذا القرآن من تعليمه لكان له موقف آخر، وصدق الله: {ويقول الذين كفروا لست برسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} (الرعد: ٤٣)، لا يمكن أن تكون النصرانية هي المورد الذي كان محمد ﷺ يرتاده ليملاً منه صفحات كتابه؛ إذ لم تكن هناك معالم واضحة للنصرانية في جزيرة العرب، فقد كانت هناك أديان نصرانية مسقة في الضلالة إلى جانب الوثنيات المعروفة حتى قال Isaac Taylor^(٢) متحدثاً عن النصرانية التي كانت قبل بعثة محمد ﷺ وأثنائها: "إنَّ ما وجده محمد وخلفاؤه في جميع الاتجاهات، أينما مهدت لهم قوتهم طريقاً إلى أهلها، لا يعدو أن يكون خرافة مدقعة، ووثنية فاحشة ووقحة، ومذاهب كنسية متعجرفة، وممارسات كنسية منحلة وصبيانية حتى إنَّ العرب النبهاء قد شعروا أنهم مكلفون بإصلاح انحرافات العالم، كرسل من الله، لقد خرج ابن الأئمة^(٣) من صحرائه ليسخر من ابن الحرّة ويؤدبه."^(٤)

وتقول (الموسوعة الكاثوليكية الجديدة) (The New Catholic Encyclopaedia) أيضاً في هذا الشأن: "لم تُمسَّ الحجاز بالدعوة إلى النصرانية ولذلك فإنَّ مؤسسة الكنيسة المسيحية لا يتوقع أن تكون قد وُجدت كما أنها لم توجد هناك."^(٥) وقال بيل: "بالرغم من وجود تراث بلغ به الأمر أن زعم اكتشاف صورة لعيسى في أحد أعمدة الكعبة؛ فإنه لا توجد حجة قوية لأيِّ مكان للمسيحية في الحجاز أو في قرب مكة أو حتى المدينة."^(٦) لقد كانت أهم ثلاث (جماعات) تحمل لواء النصرانية العربية زمن ظهور الإسلام، هي:

(١) الغساسنة ومقرهم في الشام على مسافة بعيدة عن مكة. وكانوا قد هاجروا في القرن الثالث من اليمن إلى حوران في الشام. وقد كانوا يعيشون حالة من عدم الاستقرار، إبان البعثة النبوية، فقد هدم الفرس دولتهم سنة ٦١٤م/٦١٤م.^(٧)

(٢) أهل نجران في شمال اليمن، ولا يعرف لهم سلطان أدبي أو ديني على أهل مكة.

(٣) المناذرة، وقد عاشوا في الحيرة في العراق، وكان تنصرهم في آخر القرن السادس ميلادي.^(٨) كيف، إذن، صار لمكة اتصال بالثقافة الدينية النصرانية؟!

ويضيف الناقد آرثر فووبس حقيقة تاريخية هامة، في قوله: "نلاحظ أنَّ النصارى الذين يدخلون سلك رجال الدين في البلاد العربية يتحوّلون إلى الهلنستية ويتبنون اليونانية كلغة لهم، لا بدّ من الإقرار أيضاً أنّه - كما تشهد على

^١ - الحديث السابق .

^٢ - إسحاق تاليلور (١٧٨٧م-١٨٦٥م): فيلسوف ومؤرخ إنجليزي.

^٣ - ابن الأئمة: ابن ((هاجر))، في مقابل ابن الحرّة: ابن ((سارة))!

^٤ - Isaac Taylor, Ancient Christianity and the Doctrines of the Oxford Tracts, Philadelphia: Herman Hooker, 1840, 1/364-365

^٥ New Catholic Encyclopaedia, The Catholic University of America, Washington D C, 1967, 1/ 721-722 (Quoted by, Khâlid al-Khazrâjî and others, The Prophet's Wives Teaching the Bible?)

^٦ - Richard Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment, 1925; 1968, The Gunning Lectures - Edinburgh University, London: Frank Cass and Company Limited, p.42 (Quoted by, Khâlid al-Khazrâjî and others, Is The Bible Really The Source Of The Qur'ân?)

^٧ - انظر؛ Edmond Power, Studies: An Irish Quarterly Review, Vol. 2, No. 7 (Sep., 1913), p. 205

^٨ - انظر؛ Ifran Shahid, Byzantium and the Arabs in the Sixth Century, Washington: Dumbarton Oaks, 2002, 2/1/171

ذلك المخطوطات - في الأراضي الأبعد، جهة الشرق، احتلت اللهجة السريانية نفس المقام، متشعبة العنصر العربي.^(١) وهو ما يلغي الكيان اللغوي العربي النصراني الذي يمد لنفسه جذوره العقدية بلغة العرب.

كما يشهد التاريخ للمعرفة السطحية للنصارى في بلاد العرب بدينهم إذ لم تعرف لهم نشاطات دينية أو مساجلات لاهوتية أو أدوار واضحة أو بارزة في الصراع بين الفرق النصرانية، كما أنّ النصارى العرب بالإضافة إلى هامشيتهم في مجتمع الجزيرة الوثني، كانوا لا يملكون من علوم النصرانية ما يستوقف النظر؛ وفي هذا يقول المستشرق Dozy^(٢): "كانت هناك ثلاث ديانات تقتسم البلاد العربية في زمن محمد؛ اليهودية والمسيحية وشكل غامض من الوثنية. ربما كانت القبائل اليهودية هي فقط مخلصة لإيمانها ... لم يكن للمسيحية غير قلة من الأتباع العارفين بها؛ إذ إنّ جل المؤمنين بها، كانت معرفتهم بها سطحية جدًا."^(٣)

لم يكن بإمكان محمد ﷺ أن يطلع بصورة مباشرة على الكتاب المقدس لأميته الثابتة بالقرآن الكريم والسنة ولعدم وجود ترجمات عربية في حقبة وإلا فقد كان عالم ترجمات لغوية قطبية وآرامية وسريانية ويونانية ولاتينية، مع العلم أن تلك النصوص كانت محصورة في كنائسها لا يقرأها إلا كهنتها وهم من يفسرونها ويشرحونها ويؤولونها .

الاحتمال الثاني في الميزان: وهو أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد درس التوراة والإنجيل على يد علماء أهل الكتاب، بعد إعلانه نبوته، وهو احتمال مردود سواء في العهد المكي أو في العهد المدني:

في العهد المكي

١ - كان أهل الكتاب في ذاك الزمن قد عرفوا أنهم يحتكرون علومهم بينهم؛ فلا يبدون إلا القليل، مع تقديم صورة عن دينهم غير التي تضمها أسفارهم، { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا } (الأنعام: ٩١) ، { وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } (آل عمران: ٨٧) ٢ - لم تعرف مكة طائفة يهودية، ويشهد على ذلك ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: "قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم. فصامه وأمر بصيامه."^(٤) فالاحتكاك بطائفة اليهود كان في المدينة لا في مكة.

٣ - لا نجد لقاء فعليًا بين محمد صلى الله عليه وسلم وأحد علماء أهل الكتاب في العهد المكي سوى لقاءه بورقة بن نوفل وقد علمت أنه لقاء خاطف يستحيل عقلاً أن يترتب عليه كل ما جاء به خاتم النبيين.

٤ - سيطر الجو الوثني على البيئة المكية فلا يوجد فيها جدل ديني بين اليهود والنصارى أو بين أحدهما والوثنيين، كما أنّ علوم أهل الكتاب لم تكن متاحة للعامة ولا للخاصة.

٥ - لم تعرف مكة نشاطًا تنصيريًا، ولم يكن للنصارى فيها وجود ظاهر، وحتى لما ألف لولنج مؤخرًا بحثه حول النصرانية في مكة، وكتابه الآخر Die Wiederentdeckung des Propheten Muhammad "Eine Kritik am christlichen" - ١٩٨١م - لم يذكر شخصية نصرانية واحدة في مكة!! والحقيقة هي أنّ

^١ - Arthur Vööbus, Early Versions of the New Testament : Manuscript Studies, p. 275

^٢ - رنهارت دورى (١٨٢٠م-١٨٨٣م): مستشرق هولندي. كان له اهتمام بالدراسات اللغوية وعناية بتاريخ الأندلس المسلمة.

^٣ - Reinhart Dozy, Spanish Islam: a history of the muslims in Spain, tr. Francis Griffin Stokes, London: Chatto & Windus, 1913 , p.13

^٤ - رواه البخاري، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، ح/٢٠٠٤ ، ومسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، ح/١١٣٠

من قيل إنهم نصارى في مكة من معاصري الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتعدى أمرهم ثلاثة: (ورقة بن نوفل)، و(عبيد الله بن جحش) و(عثمان بن الحويرث)^(١) .. ومن أهم ما لوحظ في أمر هؤلاء أنهم:

○ كانوا الجيل الأول من النصارى، وليس يفترض في الجيل الأول أن يكون مؤثراً، خاصة إذا لم تكن الدعوة لهذا الدين تشغلهم أصلاً، ولم يكونوا من كبرائه.

○ كانوا يعيشون في معزل عن بعض؛ فلم يعرف لهم تجمع، ولم يبنوا كنيسة توخدهم.

○ قصص تنصّرهم مختلفة ومتباعدة مكاناً؛ بما يرجح الظن أنهم كانوا على مذاهب نصرانية مختلفة.

○ لا يعرف لأعيانهم أثر في الثقافة الدينية لأهل مكة.^(٢)

○ ورقة بن نوفل قد عرفت صلته بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهي عارضة إذ لا تتجاوز لقاءً واحداً قصيراً!

○ عبيد الله بن جحش أسلم، ثم هاجر إلى الحبشة، وهناك قيل إنه قد تنصّر، والخبر في تنصّره لا يثبت من طريق خال من العلل عند المحدثين^(٣)، ففي ثبوته نظر، وعلى فرض صحته فإنه لا يثبت في هذا الباب شيئاً؛ لأنه لا دليل فيه على أنّ عبيد الله بن جحش قد علّم الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا ادعى عبيد ذلك، وهو ما لم يدّعه أيضاً أهل مكة!

○ أما عثمان بن الحويرث فقد تنصّر وغادر مكة إلى الشام حيث أقام، وفيها مات، وكانت وفاته قبل البعثة بثلاث سنوات أو نحوها.^(٤)

أما في العهد المدني:

يمثل العهد المدني بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم انتقالاً من بيئة جاهلة إلى بيئة تضم طائفة منظمة دينياً لها كتابها المقدس؛ وهي طائفة يهود المدينة؛ وهو ما يدفعنا إلى إبداء هذا التساؤل: هل من الممكن أن يكون أتباع التوراة هم الذين أطلعوا محمداً على ما تضمنته كتبهم المقدسة؟ الإجابة ستكون قطعاً بالسلب؛ لأسباب عدة من أهمها:

١- لم ينزل من القرآن في العهد المدني غير ٢٨ سورة بعد أن نزل بمكة قبل الهجرة ٨٦ سورة.

٢- أهم نقاط التشابه بين القرآن الكريم والكتاب المقدس كما يصرّ على ذلك المشكّكون قصص الأنبياء، ولو أننا تأملنا في النص القرآني لوجدنا أن السور المكية هي التي تعرض أطول قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة.^(٥) ولم تترك للسور المدنية سوى فرصة استخلاص الدروس منها، وغالباً في تلميحات موجزة.

٣- توبيخ القرآن لليهود في العهدين المكي والمدني وتقريعه لهم يجعل القول إنّ محمداً صلى الله عليه وسلم قد تعلّم على يد أبحار اليهود في المدينة أمراً مرفوضاً ببداهة العقل: في العهد المكي: {تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَهُمْ يَوَاسِيهِمْ يَوْمَئِذٍ وَهُمْ عَلَيْهٖ يَوْمَئِذٍ لَّيْمٌ} (النحل: ٦٣) .

^١ - انظر؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢٥١/١-٢٦٢

^٢ - انظر؛ Ghada Osman, 'Pre-Islamic Arab Converts to Christianity in Mecca and Medina: An Investigation into the Arabic Sources,' in Muslim World, 00274909, Jan2005, Vol. 95, Issue 1

^٣ - انظر؛ محمد بن عبد الله العوشن، تحقيق دعوى ردة عبيد الله بن جحش، مجلة البيان، السنة السابعة عشرة، العدد ١٨٢، شوال ١٤٢٣ هـ، ديسمبر ٢٠٠٢ م

^٤ - انظر؛ ابن كثير، البداية والنهاية، دار لإحياء التراث العربي، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م، ٣٠٢/٢

^٥ - حتى نرشد القارئ في هذا الشأن نوضح الآيات المكية التي عنت بهذا القصص: سورة الأعراف عن آدم ١١-٢٥، وموسى ١٠٢-١٧٦، سورة يونس عن موسى ٧٥-٩٢، وسورة هود عن نوح ٢٥-٤٩، وإبراهيم ولوط ٦٩-٨٢، وسورة يوسف عن يوسف، وسورة الحجر عن آدم وإبراهيم ولوط ٢٦-٧٧، وسورة الإسراء عن بني إسرائيل ٤-٨، وسورة الكهف عن أهل الكهف ٩-٢٥، وموسى ٦٠-٨٢، وسورة مريم عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى... الخ ١-٣٣، وسورة طه عن موسى ٩-٩٨، وسورة الأنبياء عن إبراهيم ٥١-٧٠، وداود وسليمان ٧٨-٨٢، وسورة الشعراء عن موسى وإبراهيم ونوح... الخ ١٠-١٨٩، وسورة النمل عن موسى وداود وسليمان ٧-٤٤، وسورة القصص عن موسى ٣-٤٣، وقارون ٧٦-٨٢، وسورة العنكبوت عن نوح وإبراهيم ولوط ١٤-٣٥، وسورة سبأ عن داود وسليمان ١٠-١٤، وسورة ص عن داود وسليمان وداود وأيوب ١٧-٤٤، وسورة الذاريات عن إبراهيم ٢٤-٣٧. (عن محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ت/ محمد عبد العظيم علي، الكويت: دار القلم، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م، ص ١٥٦).

في العهد المدني: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (الجمعة: ٥)،

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ
أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة: ٧٩-٨٠)، {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِقْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ
تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَإِذَا دُفِيَ إِلَيْكَ فَأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران: ٧٥).

{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرُفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة: ٧٥).

٤- يتحدث القرآن الكريم بلسان الأستاذ لا بلسان التلميذ، فهو يوبخ أهل الكتاب على جهالاتهم، ويكشف
خرافاتهم، ويفند مغالطاتهم: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ} (آل عمران: ٦٥)،

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة: ١٤٠).
{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ
فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (آل عمران: ٩٣).

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَئِنْ دُنِيَ
مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ
أُطْفِئَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (المائدة: ٦٤).
{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ} (المائدة: ١٨)
{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ...} (المائدة: ١٧).
{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (المائدة: ٧٣).

٥- لو أن محمدًا ﷺ كان قد تتلمذ على يد أحبار اليهود؛ لاستغل ذلك أتباع التوراة في حرهم ضده، وضد دعوته
الوليدة، ولأعلنوا للعالم اسم معلمه، وموطنه، ولطلبوا من هذا المعلم أن يعلن هذه الحقيقة.. ولقالوا .. ولفعلوا !

٦- آمن بنبوة الرسول أعلام من أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة، تدليلاً على أن
الإسلام بقرآنه وعقائده من عند الله سبحانه لا من لسان محمد ﷺ: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ
وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}
(القصص: ٥٢)، {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (آل عمران: ١٩٩).

{لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ
الرَّكَاتَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء: ١٦٢).

{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} (الإسراء: ١٠٧)

{وَيُحْزِنُونَ لِأَدْقَانٍ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} (الاسراء: ١٠٩)، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} (العنكبوت: ٤٧).
 {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} (الرعد: ٣٦).
 {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيَّسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} (المائدة: ٨٢).
 {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (الأحقاف: ١٠).

الاحتمال الثالث في الميزان: هو أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد درس التوراة والإنجيل على يد العرب أهل مكة، وهو احتمال لا يُعرف له صاحب يتبناه، ولا يصمد أمام اعتراضات كثيرة؛ من أهمها:

١- أهل مكة (أمة أمية) وهم أجهل من أن يمتلكوا الحقائق التي تعرض أو تنقض ما عند أهل الكتاب في أسفارهم المقدسة.

٢- رغم أنه من الممكن أن يكون أهل مكة مطلعين على بعض قصص أنبياء السابقين، إلا أن هذا الاطلاع لا يمكن أن يكون قد تجاوز مرتبة أخبار العامة كالأسماء والأماكن دون التنقيص على التفاصيل الدقيقة التي إن حاولوا ذكرها فسيتورطون في ذكر أساطير مسرفة في الخيال.^(١)

٣- عدم اهتمام العرب بقصص الكتاب المقدس، وذلك لأسباب؛ أهمها عدم وجود الموضوعات الدينية في أدبهم، ونادرة المعتنقين الجدد، وتشنتهم .. هذا بالإضافة إلى عدم شغفهم بالقصص الديني.^(٢)

٤ -احتج القرآن لصالح ربايته بقصص الأنبياء والأمم الغابرة التي ذكرها: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ قُضِيَنا إِلَى مُوسَى الْأَمْرِ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} (القصص: ٤٤-٤٥)، {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود: ٤٩)، {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} (آل عمران: ٤٤)، لو أن هذا القصص كان معلوماً عند العرب، لما استدل القرآن على ربايته بما رواه عن الأنبياء السابقين؛ إذ كيف يستدل الكتاب بما يعلمه العرب لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

٤ - التفاصيل الكثيرة والدقيقة التي وافق فيها القرآن الكريم أسفار أهل الكتاب لا يمكن أن تنتقل إلى محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق أمة من الناس لا تعرف عن أهل الكتاب إلا مجموعة عناوين عامة.

ولعلنا نوضح هذه المسألة بمثالين صارخين:

١. إيليا والبعل: قال تعالى: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} [الصافات: ١٢٣] هذا النص هو حديث واضح جلي عن قصة (إيليا) النبي التي وردت أيضاً في الكتاب المقدس، علماً أن الاسم إيليا إيليها هو العبري يكتب في اليونانية إيلياس، ويسمى النصراني العرب في الشام الكثير من الأماكن الأثرية والدينية التي ترتبط بهذا النبي بأديرة (إيلياس) أو كنيسة (إيلياس). ويخبرنا

^١ - اهتم النابغة الذبياني في شعره بتاريخ الملك سليمان.. مما يعني أن عالم البذخ والثراء كان هو الذي يجلب اهتمامهم، ومعلوم أن الحديث عن بذخ السابقين يعني قصصاً أسطورية الغاية من عرضها استحلاب انتباه الناس من الدهماء (محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٤٥).

^٢ - يبرز ذلك من خلال ما قام به النضر بن الحارث عندما أراد منافسة القصص القرآن، فقد شرع يقص على مستمعيه أساطير ملوك فارس القدامى، ومغامرات أباطها مثل رستم واسفندار (محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٤٥)..

الكتاب المقدس أنّ إيليا كان ينهى قومه عن عبادة الإله بعل بعد أن أدخل اليهود عبادته ضمن شعائهم بسبب أنّ زوجة آخاب الملك الإسرائيلي كانت تعبد البعل.^(١) والنظر في التفاسير، خاصة المبكرة منها -وهي التي تعنينا في هذا المقام-، يرى أنّها مضطربة بصورة كبيرة في تعريف كلمة بعل، وعامة المفسرين على أنّ المقصود ب(بعل) في الآية هو الرب باعتبار أنّ أهم معاني هذه الكلمة في اللغة: الرب والسيد قال ابن كثير: "قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: بعلًا، يعني: ربًا"^(٢)، كما لم تذكر التفاسير عن أحد من المفسرين الأوائل مطابقة اسم (إلياس) القرآني لإيليا في الكتاب المقدس، على خلاف عادة المفسرين في الإشارة دومًا إلى المقابل الكتابي، سواء ورد في الكتاب المقدس أو في التلمود أو في المدرشات، والأغرب أنّ كثيرًا من المفسرين الأولين في القرون الأولى بعد البعثة النبوية، ومنهم الصحابة رضوان الله عليهم، قد ذهبوا إلى أنّ إلياس هو إدريس، رغم أنّ القرآن الكريم ليس من عادته أن يعطي للنبي الواحد اسمين متباعدين لفظًا، كما أنّ الكتاب المقدس لا يذكر نبيًا باسم (إدريس)، بالإضافة إلى أنه من الراجح -عند عدد من الدارسين- أنّ (إدريس) القرآني عليه السلام، هو (أخنوخ) في أسفار أهل الكتاب!! ولا تذكر التفاسير عن أحد من المتقدمين فهمًا للإحالة الدقيقة الواردة في القرآن الكريم، غير وهب بن المنبّه^(٣) الذي كان يهوديًا أصلًا من قبل! فكيف يظن أحد بعد ما سبق ذكره أنّ الجزيرة العربية كانت توقّر لمحمد صلّى الله عليه وسلّم معرفة كتابيّة؟! قبل!

٢. إحالة حرفيّة إلى الزبور: بلغ من أمر القرآن الكريم في دقته أن يحيل إلى سفر معيّن من الكتاب المقدس وينقل عنه نصّه حرفيًا، وهو ما لا نعرف له نظيرًا البتّة بين عرب الجاهليّة الوثنيين؛ فقد جاء في سورة الأنبياء، الآية ١٠٥: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}، وهو عين ما جاء حرفيًا في المزمور (الزبور) ٣٧، العدد ٢٩: ومن الطريف هنا أنّ الإمام الطبري قد ذكر اختلاف علماء الصدر الأول في تفسير هذه الآية، ونقل عن جلّهم أنّ الزبور هو غير كتاب داود عليه السلام! بل ورجّح الطبري نفسه أنّ معنى الزبور هنا هو الكتاب لا مزامير داود^(٤) رغم أنّ النص القرآني صريح في أنّ الزبور هو كتاب داود عليه السلام {وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النساء: ٦٣]!!! وفي ذلك دلالة على العسر الشديد الذي كان في ذاك الزمان في التعرّف على الكتب المقدسة لأهل الكتاب.

فنقول: إذا لم يهتد العلماء المسلمون^(٥) في زمن انتشار المعارف الكتابيّة ووجود أهل الكتاب بين أظهرهم يسألونهم، إلى موضع هذه الجزئيّة الصغيرة في الكتاب المقدس؛ فكيف يهتدي إليها ولأعمق منها وأدق، محمد صلّى الله عليه وسلّم الأمي الذي عاش في بيئة لا تعرف المعارف الكتابيّة.. إلّا أن يكون هو الوحي!!؟

الاحتمال الرابع في الميزان: بعد أن أثبتنا أن محمدًا قد درس التوراة والإنجيل عند علماء أهل الكتاب من محالات التاريخ، فإنه يغدو من السذاجة أن ننسب شرف هذا التعليم إلى حدّاد رومي كما ادعاه بعض معاصري النبي لعدة أسباب من أهمها:

١ -الجبر حدّاد رومي نصراني يقرأ ويكتب.. لكنه عامي الفؤاد لا يعلم الكتاب إلّا أمانيًا، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ﷺ ولا أحد من قومه، فهل من الممكن أن يكون هذا الأعجمي العامي

^١ -انظر؛ ١ ملوك ١٦ و١٧ و١٨

^٢ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٩٧٩/٤

^٣ - وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنمًا يقال له: بعل، فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله عليهم، فحس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوهم أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم، فجاءهم الغيث (...)) (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٩٧٩/٤)

^٤ - انظر؛ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٩٨/٩

^٥ - حتّى من قال إنّ الإحالة في الآية هي إلى مزامير داود، لم يظهر أنه يعرف موضعها فيها، وإنّما التزم المعنى الظاهر للآية؛ ولذلك ظلّ الخلاف بين المفسّرين في فهم معنى زبورًا دون أن يباحث معه انطباق نص مزبور ٢٩/٣٧ على الآية القرآنيّة.

أستاذًا لمحمد ﷺ الذي كشف كتابه الأسرار الدقيقة في الديانتين اليهودية والنصرانية، كما كشف ما يخفي أهل الكتاب من حقائق عن الناس؟! هل من الممكن أن يكون للجهل فضل على العلم؟! هل كان هذا الحداد إلا فتى عاميًا؟! بل هل تُرى العامة من النصارى في عصرنا يعلمون ما تضمنه أسفارهم المقدسة من عقائد وقصص؟! إذا كانت الإجابة بالنفي -وهي واقعًا كذلك- فهل يجوز أن ننسب العلم إلى نصراني من العامة في القرن السابع الميلادي؟! هل يجوز أن ننسب كل هذا العلم الواسع إلى مثل هذا الفتى؟!^(١)

٢- لو كان الجبر هو معلّم محمد صَلَّى الله عليه وسلّم لما تواني عن إعلان ذلك أمام الملأ من قريش؛ لأنه سيضمن بذلك حظوة لدى أعداء هذا النبي الذي بدأ يهدد تزايد عدد أتباعه مصالح المنتفعين من هذه القبيلة العربية، والذي فكّر من حادّوه في قتله لعجزهم عن إيجاد وسيلة ناجعة لوأد دعوته أو وقف تمددها.

٣- يجب أن ندرك أن مقالة المشركين: {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} [النحل: ١٠٣]، لم ترد لأن هؤلاء القوم كانوا يعتقدون أن هذا الفتى الرومي هو الذي لقّن محمدًا صَلَّى الله عليه وسلّم ما يدعوه إليه، وإنما قد فاه المشركون بهذه المقالة، لعلمهم أنّ ما أتى به محمد ﷺ، خاصة ما تعلّق بقصص أنبياء السابقين وتاريخ الأمم الغابرة، لا يمكن أن يكون من عند عربي أمي؛ إن محمدًا صَلَّى الله عليه وسلّم قد تلقى هذه الأخبار من عند من هو عليم بأمر تلك الأمم، وإذا علمنا أن المشركين كانوا ينكرون نبوة محمد فإنه لا مفر للقوم من أن ينسبوا شرف تعليم هذا الرجل إلى من حاز علمًا بتلك الأخبار، ولا أقرب إلى فكر المعاند من علماء أهل الكتاب، ولكن أئىّ لهم ذاك، وليس في مكّة علماء، فلم يعد عند أهل مكّة من سبيل لتمرير الفرية غير نسبة هذا العلم والتعليم إلى غلام نصراني اجتمع فيه شرطاهم (أ) أن يكون من سكان مكّة حتى يقال إنه كان يلاقي محمدًا ويملي عليه بكرة وأصيلًا (ب) أن يكون من غير جلدتهم وملّتهم لينسبوا إليه من العلم ما لا يعلمون، بل وما لا يعلم؟!.. وقد كان! فهو إذن اضطرار من القوم لا اختيار!^(٢)

٤- أهل المستشرقون هذا الوجه من الاعتراض، ولم يلقوا له بالألّا، لعظم ثقافته. ولم يكن لمثلهم أن يستدبر هذه الفرية لو كانت تحتل من الصواب أو الإمكان بعض بعضه!^(٣).

^١ - انظر؛ محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، الكويت: دار القلم، ص ٦٣-٦٦

^٢ - انظر؛ محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص ٦٤

^٣ - د. سامي العامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ ونحته عنوان جانبي (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم). ص: ٣٩٧-٤٢٥.

ثانياً: اختلاف أصول الإيمان بين القرآن والكتاب المقدس.

الكتب التي ينزلها الله يتوقع قارئها جميعاً أن تركز على حقائق الإيمان الرئيسية كالتعريف بالله وأنبيائه وملائكته وكيفية عبادته، ومن البديهي أن تتطابق هذه الكتب، لوحدة مصدرها، فالنبي ﷺ لم يكن بدعاً عن إخوانه الأنبياء {ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين} (الزمر: ٦٥ - ٦٦)، فهذه حقائق أطبق الأنبياء على ذكرها، ولا يتصور خلو دعوة نبي منها، فالتشابه بينها لازم لها، وهو دليل وحدة أصلها، وأما الاختلاف بينها في التعريف بهذه الحقائق فذاك دليل تحريف بعضها، وأنه ليس من عند الله تعالى.

والسؤال: هل يتشابه القرآن مع الكتاب المقدس فيما يتعلق بحقائق الإيمان؟

للإجابة عن هذا السؤال نعرض أهم مسألة من مسائل الإيمان، مسألة التعريف بالله وصفاته، ليقيس القارئ الشاهد على الغائب.

وفي التعريف بالله وصفاته يتشابه الكتابان (القرآن والكتاب المقدس) بقدر ما يحويه الكتاب المقدس من الحق، ويفترقان بقدر ما تحويه هذه الكتب من الشوائب والتحريف بسبب التدخل البشري فيها، ولا ريب أن في الكتاب المقدس اليوم مجموعة من النصوص التي تعظم الله وتتحدث عن وحدانيته، فأصول هذه الكتب من عند الله، وهذه الحقائق الإيمانية الصحيحة بقايا آثار الأنبياء في هذا الكتاب، فتطابق القرآن معها دليل على وحدة المصدر، وهو الله عز وجل، ولا يعني بالضرورة أن القرآن نقل منها؛ إذ التشابه لا يدل بالضرورة على النقل، فقد تطابق الإنجيليون الأربعة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) في الكثير من نصوصهم مع أسفار العهد القديم، ولم يزعم أحد من مثياري الأباطيل عن القرآن أنهم كانوا ينقلون من العهد القديم أو من بعضهم البعض.

وإزاء بعض التطابق بين القرآن والكتاب المقدس في بعض المعاني فإنه يمكن للمتابع رصد الكثير من التفاصيل المختلفة بين الكتابين، وهو ما يحيل أن يكون أحدهما مصدراً للآخر، فالله - بحسب القرآن الكريم - إله عظيم بائن من خلقه، مستو على عرشه استواء يليق بجلاله، لا ندرك كنه ذاته ولا كيفية صفاته {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} (الشورى: ١١)، بينما هو بحسب الكتاب المقدس إله يخالط مخلوقاته، فيتجسد في صور بشرية، وينزل إلى الأرض، ويمشي فيها "هو ذا الرب يخرج من مكانه، وينزل ويمشي على شوامخ الأرض" (مicha ١/٣)، ويركب على الملائكة الكروبيم في تنقلاته "طأ طأ السماوات ونزل، وضباب تحت رجله، ركب على كروب، وطار، ورئي على أجنحة الريح ... " صموئيل (٢) ٢٢ / ١٠ - ١١)، وقد نزل مرة إلى باب خيمة الاجتماع، فكلم موسى وجهاً لوجه "ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه" (الخروج ٣٣ / ١١).

وإذا كان الله عز وجل منزهاً - بحسب القرآن - عن الطعام والشراب والنقائص فإن الكتاب المقدس يزعم أن الرب زار إبراهيم وأكل عنده بعض اللحم مع اللبن (انظر التكوين ١٨ / ٨). وإذا كان القرآن ينزه الله سبحانه وتعالى عن الشبيه والمثيل {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} (الشورى: ١١)، {ولم يكن له كفواً أحد} (الإخلاص: ٣)، فإنه في الكتاب المقدس أشبه ما يكون بالإنسان الذي خلقه مشابهاً له "وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" (التكوين ١ / ٢٦).

ووصفه سفر دانيال بصفات الإنسان الجسدية، ف شعر رأسه أبيض وملابسه كذلك بيضاء "وجلس القديم الأيام، لباسه أبيض كالثلج، شعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لبيب نار" (دانيال ٧ / ٩)، وله عيان وأجفان (انظر المزمور ١١ / ٤)، وله شفتان ولسان (انظر إشعيا ٣٠ / ٢٧ - ٢٨)، وله رجلان رآهما بنو إسرائيل (انظر الخروج ٢٤ / ٩)،

وأيضاً له فم وأنف يخرج منهما دخان ونار "صعد دخان من أنفه، ونار من فمه" (المزمور ١٨ / ٩). وقد مشى في الجنة، حتى سمع آدم وحواء وقع خطواته: "وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار" (التكوين ٣ / ٨).

والله بحسب القرآن لا يرى في الدنيا {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير} (الأنعام: ١٠٣)، وهذا خلاف المفهوم التوراتي الذي يزعم أن موسى رآه وجها لوجه (انظر الخروج ٣٣ / ١١)، كما رآه يعقوب حين صارعه بعد أن عبر وادي ييوق، فسمى المكان "فينئيل"، وهي كلمة عبرانية معناها (وجه الله) "قائلا: لأني نظرت الله وجها لوجه، ونجيت نفسي" (التكوين ٣٢ / ٣٠).

وإذا كان الله تعالى يصف نفسه في القرآن بأنه على كل شيء قدير؛ فإن سفر التكوين وهو أحد أسفار الكتاب المقدس الذي زعموا أن القرآن منحول منه يزعم في قصة يعقوب السابقة أن الله هزم في مصارعته ليعقوب، وكذلك فإن سفر القضاة يذكر أن الرب عجز عن نصر بني إسرائيل على بعض أعدائهم، لأن لهم مركبات من حديد (انظر القضاة ١ / ١٩). وهكذا، فإن هذا وغيره يثبت التباين الكبير في أهم مسألة كان يفترض أن ينقلها النبي ﷺ من الكتاب المقدس لو كان هو مصدره في التعرف على الله تبارك وتعالى، لكن القرآن الموحى به إلى النبي ﷺ خالف الكتاب في هذه المسائل وغيرها، لأنه وحي الله تبارك وتعالى.^(١)

إن أصول الإيمان في القرآن وكتب العهدين متباينة تباينا واضحا تنهوى معها كل محاولة للقول بتأثير وتأثر بين

سابق ولاحق

فالألوهية: الإله في العهد القديم عنصري قبلي ذو صفات بشرية متلبس بالصفات البشرية الجسمانية التي يتجلى بها لخلقه^(٢) .. وتحتاحه في الكثير من المواقف، الانفعالات الناتجة تأثراً بالمواقف الطارئة، وكأنه لا يعلم من الغيب شيئاً^(٣) .. وإذا حمي غضبه ضرب بسوط العقاب المذنب والبريء^(٤) .. وهو يعاقب الأبناء حتى الجيل الرابع بإثم آبائهم^(٥) .. ويمتد أذاه إذا احتد غضبه إلى قتل الأطفال والرضع والبهائم^(٦) .. ويكثر من طلب الخوف من جبروته على حساب رحمته!^(٧)، وهو يدور في فلك هوى اليهود؛ إذا رضي عنهم، أباد لأجلهم الشعوب^(٨) .. وإذا غضب عليهم؛ شتمهم بأفدع الألفاظ الغارقة في الحمأة الجنسية، كاتهامهم بأنهم أشبه بالمرأة العاهرة، وأنهم يزنون مع الأصنام ..^(٩) إن هذا الإله، لهو أشبه بشيخ قبيلة يبحث لأبنائه عن عزّ الدنيا^(١٠)، فإذا خالفوا طريقه واستدبروا أحكامه، أظهر الغضب الشديد، وجلدهم بسوط التقرير والتأنيب، وهو في ذلك كله متيّم بهم، يتماهى فيهم!

^١ - د. منقذ السقار، تنزيه القرآن عن مطاعن الرهبان، مرجع سابق.

^٢ - انظر: تكوين ١١/٥، ١١/١٧، ٢٢/١٧، ١١/١٨، ٢٣-٢١/١٨، ٢/٢٦، ٢٤/٢٦، ٢٤-٧/٣٥، خروج ٢٤/٩-١١، ١١-٩/٣٣.

^٣ - انظر: ٢ صموئيل ١٦/٢٤

^٤ - انظر: هوشع ١٦/١٣

^٥ - انظر: الخروج ٧/٣٤

^٦ - انظر: ١ صموئيل ٣/١٥

^٧ - انظر: لاويين ١٧/٢٥، تثنية ١٠/٤، ٢/٦، ١٣، ٢٤، ١٢/١٠، ٢٣/١٤، ٦٨/٢٨، ١٢/٣١، ١٣، يشوع ١٤/٢٤، ١ صموئيل ١٤/١٢، ٢٤، ٢ ملوك ١٧/٣٩، ١ أخبار الأيام ١٦/٢٥، نحميا ٩/٥، أيوب ٢٨/٢٨، مزمور ٩/١٩، ١٤/٢٥، ٨/٣٣، ١٨، ٩/٣٤، ٩/٩٦، ١٧/١٠٣، ١٠/١١١، ١١/١١٢، ١٣/١١٥، ١١/١٤٧، ١١/١٢٨، ٧/١، ٢/١٤، ٤/٢٢، ٢١/٢٤، الجامعة ٥-٧، ١٣/١٢، إشعياء ١٣/٨، إرميا ٢٢/٥، هوشع ٥/٣، ملاخي ٤/٢-٥ .. وقد جاء أيضاً أمر الخوف من الرب في العهد الجديد، ولكن بصورة أقل كثافة: متى ٢٨/١٠-لوقا ١٢/٥، لوقا ١٠/١، ٥٠/١، الرسالة إلى روما ١٠/٣-١٨، ٢ كورنثوس ١٧/٧، الرسالة إلى أفسس ٢١/٥، الرسالة إلى كولوسي ٢٢/٣، الرسالة إلى العبرانيين ٣١/١٠، بطرس ١٧/٢، الرؤيا ١٤/٧، ٤/١٥.

^٨ - انظر حروب ((يشوع)) في سفر يشوع

^٩ - انظر مثلاً الكلام الشنيع في حزقيال ١٨-١٧/٢٣

^{١٠} - انظر في هذا الوصف: Paul Tice, Jumpin' Jehovah: Exposing the Atrocities of the Old Testament God, CA: Book Tree, 2007, p7

يبدو هذا الإله ككائن صدامي كثير النزاع مع خلقه، كأثم له أقران وأضداد؛ فهو يمنع آدم من الأكل من شجرة معرفة الخير والشر؛ لئلا يشاركه هذا العلم^(١) .. ويخشى من أن يجتمع البشر ويتحدوا؛ فيضطرّ إلى بلبله ألسنتهم حتى لا تتفق لهم كلمة ضده^(٢) .. وهو عاجز عن نصرته من يريد؛ لأن الأعداء لهم مراكب حديدية^(٣) .. ويخشى من أعداء بني إسرائيل؛ فينزل ليشجع الإسرائيليين وينصرهم!^(٤)

كما يصوّر الكتاب المقدس هذا الإله في صورة الخصم المشاكس للشيطان، فهما يتنازعا ويتدافعا تدافع الأقران، حتى إنّ الشيطان يشكّك الربّ في حكمته، ويحاول إقناعه أنّه مخدوع في أيوب، ويدخله في اختبار قاس ليقتنع بسداجة حكمة على عبده الذي يدّعي الصلاح (!): أيوب!^(٥)

ويظهر هذا الإله نوعاً غريباً من الدمويّة التي ترفضها البدهة البشرية؛ فقد قتل ٥٠ ألف بشر، لمجرّد أنهم قد نظروا إلى ما في داخل التابوت^(٦) .. وتطغى عليه المزاجيّة حتى إنّ نبيّه (موسى) يضيق صدرًا بذلك، عبده إبراهيم^(٧) .. وينزل إلى الأرض ليعلم ما غاب عنه وهو في السماء^(٨) .. ويبحث عن آدم المختفي في الجنة^(٩) .. ويغلب عليه ضعفه حتى إنّّه قد هُزم في جولة مصارعة مع عبده يعقوب!!^(١٠)

ويكثر تشبيه هذا الإله بالحيوانات والحشرات^(١١)، والجمادات الوضيعة قدرًا^(١٢)، والكائنات الخرافية التي يخرج من فمها النار ومن أنفها الدخان^(١٣)...

هذا هو الإله في العهد القديم الذي يؤمن به اليهود والنصارى، أما صورة المعبود في العهد الجديد—كما هو في فهم الكنيسة منذ ما قبل البعثة النبوية المباركة—فلا تقل فظاعة وإن كانت من نوع آخر.. فهي تزعم أن الله سبحانه قد حلّ في جسد يسوع، متلبسًا بجميع الأعراض البشرية؛ من تبوّل وتغوّط وتمخّط!

وتضيف الكنيسة أنّ أسفار العهد الجديد تعلن أن الإله الابن قد بصق عليه اليهود، وصفعه الحراس^(١٤)، وأشبع شتمًا واستهزاءً من الجنود الرومان!!^(١٥) وعزّي تمامًا، وألبس بعد ذلك لباسًا مهينًا^(١٦)، ووضع على رأسه تاج من شوك تحقيرًا!!^(١٧) ثم صلب بين لصين وضيعين!^(١٨)، لقد ادعت الكنيسة أن عيسى إله^(١٩) .. ثم رمت هذا الإله بالعجز والوهن،^(٢٠) زاعمة أنّ ذلك باختياره، بل عن رغبة منه!

^١ - انظر؛ تكوين ١٧/٢

^٢ - انظر؛ تكوين ١١/١ - ٩

^٣ - انظر؛ القضاة ١٩/١

^٤ - انظر؛ تثنية ١٢/٢٣ - ١٤

^٥ - انظر؛ قصّة ((أيوب)) النبي في سفر أيوب، من ٩/١

^٦ - انظر؛ ١ صموئيل ١٩/٦، من الطيف هنا ما قامت به ترجمة ((كتاب الحياة)) -متابعة للكثير من التراجم الأخرى، بلا حجة نصيّة- إذ حذفت من النص العربي ما جاء في الأصل العربي ((חַמְשִׁים אֶלֶף)) ((خمسين ألفًا))؛ ليكون الانتقام الإلهي واقعًا على سبعين رجل فقط، رغم شهادة النص العربي ((חַמְשִׁים אֶלֶף))، والترجمة السبعينية اليونانية ((πεντήκοντα χιλιάδας))، وترجم يونانان الآرامي ((חמשיין אלפיין))، والفولجات اللاتينية ((quingenta millia)) لرقم (خمسين ألف)!!!

^٧ - انظر؛ تكوين ١٨/٨

^٨ - انظر؛ تكوين ١٨/٢١

^٩ - انظر؛ التكوين ٣/٩

^{١٠} - انظر؛ التكوين ٣٢/٢٤ - ٣٢

^{١١} - انظر؛ هوشع ١٢/٥، ٧/١٣، مراثي إرمياء ١٠/٣

^{١٢} - انظر؛ عاموس ١٣/٢

^{١٣} - انظر؛ ٢ صموئيل ٩/٢٢

^{١٤} - انظر؛ متى ٢٦/٢٦، مرقس ١٤/٦٥، لوقا ٢٢/٦٣، يوحنا ١٨/٢٢

^{١٥} - انظر؛ متى ٢٧/٢٧ - ٣١، مرقس ١٥/١٦ - ٢٠، يوحنا ١٩/٢ - ٣

^{١٦} - انظر؛ متى ٢٧/٢٨، مرقس ١٥/٢٠، ١٦، يوحنا ١٩/٢

^{١٧} - انظر؛ متى ٢٧/٢٩، مرقس ١٥/١٧، يوحنا ١٩/٢

^{١٨} - انظر؛ متى ٢٧/٤٤ ومقس ١٥/٣٢، لوقا ٢٣/٣٩ - ٤٣

لقد تلاشت الألوهية في العهد الجديد، معنى ولفظاً^(٣)، وجاءت محاولة البابا بندكت السادس عشر للإجابة عن سؤال: كيف هو إله الكتاب المقدس في كتابه إله يسوع المسيح، تأملات حول الإله المثلث باهتة اللون، غائمة المعالم، مفرغة من كل معنى يمكن أن يلتقطه ذهن القارئ^(٤) .. ولكن لم لا يفشل في ذلك، إذا كان عنوان كتابه دالاً على أن لإلهه يسوع إله يعلوه؟!

الإله مثلث، أحد أضلاعه ابن يولد لأب يسمح بتقديمه إلى الضرب والإهانة والصلب والموت ثم يقوم الإله الميت من قبره ويصعد إلى جوار أبيه ، وبدون أن يلقي عوناً من أبيه أو الروح القدس الرب الثالث المنبثق من الآب الوالد والابن المولود، ذاك هو الإله في الكتاب المقدس - بعهديه القديم والجديد - لا يتميز عن البشر بشيء، بما فيهم من عجز، ونقص، وضعف .. فهل ترى لهذه الصورة ظلاً في القرآن؟! هل من الممكن أن يأخذ الوهم صاحبه إلى الزعم باستنساخ السور القرآنية لصفات رب الكتاب المقدس؟!

أما التوراة، فإنها وإن كانت تنص على عقيدة التوحيد، حتى جعلتها الوصية الأولى ((لموسى)) عليه السلام بين الوصايا العشر، فإن هذا التوحيد يبدو غير فاعل بصورة حاسمة في تحريك الأحداث وتوجيه الأنبياء، كما أنه ليس توحيد الله رب العالمين، وإنما هو توحيد رب الإسرائيليين فقط، إذ إن إسرائيل هي التي اختارها الله^(٥) .. أما الأقوام الآخرين فلا رب لهم إلا ما اختاروه من معبودات زائفة!

والأمر كما قال Baentsch فإن التوحيد اليهودي هو توحيد قومي، أما التوحيد الإسلامي، فهو توحيد عالمي^(٦)

أما الكنيسة فقد أصلت للشرك وعبادة المخلوقين في ابتداعها عقيدة الثالوث (الآب والابن وروح القدس) كما هو عند الكنائس الأرثوذكسية!

وفرق كما ترى بين الحقيقة العظمى في القرآن الكريم: التوحيد مضموناً ومقاماً ولوازم، وبين توحيد الكتاب المقدس الضيق، والمكدر بالشرك!..

إن الله سبحانه في القرآن الكريم هو الأحد فلا شريك له في الألوهية والربوبية، في الإسلام الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد^(٧). {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الانعام: ١٠١)، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ

^١ - لقد أثبت كثير من العلماء المسلمين وغير المسلمين أن عيسى عليه السلام قد أقر بأنه بشر لا إله، من خلال الأناجيل ذاتها التي يؤمن بها النصارى، ونحن نتبنى هذا الرأي الوجهي.

^٢ - صرخ الإمام أبو الوليد الباجي مندداً بمذه الخرافات في رسالة بعث بها إلى راهب فرنسي قال مما قال فيها: ... ولكن ليس هذا بأغرب من قولكم: ((إن إبليس عرض لعيسى الإله بزعمكم - ورفى به أعلى جبل وأراه زهرة الحياة الدنيا، وقال له: إن عبدتي ملكتك جميع هذا! فلما سمع المسيح من كيد إبليس اللعين، عاذ من شره واستجار من فتنة بصيام أربعين يوماً وأربعين ليلة، فأمسك إبليس عنه. فهل لمن جَوَزَ هذا على ربه، وأخبر به عنه، مُسَكَّة، أو بقيت بينه وبين التمسك بالحقائق والديانة نسبة؟! أليس الإله هو الخالق لإبليس والقادر على هلاكه متى شاء، والمالك للأرض والسموات وما بينهما دون شريك ولا ند؟!

فكيف يخاف من هذه صفته بعض من خلقه أن يفتنه؟ أو كيف تحمل إبليس الأرض أو تظله، وهو يخاطب ربه ويدعوه إلى عبادته ويُعِدُّ أن يثيبه على ذلك أو يملكه زينة الحياة الدنيا، وهي ملكه ومن خلقه، وره يخاف فتنة ويستحير منه بالصيام؟! وكيف يقول: إنه يعاقبه في الآخرة بالعذاب الأليم ونار الجحيم، وهو لا يستطيع أن يخلص نفسه منه ومن فتنة في الدنيا؟ وهل قدرته في الآخرة إلا كقدرته في الدنيا؟! وكيف زعم أنه سليم من حيل الشيطان وخدعه وهو يخاف على نفسه، ويحتاج إلى من يسلمه منه، وهو القاهر والخالق لإبليس كيف شاء، والمهلك إذا شاء، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً (رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب أبي الوليد الباجي عليها، القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٦، تحقيق د. محمد عبد الله الشرفاوي، ص ٨٧)

^٣ - لم يرد في العهد الجديد ذكر لاسم الإله المعبود، وإنما استعملت كلمات يونانية (مثل (ثيوس)) دالة على مطلق معنى الألوهية. ^٤ - انظر: Joseph Ratzinger (Pope Benedict xvi), The God of Jesus Christ: meditations on the triune God, tr. Brian McNeil, San Francisco: Ignatius Press, 2008 , pp.20-25

^٥ - انظر: خروج ١٩/٦٤؛ تثنية ٤/٢٠؛ ٤٣/٢١ .. ^٦ - Altorientalischer und israelistischer Monotheismus, pp. 77-94 (نقله؛ عبد الرحمن بدوي، الدفاع عن القرآن ضد متقديته، ص ٧٥)

^٧ - د.عبد الراضي محمد عبد المحسن، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ { (الانعام : ٥٩) ، { قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا } (الجن : ٢٢) .

إنّهُ التنزيه الكامل للألوهية والربوبية من كلّ شوائب الشرك في خصائص الخلق ولوازم الطاعة المطلقة، وهو ما لا نرى له نظيرًا في اليهودية أو النصرانية، وقد وقف المستشرق جولدتستهير الذي يعدّ أحد أهمّ الطاعنين في الإسلام على مدى تاريخ الغرب الطويل في انتقاد الإسلام، قائلاً في مذكراته إن الإسلام " هو الدين الوحيد الذي منع الشعوذة والعناصر الوثنية، لا عن طريق التدليل العقلي^(١) وإنما من خلال التعليم المستقيم الأرثوذكسي " ((The only religion in which superstition and heathen elements were forbidden not (by rationalism but by orthodox teaching)).^(٢) لقد اتجه أسلوب تفكيري نحو الإسلام، وكذلك تعاطفي معه... ولم أكذب حين قلت إنني أومن ببعثة محمد النبوية... إن ديني كان الدين العالمي للأنبياء ((my way of thought was thoroughly turned towards islam and so was my sympathy ... I was not lying when I believed that I believed in the prophetic missions of Muhammad ... My religion was henceforth the universal religion of the prophets.))^(٣)

ويلحق ألبرت حوراني^(٤) على قول جولدتستهير هذا قائلاً: " بدا الإسلام لجولدتستهير وكأنه الدين الذي يجب أن تسعى إليه كل الأديان: توحيد خالص، واستجابة نقية -غير مكثرة- لنداء الله للفؤاد الإنساني، لقد منحه الإسلام معيارًا يحكم من خلاله على الأديان التوحيدية الأخرى.^(٥) وقد أحسن المستشرق Jacques Berque^(٦) عندما قال: ربما من الممكن تلخيص (رسالة) القرآن في كلمة واحدة، وهي توحيد الله (Le Coran pourrait se résumer peut-être en un seul mot : celui d'unité de Dieu)^(٧) .

ويؤكد القرآن الكريم علو الخالق في سلطانه، فلا يدانيه الخلق في شيء من عزّ الربوبية: { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } (الانعام: ١٤)، وهو الذي لا يخفى عليه أمر في السماء ولا في الأرض: { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } (يونس: ٦١) وهو الذي { يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ }^(٨).. وهو الذي إذا أراد شيئاً فإنه يقول له كن فيكون: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }^(٩) { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }^(١٠) وهو الذي { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }^(١١)

^١ - رغم أنّ هذه الشهادة قد وردت في سياق مدح الإسلام، إلّا أنّها قد جانبت الصواب؛ إذ إن القرآن الكريم زاهر بالنصوص التي تبطل عبادة الأوثان ومظاهر الطبيعة بنفي الإرادة والقدرة عنها، وهو خطاب عقلي محكم.

^٢ - Ignaz Goldziher, Tagebuch, p.59 (Quoted by, Albert Hourani, Islam in European Thought, New York: Cambridge University Press, 1991, p.38)

^٣ - Ignaz Goldziher, Tagebuch, p.71 (نقله المصدر السابق)

^٤ ألبرت حوراني (١٩١٥م-١٩٩٣م): مؤرخ لبناني كاثوليكي. درّس في عدد من الجامعات الأميركية وغيرها.

^٥ - Hourani, Islam in European Thought, p. 38

^٦ - جاك بيرك (١٩١٠م-١٩٩٥م): عالم اجتماع ومستشرق فرنسي. عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة. صاحب واحدة من أشهر ترجمات معاني القرآن للفرنسية.

^٧ - Jaques Berque, Relire le Coran, Paris: Albin Michel, 1993 , p.20

^٨ - سورة الأنعام / الآية (١٤)

^٩ - سورة يس / الآية (٨٢)

^{١٠} - سورة الروم / الآية (٢٧)

^{١١} - سورة الأنعام / الآية (١٠٣)

إنَّ له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وليس إلى النقص أو العجز إليه من سبيل! وهو {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ { فلا شبهة له ولا نظير، ولو أننا نظرنا إلى أسماء الله سبحانه في الكتاب والسنة؛ لوجدناها خمسة أقسام الأول: الذي ينحو إلى تقرير إثبات الباري ردًا على الجاحدين المعطلين، ويندرج تحت هذا القسم اسم (الحي) و(الباقى) و(الوارث) وما في معناها.

الثاني: الأسماء التي تقرر توحيده ردًا على من أشرك به في عبادته غيره، مثل (الكافي) و(العلي) و(القدير) ونحوها. الثالث: الأسماء التي تقرّر تنزيهه تبارك وتعالى ردًا على المشبهة مثل (القدوس) و(المجيد) و(الحيط) ونحوها. الرابع: الأسماء التي تدل على أنَّ كل موجود فإنه من خلقه واختراعه ك (الخالق) و(البارئ) و(المصور) و(القوي) ونحوها.

الخامس: الأسماء التي تقرر أنه مدبر لما اخترع ومصرفه على ما شاء، وهو (القيوم) و(العليم) و(الحكيم) ونحوها.^(١)

وقد ورد التصريح في نصوص الوحي-قرآنًا وسنة- بأن الله تبارك وتعالى: {أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} ٢، و{أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} ٣، و{أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} ٤، و{أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} ٥، وأنه (الأكبر)، و(الأعز)، و(الأعلم)، و(الأقوى). وورد في القرآن الكريم أنَّ الرب تبارك وتعالى {خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} ٦، و{خَيْرُ الرَّازِقِينَ} ٧، و{خَيْرُ الْوَارِثِينَ} ٨، و{خَيْرُ النَّاصِرِينَ} ٩، و{خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} ١٠، و{خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} ١١، و{خَيْرُ الْغَافِرِينَ} ١٢، و{وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} ١٣. لقد جاءت الآيات القرآنية مرشدة العقول إلى استعمال قياس الأولى في حقه تبارك وتعالى؛ فكل كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق؛ فالخالق أولى به.^(١٤)

ويقول ابن القيم في أمر صفات الله وأسمائه كما جاءت في القرآن والسنة: صفات الله كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله. وهكذا أسماءه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها.^(١٥)

وقد اعترف البابا يوحنا بولس الثاني^(١٦) نفسه أنَّ بعض أفضل الأسماء في اللغة البشرية، قد أطلقت على إله القرآن.^(١٧) إنَّ النظرة العادلة والمذهب المعتدل يقضيان أنه لو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد اطلع على ما ورد في

^١ - ابن حجر، فتح الباري، ٢٢٣/١١

^٢ - سورة الأعراف/ الآية (١٥١)

^٣ - سورة هود/ الآية (٤٥)

^٤ - سورة الأنعام/ الآية (٦٢)

^٥ - سورة المؤمنون/ الآية (١٤)

^٦ - سورة الأنعام/ الآية (٥٧)

^٧ - سورة الحج/ الآية (٥٨)

^٨ - سورة الأنبياء/ الآية (٨٩)

^٩ - سورة آل عمران/ الآية (١٥٠)

^{١٠} - سورة المؤمنون/ الآية (١٠٩)

^{١١} - سورة الأعراف/ الآية (٨٩)

^{١٢} - سورة الأعراف/ الآية (١٥٥)

^{١٣} - سورة طه/ الآية (٧٣)

^{١٤} - عمر سليمان الأشقر، أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة، عمان: دار النفائس، ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ص ١٠٧-١٠٨

^{١٥} - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ت/ هشام عبد العزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوي وأشرف أحمد، مكة المكرمة: مكتبة نزار، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ١/ ١٧٧

^{١٦} - يوحنا بولس الثاني (١٩٢٠م-٢٠٠٥م): بابا الفاتيكان من ١٩٧٨م إلى ٢٠٠٥م. من أشهر البابوات الذين سعوا إلى تنصير المسلمين؛ خاصة الأفارقة منهم.

^{١٧} - John Paul II, Crossing the Threshold of Hope, ed. Vittorio Messori, New York: Random House, Inc., 1995, p.92

الكتاب المقدس، لكان قد تأثر بهذه الأوصاف التي ألصقت بالرب الخالق، وأنه لو كان يدعي النبوة زورًا (!) لحاول استجلاب أهل الكتاب بموافقتهم في صفات المعبود عندهم ..

لقد أتى القرآن في موضوع العقيدة متعاليًا على الواقع، وما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم لو كان هو مؤلف هذا الكتاب! أن يتم له ذلك لِثَقُلَ العقل الباطن الجمعي (Collective unconscious)^(١) على الناس الذين كانوا يقبلون دين الأجداد دون حجاج ولا مراة.

لقد كانت جزيرة العرب ذاك الزمن أعجز من أن تمنح أحدًا تصوّرًا عقديًا كالذي في القرآن الكريم؛ فإن سكان مكّة وما جاورها كانوا إما وثنيين يعبدون الأحجار، وإما يهودًا يُسبغون على إلههم صفات العنصرية، وإما قلة من النصارى أصحاب عقيدة يمجّها العقل السليم.. وإما حنفاء وقفوا عند نقطة الرفض لما هو موجود، دون أن يبلغوا الحق المنشود.

٢ - صفات الأنبياء ودعواتهم: هل سيرة الأنبياء ودعواتهم في أسفار النصارى واليهود هي نفسها في القرآن الكريم؛ حتى تكون مرجعًا للقرآن كما يقول المنصرون؟

إنّ القارئ في أسفار اليهود والنصارى سيدرك عيانًا أنّ أنبياء الله عند القوم لا يعرفون عصمة من الذنوب فقد قارفوا بمجموعهم كلّ منكر خطأ، ثم هم مع ذلك قد ضيّعوا الرسالة التي أرسلوا لأدائها .. وكانوا أشباحًا باهتة في مسيرة الاستخلاف البشري على الأرض، النبي في العهد القديم هو لقب مرتبط بمعنى البلاغ عن الغير^(٢) والإنباء عن المستقبل^(٣) وهي تكتسب بالتعلّم^(٤)، ويكاد ينحصر التعريف في العهد الجديد فيما يتعلّق بالأنبياء الذي ظهرها بعد المسيح، على الإنباء بالغيب^(٥)، أما في الإسلام فالنبيّ من النبأ وهو الخبر إذ إنّ النبوة اصطفاء من الخالق لبعض عباده المؤيدين بما يثبت صدق دعواهم في التبليغ عن ربهم ، وتتركز وظيفة النبيّ في التأصيل القرآني وسرده القصصي على بيان العلم الذي وهبه الله الأنبياء، بما يعرّف الناس بخالقهم وفاطر هذا الكون ومدبّره، وصفاته العالية، والصلة بينه وبين عباده، وموقف الإنسان من هذا العالم، ومبدئه، ومصيره، وما يرضي الربّ تبارك وتعالى وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه، وما يترتب على ما يصدر منه من قول واعتقاد وعمل، وأجر ذلك...^(٦) وتبدو الصورة في العهدين القديم والجديد قاصرة في مداها الأقصى على الدعوة إلى عبادة يهوه، وخوض الحروب الدموية الظالمة لأجل ذلك، والدعوة إلى بعض فضائل الأعمال، ومتابعة الشريعة الموسوية في العهد القديم بتفاصيلها المرهقة، والإفراط في التفصيل النسكي المفرغ من الدلالة الحيّة!^(٧)

وتبدو قصص الأنبياء في التوراة معزولة في الأغلب عن الحكمة؛ إذ (يتوخّش) فيها الهمّ السردي؛ حتّى لكأنّها مجرد حكاوي للتأريخ، ولذلك تثقل المتابعة على القارئ في كثير من الأحيان لكثرة الأسماء، والأرقام، والتفصيلات المكثّفة التي تستحوذ على صفحات طويلة دون فائدة مجتناة منها، ظاهرة أو مستكنّة بين طبقات الألفاظ والمباني.. ولو أننا ألقينا نظرة سريعة متبصرة على حال بعض الأنبياء في أسفار النصارى من جهة والقرآن الكريم من جهة أخرى؛

^١ - العقل الباطن الجمعي: مرتبط بعلم النفس التحليلي، يدلّ على ما كمن في اللاشعور عند الفرد من نتاج خبرة جماعية لفريق من الناس يعتبر هذا الفرد جزءًا منها.

^٢ - انظر؛ خروج ١/٧

^٣ - انظر؛ تثنية ٢٢-٢١/١٨

^٤ - انظر؛ تثنية ٢٢-٢١/١٨

^٥ - انظر؛ الأعمال ٢١/١١، ٢١/٢١

^٦ - انظر؛ ابو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، القاهرة: المختار الإسلامي، ط٤، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ص ٢٢

^٧ - انظر مثلاً في أمر صموئيل: ١ صموئيل ١٧/٧، ١٣/١٦، أخبار الأيام الأول ٢٢/٩

فسنرى الهوة السحيقة التي تفصل بينهما؛ بما يظهر التمايز الشديد بينهما في التفصيل التاريخي والتوظيف الديني، وبما ينفي وهم الاقتباس المزعوم.

هنالك فروقا هائلة بين معطيات الأحداث التاريخية هنا وهناك، علاوة على كيفية العرض وغايته، فقصص الكتاب المقدس وردت في سياق تاريخي بحت، بينما وردت قصص القرآن في سياق الاعتبار والتدبر، مع الإعراض عن كافة التفاصيل التاريخية التي لم يحفل بها القرآن الكريم لعدم فائدتها، فالكتب الإلهية ينزلها الله للعظة، وليس للتأريخ للأُمم والأشخاص والمقارنة التي أجريت في البحث السابق اوضح الفكرة

ونبه في هذا الصدد إلى أن في القرآن قصصا عن أنبياء وأُمم لا وجود لذكرهم في كتب اليهود والنصارى، مثل: قصة هود وصالح وشعيب وذي القرنين وأصحاب الكهف وقصة موسى مع الخضر، وغيرها كثير. وأما القدر الذي اشتركا فيه، فبينهما من التخالف فيه ما لا يحصىه إلا الله، ففي حين يعظم القرآن الأنبياء ويعتبرهم أعظم البشر وأفضلهم {ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وذكربا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم} (الأنعام: ٨٤ - ٨٧)، نجد في مقابله في الكتاب المقدس حديثا عن الأنبياء على خلاف ذلك، فما من رذيلة ولا بلية إلا ونسبها الكتاب إلى أنبياء الله تبارك وتعالى.

فهارون عليه السلام النبي العظيم منزّه عن الشرك وعن بناء العجل الذي بناه السامري وعبدته بنو إسرائيل من دون الله (طه: ٨٥ - ٨٧)، لكن التوراة تجعله بانيا للعجل الذهبي المعبود من دون الله (الخروج ٣٢ / ٢ - ٤). وإذا كان داود في القرآن نبيا عظيما {اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الأيد إنه أواب} (ص: ١٧)، فإنه في الكتاب المقدس كان زانيا (صموئيل ٢) ١١ / ١ - ٢٦)، وقتلا، فقد قتل مائتين من الفلسطينيين، وقطع غلغهم، ليقدّمها مهرا لزوجته ميكال (صموئيل ١) ١٨ / ٢٧). وأما سليمان فيصفه القرآن بالنبي الأواب: {ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب} (ص: ٣٠)، في حين تزعم التوراة بأنه ترك وصايا الله، وبني معابد للأصنام إرضاء لزوجاته الوثنيات (الملوك ١) ١١ / ٣ - ١١)، فهذه المفارقات العظيمة في الصورة الإجمالية، وأكثر منها في تفاصيل الأخبار، وهي جميعا تثبت التمايز بين الكتابين بما يحيل أن يكون القرآن منحولا من الكتاب المقدس.

٣- اليوم الآخر: تصمت اليهودية ولا تنضبط المعتقدات الغامضة للنصارى فيه أما القرآن فيفصل أخبار اليوم الآخر تفصيلا دقيقا يكاد يأخذ أهم الأكبر بعد التوحيد في التوضيح وقد نصّ القرآن الكريم في الكثير من آياته على دعوة الأنبياء أقوامهم إلى الجنة ووعدته إياهم بنعيمها الدائم ومقامها الطيب، وأنهم إليها يعودون، وأن غاية المتعة ليست في نعيم دنيوي باهت زائل، وإنما في مستقرّ بهيّ باق.

وكما أنّ الفعل الإنسانيّ يتحرّك بجانب التمنية والترغيب، فإنّه يتحرّك أيضًا بدافع التخويف والترهيب. وهذان العاملان هما وقود النفس الإنسانية في تباعدها عن سقيم المعتقد ورذيل الفعل، وإقبالها على الإيمان الحق والصدق في الفعل الجميل .. وبالنظر في قصص النبيين في القرآن الكريم، يبرز جانب الترهيب من اليوم الآخر بصورة هائلة بارزة، إذ إنّ المدعويين كانوا ما بين وثنيين وآخرين قد انحازوا إلى الفريق الذي حرّف دعوة الأنبياء الأوائل .. فكان الترهيب من وُقّع العذاب أبلغ في نفوس هؤلاء من تمتيع أسماعهم بحمال يوم الجزاء ..

وقد تكرر التخويف من عذاب النار بدعوة المشركين إلى الاستقامة على جادة الصلاح والهدى فهذا نوح عليه السلام يبدأ دعوته بالندارة من عذاب الله وشديد انتقامه: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

عَدَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الاعراف: ٥٩] ، شعيب يصرخ في قومه: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِيَّيَّكُمْ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ } [هود: ٨٤]

ولكن إذا نظرنا إلى الجهة المزعوم أنها مصدر الاقتباس القرآني؛ فسنلاحظ أن العهد القديم الذي يمثل المرجع اليهودي الأسنى والمرجع النصراني الأطول، لا يذكر اليوم الآخر إلا نادراً في آخر أسفاره تأليفاً؛ فقد ذهب النقّاد إلى أنّ عقيدة اليوم الآخر لم تظهر (من خلال ملاحظة نصوص الكتاب المقدس - المحرّف -) إلا في مرحلة متأخرة من سلسلة دعوات بني إسرائيل، وفي ذلك تقول الموسوعة المعروفة The World Book Encyclopedia على أنّ: "أولى الإشارات في الأدب اليهودي لقيامة البشر في نهاية الزمان ظهرت في سفر دانيال ربّما ألف في سنة ١٦٠ ق م ^(١)! وقد جاء التصريح في الكتاب المقدس بأنّ الوجود الإنساني عبث؛ بدايته جنين في الرحم، وآخرته جثة تغنى، ثمّ العدم: ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة، وحادثه واحدة لهما، موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة لكل؛ فليس للإنسان مزية على البهيمة، لأن كليهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد، كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما، مَنْ يعلم هل تصعد روح البشر إلى العلاء، وتنزل روح البهيمة إلى الأرض؟" ^(٢)

لقد كان مفهوم البعث عند اليهود هو أمر آخر غير نشأة الأجساد للقيامة للحساب؛ يقول ستمبسون في كتابه: كتاب حول الكتاب المقدس (*A Book about the Bible*): "كان رجاء الحياة بعد الموت مقصوداً في أيام العهد القديم على البعث الذي سيعقب ظهور المسيح، ولكن الكلام عن السماء والجحيم وحضن إبراهيم كان شائعاً على عهد عيسى بين طوائف اليهود." ^(٣)

أما الأمر في العهد الجديد فهو حديث سريع ومشتت لا يشكّل في مجموعه صورة متكاملة متناسقة! وهنا نسأل: إنّ الحديث عن اليوم في الآخر في القرآن الكريم يشغل حيزاً ضخماً من الآيات، لكنّه لا يكاد يذكر في العهد القديم، ولا تكاد تعرف له تفاصيل في العهد الجديد ^(٤).. فمن أين لمحمد صلى الله عليه وسلّم بهذه التفاصيل الكثيرة، إن كانت أسفار أهل الكتاب هي المرجع كما يزعم المنصّرون .. وأخيراً .. حقّ للعاقل أن يتساءل: "ألا يشكّل هذا المبحث وحده هدماً لدعوى المنصّرين؟!!" ^(٥)

٤ - الملائكة: يصورهم العهد القديم على أنهم أبناء الله المجتمعون في حضرة رب السماء ومعهم الشيطان ^(٦) ، وفي بدء الخليقة اتخذوا صورة بشرية حيث تزوجوا من بنات آدم وأنجبوا منهم عمالقة جبابرة ^(٧) ، أما العهد الجديد فيقدمهم على أنهم أبناء الله الذين لا يموتون ^(٨) ، وهم واقعون تحت سلطان الخطيئة حيث يخطئون فيقيدون بالسلاسل ويطرحون في جهنم ^(٩) ، والذين يقومون بمحاسبتهم هم رسل المسيح ^(١٠) .

في الإسلام الملائكة مخلوقات نورانية منزّهة عن الخصائص البشرية ، مبرأة من المعصية ، فهم عباد مكرمون مفطورون على الطاعة لا يعصون الله ما أمرهم وكلفهم به من أعمال .

^١ - 16/264 ، Chicago: World Book, 2001 ، The World Book Encyclopedia

^٢ - الجامعة ٣ / ١٩ - ٢١

^٣ - George W. Stimpson, A Book about the Bible, New York: Harper & Brothers, 1945, 4th edition, p.38

^٤ - انظر؛ متى ٤٦/٣٥ ، متى ٢٧/١٩ - ٢٩ ، مرقس ٩/٤٣ - ٤٨ ، لوقا ٢٣/١٤ ، لوقا ٢٢/١٨ - ٣٠ ، يوحنا ١٤/٢٠ .

^٥ - د. سامي العامري ص ٤٦٩ - ٤٧١ .

^٦ - العهد القديم نسخة الكاثوليك سفر أيوب (٦/١ ، ٧٠ ، ١/٢) دار المشرق ، بيروت ١٩٨٩

^٧ - العهد القديم ، سفر التكوين (٦ / ١ - ٤)

^٨ - لوقا (٢٠ / ٣٦) دار المشرق ١٩٨٩ بيروت

^٩ - رسالة بطرس (٢ / ٤) ، رسالة يهوذا (١ / ٦)

^{١٠} - رسالة أهل كورنثوس (٦ / ٢ ، ٣)

٥ - وكما اختلفت أصول الإيمان بين الديانات الثلاث اختلف الأساس الذي يقوم عليه الإيمان ويبنى ففي اليهودية الإيمان وراثي عنصري ، وفي المسيحية يقوم الإيمان على إلغاء العقل ، كما ارساه القديس أوغسطين في محاوراته (أنا أؤمن لأني لا أعقل) والقديس أنسلم أسقف كانتربوري (آمن كي تعقل)^(١)، أما القرآن فلم يكتف بإعلان عدم فرض الإيمان من الخارج {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} (الكهف: ٢٩) بل أدان بقوة كل اتباع أعمى يلقي بزمامه إلى سلطة لا تستند إلى العقل {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولوا كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون} (البقرة: ١٧٠) ، وقد دعا دائما إلى التأمل الفردي المنسحب من تأثير الوسط الخارجي والأفكار السابقة ومن كل فكرة مستقاة دون تححيص {قل إنما أعظم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرداى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم} (سبا: ٤٦).

وقد أقر المنصر لودوفيكو مرتشي بذلك التفرد للإسلام في مقدمته الجدلية "دحض القرآن" حينما كان يفتش عن سر إقبال الوثنية على الإسلام دون المسيحية فقال: "القرآن والإنجيل حين يعرضان على غير المؤمنين فإنهم يفضلون القرآن على الإنجيل، ويجب أن لا نشك أن كتاب محمد لا يقدم للعقل أفكار يصعب على العقل تفهمها ولا سيما العقل الفاسد وعدو الغموض فمثلا : لا يوجد إلا إله واحد حكيم قادر ،خالق الأشياء كلها ومدبرها ،ومخالف للحوادث، ويجب أن يصلى له بخشوع وخضوع وأن يكون الإنسان متساعجا مع الفقراء ويؤدي مناسك الحج ، ويظهر بدنه بالصيام، ويحافظ على العدل والوسطية وطيبة القلب والشفقة ، وكذلك كل الفضائل السهلة الأخرى، فلا يجوز أن يؤذي إنسان بل يجب أن يحمى من السرقة والقتل والزنا وأي جريمة أيا كانت ، ويجب أن يحتقر كل ما في الدنيا بوصفه عبثا وغير ثابت ، ويستمسك فقط بالأعمال الصالحة التي لن يضيع أجرها، وسيكون لنا في النهاية يوم نعود فيه إلى الله لنجزى على ما فعلنا، فالطيبون سيجدون في السماء نعيما مقيما وما يشتهون، وسيذوق الأشرار في جهنم عذابا لا نهاية له.

كل هذه المبادئ وغيرها تنتشر في القرآن بطريقة مفهومة وواضحة أكثر من المبادئ الإنجيلية ، ومن ناحية أخرى إذا سمع أحد الوثنيين كلام أحد المبشرين أن الإله الحق الواحد الذي يتكلم عليه واحد وثلاثة ، وأن الإله حلّ في رجل وأنه فقير وأنه عاني وصلب ومات ودفن وكان هو ذاته معجزة ، وفي سر القربان المقدس أن سر التوبة ضروري مطلقا، وأن الزواج الأحادي لا بد منه وأن الرباط المقدس لا يفصم ، وأن الحياة يجب أن تكون صليبا مفصلا ، وأنه يجب أن يحسن الإنسان حتى إلى أعدائه، وأن السعادة الحقّة تكمن في أشياء لا تراها العين ولم تسمعها الإذن ولم تخطر على قلب الإنسان، وحكم أخرى مشابحة تكون في تناول السماع الانساني أو تكون صعبة جدا إن لم تكن مستحيلة بالنسبة لحياتنا وحقائقنا الطبيعية فأني وثني سيسمع هذه الأشياء ويقارنها بمذهب القرآن انظر إلى أي جهة سيتوجّه

(٢) ٢١ (٣)

^١ - راجع ترجمة المحاورتين لدى: حسن حنفي ، نماذج من الفلسفة المسيحية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ .

^٢ - دكتور عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

^٣ - د. سامي العامري ، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ ونحته عنوان جانبي (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم).

ثالثا: الأحكام التشريعية بين القرآن والكتاب المقدس.

يشارك أيضا القرآن مع الكتاب المقدس في الحديث في موضوع الأحكام التشريعية التي يشرعها الله لعباده، والمسلمون يؤمنون بوحدة أصول الشرائع الإلهية التي أنزلها الله على نبيه ﷺ وإخوانه الأنبياء {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} (الشورى: ١٣)، والقرآن نزل مصدقا لما جاء به الأنبياء {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} (يونس: ٣٧).

لقد كان من البدهي أن تتشابه الشرائع المنزلة على الأنبياء لوحدة المشرع جل وعلا، ومرة أخرى نذكر أن بين الكتابين من التشابه على قدر ما في كتابهم من الحق، فقد ذكر القرآن شريعة القصاص، وأنها شرعة شرعها الله لليهود من قبل {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص} (المائدة: ٤٥)، فهذه الشريعة عدل من الله، ولذا قررها على أنبيائه وفي شرائعه، ومنها شريعة محمد ﷺ التي قررها القرآن: {ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب} (البقرة: ١٧٩)، ولا يعني هذا التشابه - الذي يتناسب وعدل الله - أن النبي كان ينقلها من كتبهم.

لكن التطابق ممتنع بين الشرائع القرآنية والكتابية في كثير من الصور، ففي هذه الكتب الكثير من الشرائع التي لم يذكرها القرآن، لا بل تتعارض مع قواعد التشريع القرآني الذي يرى فيها ظلما محرما، كشرعية كسر عنق الحمار "وأما بكر الحمار فتفديه بشاة، وإن لم تفده تكسر عنقه، كل بكر من بنيك تفديه" (الخروج ٣٤ / ١٩ - ٢٠). وكذلك قتل صاحب الثور قصاصا من الثور الذي نطح رجلا فقتله. (انظر الخروج ٢١ / ١٨ - ٣٢)، وشرعية الإكراه على الزواج بزوجة الأخ المتوفى من غير أن يكون له ولد (انظر التثنية ٢٥ / ٥ - ١٠)، وأيضا شرائع الكهنوت وإناطة إقامة العبادات والشعائر بهم (انظر سفر اللاويين في مواضع كثيرة منه) والتي لا نجد لها أثرا في القرآن الذي لا يوجد فيه أي مسألة أو حكم يقر النظام الكهنوتي فضلا عن الدخول في تفاصيله.

ومن أمثلة التباين بين الكتابين أن القرآن يحرم الكثير والقليل من الخمر {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه} (المائدة: ٩٠)؛ فإن الكتاب المقدس يرى شرها وسيلة لعلاج مشكلات الفقراء، بنسيان أتعابهم وآلامهم: "أعطوا مسكرا لهالك، وخمرا لمري النفس، يشرب وينسى فقره، ولا يذكر تعب بعد" (الأمثال ٣١ / ٧). وفي العهد الجديد دعا بولس لشرب الخمر من غير إسراف في تعاطيه: "لا تكن فيما بعد شراب ماء، بل استعمل خمرا قليلا من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة" (تيموثاوس (١) ٢٣ / ٥)، والفروق كثيرة يطول المقام بتتبعها^(١).

بعث محمد ﷺ بالشريعة العامة للبشر، والمحكمة بلا نسخ من رسالة تالية، ورغم ما فيها من تميّز وتحديد وإبداع، فقد رمى المستشرقون حصى التشكيك في نحرها السارب المطمئن؛ فقالت قلة منهم بتأثر التشريع الإسلامي بأحكام الكتاب المقدس والتلمود، وذهب الكثير منهم إلى القول بتأثر التشريع والفقهاء الإسلاميين بالتشريع الروماني، أما العهد الجديد فلم يمنحهم فرصة للنيل من أصالة القرآن الكريم.

عقد جايجر عقد في كتابه "اليهودية والإسلام" مبحثا خاصا عن اقتباس التشريع القرآني من اليهودية، إلا أنه لم يجد إلا صورة قليلة جدا للتشابهات بين التشريع القرآني والتشريع اليهودي؛ فقام بنفسه بدم حجيتها عندما كتب في

^١ - د. منقذ السقار، تنزيه القرآن عن مطاعن الرهبان، ص: ٧٢-٧٣، مرجع سابق.

آخر حديثه أنه لم يجد غير عدد قليل جدًا من التشابهات التي عدّها اقتباسات، رغم أنّه قد قارن بين التشريع القرآني والتشريع التلمودي الضخم. وزاد في نقض دعواه عندما اعترف أنّه بالإضافة إلى قلة هذه التشابهات، فإنّه من الممكن القول إنّها أعراف شرقيّة عامة^(١)، لنلقي نظرة على أسفار موسى التي يزعم البعض أنّها أصل تشريعات القرآن الكريم؛ لنرى العجب، والمنكر :

لا تترث البنات إذا كان لهن أخ.^(٢) لا تطبخ جدًّا بلبن أمه.^(٣) (إذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمات، يرحم الثور حتى الموت)!!^(٤) (لا يدخل ذو الخصيتين المرضوضتين أو المجهوب في جماعة الرب. لا يدخل ابن زنى ولا أحد من ذريته حتى الجيل العاشر في جماعة الرب).^(٥) إذا تويّ الزوج، فعلى أخيه قسرًا أن يتزوَّج زوجته، فإن رفض تشتكيه إلى القضاء الذي يناقشه في الأمر، فإن أصرَّ على رفضه؛ تلح المرأة نعله، وتبصق في وجهه، ويُدعى بيته: (بيت المخلوع النعل)^(٦) (إذا تعازك رجلان فتدخلت زوجة أحدهما لثنيهما لثنيها من قبضة يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بخصيته، فأقطعوا يدها ولا تُشفقوا عليهما).^(٧) (لا تتقاضوا فوائد عما تقرضونه لإخوتكم من بني إسرائيل، سواء كانت القروض فضة أو أطعمة أو أي شيء آخر، أما الأجنبي فأقرضوه بربا)^(٨) إذا اغتصب رجل فتاة عذراء؛ فإنَّ عقوبته هي أن يتزوَّجها، وأن تبقى هي معه حتى الموت!^(٩) (من يمس جسد المصاب بالسيلان يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء)^(١٠) (إن بصق المصاب بالسيلان على شخص طاهر، فعلى الطاهر أن يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء)^(١١) (وإذا حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمئتها، وكل من يلمسها يكون نجسًا إلى المساء. كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجسًا، وكل من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسًا إلى المساء. وكل من مس متاعًا تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء. وكل من يلمس شيئًا كان موجودًا على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجسًا إلى المساء).^(١٢) (إذا حملت امرأة وولدت ذكرًا، تظل الأم في حالة نجاسة سبعة أيام ... وإن ولدت أنثى فإنها تظل في حالة نجاسة مدة أسبوعين).^(١٣) على صاحب الحمار أن يفدي أول مولود لهذه الدابة، بشاة؛ وإذا لم يفده بشاة؛ فإنَّ عليه عندها أن يكسر عنق الحمار!^(١٤)

إنَّ أوجه الخلاف بين التشريعات القرآنية والتشريعات التوراتية عظيمة وعميقة:

أولاً: غياب منظومة تشريعية توراتية تستوعب تفاصيل الحياة وتسدّ حاجات الأمة والفرد، في حين استوعب التشريع الإسلامي (قرآنًا وسنة) جليل الأمور ودقيقها.
ثانياً: إغراق النص التوراتي في التشريعات الطقوسية التفصيلية التي لا تمس حياة الناس في شيء، وهو ما لا نرى له ظلاً في القرآن الكريم.

^١ - A. Geiger, *Judaism And Islam*, p. 70 -

^٢ - انظر؛ العدد ١١-١/٢٧

^٣ - انظر؛ خروج ٢٦/٣٤

^٤ - خروج ٢٨/٢١

^٥ - تثنية ٢-١/٢٣

^٦ - انظر؛ تثنية ١٠-٥/٢٥

^٧ - تثنية ١٢-١١/٢٥

^٨ - تثنية ٢٠-١٩/٢٣

^٩ - انظر؛ تثنية ٢٩-٢٨/٢٢

^{١٠} - لاويين ٧/١٥

^{١١} - لاويين ٨/١٥

^{١٢} - لاويين ٢٣-١٩/١٥

^{١٣} - لاويين ٥، ٢/١٢

^{١٤} - انظر؛ خروج ٢٠/٣٤

ثالثاً: يزخر النص القرآني بعدد ضخم من النصوص التشريعية (الكلية العامة) التي توفر للفقيه معالم كبرى للاستنباط في كل بيئة وحال، في حين استغرقت (التفاصيل) التشريعية نصوص التوراة.

رابعاً: من اليسير أن يلاحظ القارئ أثر البيئة على كثير من الأحكام التشريعية في التوراة، في حين تبدو النصوص التشريعية القرآنية حاكمة على البيئة؛ فهي التي تصنع الواقع وتشكله.

خامساً: تستوعب الشريعة الإسلامية حاجات الإنسان سواء كان مسلماً أو غير مسلم، في حين تكتفي الشريعة التوراتية بالنظر في حاجات الإسرائيلي.

سادساً: كثير من أحكام التوراة قائمة على تمييز طبقة رجال الدين عن طبقة العامة، في حين يخلو التشريع الإسلامي من الاعتراف بطبقة رجال الدين؛ فكل المسلمين مكلفون بالتزام الشرع متى بلغوا وعقلوا الخطاب.

سابعاً: رغم أن الشريعة الإسلامية قائمة على مبدأ أن (الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه)؛ إلا أنها تحترم في الإنسان إنسانيته مهما كان انتماءه العقدي، وتؤمن بحاجاته الآدمية دون تمييز ديني، في حين يحتزل التشريع التوراتي (الإنسان) في (الإسرائيلي).

ثامناً: قانون الحرب في الإسلام منضبط بحدود أخلاقية تمنع جموحه نحو الانتقام أو نعمة الثروة، في حين تكسو نصوص الحرب في العهد القديم غلالة كثيفة من الدموية والكلف بالمال.

تاسعاً: العقوبة الجنائية في التوراة قائمة على مبدأ النكاية في المتعدي على حدود الشرع، في حين تقوم العقوبة الجنائية في الإسلام على مبادئ: الزجر، والوقاية، ومنح الولي سلطان العفو، وحضه على ذلك.

عاشراً: حقوق المرأة هامشية في التوراة، فهي لا ترث إذا كانت أمًا أو ابنة، ولا حق لها في الانفصال عن الزوج، وعقوبة مغتصبها إذا كانت عذراء أن يتزوجها، ولأبيها أن يبيعها، والفكرة الحاكمة هنا هي أن المرأة متاع مملوك للرجل، وأن العدوان عليها هو في الحقيقة عدوان على أبيها أو زوجها فقط؛ إذ إنها داخلة ضمن ملكيتهما.. أما القرآن الكريم فيقرر أن المرأة كالرجل في كل شيء إلا ما استثني لعلّة معتبرة، وأنها مستقلة لنفسها بالاعتبارين الأدبي والمالي.^(١)

أما زمن التقنين في المسيحية فكانت أول محاولة لتجميع القانون الكنسي بصورة منظمة وموسوعية كانت في القرن الحادي عشر ميلادي على يد الراهب Gratian -أي بعد نزول القرآن الكريم بقرون - باسم Decretum Gratiani بما يعني أن الإحاطة بالتشريعات الكنسية زمن حياة رسول الله من الأمور العسيرة التي تحتاج دراسة ومتابعة وعلمًا باللغات اليونانية واللاتينية والسريانية!! لقد كان القانون الكنسي قبل ذلك لا يكاد يتجاوز حدود النصائح الأخلاقية العامة المتعلقة بالصدق والعفة، مع تفصيل أمر الشعائر العبادية، وترتيب المراتب الكنسية^(٢)، كما أن الجامع الكنسي في القرون السابقة لبعثة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم لم تشغل في الجانب التشريعي إلا بالقضايا الجزئية التي لا تمس غير خاصة من الناس في الأغلب، وكان همها الأول حسم القضايا اللاهوتية..

لذلك اضطرّ الطاعنون في القرآن الكريم إلى التوجه إلى القانون الروماني للقول إنه مصدر التشريع الإسلامي، لكن لم تصمد هذه الدعوى طويلاً، فقد ردّ عليها كتاب من المستشرقين كالمستشرق الإيطالي نلينو Nallino في محاضراته التي ألقاها في المؤتمر الدولي للقانون الروماني، في روما سنة ١٩٣٣ م، بعنوان: علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الروماني^(٣)، وفيتزجيرالد FitzGerald. والثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف لغات الإمبراطورية

^١ - انظر في حقوق المرأة ومقامها بين القرآن الكريم والكتاب المقدس كتابنا: (المرأة بين إشراقات الإسلام وافتراءات المنصرين) .. وهو متاح على النت: <http://www.arcri.org/woman/>

^٢ - من ذلك: (الدسقولية) و(الديداكي) ...

^٣ - عرب هذه المحاضرة، ونشرها د. صلاح الدين المنجد في كتابه المتقى من دراسات المستشرقين.

الرومانية، وكان الإمبراطور الروماني جستينان قد ألغى جميع مدارس القانون الروماني في الإمبراطورية الرومانية عدا مدرسة روما والقسطنطينية وبيروت، بموجب قرار أصدره سنة ١٦ ديسمبر سنة ٥٣٣م^(١). وكانت البلاد العربية نائية تمامًا بقوانينها العرفية عن شرائع الأمم الأخرى، كما أنّ الاختلافات الواسعة بين شريعة القرآن وشرائع الرومان^(٢) تبطل كلّ دعوى للاقتباس..

ثم إنّ همة المخالفين من المستشرقين كانت في حقيقتها متوجهة إلى نسبة الأحاديث النبوية، والفقه الإسلامي الذي هو جهد العلماء في الاستنباط، إلى التشريع الروماني، لا القرآن الكريم. وبعيدًا عن تحافت هذه الدعوى، فإنّ موضوعنا هو أصالة النص القرآني فقط، وهو باب لم يقدّم فيه المستشرقون حجّة لها حظ من النظر!

تميّز التشريع الإسلامي:

إنّ التميّز التشريعي القرآني وأصالته قد أصبحا حقيقة علمية عند الكثير من أعلام القانونيين من غير المسلمين، وقد اعترف مؤتمر القانون الدولي المقارن الذي انعقد في أغسطس ١٩٣٧م بأنّ التشريع الإسلامي قائم بذاته وليس مأخوذًا من غيره^(٣)؛ في إشارة إلى تميّز التشريع الإسلامي عن القانون الرومان.

وقد سبق التشريع الإسلامي القانون الغربي في عدد من مقولاته الكبرى التي اعتبرها القانونيون طفرات عظيمة في الأحكام التشريعية الوضعية عندهم، ومن هذه المقولات (نظرية التعسف في استعمال الحق)^(٤) ونظرية (الظروف الطارئة) ونظرية (تحمل التبعة) و(مسؤولية عدم التمييز)...^(٥)

وتحدّث القانوني ليون أستروروج=Leon Ostrorog- في النصف الأول من القرن العشرين- عن المنظومة التشريعية الإسلامية في مجال حقوق الإنسان، بكلّ إحلال وتوقيع ليقول: " النظام التشريعي الإسلامي كامل إلى درجة نادرة من ناحية بنائه المنطقي، وهو إلى اليوم يثير إعجاب الدارسين."^(٦)

وقد أقرّ القاضي السابق في محكمة العدل الدولية والأستاذ المتقاعد من جامعة موناش كريستوفر ويرمنتري Christopher Weeramantry في كتابه الفقه الإسلامي: منظور دولي بعظمة الشريعة الإسلامية -خاصة فيما يتعلّق بالقانون الدولي- وأثرها على القانون الأوروبي. وأظهر في هذا الكتاب انبهاره وإعجابه الشديد بمبادئ الشريعة الإسلامية وتفصيلها، ولم يكن حديثه مجرد معانٍ مجمّلة وإنما كان كلّ إحالات صريحة إلى النصوص القرآنية والحديثية^(٧). وقد أنكر بشدّة على الكتاب الغربيين تجاهلهم للشريعة الإسلامية في حديثهم عن تاريخ القانون الدولي

^١ - صوفي حسن أبو طالب، بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني، ص ٤٨ (نقله، عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ط٥، ص ٦٥)

^٢ - انظر تفصيل الرد؛ عبد الكريم زيدان، المصدر السابق، ص ٦٢-٧٥

^٣ - علي علي منصور، مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، بيروت: دار الفتح، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص ٦٧-٦٨

^٤ - إن نظرية الاعتساف في الحق وحدها قد أذهلت القانونيين الغربيين في القرن العشرين، حتى إنهم لما كتب أحد المسلمين رسالته عن مذهب الاعتساف في استعمال الحق، ولم يخرج فيها عما قرره فقهاء الإسلام تحافت القراء عليها حتى نفدت في ستة أشهر، وكتب عنها المجلات القانونية الغربية حتى قال القانوني الألماني الشهير كوهلر في مقال له: إن الألمان كانوا يبهون عجبًا على غيرهم لخلقهم نظرية الاعتساف في استعمال الحق، وإدخالها ضمن التشريع في القانون المدني الألماني الذي وضع سنة ١٧٨٧. أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي، وأفاض في شرح هذه النظرية نقلًا عن رجال الفقه الإسلامي، فإنه يجدر بعلماء القانون الألماني أن يتنازلوا عن المجد الذي نسبوه لأنفسهم، ويعترفوا بالفضل لأهله، وهم فقهاء الإسلام الذي عرفوا هذه النظرية وأفاضوا في الكلام عنها، قبل الألمان بعشرة قرون. علي علي منصور، مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ص ٤٢ (نشر المقال في المجلة القضائية في ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧).

^٥ - انظر، علي علي منصور، مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ص ٤٢

^٦ - C. G. Weeramantry, Islamic Jurisprudence: An International Perspective, Basingstoke u.a. : Macmillan, 1988, p.113

^٧ - نقل أيضًا بعض الشهادات الواقعية؛ ومنها قوله: ((سجلت الكتابات الأوروبية إبان الحروب الصليبية دهشتها إثر ترجمة بعض هذه المبادئ [التشريعية الإسلامية] إلى واقع ممارس في ساحة الحرب. أحد الكتاب Oliverus Scholasticus أشار إلى واقعة إمداد السلطان ((الملك الكامل)) الجيش الإفريقي المهزوم بالطعام: ((من من الممكن أن يشك أنّ مثل هذا الصلاح والمودة والإحسان هو من الله؛ رجال قُتل أبائهم وأبنائهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم بأيدينا، وسلبناهم أرضهم، وأخرجناهم غرة من بيوتهم، أحيونا بطعامهم لما كدنا نخلك من الجوع، وغمرنا ببطيئهم حتى لما كنّا مستضعفين أمامهم.)) (C. G. Weeramantry, Islamic Jurisprudence: An International Perspective, 1988, pp.137-138)

وأكد أنّ الشريعة الإسلامية سابقة لما يعتبر تأسيساً لهذا القانون على يد غروتوس (Grotius)^(١) في القرن السابع عشر موضحاً أمرين هامين:

أولهما: أنّه في مقابل التأصيل التشريعي الإسلامي للقانون الدولي، لم يعرف اليونان ولا الرومان ولا الكنيسة نظرية قانونية متناسقة في هذا الموضوع^(٢).

وثانيهما: دّل من أوجه كثيرة على معرفة غروتوس بالتشريع الإسلامي وتأثره به^(٣).

ولا يسع القارئ غير المسلم وهو يقرأ كتاب القانوني ويرمّتي إلا أن يسأل نفسه: كيف أوتي محمد صلى الله عليه وسلم هذه القدرة الخارقة على إنشاء هذا الصرح التشريعي دون ميراث بشري سابق، إن لم يكن هو الوحي الرباني؟! وكيف يكون هذا القرآن من نتاج صحراء القرن السابع ميلادياً، وهو مع ذلك يفيض خيراً على البشرية في مجالات التشريع إلى اليوم؛ ويأخذ بألباب كبار القانونيين الغربيين حتى القرن الواحد والعشرين رغم أنهم لم يلجوا أعماقه بعد؟!!

تأثير إسلامي في شرائع أهل الكتاب:

شهد المستشرق Joseph Schacht^(٤) الذي يعدّ أحد أهمّ المستشرقين المعتمدين بالدراسات التشريعية والفقهية الإسلامية - أنّ التشريع الإسلامي هو الذي أثر في التشريعات اليهودية والنصرانية، قال: "من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضّر قانونه الديني، الذي يسمى بالشريعة، والشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً واضحاً عن جميع أشكال القانون .. إنّها قانون فريد في بابه .. إنّ الشريعة الإسلامية هي جملة الأوامر الإلهية التي تنظّم حياة كلّ مسلم من جميع وجوهها." ^(٥) " إنّ التشريع الإسلامي قد أثر تأثيراً عميقاً في جميع فروع القانون في إقليم الكرج (جمهورية جورجيا)، وذلك من خلال فترة تمتد من عصر السلاجقة إلى عصر الصفويين، ثمّ هناك تأثير التشريع الإسلامي على قوانين أهل الديانات الأخرى، من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلامية." ^(٦) " فبالنسبة للجانب اليهودي يبدو أنّ موسى بن ميمون قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدوّنته بعنوان مشناه توراوه وهو عمل لم يسبقه إلى مثله أحد من اليهود. ويقول أيضاً في تعليقه على المشناه الذي كتبه بالعربية (وذلك في تقديمه لما يسمى بالفصول الثمانية)، يقول: وإنه إلى جانب التلمود والمدراش، قد أفاد من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين وكثير غيرهم، إنه ينبغي على المرء أن يقبل الحقيقة من أي إنسان يقولها - لكن هذه المسألة كلها لم تبحث بحثاً كاملاً حتى الآن. ومن جهة أخرى فإنه بالنسبة للجانب المسيحي، فليس هناك شك في أن الفرعين الكبيرين للكنيسة المسيحية الشرقية، وهما: اليعاقبة والمونوفيزية [أصحاب الطبيعة الواحدة] والنساطرة لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي." ^(٧)

وقال المستشرق اليهودي نفتالي ويدر في كتابه التأثيرات الإسلامية على العبادات اليهودية متحدّثاً عن أهم عمل فقهي يهودي في القرون الوسطى، وهو مشناه توراوه في سياق حديثه عن الأثر العام للمسلمين أصحاب اللسان العربي على اليهود: "ومن الناحية الشكلية اتخذ اليهود لأنفسهم مناهج العرب العلمية في فروع الدين، والأخلاقيات، والنحو،

^١ - هوجو غروتوس (١٥٨٣-١٦٤٥م): قانوني ولاهوتي هولندي.

^٢ - المصدر السابق؛ ص ١٥١: ((neither the Greeks nor the Romans had produced a coherent theory of international law [...] the medieval Christian Church was only groping towards this concept))

^٣ - انظر المصدر السابق؛ ١٥٠-١٥٨

^٤ - جوزيف شاخت (ت ١٩٦٩م): أستاذ اللغة العربية والإسلام في جامعة كوليبيا في نيويورك. عضو في الجمع العلمي العربي في دمشق، وجامع وجميعات علمية كثيرة.

^٥ - شاخت، تراث الإسلام، ص ١٢ (نقله، محمد عمار، الإسلام في عيون غربية، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥ م، ص ١٨٠)

^٦ - شاخت، تراث الإسلام، ص ١٤ (نقله؛ المصدر السابق، ص ١٨٢)

^٧ - شاخت، تراث الإسلام، ص ٢٧-٢٩ (نقله؛ المصدر السابق، ص ١٨٢-١٨٣)

وتفسير الكتاب المقدس. بل حتّى في ميدان الشريعة؛ فكتاب مشناه تورا الذي يبهنا بنائه وترتيبه، ليس هو سوى ترتيب لمواد الشريعة الضخمة وفقاً للنظام الذي وضعه علماء الفقه المسلمون"^(١)

كما أبان المستشرق موشيه مردخاي تسوكر بشكل علمي في مقدمته لكتاب تفاسير الراي سعديا جاؤون لسفر التكوين التأثير الإسلامي الكبير على فقهاء اليهود في القضايا الأصولية، سواء ما تعلّق منها بأصول الفقه أو أصول الدين.^(٢)

ونختم بذكر شهادتين لمستشرقين منصفين، أولهما المستشرق الإنجليزي لايتنر الذي يقول في كتابه "دين الإسلام": "بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباساً، بل قد أوحى إليه ربه، ولا ريب في ذلك". وأما الشهادة الثانية فهي لهنري دو كاستري، وفيها يقول: "ثبت أن محمداً لم يقرأ كتاباً مقدساً، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه"^(٣).

النتيجة: كما قال المستشرق (هاملتون جب): "إن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينياً جديداً متميزاً... ومن هذه الوجهة يغدو التساؤل عن مصادر الدين الذي جاء به محمد أمراً غير وارد بالمرّة."^(٤)

^١ - نفتالي ويدر، التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية، ص ٩ (عن، موشيه مردخاي تسوكر، التأثير الإسلامي في التفاسير اليهودية الوسيطة، ت/أحمد محمود هويدي، القاهرة: مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م، المقدمة، ص ١٣)

^٢ - انظر؛ موشيه مردخاي تسوكر، التأثير الإسلامي في التفاسير اليهودية الوسيطة

^٣ - قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص (١٠٨، ١٣٣).

^٤ - هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ت/ إحسان عباس وآخرين. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤، ص ٢٥٤-٢٥٥، عن د. سامي العامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحته عنوان جانبي (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم).

رابعاً: قصص الأنبياء والأمم السابقة بين القرآن والكتاب المقدس ودلائل تهافت الاقتباس.

من أهم القضايا التي يشترك القرآن والكتاب المقدس في الحديث عنها هي قصص الأنبياء والسابقين، والمفروض أننا نتحدث عن حقائق تاريخية لن تختلف بين القرآن والكتاب المقدس بل والمؤرخين، لكن قراءة سريعة في هذا الموضوع في الكتابين تثبت فروقا هائلة بين معطيات الأحداث التاريخية هنا وهناك، علاوة على كيفية العرض وغايته، فقصص الكتاب المقدس وردت في سياق تاريخي بحت، بينما وردت قصص القرآن في سياق الاعتبار والتدبر، مع الإعراض عن كافة التفاصيل التاريخية التي لم يحفل بها القرآن الكريم لعدم فائدتها، فالكتب الإلهية ينزلها الله للعظة، وليس للتأريخ للأمم والأشخاص.

ونبه في هذا الصدد إلى أن في القرآن قصصاً عن أنبياء وأمم لا وجود لذكرهم في كتب اليهود والنصارى، مثل: قصة هود وصالح وشعيب وذي القرنين وأصحاب الكهف وقصة موسى مع الخضر، وغيرها كثير، وأما القدر الذي اشتركا فيه، فبينهما من التخالف فيه ما لا يحصىه إلا الله، ففي حين يعظم القرآن الأنبياء ويعتبرهم أعظم البشر وأفضلهم {ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وذكري ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم واجتنبناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم} (الأنعام: ٨٤-٨٧)، نجد في مقابله في الكتاب المقدس حديثاً عن الأنبياء على خلاف ذلك، فما من رذيلة ولا فاحشة ولا دناءة ولا خيانة ولا بلية إلا ونسبها الكتاب المقدس إلى أنبياء الله تبارك وتعالى. فقد قارفوا بمجموعهم كل منكر ثم هم مع ذلك قد ضيعوا الرسالة التي أرسلوا لأدائها وكانوا أشباحاً باهتة في مسيرة الاستخلاف البشري على الأرض.

فهارون عليه السلام النبي العظيم منزه عن الشرك وعن بناء العجل الذي بناه السامري وعبداه بنو إسرائيل من دون الله (طه: ٨٥ - ٨٧)، لكن التوراة تجعله بانياً للعجل الذهبي المعبود من دون الله (انظر الخروج ٣٢ / ٢ - ٤)، وإذا كان داود في القرآن نبياً عظيماً {اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الأيد إنه أواب} (ص: ١٧)، فإنه في الكتاب المقدس كان زانيا (صموئيل ٢) / ١١ / ١ - ٢٦، وقاتلاً وخائناً، وقد قتل مائتين من الفلسطينيين، وقطع غلغلم، ليقدمها مهراً لزوجته ميكال (صموئيل ١) / ١٨ / ٢٧).

وأما سليمان فيصنفه القرآن بالنبي الأواب: {ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب} [ص: ٣٠]، في حين تزعم التوراة بأنه ترك وصايا الله، وبنى معابد للأصنام إرضاءً لزوجاته الوثنيات (الملوك ١) / ١١ / ٣ - ١١)، فهذه المفارقات العظيمة في الصورة الإجمالية، وأكثر منها في تفاصيل الأخبار، وهي جميعاً تثبت التمايز بين الكتابين بما يحيل أن يكون القرآن منحولاً من الكتاب المقدس.

ويتجلى حال (نوح) على صفحات الكتاب المقدس وهو في أهون حال وشرّ سيرة؛ سكير ماجن، فقد: (انشغل نوح بالفلاحة وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عري أبيه فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجاً. فأخذ سام ويافث رداءً ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى وراء إلى داخل الخيمة وسترا عري أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فينظرا عريه. وعندما أفاق نوح من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير، قال: (ليكن كنعان ملعوناً) وليكن عبد العبيد لإخوته).^(١) رجل ماجن سكير، غافل عن عبادة ربه

^١ - تكوين ٩ / ٢٠-٢٥

مستهتر برسالته في الدنيا. كافأ من أحسن إليه بجزاء سنمار؛ فجعل اللعنة والذلة والعبودية في عقبه إلى يوم القيامة!؟ أما في القرآن {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} (آل عمران: ٣٣).

يعقوب النبي وهو يخدم أباه (إسحاق)؛ فيفتك البركة من أخيه الأكبر عيسو مستغلًا المرض الذي أصاب عيني أبيه، كما خدع خاله لابان مستوليًا بذلك على أكبر قسط من ماشيته؛ إذ جعل ماشية خاله تقف أمام قضبان مخططة في أجران المياه وهي وحى، كي تنتج ماشية مخططة^(١)؛ فيفصلها عن ماشية خاله ليلحقها بماشيته. أما يعقوب في القرآن فقد أثنى الله جلّ وعلا عليه وعلى أبيه فقال: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ} (الأنبياء: ٧٢-٧٣).

أما موسى وهارون: فأغرب صورة يقدمها العهد القديم لنبي من أنبياء الله هي صورة موسى وهارون عليهما السلام؛ فقد ماتا والرب غاضب عليهما!! موسى وهارون آثمان، خائنان للرب الذي حكم عليهما بالحرمان من دخول الأرض المقدسة الموعودة عقابًا لهما! هكذا يقول الكتاب المقدس (!!): فقال الرب لموسى وهرون: (من حيث أنكما لم تؤمناني حتى تقدساني على مرأى من بني إسرائيل فإنكما تدخلان هذا الشعب الأرض التي وهبتها لكم.)^(٢) وصفه بأنه من المؤمنين المحسنين: {سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} (الصفاء: ١٢٠-١٢٢) .

ولعلّه من الجميل أن نقارن بين موقف ورد في العهد القديم وما يقابله في القرآن الكريم؛ لنستبين عظم البون بين الكتابين: طلب (موسى) عليه السلام من الرب أن يعينه بأخيه (هارون) عليه السلام في البلاغ: في العهد القديم: فقال موسى للرب: (اصنع يا رب، أنا لم أكن في يوم من الأيام فصيحًا، لا في الأمس، ولا منذ أن خاطبت عبدك. إنما أنا بطيء النطق عيبى اللسان.) فقال الرب له: (من هو باري فم الإنسان؟ أو من يجعله أحرص أو أصم أو بصيرًا أو كفيفًا؟ أليست أنا الرب؟ فالآن انطلق فألقن فمك النطق، وأعلمك ماذا تقول.) لكن موسى أجاب: (ياسيد، أتوسل إليك أن ترسل من تشاء غيري.) ، فاحتدم غضب الرب على موسى وقال: (أليس هرون اللاوي أخاك؟ أنا أعلم أنه يحسن الكلام، وها هو أيضًا قادم للقائك. وحالما يراك يبتهج قلبه. فتحدثه وتلقن فمه الكلام، فأعينكما على القول، وأعلمكما ماذا تفعلان، فيخاطب هو الشعب عنك ويكون لك بمثابة فم وأنت تكون له بمثابة إله.)^(٣)

إنّه حوار بين (نبي) يريد التفلّت من وظيفة التبليغ، و(إله) ضيق (الصدر) يحشد الأدلة المتكاثرة؛ لإقناع (نبيه) العنيد، (صلب الرقبة)! أما في القرآن الكريم: {أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. قَالَ: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي؛ يَقْفَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي؛ هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي؛ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا. قَالَ: قَدْ أُوتِيَْتَ سُلْكَ يَا مُوسَى} [طه: ٢٤-٤٧].

إنّ عصمة النبيين في القرآن من مقارفة الكبائر، وصدقهم في تبليغ دعوة الحق سبحانه، تُقابل في أسفار اليهود والنصارى بنسبة الأنبياء إلى أخطأ الرذائل وأشدّها بعدًا عن الاستواء، وأشدّ من ذلك؛ فقد اتهم (بولس) مؤسس النصرانية، أنبياء الله أنهم بلّغوا الناس رسالة معيبة قاصرة لا تنفع: (فإنّه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها أو

^١ - هذا التفسير البدائي (للوح)، هو أحد الخرافات العلمية لأسفار القوم.

^٢ - العدد ١٣/٢٠ - ١٣

^٣ - الخروج ١٠/٤ - ١٦

عدم نفعها إذ الناموس لم يكمل شيئاً^(١).. وقد صرّح قبله النبي (حزقيال) أنّ الربّ الخالق قد اعترف أنّه بلغّ الناس (عن طريق بعض الأنبياء) وصايا باطلة وأحكاماً فاسدة!!^(٢)

إنّ فلسفة النصارى في عرض حال الأنبياء وتحليل نفسياتهم، تخالف صراحة -بل تناقض الفلسفة القرآنية في هذا النطاق، ففي حين يكرّز النصارى أنّ (الجميع قد ضلّوا على السواء. كلّهم فسدوا، وليس بينهم من يعمل الصلاح، ولا واحد)^(٣) وأنّ ذنوب الأنبياء وقبائح أفعالهم الواردة في الكتب المقدسة هي سبيل لنا لنعرف ضعف الإنسان وفساده^(٤)؛ فواقعهم في أحد أبرز أوجهه هو واقع عبث وموعظة، يعلن القرآن الكريم أنّ الأنبياء هم القدوة والأنموذج البشري الأمثل اعتقاداً وعملاً. فالأنبياء في أسفار النصارى، ساقطون لأنهم من نسل أبيهم الساقط -حاشا هؤلاء الأنبياء المكرمين!- وهم في القرآن نخبة منتقاة، ونماذج هادية مهدية مجتابة!

إن أبلغ حكم على أنبياء العهد القديم، هو ما قاله المنصّر دافيد أوبراين في كتابه *Today's Handbook for Solving Bible Difficulties* الذي ألفه للدفاع عن الكتاب المقدس والرد على مخالفته: (لا تكاد تجد أحداً منهم (أي من الأنبياء) من الممكن أن يسمح له بالالتحاق بجلّ كنائسنا دون أن يُشترط عليه) أن يصلح سلوكه بصورة بالغة^(٥)؛ فعامّة أنبياء الكتاب المقدس عند هذا المنصّر هم أخط وأرذل من أن يقبلوا في كنائس النصارى اليوم!!! وإنّ الأنبياء في القرآن الكريم، هم النخبة المعصومة، وكفى بذلك تميّزاً وامتنيازاً!^(٦) .

إنّ النظرة العادلة والمذهب المعتدل يقضيان أنه لو كان محمد ﷺ قد اطلع على ما ورد في الكتاب المقدس، لكان قد تأثر بهذه الأوصاف التي ألصقت بالربّ الخالق وبأنبيائه ، وأنه لو كان يدّعي النبوة زوراً (!) لحاول استجلاب أهل الكتاب بموافقتهم في صفات المعبود عندهم ، لقد أتى القرآن في موضوع العقيدة والنبوات متعالياً على الواقع.. وما كان لمحمد ﷺ لو كان هو مؤلف هذا الكتاب! - أن يتمّ له ذلك؛ لِثَقُلَ (العقل الباطن الجمعي) (Collective unconscious)^(٧) على الناس الذين كانوا يقبلون دين الأجداد دون حجاج ولا مراء. وقد اعترف البابا (يوحنا بولس الثاني)^(٨) نفسه أنّ (بعض أفضل الأسماء في اللغة البشرية، قد أطلقت على إله القرآن).^(٩) ، لقد كانت جزيرة العرب ذاك الزمن أعجز من أن تمنح أحداً تصوّراً عقدياً كالذي في القرآن الكريم؛ فإنّ سكان مكّة وما جاورها كانوا إما وثنيين يعبدون الأحجار، وإما يهوداً يُسبغون على إلههم صفات العنصرية، وإما قلّة من النصارى أصحاب عقيدة يمجّونها العقل السليم.. وإما حنفاء وقفوا عند نقطة الرفض لما هو موجود، دون أن يبلغوا الحقّ المنشود.

ثم إن قصص الأنبياء في التوراة معزولة في الأغلب عن الحكمة إذ (يتوحّش) فيها الهمّ السردى؛ حتّى لكأنّها مجرد حكاوي للتأريخ ولذلك تثقل المتابعة على القارئ في كثير من الأحيان لكثرة الأسماء، والأرقام والتفصيلات المكثّفة التي تستحوذ على صفحات طويلة دون فائدة مجتناة منها، ظاهرة أو مستكنّة بين طبقات الألفاظ والمباني..

^١ - الرسالة إلى العبرانيين ١٨/ ١٩

^٢ - حزقيال ٢٠/ ٢٥

^٣ - مزمو ١٤/ ٣

^٤ - انظر؛ شنودة الثالث، سنوات مع أسئلة الناس، أسئلة عقيدية ولاهوتية-ب، القاهرة: ١٠٠٢، ص ١٠٦

^٥ - David O'Brien, Today's Handbook for Solving Bible Difficulties, p. 233 (Quoted by, Dennis McKinsey, The Encyclopedia of Biblical Errancy, N.Y: Prometheus Books, 1995, p. 169)

^٦ - د. سامي العامري ص ٥٠ - ٦٤ بتلخيص، د. منقذ السقار، تنزيه القرآن ص ٧٠-٧٢.

^٧ - العقل الباطن الجمعي: مفهوم مرتبط بعلم النفس التحليلي، يدلّ على ما كمن في اللاشعور عند الفرد من نتاج خبرة جماعية لفريق من الناس يعتبر هذا الفرد جزءاً منها

^٨ - يوحنا بولس الثاني (١٩٢٠م-٢٠٠٥م): بابا الفاتيكان من ١٩٧٨م إلى ٢٠٠٥م. من أشهر البابوات الذين سعوا إلى تنصير المسلمين؛ خاصة الأفارقة منهم.

^٩ - John Paul II, Crossing the Threshold of Hope, ed. Vittorio Messori, New York: Random House, Inc., 1995, p.92

ولعلّه يحسن بنا أن نسوق مقارنة مباشرة بين ما ورد في العهد القديم وما يقابله في القرآن الكريم في سرد

١- قصة أكل (آدم) و(حواء) من الشجرة المحرمة وموقف الرب منهما.

٢- قصة الخلق.

٣- والطوفان.

٤- قصة يوسف.

لنستبين عظم البون بين الكتابين في الحديث عن (الإله) وصفاته والنبوة وخصائصها:

١- الرب .. و(آدم) .. و(حواء).. الخروج من الجنة !! مقارنة بين القرآن والعهد القديم

تكشف المقارنة بين القصة الكتابية لخروج (آدم) و(حواء) من الجنة وما يقابلها في القرآن الكريم، الاختلاف الكبير بينهما في تصوّر الألوهية وصفات الرب الإله:

أولاً: بدأت قصة الاختبار في الكتاب المقدس والقرآن الكريم بأمر النهي عن الأكل من الشجرة. وقد جاء النص القرآني مُبهِماً لطبيعة الشجرة ولنوعها؛ لأنّ العبرة هي في امتحان آدم وزوجه، بطاعة الأمر أو بعصيانها؟ {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٣٥] ، أمّا النص التوراتي فيفاجئ القارئ بزعمه أنّ هذه الشجرة، هي شجرة المعرفة التي من يأكل منها؛ يرزق بصيرة التمييز بين الخير والشر (تكوين ٣/٢٢) . إنّ الأمر ليس متعلّقاً في حقيقته باختبار (آدم) وزوجه، وإنّما خشية الربّ أن يرزق الإنسان المعرفة، هي التي دفعته إلى أن يحذرهما من الأكل منها!

ثانياً: يقول القرآن الكريم إنّ الشيطان في سبيل إغواء آدم وزوجه، زعم أنّ هذه الشجرة هي شجرة الحياة، وأنّ من يأكل منها يحيى إلى الأبد: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} (طه: ١٢)، في حين تخبرنا التوراة أنّ شجرة الخلد هي شجرة أخرى غير شجرة المعرفة التي أكل منها آدم وزوجه، وأنّ الربّ قد قال بعد أن أكل الزوجان من شجرة المعرفة: (ها الإنسان قد صار كواحد منا، يميّز بين الخير والشر. وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل؛ فيحيا إلى الأبد.) (تكوين ٣/٢٢) .. لقد أصيب الإله بحالة قلق وارتعاب (!)؛ لأنه بعد أن تمكّن الزوجان من خداعه والأكل من شجرة المعرفة، خشي أن يُخدع مرة أخرى ويتمكّن الزوجان من استغفاله والأكل من شجرة الحياة، إذ إنّهما إذا أكلا منها؛ فلن يصيبهما الموت، وعندها لن يستطيع الإله أن يميتهما؛ فهو يتوجس من ذكائهما، ويحاول أن يمنع (المصيبة) قبل وقوعها! ولم يهنأ قلب الإله بالراحة ويتنفس صدره نسيم الطمأنينة إلّا بعد أن جهّز فريق حراسة من الملائكة المتيقظين وسيّفاً نارياً متحرّكاً حارّفاً لمنع آدم وزوجه من اللعب بذليلهما دون علمه، ومغافلتة ومشاركته صفة البقاء الدائم الذي لا يعقبه موت، بالأكل من شجرة الحياة وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم وسيّفاً نارياً متقلّباً شرقي الجنة لحراسة الطريق المفضية إلى (شجرة الحياة)!! (تكوين ٣/٣٤) —غفرانك يا رب!

ثالثاً: يبدو الشيطان في التوراة أصدق لهجة من الربّ؛ إذ إنّّه قد أخبر آدم وحواء عن حقيقة الشجرة، وعن السبب الحقيقي لمنع الربّ لهما من الأكل منها، وبقية الرواية التوراتية تؤكد صدق الشيطان في ما أخبرهما به، في حين يبدو الربّ من أهل الكذب (!)؛ فقد قال لآدم: ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأنك حين تأكل منها حتماً تموت. (تكوين ٢: ٢٧) ، لكن لما أكل آدم وزوجه منها، لم يموتا! أمّا القرآن الكريم فيصوّر الشيطان في صورة المخلوق الكاذب المخادع:

{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْ لَكُمْ لِمَنِ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} {الأعراف: ٢٠-٢٢}؛ فالشيطان هو الموسوس بالباطل، الكاذب، المخادع.

رابعاً: يبدو الإله في القصة التوراتية متلبساً بالجهل وقصور المدارك؛ فهو قد خلق آدم، وبعد أن فرغ من ذلك استبان له! أنَّ آدم يحتاج إلى رفيقة (تكوين ٢/١٨)، فخلق له حواء فقد بدا له من العلم المحدث بعدما كان قبل ذلك جاهلاً بحال آدم الوحيد بعد خلقه. وهذا الإله ذاته لما كان يمشي! في الجنة، اختبأ من مجال بصره! كلٌّ من آدم وحواء بعدما أكلا من ثمر الشجرة وانكشفت منهما العورة، فاضطر هذا الإله! إلى أن ينادي على آدم: (أين أنت؟) (تكوين ٣/٩)! ولما أخبر آدم الربَّ أنه قد اختبأ منه لأنَّه عريان؛ سأله الرب الجاهل بما يجري من أحداث!!: (من قال لك إنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التي نهيتهك عنها؟)، وليس في القرآن الكريم شيء من هذا الخبط والتخليط فالله سبحانه هو {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} (التوبة: ٩٤)

خامساً: يبدو الإله في القصة التوراتية متشنجاً إلى الدرجة التي فقد معها الحكمة إذ إنَّه لما غضب من الشيطان الذي كان يظهر في صورة حيَّة ل حواء وآدم:

(أ)عاقب الحيَّات جميعاً، رغم أنَّ الحيَّات لا ذنب لها أصلاً وإنَّما كان الشيطان يظهر في صورة واحدة منها. ومن صور هذا العقاب أن جعل الحيَّة تسعى على بطنها (تكوين ٣/١٤) فهل كانت الحيَّة قبل ذلك تمشي على أربع!!؟ كما عاقب الحيَّات بأن جعلها تأكل التراب طول حياتها (تكوين ٣/١٤)؛ فهل رأى أحد حيَّة تأكل التراب!؟

(ب)جعل آلام الوضع عقوبة لكلِّ امرأة (تكوين ٣/١٦) فما ذنب النساء فيما اجترحته (حواء) الأولى؟! وهل استطاعت المرأة أن تفلت من عذاب الله بعد اكتشاف التحدير!!؟ وعاقب الربَّ المرأة بأن جعل كلَّ امرأة تشفق إلى زوجها (تكوين ٣/١٦) فهل يقول عاقل إن اشتياق المرأة لزوجها نكايّة ربّانيّة بالأنثى؟! وجعل قوامه الرجل على المرأة لعنة متوارثة (تكوين ٣/١٦)، فكيف يستقيم ذلك رغم حرص الكتاب المقدس على التأكيد على القيمة العظمى لطاعة المرأة زوجها!!؟ (انظر كولوسي ٣/١٨، ١ كورنثوس ١٤/٣٤-٣٥)

(ت) عاقب الربَّ آدم بأن جعله يأكل من عشب الأرض، أو كما يقول النص في حرفيته عشب الحقل، فإن قلنا إنَّ العشب هو هذا النبات الأخضر المتعارف على تسميته بهذا الاسم؛ فالإنسان لا يأكله أصلاً، وإن قلنا إنَّ المقصود به هو ما تنبتة الأرض من خضراوات وفواكه؛ قلنا؛ تلك رحمة من الله بعباده وليست نكالا بهم، وقد جاء في التوراة نفسها أنَّ الله قد خلق ما تنبتة الأرض مما يأكله الإنسان (تكوين ١/٢٩) ورأى أنَّ ذلك أمر جيد جداً! (تكوين ١/٣١) وليس في القرآن الكريم من الشنائع السابقة شيء!^(١)

٢. رواية الخلق بين الكتاب المقدس والقرآن:

جاءت قصة خلق العالم في التوراة في روايتين من سفر التكوين أولاهما تسمى الرواية الكهنوتية التي كتبت بواسطة الكهنة في عصر المنفى والثانية رواية (يهوية)، أي من بين النصوص التوراتية التي تستخدم لفظ (يهوه) للتعبير عن اسم الإله وهي أقدم تاريخياً من الرواية الأولى وإن جاءت في النصوص تالية لها على النحو التالي(٢)

الرواية الأولى

^١ - د. سامي العامري مرجع سابق
^٢ - سفر التكوين (١/١، ٢/٩).

(في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً. وقال الله ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء. وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً. وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاها بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله لتنبث الأرض عشباً وبقلاً يبرز بزرّاً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمرًا كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبرز بزرّاً كجنسه وشجراً يعمل ثمرًا بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً. وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل. والنجوم وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل وتنفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً. وقال الله لتفيض المياه زخافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلاً أثمري وأكثرِي واملائي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً. وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها. بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها. وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكر وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا وملأوا الأرض وأخضعوها وتسלטوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبرز بزرّاً على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبرز بزرّاً لكم يكون طعاماً. ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً. وكان كذلك. ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً. فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع و قدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً.)

الرواية الثانية

(هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقت. يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض. ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض. وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل).

أما رواية خلق العالم في القرآن فلم تأت مجتمعة في مكان واحد شأن غيرها من القصص القرآني، وإنما جاءت متضمنة في نقاط أساسية هي:

١ . خلق السماوات والأرض في مراحل ستة قال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } (ق: ٣٨) .

٢ . تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض: { قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ تُمْ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (فصلت: ١٢٠٩) .

٣ . خلق الكون من كومة أولية فريدة متماسكة قال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } (الأنبياء: ٣٠) .

٤ . تعدد السماوات والكواكب التي تشبه الأرض: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ } (الطلاق: ١٢) .

٥ . خلق عالم وسيط بين السماوات والأرض قال تعالى: { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } (الفرقان: ٥٩)، ويقول تعالى: { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى } (طه: ٦) .
تتفق الرواية القرآنية مع الرواية التوراتية في مسألتين فقط:

١ . عدد أدوار الخلق الستة. ٢ . جعل النجوم مصدر النور.

أما وجوه الاختلاف فكثيرة يمثل كل منهما خطأ علميًا وقعت فيه الرواية التوراتية، وتأكيذاً علميًا على صحة الرواية القرآنية وهذه الوجوه هي:

١ . انفراد القرآن ببيان كيفية نشأة الكون من الكتلة الأولية التي تفتقت بفعل انفجار كبير يطلق عليه العلم الحديث نظرية الانفجار العظيم (The Big Bang) (١) .

٢ . المراحل الست في القرآن مراحل زمنية مديدة وليست ستة أيام بشرية بحساب تعاقب شروقين أو غروبين، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } (السجدة: ٥٤) .

وهذا ما يؤكد علماء الفيزياء الكونية من أن انفصال الأرض عن الشمس كان منذ خمسة آلاف مليون سنة تقريباً ، وأن الأرض ظلت مئات الألوف من السنين كي يبرد سطحها (٢) . ويقابل هذا المفهوم القرآني لمراحل الخلق الستة حصر توراتي خاطئ للمراحل الست في ستة أيام بشرية تبدأ بالأحد وتنتهي بالجمعة ويعقبها يوم السبت المقدس يوم الراحة الذي استراح الله -تعالى- فيه من عملية الخلق، وباركه وقدهس .

ويفسر جيمس فريزر عالم الديانات المقارنة الشهير أسباب وقوع الرواية التوراتية في هذا الخطأ العلمي الشنيع ، بأن رواية خلق العالم في التوراة لم تكن سوى تمهيد من الكهنة لخلق القداسة على يوم السبت يوم العبادة والراحة لدى اليهود (٣) . وكان المصدر الذي استقى منه الكهنة تقديس اليوم السابع من أيام الخلق هو ملحمة خلق العالم

^١ -كارل ساغان ، الكون ، ص ١٢٤ ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٨) ، وزارة الإعلام بالكويت .

^٢ A . Wells ، Outlines of geoloical History ، pp . 37 - 3 ، ndon 1938 . وانظر كارل ساغان ، الموضوع السابق .

^٣ - جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم (١/ ١٠٨) مرجع سابق .

البابلية (انوما ايليش)^(١) . وقد ترتب على هذا الخطأ في رواية الخلق التوراتية خطأ آخر وقعت فيه روايات العهد القديم وكذلك العهد الجديد كما يبدو في تصور إنجيل لوقا لشجرة أنساب المسيح ألا وهو حساب عمر الإنسان على الأرض بأنه بدأ في التاسعة صباح يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد^(٢) . أي قبل ستة آلاف سنة من عامنا هذا.

٣ . إشارة القرآن إلى حالة غازية في بداية عملية الخلق { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (فصلت ١١) . وهي تتطابق مع معطيات العلم الحديث^(٣) .

٤ . وجود العوالم الوسطية التي أخبر القرآن بخلقها بين السماوات والأرض يسميها العلم الحديث بالبقايا أو المادة الكونية المنتشرة بين النجوم ، ويصفها بأنها ذات كتل هائلة^(٤) .

٥ . اشتغال رواية العهد القديم -منفردة- على الأخطاء التالية^(٥) .

. الإشارة إلى وجود المياه في المرحلة الأولى من مراحل الخلق.

. ذكر النور في اليوم الأول قبل أن تخلق النجوم.

. ذكر الليل والنهار في اليوم الأول قبل وجود الأرض ودورانها حول الشمس.

. وجود العالم النباتي في اليوم الثالث قبل خلق الشمس في اليوم الرابع.

. خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض وذلك يناقض المعلومات الأساسية عن تشكل النظام الشمسي.

. الإشارة إلى عالم الحيوان والطيور في اليوم الخامس مع أن وجود الطيور تال لوجود عالم الحيوان.

٣ . طوفان نوح بين الرواية التوراتية والقرآن:

تتفق رواية القرآن لقصة الطوفان مع رواية التوراة في العناصر التالية:

١ . أسباب السيل (الأمطار الغزيرة وتفجر عيون الماء من الأرض).

٢ . صنع نوح لسفينة النجاة.

٣ . حمل بعض البشر وبعض الحيوانات والطيور في سفينة النجاة.

وتختلف الروايتان في أمرين جوهريين:

الأول : حجم الطوفان: يأتي الطوفان في القرآن عقاباً خاصاً لقوم نوح شأن غيرهم من مكذبي الرسل : { وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سِلْجًا لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً } (الفرقان ٣٧)، أما في التوراة فإن الطوفان عقاب عالمي لكل البشرية يقول سفر التكوين : (فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم ، فهذا أنا مهلكهم مع الأرض اصنع لنفسك فلكاً . . . فهذا أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء كل ما في الأرض يموت)^(٦) .

وهذا التدمير الشامل للأرض كما تحكيه التوراة غير مقبول من الناحية التاريخية ، فبحسب تقويم العهد القديم يرجع تاريخ الطوفان إلى القرن الحادي أو الثاني والعشرين قبل الميلاد وهو يقابل تاريخ وجود الأسرة الحادية والعشرين

^١ - زنون كاسيدوفسكي ، الواقع والأسطورة في التوراة ، ص ٢٣ ، الأجدية للنشر . دمشق ١٩٩٠ م .

^٢ - السابق ، ص ٢٤ .

^٣ - موبس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم ، ص ١٧١ . ١٧٢ .

^٤ - السابق ، ص ١٧٠ . ١٧١ .

^٥ - السابق ، ص ٤١ . ٤٥ .

^٦ - سفر التكوين (٦ / ١٧٠) .

من أسر الفترة الوسطى في مصر^(١). ومن الناحية العلمية فإن القول بوقوع تدمير شامل للكرة الأرضية يتعارض مع أبسط مبادئ الجيولوجيا^(٢). لذلك يفسره جيمس فريزر بأنه مناسبة خلقها الكهنة لإقامة عهد بين الرب وفئة الناجين المنتقاة حسب الشروط الكهنوتية^(٣).

الثاني: موقع الطوفان: تحدد التوراة مكان استقرار سفينة نوح: (في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراط) (التكوين ٤/٨)، وجبال أراط تقع في تركيا كما توضح ذلك خريطة الشرق الأوسط في العهد القديم.

أما القرآن فيحدد استقرار السفينة على (الجودي) وهو اسم جبل يقع في الموصل بالقرب من التقاء نهري دجلة والفرات غير بعيد من مدينة (أور) عاصمة السومريين القديمة وذلك ما أكدته الاكتشافات الكبيرة لعالم الآثار الإنجليزي ليونارد وولي الذي اكتشف مدينة أور وتحت مقابر ملوكها اكتشف طبقة من الطمي النهري سمكها ثلاثة أمتار ، وتحتها آثار عمرانية لجماعة بشرية عاشت في زمن سحيق وأغرقها سيل مائي هائل ، وبعد أن انحسرت مياهه جاءت بلاد الرافدين موجات بشرية أخرى سكنت المكان وهم السومريون^(٤).

٤ . قصة يوسف بين التوراة والقرآن:

قصة يوسف هي القصة القرآنية الوحيدة التي جاءت في مكان واحد من سورة تحمل اسم النبي يوسف بن يعقوب عليهما السلام لذلك يسهل وضعها بالتوازي في مقابلة القصة التوراتية للوقوف على وجوه تباين التفاصيل بين القصتين^(٥) ويكشف جدول التفاصيل التالي وجوه تباين واختلاف بين رواية القرآن ورواية العهد القديم^(٦)

١ . القرآن يضع القصة في إطار ديني تنفذ منه أشعة روحية إلى النفس ببيان العبرة التربوية والأخلاقية التي من أجلها أنزل الله القصة. أما العهد العتيق فقد وضع القصة في إطار عائلي، يحمل طابع السرد التاريخي المجرد، دون أن يشير إلى ما وراء الأحداث من عظات.

٢ . يذكر القرآن أن إخوة يوسف تضايقوا من حب والدهم له ولأخيه ولم تشر التوراة إلى الأخ بشيء
٣ . رؤيا يوسف التي قصّها على أبيه كما في النص القرآني تتلخص في أنه رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين والذي في التوراة أن يوسف رأى قبلها رؤيا، فقد رأى أنه وإياهم يحزمون حزمًا في الحقل في الصحراء فإذا حزمته قامت وأحاطت بحزم إخوته فسجدت لحزمته حزمهم فقال له إخوته: أعلك تملك علينا ملكًا؟ أم تتسلط علينا تسلطًا؟ وازدادوا بغضًا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه، وأما الرؤيا الثانية فهي كما في القرآن من حيث المضمون ولكن يوسف قصها على أبيه وإخوته، ولم يعلق الإخوة ولكن الأب انتهره وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت؟ هل تأتي أنا وأملك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟

٤ . لم تذكر التوراة أن الإخوة تفاوضوا على قتل يوسف أو أنهم راودوا أباهم لإخراجه معهم ولكن الأب يرسل يوسف لينظر سلامتهم وسلامة الغنم ثم يرد لأبيه الخبر فذهب إليهم وعندما رأوه تفاوضوا في شأنه.

٥ . تأمر إخوة يوسف عليه إما قتلا أو طرًا أو إلقاء في الجب هكذا في القرآن، والذي في التوراة أن أحد الإخوة راؤبين استبعد فكرة القتل وأشار بالطرح في البئر التي في البرية، لا لتلقطه السيارة ولكن ليغافلهم ويستخرجه من البئر

^١ - موبس بوكاي ، ص ٥٣ . ٥٤ ، مرجع سابق .

^٢ - جيمس فريزر ، الفلكور في العهد القديم (١ / ٩٢) مرجع سابق .

^٣ - السابق (١ / ١٠٨) .

^٤ - زنون كاسيدوفسكي ، الواقع والأسطورة في التوراة ، ص ٢٦ .

^٥ - مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص ٢٤٠ . ٢٤١ .

^٦ - أحمد نوفل ، سورة يوسف : دراسة تحليلية ، ص ٦٠ . ٦٦ ، دار الفرقان . عتاق ١٤٠٩ هـ . ١٩٨٩ م .

ليعيده إلى أبيهم.

٦ . في القرآن أن إخوة يوسف جاءوا على قميص أخيه بدم كذب وجاؤوا أباهم وقت العشاء ليكون أحاهم فأجابهم بما نعلم والذي في التوراة أنهم لم يجيئوا إلى أبيهم بل أرسلوا القميص الملون المغموس بالدم وأحضره لأبيهم بواسطة الرسول الذي أرسلوه.

٧ . في القرآن أن يعقوب تجلد للمصاب الجلل وما زاد على أن قال كلمات نورانية سامقة: {فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} ومثل هذا الموقف الرجولي الإيماني الرفيع هو اللائق بالنبي الكريم وأما التوراة فتقول: (فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة) .

٨ . في التوراة استطرد عن زنى أحد الأسباط بكنته!! ولا علاقة قطعاً بين الخبر المحشور في السياق وبين القصة ٩ . ليس في التوراة من قول العزيز لامرأته أكرمي مثواه بل تقفز مباشرة إلى قول المرأة ليوسف عندما دخل بيتها الخاص ورفعت عينها إليه وقالت: اضطجع معي وليس في التوراة ذكر تعرض المرأة له بالمرادة غير ما ذكر ولا تغليق الأبواب ولا قد الثوب ولا استباق الباب ولكن فيها أن المرأة أمسكت بثوب يوسف فتركه عندها وخرج.

١٠ . ليس في التوراة قصة الشاهد على روعة مغزاها وليس فيها خبر النسوة على الرغم من دوره في النسيج القصصي ولكن الذي في التوراة بعد أن حمي غضب العزيز أنه أخذ يوسف ووضع في بيت السجن.

١١ . في التوراة أن رؤيا الملك حصلت بعد سنتين من خروج الساقى.

١٢ . وبالنسبة لمجيء إخوة يوسف إلى مصر فإن التوراة تذكر أن يوسف حبسهم وسلك معهم مسلك إعنات حتى يأتوه بأخيهم وقال لهم: جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم بهذا تمتحنون وحيات فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيك الصغير.

١٣ . ختام القصة حيث تقول التوراة بعد أن ذكرت موت يعقوب ودفنه: (واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً: الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا ثم مات يوسف وهو ابن مائةٍ وعشر سنين وحنطوه ووضع في تابوت في مصر)، هكذا تنتهي القصة في التوراة بخاتمة ميتة فنيًا.

ولكن جاءت الخاتمة الفنية في القرآن الكريم مناسبة ومعبرة: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا.... رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١].

من وجوه الاختلاف ذات الصلة بالناحية التاريخية التالي:

حاكم مصر: تذكر التوراة أنه فرعون، ويحكي القرآن أنه ملك وليس فرعوناً، وهذا ما أكدته الدراسات التاريخية المعاصرة التي أجراها عالم المصريات الفرنسي بيير مونتيه استناداً إلى تحديد العاصمة التي كان يحكم منها يوسف وهي أفراس الواقعة في دلتا النيل قرب قرية سان الحجر المعاصرة ذات الكتابات الهكسوسية الغزيرة وهو ما يقطع بأن قصة حياته تعود إلى فترة حكم الهكسوس لأن فراغة الأسرة الثامنة عشرة نقلوا العاصمة إلى طيبة بعد طرد الهكسوس^(١).

كذلك تذكر الوثائق المصرية التي ترجع تاريخها إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد القبائل الكنعانية الرعوية التي جاءت واستقرت في مصر. كما أن المؤرخ اليهودي يوسفس فيلافيوس يتحدث عن الهكسوس على أنهم

^١ - زنتون كاسيوفسكي ، الحقيقة والأسطورة في التوراة ، ص ٨٠ ، مرجع سابق .

أجداًه^(١) وتتطابق نتائج هذه الدراسات التاريخية مع بعض إشارات النص التوراتي ، حيث يذكر سفر التكوين في سياق القصة أن المصريين كانوا يعدّون العبرانيين رجساً ، فيكون من غير الطبيعي والمنطقي أن يسمح حكام مصر من الفراعنة أن يتسلط على المصريين من يعدونه رجساً بل الشيء المنطقي الوحيد أن يكون الهكسوس المحتلون الأجانب عن مصر قد استعانوا بآسيوي أجني مثلهم في حكم البلاد .

مقارنة أوسع وأشمل في خمسين نقطة تفصيلية حول قصة يوسف:

لما كان المنصرون وعامة المستشرقين يرون أنّ الاقتباس القرآني من أسفار أهل الكتاب يظهر أساساً في مجال القصص باعتباره يتضمن من المعلومات والأخبار ما لا يُعلم إلا بالنقل أو الوحي الإلهي الذي ينفيه القوم عن القرآن؛ فإننا سنعرض في الصفحات التالية مقارنة مباشرة بين قصّة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم وما يوازيها في سفر التكوين اليهودي النصراني (الفصول ٣٧، ٣٩ - ٥٠) كمثال حي نابض بالتفاصيل ودقائق المسائل التي تُبين عن تماثل قول المخالفين من المنصّرين والمستشرقين.

سنناقش النصوص كما وردت بلفظها، وننظر في أحداثها وأقوال أبطالها؛ لتبيّن الفارق بين الروايتين، ومدى الامكانية العقلية والتاريخية للاقتباس، وتكمن أهمية اختيار قصّة يوسف؛ في أنها جاءت بتفصيل شديد في القرآن الكريم، بل واستوعبت سورة قرآنية طويلة، كما أنّ المنصّرين قد جعلوها عمدة دعواهم في أمر الاقتباس. وقد صدرت عدّة دراسات استشراقية في دراسة سورة يوسف ومقارنتها بما جاء في التوراة وبقية الكتابات اليهودية القديمة، لكن لم تكن عامة هذه الأبحاث خالصة لهذا الموضوع، وإنما صدرت أساساً ضمن مواضيع أكبر.

وصدرت في المقابل بعض الدراسات الخاصة بهذا الموضوع عينا، ومنها:

Shalom Goldman, The Joseph Story in Jewish and Islamic Lore

وهي أطروحة دكتوراه قدّمت في جامعة نيويورك، سنة ١٩٨٦م

Marc Steven Bernstein, The Story of our Master Joseph: Intertextuality in Judaism and

Islam، وهي أطروحة دكتوراه قدّمت في جامعة كاليفورنيا، سنة ١٩٩٢م

D. Kuntzlinger, Die Suratu Jusufa, Kedem, 1907

I. Shapiro, Die Haggadischen Elements im erzählenden Teil des Korans, Berlin:

Itzkowski, 1907

Marilyn R. Waldman, New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an, in The

Muslim World, January 1985, V. 75, N.1

وهو مقال قيّم في إثبات الاختلافات الكبيرة بين النصّ القرآني والنص الكتابي في سرد قصّة يوسف عليه السلام؛ بما ينفي أن تكون القصّة القرآنية مأخوذة من الكتاب المقدس، وحتى نيسر على القارئ تبين أوجه الإعجاز والنقاء القرآني في سورة يوسف لينكشف ضلال القول بالاقتباس المزعوم؛ فإننا سنقارن بين الروايتين من عدة نواح:

- الاختلافات في تفاصيل القصّة.
- تصحيح القرآن الكريم لأخطاء الرواية التوراتية.
- تلافي القرآن الكريم لأخطاء الرواية التوراتية.
- خلو الرواية القرآنية من تناقضات الرواية التوراتية.

^١ - السابق ، ص ٧٨ . عن كتاب الغارة التصيرية على القرآن الكريم ، د. عبد الراضي عبد المحسن، ص: ١١٦-١٣٢

- ارتباط الرواية القرآنية بحقيقتي التوحيد وعصمة النبوة، على خلاف الرواية التوراتية.
 - موافقة القرآن الكريم للمنطق الروائي المقبول، على خلاف الرواية التوراتية.
 - الاختلاف البارز في فلسفة القصة وعظمتها بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية.
- والناظر في هذه الاختلافات يرى بنور الحق تمايز المصادر بين القرآن الكريم والتوراة اليهودية-النصرانية .. ولعلّ التفصيل والبيان يزيلان غبش الشبهة عن بصيرة المعارض: ^(١)

أولاً: تبدو قصة يوسف التوراتية مجرد فصول في رواية كبرى، تتابع أحداثها وتتلاحق أنفاسها دون أن تصعد بالقارئ إلى الحقيقة العليا والرسالة الكبرى التي أفنى الأنبياء أعمارهم في الدعوة إليها ألا وهي حقيقة التوحيد ونبد الشرك، فغاية القصة التوراتية قد اختزلت في انتصار طفل مظلوم على إخوته الذين جاروا عليه وقلبوا له مجنّ الأخوة، وفي المقابل، يشير القرآن بجلاء إلى أنّ التوحيد هو محور حياة الأنبياء وجوهر دعوتهم ووقود حركتهم؛ إذ تُظهر الآيات القرآنية يوسف عليه السلام وهو في قلب المحنة وأتون محرقة السجن، ينصرف بمجامع قلبه إلى السجينين اللذين كانا معه، بعدما كسب قلبيهما بتفسيره لرؤيا كل منهما، إلى دعوتهما إلى توحيد ربّ العبيد بأسلوب القدوة الحية والمثال النابض، لا بالكلمات الجامدة المنمّقة؛ فقال: { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (يوسف: ٣٧-٤٠).

ثانياً: طول الرواية التوراتية ^(٢) لقصة يوسف وكثرة الأسماء والتفصيل الروائي أفقدها جانب الحكمة والموعظة، في حين يظهر أمر الوعظ والحكمة بجلاء في النصّ القرآني من خلال التركيز على أحداث معينة مخصصة واقتناص مقاطع قصيرة من السيرة الطويلة وغياب الكلف بسرد الأسماء والأماكن والأزمنة، وقد جاء التنبيه المباشر على هذه الحقيقة في عدد من آيات سورة يوسف: { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (يوسف: ١١١) ، { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } (يوسف: ٣) ، { لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ } (يوسف: ٧).

ثالثاً: غاب ذكر الآخرة بصورة تامة في القصة التوراتية، وكأنّ الدنيا هي دار العمل والجزاء في نفس الآن، ولا عاقبة يُردّ إليها المرء. في حين يتفرد القرآن الكريم بذكر الآخرة وأنها مآل كلّ حيٍّ عامل: { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } (يوسف: ٥٧).

رابعاً: تظهر التوراة يوسف عليه السلام وله من العمر سبع عشرة سنة يرتكب فعلاً قبيحاً مؤذياً لإخوته وموغراً لصدر أبيهم عليهم؛ وهو أنّه كان ينقل سيئ أخبارهم إلى أبيهم: (وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم) (تكوين ٢/٣٧) وقد دفع هذا الأمر بعض الأخبار إلى أن يقولوا في تفاسيرهم كلاماً شديداً في ذمّ يوسف! ^(٣) .. في حين تغيب

^١ - هنالك مقارنة القيمة أجزاها د. محمد يومي مهراين بين القصة القرآنية والقصة التوراتية ليوسف عليه السلام (انظر؛ محمد يومي مهراين، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١٠٩/٢-١٣٢). معظم الدراسة منها .

^٢ - يبلغ طول الرواية التوراتية قرابة ثلاثة أضعاف القصة القرآنية.

^٣ - انظر؛ Shalom Goldman, The Joseph Story in Jewish and Islamic Lore, p. 86

هذه الصورة تمامًا عن القرآن الكريم؛ وفي ذلك تأكيد لارتباط العصمة بالنبوة، والكمال الأخلاقي بالتبليغ عن رب العالمين؛ إذ النبوة في أصلها اجتهاد رباني لمطهر بشري.

خامسا: تذكر التوراة أن يعقوب هو الذي طلب من يوسف أن يذهب إلى إخوته الذين يرفعون أغنامهم عند شكيم (تكوين ٣٧/١٢-١٦) والتي يحتمل أنها تل بلاطة شرق نابلس الحالية بينما يقرر القرآن الكريم أن إخوة يوسف هم الذين طلبوا من أبيهم أن يذهب يوسف معهم، لأن أباه كان يخشى عليه من حقدهم، {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْنَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (يوسف: ١١-١٢). فالنص القرآني متساق مع فطنة الأب الحريص على ابنه، في حين أن النص التوراتي يعارض ما سبق من الرواية كما يصادم راحة عقل الأب الرؤوم!

سادسا: يفهم من سفر التكوين (٢٦/٣٧-٢٨) أن يهوذا هو صاحب الكلمة في تقرير طريقة التخلص من يوسف عليه السلام؛ فقد اقترح على إخوته أن يبيعوا يوسف للإسماعيلين بعشرين مثقالاً، في حين نرى في نفس السفر (٢١/٣٧-٢٤) أن رأوبين هو صاحب الصوت الأعلى الذي اقترح اللقاء في الجب ووافق الجميع على ذلك، وقد أخذه بعد ذلك التجار المديانيون. (تكوين ٣٧/٢٨) والأمر كذلك بالنسبة إلى بيعه إلى فوطيفار ففي أول القصة أن البائعين هم قوم من مدين (تكوين ٣٧/٣٦)، بينما هم في آخرها من الإسماعيلين (تكوين ٣٩/١) وقد أقر بهذا التناقض التعليق الكاثوليكي على ترجمة *The New American Bible* عند التعليق على ٣٧/٢١-٣٦؛ وقرر أن تكوين ٣٧/٢٥-٢٨ يعود إلى (المصدر اليهودي) وهو الذي ذكر أن يهوذا قد اقترح بيعه للإسماعيلين في حين يعود تكوين ٣٧/٢١-٢٤ وتكوين ٣٧/٢٨-٣٦ إلى المصدر الإلهيمي^(١)، وليس في القرآن الكريم من هذا التناقض شيء!

سابعا: تظهر التوراة يعقوب عليه السلام وهو يصدق كذب أبنائه بعد تأمرهم على أخيهام، ويأسه عقب المؤامرة: وقال قميص ابني وحش رديء أكله، افترس يوسف افتراساً فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه، وناح على ابنه أياماً كثيرة (تكوين ٣٧/٣٣-٣٤) في حين يشير القرآن الكريم إلى ارتياب يعقوب في بنيه عقب تنفيذ المؤامرة: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبَّرْ جَمِيلاً وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} (يوسف: ١٧-١٨). وهكذا هو قلب المؤمن إذا عمر بالإيمان وأشرقت فيه أنوار الصفاء؛ فهو يستشف بقلبه الصافي بعض ما لا تدركه الحواس، وذاك من كرم الرب سبحانه يهبه لمن يشاء.

ثامنا: تذكر التوراة أن أبناء يعقوب (يعقوب) قد أحضروا قميص أخيهام إلى أبيهم وعليه دم، ولم يذكر كيف قتل (تكوين: ٣٧/٣٢-٣٣)، في حين يشير القرآن إلى أن أبناء يعقوب قد ادّعوا صراحة أن الذئب قد قتل أحاهم، وهذا أليق بحال إخوة يوسف في اعتذارهم لأنفسهم من الاقتصار على تقديم قميص أخيهام ملوثاً بالدم، خاصة أن تلك الأرض كانت فيها ذئاب سارحة؛ فقد قال لهم أبوهام قبل خروجهم بيوسف: {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} (يوسف: ١٣).

^١ - انظر؛ Saint Joseph Edition of the New American Bible, p. 43

يتبنى عامة النقاد اليوم النظرية الوثائقية Documentary Hypothesis وهي ترجع أسفار موسى الخمسة إلى أربعة مصادر متمايزة في المنبت ومتداخلة عامة داخل هذه الكتب، وهي: المصدر اليهودي والمصدر الإلهيمي والمصدر الكهنوتي، والمصدر الشوي. انظر؛ Richard Elliott Friedman, Who Wrote the Bible?, New York: Summit Books, 1987 وهي نظرية موقفة في حديثها عن وجود مصادر مختلفة لمجموع النصوص، غير أن هذا التقسيم الرباعي لا دليل حاسم يشهد له. وأرجو أن يقوم لهذه المسألة ناقد مسلم ليبحثها من منطلق قرآني يستخلص به الأصيل والدخيل و(الممكن)، لتأصيل نظرية إسلامية في مصادر هذه النصوص.

تاسعا: تذكر التوراة أنّ الحب الذي ألقى فيه يوسف هو بئر فارغة ليس فيها ماء، أمّا القرآن فيشير إلى عكس ذلك: {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ} (يوسف: ١٩)، (تكوين ٣٧/٢٤) وهذا هو المنطقي؛ إذ إنّ المسافرين يردّون الآبار للتزوّد بالماء، ولا يقربون الآبار الجافة!

عاشرا: تذكر التوراة أنّ يوسف قد بيع إلى القافلة المارة من طرف إخوته بعشرين قطعة من الفضة (تكوين ٣٧/٢٨)، ويذكر عالم المصريات Georg Ebers^(١) أنّ هذا المبلغ هو الثمن المفترض للعبيد في ذاك الزمان^(٢)، في حين يقرّر القرآن أن ثمن بيع يوسف كان قليلاً، وأنّ المشتري كانوا فيه من الزاهدين: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} (يوسف: ٢٠)، وهذا هو الحق إذ إنّ إخوة يوسف هم الذين كانوا حريصين على بيع أحييهم، وهذا الحرص من البائع أدعى لأن يترك الجدال في الثمن، كما أنّ صغر سن الإخوة داعٍ آخر أن يسعى المشترون إلى دفع مبلغ زهيد لا كالذي يدفع إلى التجّار، ثم إنّ يوسف كان صبياً صغيراً غير جلد؛ فلا يدفع في من هو في مثل سنّه المبلغ الذي يدفع في الشاب الجلد.

الحادي عشر: تذكر التوراة أنّ يوسف قد نسي أباه وإخوته لما كان في مصر (تكوين ٤١/٥١)، وفي ذلك قطع لحبل الأمل في لقيائهم، في حين يقول القرآن الكريم إنّ الله جلّ وعلا قد أوحى إلى يوسف منذ أن بدأت المحنة بالقاءه في الحب، أنّه سيلقى إخوته مرةً أخرى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (يوسف: ١٥).. لقد كان الأمل في النجاة ورجاء رحمة الله في قلب العبد المخلّص (يوسف) ثابتاً مستقرّاً، ولذلك قال يوسف في آخر القصة: {أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف: ٩٠).

الثاني عشر: ذكرت التوراة أنّ من اشترى يوسف هو فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة (تكوين ٣٩/١) وهذا ادّعاء مخالف للبداهة التاريخية إذ كيف يكون فوطيفار خصي فرعون، ثم هو في نفس الوقت (١) رئيس الشرطة المصرية (٢) وزوج إحدى جميلات مصر؟! بل وتجعل التوراة حاشية القصر كلها من الخصيان، ومنهم رئيس السقاة ورئيس الخبازين؟! (تكوين ٤٠/٢)، يبدو أنّ أثر السبي البابلي والبيئة التي عاش فيها اليهود هناك قد أثرا على تصورات مؤلفي التوراة لأحداث ذاك الزمان وقد خلا القرآن من هذا الخبط التوراتي، فقد قال تعالى: {عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} (يوسف: ٢١)، مما يوحي في ذهن القارئ أنّ الرجل كان عقيماً لا ولد له.

الثالث عشر: تظهر التوراة نبيّ الله يعقوب وهو في أهون حال، وأضعف إيمان، ومنتهى التسخّط على قضاء الله وقدره ما أن تدهمه المصيبة حتّى يخرّ صريع اليأس ويطفح قلبه ولسانه بالتسخّط على أمر الله فيها هو سفر التكوين يقول عن يعقوب النبي عندما جيء له بقميص ابنه: فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه. (تكوين ٣٧/٣٤-٣٥).

أمّا يعقوب في القرآن، فهو قدوة لكلّ متصبّر على دكدكات الأيام وسهامها الجارحة فأنت لا تراه في مواقف الشدّة إلا منيباً إلى ربّه، صلباً لا ينحني أمام عصف الجائحة فهو القائل عندما فقد ابنه الأوّل: {فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} (يوسف: ١٨)، وهو القائل عندما فقد الابن الثاني: {فَصَبَّرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي}

^١ - جورج إبرز (١٨٣٧-١٨٩٨م): عالم مصريات ألماني. درّس اللغة المصرية القديمة والتاريخ المصري في جامعة ليزغ.

^٢ - انظر، Georg Ebers، Notes on the، Ägypten und die Bücher Moses، p. 293 (Quoted by، George Spurrell، Hebrew Text of the Book of Genesis، p. 276)

يَهْمُ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (يوسف: ٨٣) لَكِنَّهُ فِي التَّوْرَةِ يَبْدُو فِي مُنْتَهَى الْوَهْنِ الْإِيمَانِي حَتَّى قَبْلَ وَقْعِ الْكَارِثَةِ: إِذَا أَصَابَتْهُ أَذِيَّةٌ تَنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِشَرِّ إِلَى الْهَاطِيَةِ!! (تكوين ٤٢/٤٤، ٣٨/٣١).

وتقول الناقدة مارلين روبنسون ولدمان^(١): يختلف دور يعقوب في القرآن عنه في التوراة يعتبر يعقوب في القرآن المعين ليوسف والناصح له، وقد ظهرت بشريته مع حسن تصرفه كعلامة على اتصاله بالله وقد استطاع الآخرون أن يفهموا علامات الله من خلال حضوره هو وقدرته على قراءة هذه العلامات. يعقوب في الكتاب المقدس ليس هو رسول الله، ولا الناصح البصير ليوسف، وإنما يبدو بصورة أكبر كضحية للظروف، معبراً عن هذه الحال من خلال واقعه النفسي والعاطفي.^(٢)

الرابع عشر: يكشف القرآن الكريم أنه لما أراد أبناء يعقوب -إثر عودتهم من مصر- أن يأخذوا أخاهم الذي بقي مع أبيهم، في رحلة ثانية، كان يعقوب عليه السلام مستعصماً بحبل التوكل على الله حلّ وعلا، ثم أمراً لهم أن يتخذوا الأسباب المادية: {فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ... قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقْتُ بِكُمُ الْإِلَهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} (يوسف: ٦٣-٦٧)، في حين تبدو الصورة في التوراة عكس ذلك فقال لهم أبوه: إن كان لابد من ذلك فافعلوا. وخذوا معكم هدية للرجل: واملأوا أوعيتكم من خير جنى الأرض وقليلًا من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن والفسق واللوز. وخذوا معكم فضة أخرى، والفضة المردودة في أفواه عدالكم وأعيدوها. فلعل في الأمر سهواً. واستصحبوا معكم أيضاً أحاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل. ولينعم عليكم الله القدير بالرحمة لدى الرجل، فيطلق لكم أحاكم الآخر وبنيامين أيضاً. وأنا إن ثكلتهما، أكون قد ثكلتهما. (تكوين ٤٣/١١ - ١٤) فيعقوب هنا متعلق بالأسباب المادية غاية التعلق حتى إنه يفصل في أمر الهدية غاية التفصيل، ثم يعقب ذلك بكلمات قليلات رجاء أن يجعل الله في قلب هذا الرجل يوسف الرحمة، ولا حظ أن الرحمة المرجوة هنا هي من يوسف، أما الإله فعليه أن يبذل الأسباب لذلك!

الخامس عشر: يبدو يعقوب عليه السلام في التوراة فاقداً للأمل، خائر العزيمة مع ما أصابه من مصاب في ابنه: قد أنكلتموني أولادي. يوسف مفقود، وشمعون مفقود، وها أنتم تأخذون بنيامين بعيداً! كل هذه الدواهي حلت بي! (تكوين ٤٢/٣٦)، لن يذهب ابني معكم، فقد مات أخوه، وهو وحده باق. فإن ناله مكروه في الطريق التي تذهبون فيها، فإنكم تنزلون شيبتي بحزن إلى قبري (تكوين ٤٢/٣٨) ... في حين يظهر القرآن يعقوب عليه السلام مترعاً بالأمل رغم وخز الألم؛ لم ييأس من روح الله: {يَا بَنِيَّ ادْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ} (يوسف: ٨٧).

السادس عشر: يظهر القرآن يوسف عليه السلام من أول القصة إلى آخرها، وهو يتقلب بين أطباق المحن، صابراً، ثابت الجنان فقد تصبر يوسف عليه السلام بكل أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة. فكان في حركات قلبه وجوارحه مستسلماً لأمر الله إنما صورة مشبعة بالتوهم الإيماني بما

^١ - مارلين روبنسون ولدمان (١٩٩٣م-١٩٩٦م): مستشرق أمريكي يهودية. كانت عضواً في عدة جمعيات علمية كالأكاديمية الأمريكية للدين والجمعية الأمريكية لدراسة الدين والمؤسسة الأمريكية للدراسات الإيرانية.

^٢ - Marilyn R. Waldman, 'New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an,' in The Muslim World, - January 1985, V. 75, N.1, p.6

يتناسب مع أمر نبيّ مجتبي لتبليغ رسالة من ربّ العالمين ويكرّر القرآن في خاتمة القصة على موعظة بليغة، هي زاد المسافر على بساط الحن في هذه الدنيا؛ وهي أنّ الصبر عاقبته أحلى من الشهد وإن كان طريقه قد قُذ من الشوك وأعلى درجات الصبر، هي الصبر الجميل حيث لا يبوح المبتلى بشكواه بل يسلم أمره ونفسه إلى ربّه. وتغيب معالم الموعظة—أو تكاد—في الرواية التوراتية، لتتحول إلى أكوام من أحداث قديمة ساكنة، وتبدو صورة يوسف فيها غائمة الملامح الإيمانية؛ يكاد يقصر أمرها على الظهور الروائي دون التألق الإيماني.

السابع عشر: تذكر التوراة أنّ امرأة العزيز قد راودت يوسف عن نفسه، فلما فرّ منها وترك ثوبه نادت أهل بيتها وقالت: انظروا ما جرى؟ هذا العبراني الذي جاء به زوجي إلى البيت. شرح يراودني عن نفسي. دخل غرفتي وحاول اغتصابي، فصرخت بأعلى صوتي. (تكوين ٣٩/١٤)

خففت —أو قل: حرّفت— (ترجمة الحياة) هذا النص؛ إذ هو يقول على لسان امرأة العزيز (لتسحق بانو) أي ليبراوندا حيث الضمير المتصل في صيغة الجمع لا المفرد، وكما قال الناقد جورج سبورل في تعليقه على النص العبري لسفر التكوين؛ فإنّ امرأة العزيز أرادت هنا أن تقول إن يوسف راود جميع نساء البيت^(١)، وهذا مشهد منكر في سياق القصة إذ إنّ امرأة العزيز بهذا القول تفتح على نفسها باب الريبة، وتمنح زوجها فرصة أن يسأل النساء في البيت عن صحّة دعواها! كما أنّ نفس المقطع من القصّة مضطرب؛ إذ يزعم مرّة أنّه لم يكن أحد في البيت لما احتلت زوجة العزيز بيوسف (تكوين ٣٩/١١) ويزعم في أخرى أنّ امرأة العزيز قد صرخت مستنجدة بمن في البيت. (تكوين ٣٩/١٤) أمّا القرآن الكريم فيتجاوز هذه التناقضات بتقريره حقيقة الواقعة وأنّ امرأة العزيز لما كانت تراود يوسف عن نفسه، دخل العزيز؛ فقامت إليه حتى تدفع التهمة عن نفسها باتهام يوسف عليه السلام بإرادة الفاحشة بها، مبادرة زوجها بسؤال مبالغت عن عقوبة من يؤدي أهله: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (يوسف: ٢٥).

الثامن عشر: القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أظهر براءة يوسف على يد شاهد من أهل امرأة العزيز نفسها، وذلك حين قال: {إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} (يوسف: ٢٦-٢٨)، كما شهد النسوة اللائي قطعن أيديهن، ببراءته، بقولهن: {حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ} (يوسف: ٥١)، بينما لم تذهب التوراة إلى أكثر من أنّ العزيز حين سمع بالقصة لم يزد عن أن غضبه حمى فأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن. (تكوين ٣٩/١٩)

التاسع عشر: يظهر القرآن يوسف عليه السلام في صورة المتوكّل على ربّه، المستجير به في كلّ أمره، والمنيب إليه في كلّ شأنه فهو يقول في تذللّ وخضوع واسترحام لمن بيده الأمر، بعد أن أحاطت بأقطار نفسه فتنة المرأة الراغبة فيه والمتسلطة عليه أثناء محنة العبوديّة لزوجها: {وَالَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (يوسف: ٣٣) وهذا منتهى الإخلاص في الاستجارة بالقويّ العزيز وقد استجاب له من بيده الأمر: {فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (يوسف: ٣٤) أمّا التوراة، فتغفل عن إبراز هذه المنقبة العظيمة، وكأنّها قد خضعت لدفق الأحداث؛ فلا تملك أن تقف لحظات للعبارة والعظة.

العشرون: القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف عليه السلام قد فضّل السجن على أن يقترف الفاحشة، وذلك حين خيّر بين أن تنال المرأة منه ما تريد، أو أن تفتح له أبواب السجن على مصراعها لتبتلع أزهي

^١ انظر؛ George Spurrell, Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis, p.284

سنوات عمره: {قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (يوسف: ٣٣-٣٤) .

الواحد والعشرون: أبرز القرآن براءة يوسف في جلاء، وتوقف لبعض الآيات لإظهار ذلك ولصرف الظنون الفاسدة عن هذا النبي الطاهر، وهو ما لم تسع التوراة إلى الاسترسال فيه أو التركيز عليه، وكأن براءة نبي يحمل إلى الناس رسالة الطهر بين قومه، ليست بذات بال وقد انفرد القرآن دون التوراة بذكر اعتراف امرأة العزيز ببراءة الرجل الذي غمزته في عرضه أمام الناس: {قَالَتْ امْرِأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} (يوسف: ٥٢) وفي تصريح امرأة العزيز أيضاً ذكرى للمعرضين عن سبل السلام، وأن التوبة لا تغلق أبوابها، ولو كانت من الافتراء على نبي والتسبب في سجنه لسنين.

الثاني والعشرون: قالت الناقدة مارلين ر. ولدمان: "إن أوضح حجة للتوجه المختلف للقرآن، هو دور القصة الداخلية لزوجته السيّد في القصة ككل، وما تكشفه من شخصيّة يوسف كرسول تظهر هذه الحادثة أيضاً مخالفة القرآن الهائلة للرواية الكتابيّة، وتبين كيف أن القرآن يستعمل بطريقة مختلفة المادة المتاحة، مهما كان مصدرها. كنتيجة لما يظهره القرآن من استعمال لهذه القصة الداخلية؛ يظهر يوسف أكثر اعتماداً على الله من اعتماده على خطته الخاصة. تُظهر هذه القصة في القرآن يوسف وهو ينقذ غيره، الزوجة، قبل إنقاذ نفسه، وهي بذلك تظهره على أنه -بصورة أبلغ- أداة لله." (١)

الثالث والعشرون: جاء في وصف التوراة لحلم حاكم مصر: ثم رأى سبع سنابل عجفاء قد لفحتها الريح الشرقية نابتة وراءها. (تكوين ٤١/٦) ذكر النقاد أنّ الريح التي تهب في مصر فتجفف الثمر، هي رياح صحراوية جنوبية^(٢)، أمّا الرياح الشرقية فهي التي في فلسطين. ويكشف هذا الخطأ جهل من أضاف هذا النص بطبيعة بلاد مصر، وقد قال الناقد جورج سبورل إنّ الراوي هنا قد أشار إلى الريح المدمرة في فلسطين (هوشع ١٣/١٥، يونان ٤/٨، حزقيال ١٧/١٠).^(٣) ولم يتابع القرآن الكريم هنا التوراة في خطتها العلمي.

الرابع والعشرون: تذهب التوراة إلى أن فرعون قد أرسل إلى يوسف في السجن من يستدعيه لتأويل رؤياه (فأسرعوا به من السجن، فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون)، وفسر له حلمه، ثم اقترح عليه أن يختار رجلاً بصيراً وحكيماً ليحمله على أرض مصر (تكوين ٤١ / ١٤ - ٣٦) وتبدو الصورة في القرآن الكريم (يوسف ٤٥-٤٨) على غير ذلك، فصاحب يوسف الذي نجا من السجن هو الذي أشار على الملك أن يرسله إلى الصديق ليعرف منه تأويل رؤيا الملك، ولم يذهب يوسف إلى الملك وإنما فسر الحلم بل وأشار بالحل الذي يمكن البلاد من اجتياز هذه المحنة وبشر بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون وهو ما يزال بعد سجيناً [يوسف: ٤٩].

الخامس والعشرون: القرآن وحده هو الذي ذكر أنّ (يوسف) بعد أن فسر الحلم لملك مصر، ورسم له الطريق الصحيح للخروج من الأزمة بسلام، رفض في إباء وشم أن يقبل المنصب الخطير الذي عرض عليه، حتى يتحقق الملك ورجاله -بل والناس جميعاً- من براءته ونزاهة عرضه، مما نسب إليه بشأن امرأة العزيز، ذاك الذي كان سبباً في أن يلبث في السجن بضع سنين، {ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ}

^١ Marilyn R. Waldman, New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an, in The Muslim World, January 1985, V. 75, N.1, pp.9-10

^٢ Gordon Wenham, Word Biblical Commentary, Volume 2: Genesis 16-50, Dallas, Texas: Word Books, 1998, CD edition

^٣ George Spurrell, Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis, p.291 انظر؛

(يوسف: ٥٠). ولما علم الملك حقيقة الأمر سرّ به، وأخرجه من السجن، عندئذ تقدّم الصديق في ثقة وثبات {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ} (يوسف: ٥٥)، وهكذا يتحمل يوسف المسؤولية كاملة في صدق وشجاعة، وينجح آخر الأمر في أن يرسي السفينة على مرفأ الأمن والسلامة (يوسف: ٤٦-٥٧)، والأمر عكس ذلك تمامًا في التوراة، فما أن يفسر الصديق الحلم للملك، وما أن يعرض الملك الأمر عليه، حتى يقبله فورًا. (تكوين ٤١ / ٣٧ - ٤٦)

السادس والعشرون: قالت الناقدة مارلين ر. ولدمان في الفارق بين القصة القرآنية والأخرى الكتابية فيما يتعلّق بعمل مشيئة الله سبحانه في صناعة الأحداث وتحريكها: الله حاضر حضورًا تامًا في الرواية القرآنية وبذلك يتأكد حضوره الكوني الكليّ لما وُضع يوسف في الحب على يد إخوته، كشف الله له أنه سينبئهم في يوم ما بما فعلوه حتى غير الإخوة بدت على أنّها علامة لأمر ما لما قدّم الإخوة دليلاً مزورًا لما اقترفوه، استراب أبوهم في أمرهم ووضع ثقته في الله، قائلاً لهم إنّ الشياطين قد أغوتهم المسافرون الذين وجدوا يوسف، حاولوا إخفاءه، لكن القرآن يذكرنا أنّ الله يعلم ما يفعلون يُذكر الله السامع مرّة أخرى -لما استقرّ يوسف في بيت مشترية -أنّه قد وضع يوسف في ذاك المكان وسيجعله بعد ذلك من المفلحين تبعًا لإرادته.^(١)

السابع والعشرون: جاء في التوراة أنه لما حصلت المجاعة لسبع سنوات: جاءت كل الأرض الى مصر الى يوسف لتشتري قمحاً لأنّ الجوع كان شديداً في كل الأرض (تكوين ٤١ / ٥٧) وهذه دعوى باطلة علمياً وتاريخياً أما علمياً فجليّ أنّ المؤلف ما كان يعرف أنّ مساحة اليابسة أكبر مما في ذهنه، ومن غير المعقول أن يسافر الناس من أقصى أوروبا أو أحد قطبي الأرض إلى مصر للحصول على طعام في أيام مجاعة؛ إذ فضلاً عن عدم وجود وسائل تواصل لمعرفة تخزين مصر للمؤونة أيام المسغبة، فإنّ الأقوام الذين اجتاحتهم المجاعة لا يمكنهم أن يسافروا شهوياً للحصول على الطعام من مصر لأنهم هم أصلاً لا يملكون مؤونة الرحيل شهوياً، ومن الناحية التاريخية، لا يثبت قطعاً أنّ الأرض كلها قد تعرضت للمجاعة في زمن يوسف عليه السلام. ولم يقع القرآن -في المقابل - في هذا الخلل التاريخي المشين، ليبقى طاهرًا من رجس الافتراء على التاريخ.

الثامن والعشرون : جاء في التكوين : (حدثت مجاعة في جميع البلدان)(٤١/٥٤) ، لكنّ التوراة أضافت أنّ يعقوب قد قال لأبنائه : (خذوا معكم هدية للرجل: واملاؤا أوعيتكم من خير جنى الأرض وقليلًا من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن والفسق واللوز.) (تكوين ٤٤ / ١١) بما يدلّ على أنّ المجاعة لم تصبهم، في حين أظهر النص القرآني أنّ عائلة يعقوب كانت شبه معدمة: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} (يوسف: ٨٨) فالإخوة في ضيق من الحال، وبضاعتهم ضعيفة القيمة (مزجاة).

التاسع والعشرين: جاء في التوراة أنّه لما رد يوسف إخوته إلى مصر، وردّ إليهم ما دفعوه إليه، دون أن يعلموا، اكتشف واحد من الإخوة هذا الأمر قبل الوصول إلى أبيهم يعقوب: وحين فتح أحدهم عدله في الخان ليعلف حماره، لمح فضته لأنها كانت موضوعة في فم العدل؛ فقال لإخوته: «لقد ردت إلي فضتي، انظروا ها هي في عدلي». فغاصت قلوبهم، وتطلع بعضهم إلى بعض مرتعدين وقالوا: «ما هذا الذي فعله الله بنا؟» (تكوين ٤٢ / ٢٧-٢٨) ، غير أننا نقرأ بعد ذلك أنّ الإخوة جميعاً قد فوجئوا بالأمر عندما عادوا إلى أبيهم: وإذ شرعوا في تفريغ عدالهم وجد كل واحد منهم

^١ Marilyn R. Waldman, New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an, in The Muslim World, January 1985, V. 75, N.1, p.11

فضته في عدله، وما إن رأوا هم وأبوهام ذلك حتى استبد بهم الخوف. (تكوين ٤٢/٣٥)، في حين تخلو الرواية القرآنية من هذا التناقض؛ إذ إنها تذكر أنّ اكتشاف هذا الأمر كان مرة واحدة، وبحضر من الأب {وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٍ} (يوسف: ٦٥).

الثلاثون: تزعم التوراة أنّ يوسف قد اشترى كل أرض مصر—من عليها وما عليها—للفرعون وهو اصطلاح لم يكن قد استعمل في مصر بعد، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً بعد أن امتلأت الأرض جوعاً (تكوين ٤٧/١٣)، وهي دعوى ينفىها التاريخ إن جمهرة المؤرخين ترى أن الهكسوس لم يمدوا نفوذهم أبداً إلى أبعد من القوصية^(١) جنوباً، اللهم إلا في احتلال مؤقت قصير لإقليم بي حتحور، قام به أبو فيس—ربما آخر من حمل هذا اللقب—وليس هناك من دليل حقيقي على أن غيره من الهكسوس قد تم له هذا الأمر، أما أمر جبايتهم للضرائب من مصر العليا والسفلى على السواء، فموضع شك على الأقل، ذلك لأن وجهة النظر التي ترى احتلال الهكسوس للبلاد كلها، ليست سوى وهم قضى عليه النص الكبير للملك كاموزا الذي يتضمن في وضوح أن الغزاة لم يتقدموا إطلاقاً فيما وراء جبلين، والذي يشير إلى أنهم اضطروا بعد قليل إلى إرساء حدهم عند خمون (الأشمنين مركز ملوي).^(٢)

الواحد والثلاثون: تظهر التوراة يوسف عليه السلام وكأنه نعمة على المصريين ووبال عليهم إذ قد استغل سنوات المجاعة ليستعبد المصريين للحاكم ويأخذ منهم أرضهم له (تكوين ٤٧ / ٢٠)، كما أنه عندما دعا أباه وأهله وعدهم أن يعطيهم خيرات أرض مصر (تكوين ٤٥ / ١٨) وكأن أهل البلد لا حق لهم في أرضهم يخلو القرآن من هذا الحديث العنصري في تحقير المصريين، ومن إضفاء هالة القداسة على الإسرائيليين فبعثة الأنبياء رحمة للناس ونعمة، لا وبال وشر.

الثاني والثلاثون: زعمت التوراة أنّ يوسف عليه السلام كان يكرّر القسم بحياة فرعون^(٣)، وهو أمر يخالف مقام النبوة والعصمة ويزداد الأمر سوءاً إذا علمنا أنّ هذا الملك كان مشركاً وليس في القرآن من ذلك شيء!

الثالث والثلاثون: يُبرز القرآن من خلال شخصية النبيين يعقوب ويوسف عليهما السلام جمال حسن الظن بالله عز وجل^(٤)، وقيمته في قلب المؤمن، وعذب جناح بعد مَرَّ الابتلاء فهذا يعقوب عليه السلام لا يملك لسانه إلا يقول بعد سنين طوال من فراق ابنه: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (يوسف: ٨٣)، وما حصر رجاءه في نجاة ابنه الثاني، بل كان ظنه بالله عظيماً، فهو يرجو نجاة ابنه الثاني الذي ظن أنه متهم بالسرقة، وابنه الكبير الذي ظلّ في مصر، وابنه الأول الذي غاب منذ سنين طويلة: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (يوسف: ٨٣).^(٥) .. وليس من ذاك شيء في التوراة.

الرابع والثلاثون: تقول الناقدة مارلين ر. ولدمان: "يبدو الإله في الكتاب المقدس أكثر بعداً منه في القرآن، وأقل تركيزاً في علاقته بيوسف، وأكثر تدخلاً في حياة كل الشخصيات الكثيرة، في حين أنّ الإله في القرآن يتدخل في

^١ - 18، Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten und ihr Sturz, p.

^٢ - د. محمد يومي مهرا، حركات التحرير في مصر القديمة، ص ١٤٣ - ١٤٥

^٣ - تكوين ٤٢ / ٩ - ١٦. وقد جاء الأمر في العهد الجديد (الإنجيل) بالمنع من الحلف أصلاً؛ متى ٥ / ٣٣ - ٣٧، يعقوب ٥ / ١٢

^٤ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عَبْدٌ ظَرُّ عِبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دُكِرَ بِي، فَإِنْ دُكِرَ بِي فِي نَفْسِهِ دُكِرْتُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ دُكِرَ بِي فِي مَالٍ دُكِرْتُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي بِمَنْشِي أَتَيْتُهُ هَرُولَةً)). رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ((وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ))، وقول الله تعالى: ((تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ))، ح / (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، ح / (٢٦٧٥)

^٥ - محمد صالح المنجد، ١٠٠ فائدة من قصة يوسف (نسخة إلكترونية)

حياة رسوله ويوجهها بصورة دائمة، وتبقى الشخصيات الأخرى باهتة وأقل وضوحاً^(١).. وهذا فارق مهم؛ لأنه يظهر (غائية) القصة القرآنية وارتباطها المباشر بتوجيه رسالة إيمانية محكمة إلى القارئ، وابتعادها عن هم التشويق السردى.

الخامس والثلاثون: يظهر القرآن أنّ غاية المؤمن لا يمكن أن تكون إلا في طلب الراحة والتعيم في الجنة فهذا نبي الله يوسف يقول وهو يعدد نعم الله سبحانه عليه: { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } (يوسف: ١٠١).. وهذا مال كل محسن: { وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } (النساء: ٦٩) وتغيب هذه اللفتة البديعة عن التوراة!

السادس والثلاثون: تذكر التوراة أنّ يوسف قد قدّم الطعام إلى إخوته لما قدّموا عليه، وأنه قدّم لهم الخمر، وشرب يوسف منه معهم؛ حتى سكروا جميعاً^(٢)، ولا أثر لهذا المنكر القبيح في القصة القرآنية.

السابع والثلاثون: تذكر التوراة أنّ يوسف قد أقام مناحة لمدة سبعة أيام على وفاة أبيه (تكوين ١٠/٥٠) وهو أمر يعارض تجلّد الأنبياء، وصبرهم، ورضاهم بالقضاء والقدر؛ ولذلك لا نرى له ذكرًا في النصّ القرآني.

الثامن والثلاثون: تزعم التوراة أنّ يوسف عليه السلام قد قارف الكذب صراحة؛ وذلك عندما قال لإخوته: أنتم جواسيس، وقد جئتم لاكتشاف ثغورنا غير المحمية (تكوين ٩/٤٢) وقد سجنهم لأجل ذلك ثلاثة أيام، واتهمهم بسرقة كأسه الفضية ولم يرد في القرآن الكريم شيء من ذلك أمّا ما فعله يوسف عليه السلام من استدراج إخوته حتى يتركوا له أحدهم بأن وضع أحد النفائس في رحله؛ فكما قال ابن حزم: "وأما قول يوسف لإخوته: إنكم لسارقون، وهم لم يسرقوا الصواع بل هو الذي كان قد أدخله في وعاء أخيه دونهم، فقد صدق عليه السلام، لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ولم يقل عليه السلام إنكم سرقتم الصواع، وإنما قال: نفقد صواع الملك، وهو في ذلك صادق؛ لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك^(٣) كما يمكن أن يقال أيضاً إنّ القرآن يقول: { أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } (يوسف: ٧١)، فالمؤذّن غير يوسف ويبدو أنّه لم يطلع على خطة يوسف التي دبّر أمرها سرّاً، فقال بما ظهر له من غياب صواع الملك لما همّ القوم بالانصراف^(٤) علماً أنّ التوراة نفسها قد شاركت القرآن في تقرير وضع يوسف لأحد ممتلكات الملك^(٥) في بضاعتهم.

التاسع والثلاثون: أشار التعليق الكاثوليكي على ترجمة (The New American Bible) تحت الفصل ٤٥ / ٩ - ١٥ إلى أنّ نصّي تكوين ٤٦ / ٣١ و ٤٧ / ٥ - وهما يعودان إلى المصدر اليهوي - يذكران أنّ يوسف هو من استدعى باسمه أباه وإخوته إلى أرض مصر في حين أنّ نصّ تكوين ٤٥ / ١٦ - ٢٠ - وهو يعود إلى المصدر الإلهيمي - يذكر أنّ فرعون هو من قام بدعوة أهل يوسف للهجرة إلى مصر.

^١ Marilyn R. Waldman, 'New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an,' in The Muslim World, - January 1985, V. 75, N.1, p.5

^٢ - تكوين ٤٣/٣٤، النصّ العبري يقول ((וַיִּשְׁתּוּ וַיִּשְׁכְּרוּ עִמּוֹ)) (ويشتو ويشكرو عمو) وشربوا وسكروا معه وقد حاولت بعض الترجمات أن تترجم كلمة وسكروا إلى معنى آخر؛ وذلك أولاً: لا ينفي أنّ يوسف قد قدّم الخمر إلى أخوته، وأنهم شربوا هذا المسكر، وثانياً: النصّ العبري يستقيم بصورة جليّة مع القول إنّ معناه هو أن الإخوة قد (سكروا مع أخيه) وهو نفس المعنى الوارد في الترجمة السبعينية: ((επιον δε και εμεθυθησαν μετ' αυτου))، والترجوم الآرامي: ((ܘܝܫܬܝܘ ܘܝܫܬܝܘ ܠܡܝܬܐ)) والبشيطا السريانية: ((ܡܫܬܝܘ ܡܝܬܐ ܥܝܡܐ ܥܡܐ)) والفولجات: ((Biberuntque et inebriati sunt cum eo))، ثالثاً: الترجمات العربية (على غير عادتها) لم تتبع شذوذات بعض الترجمات العربية، ووافقت المعنى الصحيح!

^٣ - ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٢ / ٢٩٧ - ٢٩٨

^٤ - انظر؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المآان، ت/ عبد الرحمن اللويحي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص ٤٠٢ - ٤٠٣

^٥ - تذكر التوراة أنه أمر بوضع طاسة الفضة في رحل أخيه ((بنيامين)).

الأربعون: ذكرت التوراة (تكوين ١١/٤٧) أنّ يوسف قد سكن هو وإخوته أرض رمسيس، وهذا خطأ تاريخي لأنّ كلمة رمسيس لم تستعمل قبل الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٨ - ١١٩٤ ق.م) وليس منذ عصر الهكسوس (حوالي ١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق.م) أي عصر يوسف ^(١) وقد اعترف التعليق الكاثوليكي على الكتاب المقدس The New American Bible في تعليقه على تكوين ١١/٤٧ بهذه الزلة التاريخية. ^(٢)

الواحد والأربعون: جاء في التوراة أنّ يوسف قد حلم أنّ الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا ساجدة له، وأنّه لما قصّ هذا الحلم على أبيه؛ انتهز أبوه، وقال له: أي حلم هذا الذي حلمته؟ أتظن حقًا أنني وأهلك وإخوتك سنأتي ونحني لك إلى الأرض؟ (تكوين ٣٧/١٠) ويفهم من التوراة ذاتها أنّ أم يوسف قد توفيت قبل فترة طويلة من سفر يعقوب وأبنائه إلى مصر بعد أن صار ذا حظوة عند حاكمها (تكوين ٣٥/١٨) وهنا تخطئ التوراة نفسها؛ إذ لا معنى لحلم يوسف النبي الذي هو في حقيقته رؤيا حق؛ مادام أنّ أمه قد توفيت قبل أن يخرج من المحنة. وفي المقابل، يظهر كمال القصة القرآنية وتناسقها في هذا الموضوع بعينه؛ إذ قد بدأت القصة بقوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ} إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ { (يوسف: ٣-٤) وختمت بقوله تعالى {وَرَفَعْنَا أَبَوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا} (يوسف: ١٠٠).. وهنا أصلح القرآن خطأ التوراة في مناقضتها لما دلّت عليه الرؤيا من بقاء أم يوسف حيّة حتّى تلقاه مُكَنًّا في الأرض.

الثاني والأربعون: القرآن الكريم وحده هو الذي يشير في ختام قصة يوسف مع أبيه وإخوته إلى تحقيق حلمه الأول: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعْنَا أَبَوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِنِي بِالصَّالِحِينَ} (يوسف: ١٠١/٩٩).

وهكذا تبدو القصة كتلة واحدة، تقود مقدمتها إلى خاتمتها، ويتصل أولها بآخرها، وهكذا أيضًا يتجلى صدق وعد الله لعباده الصالحين في حين تتجاهل التوراة ما ذكرته هي نفسها في بداية القصة من أمر رؤيا يوسف عليه السلام

الثالث والأربعون: يفهم من تكوين ٤٤/٢٠: ولد شيخوخة صغير والغلام أنّ بنيامين كان طفلًا لما سافر مع إخوته إلى مصر، في حين يفهم من تكوين ٤٦/٢١ أنّه كان لبنيامين عشرة أولاد بعد فترة قصيرة من الحدث السابق، وقد أهملت الرواية القرآنية هذه الجزئية المتناقضة.

الرابع والأربعون: جاء في تكوين ١٣/٥ أنّ يعقوب قد دفن في حقل المكفيلة، في حين يفهم من سفر أعمال الرسل ٧/١٦ أنّ يعقوب قد دفن في شكيم، وليس في القرآن هذا التفصيل المتناقض.

الخامس والأربعون: جاء في تكوين ٢٨/٣٢ و ١٠/٣٥ أنّ الربّ قد وعد يعقوب ألاّ يناديه يعقوب وإنما أن يطلق عليه اسم إسرائيل، في حين جاء في تكوين ٢/٤٦ أنّ الربّ قد نادى يعقوب: يعقوب! يعقوب! .. وليس في القرآن الكريم من هذا التناقض شيء!

^١ - د. محمد يومي مهران، إسرائيل، ١١١ / ٣

^٢ - The name Rameses, however, is an anachronism, since this royal name The region of Rameses: "The did not come into use before the end of the fourteenth century B.C., long after the time of Joseph." New American Bible, p. ٥٤٤

السادس والأربعون: جاء في تكوين ٤٦/٤ وعد الرب يعقوب أن يأخذه إلى مصر، ثم يردّه منها، في حين يفهم من تكوين ٢٨/٤٧-٢٩ أنّ يعقوب قد مات في مصر.. وليس في القرآن هذا التناقض!

السابع والأربعون: جاء ذكر أولاد بنيامين بن يعقوب في قصّة يوسف في تكوين ٢٦/٤٦ على أنّهم عشرة أولاد، في حين أنّ عددهم في سفر العدد ٣٨/٢٦-٤٠ أربعة، أمّا عددهم في أخبار الأيام الأول ٦/٧ فهو ثلاثة، ويبلغ عددهم في أخبار الأيام الأول ١/٨-٢ خمسة، والأغرب من ذلك أن هذه القوائم لا تشترك إلّا في اسم واحد، هو **بالع!** وليس في القرآن الكريم شيء من هذا التناقض!

الثامن والأربعون: جاء في تكوين ٢٧/٤٦ وخروج ٥/١ أنّ عدد أفراد عائلة يعقوب الذين سافروا معه إلى مصر يبلغ سبعين نفساً في حين يخبرنا سفر أعمال الرسل ١٤/٧ أنّ عددهم ٧٥ نفساً وليس في القرآن الكريم هذا ولا ذاك.

التاسع والأربعون: جاء في تكوين ٣/٨٤ إخبار يعقوب يوسف أن الرب قد تجلّى له سابقاً، في حين ينفي القرآن تجسّد الرب أو ظهوره لخلقه في الدنيا!

الخمسون: جاء في تكوين ٢/٥٠-٥: ثم أمر يوسف عبده الأطباء أن يحنطوا أباه. وقد استغرق ذلك أربعين يوماً، وهي الأيام المطلوبة لاستكمال التحنيط. وبكى المصريون عليه سبعين يوماً، ويقول د. محمد بيومي مهران: "هذا في الواقع خطأ؛ ذلك لأنّ مدّة التحنيط إنّما كانت سبعين يوماً - وليس أربعين يوماً - على أرخص الأنواع، ولأفقر الناس، وأنّ هناك أنواعاً ثلاثة من التحنيط، وهي -إن اختلفت في المواد المستعملة، أو في كميّة التحنيط - فإنّها إنّما تتفق جميعاً، على أنّ مدّة التحنيط إنّما كانت سبعين يوماً." (١)

الخلاصة: إنّ هذه الاختلافات البيّنة بين قصّة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم ومقابلها في التوراة، تقطع بيقين أنّ النصّ القرآني ليس مقتبساً من التوراة، وأنّه وحي من ربّ العالمين لأسباب عدّة ظهرت مما سبق، نلخصها في:

- ١- خلوّ النصّ القرآني من الأخطاء التاريخية والعلمية الواردة في النصّ التوراتي.

- ٢- خلوّ النصّ القرآني من التناقضات الواردة في النصّ التوراتي.
- ٣- تناسق الرواية القرآنية، ومراعاتها للمنطق التاريخي والروائي، في حين أنّ الرواية التوراتية جمعت إلى التذبذب، ذكر تفاصيل لا تتناسق مع المنطق التاريخي وحركة الأحداث داخل نفس القصة.

- ٤- تناسق الرواية القرآنية مع مجموع الحقائق الإسلامية؛ فهذه القصة تشكّل قطعة متوائمة مع بقية البنية الإسلامية، في حين تتعارض الرواية التوراتية مع جوانب من مسلمّات اليهود والنصارى.

- ٥- تشبّع النصّ القرآني بجملة من الحكم والمواعظ والحقائق الإيمانية، في حين لا يحتلّ هذا الأمر في النصّ التوراتي إلاّ حيزاً ضئيلاً مع ما فيه من تفاصيل تهدمه من الداخل.

- ٦- التقرير القرآني لعصمة الأنبياء، ومخالفة التوراة لذلك.

- ٨- محافظة القرآن على نظمه المعجز الذي فاق قدرة أئمة البيان في زمن الذروة مع مراعاة إيراد الأخبار التاريخية الدقيقة... وقد خلّصت الناقدة (مارلين ر. ولدمان) في بحثها إلى القول: " سأقول بعد المقارنة بين القصّتين إنّهُ رغم وجود تقارب شكلي كبير بينهما إلا أنّهما لا تسوقان القصّة بنفس الأسلوب من النواحي الموضوعيّة (thematic)

واللاهوتيّة والأخلاقيّة... إنّهما تختلفان عن بعضهما من نواحي بدهيّة وأساسيّة." (٢)

^١ محمد بيومي مهران، إسرائيل، ٢٢٨/٣-٢٢٩

^٢ Marilyn R. Waldman, 'New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an,' in The Muslim World, January ١٩٨٥, V. 75, N.1, p.5، عن د. سامي العامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحت عنوان جاني (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم)، ص: ٥٥٧-٥٨٧

تفصيل في تهافت فكرة أن القصص القرآني تكرر لقصص التوراة والإنجيل:

الدليل الأول: اختلاف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل.

الدليل الثاني: تباين أهداف القصص في القرآن والتوراة والإنجيل.

الدليل الثالث: القصص الذي انفرد به القرآن.

الدليل الرابع: نتائج المقارنة بين القصص المتناظر في القرآن والتوراة والإنجيل.

بالنسبة للدليل الأول يختلف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل من عدة جوانب منها^(١):

١. **مصدر القصص:** حيث إن الذي يقصُّ في القرآن هو الله تبارك وتعالى^(٢) فهو المتكلم بالكلمة القرآنية ، يقول تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} (يوسف: ٣)، ويقول تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} (الكهف: ١٣)، أما في التوراة والإنجيل فالله تعالى متحدث عنه بطريق الحكاية لتعريف الناس به.

٢. **الخيال القصصي:** بينما يقوم الخيال القصصي في التوراة والإنجيل بأكبر الأدوار في صياغة وتأليف قصصهما ، وهو ما كشفت عنه دراسات حديثة تعد مرجعيات في هذا الباب ، مثل دراسة : جيمس فريزر عن الفلكلور في العهد القديم^(٣) ، ودراسة: (زينون كاسيدوفسكي) عن الحقيقة والأسطورة في التوراة والتي لخص فيها مكانة الخيال والخرافة في القصص التوراتي، بقوله: "تناقل اليهود تراثهم الديني من جيل إلى جيل ، وساهم الطابع الفلكلوري لنقل الروايات الحقيقية بتطعيمها بكثرة من الخرافات والأساطير والأمثال والأقصوصات ، جعلت من الصعب الآن التمييز بين الواقع والخرافة فيها " (٤) .

وكذلك الأمر فيما يخص العهد الجديد، مما حدا بـ(رودولف بولتمان) أحد رواد مدرسة الأشكال الأدبية وتاريخ الأديان، إلى السعي نحو مشروع تطهير العهد الجديد من الأساطير حتى تكون له قيمة في الوقت الراهن، بقوله: " تقف المسيحية اليوم أمام خيار عسير: فبمطالبتها الإيمان بعقائدها فإنها تشق على البشرية بالزامها التسليم بقصص وخرافات أسطورية عفا عليها الزمن، فإن كان هذا المطلب غير ممكن التحقيق ويترتب عليه التساؤل عما إذا كان العهد الجديد يتضمن ذاتية مستقلة عن عالم الأساطير! ؟ فإن الواجب اللازم للباحث في الأديان تطهير الدعوة المسيحية من الأساطير تطهيراً كاملاً ، وليس جزئياً ، فإما أن يقبل المرء الأساطير أو يرفضها كلية " (٥) .

أما القرآن الكريم فلا يعرف الخيال القصصي طريقاً إلى مادة مروياته ، حيث يلجأ القرآن في قصصه إلى الاحتكام لمعياره النقدي في الأخبار : {إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} (الحجرات: ٦) ، فهو يطالب قارئ قصصه بتلمس دلائل واقعيته وصدقها التاريخي في آثارها الماثلة للعيان : {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} (آل عمران: ١٣٧) ، وقد وقف الأثريون على آثار القصص القرآني الشاهدة على الصدق التاريخي ، مثل آثار سيل العرم الذي هدم سد مأرب باليمن ، فلا زالت آثار الجنتين الواقعتين عن يمين السد وشماله ماثلة حتى

^١ - هذه الدلائل مأخوذة من بحث للدكتور عبد الراضي محمد عبد المحسن ، في كتابه : الغارة التصيرية على أصالة القرآن الكريم ص ١٠١-١٣٢ بتعديل وإضافة على الدليل الرابع قصة آدم من كتاب د. سامي العامري ،

^٢ - التهامي النقرة ، سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٨٠ ، الشركة التونسية للتوزيع . تونس ١٩٧٤ م .

^٣ - جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم ، بترجمة نبيلة إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م .

^٤ - زينون كاسيدوفسكي ، الحقيقة والأسطورة في التوراة ، ص ٥٢ ، الأجدية للنشر . دمشق ١٩٩٠ م .

^٥ Rudolf Bultmann () ، Neues Testament und Mythologie ، S : 21 ، Hrsg ، Kergma und MyThos : in ، Hans - Werner Hamburg 1960 : von

اليوم تؤكد صحة قصة سبأ: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} (سبأ: ١٥-٢١)، وكذلك اكتشف علماء الآثار النقوش الشمودية في أرض تبوك ومداين صالح وتيماء ولا زالت مزارًا سياحيًا حتى اليوم^(١). ولذلك يصف القرآن قصصه بأنه: أَحْسَنَ الْقَصَصِ (يوسف: ٣) لما توافر له من علم ومعانية: فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (الأعراف: ٧) وما اتسم به من حقيقة وصدق: {إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} (آل عمران: ٦٢).

٣. التشخيص البياني: وهو التعبير بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات الشعورية والمشاهدات والأحداث الحقيقية، وهذا النهج التشخيصي هو الأداة المفضلة في القصص القرآني. يقول سيد قطب: "إن التعبير القرآني يتناول القصة بربشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها فتستحيل القصة حادثًا يقع ومشهدًا يجري لا قصة تُروى ولا حادثًا قد مضى"^(٢).

٤. التصريح والتلميح: في الوقت الذي يهتم القرآن بإبراز أدق التفاصيل النفسية والشعورية لأشخاص قصصه، فإنه يكتفي بذلك التشخيص معرّضًا عن التصريح بالأسماء كما في قصة (العبد الصالح) (الفتى) مع موسى، وكما في قصة ثمود {إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} (الشمس ١٢)، وكما في مؤمن آل فرعون، وقد يكون هذا التلميح إلى جانب ملاءمته للمنهج القصصي الذي يهتم بإبراز الحدث وقيّمته ومغزاه لكونه الهدف من القصّ، فإنه يناسب طبيعة التشريع الإسلامي فيما يخص أسماء النساء مثلاً: امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون، وكذلك زوجة إبراهيم هاجر وسارة، وأسماء زوجات النبي ﷺ والمجادلة في زوجها^(٣).

٥. التجريد الزماني والمكاني: حيث لا يحدد القرآن زمن الحدث أو مدته أو مكانه إلا ما كان محوريًا في الحدث أو مسرحًا له كمصر في قصة يوسف، أو المسجد الحرام والمسجد الأقصى في الإسراء والمعراج، أو مدة رسالة نوح، أو مدة لبث أهل الكهف في نومهم، أو المدة التي أماتها الله للمارّ على القرية الخاوية^(٤). وترجع أسباب التجريد في الزمان والمكان في قصص القرآن إلى أمرين:

أولهما: عناية القصة بالحدث وتقرير الحقائق الدائمة المستقلة عن الأشخاص، والتي يمكن الإفادة من حكماتها ومغزاه في كل زمان ومكان بما يتلاءم مع عالمية رسالة القرآن واستمرارها، فما الأشخاص في القصص القرآني والحال كذلك إلا أمثلة لتلك الحقائق المقصودة لذا^(٥)....

الثاني: تحقيق الإيجاز غير المخل^(٦).

٦. التنوع بين الإجمال والتفصيل: ففي مواضع: التحذير من العناد والتكذيب والإصرار على الباطل، والتخويف من مصائر المكذّبين، يكون الإيجاز والفواصل القصيرة دون ذكر للأسماء أو للمحاورات^(٧) فيورد القرآن -مثلاً- في تسع آيات من سورة الفجر ثلاث قصص لمكذّبي الرسل تشمل أعمالهم وعقابهم. قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسٌ مُرْصَدٍ} (الفجر ١٤-٦) وهذا ما لا نظير له في التوراة أو الإنجيل.

^١ - سيدة إسماعيل كاشف، مصادر التاريخ، ص ١٦.

^٢ - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ١٥٦، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦ م.

^٣ - حسين علي محمد، القرآن ونظرية الفن، ص ١١٢، القاهرة ١٤١٣ هـ. ١٩٩٢ م.

^٤ - التهامي نقره، سيكلوجية القصة في القرآن، ص ٩٧. مرجع سابق. حسين علي محمد، القرآن ونظرية الفن، ص ١١٣. مرجع سابق.

^٥ - سيد قطب، في ظلال القرآن (٢/ ٢١٧)، دار الشروق. القاهرة ١٤٠٢ هـ. ١٩٨٢ م.

^٦ - عبد الجواد المحض، أدب القصة في القرآن الكريم، ص ٢٥٥، الدار المصرية بالاسكندرية ١٤٢٠ هـ. ٢٠٠٠ م.

^٧ - التهامي نقره، سيكلوجية القصة في القرآن، ص ٩١.

٧. عاقبة القصص: يأتي ختام القصة في القرآن بعكس ختام قصص التوراة والإنجيل حيث تختم القصة مع نهاية السفر أو الإصحاح، ففي قصة يوسف مثلاً يفترض أن تكون الخاتمة في لقاء يوسف بأبيه يعقوب الذي صورته التوراة على النحو التالي: (فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه إلى جاسان ، ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زماناً . فقال إسرائيل ليوسف أموت الآن بعد ما رأيت وجهك أنك حي بعد) ^(١) .

وعلى الرغم من أن عبارة يعقوب لم تمس سبب العقدة الأصلية في القصة وهي رؤيا يوسف وتآمر إخوته عليه، فإن القاص في التوراة يكمل الأحداث بعد هذا اللقاء ليصف لقاء يعقوب بالفرعون، والمكان الذي أقطعه لبني إسرائيل ، ومرض يعقوب وموته .

أما ختام القصص في القرآن فيكون غالباً في شكل عبرة ، أو عظة ، أو حكمة ، أو تقرير موجز ^(٢) كما في قصة السامري مع العجل: { إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا } (طه ٩٨) ، وفي قصة أهل الكهف: { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } (الكهف : ٢٦) ، وفي قصة يوسف: { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } (يوسف : ١٠٠) ، وفي قصة مريم وابنها المسيح: { ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (مريم ٣٤ . ٣٥).

الدليل الثاني: تباين أهداف القصص في القرآن والتوراة والإنجيل

تختلف أهداف القصة في التوراة والإنجيل عنها في القرآن، وذلك على النحو التالي:

أ. **في التوراة والإنجيل:** يمثل العهد القديم والجديد سجلاً تاريخياً لحياة الشعب الإسرائيلي والنصراني ، فهو كتاب تاريخ وتأريخ للاعتقاد والرؤساء والأنساب والتقاليد والنظم الاجتماعية والعلاقات الشخصية ؛ لذلك جاءت عناوين الأسفار ملخصة لمضمون تاريخها ، مثل سفر التكوين الذي يؤرخ لبدء الخليقة ، وسفر الخروج الذي يؤرخ لخروج اليهود من مصر ، وسفر العدد الذي يحصي أعدادهم ، وسفر اللاويين الذي يؤرخ لأحكام الكهنة من بني لاوي ، وسفر التثنية الذي يعيد الأحكام والفروض والوصايا ، ولما كان الهدف من الكتابين التأريخ جاءت القصص فيهما في إطار الهدف العام ، فجاءت سردية تأريخية متنوعة ما بين التأريخ للأنساب كما في الإحصاءات التي يقوم بها العهد القديم لأعداد بني إسرائيل الداخلين إلى مصر والخارجين منها والداخلين إلى فلسطين والمهجرين منها . . . إلخ .

وكذلك التأريخ لنسب المسيح كما في شجري النسب الشهيرتين لدى متى ولوقا في العهد الجديد وما بين التأريخ للسير الذاتية والتيارات الأدبية ، كما في خطابات بولس الشخصية لأصدقائه . تيموتاوس العهد الجديد، رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس. ^(٣) فيلمون ^(٤) وكما في التأريخ لقصائد داود في المناسبات المختلفة ^(٥) ، وما بين القصص التاريخية للأحداث ، مثل إنجيل لوقا الذي يصرح مؤلفه أن قصصه تأريخ لأحداث جرت بذكرها الألسنة يقول لوقا: (إذ كان

^١ - سفر التكوين (٤٦ / ٢٩ - ٣٠) .

^٢ - حسين محمد علي ، القرآن ونظرية الفن ، ص ١١٣ ، مرجع سابق .

^٣ - العهد الجديد ، رسالة بولس الثانية إلى تيموتاوس .

^٤ - العهد الجديد ، رسالة بولس إلى فيلمون .

^٥ - العهد القديم ، سفر المزامير ، مزمو ر : ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٨٥ ، ٨٩ . وانظر : سفر الأمثال ، الإصحاح الأول .

كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخذّاما للكلمة، رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس؛ لتعرف صحة الكلام الذي علّمت به، كان في أيام هيرودس ملك اليهودية^(١) وفي سفر أعمال الرسل يخبر الكاتب أن قصصه تكملة لمشروع القصص التاريخي الذي بدأه في كتابه إلى ثاوفيلس وتوقف فيه عند رفع المسيح^(٢)، وربما يكون هذا الهدف التاريخي أحد أهم أسباب مجيء القصص التوراتي والإنجيلي سرديًا باردًا غير مؤثر وجدائيًا في المتلقي أو مشوق له .

ب . أهداف القصص القرآني: القصص القرآني ليس مسوقًا لذاته، بل لأجل غايات وأهداف كثيرة يمكن إدراكها بالتفكير والتأمل في القصص لقوله تعالى: {فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (الأعراف ١٧٦) ومن هذه الأهداف:

١ . الاستدلال على التوحيد وهو من أهم أهداف القصص القرآني كما في قصص إبراهيم مع قومه ، ونوح مع قومه ، وموسى مع فرعون إلخ .

٢ . تثبيت الرسول والمؤمنين على الحق الذي يدعون إليه رغم ما يلقونه من مشقة ويتكبدونه من تضحيات ، قال تعالى : { وَكَأَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ } (هود ١٢٠) .

٣ . الحكم والفصل في مواضع الاختلاف والتضارب في قصص التوراة والإنجيل قال تعالى: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } (النمل ٧٦) ، ولعل هذا الهدف الذي حدده القرآن لقصصه أبلغ رد وأوقع دليل على تخافت دعوى الجدليات التنصيرية بأن القرآن تكرر للقصص في التوراة والإنجيل ؛ لأنه يتضمن التفسير المقتنع لمواضع التشابه بين القصص القرآني وقصص الكتب السابقة ، فما جاءت به الكتب السابقة في مقام ادعاء المدعي ، أما قصص القرآن فهو حقيقة الحدث الذي جرى يحكيه القاضي الفاضل في دعوى المدعي ، مبينًا به وجه الخطأ والصواب في مزاعم الادعاء ومقررًا الحقيقة التاريخية في الحدث لكل العالمين .

٤ . العظة والاعتبار قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ} (يوسف : ١١١) ويمكن القول: إن معظم قصص القرآن يُقصد به العظة والاعتبار من باب: إما قياس الطرد وإما قياس العكس فما يحق بالمشاركين ومخالفني الرسل هو جزء كل من جاء بمثل فعلهم ، أما من جاء بعكس فعلهم فله عكس جزائهم ، ولذلك حينما يورد القرآن قصص الفساد الأخلاقي لدى الأمم السابقة يقرن ذلك بما تلاه من جزاء ومصير ناله المفسدون ويصدر ذلك بطلب النظر والتأمل في التلازم بين الذنب والعقاب للاعتبار والتخويف يقول تعالى عقب قصة قوم لوط: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} (الأعراف ٨٤) .

ويعقب القرآن على قصة ثمود بالترهيب من جزاء من يفعل السيئات مثلهم ، وبالترغيب في ثواب من آمن واتقى من قوم صالح . قال تعالى : { فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } (النمل ٥٣، ٥١) .

٥ . الحجة والإقناع ، وذلك بإيراد القصة المناسبة للموقف بما تتضمنه من حوار تبرز فيه دعاوى المخالفين القدامى ضد أنبيائهم ، ثم تأتي ردود الأنبياء الإقناعية وكأها ردود من النبي محمد ﷺ على قومه أو ردود من كل داعية إلى الإسلام على مخالفته في كل زمان ومكان ، من ذلك مثلاً الحوار الذي جرى بين نوح وقومه . قال تعالى : {وَلَا

^١ - إنجيل لوقا (١ / ٥٠) .

^٢ - العهد الجديد ، سفر أعمال الرسل (١ / ٩٠) .

أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ { (هود ٣١) .

٦ . إظهار قدرة الله المطلقة، وذلك في باب الخلق من عدم كقصة خلق آدم ، أو الخلق من أم بلا أب كقصة مريم وابنها المسيح عيسى ، أو إثبات القدرة على إحياء الموتى كقصة إبراهيم مع الطير ، أو البعث والنشور كقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه .

الدليل الثالث: القصص الذي انفرد به القرآن

يعد هذا الدليل من أبرز أدلة (نقد النص) وأهمها في بيان تحافت دعوى تكرار القرآن لقصص التوراة والإنجيل، بسبب كون المصدر المزعوم الإفادة منه يفقد مادة المرويات القصصية ويجهل كل شيء عنها ، وذلك في حالة القصص الكاملة التي انفرد بها القرآن ، ويزيد الأمر قوة في الإثبات والإفحام عندما تتعلق المرويات ببعض التفاصيل الدقيقة التي أتى بها القرآن في القصص المتناظرة مما لم تذكره كتب العهدين .

ومن القصص الذي انفرد به القرآن ما يلي:

أ . القصص الكاملة: مثل قصص: صالح ، هود ، شعيب ، الخضر ، ذي القرنين .

ب . تفاصيل دقيقة في القصص المتناظر انفرد بها القرآن أو خالف فيها كتب التوراة والإنجيل مثل ^(١)

١ . ما جاء في القرآن الكريم من أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وامتناع إبليس عن هذا السجود.

٢ . ما ورد في القرآن الكريم من قصص الخليل عليه السلام مع قومه وتحطيمه لأصنامهم ونظرتهم في النجوم، وحجابه مع قومه ومحاولتهم إحراقه في النار ، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله الحرام ، واشترائه هو وابنه إسماعيل في رفع القواعد من البيت وبناء الكعبة .

٣ . ما قصه علينا القرآن الكريم من محاولة بين نوح وابنه الكافر وعدم ركوب هذا في السفينة وغرقه، ومحاورة نوح مع الله في ذلك .

٤ . ما قصه علينا القرآن الكريم من تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف، وحديث النسوة ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن.

٥ . ما قصه القرآن الكريم عن خبرة سحرة فرعون والتقام العصا التي انقلبت حية لحبالمهم وعصيتهم وسجودهم وإيمانهم برب هارون وموسى، ومحاورتهم مع فرعون.

٦ . الشخص الثاني الذي أراد سيدنا موسى عليه السلام أن يبطش به من عدوه في حين أن العهد القديم يدعي أن هذا الشخص عبراني.

٧ . السامري الذي صنع العجل لبني إسرائيل في حين أن التوراة تذكر أنه هارون عليه السلام.

٨ . ما قصه القرآن الكريم عن الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتنم لإيمانه ودافع عن موسى حين هموا بقتله ، وذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى فنصح موسى بالخروج من أرض مصر .

٩ . القرآن الكريم يذكر أن بنات الشيخ المديني اثنتان ، في حين أن التوراة تذكر أنهن سبع .

١٠ . ما ورد في القرآن الكريم من محاولة بين فرعون وهامان لأجل بناء صرح ليطلع إلى إله موسى .

١١ . ما جاء في القرآن الكريم من خبر أمر موسى قومه بذبح بقرة ومحاورته معهم .

١٢ . أمر الله لقوم موسى بدخول الباب سجداً ومخالفتهم لهذا الأمر .

^١ - عبد الجواد الخوص ، أباطيل الخصوم حول القصص القرآني ، ص ٤٦ ، ٤٨ ، الدار المصرية . الإسكندرية ١٤٢٠ هـ . ٢٠٠٠ م .

- ١٣ . قصة أصحاب السبت ومسحهم قردة بعد أن اعتدوا فيه.
- ١٤ . ما قصه القرآن الكريم من تسخير الله الشجر والطير والحديد لداود عليه السلام.
- ١٥ . تسخير الجن والريح لسليمان عليه السلام.
- ١٦ . قصة الهدهد، وكتاب سليمان للملكة سبأ وإسلامها وإحضار عرشها بلمح البصر من قبل الذي عنده علم الكتاب.
- ١٧ . كلام عيسى في المهدي.
- ١٨ . صنع عيسى من الطين كهيئة الطير وصيورته طيرًا بإذن الله.
- ١٩ . قصة المائدة.

الدليل الرابع: نتائج المقارنة بين القصص المتناظر في القرآن والتوراة والإنجيل

- لا شك أن المقابلة بين نصوص القصص القرآني ونصوص القصص في التوراة والإنجيل تُعَدُّ معيارًا موضوعيًا في بيان تماثل مزاعم الجدليات التنصيرية بتكرار القصص القرآني لقصص العهد القديم والجديد وذلك لما يكشف عنه هذا المنهج المقارن للنصوص من اختلافات وفوارق تفصيلية وجوهرية بين متون القصص في الكتب الثلاثة، مما يحسم بشكل جلي وقاطع أمر الاقتباس والمتابعة، وذلك في ضوء الاعتبارات التالية:
- ١ . تكرار المقتبس لأخطاء مصادره.
 - ٢ . وقوع المقتبس في الخطأ عند محاولته مخالفة المصدر الأصلي، نظرًا لبعدها الزمنية التي تفصله عن الأحداث مع قرب المصدر زمنيًا من تلك الأحداث بل وافتراض معاشته لبعضها.
- فإذا ما أضيف إلى تلك الاعتبارات بُعد موضوعي آخر يتمثل في الاسترشاد بمقررات العلوم ونتائج مكتشفات علماء الحفريات والآثار فيما يخص مرويات القصص المتعلقة بالحقائق الكونية أو التاريخية فإن جوانب الموضوعية ولوازم المنهجية العلمية ودواعي الإفادة تكون قد توفرت في ذلك النهج.
- فإن قادت نتائجه إلى أن القصص القرآني قد خالف القصص التوراتي والإنجيلي في تفصيلات دقيقة وأن مقررات العلوم: الطبيعية والفيزيائية والإنسانية والأثرية، قد وافقت التفصيلات القرآنية بينما خطأت الروايات التوراتية والإنجيلية، فسوف يكون ذلك أنصع برهان علمي على تماثل مزاعم الجدل التنصيري حول القصص القرآني خاصة، وحول أصالة القرآن عامة^(١).

^١ د. عبد الراضي عبد المحسن، الغارة التنصيرية، ص: ١٠١-١١٥

خامساً: إعجاز النظم القرآني (سحره وتأثيره)، علامات إلهية في القرآن.

النظم القرآني هو طريقة التأليف العجيبة التي تفرد بها القرآن وخالفت جميع طرق العرب في البلاغة وأعجزتهم عن إجابة التحدي الذي دعاهم إليه، ويتضمن إعجاز النظم جوانب يظهر بها تفردده وهي:

أ: اللفظ، حيث جاءت ألفاظ القرآن على غير المعهود من الجزالة.

ب: المعنى، وتبدو بلاغة المعاني في مطابقتها للألفاظ وفي تعبيرها التام في أقل لفظ ممكن.

ج: التركيب، وجاء معتدلاً غير متباين، متناسباً غير متنافر، محكماً إذا نزلت إحدى لبناته ثم أديرت كلمات العرب كلمة كلمة لم يوجد أنسب منها.

وهذا الجانب من جوانب الإعجاز القرآني لا تعرفه كتب اليهود والنصارى التي يزداد فيها السفر والسفران والإصحاح والإصحاحان والآية والآيتان والكلمة والكلمات من دون إحساس بتغيير أو تبديل في الأسلوب لأن طرائق التعبير لدى المؤلفين متقاربة، كما أن هذه الكتب صُنِّفت على مراحل زمنية طويلة ونسخت بلغات عدة مما أوهن من قيمتها التعبيرية، فهل يمكن أن يحاكي السامي في طبقته المتدني عنه ^(١)؟

احتوى النظم القرآني على الجزالة، والتناسق، والاهتمام بالإيقاع، والانسجام في اللفظ والنغم؛ وقد حصل للصحابة وهم أفصح الناس، وأعلمهم باللغة وبيانها، حصل لهم التأثير الكبير به، فمن ذلك: قال عمر بن الخطاب: خرجت أنعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: فقراً: {إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليل ما تؤمنون}. قال قلت: كاهن. قال: {ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ...} إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. ^(٢)

وعن جبير بن مطعم، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} (قال: كاد قلبي أن يطير) ^(٣). وفي رواية وذلك أول ما قرأ الإيمان في قلبي " فكأنما صدع قلبي حين سمعت القرآن ^(٤). الوليد بن المغيرة من رؤوس الشرك جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أنني أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو إنك كاره له. قال: ماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وأنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يؤثره عن غيره. فنزلت ^(٥): {ذرني ومن خلقت وحيداً* وجعلت له ملاماً ممدوداً* وبنين شهوداً* ومهدت له تمهيداً*.... إنه فكر وقدر* فقتل كيف قدر* ثم قتل

^١ - حسن طيل، حول الإعجاز البلاغي للقرآن، ص ٧٤-٧٦، و د. عبد الراضي عبد المحسن، الغارة التصيرية على أصالة القرآن الكريم، (ص ٧٥-٧٦)

^٢ - أخرجه أحمد في المسند، (مسند العشرة المبشرين بالجنة، رقم: ١٠٨٠) ورجاله ثقات

^٣ - أخرجه البخاري (كتاب تفسير القرآن، باب سورة الطور، رقم: ٤٥٧٣)

^٤ - انظر فتح الباري (٢/٢٩٠).

^٥ - أخرجه الحاكم (٢/٥٥٠) وقال الذهبي: صحيح، طبعة دار الباز تحقيق مصطفى عطا.

كيف قَدَّرَ* ثم نظر* ثم عبس وبسر* ثم أدبر واستكبر* فقال إن هذا إلا سحر يؤثر* إن هذا إلا قول البشر* سَأَصْلِيهِ سَقَرُ { (المدرثر: ١١) .

ويقول النصارى أن قوة الكتاب اللغوية وجزالته ليست بكافية للحكم بنبوة صاحبه، ويذكرون بأنه قد كان في الدنيا أعمال أدبية صدر بعضها من أناس لا يعرفون القراءة والكتابة كالإلياذة اليونانية والتي يقال بأن كاتبها هو الأعمى هوميروس، وكذلك الحال في قوانين حمورابي والمعلقات السبع للعرب!!
نقول لهم: المسلمون لا يقولون بأن فصاحة كتاب وبلاغة كاتب دليل على نبوته، بل يرون أن القرآن ظهر في أمة تتفاخر بنظمها ونثرها، فدعاهم لمعارضة القرآن، فعجزوا، فدعاهم ليأتوا بمثل سورة منه فعجزوا لمعرفتهم بعظمة هذا الكتاب، وقد عرفوا قعودهم عن الإتيان بمثله، ولو كانوا يرون في المعلقات السبع أو غيرها ما يقارب القرآن في نظمه لقالوا للنبي ذلك، ولكسبوا منه التحدي، لكنهم في الحقيقة عجزوا عن مقاومته، وأقر الوليد بن المغيرة - وهو للنبي عدو وخصم - أقر بعظمة القرآن فقال: " قد سمعت من محمد أنفأ كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته " ولذلك لم يجدوا أمام بيان القرآن إلا أن يقولوا {إن هذا إلا سحر يؤثر} . ثم " إن إعجاز القرآن لا يقوم على بلاغته فحسب كما يظن البعض، ولكن يمتد إلى ما فيه من آيات معجزات تحمل لعلماء الطبيعة أسراراً من حقائق الطبيعة، ولعلماء الاجتماع أسراراً في نوااميس المجتمع، و للفلاسفة أسراراً من حقائق الوجود، ولعلماء التاريخ أسرار من دقائق الأخلاق، وعلماء النفس أسراراً من قواعد علم النفس، ولعلماء التربية أسراراً من أساليب التربية. وسر الإعجاز في تلك الآيات أنها نزلت على رسول الله محمد النبي الأمي وليد البيئة الأمية قبل قرون طويلة من انكشاف أسرار العلم التي وصلنا إليها اليوم ^(١) " و بقي التحدي القرآني يدعو أرباب الفصاحة للإتيان بمثل هذا القرآن ، فما قدر على معارضته أحد على كثرة الأعداء، وتوافر البلغاء. ^(٢)

ذكر الخطابي الحادثة التالية: عن أبي العباس بن سريج قال: سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى: { لا أقسم بهذا البلد } (البلد: ١)؛ فأخبر أنه لا يقسم بهذا، ثم أقسم به في قوله: { وهذا البلد الأمين } (التين: ٣) ؟ فقال ابن سريج: أي الأمرين أحب إليك أجيبك ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟ فقال: بل اقطعني ثم أجبني. فقال: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال، وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزا وعليه مطعنا، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به، وأسرعوا بالرد عليه، ولكن القوم علموا وجهلت فلم ينكروا منه ما أنكرت. ثم قال له: إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها، وأنشد فيه أبياتا ^(٣) .

إن النبي ﷺ قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا عنه وانقطعوا دونه، وقد بقي يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهرا لهم النكير، زاريا على أديانهم، مسفها آراءهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب... وذهبت الأموال، ولو كان ذلك (معارضة القرآن والإتيان بمثله). في وسعهم وتحت أقدارهم، لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين بزرانة الأحلام، و وفارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع (البلغاء الذين يتفنون في مذاهب القول) والشعراء المفلكون (المبدعون) ، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجلد والخصومة واللدد، فقال سبحانه: { ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون } وقال سبحانه: { وتندر به قوما لدا }

^١ - نديم الجسر ، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن

^٢ - الدكتور منقذ السفار ((نقلا عن موقع شبكة بن مريم الإسلامية))

^٣ - البرهان في علوم القرآن للزركشي (٥٤/٢) ، بيروت دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨

فكيف كان يجوز -على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة -أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه، وأن يضربوا عنه صفحا، ولا يجوزوا الفلاح والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه.

ومعلوم أن رجلا عاقلا لو عطش عطشا شديدا، خاف منه الهلاك على نفسه، وبحضرت ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشا، لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه، وهذا بين واضح لا يشك على عاقل. قلت: وهذا من وجوه ما قيل فيه أبينها دلالة وأيسرها مؤونة، وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه).^(١) قال ذات يوم عتبة بن ربيعة أحد بلغاء ورؤوس قريش يا معشر قريش: ألا أقوم إلى هذا فأكلمه، فأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل منها بعضها ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد. فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، قال عتبة: يا محمد أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فلم يجبه قال: فيم تشتم آلهتنا، وتضلل آباءنا، فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كان بك الباء زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستعين بها أنت وعقبك من بعدك. ورسول الله ﷺ ساكت ولا يتكلم، حتى إذا فرغ عتبة، قال رسول الله ﷺ: يا أبا الوليد. قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: افع. فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم {حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا} فمضى رسول الله ﷺ فقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليهما، يسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها، ثم قال: سمعت يا أبا الوليد؟ قال: سمعت. قال: فأنت وذاك!! فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم، قالوا: وما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي إني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا السحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ؛ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. فقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم^(٢). يقول القس السابق إبراهيم خليل^(٣): (يرتبط هذا النبي ﷺ بإعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به المسيح في قوله عنه: (ويخبركم بأمور آتية)، وهذا الإعجاز هو القرآن الكريم، معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمان، فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه؛ من طب وفلك وجغرافيا وجيولوجيا وقانون واجتماع وتاريخ ... ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف..)، وقال: (أعتقد يقينا أي لو كنت إنسانا وجوديا، لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية، وجاءني نفر من الناس وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث في كل مناحيه؛ لآمنت برب العزة والجبروت خالق السماوات والأرض، ولن أشرك به أحدا).

^١ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرباني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني (ص: ٢١)، وهي من رسالة الخطابي.

^٢ - أخرجه الأصبهاني في دلائل النبوة (ص: ٢٢١) تحقيق محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩، ويحيى ابن معين في تاريخه (٥٤/٣)، تحقيق د. أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩، وفي إسناده يحيى بن عبد الله الأجلح الكوفي لبن الحديث (ص: ٥٩٢) والذبال بن حرملة لم يؤثقه إلا ابن حبان (الفتاوى لابن حبان ٢٢٢/٤) تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٥. وأخرجه البيهقي وذكره السيوطي الخصائص الكبرى للسيوطي (١٨٩/١-١٩٣) باختصار.

^٣ - قس مبشر من مواليد الإسكندرية عام ١٩١٩، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية، عمل أستاذا بكلية اللاهوت في أسبوط، كما أرسل عام ١٩٥٤ إلى أسوان سكرتيرا عاما للإرسالية الألمانية السويسرية، وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام، لكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين وأشهر إسلامه عام ١٩٥٩، ومن مؤلفاته: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن -المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي -تاريخ بني إسرائيل. والنص عن كتابه: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن (ص: ٤٧-٤٨)

وقال بلاشير^(١): (إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضا ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة، تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف، إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن، وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رثله المؤمنون).

وقالت بوتر^(٢): (عندما أكملت قراءة القرآن الكريم، غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها، وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية، نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة)، وقالت أيضا: (كيف استطاع محمد الرجل الأمي، الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل).

وقال فيليب حتي^(٣): (إن أسلوب القرآن مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد، وهذا في أساسه. هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى).

وقال الدكتور جورج حنا^(٤): "انه لا بدّ من الاقرار بان القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحي. ولغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود اليه ائمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الائمة مسلمين ام مسيحيين. واذا كان المسلمون يعتبرون ان صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون ايضاً بهذه الصوابية بقطع النظر عن كونه منزلاً او موضوعاً ويرجعون اليه للاستشهاد بلغته الصحيحة كلما استعصى عليهم امر من امور اللغة"

سحر القرآن: إن في هذا القرآن سرّاً يشعر به كل من يواجهه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصراً ما ينسكب في الحسن بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعّها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميّز بإيقاع سائر القول المصوغ من اللّغة؟ أهو هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنّها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟ ذلك سر مودع في كلّ نصّ قرآنيّ، يشعر به كل من يواجهه نصوص هذا القرآن ابتداء ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبّر والتّفكير والتّفكير في بناء القرآن كله^(٥)

^١ - بلاشير (١٩٠٠-١٩٧٣) ولد في بانس، وسافر مع أبويه إلى المغرب، وقضى دراسته الثانوية في مدرسة فرنسية، وتولى عدة مناصب كان آخرها تعيينه أستاذاً للغة العربية الفصحى في المدرسة الوطنية للغات الشرقية في بانس من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠، ومن كتبه: تاريخ الأدب العربي منذ البداية حتى نهاية القرن الخامس عشر، وترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية. (انظر: موسوعة المستشرقين، لعبد الرحمن بدوي؛ ص: ١٢٧) والنص من كتاب قالوا عن الاسلام د. عماد الدين خليل ص ٥٢.

^٢ - ديورا بوتر: ولدت عام ١٩٥٤ بمدينة ترافيز في ولاية ميتشغان الأمريكية، وتخرجت من فرع الصحافة بجامعة ميتشغان، اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠، بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين في أمريكا بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان: (قالوا عن الإسلام: ص ٥٥).

^٣ - حتى: د. فيليب حتي، ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت وقال الدكتوراة من جامعة كولومبيا (١٩١٥م) وتنقل في عدة مناصب كبيرة. من مؤلفاته: أصول الدولة الإسلامي، تاريخ العرب وغيرها. (انظر: "قالوا عن الإسلام" ص ٥٨).

^٤ - جوج حتّا مسيحي من لبنان، ينطلق في تفكيره من رؤية مادية طبيعية صرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الانسان). قصة الإنسان، ص ٧٩ - ٨٠. عن كتاب د. عماد الدين خليل ماذا قالوا عن الاسلام: ص ٥٨.

^٥ - في ظلال القرآن ح ٥ / ٣٣٩٩، سيد قطب، دار الشروق بيروت - القاهرة، ط ١٧ / ١٤١٢.

إن سرّ تأثير القرآن في النفس البشرية فيه كله، فكلّ جوانب العظمة والسموّ فيه، ألفاظه ومعانيه، وصوره، وظلاله، وإيقاعه، وأسلوبه، وشيء آخر بالإضافة إلى كلّ ذلك.

ويقول سيد قطب رحمه الله للقرآن تأثير عجيب على النفوس وسلطان قويّ على القلوب ويبقى وراء ذلك السرّ المعجز في هذا الكتاب العزيز، يبقى ذلك السلطان الذي له على الفطرة متى خلي بينه وبينها لحظة وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب وثقل فوقها الركام تنتفض قلوبهم أحياناً وتتململ، وتحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن. إن الذين يقولون كثيرون، وقد يقولون كلاماً يحتوي على مبادئ ومذاهب وأفكار واتجاهات، ولكن هذا القرآن ينفرد في إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول: إنّه قاهر غلاب بذلك السلطان الغلاب^(١).

إن للقرآن سرّاً خاصّاً على النفوس حتى يبلغ أن يؤثّر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون العربية، وعلى العوام الذين يسمعون إلى تلاوته لا يطرق عقولهم منه شيء، لكن يطرق قلوبهم إيقاعه ويظهر على ملامحهم سره، إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن، وتشي بالقوّة الخفيّة المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتزّ ويرتجف ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن كلّما تفتّح القلب، وصفى الحسّ، وارتفع الإدراك، وارتقت حساسيّة التلقّي والاستجابة، وإنّ هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلّما اتّسعت ثقافة الإنسان.^(٢) قال توماس أرنولد: "إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار (الإسباني) الذي عرف بتعصبه على الإسلام يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به."^(٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٧)، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢) القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ولذا يقول الشعراوي في تفسيره: "فساعة تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويقيّ قدرتك على مقاومة الداء؛ ويُفجّر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك، وهو رحمة لك حين تتخذ منهجاً، وتطبّقه في حياتك فيمنحك مناعة تحميك من المرض، فهو طبّ علاجيّ وطبّ وقائيّ في آنٍ واحد".

قال الإمام الخطابي متحدثاً عن هذا الأثر النفسي للقرآن: (في إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن. منظوماً ولا منشوراً. إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عدواتهم موالاة، وكفرهم إيماناً).

^١ - المرجع نفسه ج ٣ / ١٤٢١، مرجع سابق.

^٢ - المرجع نفسه ج ٥/ ٢٨٥

^٣ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ص ١٦٢، توماس أرنولد (١٨٦٤-١٩٣٠): مستشرق إنجليزي التحق بكلية الهندية في جامعة كمبريدج عام ١٨٨٢م حيث اجتذبه الدراسات الشرقية، وبعد أن أُنجز بنجاح دراسته أمضى السنة الرابعة عاكفاً على دراسة الإسلام، واختير لتدريس الفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية في الهند، ف قضى فيها عشر سنوات، كان لها تأثير بالغ في نظره تجاه الإسلام، وكان يدعو إلى التوفيق بين الثقافة الإسلامية والفكر الأوروبي، وتولى عدة مناصب، وقبل وفاته بعام دعته الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) أستاذاً زائراً. وبعد أن أمضى النصف الثاني من العالم الدراسي ١٩٢٩-١٩٣٠ في التدريس بقسم التاريخ عاد إلى لندن وتوفي فيها في ٣٠ يونيو ١٩٣٠، من مؤلفاته "الدعوة الإسلامية" و "الخلافة" وغيرها.

وبعث الملاً من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليوقفوه على أمور أرسلوه بها، فقرأ عليه رسول الله ﷺ آيات من {حم السجدة} فلما أقبل عتبة وأبصره الملاً من قريش قالوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا، وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن. وقد روي عن بعضهم أنه قال: فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت {إنا سمعنا قرآناً عجباً* يهدي إلى الرشد فآمنّا به} {الجن: ١-٢)، ومصدق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله} {الحشر: ٢١)، وقوله تعالى {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} {الزمر: ٣٩)، وغير ذلك في آي ذوات عدد منه، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد، وهو من عظيم آياته، ودلائل معجزاته .^(١)

أمر الله تعالى في كتابه الحرص على إسماع المشركين القرآن الكريم ليكون ذلك عوناً على دعوتهم للإسلام. قال ابن حجر : فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة إلا وهو معجز^(٢). كما ورد في كتب السيرة والتفسير والسنة عن لجوء رسول الله ﷺ لإعجاز القرآن التأثيري كوسيلة أساسية من أسس الدعوة للإسلام وظهور أثر هذه الوسيلة الفعال في كل من استعملت معه. إما قبولاً واعتناقاً للإسلام أو نفوراً وإعراضاً عنه أو إقراراً لإعجاز القرآن في حاله. إن تأثير القرآن الكريم في القلوب قد بلغ مبلغاً عظيماً لم يعرف قبله ولا بعده كلام قط، إذ تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم روعة وخشية وتعزيهم هيبة وتهيمن عليهم عظمتهم، ونرى آثاره على الجاحدين أبلغ وأظهر، إذ يقرعونهم عن ضلالهم ويقيم عليهم حججاً لا معقب لها فيستثقلون سماعه ويتولّون عنه بنفور مدبرين كما أخبر الله تعالى عنهم {ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدركوا وما يزيدهم إلا نفوراً} {الإسراء: ٤١} وقال: {وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أديبارهم نفوراً} {الإسراء: ٤٦}.

وإن الإقرار بالعجز أمام اختيار آيات قرآنية معينة مؤثرة في النفس البشرية دون سواها من آيات القرآن الكريم أمر لا يعدّ نقصاً في البحث أو الباحث، فقد يتأثر بعضهم بآية تتحدث عن القدرة الإلهية في الكون والحياة وقد يتأثر الآخر بما ذكره الله في حياته من النعيم والجنان وما أعدّه الله للمؤمنين ويتأثر الثالث بآية تتحدث عن النار والجحيم والسعير ويتأثر رابع بالحقائق التاريخية الصادقة وخامس يتأثر بالبلاغة المعجزة والكلمة الرقيقة وسادس يتأثر بالأسس الشرعية المحكمة في مجال الحكم والأسرة والمجتمع وغير ذلك،

وهكذا فالقرآن لا يترك نفساً إلا ويتحدث معها عن ملكة من ملكاتها المتعددة، سواء أكانت فكرية عقلية أم وجدانية عاطفية أم سياسية أم عسكرية إلى غير ذلك، ويأخذ هذا التأثير أشكالاً متباينة أحياناً أو منسقة أحياناً أخرى، فتأثر المشركين والكافرين غالباً نفوراً وإعراضاً، أو إلقاء للحجج الواهية التي يقصدون بها التعجيز لقارئة أو التليل من النصّ القرآني نفسه كما نرى عند اليهود والمنافقين ومن شاكلهم.^(٣)

ولا ننسى أننا نقصد بالإعجاز : عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توقّر ملكيتهم البيانية وقيام الداعي على ذلك وهو استمرار تحديهم وتقرير عجزهم عن ذلك ، ثم استمرار هذا الضعف على

١ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - رسالة الخطابي / ٧٠ تحقيق محمد خلف الله أحمد - دار المعارف ط ٤، وانظر البيان في إعجاز القرآن صلاح الخالدي / ٣٥٠ ، دار عمار ط ٣ - ١٩٩٣ .

٢ - الإتيان في علوم القرآن / ١١٧ للسيوطي ، مطبعة المشهد الحسيني - ط ٢ - ١٩٥١ .

٣ - بحث قدم إلى مؤتمر كلية الشريعة التابع إعجاز القرآن الكريم ١٨-٢٠ رجب ١٤٢٦ هـ - ٢٣ - ٢٥ آب ٢٠٠٥ جامعة الزرقاء الأهلية الدكتور خالد محمد القضاة باسم الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وهو منشور على <http://www.quran-m.com/?/quran/article/2487>

تراخي الزمن وتقدمه، فكأنَّ العالم كَلَّه في العجز إنسان واحد ليس له غير مدَّته المحدودة بالغة ما بلغت .^(١) أما الإعجاز التأثيري للقرآن : فهو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه ولا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته ودفعه ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به . أو هو تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية عندما تسمعه، وتفاعلها معه حتى لو كانت نفساً كافرة.^(٢)

لا يوجد كتاب نَزَّه الخالق وقَدَّسه وأمر بالتوحيد والتصديق بالرسول وتنزيههم عن كل نقيصة، والحث على الصالحات والباقيات مثل القرآن؛ منذ كانت الدنيا فالقرآن منسوج بالتوحيد والنبوات والغيبيات والحكم والفقه والتشريع والآداب، كل هذا بحبكة لغوية ونسج لم تعهده العرب وكم من ملايين القناطر المقتطرة من الذهب والفضة دُفعت نحو القرآن، وإذهاب أثره عن القلوب، وتشتيت أتباعه وتشويه مراده عبر الأزمان، طمعا أن يُفعل به ما فُعل بالكتب من قبله^(٣). فبقي رغم كل المحاولات رافعا أعلامه حافظا أحكامه. { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ } (الأنفال: ٣٦)

وإذا أنعمت النظر في دين النصارى وجدت أن كل شرائعهم مبدلة محرفة محدثة، فلم يكن المسيح عليه السلام يعرف كنيسة فضلا عن أن يبنيتها فضلا عن أن يضع قوانينها، ولم يكن يعرف ناقوسا ولا صليبا ولا أسرا را ولا مطانيات - السجود للقساوسة -، ولا أيقونات - صور قديسين -، ولا مراتب كنسية ولا طقوس كهنوتية . وليس في الإنجيل الذي بين أيدي النصارى اليوم شيء من ذلك! فهي تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان.

ولو انتقلت إلى التوراة لوجدت أن العمل بها صار من الصعوبة بمكان، حيث شدد اليهود على أنفسهم فما أطلقوا؛ وطقوس التطهر والنجاسة عندهم تحتاج إلى قرايين وانعزالية تامة عن الحياة! وقد تعلقت أحكام التوراة بالهيكل السليماني والمذبح وقد حارب الهيكل ولا أحد يعرف له مكانا، وهُدم المذبح وزال أثرهما من الوجود وهذا برهان واضح على نسخ الشريعة. أما المهندوس الذين يتردون من الجبال ويحرقون الأجساد ويغرقون في الماء من أجل التطهر فلم يبتعدوا كثيرا عن طقوس اليهود، ولو أراد الله بعباده الهلكة للتطهر ما أذن لهم في صنعة لبوسٍ لتحصنهم من بأسهم . ولما أوجد لهم سراويل تقيهم الحر^(٤) ! "فليس في التوراة ولا الإنجيل ماثلا لمعاني القرآن: لا في الحقيقة. ولا في الكيفية. ولا الكمية. بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب"^(٥)، فالقرآن رسالة "اليسرى" للأمام؛ يقول تعالى {ونيسرك لليسرى} (الأعلى: ٨) أي: للشريعة السهلة وهي الإسلام. ولو انتقلت إلى معاني القرآن لوجدتها غير محدودة. وعلومه غير محصورة ولا معدودة.

فقد اتسع مجاله لكل فن : " فأنت تجد في كتاب الله أخبارا وأحكام ومواعظ وأمثال وأخلاق وآداب، وترغيب وترهيب ومدح الأخيار وذم الفجار، وتدبير السياسات ومجادلة الأخصام وإقامة الدلائل على أصول الاعتقاد وإزالة الريب، ووصف الغيب ووصف عوالم الأرض والسموات، خارجا بكل ذلك في حسن نظمه عن كل أسلوب فلا هو من الأراجيز البدوية ولا القصائد العربية فكلما تكرر حلا، وسمعته من أي الأفواه غلا مع اقتران معانيه المتغايرة فينقلك من الوعد إلى الوعيد ومن ماضي إلى حاضرٍ ومستقبل، ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر بل تتجانس معانيه

^١ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي / ١٣٩، دار الكتاب العربي ط ٩ - ١٩٧٣، و البيان في إعجاز القرآن د. صلاح الخالدي / ٢٣ مرجع سابق . وانظر إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرثائي صفحة ١٧ ، للخالدي ، دار عتار ط ٢ - ٢٠٠٤ .

^٢ - التعريفات - المرحاني / ٩، مكتبة لبنان - ١٩٧٨ ، البيان في إعجاز القرآن - الخالدي / ٣٤١-٣٤٢ مرجع سابق .

^٣ - الفقرة من وحي كتاب : رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد

^٤ - الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري، ص ١٣٩

^٥ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٥ / ٤٣٥

في بنيةٍ نظميةٍ بديعة^(١) " فإعجاز القرآن ليس في بلاغته فقط كما يظن الملحدة. ولا في لفظه فقط ولا في معناه فقط. بل إعجاز القرآن يشمل اللفظ والمعنى والبلاغة، وينتقل إلى العلوم والأحكام والتشريعات وتحليل النفس وسير أغوارها وإشباع مرادها. وكما يقول ابن تيمية: "فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه"^(٢) وانظر إلى عبارته الأخيرة " وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه."

فالنظم البلاغي القرآني جاء بأفصح الألفاظ. في أحسن نظوم التأليف. مضمنا أصح المعاني. فاللفظة الواحدة من القرآن لو أخذتها وأدرت لغة العرب كلها لتحصل على لفظةٍ أحسن منها ما استطعت ولو أردت أن تؤلف بكلماتٍ أخرى غير كلمات القرآن لتوازي حسن تأليفه وحبكتة ورونقه لشهدت له بالنصر وعلى نفسك بالعجز. انظر إيجاز اللفظ مع دقة المعاني وكثرتها وتلاؤم الكلام في قوله تعالى: { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (هود: ٤٤) وانظر إلى الإيجاز القرآني المعجز في قوله تعالى { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } (الصافات: ١٠٣) (فلما أسلما) خضعا وانقادا لأمر الله تعالى (وتله للجبين) صرعه عليه ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة وكان ذلك بمعنى وأمر السكين على حلقة فلم تعمل شيئا بمانع من القدرة الإلهية هل تستطيع أن تأتي بهذا المعنى المطلوب بنفس هذا العدد من الكلمات في إطار حبكةٍ بلاغيةٍ لا تنبو عن سير الآيات قبلها وبعدها؟ ولو انتقلت عن لغة العرب وأردت أن تترجم كلمة مثل " أنزلكموها " في قوله تعالى { قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ هَا كَارِهُونَ } (هود: ٢٨) فأنت تترجمها بعد أن تتفكك ويخفت رونقها إلى سبع كلماتٍ بالإنجليزية Shall we compel you to accept it وحبكة اللفظ القرآني واستيعابه للمعنى التام مما سارت بأمثاله الركبان. أنظر إلى كلمة " فأسقيناكموه " في قوله تعالى { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } [هود: ٢٢] لفظة واحدة بها حرف عطف ، وفعل وفاعل، ومفعول أول ومفعول ثانٍ. ولذا عندما سمع العرب الأقحاح كتاب الله عز وجل خطف أسماعهم بقوة تأثيره ورفراق بلاغته؛ فعن جبير بن مطعم عن أبيه حين سمع قوله تعالى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ } (الطور: ٣٥) قال : كاد قلبي أن يطير! إن كل هذا ليقطع بأن الظاهرة القرآنية ما جاءت إلا للتحدى وتحدي وتصلح!

لم يزل القرآن يقرع المشركين البلغاء أشد التقريع، ويؤسف أحلامهم، ويذم أهنتهم، ويتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ من مثله، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلت، بل لقد قال الله عز وجل للمشركين: { لم تفعلوا ولن تفعلوا } (البقرة: ٢٤) فما فعلوا، ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشف عواره لجميعهم، فقد ولوا عنه مدبرين وللإنسان أن يتساءل : كيف يجزئ رجلٌ أن يتحدى أناس في جنس ما يحسنون ويبدعون، ثم يتركهم على مضى السنين وقد علاهم الوجيب والخزي والسكون؟ يقول د. عبد الله دراز: " ألم يكن يخشى الرسول بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية ؟ فيهبوا لمنافسته وهم جميعٌ حذرون؛ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهديب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا. حتى يُخرجوا كلا ما إن لم يبرزه فلا أقل من أن يساميه

^١ - الدلائل العقلية للألوسي مخطوط

^٢ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٥ / ٤٣٤

ولو في بعض نواحيه! ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، بل على الإنس والجن؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجلٌ يعرف قدر نفسه إلا وهو مالتئ يديه من تصاريق القضاء، وخبر السماء، وهكذا رماها بين أظهر العالم، فكانت هي القضاء المبرم، فلم يهتم بمعارضته إلا بآء بالعجز الواضح، والفشل الفاضح، على مر العصور والدهور^(١)

فتحدى القرآن أهل البيان في عباراتٍ مخرجة، أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ منه، فما فعلوا فلم يأت العرب جميعاً ولا الأمم التي نُقل لها التحدي بشيءٍ يستريح له الملحدة ويرجون به غيرهم! يقول الألوسي رحمه الله: "فلم ينطق أحد منهم إلى يومنا هذا ببنت شفه ولا أعرب عن موصوفٍ أو صفة، وأظهر الكل العجز عن المعارضة في كل وقتٍ وحين، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين! فكأن محمداً صلى الله عليه وسلم موجودٌ كل عصر بين أظهرنا والوحي غير منقطعٍ منا، لأن دليل نبوته وحجته يُدكرُ الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار آناء الليل وأطراف النهار^(٢)" "فقد رأى هؤلاء الذين يتحداهم القرآن أن تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب لمحاربة رسول الله أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي فهذا بالغ جهدهم { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ } (فصلت: ٢٦).

وجوه فصاحة القرآن وبلاغته

قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} (الزمر: ٢٣)، القرآن العظيم أحسن الكلام وأجوده لأنه نزل بعلم الله، ذلك أن الله سبحانه يعلم أي لفظة هي أدل على المعنى المقصود، وأي لفظة تصلح أن تليها أو تسبقها، بل ومناسبة كل حرف لموضعه، فجاء القرآن العظيم في غاية الفصاحة والبلاغة في مفرداته وتراكيبه^(٣)، وسر فصاحة القرآن وبلاغته أنه كلام الله الذي يحمل العلم الإلهي، وينم عن العظمة والصفات الإلهية التي لا تحد بحد، فأعجز الفصحاء والبلغاء فلم يجدوا إلا أن يقولوا: إنه سحر، كما حكى الله عنهم قولهم: {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ} (المدثر: ٢٤)، هذه بعض وجود فصاحته :

أ - تضمنه أصح المعلومات وأدقها وأكملها، وأصدق المعاني وأوضحها، وأحسن الكلام والتعبير بأفصح المفردات والتراكيب وأبلغها وأعذبها، وسريان ذلك فيه من أوله إلى آخره، وإنه ليستحيل على بشر أن يصل إلى هذا السمو، فإنه إن راعى دقة المعلومة فاته رونق اللفظ وعدوبته غالباً، وإن أراد تنميق الألفاظ وتزيينها لم يصل إلى مراده في دقة المعلومة التي يوردها، وإنك لتلاحظ عدوبة ألفاظه حتى في المواضع العقديّة والتشريعية التي تستلزم البعد عن اللفظ البديع غالباً.

ب - جمعه بين صفتي العدوبة والجزالة^(٤): مع كونهما كالصفتين المتضادتين لا تكادان تجتمعان في الكلام.

ج - إرواؤه لمطلب العقل والعاطفة معاً: بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر.

د - قصده في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى: فإنه يجلي المعنى كاملاً واضحاً في كلمات وعبارات قاصدة ليست بالطويلة المملة، أما البشر فإنه إن أراد الاقتصاد في اللفظ قصر في التعبير عن المعنى المطلوب، وإن أحب تحليل المعنى

^١ - راجع الشفا للقاضي عياض ١ / ٣٦٥ ، والنبأ العظيم للدكتور عبد الله دراز ص ٤٤ - ٤٥ .

^٢ - الدلائل العقلية للألوسي مخطوط

^٣ - هذا البحث أكثر مستفاد من كتاب عبد الحميد الزنداني ، نبات الرسول (ص) ومعجزاته دار الإيمان القاهرة (ص ١٩٠ - ٢١٦) و انظر علم الإيمان الجزء الثاني

ق ١ / ١٦٠ - ١٧٤ له وكتاب اظهار الحق لرحمة الله الهندي (٤ / ٧٥٥ - ٨٢٩) .

^٤ - العدوبة هي رقة اللفظ وسلاسته، والجزالة: قوته ومثاقته.

قاده ذلك إلى التطويل في العبارة، وإن قدّر أنه ضبط اللفظ مع المعنى في جملة أو جملتين، فإن الكلل والإعياء سيلحقه بعد ذلك في بقية الكلام، ونذر أن يصادفه هذا التوفيق مرة ثانية إلا الفينة بعد الفينة.

هـ - جودة سبكه وإحكام سرده: مع أنه حوى موضوعات كثيرة مختلفة شاملة لحاجات البشر في الدنيا والآخرة من تشريع وقصص ومواعظ وبراهين عقلية ووجدانية ومناقشات وأمثال وحكم وغير ذلك، فقد سبك هذه الموضوعات جميعا وغيرها سبكا حكيما، فتراه مترابطا ترابط الجسم الواحد والروح الواحدة.

و - إشباعه العامة والخاصة على السواء: فالجميع يتذوق حلاوته ويجد فيه من بغيته ما يمتع عقله وقلبه، فالعامة يلتذون به ويفهمون منه على قدر استعدادهم وما تبلغه عقولهم وقلوبهم، والخاصة يجدون حلاوته ويفهمون منه أكثر مما تفهم منه العامة، بخلاف غيره من كلام البشر فتجد منه ما يرضي العامة لسهولة ولكن الخاصة تمجّه لكونه دون مستواهم، وإن أَرْضَى الخاصة لارتفاع مستواه لم يرض العامة لكونهم لا يفهمونه.

ز - مسحته اللفظية المميزة: فهي مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، فأما نظامه الصوتي فإنك تجده متسقا مؤتلفا في حركاته وسكناته ومدوده وغنائه، واتصالاته وسكاته، اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع ويستهوئ النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور، فجرسه الصوتي يجذب السامع له ويلفت انتباهه، حتى لو كان أعجميا لا يعرف اللغة العربية، ولعل هذا هو الذي حمل بعض العرب في عهد النبوة أن يقولوا: إنه شعر، ثم عادوا إلى أنفسهم فعلموا أنه فوق الشعر وأنه لا يسير على منهج الشعر ومنواله فقالوا: هو سحر.

وأما جماله اللغوي فيظهر فيما امتاز به في رصف حروفه وترتيب كلماته ترتيبا بديعا، بحيث أنك تجد لذة حين تسمع حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، فحرف يصفر وآخر ينقر، وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، فخرج للناس بمجموعة مختلفة مؤتلفة، جامعة بين اللين والشدّة، والخشونة والرفقة، والجهر والخفية على وجه دقيق محكم، وضع كلا من الحروف المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألف من مجموع ذلك قالب لفظي مدهش بلغ جماله اللغوي قمة الإعجاز، بحيث لو أدخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه واختل نظامه في آذان سامعيه^(١)

ح - إحكام ترابطه وكمال تناسقه: مع كونه قد نزل مفرقا حسب الحوادث في ثلاث وعشرين عاما، بينما البشر يعجزون أن يصنفوا كلاما مترابطا كتربط القرآن إذا كان قد قيل في مناسبات مختلفة وفي أزمنة متباعدة، وقال الخطابي رحمه الله: القرآن صار معجزا، لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، متضمنا أصح المعاني^(٢)

علامات إلهية في القرآن: هناك علامات واضحة بينة في القرآن تدل قارئه وسامعه أنه من عند الله عز وجل ويستحيل أن يكون من عنده غيره ومنها:

[١] الجدة الدائمة: إذا أعجبتك قصيدة من عيون الشعر وطربت نفسك عند سماعها فإنها تفقد رونقها وجمالها إذا كررت على سمعك عدة مرات، مع أن اللسان الذي قالها وكررها واحد، والأذن التي سمعتها واحدة، ذلك لأن كلام البشر يفقد رونقه وجماله بالتكرار، ويلبس قارئ القرآن أثرا من إعجازه حين يقرأ القرآن ويعيد قراءته، فكلما قرأه وجده جديدا مهما تكرر على اللسان أو السمع، وكم كرر المسلمون ويكررون سورة الفاتحة وقصار السور كل يوم،

^١ - مناهل العرفان ٢ / ٣٣١ - ٣٣٥ بتصرف، وانظر كتاب "النبا العظيم" لمحمد عبد الله دراز، لزيادة التوضيح والتفصيل في إعجاز القرآن وروعه اللغوية. ورحمة الله الهندي "إظهار الحق" (٣ / ٣٧٥) وما بعدها، ونبات الرسول ومعجزاته للزنداني

^٢ - الخطابي «بيان إعجاز القرآن ص ٢٧». المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام الناشر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م

وكلهم يجمعون على أن القرآن الكريم لا يزال جديداً على ألسنتهم، وهذه علامة تخضع للممارسة من كل قارئ للقرآن في أي زمان وفي أي مكان، كما أنها علامة إلهية في كل سورة. ولقد نطق أحد كبار المستشرقين بهذه الحقيقة، وهو المستشرق "ليون" فقال: حسب القرآن جلالة ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه لم تستطع أن تخفف ولو بعض الشيء من أسلوبه الذي لا يزال غضاً كأن عهده بالوجود أمس.

[٢] كونه روحاً من أمر الله: يكون الكلام انعكاساً لشخصية المتكلم وعلمه وخبرته وصفاته، وقارئ القرآن يقع في نفسه شعور بأن المتكلم إليه هو الله سبحانه. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا} (الشورى: ٥٢)، فهناك سر خاص وسلطان خاص يحمله القرآن إلى قارئه يدلّه على أنه كلام الله.

[٣] أنه كلام فريد: كلام البشر درجات وطبقات متقاربة ويمكن دمج كلام بعضهم ببعض، لكن القرآن يمثل درجة متميزة، وطبقة من الكلام خاصة، تتميز عن سائر كلام البشر، فإذا تكلم الخطيب أو كتب الكاتب، واستشهد بآيات من كتاب الله تحس بالفارق الجلي بين مستوى كلام الله وكلام البشر، يشعر به السامع والقارئ، بينما كل كلام للبشر يمكن دمجها بغيره دون الإحساس بفارق.

[٤] قوة تأثيره والروعة والهيبة التي تلحق قارئه وسامعه: فإذا قرأ القارئ ما شاء من كلام البشر في موضوع ما، ثم قرأ من كتاب الله آيات في نفس الموضوع، فسيشعر بالفارق الكبير في التأثير بين كلام الله وكلام البشر. وانظر الفرق بين أثر ما تسمعه من وعظ الواعظ بكلام الله، وبين وعظه بكلامه، بل جرب أن تعظ الناس بكلامك ثم تعظم بكلام الله، ثم انظر الفرق في وجوه المستمعين وفي نفسك، بشرط شريكك للألفاظ القرآنية التي لا يعرفها العامة في هذا الزمان، ولقد أدرك أحد المستشرقين هذه العلامة الإلهية كما أدركها غيره، فقال: "إن أسلوب القرآن جميل وفياض، ومن العجب أنه يأسر بأسلوبه أذهان المسيحيين، يجذبهم إلى تلاوته، سواء في ذلك الذين آمنوا به، أو من لم يؤمنوا به وعارضوه." وقد ذكرنا مدى تأثيره في كفار قريش، وكفي المتأمل ما أحدثه من تأثير هائل في حياة العرب الأميين حتى جعل منهم خير أمة أخرجت للناس قادت البشرية بالعلم والعدل والحق، وصهرت الشعوب في بوتقتها، رغم اختلاف أجناسها وألوانها.

إليك تجربة في تأثير القرآن على التوتر العصبي:

أجرى الدكتور أحمد القاضي تجربة في عيادات (أكبر) « في مدينة بنما بولاية فلوريدا » لإثبات ما إذا كان للقرآن أي أثر على وظائف أعضاء الجسد وقياس هذا الأثر إن وجد، واستعملت أجهزة المراقبة الإلكترونية المزودة بالكمبيوتر لقياس أي تغيرات فسيولوجية عند عدد من المتطوعين الصم أثناء استماعهم لتلاوة القرآن وقد تم تسجيل وقياس أثر القرآن عند عدد من المسلمين المتحدثين باللغة العربية وبغير العربية وكذلك عند عدد من غير المسلمين متحدثين بالعربية أو غير متحدثين بها، وتليت عليهم مقاطع من القرآن الكريم كما تليت عليهم ترجمه لهذه المقاطع باللغة الإنجليزية وفي كل هذه المجموعات أثبتت التجارب المبدئية وجود أثر مهدى مؤكد للقرآن في ٩٧ في التجارب الجذرة، وهذا الأثر ظهر في شكل تغيرات فسيولوجية تدل على تخفيف توتر الجهاز العصبي التلقائي^(١) وقد ظهر من الدراسات المبدئية أن تأثير القرآن المهدى للتوتر يمكن أن يعزى إلى عاملين:

[١] صوت الكلمات القرآنية بغض النظر عما إذا كان المستمع قد فهمها أم لم يفهمها؛ آمن بها أم لم يؤمن

بها.

١ - تفاصيل هذه النتائج عرضت على المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية الإسلامية في أمريكا الشمالية الذي عقد في مدينة ساتلوايس بولاية نيزوري في أغسطس ١٩٨٤ م.

[٢] معنى المقاطع القرآنية ولو كانت مقتصرة على الترجمة الإنجليزية بدون الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم، ولذلك أجرى بحوث المرحلة الثانية التي تضمنت دراسات مقارنة لمعرفة إذا ما كان أثر القرآن المهدئ للتوتر وما يصاحبه من تغيرات فسيولوجية عائداً لتلاوة القرآن وليس لعوامل أخرى مثل الصوت أو رنة القراءة القرآنية العربية أو معرفة السامع بأن ما يقرأ عليه هو جزء من كتاب مقدس أي أن هدف الدراسة تحقيق الافتراض القائل بأن الكلمات القرآنية في حد ذاتها لها تأثير فسيولوجي بغض النظر عما إذا كانت مفهومة لدى السامع وقد أجريت هذه التجارب خلال اثنين وأربعين جلسة علاجية، تضمنت كل جلسة خمس تجارب وبلغ المجموع الكلي للتجارب مائتين وعشرة تجربة تليت على المتطوعين فيها قراءات قرآنية خلال خمس وثمانين تجربة، كما تليت عليهم قراءات عربية غير قرآنية باللغة العربية مجودة لتطابق القراءات القرآنية من حيث الصوت واللفظ والوقع على الأذن خلال خمس وثمانين تجربة أخرى ولم يستمع المتطوعون لأي قراءة خلال أربعين تجربة بحيث كانوا جالسين جلسة مريحة وأعينهم مغمضة خلال تجارب الصمت وهي نفس الحالة التي كانوا عليها أثناء التجارب السابقة ولقد ظهر بوضوح أن التجارب الصامتة لم يكن لها أي تأثير مهدئ للتوتر، وكانت النتائج إيجابية في ٦٥ من تجارب القراءات القرآنية بينما لم يظهر هذا الأثر إلا في ٣٣ فقط من تجارب القراءات غير القرآنية. قال تعالى: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد: ٢٨).

تأثر الشاعر المعاصر نقولا حنا: حيث كان نصرانيا، ثم أعلن إيمانه بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم، قال: قرأت القرآن فأذهلني، وتعمقت به ففتيتي، ثم أعدت القراءة فأمنت.. أمنت بالقرآن الإلهي العظيم، وبالرسول من حملة، النبي العربي الكريم... إلى أن يقول: وكيف لا أومن ومعجزة القرآن بين يديّ انظرها وأحسها كل حين؟! هي معجزة لا كبقية المعجزات... معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشر بها... وقال: وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشرين وشواهد وحجج وبراهين لحض الخلق على اعتناقها. إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يثبت أصولها في القلوب.. أما الإسلام فقد غني عن كل ذلك بالقرآن فهو أعلم معلّم وأهدى مبشر، وهو أصدق شاهداً وأبلغ حجة وأدع برهاناً.. هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلي المنظورة المحسوسة في كل زمان.... ثم نظم قصيدة يبين فيها إعجاز القرآن وعظمته ^(١).

[٥] خلوه من التناقض والاضطراب: للناس آراء ومقررات في حالات الضعف أو الخوف أو الضيق أو الفقر أو القلة أو نقص المعلومات، وترى تلك الآراء والمقررات تتغير إذا تبدل حال الإنسان إلى العكس مما سبق، وترى هذا في كل عمل بشري، لكن لا تجد أثراً لشيء من هذا الاختلاف في كتاب الله. لأنه من كلام الذي لا تغيره الأحوال سبحانه، ولا يشوب علمه النقص، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (النساء: ٨٢). مع أن القرآن كتاب ضمّ طوال السور وقصاها، ونزل في فترات متقطعة، وفي ظروف مختلفة وشمل علوماً متعددة، وتحدث عن آفاق واسعة، تجده يصدق بعضه بعضاً ويكمل آخره أوله ^(٢).

[٦] علومه الواسعة: اشتمل القرآن على علوم ومعارف تهدي البشر إلى طريق الحق والصواب والسعادة في جميع شؤونهم في حياتهم الدنيا والآخرة، وتجنّبهم الشر بحذافيره، في كل زمان ومكان، وقد بلغت هذه العلوم من دقة

^١ - علوم القرآن الكريم د. نور الدين عتر ص ٢٠١ - ٢٠٢ وذكر من ضمن آيات قصيدته:

يقولون: ما آياته؟ ضلّ سعيهم... وآياته - ليست تعدّ - عظام
كفى معجز الفرقان للناس آية... علا وسما كالنجم ليس يرام
فكان يبلغ عنده ظل صامتا... كأنّ على الأفواه صرّ كمام
وشاء إله العرش بالناس رحمة... وأن يلاشئ حقدهم وخصام
ففرّق ما بين الضلالة والهدى... بفرقان نور لم يشبه قمام.

^٢ - انظر كتاب/ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشّيخ محمد الأمين الشنقيطي للرد على من توهم وجود تعارض في الآيات القرآنية.

المعلومات، وصحة الأخبار، ونبالة القصد، ونصاعة الحجّة، وحسن الأثر، وعموم النفع مبلغا يستحيل على محمد صلى الله عليه وسلم - وهو رجل أمّي نشأ بين أمّيين - أن يأتي بما من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعا من علماء وأدباء وفلاسفة وأخلاقيين أن يأتوا بمثلها من تلقاء أنفسهم ولو تظاهروا على ذلك^(١)، فالعلوم التي في القرآن تدل كل عاقل ومنصف على أنه من عند الله، ولا يمكن أن تكون من عند غيره، ونضرب لك ثلاثة أمثلة مما احتوى عليه من العلوم:

(أ) إخباره بالغيب الماضي والحاضر والمستقبل:

فمن إخباره بالغيب الماضي: إخباره بقبض الأمم السابقة التي لم يشهدوها محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو قومه، مثل قصة نبي الله نوح عليه السلام مع أمته التي كانت من أقدم الأمم على الأرض. فقد دعا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله سبحانه وترك عبادة غيره، واستمر على ذلك مدة طويلة بلغت ألف سنة إلا خمسين عاما، ومع ذلك لم يستجب له إلا قليل من الناس، فدعا ربه أن ينصره على من عاداه، فأُنزل الله مطرا غزيرا من السماء وفجر الأرض عيوننا فاغرق الكافرين، ونجى الله المؤمنين على سفينة مع نوح.

وأخبر الله سبحانه نبيه في القرآن بعد أن ذكر قصة نوح مع قومه في سورة هود أن هذه القصة من أخبار الغيب التي لم يكن محمد ﷺ يعلمها ولا قومه، وإنما ساقها الله للعبرة ولتسليّة نبيه محمد قال تعالى: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} (هود: ٤٩)، ولو أن الكفار في عهد النبي كانوا يعلمون شيئا من ذلك لكانت فرصة لتكذيب النبي ولكنهم لا ذوا بالصمت.

وهذا مثال واحد حول (قصة هامان):

ورد ذكر "هامان" ست مرات في القرآن الكريم، كما ورد اسمه متصلا باسم فرعون كشخص من المقربين إليه ويسند فرعون إليه أعمال البناء، حيث أمره ببناء صرح عال يصعد عليه، قال تعالى: {وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب} (غافر: ٣٦ - ٣٧)، فهاتان الآيتان تثبتان وجود شخص اسمه هامان مقرب إلى فرعون، ويكلفه بعمل البناء، بينما لم يرد ذكر لهامان في التوراة، ولم يرد ذكره في أي من المقاطع (الروايات) التي تحكي حياة نبي الله موسى عليه السلام، لكن ورد اسم "هامان" في أحد كتب العهد القديم.

لكن هذا الكتاب ذكر أن "هامان" شخص مساعد للملك بابل، وبابل في العراق، وأنه أوقع الكثير من الضرر بالإسرائيليين، ولكن هذه الأحداث كانت بعد نبي الله موسى بمدة طويلة تبلغ ١١٠٠ عام، ويدعى بعض الطاعنين في الإسلام^(٢) أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي كتب القرآن، وأنه نسخ قصص الأمم السابقة من التوراة والإنجيل، فأخطأ في شخصية هامان فذكر أنه وزير فرعون، بينما هو - حسب دعواهم - مساعد ملك بابل.

وجاءت الكشف الحديثة في علم الآثار لتظهر صدق ما جاء في القرآن الكريم وبطلان تلك الدعاوى المزعومة بعد أن حلت رموز وحروف الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة، التي ورد فيها ذكر شخصية هامان وطبيعة عمله،

^١ - انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/ ٣٦٦.

^٢ - Ludwig Marroccio (Confessor to the Pope Innocent XI), Alcoranus Textus Universus: 1698, Published at Paduae, Italy. B. Lewis, V L Menage, Ch. Pellat and J Schacht (Editors), Encyclopaedia of Islam (New Edition): 1971, Volume III, E J Brill (Leiden) Luzac Co. (London), P. 110. Arthur Jeffery, The Foreign Vocabulary of the Qur, an: 1938, Oriental Institute, Baroda, pp. 284.

وتوجد الإشارة إلى هذا الاسم في نصب في متحف هوف في فيينا^(١)، كما ظهر في كتاب بعنوان (in the new Kingdom people) "في شعب المملكة الجديدة" الذي تم إعداده استنادا إلى مجموعة من النقوش كما ظهرت في هذه النقوش وظيفة وطبيعة عمل هامان وهو أنه كان: (رئيس عمال الحجارة) " ورد الاسم مذكرا، من المملكة الجديدة. وترجمت المهنة إلى اللغة الألمانية بمعنى رئيس أو مراقب العمال في مقالع الحجر^(٢) .

وهذا كله يثبت حقيقة ما جاء في القرآن من أن هامان كان في مصر وأنه كان مسئولا عن أعمال البناء وهذه المعلومات لم تكن متوفرة في عهد نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الكتابة الهيروغليفية قد تركت منذ زمن قديم حيث يرجع آخر مثال معروف لاستخدامها إلى عام ٣٩٤ بعد الميلاد ، ثم نسيت هذه اللغة ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يخل رموزها أو يفهمها إلى حوالي ٢٠٠ سنة مضت في عام ١٧٩٩ م تم اكتشاف " حجر رشيد (Rosetta Stone) " الذي يرجع تاريخه إلى ١٩٦ قبل الميلاد، وبواسطته تم حل شفرة الكتابة المصرية القديمة، ومن خلالها توفرت المعلومات عن الحضارة المصرية القديمة وجوانبها الدينية والاقتصادية والتاريخية وغيرها، ومن ذلك معرفة شخصية "هامان" وطبيعة عمله، كما ذكر ذلك في القرآن الكريم. فمن أين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم هذا العلم الذي خفي على البشرية في وقته وإلى عصرنا الحاضر حتى قبل ٢٠٠ سنة تقريبا، إن الإخبار باسم شخص كان يعيش مع فرعون والإخبار عن وظيفته عند فرعون، مع أن هذا الإسلام قد سقط عند أهل الكتب المقدسة ونسي من ذاكرة التاريخ، ولم يعثر على هذا الاسم إلا بعد نزول القرآن باثني عشر قرنا بعد أن تم اكتشاف حجر رشيد الذي تمكن به علماء الآثار من فك رموز لغة الفراعنة (الهيروغليفية) فوجدوا اسم هامان يذكر في النقوش الفرعونية وأنه وزير فرعون للبناء تماما كما أخبر القرآن، إن ذلك يدل على أن مصدر هذا الخبر الغيبي قد نزل في القرآن من علم الله، إنه من الله العليم بكل شيء^(٤).

غيب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم:

وكما أخبر القرآن بالغيب الماضي فقد أخبر ببعض الحوادث التي لم يشهدها رسول الله وهي في زمنه فكانت غيبا بالنسبة له - فأطلعه الله عليها، ومن ذلك أن النبي أسر إلى بعض أزواجه أنه قد حرّم على نفسه شرب العسل الذي عند بعض نسائه، لما ظن أن فيه رائحة غير مستحسنة^(٥)، وأمرها ألا تخبر بذلك أحدا، فأخبرت بعض نسائه بذلك، فأطلعه الله سبحانه على ذلك وأخبرها به، فسألته عن خبره بذلك الغيب فأخبرها أنه الله سبحانه. قال تعالى: ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما تبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض^(٦)﴾ فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير } (التحریم: ٣).

ومن أمثلته كذلك ما كان يخفيه المنافقون من بغضهم للإسلام وطعنهم فيه فيطلع الله عليه نبيه، وكان المنافقون يعلمون ذلك ويخشون أن ينزل القرآن ببيان ما أسروا في قلوبهم. قال تعالى: ﴿يخدر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم

^١ - Wlaler Wreszinski, Aegyptische Inschriften aus dem K.K.Hof Museum in Wien: 1906, J C Hinrichs, - Sche Buchhandlung, Leipzig

^٢ - Hermann Ranke, Die ägyptischen Personennamen, VERZEICHNIS DER NAMEN, Verlag Von JJ Auguston in Gluckstadt, Band I (١٩٣٥).

^٣ - The name is listed as masculine, from the New Kingdom. The profession translated into German reads Vorsteher der Steinbruch arbeiter The Chief/ Overseer of the workers in the stone quarries, (Aegyptische Inschriften, 134, P.130) Encyclopdia Briannica.

^٤ - هذا الخلاصة في اسم هامان من مقال للدكتور/ باسم طارق جمال في مجلة الإعجاز العلمي، العدد (١٤) لعام ١٤٢٣ هـ.

^٥ - وقيل: إن السر هو تحريم مارية القبطية على نفسه، قال الشوكاني: والجمع بينهما ممكن بوقوع القصتين، قصة العسل، وقصة مارية انظر فتح القدير على الآية.

^٦ - أظهره الله عليه: أطلعه الله عليه. عرف بعضه وأعرض عن بعض: ذكر لها بعض ما أخبرت به، وسكت عن البعض الآخر تكريما.

بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون { (التوبة: ٦٤)، كما قال تعالى مبينا كذب المنافقين في اعتذارهم في التخلف عن الجهاد: { يعتذرون إليكم إذا رجعتهم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم { (التوبة: ٩٤) ^(١).

وقد قال أحدهم في النبي كلمة كفر بها، حيث كان النبي يخطب فقال المنافق: إن كان هذا صادقا لنحن شر من الحمير، فقال زيد بن أرقم: هو والله صادق وأنت شر من الحمار، ولما نقلت كلمته إلى النبي جردها، فنزل القرآن الكريم بإثبات تلك الكلمة عليه. قال تعالى: { يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم { (التوبة: ٧٤) ^(٢)، وهكذا كان الوحي يكشف للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما يدور بعيدا عنه مما يحاك حوله وما يدور في خفايا النفوس.

غيب المستقبل:

وهناك نوع آخر من الغيب كشفه الوحي القرآني لرسول الله وهو الغيب المكنون في المستقبل الذي لا سبيل لأحد من البشر أن يعرفه، ومن أمثلته تنبؤه بهزيمة الفرس وغلب الروم، في وقت كادت دولة الفرس أن تزيل الإمبراطورية الرومانية من خارطة الدنيا، فقد وصلت جيوش كسرى أبرويز الثاني إلى وادي النيل، ودانت له أجزاء عظيمة من مملكة الرومان.

سنوات معدودة تمكن فيها جيش الفرس من السيطرة على بلاد الشام وبعض مصر، واحتلت جيوشهم أنطاكية شمالاً، مما أذن بنهاية وشيكة للإمبراطورية الرومانية، وأمام هذا الطوفان الفارسي أراد هرقل ملك الروم أن يهرب من عاصمة ملكه القسطنطينية، وكاد أن يفعل لولا أن كبير أساقفة الروم أقنعه بالصمود وطلب الصلح الذليل من الفرس، ووسط هذه الأحداث وخلافاً لكل التوقعات أعلن النبي في أجواء مكة المتربصة به وبدعوته أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين، أي فيما لا يزيد عن تسع سنين، فقد نزل عليه قول الله تعالى: { غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله { (الروم: ٢-٥) يقول المؤرخ إدوار جين: "في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد عنها وقوعاً، لأن السنين العشر الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية". ^(٣)

لقد كان النبي يتنبأ بانتصار المهزوم الذي يكاد يستسلم لخصمه، ويحدد موعداً دقيقاً لهذا النصر الذي ما من شيء أبعد في تحقيقه منه، وتناقلت قريش هذه النبوءة الغريبة التي خالفت أهواءهم التي مالت إلى جانب الفرس إخوانهم في الوثنية، بينما أحب المسلمون انتصار الروم لأنهم أهل كتاب، واستبشروا بالخير.

قال ابن عباس: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم، لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله فقال: أما إنهم سيغلبون، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا [أي بدوام انتصار الفرس] كان لنا كذا وكذا [أي من الرهن]، وإن ظهرتم [أي بانتصار الروم] كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهر الروم [أي في هذه السنين الخمس]، فذكروا ذلك للنبي فقال: ألا جعلته إلى دون العشر [أي طلب منه زيادة الأجل إلى تسع سنين، لأن البضع في لغة العرب ما دون العشر]، والله قد وعد بظفر الروم في بضع سنين، قال أبو سعيد: والبضع ما

^١-سميت سورة التوبة الفاضحة لكونها تفضح المنافقين، قال الشوكاني: وتسمى البحوث لأنها تبحث عن أسرار المنافقين، وكذلك المبعثرة، والبثرة: البحث، والمخنة لكونها أخزتهم، والمثيرة: لكونها تثير أسرارهم وغير ذلك من الأسماء. انظر مقدمة تفسير سورة التوبة من فتح القدير.

^٢-انظر تفسير الشوكاني، وقد روي في سبب نزولها غير ذلك، والله أعلم.

^٣-تاريخ سقوط واتحاد الإمبراطورية الرومانية، إدوار جين (٧٤/٥).

دون العشر. قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: {غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - في بضع سنين} ^(١).

لقد كان الأمر كما تنبأ عليه الصلاة والسلام، ففي عام ٦٢٣ م وما بعدها استطاع هرقل أن يتخلص من لوهو ومجونه، وشن ثلاث حملات ناجحة أخرجت الفرس من بلاد الرومان، وفي عام ٦٢٦ م واصل الرومان زحفهم حتى وصلوا إلى ضفاف دجلة داخل حدود الدولة الفارسية، واضطر الفرس لطلب الصلح مع الرومان بعد هزيمتهم في معركة نينوى، وأعادوا لهم الصليب المقدس عندهم وكان قد وقع بأيديهم. فمن ذا الذي أخبر محمداً بهذه النبوة العظيمة؟ إنه وحي الله، وهو دليل رسالته ونبوته عليه الصلاة والسلام.

ولو تأملنا قوله تعالى: {في أدنى الأرض} فإن أعيننا لن تخطئ برهاناً آخر من براهين نبوته فالآية تشير إلى حقيقة علمية وهي أن البقعة التي انتصر فيها الفرس على الروم في منطقة الأغوار قريباً من البحر الميت هي أدنى الأرض أي أخفض مكان في الأرض كما تؤكد الموسوعة البريطانية وغيرها ^(٢) إنه بعض علم اللطيف الخبير ومن أمثلته: ما وعد الله به المؤمنين من الاستخلاف في الأرض مع أنهم كانوا قلة مستضعفة، قال تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً} (النور: ٥٥)، وقد تحقق ذلك الوعد فخلال قرن من الزمان انتصر المؤمنون على الدولتين العظيمتين في ذلك الوقت وفتحوا الأرض شرقاً وغرباً ودانت لهم شعوبها بالإسلام ودخلوا في دين الله أفواجا.

ومن أمثلة الإخبار بغيب المستقبل أن يقرر القرآن أن أشخاصاً معينين بأسمائهم لن يسلموا وأنهم سيموتون على الكفر، وكان بإمكانهم أن يكذبوا القرآن ولو تظاهروا بالإسلام تظاهراً، ولكنهم لم يخرجوا عما قرره القرآن في حقهم، بالرغم من إسلام الأعداد الكثيرة ممن كانوا أشد الناس عداوة له. ومن ذلك ما ذكره سبحانه عن أبي لهب أنه من أهل النار، قال تعالى {تبت يدا أبي لهب وتب* ما أغنى عنه ماله وما كسب* سيصلى نارا ذات لهب* وامراته حمالة الحطب} (المسد: ١ - ٤) وكذلك إخباره عن الوليد بن المغيرة أنه سيصلى النار قال تعالى: {سأصليه سقر} (المدثر: ٢٦) وكان الأمر كذلك فمات أبو لهب كافراً، ومات الوليد كافراً، إلى غير ذلك من الأمثلة ^(٣).

(ب) - الإعجاز العلمي الذي احتوى عليه القرآن: القرآن لا تنقضي عجائبه، فكلما مر الزمن اكتشفت البشرية وجهاً جديداً من إعجازه، فما إن دخل الناس في عصر العلوم الكونية حتى وجدوا في كتاب الله نبأ صدق ما وعدهم في قوله تعالى: {سُتْرِيبُهُمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} (فصلت: ٥٣) ، وإذا بالوعد يتحقق، وقد ألفت في هذا مؤلفات كثيرة، تبين مدى الإعجازات العلمية الدقيقة التي تكلم عنها النبي في سنته قبل أربعة عشر قرناً، ولم نعرف معناها إلا الآن في هذا القرن، وقد ألف الدكتور مختار سالم كتاباً بعنوان (الإبداعات الطبية لرسول الإنسانية) ^(٤)، ذكر فيها أنواعاً كثيرة من العلاجات النبوية لأمراض بعضها لم يعرف له دواء إلى الآن، وكيف أن النبي تنبأ بخروج طاعون العصر (الإيدز) ؛ كما سبق ، وعن أبي هريرة أن النبي قال: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم

١ - رواه الترمذي ح (٣١٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح (٢٥٥١).

٢ - يعتبر منخفض بحيرة طبريا ثاني أكبر المنخفضات في العالم، حيث تنخفض فيه اليابسة إلى ٢٠٩ م تحت سطح البحر، بينما هي في منطقة البحر الميت تصل إلى ٣٩٥ م تحت سطح البحر. انظر: أطلس العالم، مكتبة بيروت (ص ٩٥) نقلاً عن كتاب "إنه الحق" الذي أصدرته هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي (ص ٧٩).

٣ - انظر منهدا من الأمثلة على إخبار القرآن بالغيب في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٦/ ٧٠ - ٧٩.

٤ - طبعته مؤسسة المعارف في بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

فليغسله سبعا إحداهن في التراب^(١)» فقد ثبت طبيا أن لسان الكلب يحمل فطريات ضارة جدا بالإنسان، وهذه الفطريات لا تزول ولا تقتل إلا بالتراب مع الماء^(٢)، وفي صحيح البخاري^(٣) أيضا أن النبي قال: «إذا سقط الذباب في إناء أحدهم فليغمسه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء»، وأثبتت التجارب الطبية أن الذبابة تحمل في أحد جناحيها جراثيم مضرّة، وفي الآخر فطريات تقتل هذه الجراثيم^(٤)، وغير ذلك من أنواع الإعجاز وألوانه، الذي يدل أن النبي لا يقول هذا من عند نفسه بل من الوحي.

(ج) - الشريعة العظيمة التي احتوى عليها: لا يستطيع أحد أن ينظم بدقة وإحاطة أمر مصنوع من المصنوعات إلا إذا كان على علم بأسرار ذلك المصنوع فتأتي إرشاداته وتوجيهاته محققة للسير الصحيح، ومن تأمل في أحوال البشرية وجدها في اضطراب وفساد على الدوام، لكنها عند ما طبقت شريعة الله التي جاء بها رسله استقر أمرها وصلح حالها وختم الله الشرائع بشريعة محمد ﷺ التي شيدت عليها أثبت الحضارات التي عرفها البشر خلال التاريخ الإنساني، وسعدت البشرية في ظل تلك الشريعة التي وحدت بين الأجناس المختلفة والبيئات المتباينة والعصور المتعاقبة، وشهد بذلك الدارسون من أهل الاختصاص، مما يدل على أن هذه الشريعة من قبل خالق الإنسان، الذي يعلم أسرار خلقه وفطرته.

فإلى جانب ما احتوى عليه القرآن من الهدى والنور في جانب الاعتقاد والإيمان الذي نزل من أحله، فقد اشتمل على أفضل وأرقى التشريعات التي تكفل سعادة الفرد والمجتمع بل والعالم بأكمله في جميع شؤون حياتهم في جوانب السياسية والقضاء والحكم وإقامة العدل، وفي جوانب الاقتصاد والمال والمعاملات، وفي جوانب الاجتماع والتكافل والأخلاق والآداب والفضائل، وفي جوانب الفكر والبحث والعلم، وفي جوانب الصحة وحماية الأعراض واستتباب الأمن، وفي جوانب العقل والبدن والأسرة والمرأة والمجتمع، وفي جوانب الحرب والسلم والعلاقات بين سائر بني الإنسان، وبيان الحقوق والواجبات فلم يبق جانباً من جوانب الحياة إلا وقد بين فيه سبيل الحق والهدى والصواب كما قال تعالى لرسوله: **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** (النحل: ٨٩)، ومن الأدلة على ذلك أن الأمة الإسلامية قد عاشت أكثر من ألف وأربعمائة عام غنية بما لديها من التشريعات، ولا تزال بعض الدول الإسلامية تتحاكم إليها في محاكمها ولم تحتج في يوم من الأيام إلى قوانين مستوردة من خارج الشريعة الإسلامية، لأن الجهاز التشريعي الضخم قد أغناها عن الحاجة لغيرها.

لا يوجد قانون في الإحكام والتنظيم مثل التشريع الذي جاء به النبي، فإن شريعته جاءت لتسد حاجة الإنسان في كل نواحي الحياة، وتبين الحكم في كل ما يحتاج الإنسان، وتنظم حياة المسلم من ولادته إلى موته؛ تسيّر معه جنباً إلى جنب ترعاه وتحضنه وتقومه وتسدده وتبصره وتهديه {فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين} (البقرة: ٩٧)، شريعة كاملة، فيها من اللين واليسر والموافقة للعقل ما يجعل كل من يلتزم بها سعيداً فخوراً، وفيها من المرونة ما يجعلها تصلح لكل زمان ومكان وأمة، لا تميز بين الناس في الأحكام، فالعدل أساسها والحكمة نبراسها. على حين لا تجد هذا في كل شريعة وقانون وضعي، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا القانونيون والمطلعون على القانون الوضعي، فهو يعدل في كل سنة عدة مرات، والقانون لو نجح في بلد فإنه قد لا ينجح في بلد

١ - متفق عليه (البخاري: كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان رقم: ١٦٧، ومسلم: كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، رقم: ٤٢١)

٢ - انظر: القرآن والسنة في العلوم الحديثة، ص: ٦٩.

٣ - أخرجه (البخاري: كتاب الطب، باب إذا أرقع الذباب في الإناء، رقم: ٥٣٣٦).

٤ - انظر: معجزات في الطب للنبي العربي محمد ﷺ تأليف الطبيب محمد سعيد السيوطي، ص ٦٤ مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٦

آخر، ولو صلح في وقت فقد يكون وبالا في وقت آخر، وانظر ماذا فعلت الشيوعية الحمراء^(١) بأهلها التي لم يلتزم بها من التزم إلا بعد جريان أنوار الدم، واستخدام أبشع أنواع التعذيب، ثم سقطت إلى الهاوية وألقيت في زباله التاريخ غير مأسوف عليها.

ولم يستطع أحد أن يأتي بشريعة تخدم الإنسان في جميع شؤون حياته، فقصارى جهد من وضعها أن تكون فكرة في مجال معين؛ ففي الاقتصاد برزت الاشتراكية والرأسمالية، فالأولى قتلت الإبداع وسأوت بين النشيط والخامل، وبين المضحي واللامبالي، والذكي والغبي^(٢). والأخرى جعلت شعوبها شعوبا طبقية ما بين كل طبقة وطبقة مفاوز، فبعض الطبقات طبقة مسحوقة لا تجد قوت يومها، وبعضهم يتمتعون بكل متاع الدنيا، وليس على هؤلاء حق لأولئك^(٣)، وفي السياسة برزت الديمقراطية والدكتاتورية، فالأولى^(٤) فتحت الباب على مصراعيه وأطلقت الحريات بلا عنان، وجعلت الحكم للشعب طارحة أي حكم شرعي غير مبالية فيه، فحكم الناس يقدم على حكم رب الناس، والأخرى جعلت الحكم محصور بشخص واحد ولا يحق لأحد التدخل مهما بلغ من الثقافة والعلم، وغيرها من الأفكار والمذاهب التي لا يسع المجال لذكرها، وهذه القوانين مع كثرة الواضعين لها والمنقحين والمراجعين والمصححين إلا أنه لا زالت تغير يوما بعد يوم، فمن وضعها غير راض عنها فضلا عن غيره، وكل هذه الأفكار والمذاهب والتشريعات والقوانين على اختلاف مجالاتها كان منتهى قدراتها مجتمعة أن تخدم بدن الإنسان وجسمه، ولم تستطع أن تقدم للروح شيئا، فكان غاية ما عندها أن تقول للناس: ليتخذ كل منكم الدين الذي يريد، فإننا لا نعرف كيف تسعد الروح.

فكل هذه العقول لم تستطع أن تأتي بشريعة خالدة شاملة لجميع نواحي الحياة كما أتى به النبي في شريعته، وهذا من أدلة صدقة، فالبشر لا يقدرين على هذا، ولا حتى النبي يقدر على ذلك، إنما هذه الشريعة تنزل من عزيز حميد، شريعة لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، يقول برناردشو : (لو كان محمد - نبي الإسلام - حيا يرزق لاستطاع أن يحل مشاكل العالم وهو جالس على حصيرته يحتسي القهوة)^(٥).

تم الاعتراف بالشريعة الإسلامية كمصدر عالمي للتشريع والقانون في عدد من المؤتمرات الدولية العلمية منذ عام (١٩٣٢م) منها:

- ١ - القانون المقارن الدولي في لاهاي عام ١٩٣٢م.
 - ٢ - مؤتمر لاهاي المنعقد في عام ١٩٣٧م.
 - ٢ - مؤتمر القانون المقارن في لاهاي ١٩٣٨م.
 - ٤ - المؤتمر الدولي عام ١٩٤٥م بواشنطن.
 - ٥ - شعبة الحقوق بالجمعية الدولية للقانون المقارن ١٩٥١م بباريس.
- وقد صدرت عن هذه المؤتمرات قرارات هامة هي:
- أ - اعتبار التشريع الإسلامي مصدرا رابعا لمقارنة الشرائع.
 - ب - الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها لا تمت إلى القانون الروماني أو إلى أي شريعة أخرى.
 - ج - صلاحية الفقه الإسلامي لجميع الأزمنة والأمكنة.

^١ - القرآن وإعجاز التشريع، محمد إسماعيل إبراهيم، ص ٣١، دار الفكر العربي، القاهرة.

^٢ - القرآن والسنة والعلوم الحديثة، محمد أحمد مدني، ص ١٠١، مبحث الماركسية وتناقضاتها

^٣ - انظر: للموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٩٢٠/٢)

^٤ - انظر: السابق (١٠٦٦/٢)

^٥ - القرآن والسنة والعلوم الحديثة، محمد أحمد مدني، صفحة: ٧١، مطابع خالد للأوفست، الرياض.

د- تمثيل الشريعة الإسلامية في القضاء الدولي ومحكمة العدل الدولية.

[٧] - **حفظه من التغيير والتبديل:** ومن العلامات الإلهية في القرآن كونه محفوظاً من التغيير والتبديل، مع مرور الأزمنة المتطاولة على نزوله، وكثرة المعادين والحاقدين والخصوم المتربصين به وبأهله، ومع ذلك لم تنله يد التغيير والتبديل، وما حصل من محاولات التحريف باءت جميعها بالفشل، فهو محفوظ على مستوى الحرف الواحد بل على مستوى حركة الحرف الواحد، وإنك لتسمع القرآن اليوم يذاع من إذاعات العالم المختلفة ومن الدول المعادية للإسلام فإذا هو القرآن المعروف الذي أنزل على محمد ﷺ وهذا كله تصديق لوعده الله سبحانه الذي تكفل بحفظه فقال سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩) .

[٨] - **الوصف الدقيق للغيب^(١):** إن وصف أمور الغيب بدقة لا يكون إلا ممن رآه أو سمع من رآه، ولذلك يمكن القول بأن وصف النبي لربه وللملائكة وللجنة والنار وصف عجيب، لا يمكن أن يأتي به بشر. فوصف النبي لله سبحانه وصف خال من التنقص، ملئ بكل كمال واجب لله سبحانه^(٢) فيصفه بالقدرة المطلقة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة والحياة الكاملة، وغير ذلك من الأسماء والصفات، فسماه بأحسن الأسماء، ووصفه بأجمل الأوصاف: {ولله الأسماء الحسنى} (الأعراف: ١٨٠)، و(الحسنى) أفعل تفضيل مؤنث من الحسن، يعني أن الله أحسن الأسماء، {ولله المثل الأعلى} (النحل: ٦٠) والمثل يعني الصفة كقوله تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء...} (محمد: ١٥)، يعني أن له سبحانه أعلى الأوصاف. وهذا الوصف لا يمكن لمخلوق أن يتصف به {فلا تضربوا لله الأمثال} (النحل: ٧٤) {فلا تجعلوا لله أندادا} (البقرة: ٢٢) {ولم يكن له كفوا أحد} (الإخلاص: ٤) {ليس كمثله شيء} (الشورى: ١١) {هل تعلم له سميا} (مريم: ٦٥)؛ فهو سبحانه لا مثل له ولا ند له ولا كفو له ولا سمي له. ولكن انظر إلى البشر إذا أرادوا أن يصفوا الله ماذا يقولون^(٣)، فبعضهم يجعل الإله حيواناً كمن يعبد البقر أو الفأر، وبعضهم يجعله جماداً كمن يعبد الأصنام والنار، وبعضهم يعدد الآلهة كالجنوس الذين جعلوا إلهاً للظلمة وإلهاً للنور، والإغريق الذين جعلوا إلهاً للحب وآخر للرزق وثالثاً للكواكب، وفي ضمن هذا تنقص واضح، كأنهم يقولون إن إلههم لا يستطيع أن يحوي جميع هذه القدرات، وبعضهم يعبد ما هو أقرب من ذلك كالفرج، بل بعضهم شطح عقله حتى عبد عدو الإنسانية الأول إبليس، ولكن لنترفع عن هذه الديانات ونذهب إلى الديانات السماوية، ونرى كيف وصف الرب سبحانه عندهم، أما اليهود فهم من أحرأ الناس على مدار التاريخ على الجبار سبحانه، فقد قالوا: {إن الله فقير ونحن أغنياء} (آل عمران: ١٨١) وقالوا: {يد الله مغلولة} (المائدة: ٦٤)، يعني بخيل^(٤) .

وقال ابن القيم: (وأما اليهود فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم وغبائهم وضلالهم، ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل، التي بعضها فوق بعض، ويكفي في ذلك عبادتهم العجل الذي صنعتهم أيديهم من ذهب، ومن عبادتهم أن جعلوه على صورة أبلد الحيوان وأقله فطانة، الذي يضرب المثل به في قلة الفهم، فانظر إلى هذه الجهالة والغباء المتجاوزة للحد، كيف عبدوا مع الله إلهاً آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله، ما لم يشاهده سواهم، وإذا قد عزموا على اتخاذ إله دون الله، فالتخذوه ونبههم حي بين أظهرهم لم ينتظروا موته، وإذا قد فعلوا

^١ - د. عبد المحسن بن زين المطيري، الأدلة الجلية على صدق خير البرية ص ١١٨ الرياض ١٤٢٩

^٢ - انظر: كتاب (الله أهل الشاء والحمد)، د. ناصر الزهراني، مؤسسة الجبسي، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، فهو جيد في هذا الباب.

^٣ - انظر: هداية الحيارى لابن القيم، فصل: ثمرة إنكار النبوات جحد الخالق والجهل بأسمائه وصفاته، ص: ٣٥٤

ولقد ألف عباس محمود العقاد كتاباً حافلاً بعنوان (الله)، تكلم فيه عن وصف الله تعالى في الأديان والأفكار والشعوب الخرومة من نور الوحي، فذكر وصف الله تعالى عند الحضارات السابقة في مصر والهند والصين وفارس وبابل واليونان، وفي الأديان السماوية كاليهود والنصارى، وعند الفلاسفة، وغير ذلك وهو كتاب مفيد. طبعته دار فضة مصر، في القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧ وبالمقارنة بين هذه الأديان وبين وصف النبي صلى الله عليه وسلم له، يتضح الفرق بين الوصفين، ويتبين لك أن هذا الوصف لا يتأتى إلا لمن كان مؤيداً بالوحي.

^٤ - انظر: فتح القدير للشوكاني (٦٠/٢) .

فلم يتخذوه من الجواهر العلوية كالشمس والقمر والنجوم، بل من الجواهر الأرضية، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر التي خلقت فوق الأرض عالية عليها، كالجبال ونحوها بل من جواهر لا تكون إلا تحت الأرض والصخور والأحجار، عالة عليها، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من جوهر يستغني عن الصنعة وإدخال النار وتقليبه وجوها مختلفة وضربه بالحديد وسبكه بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضروب مختلفة وإدخاله النار وإحراقه واستخراج خبثه، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال ملك كريم ولا نبي مرسل ولا على تمثال جوهر علوي لا تناله الأيدي بل على تمثال حيوان أرضي، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشدّها امتناعاً من الضيم كالأسد والفيل ونحوهما بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوان وأقبله للضميم والذل بحيث يحرق عليه ويسقى عليه بالسواقي والدواليب ولا له قوة يمتنع بها من كبير ولا صغير فأني معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبئهم وحقائق الموجودات وتحقيق بمن سأل نبيه أن يجعل له إلهاً، فيعبد إلهاً مجموعاً بعد ما شاهد تلك الآيات الباهرات، أن لا يعرف حقيقة الإله ولا أسمائه وصفاته ونعوته ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق وحاجته وفقره، ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم لما قالوا لنبيهم: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، ولا قالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا. ولا قتلوا نفساً وطرحوا المقتول على أبواب البراء من قتله ونبئهم حي بين أظهرهم، وخبر السماء والوحي يأتيه صباحاً ومساءً، فكأنهم جوزوا أن يخفى هذا على الله كما يخفى على الناس، ولو عرفوا معبودهم لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: (يا أبانا انتبه من رقدتك كم تنام) ولو عرفوه لما سارعوا إلى محاربة أنبيائهم وقتلهم وجسهم ونفيهم، ولما تحيلوا على تحليل محارمه، وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل ... (١).

إلى آخر تلك السلسلة من الشنائم التي لم يقلها حتى عباد الأصنام لآلهتهم، وأما النصارى الذين هم أحسن حالاً من اليهود وأقرب لنا منهم، فقد اجتمع أكثر من ألفي عالم من علمائهم في مؤتمر الأمانة ليحددوا عقيدتهم في الله، فنسبوا الله كما يقول ابن القيم أفعال الحمقى والمجانين، فلو أن ملكاً غضب على شعبه بسبب ذنب واحد، ارتكبه رجل واحد، ثم حاول شعبه إرضاءه بكل سبيل فلم يفلح، ثم قال لهم بعد أزمان طويلة: إذا أردتم إرضائي وذهاب غضبي، فإني أرسل لكم ابني فاقتلوه، فعندها فقط أرضى عليكم. من يفعل هذا الفعل؟! فالنصارى يقولون: إن الله غضب على البشرية بسبب خطيئة آدم، فلم يرض عن البشرية مع من فيها من الأنبياء والمرسلين إلا بعد أن أرسل ابنه للبشرية، فلم يزل غضبه مستمراً حتى قاموا بضربه وصفعه والبصق في وجهه وصلبه، ووضع الشوك على رأسه، وتسمير يديه باللوح وبقاؤه مصلوباً حتى مات ابنه؛ عندها فقط رضي عن كل البشر، وسامحهم على تلك الخطيئة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

* وصف النبي (الملائكة وصفوا عجباً؛ فهم جند الله والقائمون بأمره، العابدون لرهبهم في كل وقت لا يفترون، ولا ينامون، ولا يأكلون، ولا يشربون بل يسبحون الله الليل والنهار لا يسمون، أين هذا من وصف الكفار لهم بالإلانات وغير ذلك.

* ووصف الجنة وصفها هو في غاية من الدقة والاستثارة والتشويق، بحيث لا تتمالك نفسك إذا سمعت هذا الوصف أن تقول: اللهم اجعلني من أهلها ولا تحرمني دخولها (١). لكنك عندما تسمع لكثير من الفلاسفة في وصف ما سموه (بالمدينة الفاضلة) ستضحك من قصور وصفهم، وسذاجة تفكيرهم، وسترى البون الشاسع والفرق الواسع بين وصف النبي ووصف هؤلاء، وهم معذورون؛ لأن النبي ﷺ لم يأت به من عنده بل من الوحي.

* وأما وصفه النار، فهو وصف بليغ، يقذف في قلبك الخوف والفرع والرهبه من هذه الدار.

١ - هداية الحيارى من اليهود والنصارى، لابن القيم (ص: ٣٥٧-٣٥٩).

يقول جفري لانغ: ^(١) (عندما يترجم كتاب مقدس إلى لغة ما، فإنه ينجم عن ذلك ضياع كبير في المعنى، ولكن إذا كان دافع المترجم الالتزام والتقوى، فقد يشع في النص المترجم برق مقدس، لا يمكن أن تقيده حدود الإنسانية، وعلى الرغم من أن القرآن بالتأكيد هو أشد تأثيراً على القارئ في اللغة الأصلية (العربية) من الترجمات، إلا أن شيئاً من الروعة والرهبة والجمال والإشراق من التصوير الفني القرآني قد يحمي في الترجمة، ليثير في النفس انعكاساً عميقاً، كالمشاهد التصويرية والمرعبة للنار على سبيل المثال ... إلى أن قال: وعلى الرغم من أن جميع معتنقي الإسلام الغربيين، مجبرون على الاعتماد على التفسير للقرآن، إلا أنني واثق من أن جميع هؤلاء قادرون على التمييز والانتباه إلى أن أكثر ما يثير الإعجاب بالقرآن هو أسلوبه الأدبي؛ لأنه يغرس في قارئه ذلك الشعور اللاملموس من أنه صادر عن وحي سماوي) .

^١ - الصراع من أجل الإيمان، لجفري لانغ (ص: ٨١)

سادساً: أثر القرآن والتوراة والإنجيل في الارتقاء بجوانب الحضارة الإنسانية

هنالك تفاوت كبير في أثر القرآن والتوراة والإنجيل في تنظيم حياة الإنسان وارتقائه الإنساني والحضاري، فبينما يغيب معنى الإنسانية عن العهد القديم ويختفي الجانب التشريعي في العهد الجديد، نجد الشمول في المعالجات القرآنية لقضايا الاعتقاد والتشريع والنفس الإنسانية والسلوك يقول تعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} (الأنعام: ٣٨)، سجل القرآن خرائط تفصيلية للإنسانية المتجسدة لدى الأسوة الحسنة من الأنبياء والرسل وجاءت تقاريره الأخلاقية ثمرة للمعرفة العميقة بالطبيعة الإنسانية وبين ما يجب على ذي الخلق احتناؤه من رذائل الأعمال والإثم والفواحش أما تاريخ الإنسانية فيفتح القرآن نحو ماضيها البعيد ويوجه مستقبلها وحاضرها من خلال تتبع أخاذ لمشاهد الحضارات والارتقاء وانحدار الأمم، ويتجلى التفاوت الكبير بين أثر القرآن والعهد القديم والجديد في الارتقاء بجوانب الحضارة الإنسانية في الجوانب الثلاثة التالية، أ. الأخلاق، ب. المجتمع، ج. العلم.

أ. الأخلاق: ترتبط المنظومة الأخلاقية التي يدعو إليها النبي المرسل من الرب سبحانه بالتصوّر العقائدي والتفصيل التشريعي، ولذلك فهي في وجه من أوجهها، مرآة تعكس الملامح الكبرى لرسالة هذا النبي، فالمنظومة الأخلاقية اليهودية متصلة بجبل سري بعقيدة العهد القديم حيث أبناء إسرائيل هم شعب الله المختار المدلل، ومن عداهم، فهم الجوامع الأمم التي ليس لها نصيب في رحمة الله، وتبدو هذه الصورة في أعظم تجلياتها في إباحة الإقراض بالربا مع الأُمِّي ومنعه إذا كان التعامل مع يهودي، بما يكشف نخبة الأخلاق الإسرائيلية، كما تنكشف حدتها في وصف الفلسطينيين بأنهم حمير^(١)، وتتجلى في صورة أوضح في التلمود حيث كلمة بشر قاصرة على الإسرائيليين: أنتم تُدعون بشرًا، ولا يُدعى الأمميون بشرًا. (Keriot 6b)، وحيث يقول الحبر حينئذ: من يضرب إسرائيليًا على فكّه؛ فهو كمن أهان الحضرة الإلهية؛ لأنّه قد كتب: من ضرب رجلًا (أي رجلًا إسرائيليًا)، فقد ضرب القدوس (أي الرب) (سנהدرين ٥٨ ب)، وهنا التماهي السافر بين الإسرائيلي والرب!

ومن النصوص الأخرى التي تكشف (نخبوية) الأخلاق التوراتية/التلمودية: لا يتوجّب على اليهودي أن يدفع لوثني أحمور عمل (سנהدرين ٥٨ ب). (إذا نطح ثور لرجل إسرائيلي ثورًا يخص رجلًا كنعانيًا لا تدفع أية فدية، وأما إذا نطح الكنعاني ثور الإسرائيلي؛ توجّب دفع الفدية بالكامل) (باب قما ٣٧ ب). (إذا عثر يهودي على متاع ضائع يخص وثنيًا فلا يتوجّب عليه ردّه) (بابا متسيا ٢٤ أ). (لا يعفو الله عن اليهودي الذي يزوج ابنته لرجل عجوز، أو يأخذ زوجة لابنه الطفل، أو يردّ متاعًا ضائعًا لشخص وثني) (سנהدرين ٧٦ أ). (الأمميون يقعون خارج نطاق حماية الشريعة، ومالهم يتيحه الله حالًا لبني إسرائيل) (باب قما ٣٧ ب) (يجوز لليهودي أن يلجأ إلى الأكاذيب (الحيل) لكي يراوغ أمميًا) (باب قما ١١٣ أ) (لا تترك البقر في فنادق الأميين؛ لأنه يخشى أن يمارسوا معهم الجنس) (عبوداه زراه ٢٢ أ، ٢٢ ب)

ولعلّ من أهمّ مميزات (أخلاق التوراة)، عدم وصلها الجانب الأخلاقي الديني، بالعقاب والتنعيم الأخريين، فهي أخلاق نفعيّة منحصرة في دائرة التعايش والتخادم بين الإسرائيليين باعتبارهم أبناء الرب وأصفياءه، وجاءت التعاليم الأخلاقية التوراتية قاصرة على توجيه بني إسرائيل وإصلاح الفساد الأخلاقي المتأصل في نفوسهم جيلًا بعد جيل وصفهم سفر التثنية (جيل متقلب أولاد لا أمانة فيهم) (٣٢/٢٠) أما النبي أشعيا (٨-٦/٢٩) فيقول: "أعمالهم

^١ - قضاة ١٥/٦: (ثم قال شمشون: «بفك حمار كَوُثْتُ أكداًساً فوق أكداًس، بفك حمار قضيت على ألف رجل»). (ترجمة كتاب الحياة) النص العبري يقول ((חמור חמרתים)) (حماراً حمارين) لا (أكداًساً فوق أكداًس)! وقد جاء وصف غير اليهود بأنهم حمير أيضاً في التلمود (انظر؛ براكوت ٥٨ أ)

أعمال إثم وفعل الظلم في أيديهم أرجلهم إلى الشر تجري وتسرع إلى سفك الدم الذكي أفكارهم أفكار إثم... لذلك جاءت الوصايا العشر أبرز التعاليم الأخلاقية اليهودية بصيغة السلب لتنتهي عن فعل الشر "لا تقتل ، لا تزني ، لا تسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك .ولا ولا الخ

أما منظومة الأخلاق الإنجيلية، فلا تبتعد عن ذلك كثيرا إذ تدعو إلى الكف عن فعل الشر وإلى عدم مقاومته كما في موعظة الجبل، فالمسيح كما تحكي الأناجيل عنه عندما لطمه أحد خدام رئيس الكهنة لم يدر له خده الأيمن بل قال له : إن كنتُ تكلمت رديا فاشهد على الردي، وإن حسنا فلماذا تضربني " (يوحنا: ٢٣/١٨) ، فرغم ما شاع عنها من أنها: نسق جامح في مثاليته، ينكر للفرد كلَّ رغبة وشهوة، ويدعوه إلى أن يتنازل عن كلِّ حقٍّ في نزاعه مع غيره، كما يدعوه إلى أن ينكر مشاعره العفوية الملازمة لطبيعته البشرية في صميميتها، ليتحوَّل إلى كيان بلا إحساس عفوي، فهو ينفعل بصورة تخالف التكوين الآدمي الطبيعي.. فإنَّ الحقيقة هي أنَّ هذه الصورة لا تمثل غير نصف الحقيقة!

إنَّ النظرة العلميَّة غير الخاضعة لبروباغندا الكنيسة، لتكشف صواب ما قرَّره ألبير باييه Albert Bayet^(١) من أنه لا يوجد نسق أخلاقي منضبط في الأناجيل، وأنَّما هناك أنساق أخلاقية متعارضة متصادمة، وقد درجت الكنيسة على الانتقاء منها في ممارستها ودعوتها، مراعاةً لواقع الكنيسة من ضعف أو قوَّة، أو مراعاةً لتغيُّر الزمان وتبدُّل الأنساق الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة.

وقد لخص باييه دراسته القيِّمة لهذا الموضوع، في الفصل الذي اختار له عنوان: لا توجد أخلاق إنجيليَّة، بقوله: " لنوجز حصيلة ما تقدَّم من دراستنا. إنَّها حصيلة بسيطة؛ لا أخلاق إنجيليَّة. فمن جهة أولى، توجد في الإنجيل أفكار متناقضة تتصل بما ندعوه اليوم الأخلاق النظرية. ومن جهة أخرى يوجد مذهب أخلاق عمليَّة. هناك مذاهب ثلاثة في مجال علاقات الأخلاق بالطقوس: الأول يؤكِّد استقلال الأخلاق عن الطقوس ولا يقرُّ سوى الرجس الأخلاقي. والثاني يؤيِّد طقوس التطهر الواردة في (الشريعة) الموسويَّة القديمة دون أن يدخل عليها أيَّ تعديل. والثالث يقيم طقوسًا جديدة.

وفي مجال علاقات الأخلاق بالإيمان يوجد مذهبان: الأول يؤكِّد رجحان الأخلاق ويقرُّ خلاص اليهود ويعلن أن الإيمان لا يقود إلى الخلاص إلا بالأعمال. والمذهب الآخر يؤكِّد رجحان الإيمان، ويدين إسرائيل، ويعلن أن من يؤمن بخلص، ومن لا يؤمن يهلك. وثمة فيما يتصل بالمسؤولية والحرية مذهبان: الأول يعلن أن الناس أحرار، وأنهم يسمعون الكلام جميعًا، وأن في وسعهم وحدهم العمل به، وأن اختيارهم سيجعلهم أبرياء أو آثمين. والمذهب الآخر يعلن أنَّ الناس كافة لا يسمعون الكلام، وأن الله يقصد عمى بعضهم، وإنارة بصيرة الآخرين، وأن المختارين ليسوا هم الذين اختاروا الله، بل إنهم من اختارهم الله.

وفي ميدان الجزاء توجد ثلاثة مذاهب: الأول يعد المؤمن بالخلاص ويمجِّد إسرائيل الناجية من أعدائها. والثاني يعلن بعث الأجساد، والسعادة الجسمانية أو العذاب الجسماني. والثالث يقتصر على وعد ببعث روحي محض ينجز منذ الحياة الدنيا، وهو الانتقال من الخطأ إلى الحقيقة. وإذا ما تصورنا التعاليم المتصلة بالممارسة ألفتينا، على العكس، كأنها تتوزع من تلقاء ذاتها بين فئتين.

الفئة الأولى: لا تقتل أبدًا، لا من أجل العقوبة، ولا حتى من أجل الدفاع عن النفس. ومن لطمك على خدك فحوِّل له الآخر. وإذا أخذ ثوبك؟ فأعط رداءك. لا تستل سيفك أبدًا. ما فائدة ذلك؟ وإذا ما اضطهدت فهلِّل فرحًا.

^١ - ألبير باييه (١٨٨٠م-١٩٦١م): عالم اجتماع فرنسي. درس في السوربون والمدرسة التطبيقية للدراسات العليا.

وإن إنقاذك حياتك يعدل هلاكها. بع جميع أموالك وأعط ثمنها للفقراء. ليس لك كيس ولا مزود. إن كنت فقيراً فابق فقيراً، وعش مع الفقراء، حيث تجعلون كل شيء مشتركاً بينكم. لا تعمل لكسب رزقك: إن الزنايق لا تعمل. إن كنت عزيزاً فلا تتزوج: اخص نفسك من أجل ملكوت السماوات. وإن كنت متزوجاً فامتنع عن الانجاب: ها هي ذي الأيام التي تأتي ويقال فيها: طوبى للعواقر!

احتقر أسرتك الجسمانية. اترك والديك وأبناءك. أبغضهم. انظر إلى السلطات السياسية نظرتك إلى الشيطان. لا تكن ملكاً، ولا قاضياً، ولا سيّداً. ترقب الثورة الكبرى التي ستري انهيار العروش، وهي ستجعل الأغنياء فقراء، والأواخر أوائل. لا تدع أحداً أباً دكتوراً حتى داخل الكنيسة ذاتها: (يسوع) وحده هو الدكتور والمعلم، جميع الناس دونه إخوة متساوون. ألا نرى جميعنا أن كل هذه التعاليم يتسق بعضها وبعض وتشكل كلاً يدع أحدها الآخر. كل شيء جلي المبدأ: الفزع من العالم.

العالم؟ إنه المجتمع الذي ننتمي إليه ونضطلع بمصيره. إنه الأسرة التي يربطنا بها ألف وثاق متين أو ضعيف. إنه الثروة التي تغذي حياة البشر حتى لو كان توزيعها ظالماً. وهو أخيراً الحياة ذاتها والتي كل ما عداها لا شيء. إن بغض العالم هو إذن، من الناحية المنطقية، بغض (المجتمع)، والأسرة، والثروة، والحياة بالذات...

طائفة ثانية من التعاليم: ابتع سيّفاً. أعدم المجرمين. إذا هدّد الموت حياتك فاهرب إلى الجبل. إذا اضطهدت في مدينة فاهرب إلى أخرى. -خذ كيساً ومزوداً. اشتغل لتكسب رزقك. استثمر أموالك بتوظيفها لدى أصحاب المصارف. تصدق: ولكن أحداً لا يطالبك بإعطاء كل ما تملك. دع حقلاً لتفوز بمئة حقل، وبيتاً لتلقى مئة بيت. -تزوج وكن مع امرأتك جسداً واحداً. افرح إن أنجبت زوجتك ابناً. أكرم أباك وأمك. أحب أطفالك، وكن متسامحاً معهم. -اخضع للسلطات القائمة. أعط ما لقيصر لقيصر. احكم على اخوتك. وإذا كانوا عصاة اطردهم. ليخدمك أتباعك. وليجلب لك عبدك طعامك وهو متمنطق. احترم في الكنيسة الرؤساء ورعاة القطيع الذين وهبوا أنفسهم للحقيقة، وهم سادة يحطون عنك خطيئاتك، أو يبقونها عليك.

هنا أيضاً، كيف لا ندرك أن التعاليم تترايط، وأن مبدأ مشتركاً يسودها؟ وهذا المبدأ يعارض كل المعارضة مبدأ الأخلاق الأخرى، وقوامه بوجه الدقة احترام العالم؟^(١)

إنها أخلاط من التصوّرات، والتعاليم، والأوامر، المتضادة!! يضاف إلى ما سبق أنّ الكنيسة في عملها التنصيري - منذ القرون الأولى التالية للبعثة المحمدية - روّجت لنفسها من خلال إظهار التفرد النصري في باب المنظومات الأخلاقية، وهذا أمر يؤكّد بجلاء ألا علاقة نسبية أو عضوية بين المنظومة النصرانية والمنظومة الإسلامية!

أمّا النظر في المنظومة الأخلاقية القرآنية فيكشف حالة تميّز فريدة لهذه المنظومة التي تجمع في فلسفتها بين تحفيز النزوع البشري إلى التسامي، ومراعاة البناء النفسي البشري الذي تتنازعه الشهوات وتحاصره النزغات الشيطانية. لقد جاءت المنظومة القرآنية الأخلاقية بعيدة عن (المثالية الواهمة) التي تنتكر لضعف الإنسان ونقصه {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} (البلد: ٤) ، ومتجانفة عن الواقعية المستسلمة التي تركز إلى قصور النفس البشرية وتخضع لنزواتها لأنها جزء من صميم كينونة البشر {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (المائدة: ٦) .

إنّ الأخلاق الإسلامية تعترف أنّ الإنسان مسلوب العصمة، وأنّه أيضاً يملك القدرة على التعالي فوق الكثير من شوائب النقص فيه بما أودع في فطرته من نزوع إلى الخير واستقبح للشر {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

^١ - ألبير بايه، أخلاق الإنجيل، دراسة سوسولوجية، ت/عادل العوا، دمشق: دار الحصاد، ١٩٩٧م، ص ١١٣-١١٧

وَتَقْوَاهَا} (الشمس: ٨)، كما أنّها موصولة بسياق الوضع الإنساني الاختباري في الدنيا حيث يمشي المرء على صراط محنة النفس الأمانة بالسوء ووعد الله له بالجنة؛ فأينما مال، كان هناك المستقرّ والمآل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (الأنبياء: ٣٥) {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ} (فصلت: ٤٦).

لا يعني ما سبق أنّ القرآن الكريم قد دعا إلى مجموعة قيم لم تعرفها أسفار الكتاب المقدس، فليس ذاك بممكن ولا مطلوب؛ إذ إنّ في تلك الأسفار مجموعة من النظم الأخلاقية التي اتّفق صلحاء البشر على صوابها، كما أنّ القرآن الكريم ذاته قد جاء -في واحد من أغراضه- ليحافظ على الخير الذي هدي إليه أهل الكتاب سابقاً: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (النساء: ٢٦)، وقد أثبت البحث التفصيلي في القيم الأخلاقية السامية الواردة في الكتاب المقدس، أنّها كلّها مثبتة في القرآن الكريم^(١)، غير أنّ هذا الكتاب المعجز والفريد، لا يكفي بالموافقة والجمع، وإنّما هو يجمع إلى الأخلاق المثبتة في أسفار الأولين، أنماطاً جديدة في السلوك والتعامل بما يوافق عالميّة هذا الدين وإحكام أحكامه التي لا سبيل لنسخها؛ إذ لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ! كما جبر القرآن الكريم ما في أحكام التوراة من شدة وتضييق، وما في الكثير من أحكام الإنجيل من رخاوة وتهاون فكانت الخلاصة: أخلاقاً متقنة مصلحة لكلّ زمان ومكان.^(٢)

وأخيراً: امتلأت أسفار الكتاب المقدس بالحديث عن رذائل مارسها بنو إسرائيل وغيرهم، وحكت طويلاً عن سكرهم وزناهم ووثنياتهم. ولقد يظن الظان أنّها حكّت ذلك في باب النهر والتأديب والتبصر في عقوبة المجرمين. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن في الكتاب المقدس الذي حوى بين دفتيه عشرات النصوص غير المناسبة التي تمثل صورة لأدب الفراش والجنس المكشوف، كما تمتلئ بقصص الإثارة، مع تركيز على عنصر الجريمة، ثم قلّ أن تجد عقوبة أو تحذيراً على هذه الجريمة أو تلك، ونتساءل ما الفائدة إذاً من ذكر هذا كله في كتاب يزعم النصارى واليهود أنه موحى به من الله؟ ما الفائدة من ذكر عشر حالات من زنا المحارم في كتاب مقدس؟ والعجب أن كل هذه الحالات العشر تتعلق بالأنبياء وأبنائهم، وعلاوة على ذلك عشرات من قصص الحب القذر. ما فائدة ذلك كله؟

ذكرت التوراة أمثلة عدة في هذا الأدب المكشوف منها قصة يهوذا وكنته ثامارا، وأيضاً القاضي شمشون والعاهرة. (انظر القضية ١٦ / ١ - ٣). وأيضاً اغتصاب أمنون بن داود لأخته ثامار بمشورة يوناداب الذي تصفه التوراة بوصف عجيب غريب، حيث وصفته أنه حكيم جداً. (انظر صموئيل (٢) ١٣ / ٣ - ٢٢)، ومثله كثير، وتبحث في هذا كله عن عقوبة للمحرم فلا تجد، إذ لم تخبرنا التوراة أن حد الزنا المذكور في سفر اللاويين (٢٠ / ١٧) قد طبق مرة واحدة. كما توجد الكثير من النصوص القبيحة، والتي تمثل نماذج من الأدب الفاجر الذي تخلده التوراة، أدب الفراش، الذي لا تجده إلا في كتب الجنس والفجور، ولسوف نعرض لشيء من هذه النماذج مع الاعتذار للقارئ الكريم عن قبيح ما يقرأه.

جاء في نشيد الإنشاد في الإصحاح الأول المنسوب لسليمان: " ليقبلني بقبالات فمه، لأن حبك أطيّب من الخمر، حبيبي لي، بين ثديي يبيت " (نشيد ١ / ١ - ١٥). ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات، قامتك هذه شبيهة بالنخلة، وتدياك بالعناقيد .. تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبت في القرى، لنبكرن إلى الكروم لننظر

^١ - انظر هذا التفصيل الشائق في: محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٩٣-١٠٢.

^٢ - (مصلحة لكل زمان والمكان) لا (صالحة لكل زمان ومكان)؛ لأنّها في كمالها تشكّل البوصلة والمعيار .. انظر في تفصيل معالم المنظومة الأخلاقية القرآنية، محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، ت/عبد الصبور شاهين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

هل أزهز الكرم هل تفتح القعال؟ هل نور الرمان. هنالك أعطيك حيي .. (نشيد ١٣ / ٦ - ١٣ / ٧ - ١٣) . ويبرر القس منيس عبد النور في كتابه "شبهات وهمية"، وجود هذه الغراميات، فيقول: "السفر يصف المباحج الزوجية، ولا خطأ في الجنس الذي هو في إطار الزواج" (١)، وكأني بالكتاب المقدس كتاب يدفع لأولئك الذين يقدمون على الخطبة ويرومون الزواج، كما وإن القس غفل عن تلك النصوص التي تتحدث عن العلاقة الآثمة خارج إطار الزوجية. يقول ول ديورانت في قصة الحضارة: ولسنا ندري كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية، وأجازوا وضعها في الكتاب المقدس، وتقول مقدمة الآباء اليسوعيين: "لا يقرأ نشيد الإنشاد إلا القليل من المؤمنين، لأنه لا يلائمهم كثيراً".

وهذه الصورة السيئة تتكرر في أسفار عدة، ومنها ما جاء في القصة الرمزية للعاهرتين التين أسلمهما الله ليد عشاقهما فذبحوهما، والتي ترمز لمدينتي السامرة وأورشليم، ورمزيتها لا تبرر سوءها: "وكان إليّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم كان امرأتان، ابنتا أم واحدة، وزنتا بمصر، في صباحهما زنتا، هناك دغدغت ثدييهما، وهناك تزغزغت ترائب عذرتهما. واسمها أهولة الكبيرة، وأهولية أختها، ولم تترك زناها من مصر أيضاً، لأنهم ضاجعوها في صباحها وزغزغوا ترائب عذرتها... وأكثر زناها بذكرها أيام صباحها التي فيها زنت بأرض مصر، وعشقت معشوقيهما الذين لحمهم كلحم الحمير [والمعنى: مذاكيرهم كمذاكير الحمير]، ومنّيهم كمّي الخيل" (حزقيال ٢٣ / ١ - ٤٩).

فهل هذا وحي الله؟ أم أنها النفوس المريضة التي لا تطيق البعد عن حمأة الجنس وأحاديثه؟ كما تحوي الأسفار المقدسة بعض صور السباب المقزز، كما في قوله: "الله قد تكلم بقدهس ... موآب مرّحضي، وعلى أدوم ألقى حذائي" (الزمور ٦٠ / ٦ - ٨)، فهل يعتبر الإله العظيم أمة من الأمم التي خلقها محلاً لقضاء حاجته أو للتنظيف من قدره، بل هل له حاجة أو قدر؟ وهل يحتاج إلى مرحاض، ولو على سبيل الاستعارة؟ ومن السباب الذي لا يليق بالله العظيم الجليل ووحيه ما تنقله الأسفار عن الملك شاول أنه قال ليوناثان ابنه: "يا ابن المتعوجة المتمردة، أما علمت أنك قد اخترت ابن يسي [داود] لخزيك وخزي عورة أمك" (صموئيل (١) ٢٠ / ٣٠).

ولا غرابة البتة أن تنتشر الخمر والزنا في أمة تؤمن أن أنبياءها كانوا زناة، يمارسون الرذيلة حتى مع محارمهم، كانوا يشربون الخمر، حتى الثمالة، من غير أن يعاقبهم الله أو يخلع عنهم صفة القداسة والرسالة والاصطفاء، بل أكرم أبناء زناهم وعهرهم، فجعلهم أجداداً لابنه المسيح!! لا غرابة أن تنتشر الخمر في أمة ينصح كتابها المقدس بشرب الخمر، ويراه حلاً لمشاكل الفقراء وذهاباً لهمومهم - بدلاً عن الإيمان والرضا بالقضاء -، يقول سفر الأمثال: "ليس للملوك أن يشربوا خمرًا ولا للعظماء المسكر، لئلا يشربوا وينسوا المفروض ويغيروا حجة كل بني المذلة، أعطوا مسكرًا لهالك، وخمرًا لمزّي النفس، يشرب وينسى فقره، ولا يذكر تعبته بعد" (الأمثال ٣١ / ٦)، ولا غرابة أن تنتشر الجريمة في مجتمع يؤمن بأن الله يأمر بقتل الأبرياء والنساء والأطفال والحيوانات، ودون سبب، وصدق برنارد شو، وهو يقول عن الكتاب المقدس: "أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، احفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح" (٢).

ب. **المجتمع** : على أرض فلسطين وضع العهد القديم أسس مجتمع عنصري خاص بالعبرانيين، لذلك فإن الدول التي كونها شعب العهد القديم على أرض فلسطين حملت أسماءه العنصرية الساللية، دولة يهوذا في الجنوب ودولة إسرائيل في الشمال، ولزم عن ذلك أن حق الحياة وحق المواطنة الكاملة كانا مكفولين للإسرائيلي فقط أما غير الإسرائيلي فحكمه إما القتل وإما الاستعباد يقول سفر التثنية "وحين تقترب مدينة لكي تحاربها استدعها للصالح فإن

^١ - شبهات وهمية حول الكتاب المقدس، القس منيس عبد النور، ص (٢٠٩). و هل العهد القديم كلمة الله، د. منقذ السقار ص ١٢٧ وما بعدها .

^٢ - هل الكتاب المقدس كلام الله، أحمد ديدات، ص (٥٤، ٧٠). و هل العهد القديم كلمة الله، د. منقذ السقار ص ١٣١ .

أجابتهك للصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها بكون للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسلمك وعملت معك حربا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها لنفسك.. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هذه الأمم هنا وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إهلك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما " (١٠/٣-١٦).

وقد لخص مناحيم بيغن رئيس الوزراء الاسرائيلي واجب اليهود تجاه المجتمع الإنساني كما تعلمه التوراة قائلا: " بالدم والنار والدموع والدخان وينوع جديد من الانسانية ، نوع مجهول للعالم منذ أكثر من ألف وثمانمائة عام اليهودي المحارب، قبل كل شيء يجب أن نبدأ الهجوم ، فمن الدم والعرق سوف يولد جيل فخور كريم قوي " ^(١) ، وفي المعاملات مع الغير يوصيهم كتابهم "للأجنبي تقرر بربا "التثنية(٢٣/٢٠)، ويشدد على أهمية التضييق على الأجانب في المعاملات "الأجنبي تطالب ،وأما ما كان لك عند أخيك فترئه يدك منه " التثنية (١٥/٣) .

أما المسيحية فتحت الباب أمام الوثنيين في حق الحياة والمواطنة إلا أن روح الاستعباد والتدمير ما فتئت حية في الخلق المسيحي فلا زالت " المدنية الأوروبية في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة " ^(٢) ، اتضح ذلك من خلال ممارسات الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش والحروب التدميرية العالمية الأولى والثانية والحروب الاستعمارية الطويلة ضد العالم الإسلامي وفي أيامنا هذه الحروب الإبادة ضد المسلمين في البوسنة و الهرسك وحروب كوسوفو وأفغانستان والعراق .

أما القرآن فقد أرسى دعائم مجتمع إنساني متكافئ دعامة التمييز فيه التقوى {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: ١٣] ، وأساس الحكم فيه العدل بين الجميع حتى الخصوم والأعداء منهم {ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ،اعدلوا هو أقرب للتقوى} [المائدة ٨] وحق الحياة مكفول للجميع مع الكرامة الإنسانية وحرمة النفس ذات شأن عظيم {من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا} [المائدة: ٣٢] ، لذلك انصهرت في بوتقة الاسلام مختلف الأمم والشعوب التي ضمتها دولته ، بل برزت من أبناء الشعوب الاسلامية غير العربية قمم في العلوم التحريية والعربية والإسلامية ، فكانت ظاهرة لافتة للنظر ، بل إن أبناء أهل الكتاب من اليهود والنصارى أتاحت لهم فرص النبوغ والتفوق العلمي في ظل الدولة الإسلامية فعاش واشتهر موسى بن ميمون ،سعديا الفيومي ، وابن كمونة ،يوحنا الدمشقي ،وابن العسال وغيرهم ممن تبوأ المناصب الإدارية العالية وهم قادة ومبشرين في أديانهم وكتبهم المقدسة ومدافعين ومجادلين مهرة ضد الإسلام وكتابه !! .

ج . العلم: كتاب العهد القديم كتاب إصلاح لجماعة محدودة من البشر في فترة محدودة من الزمن لذلك قضايا العلم وموضوعاته لا تحتل أي مكان يعتد به في أسفاره وإصحاحاته، لأن قضايا العلم يتطلب استقرارا روحيا واجتماعيا ودافعا إيمانيا لخدمة بني الإنسان وكلها عوامل افتقدها شعب العهد القديم ، فلا يمكن بحال الحديث عن أثر للعهد القديم في إسهام علمي أو معرفي عبر التاريخ بل يمكن الحديث عن عراقيل ومعوقات وضعها العهد القديم أمام التطور العلمي ، ولم نرصد ظهور أية عقلية علمية يهودية قبل الإسلام وبخصوص علماء اليهود الذين عرفهم العالم الإسلامي فذلك راجع لفضل الإسلام ، كما بينا في بحث تأثير الإسلام في اليهودية والمسيحية .

أهم أسباب الخصومة بين العلم والعهد القديم هو افتقاد رب العهد القديم لصفة العلم التي تمكنه من مجرد القدرة على التمييز بيوت أتباعه وبيوت أعدائهم فلما أراد إخراج شعبه من مصر أمرهم أن يلطخوا بيوثهم بالدم كي يميزها عن

^١ - رشاد عبد الله شامي ، الشخصية اليهودية ، ص ١٨٦ سلسلة عالم المعرفة الكويت رقم ١٠٢ .

^٢ - محمد أسد "ليوبود فايس ، الإسلام على مفرد الطرق ، ص ٤١ ،

بيوت المصريين فلا ينزل بها عقاب ، سفر الخروج (١٢/١٣) ، ولم تكن المسيحية بأقل هودة في مخاصمتها للعلم استنادا لقول بولس "حكمة هذا العالم حماقة عند الله ، إن الرب عليم بأفكار الحكماء ويعلم أنها باطلة" الرسالة الاولى كورنثوس (٣/٢٠، ١٩) ، لذلك استأسدت الكنيسة في حربها ضد العلم والعلماء ، فلما تجرأ غاليليو على مقاومة اعتقاد الكنيسة في أن الأرض محمولة على قرني ثور وأن الشمس تدور حولها وأعلن أن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، كان جزاؤه التكفير والمطاردة ولم يصدر الفاتكان وثيقة تبرئة غاليليو من الكفر إلا عام ١٩٩٢ م.

كل ذلك كان طبيعيا ومتفقا مع فكرة مؤلفي العهد الجديد عن العالم والتي جاءت غير علمية مما دفع بـ "ماكس بلانك" لإصدار حكمه الشهير عام ١٩٤٧ بأنه "للإبقاء على قيمة ما للمسيحية للعالم المعاصر ومن ثم للعالم الغربي ، يجب على الإنسان أن يقرر بإخلاص التخلي عن المعجزات التي تشكل عائقا شائكا أمام وصول المسيحية إلى إنسان الحضارة المعاصرة بسبب تعارضها مع العلم " ، فلم يتقدم العالم الغربي المسيحي علميا إلا بتأثير الحضارة الإسلامية وبعد الفصل بين ديانة العهد الجديد وتعاليم وبين شؤون الدنيا ومنها العلم يقول محمد أسد : "وهكذا تكون نسبة نتاج الحضارة المدنية الغربية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخي عظيما ، إن النصرانية ساهمت في جزء صغير جدا من الرقي العلمي المادي الذي فاق به الغرب في مدنيته الحضارة كل ماسواه ، وفي الحق إن ذلك النتاج قد برز من كفاح أوروبا المتطاول للكنيسة المسيحية ولاستشرافها للحياة"^(١).

أما القرآن فهو أكثر الكتب احتفاء بالدين فقد وردت لفظة العلم ومشتقاتها في القرآن أكثر من (٨٢٣) مرة لأن العلم في القرآن أحد وسائل المعرفة التي منحها الله للإنسان لمساعدته للقيام بأعباء الاستخلاف في الأرض ، ولمعرفة الله تعالى والأيمان به لذلك استشهد الله تعالى على وحدانيته بشهادة العلماء {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولي العلم قائما بالقسط} (آل عمران: ١٨) ، فالعلماء أكثر الناس خشية لله بما علموا من خلقه {إنما يخشى الله من عباده العلماء} (فاطر: ٢٨) ، وبلغ عدد آيات العلم (٧٥٠) آية شملت معظم مجالات العلم: فلك وطب والجيولوجيا وزراعة وعالم النبات والحيوان والتناسل والاقتصاد والتجارة وعالم البحار .. لذلك جاء أثر القرآن في تطور العلم وتأسيس العلوم والمعارف بعيدا ومدعيا كما يقول مؤرخ العلم "جورج سارتون" إن معجزة العلم العربي كانت ترجع في الأكثر إلى الأثر الذي حدث بفعل النشاط والجد العربيين وبفعل الإيمان الإسلامي^(٢).

يقول "روم لاندو": ففي الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقا معاكسة ، لا ، والواقع أن الأول كان باعثا من البواعث الرئيسية للثاني، إن الرياضيات هي كما نعلم أم العلوم التجريبية كلها ولقد لعبت الرياضيات من غير ريب دورا حاسما في العلم العربي ، ومع ذلك فحتى في علم تجريدي كالرياضيات كان الدين كما سوف نعلم هو الذي قرر طبيعة منجزات العرب ومداهها ولم يكن لدى العرب في الأصل أي رياضيات خاصة بهم طبعاً . وأكمل متحدثنا عن الفترة الزمنية التي احتاجها المسلمون لتشييد الصروح الشاخنة للتقدم العلمي فقال : "أحرزوه خلال مائتي سنة انقضت على وفاة الرسول ﷺ ليس غير ، وعمق ذلك التقدم أمر يدعو إلى الدهول حقا ، ذلك بأن علينا أن نتذكر أن النصرانية احتاجت إلى نحو ١٥٠٠ سنة كي تنشأ ما يمكن أن يدعى حضارة مسيحية"^(٣).

يلخص قاموس "برتلسمان" لديانات العالم المجالات العلمية التي طورها المسلمون والمجالات البحثية التي أنشئوها قائلا : "تلقي الغرب من الشرق الإسلامي معارف هامة في مجالات كثيرة فقد جمع المسلمون علوم العالم

^١ - محمد أسد "اليوبود فايس ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٤٠ - ٤٦ ،

^٢ - د. محمد الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار، ص ٤٣٥، دار الفكر العربي. القاهرة ١٤١٣ هـ. ١٩٩٣ م. نقلا عن ترجمة عمر فروخ لمحاضرة جورج سارتون التي دعت إليها مؤسسة جورج ل كايير.

^٣ - روم لاندو ، الاسلام والغرب ، ص ٢٤٦ ، ترجمة منير البعلبكي دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ .

ومعارفه: هندية بابلية مصرية فارسية يونانية وترجموا أهم الكتب والمصادر ونقلوا تلك العلوم والمعارف إلى الآخرين ثانية ، وفي الوقت نفسه أسسوا قواعد البحث العلمي في مجالات الجبر والحساب والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا وكان استخدام الصفر العربي أساس التقدم في الرياضيات الحديثة ، وأكمل المسلمون ما أخذوه من معرفة فلكية من البابليين واليونان بواسطة ملاحظاتهم الفلكية الدقيقة ، واكتشف الأطباء المسلمون الدورة الدموية وامتلكوا معرفة عن العدوى والتعقيم ، ووقفوا على وظيفة الرحم وقاموا بعمليات التعقيم الكامل وخطوا خطوات واسعة في طرق وأساليب الجراحة ، وعلى أيديهم تطور علم الوسائط الطبية تطورا كبيرا وكذلك العناية بالمرضى في المستشفيات كانت نموذجية وعممت لتشمل الطبقات الفقيرة ، وظلت صناعات الحديد الإسلامية لا تبارى أزمانا طويلة ، واهرع المسلمون البوصلة واستعملها بحارتهم في القرن الحادي عشر الميلادي وبيدوا أثر التقدم المعماري الإسلامي واضحا في كل من بريطانيا وفرنسا بخاصة في مجال القلاع والحصون والأسوار والمنارات" (١)

ويظهر أثر القرآن في تطور العلم بشكل أكثر جلاء حينما نقارن بين أثره في أمة العرب بعد اعتناقها الإسلام وبين أثر العهدين القديم والحديث في أمة اليونان بعد اعتناقها النصرانية ، فقد ارتقى العرب المسلمون أعلى قمم النضج الحضاري والعلمي والعقلي بينما النصارى اليونانيون كانوا في أعلى القمم في الفلسفة والطب ، وحينما اعتنقوا النصرانية زالت فلسفتهم ، وانقرضت حكمتهم وولّت علومهم بسبب تعارض كتابهم المقدس مع العقل والعلم ، هذا وكشف روم لاندو في كتابه "الإسلام والعرب" تأثير القرآن في نخضة العلوم والمعارف بعد مأتي سنة من نزول القرآن على محمد ﷺ وبين تأثير العهدين القديم والجديد بعد عشرات القرون من تلقيهما بالقبول من أهل الكتاب ، وذلك على امتداد خمس صفحات من كتابه عبر جدول كرونولوجي للعلوم في القرون الوسطى مقارنا أثر الكتاب المقدس والقرآن والعلم على عالمهما من يدقق في تلك الجداول يذهل من النتائج (٢).

١ - "Religionen der Welt": 183 Bertlmann Handbuch " Heraus gegeben von Monika und udo Tworuschka . muenschen Guetersloh 1992 .

٢ - روم لاندو ، ص (٢٨٣-٢٨٧) . ود. عبد الراضي عبد المحسن ، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن ص ٢١٢ وما بعدها

سابعاً: تاريخ ترجمات الكتاب المقدس

فهل كان الكتاب المقدس معرّياً زمن البعثة النبوية؟

قَرّر الناقد Arthur Vööbus^(١) في بداية بحثه عن أقدم ترجمة عربية للعهد الجديد في كتابه الترجمات المبكرة للعهد الجديد (*Early Versions of the New Testament*) أنّ المحاولة التي أُدعى من خلالها معرفة محمد صلى الله عليه وسلم ببعض كتب العهد الجديد في اللغة العربية، وأنه استعمل هذه الكتب في تأليف القرآن، محتجين (باعتباس) (!) القرآن الكريم من إنجيل متى والمزامير والأسفار الخمسة، هو احتمال (خاطئ وليس فيه تحقيق). ولا يفيدنا القرآن هنا، ولا بد أن يُترك خارج النقاش.^(٢)

يقول قاموس الكتاب المقدس أن أول ترجمة عربية للكتاب المقدس ظهرت بعد وفاة النبي بقرن من الزمان، وهي ترجمة أسقف أشبيليا يوحنا عام ٧٢٤م^(٣)، فالكتاب لم يكن متداولاً بين الناس زمن النبي فقد كان حكراً على بعض القسس، ولم يطلع عليه عوام المسيحيين إلا في عصر الطباعة في القرن الميلادي السادس عشر رغم محاولات الكنيسة منع انتشاره بقرارات الحرمان التي أصدرها مجمع تريدين نوتردام في ١٥٤٢ - ١٥٦٣م^(٤).

وشهد غياب الترجمة العربية لهذه الأسفار، العديد من الأكاديميين المحققين، وأقرت بذلك الموسوعات المتخصصة التي لم تحمل همّ دعوى نقض أصالة القرآن الكريم، وذلك بعد أن ثبت بالاستقراء التاريخي غياب الترجمة العربية للكتاب المقدس زمن البعثة النبوية، ولعلّ أهم من كتب في موضوع تاريخ ترجمات الكتاب المقدس في لغات العالم، الباحث Bruce Metzger^(٥)، أستاذ لغة العهد الجديد وآدابه، في كتابه المرجعي *The Bible in Translation* المتعلّق بصورة مباشرة بتاريخ ترجمات الكتاب المقدس؛ فقد قال في هذا الشأن: (من الراجح أنّ أقدم التراجم العربية للكتاب المقدس تعود إلى القرن الثامن).^(٦) . وكتب المستشرق المنصّر توماس باتريك هوغز في معجمه الذي خصّه للمصطلحات الإسلامية *The Dictionary of Islam* نقلاً عن المستشرق J. M. Rodwell^(٧): " لا توجد حجة على أنّ محمّداً قد اطلّع على الأسفار المسيحية المقدسة... لا بد أن يُعلم أنّه لا توجد آثار واضحة على وجود ترجمة عربية للعهد القديم والجديد سابقة لزمن محمد ... أقدم ترجمة عربية للعهد القديم بلغنا أمرها، هي ترجمة الحبر سعديا الفيومي"^(٨). واحتج بالاختلاف الثابت في الصياغة الأدبية بين الترجمات العربية المتأخرة لأسفار العهدين واختلافها أيضاً في رسم أسماء الأعلام؛ للقول إنّها لا تعود لترجمة عربية قديمة سابقة للإسلام، وإنّما هي ترجمات متأخرة عن ذلك، من أصول لغوية مختلفة (السبعينية، والفولجات، وسريانية، وقبطية).^(٩)

^١ - آرثور فووبوس: أستاذ العهد الجديد والتاريخ المبكر للكنيسة في ((The Lutheran School of Theology at Chicago)). له عناية خاصة بالدراسات السريانية والنصرانية المبكرة.

^٢ - Arthur Vööbus, *Early Versions of the New Testament: Manuscript Studies*, Stockholm: 1954, pp. 274-275

^٣ - انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (٧٧١).

^٤ - انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٦٠٨).

^٥ - بروس متزجر (١٩١٤م-٢٠٠٧م): أحد أئمة دراسات النقد النصي للعهد الجديد. له مؤلفات متنوعة في موضوعات متعددة في الدراسات الأكاديمية المتعلّقة بالعهد الجديد. شارك في إعداد أهم نص يوناني قياسي للعهد الجديد في القرن العشرين. كما شارك في تحرير العديد من الترجمات الإنجيلية للعهد الجديد والتعليق عليها. تعتبر مؤلفاته مراجع أساسية في الدراسات المتخصصة في الجامعات الغربية.

^٦ - Bruce Metzger, *The Bible in Translation*, Grand Rapids: Baker Academic, 2001, p. 46

^٧ - جون مدوز رودويل (١٨٠٨م-١٩٠٠م): مستشرق إنجليزي.

^٨ - Thomas Patrick Hughes, *The Dictionary of Islam, being a cyclopaedia of the doctrines, rites, ceremonies, and customs, together with the technical and theological terms, of the Muhammadan religion*, London: W.H. ALLEN, 1895, pp. 516-516

^٩ - انظر؛ المصدر السابق، ص ٥١٦

وخلص الباحث الإنجيلي المصري ألبرت إستيرو^(١) في خاتمة أطروحته للدكتوراه حول الترجمة العربية التي اعتمدها ابن قتيبة في اقتباساته من الكتاب المقدس: "الاقتباسات الكتابية لعبد الله مسلم بن قتيبة ومصدرها: التحقيق في شأن أبكر الترجمات العربية للكتاب المقدس" " *Abdullah Muslim Ibn Qutayba's Biblical Quotations and their Source: An inquiry into the earliest existing Arabic Bible Translations*"^(٢) إلى القول: "ربما ظهرت الترجمات العربية للكتاب المقدس في الفترة الأخيرة من الحكم الأموي- في بداية القرن الثامن."^(٣)، ومما استدلل به لغياب ترجمة عربية قبل ظهور الإسلام؛ عدم حاجة يهود البلاد العربية لهذه الترجمة في لغة العرب؛ إذ دلت النقوش على استعمالهم للآرامية، أما النصارى فيشهد عدم وجود مجتمع نصراني في الحجاز، واعتماد الليتورجيا على اللغات الأخرى، على أنه من غير المعقول أن يواكب ذلك وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس.^(٤)

وذكر الدكتور إيرما موريس برايس أستاذ اللغات السامية والآداب في جامعة شيكاغو - في كتابه الخاص باستقراء تاريخ مخطوطات الكتاب المقدس ونصوصها وترجماتها أن الفتح الإسلامي العربي لسوريا ومصر حيث تم تثبيت اللسان العربي هو الذي أوجد الحاجة لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية.^(٥) ووافقت على ذلك (The Encyclopedia of Christianity) بقولها إن "الترجمات العربية تعود إلى الفترة الإسلامية."^(٦) ولما تحدثت (The Catholic Encyclopedia) طبعة سنة ١٩١٣ م عن التراجم العربية للكتاب المقدس لم تُحدث ذكرًا لترجمة قبل القرن العاشر؛ وإنما جاء فيها أنه: "توجد ست أو سبع ترجمات لأجزاء من العهد القديم طبق الترجمة اليونانية السبعينية، بعضها يعود إلى القرن العاشر."^(٧) والأمر كما قال أحد أعلام النصارى المحافظين البارزين، (Home) إن: "الترجمات العربية للعهد القديم لا تمتد إلى ما وراء القرن العاشر."^(٨)

ومما يؤكد صدق هذه الشهادة، ما قاله المفسر اليهودي ابن عزرا (توفي ١١٦٤ م) في تعليقه على نص تكوين ١١/٢ من أن سعديا الفيومي^(٩) قد ترجم الأسفار الخمسة لموسى إلى (لغة إسماعيل وكتاباتهم ليظهر أنها لا تضم أمورًا غير مفهومة).^(١٠) أي أن بداية النص العربي للأسفار الخمسة قد كانت مع سعديا الفيومي في القرن العاشر.^(١١) وهو

^١ - يكتب بالحرف اللاتيني (Albert Istiero)، والمقابل العربي تقريبي إذ لم أعر على اسمه كما يكتب باللغة العربية. جاء في مخطوطة الدكتوراه تعريفه أنه من مواليد سنة ١٩٣٠ م، في (يوسعيد) بمصر. رسم قسيسًا سنة ١٩٥٨ في الكنيسة الإنجيلية. انتخب سنة ١٩٦٥ م كسكرتير عام لمجلس كنائس الشرق الأوسط. وهو يدرس الأدب الكتابي في إحدى مدارس الكنيسة الإنجيلية المصرية.

^٢ - ناقشها سنة ١٩٩٠ م في جامعة (Johns Hopkins) الأمريكية.

^٣ - Albert Istiero, 'Abdullah Muslim Ibn Qutayba's Biblical Quotations and their Source: An inquiry into the earliest existing Arabic Bible Translations, p.236, manuscript

^٤ - انظر المصدر السابق، ص ٧-١٧

^٥ - انظر؛ Ira Maurice Price, The Ancestry of Our English Bible, Philadelphia: The Sunday School Times Company, 1920, 7th edition, p.108

^٦ - Geoffrey W. Bromiley, ed. The Encyclopedia of Christianity, Tr. Erwin Fahlbusch, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1999, p.242

^٧ - The Catholic Encyclopedia, New York: The Universal Knowledge Foundation, INC., 1913, 15/ 369-٧

^٨ - Thomas Hartwell Home, An Introduction to the Critical Study and Knowledge of the Holy Scriptures, New York: R. Carter & Brothers, 1852, 1/ 274

^٩ - سعديا الفيومي (٨٨٢-٩٤٢ م): حبر وفيلسوف يهودي. يعتبر رائد الكتابات اليهودية-العربية. تأثر بالمناهج والمباحث الكلامية الإسلامية.

^{١٠} - Hava Lazarus-Yefeh, Interwined Worlds, medieval Islam and Bible criticism, New Jersey: Princeton University Press, 1992, pp.117

^{١١} - لا يبدو أن ما ذكره ((المسعودي)) من وجود ترجمة عربية من النص اليوناني السبعيني في القرن التاسع يعكّر على ما قرّره في المتن؛ فإنّ قوله في كتابه: ((التيه والأشرف)) (ت/ م. ج. دو غوج، لندن: بيل، ١٨٤٣) ص ١١٢: ((بطلميوس الكصندرس ملك اثنتين وعشرين سنة، وهو الذي نقلت له التوراة نقلها اثنان وسبعون حبراً بالإسكندرية من بلاد مصر من اللغة العبرانية إلى اليونانية. وقد ترجم هذه النسخة إلى العربي عدة من تقدم وتأخر منهم حنين بن إسحاق (٨٠٩ م- ٨٧٧ م) وهي أصبح نسخ التوراة عند كثير من الناس.)) فيه نظر؛ لأسباب (١) لا توجد أدق شهادة من المخطوطات على هذه (الترجمات) (انظر؛ Meira Polliack, The Karaite Tradition of Arabic Bible Translation, Leiden: Brill, 1997, p.18) رغم أنه قد عرفت

ما أقر به الدكتور القس صموئيل يوسف خليل في كتابه المدخل إلى العهد القديم بقوله: "أول وأهم هذه الترجمات المأخوذة من اللغة العبرية هي التي قام بها سعاديا الجاؤون"^(١)، وهو رجل يهودي متعلم ومثقف جدًا. كان رئيسًا للمدرسة اليهودية في سورا في بابل ومات عام ٩٤٢م.^(٢)

ومما لا بد من إضافته هنا هو أنه رغم ظهور ترجمة عربية للعهد القديم بعد انتشار الإسلام، إلا أن هذه الترجمة - وغيرها إن وجدت - لم ترج بين المسلمين في قرون الإسلام الأولى، إلا ما قد يمكن أن يستثنى في بلاد أوروبا - في الأندلس -^(٣). وقد كان النقل في الكتابات الإسلامية عن الكتاب المقدس في تلك القرون أساسًا من الزاد الشفهي غير المباشر^(٤)، كما كانت كتب المؤرخين الأخباريين كاليقوبي وغيره، تخلط في نقلها عن اليهود بين نصوص الأسفار المقدسة والكتابات المدرسية، بما ينفي - كما تقول المستشرق هفا لازاروس يافه (Hava Lazarus-Yefeh)^(٥) - أن تكون هناك ترجمة عربية راجعة بين المسلمين في تلك الفترة.^(٦)

وتؤكد الحقيقة التاريخية الاستقرار السالفة عسر التعامل مع النصوص الكتابية لما كانت بأيدي أهل الكتاب، وإن كانت بلغة العرب.. فكيف يفترض أن تتاح بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأخذ منها ويذر بيسر، لما لم يكن لها وجود في اللسان العربي؟!

الترجمة العربية للعهد الجديد:

قال الباحث النصراني المحافظ الشهير، والذي شغل منصب مدير المتحف البريطاني، فردريك ج. كنيون، عند سرده للترجمات المتاحة للعهد الجديد: "عدة ترجمات عربية يُعلم وجودها اليوم بعضها ترجمات عن اليونانية، وبعضها عن السريانية، وبعضها عن القبطية، في حين أن ترجمات أخرى هي مراجعات قامت على بعض تراجم اللغات السابقة أو كلها. لا ترجع أي منها إلى ما قبل القرن السابع، وربما لا توجد واحدة في ذاك الزمن المبكر."^(٧)

((إسحاق بن حنين)) ترجمات لكثرة منها عشرات الكتب للطبيب ((جالن)) (انظر؛ Samir Johna, Hunayn ibn-Ishaq: A Forgotten Legend, American Surgeon, 00031348, May2002, Vol. 68, Issue 5, p.498). فكيف يذكر التاريخ ترجماته لكتب الطب، ويغفل الكل -إلا المسعودي- ذكر ترجمته للتوراة؟! - (٢) قال ((المسعودي)) بعد هذا النص مباشرة (ص١١٢-١١٣): ((فأما الإسرائيليون من الأشعث وهم الحشو والجمهور الأعظم والعناية وهم ممن يذهب إلى العدل والتوحيد فيعتمدون في تفسير الكتب العبرانية التوراة والأنبياء والزبور وهي أربعة وعشرون كتاباً وترجمتها إلى العربية على عدة من الإسرائيليين المحدثين عندهم قد شاهدنا أكثرهم منهم أبو كثير يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني إسماعيلي المذهب وكانت وفاته في حدود العشرين والثلاثمائة ومنهم سعيد بن يعقوب الفيومي إسماعيلي للمذهب أيضاً))، وهذه دعوى لا دليل عليها، كما أنها مستبعدة جدًا؛ لأنها تنفي عن ترجمة ((سعديا)) -الذي سماه هنا ((سعيد)) - مبررات إصدارها؛ إذ كيف يعرب الأسفار العبرية مع ما في ذلك من مشقة وحرج علمي، مباشرة بعد أن قام بذلك أساتذته ((أبو كثير يحيى بن زكريا))، ولماذا لا نرى ذكرًا لترجمة الأستاذ، ولم يبق في الخبر غير ذكر ترجمة التلميد مع توافر الدواعي للذكر الاثنين معًا؟!، ((المسعودي)) متهم عند علماء المسلمين بنقل الروايات المكذوبة؛ قال فيه شيخ الإسلام ((ابن تيمية)) في كتابه ((منهاج السنة)) (ت/ محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦ هـ) ٨٤/٤: ((وفي تاريخ المسعودي من الأكاذيب ما لا يحصى إلا الله تعالى، فكيف يوثق في كتاب (يقصد ((مروج الذهب)) (قد عرف بكثرة الكذب.))، كما أنه كثيرًا ما ينقل دون إسناد (انظر؛ عبد الفتاح محمد وهيب، جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، الاسكندرية، منشأة المعارف، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م، ص٢٧) بما يضعف نقله بلا ريب. لا ينفي ما سبق أن تكون هناك بعض الترجمات العربية لمقاطع من الكتاب المقدس (خاصة المزامير التي تستعمل في الليتورجيا) أو لأسفار صغيرة.

^١ - هو نفسه ((سعديا الفيومي))

^٢ - صموئيل يوسف خليل، المدخل إلى العهد القديم، القاهرة: دار الثقافة، ٢٠٠٥ م، ط٢، ص٦٨

^٣ - وجود ترجمة عربية للعهد القديم زمن ((ابن حزم)) في الأندلس لا يزال محل جدل بين النقاد لغياب الدليل المباشر والحاسم لصالح مذهب الإثبات أو النفي. (انظر؛ ((ابن حزم)) قد اعتمد ترجمة عربية من اللاتينية عزت في القرن العاشر على يد ((Ishaq ibn Balask)) (انظر؛ Ann Christys, Christians in Al-Andalus, 711-1000, Richmond: Curzon Press, 2002, p.155)

^٤ - لعل الإمام ((أبا جبر الطبري)) يعد من أهم الأمثلة في هذا الباب، فقد أكثر من النقل عن أهل الكتاب، لكنه كان في القليل النادر يوافق النص الحرفي للعهد القديم. ومن الملاحظ أن المهتدي ((علي بن زين الطبري)) في القرن التاسع ميلاديًا، وإن تميّز بالحرية في كتابه ((الدين والدولة)) إلا أنه على ما تدل عليه القرائن الداخلية - كان يستعمل ترجمة سريانية لا عربية. (انظر؛ Hava Lazarus-Yefeh, Interwined Worlds, medieval Islam and Bible criticism, pp.112-113)

^٥ - هفا لازاروس يافه: إحدى أهم من عملن في الحقل الاستشراقي من (الإسرائيليون) اليوم. حاصلة على جائزة (إسرائيل) للتاريخ. توفيت منذ فترة قصيرة.

^٦ - انظر؛ المصدر السابق، ص ١١٤

^٧ - "Several Arabic versions are known to exist, some being translations from the Greek, some from Syriac, and some from Coptic, while others are revisions based upon some or all of these. None is earlier than

وأكد القس روبر شدياق محقق كتاب " الرد الجميل " للإمام الغزالي أنه لا يوجد ترجمة عربية للعهد الجديد ولم يعثر على أية ترجمة حتى عصر الغزالي في القرن الخامس الهجري، وهذه النتيجة هي ما انتهت إليه أحدث دائرة للمعارف الدينية theologische realenzykloppadie من خلال تتبعها الدقيق لتاريخ أقدم تراجم العهد القديم.^(١) وإلى جانب ذلك لم يكن بمكة أحد من علماء اليهود يمكن الادعاء بأن محمداً قد تعلّم منه ، أما الزعم بإمكان الإفادة من يهود المدينة ،فهو باطل تاريخياً لأن السور المكية هي التي عرضت أطوار قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة وليس السور المدنية على النحو التالي^(٢):

سورة الأعراف عن آدم (١١-٢٥) وموسى (١٠٢-١٧٦) ، وسورة يونس عن موسى (٧٥-٩٢) ، وسورة هود عن نوح (٢٥-٤٩) وإبراهيم ولوط (٦٩-٨٢) ، وسورة يوسف عن يوسف ، وسورة الحجر عن آدم وإبراهيم ولوط (٢٦-٧٧) ، وسورة اسرائيل عن بني اسرائيل (٤-٨) ، وسورة الكهف عن أهل الكهف (٩-٢٥) وعن موسى (٦٠-٨٢) ، وسورة مريم عن يحيى وزكريا ومريم وعيسى وإبراهيم ، وسورة طه عن موسى (٩-٩٨) ، وسورة الأنبياء عن إبراهيم (٥١-٧٠) وعن داوود وسليمان (٧٨-٨٢) ، وسورة الشعراء عن موسى ونوح وإبراهيم .. (١٠-١٨٩) ، وسورة النمل عن موسى وداوود وسليمان (٧-٤٤) ، وسورة القصص عن موسى (٣-٤٣) وعن قارون (٧٦-٨٢) ، وسورة العنكبوت عن نوح وإبراهيم ولوط ، وسورة سبأ عن داوود وسليمان (١٠-١٤) ، وسورة ص عن داوود وسليمان وأيون (١٧-٤٤) ، وسورة الذاريات عن إبراهيم (٢٤-٣٧) . وهذا يعني ان خيار دعوى النقل فلا النص موضع الدعوى موجود في زمن النبي ﷺ ولا كان قد ترجم ولا إمكان القراءة سبيل الإفادة من النص متوافرة لدى المدعى عليه والسور التي تتحدث عن قصص التوراة كلها مكية فلا سبيل للنقل من كل الجهات .

ولا ننسى أن كثرة نسخ العهدين تؤلف أكبر عائق أمام الزعم بتعلم النبي ﷺ أو غيره من كتب اليهود والنصارى لأن العهدين ليس نسخة واحدة معتمدة لدى معتنقيها ، فالعهد القديم ثلاث كتب مختلفة الحجم والمحتوى والأسلوب فتوراة السامرية تخالف تماما التوراة السبعينية وهي تخالف كذلك تورااة العبرانيين ، أما بالنسبة للعهد الجديد فهو يختلف باختلاف الكنسية فالعهد الجديد للأرثوذكس يخالف العهد الجديد للأرمن ويخالف كتاب الكاثوليك وهو يخالف العهد البروتستانتي وكذلك القبطي والحبشي ... والمخطوطات المكتشفة في وادي قمران بالأردن وبنجع حمّادي بصعيد مصر يشير أن هنالك كتب مقدسة أخرى لدى طوائف اليهود والنصارى.

وإن الاعتماد على أية نسخة سيقود إلى التناقض الفاحش مع معطيات النسخ الأخرى فذكر أعمار الخليفة بين نسخ التوراة الثلاثة يؤدي للتناقض التالي: ففي العبرانية عمر الخليفة من آدم حتى نوح (١٦٥٦ سنة) وفي السامرية (١٣٠٧ سنين) وفي اليونانية "السبعينية" (٢٢٦٢ سنة) ، وكذلك الشأن فيما يخص الأناجيل فالاختلاف بينها أعمق وبخاصة فيما يتعلق بنسب المسيح من حيث عدد الأنسال وأسمائهم من آدم إلى المسيح بحسب متى ولوقا فالاختلاف والتضارب بينهم جذري وعميق ، فالاجداد قبل إبراهيم لا يذكر عنهم متى شيئاً مخالفاً لوقا ، ومن إبراهيم حتى داوود

the seventh century, perhaps none so early." (Frederick G. Kenyon, Our Bible and The Ancient Manuscripts, London: Eyre and Spottiswoode, 1898 , 3rd edition, p. 65)

^١ - مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص ٢٤٧ ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨١ . و (theologische realenzykloppadie , 4 , london-new york - bonn 211-213

^٢ - د. عبدالله دراز ، مدخل إلى القرآن الكريم ، ص ١٥٧، ١٥٦ ، دار القلم الكويت ١٩٧١ .

يضعهم لوقا (١٥) جد أما متى (١٤) أما بعد داوود فيلبي جانب الخلاف الكبير في الأسماء تختلف الأعداد فمتى يذكرهم (٢٦) جد أما لوقا فيجعلهم (٤١) جد .^(١)

إنَّ الناظر في ما جاء في القرآن الكريم والسيرة النبوية ليلاحظ غياب أي دليل على وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس، بل يفهم مما جاء في القرآن الكريم والسيرة النبوية النفي المباشر لوجود هذا النص، ولعلَّ من أوضح البراهين لإثبات ما نحن بصدد؛ عدم إحالة أعداء محمد ﷺ إلى هذا النص العربي لما أرادوا نفي حقيقة النبوة عنه؛ إذ إنَّ أهل مكة لما ضاقت عليهم الحيل وسُدَّتْ أمامهم فُرَج التشكيك؛ زعموا أنَّ فتى أعجميًا هو الذي كان يعلم محمدًا ﷺ ما كان يدعو إليه غيره. ولو أنَّ هذا النص العربي المزعوم كان موجودًا؛ لقال المناكفون لهذا النبي إنَّك قد قرأت هذا النص أو إنَّ من أهلك أو رفاق الطفولة أو الشباب من قرأ عليك هذه النصوص، ووَعِيتْها عنه، ثم جئنا لتلوها علينا!! ولو كان هذا النص متداولًا، لقال له العرب: إنَّك تتحدانا بمعارف مشاعة عندنا، وترغم أنَّ كتابك يُعَلِّمنا بما لا نعلم، مع أنَّ ما تخبر به موجود في كتاب عربي قريب من أيدينا، لنا أن نخبرك بما لا تعلم منه .. لكنهم لم يفعلوا! ولو أنَّ هذا النص العربي كان متاحًا؛ لالتخذه العرب وسيلة لمحااجة هذا النبي ﷺ وسبيلًا لمحاولة نقض ما جاء به وإبطال ما يدعو إليه .. ولكنهم لم يفعلوا!

كما أنه يفهم بصورة قاطعة من الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، أنَّ العرب لم يعرفوا نصًا عربيًا لأسفار اليهود فقد قال أبو هريرة متحدًا عن مصدر اطلاع المسلمين أصحاب اللسان العربي زمن البعثة النبوية على مضمون (التوراة): "كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله: "لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا."^(٢) لقد كان يحول بين العرب وبين معرفة ما تتضمنه التوراة، أنَّ لغة أسفار اليهود عبرانية لا يعرفها سكان الجزيرة من الوثنيين، وهو ما دفع أهل الكتاب إلى أن يقرؤوا نصوصهم أولًا باللغة العبرية، ثم يقوموا بتفسيرها في غير لغتها، ولو أنها كانت بلغة العرب لما كلَّف اليهود أنفسهم عنَّا^(٣)

وإنَّ في نهي محمد ﷺ عن سؤال أهل الكتاب، دلالة على احتكار أهل الكتاب لهذه المعارف؛ فقد روى البخاري في صحيحه، في كتاب "قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب"، عن ابن عباس قال: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمْ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ أَحَدُثُ الْأَخْبَارِ بِاللَّهِ، تَقْرَأُونَهُ لَمْ يُشَبَّ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَفَلَا يَنْهَاهُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ."^(٤)

ولو أنَّ مضمون أسفار أهل الكتاب كان متاحًا بين يدي العرب باللغة العربية؛ لما احتاج العرب إلى أن يسألوا أهل الكتاب؟! ويفهم من قوله تعالى عن اليهود: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِغُضْهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا

^١ - موبس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص ١٠٨-١١٠، دار المعارف لبنان ١٩٧٧. و سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص ٨٦. و الغارة التصيرية على أصالة القرآن الكريم، د. عبد الراضي عبد المحسن ص (٦٩-٧٤)

^٢ - صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، ح/ ٤٤٨٥

^٣ - قد يستدل البعض بحديث جابر أن ((عمر بن الخطاب)) أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي، فغضب النبي وقال: ((**أمتهمون** كون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بما بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى كان فيكم حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)). .. وهو حديث ليس بحجة للمخالف لثلاثة أسباب: (١) ليس الحديث محكم الدلالة أنَّ ((عمر)) رضي الله عنه كانت عنده ترجمات عربية لأسفار الكتاب المقدس، ولعلَّها -إن صحَّ الحديث- جدًّا - بعض الحكم المنقولة منها. (٢) معارضة فهم المخالف للثابت من غياب ترجمة عربية.

(٣) هذا الحديث لا يصحَّ عند التحقيق: قال الإمام ((ابن مفلح)): وهو مشهور رواه أحمد وغيره. وهو من رواية مجالد وجابر الجعفي وهما ضعيفان (الآداب الشرعية، ت/ شعيب الأنطوط وعمر القيام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ٢/ ١٠٠) قال الهيثمي: فيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما (جمع الزوائد، ت/ عبد الله محمد الدرويش، بيروت: دار الفكر، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ١/ ٤٢٠)

^٤ - صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يُسأل أهل الشُّرك عن الشَّهادة، وَغَيْرُهَا، ح/ (٢٦٨٥)

أَتَحَدَّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (البقرة: ٧٦)، أَنَّ اليهود يعلمون ألاَّ سبيل للمسلمين لمعرفة ما جاء في الكتب اليهودية إلاَّ ما أخبروهم به، وهو المعنى الذي أقرَّ به الحبر اليهودي جايير!^(١)، ويكشف قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران: ٧٨) أَنَّ اليهود لما كانوا يلوون ألسنتهم أثناء ذكرهم بعض الخبر الديني إيهامًا أَنَّ قولهم هذا نقل لما جاء في الأسفار المقدسة، كان المسلمون في عجز عن مراجعة الأسفار لمعرفة صحة النقل عنها، وكان اليهود مطمئنين ألاَّ سبيل للمسلمين إلى هذه الأسفار، وما ذلك إلاَّ لأنَّ أسفار أهل الكتاب لم تكن متاحة بلغة العرب.

ويحتج كثير من المنصرين -دون عامة المستشرقين-، لإثبات وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس في مكة بما أخرجه الإمام مسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي الطويل، إذ قد جاء فيه أَنَّ ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب... والرد من أوجه:

أولاً: الحديث الذي ورد فيه النص الذي يحتج به المنصرون، صحيح، فقد أخرجه البخاري ومسلم، إلاَّ أَنَّ هذا النص الذي نحن بصددده، والذي يشكل جزءًا صغيرًا من حديث عائشة الطويل، قد جاء على أكثر من صورة، رغم أَنَّ مخرجه واحد، وكلام عامة الشراح فيه، فيه نظر؛ حتَّى قال الإمام العيني: "لم أرَ شراحًا من شراح البخاري حَقَّقَ هذا الموضوع بما يشفي الصدور."^(٢)، وقال الإمام ابن حجر: "ووقع لبعض الشراح هنا خبط لا يعرج عليه."^(٣). لفظ النص المحتج به من الحديث:

جاءت الرواية في البخاري عن: يونس ومعمّر عن: ابن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها: يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب. وهي في مسلم عن يونس فقط. وجاءت الرواية في البخاري عن: عقيل عن: ابن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها: وكان يكتب الكتاب العبراني؛ فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب.

لقد حاول كثير من أهل العلم الجمع بين هذه الألفاظ، لكن يؤخذ على ذلك أمران: في الجمع بينهما تكلف ظاهر لأنَّ ألفاظهما متباعدة دلالة. و في الجمع تعسف شديد؛ لأنَّ مخرج الحديث واحد^(٤)؛ فكلُّ أسانيد الحديث في الصحيحين تسوق هذا الحديث عن الزهري عن عروة عن عائشة، فهل روت عائشة، وروى عروة والزهري هذا الجزء من الحديث بهذه الألفاظ المختلفة؟! هذا أمر غريب على منطق الرواية!

ثانياً: يعسر أن نجد معنى غير متكلف لعبارة (الكتاب العربي)؛ فما هو الكتاب العربي؟! هل كان عند النصارى سفر مقدس عربي؟! إنَّ هذا اللفظ دال على وهم كلٍّ من (يونس) و(معمّر)، أمَّا رواية (عقيل) فهي قريبة للإدراك؛ إذ العهد القديم هو الكتاب العبري، وكان ورقة بن نوفل يترجم الإنجيل من اليونانية إلى العبرانية لتمكنه من اللغة العبرية. ثالثاً: قال الإمام ابن أبي حاتم في كتابه الجليل الجرح والتعديل: "سألت أبي (أي الإمام الجليل: أبي حاتم الرازي) عن عقيل بن خالد أحب إليك أم يونس؟ فقال: عقيل أحب إلي من يونس، وعقيل لا بأس به ... سئل أبي عن عقيل

^١ - انظر؛ A. Geiger, *Judaism And Islam*, New York: Ktav Publishing House Inc, 1970, p. 17

^٢ - العيني، عمدة القاري، ٥١/١

^٣ - ابن حجر، فتح الباري، ٢٥/١

^٤ - ذهب الإمام ابن حجر رحمه الله إلى الجمع بين اللفظين رغم أنه هو نفسه قد ضعف اللفظ الوارد في صحيح مسلم لنفس الحديث: فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ أُمِّ عَمٍّ، واحتج لتضعفه (شذوذ) بقوله: قولها "يا ابن عم" هذا النداء على حقيقته. ووقع في مسلم "يا عم" وهو وهم؛ لأنه وإن كان صحيحاً لجواز إرادة التوفير لكن القصة لم تتعدد ومخرجهما متحد، فلا يحمل على أنها قالت ذلك مرتين، فتعين الحمل على الحقيقة. وأضاف: وإنما جوزنا ذلك فيما مضى في العبراني والعربي؛ لأنه من كلام الراوي في وصف ورقة، واختلفت المخارج فأمكن التعداد، وهذا الحكم يطرد في جميع ما أشبهه (المصدر السابق)، وهو قول لا يخلو من نظر؛ إذ إنَّ اتحاد المخرج ثابت للقولين، وحملة التمييز بينهما فيها مقال!

ومعمر، أيهما أثبت؟ فقال: عقيل أثبت؛ كان صاحب كتاب.^(١) وهذا ما يرجح كفة عقيل، خاصة أنه كان يروي من كتابه لا من حفظه؛ فتكون رواية العبرية شاذة؛ لأنّ راويها وإن كان ثقة إلا أنه خالف من هو أوثق منه.

رابعاً: رواية عقيل بن خالد تدلّ على أنّ ورقة كان متمكناً من اللغة العبرية حتى إنه كان ينسخ التوراة العبرية، ويترجم الإنجيل اليوناني إلى العبرية، أمّا رواية معمر فمفككة؛ فهي تقول: "وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل" إذ الصلة منقطعة بين (كتابة الكتاب العربي) و(يكتب بالعربية من الإنجيل)؛ فما دلالة الفاء هنا؟!

خامساً: رواية يونس ومعمر التي يتشبّث بها المنصرون، تقول إنّ ورقة بن نوفل لم يكن يكتب بالعربية غير الإنجيل!

سادساً: رواية يونس ومعمر التي يتشبّث بها المنصرون، لم تثبت كتابة كامل الإنجيل باللغة العبرية، وإنما أثبتت تعريب بعضه: "يكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب"، ووجود بعض النصوص المعربة ليس هو محلّ النزاع هنا، فقد ثبت وقد لا يثبت، وعلى فرض ثبوته لا يعدّ حجة لوجود ترجمة عربية للكتاب المقدس إذ المسافة هائلة بين نصوص متفرقة فيها بعض الصلوات والمواظع مستخرجة من الأسفار المقدسة، وبين (كتاب يضم نصوص أسفار العهدين بلغة العرب)!

سابعاً: يقول الكثير من المنصرّين إن ورقة كان ينتمي إلى طائفة الأبيونيين، والأبيونيين ترفض العهد الجديد كاملاً إلا إنجيل متى، فلها منه نسخة خاصة محذوفة الفصلين الأولين. وعلى هذا القول؛ يكون ورقة قد عرّب أجزاء من إنجيل واحد بنكهة هرطقية!! الحكم على ورقة أنه أبيوني ليس عليه دليل قاطع، لكن بإمكاننا أن نستشف من خلال رد فعله لما التقاه رسول الله أنه لا يحمل تصور جمهور النصارى المتأخرين الأرثوذكس بما يرجح أنه كان ينتمي إلى فرقة تعتبر عند الأرثوذكس مهرطقة، وربما كانت هي الأبيونية! علماً أنّ إثبات أبيونية ورقة يزيد رواية عقيل بن خالد وضوحاً إذ إن الأبيونيين كما يقول قديس الكنيسة إبيفانيوس، كانوا يتبنون إنجيلاً باللغة العبرية^(٢)؛ فيكون ورقة (يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب) كما في رواية عقيل أي: يستنسخ من نصوص الإنجيل العبري، نسخاً أخرى عبرية فعلى هذا المعنى يكون معنى يكتب: ينسخ لا يعرّب.

ثامناً: ما الحاجة التي من الممكن أن تدفع ورقة إلى أن يقوم بهذا الجهد العلمي الهائل والذي يحتاج كفاءات عالية جداً ومنها الإتقان التام للعبرية الكتابية التي كانت قد ماتت في تلك الفترة، واستغنى عنها عامة اليهود بالترجمات الآرامية والمتمثلة في ترجمة الكتاب المقدس إلى العبرية رغم غياب مجتمع نصراني في مكة، وعدم وجود عمل تنصيري فيها

تاسعاً: لماذا اختفت تماماً ترجمة ورقة بن نوفل إن كان لها وجود سابق، فهي ولا ريب قيمة علمية هامة؟!

عاشراً: لماذا لم يقل كفار مكة للرسول صلّى الله عليه وسلّم إنك قد أخذت من ورقة أخبار أهل الكتاب معربة، واكتفوا بنسبة هذا التعليم إلى فتى أعجمي؟!

الحادي عشر: لم يتعرّف الرسول على ورقة إلا في تلك الحادثة مع نزول الوحي ومات ورقة بعدها سريعاً وكان عند التقائه بالرسول أعمى، كبير السن! ولعلّ إعراض المستشرقين عن الاستدلال بهذا الحديث لصالح ترجمة عربية للكتاب المقدس زمن البعثة النبوية ممّا يقال فيه: (الصمت في معرض الحاجة إلى البيان؛ بيان)؛ فهو صمت يحمل اعترافاً فصيحاً بأنّه لا حجة فيه لما زعمه المنصرون!

^١ - ابن أبي حاتم، المرح والتعديل، ت/ عبد الرحمن المعلمي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م، ٤٣/٧. هذا اختيار الإمام أبي حاتم، وهو ما نميل إليه

^٢ - انظر؛ Brooke Foss Westcott, An Introduction to the Study of the Gospels, Cambridge: MacMillan, 1881, 6th edition, p.471 عن د. سامي العامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحت عنوان جاني (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم). ص: ٩٨-١٢٤.

ثامناً: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية

لعل هذا الوجه من أبرز دلائل تحافت المزاعم التنصيرية حول تلفيق القرآن من اليهودية والنصرانية ؛ لأن واقع الأمر وحقيقة الحال أن اتجاه التأثير كان عكسياً ، من اللاحق إلى السابق ، وليس من السابق إلى اللاحق ، وهذا الاتجاه التأثيري العكسي وإن كان على غير المؤلف إلا أن له ما يسوغه ، حيث جاءت اليهودية والنصرانية دعوة مرحلية لجماعات قبلية محدودة من البشر ، فلمّا أرادت تجاوز طبيعتها وأهداف رسالتها احتاجت إلى عناصر تمكنها من ملائمة الدائرة الزمانية والمكانية والثقافية الجديدة التي أرادت لها لنفسها ، ولما كانت تفتقد إلى تلك العناصر التي لم تتوفر إلا للإسلام بحكم طبيعة رسالته العالمية الخاتمة ، فإن اليهودية والنصرانية تلمّست تلك العناصر في الإسلام واقتبسها منه . حتى إننا لا ندرى إلى أيّ مدى يمكن أن تكون ثورات الفكر المسيحي منذ الحركة الألبية حتى حركة الإصلاح البروتستانتي محسوبة كنتائج مباشرة أو غير مباشرة لمفهوم العقيدة في القرآن ^(١) .

يقول قاموس " برتلسمان " لديانات العالم : لقد أثر الإسلام تأثيراً عظيماً في العقيدة المسيحية والفلسفة ، وقاد على سبيل المثال إلى نقاش جديد حول عبادة الصور وتقديسها في المسيحية ^(٢) .

لكن تأثير الإسلام لم يكن قاصراً على العقيدة في المسيحية فحسب ، بل يمتد إلى الشريعة والكتب المقدسة ، كذلك فإن تأثير الإسلام تناول اليهودية إلى جانب المسيحية ، وذلك في عدد من الجوانب يمكن إجمالها فيما يلي :
١ - المبادئ الثلاثة عشر التي جعلها موسى بن ميمون أساس الدين اليهودي وأركان الإيمان فيه ، فصاغها على غرار أصول الإيمان في الإسلام ، وأدرج فيها بعض أصول الإيمان الإسلامية مما لم يكن معروفاً في اليهودية من قبل أو مدرجاً في العهد القديم ، كالاعتقاد بأن الله عالم ، وبالثواب والعقاب في الآخرة ، والاعتقاد في بعث الموتى ^(٣) . وقد أقر ابن كمونة بعدم ذكر الثواب والعقاب الأخروي في التوراة وراح يعتذر عن ذلك ويحاول تسويغه ^(٤) وهذا يؤكد اقتباس ابن ميمون هذه الأصول من الإسلام .

٢ . تحديد مفهوم النبوة والمعجزة لأول مرة في اليهودية ، والذي جاء إما متأثراً بنظرية الفلاسفة المشائين كالغارابي وابن سينا ، وإما متابعاً لجمهور علماء الإسلام في استدلالهم على هذه المعتقدات بالنصوص القرآنية ^(٥) .

٣ . نقد التوراة ، يقول (واكسمان) صاحب كتاب الأدب اليهودي: " في القرن الحادي عشر دخلت الفلسفة اليهودية مرحلة جديدة متأثرة بالمؤلفات الفلسفية الإسلامية والأفكار الإسلامية ، وكان من أثر هذا أن بدأ الشك في التلمود ، وبدأت تظهر أفكار حرة ، ولم يقتصر الهجوم والنقد الذي قام به القراءون والطوائف المتصلة بهم على التلمود ، بل شمل الكتاب المقدس أعظم إنتاج عقلي في الدين اليهودي " ^(٦) .

٤ . إقرار المسيحية بالوظيفة النبوية للمسيح الأرضي عيسى -عليه السلام- والتي لم تجد لها مكاناً في وثائق الكنيسة إلا في قرار مجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥م ^(٧) .

٥ . دعوة البروتستانت إلى حرية قراءة الكتاب المقدس ورفض احتكار الكنيسة تفسيره والتي فتحت الباب أمام

^١ - مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص ١٩٢ ، مرجع سابق .

^٢ - ders ، 183 : S ، Bertelsmann Handbuch ، (٦) Religionen der Welt

^٣ - راجع المبادئ الثلاثة عشر في : Moses ben Maimone ، Sein ben : Seine Werke und sein Einfluss ، 112 : S ، Hrsg . ipzig 1908 . Bacher . W : von

^٤ - ابن كمونة ، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث ، ص ٤٠ . ٤٣ .

^٥ - راجع رسالتنا للدكتور ، النبوة بين اليهودية والمسيحية والإسلام ، مكتبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٩٦ م .

^٦ - نقلاً عن إبراهيم موسى هنداي ، الأثر العربي في الفكر اليهودي . ص ١٤٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م .

^٧ - Katechismus der katholischen kirche (٧) . ipzig - schwens 1993 .

حركة نقد الكتاب المقدس في الغرب، تلك الحركة المنهجية التي تدين بالفضل لعلماء الإسلام كابن حزم والقرطبي وابن تيمية وابن القيم، وغيرهم.

٦. تحريم البروتستانت لعبادة الأيقونات، ومنع وضعها في الكنائس لأنها عمل وثني.

شهد المستشرق Joseph Schacht^(١) الذي يعدّ أحد أهمّ المستشرقين المعتمدين بالدراسات التشريعية والفقهية الإسلامية أنّ التشريع الإسلامي هو الذي أثر في التشريعات اليهودية والنصرانية، قال: "من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضّر قانونه الديني، الذي يسمى بالشريعة. والشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً واضحاً عن جميع أشكال القانون .. إنّها قانون فريد في بابه .. إنّ الشريعة الإسلامية هي جملة الأوامر الإلهية التي تنظّم حياة كلّ مسلم من جميع وجوهها." (٢) " إنّ التشريع الإسلامي قد أثر تأثيراً عميقاً في جميع فروع القانون في إقليم الكرج (جمهورية جورجيا)، وذلك من خلال فترة تمتد من عصر السلاجقة إلى عصر الصفويين، ثمّ هناك تأثير التشريع الإسلامي على قوانين أهل الديانات الأخرى، من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلامية." (٣) " فبالنسبة للجانب اليهودي يبدو أنّ موسى بن ميمون قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدوّنته بعنوان مشناه توراه وهو عمل لم يسبقه إلى مثله أحد من اليهود. ويقول أيضاً في تعليقه على المشناه الذي كتبه بالعربية وذلك في تقديمه لما يسمى بالفصول الثمانية، يقول: وإنه إلى جانب التلمود والمدراش، قد أفاد من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين وكثير غيرهم، إنه ينبغي على المرء أن يقبل الحقيقة من أي إنسان يقولها - لكن هذه المسألة كلها لم تبحث بحثاً كاملاً حتى الآن. ومن جهة أخرى فإنه بالنسبة للجانب المسيحي، فليس هناك شك في أن الفرعين الكبيرين للكنيسة المسيحية الشرقية، وهما: اليعاقبة والمونوفيزية [أصحاب الطبيعة الواحدة] والنساطرة لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي." (٤)

وقال المستشرق اليهودي نفتالي ويدر في كتابه التأثيرات الإسلامية على العبادات اليهودية متحدّثاً عن أهم عمل فقهي يهودي في القرون الوسطى، وهو مشناه توراه في سياق حديثه عن الأثر العام للمسلمين أصحاب اللسان العربي على اليهود: "ومن الناحية الشكلية اتخذ اليهود لأنفسهم مناهج العرب العلمية في فروع الدين، والأخلاقيات، والنحو، وتفسير الكتاب المقدس. بل حتّى في ميدان الشريعة؛ فكتاب مشناه توراه الذي يبهنا ببنائه وترتيبه، ليس هو سوى ترتيب لمواد الشريعة الضخمة وفقاً للنظام الذي وضعه علماء الفقه المسلمون .. وليس هذا فحسب بل إن كبار المشرعين لم يتحرجوا من أن يستخدموا في تأليفهم أفكاراً وخواطر مأخوذة من التأليف في الإسلام وفلسفته. وكثيراً ما توغل هذا التأثير حتى في استعمال كلمات نخبها حيث لم نكن نتوقعها تماماً ويكفي ذكر شاهد واحد وهو هذه العبارة " فليفتنا سيدنا وأجره مضاعف في السماء " فهذه العبارة التي اقترنت طوال مئات السنين بالأسئلة التي كانت تعرض على الجاؤؤنيم من رؤساء الطائفة اليهودية ومن خلفهم مصدرها الأخرى من الخارج ، كل هذا من الأمور المسلم بها ولكن الذي يستحقه من البحث ولا يحتاج لكثير من الدرس هو أن ظاهرة التأثير تغلغت أيضاً إلى قلب المعتقد الديني والعبادة الدينية كما ظهر في شعائر الصلاة في الكنيس وهذه الظاهرة تنطوي على تحديد زائد .. " (٥)

^١ - جونيف شاخت (١٩٠٢م-١٩٦٩م): أستاذ اللغة العربية والإسلام في جامعة كولبيا في نيويورك. كان عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق، ومجامع وجمعيات علمية كثيرة.

^٢ - شاخت، تراث الإسلام، ص ١٢ (نقله، محمد عمارة، الإسلام في عيون غربية، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥ م، ص ١٨٠)

^٣ - شاخت، تراث الإسلام، ص ١٤ (نقله؛ المصدر السابق، ص ١٨٢)

^٤ - شاخت، تراث الإسلام، ص ٢٧-٢٩ (نقله؛ المصدر السابق، ص ١٨٢-١٨٣)

^٥ - نفتالي ويدر، التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية، ص ٩، ١٠، ترجمه للعربية د. محمد سالم الجرح (عن، موشيه مردخاي تسوكر، التأثير الإسلامي في التفسير اليهودية الوسيطة، ت/أحمد محمود هويدي، القاهرة: مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة، ٢٠٠٣ م، المقدمة، ص ١٣)

كما أبان المستشرق موشيه مردخاي تسوكر بشكل علمي في مقدمته لكتاب تفاسير الراي سعديا جاؤون لسفر التكوين التأثير الإسلامي الكبير على فقهاء اليهود في القضايا الأصولية، سواء ما تعلّق منها بأصول الفقه أو أصول الدين.^(١)

النتيجة: قال المستشرق (هاملتون جب): " إن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينياً جديداً متميزاً... ومن هذه الوجهة يغدو التساؤل عن مصادر الدين الذي جاء به محمد أمراً غير وارد بالمرّة." ^(٢).

^١ - انظر؛ موشيه مردخاي تسوكر، التأثير الإسلامي في التفاسير اليهودية الوسيطة
^٢ - هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ت/ إحسان عباس وآخرين. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤، ص ٢٥٤-٢٥٥

تاسعاً: القرآن الكريم والكتاب المقدس، وجهها لوجه^(١)!

إنَّ أيسر سبيل لتبيّن أصالة النصّ القرآني واستقلاله عن دعوى الاقتباس من الكتاب المقدس النصراني هو النظر المباشر في كلا الكتابين، والمقارنة الصارمة بينهما لينجلي عن الحقّ غبارُ الشبهة.

أولاً: تصحيح القرآن الكريم للأخطاء التاريخية للكتاب المقدس:

من أهم ما يكشف الأوجه التي توضّح أنّ القرآن الكريم لم يقتبس من أسفار اليهود والنصارى، تصحيح القرآن الكريم لأخطاء أسفار أهل الكتاب، وفصله بين أصيل الوحي ودخيل التحريف من هذه التصحيحات:

١ - هامان صاحب فرعون:

درج المنصرون على اتهام القرآن بالخلط التاريخي بين الشخصيات، وقد بنوا أوهامهم على أصل فاسد؛ وهو أنّ كتبهم التي يقدسونها هي المرجع والفيصل في معرفة الحقّ من الباطل.. ومعلوم لكلّ دارس مدى تهاافت هذه الدعوى وارتكازها على قاعدة هشّة؛ إذ الكتاب المقدّس بجميع أسفاره أرقّ من أن يكون دعامة لمثل هذه الدعوى، ومن أهمّ الادعاءات في هذا الباب، قول المنصّرين إنّ الكتاب المقدّس قد ذكر أنّ شخصية عاشت في فارس وشغلت منصب الوزارة كان اسمها هامان، وقد عاشت كما يفهم من سفر إستير في زمن بعيد عن زمن موسى عليه السلام.. ومن الخطأ أن يقول المرء بقول القرآن إنّها قد عاشت في زمن موسى عليه السلام، وإنّما كانت العضد الأيمن لفرعون!

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: قصّة إستير بأكملها ليست سوى خرافة اخترعها يهود السبي البابلي، ولا يوجد دليل تاريخي واحد على صدقها؛ حتى قالت الموسوعة اليهودية لسنة ١٩١٠م إنّ قلة قليلة فقط من النقاد المعاصرين ترى أنّ هذه القصة تعتمد^(٢) على أسس تاريخيّة، فالأغلبية الواسعة من المفسّرين المعاصرين ترى أنّ هذا السفر بأكمله ليس سوى قطعة من الخيال المخض أو بعبارة تعليق *The New Oxford Annotated Bible* فإنّ سفر إستير ليس تاريخيّاً وإنّما خرافة (...). أريد منها تفسير أصل عيد الفوريم^(٣) ومعناه^(٤). وبالصيغة المهذّبة للآباء اليسوعيين: من الممكن أن يكون اليهود قد تعرّضوا لتعنيفات من هذا النوع في أثناء الحكم الفارسي. وقد حاك المؤلف حول ذكرها قصة خياليّة^(٥). من أهمّ ما يعترض به على قصة سفر إستير:

أولاً: هذه القصة لم تذكر في غير التوراة وهذا المؤرخ الإغريقي هيروديت الذي عاصر الملك الفارسي المقصود اكرزكزيس ودوّن سيرته، لم يشر إلى إستير ولا ما كان من أمرها^(٦).

ثانياً: النبيّان عزرا ونحميا اللذان كانا من أوائل العائدين من بابل، واللذان قصّتا قصة السبي البابلي، لم يشريرا إلى إستير ولا إلى أي شيء مما جاء في السفر المسمى باسمها.

ثالثاً: لم يعثر على هذا السفر ضمن مخطوطات البحر الميت.

رابعاً: كان للعديد من آباء الكنيسة تحفّظات على هذا السفر^(٧).

^١ - هذا البحث مأخوذ عن كتاب د. سامي عامري، هل القرآن مقتبس عن الكتاب المقدس؟، ص: ٤٨٧-٥٨٧.

^٢ - هذا إثبات (لأصل) القصة لا (تفاصيلها)!

^٣ - عيد الفوريم: هو العيد الذي يحتفل فيه اليهود بملاك الوزير الفارسي "هامان" الذي دبر مؤامرة لإبادة اليهود في الامبراطورية.

^٤ - Herbert G. May and Bruce M.

Metzger, eds. The New Oxford Annotated Bible With Apocrypha, New York: Oxford University, 1973, p.603

^٥ - د. محمد علي البار، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دمشق: دار القلم، ١٩٩٠م، ص ٣٠٢

^٦ - عبد الجليل شليبي، مفتريات المشيخين على الإسلام، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، ط٢، ص ١٥٩

^٧ - انظر؛ p.22, Israel P. Loken, Esther, Loken Expository Commentary, Xulon Press, 2007.

خامسا: عدم وجود اسم الجلالة البتة في هذا السفر المريب، حتى قال مارتن لوثر زعيم الإصلاح البروتستانتي: ليت هذا السفر لم يوجد، ففيه لم يرد اسم الله^(١) (٢).

سادسا: أسماء شخصيات هذا السفر تشهد لخرافية^(٣) القصة؛ فاسم إستير بطلّة القصة شبيه باسم أشتار إلهة البابليين، واسم هُدسة قريب من الكلمة البابلية حدثتو أي عروس، وكان أصلاً يطلق على شجرة الآس، ومردخاي اسم الإله البابلي الرئيسي مردوخ، وهامان عدو مردخاي هو نفس هَمان أو هُمان هميان أحد الآلهة الرئيسية في عيلام. وشوش عاصمة عيلام هي المكان الذي جرت فيه أحداث هذه القصة. واسم وشتي كان اسماً لأحد الآلهة في عيلام.^(٤) سابعا: يزعم سفر إستير أنّ الملك الفارسي لما غضب من زوجته عندما رفضت أن تظهر جمالها لندمائهم قرّر أن يعاقبها بأن يبحث عن فتاة جميلة في بلاده ليجعلها ملكة، ومن هذه البداية الساذجة بدأت القصة.. وهذا أشبه بقصص ألف ليلة وليلة الخرافية.

ثامنا: من غير المقبول تاريخياً أن يتخذ الملك الفارسي إستير زوجةً ومردخاي وزيراً رغم أنّهما على دين اليهودية فهذا يتعارض مع اعتزاز الفرس بقوميتهم في ظلّ القوة الهائلة والتفوق الكبير للإمبراطورية الفارسية. تاسعا: أشارت الموسوعة اليهودية إلى أنّ من أهمّ المطاعن في هذا السفر القرار المزعوم بإهدار دم أعداء اليهود والذي نفّد بعد ذلك، وهو زعم لا دعامة تاريخية له، بالإضافة إلى أنّه يخالف ما يتصوّر من التحدي المسلح الذي لا بد أن يبدر من الأرستقراطيين كما أنه لا دليل تاريخي على قرار إبادة اليهود الذي نسب لهامان ضدّ اليهود.^(٥) عاشرا: أشارت الموسوعة اليهودية إلى مخالفة الكثير من الأعراف المذكورة في سفر إستير لأعراف الفرس القديمة في ذاك الزمان؛ كالسماح للأجانب أن يتصلوا بنساء الملك في الحرم، وعدم إمكان أن ترسل الملكة رسالة إلى زوجها وتقسيم الإمبراطورية إلى ١٢٧ مقاطعة، وعدم معاقبة هامان الوزير لمردخاي اليهودي الذي رفض السجود له.^(٦) الحادي عشر: جاء في وصف اليهود زمن الملك الفارسي الحاكم إبان القصة المزعومة: يوجد شعبٌ مُنتَشِرٌ قَريبٌ بَيْنَ الشُّعُوبِ فِي جَمِيعِ أَقَالِيمِ مَمْلَكَتِكَ، سَنُنْهُمْ تُخَالِفُ سُنَنَ جَمِيعِ الشُّعُوبِ، وَلَا يَحْفَظُونَ سُنَنَ الْمَلِكِ.^(٧) وهذا الوصف ينطبق على اليهود بين اليونان لا بين الفرس.^(٨)

الثاني عشر: ذكر المؤرخ هيروديت أنّ الملك الفارسي لا يجوز له أن يتزوَّج إلّا من سبع عائلات نبيلة حصراً^(٩)، فكيف يستقيم مع ذلك أن يتزوَّج من يهوديّة تنتمي للشعب المستدلّ؟!

الثالث عشر: الزوجة الوحيدة المعروفة عند المؤرخ هيروديت على أنّها اقترنت بهذا الملك الفارسي هي Amestris. ولا صلة بين اسمها واسم إستير، كما أنّها كانت ابنة قائد فارسي ولم تكن عبرانيّة.^(١٠)

^١ - د. محمد يومي مهران، إسرائيل، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ٣/٢٤٤ ش

^٢ - يبدو أنّ غياب ذكر الربّ في هذا السفر قد أثار حفيظة للتدوين اليهود، ولذلك أضافوه في الترجمة السبعينية (!) فقد ذكر مثلاً أنّ ((إستير)) ((تخشى الله)) ((φοβέσθαι τὸν Θεόν)) (إستير ٢/٢٠)، وانظر أيضاً في ذكر اسم الرب: ٨/٤: ((τὸν Κύριον))، ١٣/٦٦: ((ὅτι Θεὸς ζῶν))!!

^٣ - ألحقت مقدمة سفر إستير في الترجمة الانجليزية الكاثوليكية The New American Bible إلى هذا الأمر، وقد صرحت أنّه لا يمكن اعتبار هذا السفر وثيقة تاريخية وإنما هو صياغة حرّة: ((The book is a free composition - not a historical document)) (Saint Joseph Edition of The New American Bible, p.500)

^٤ - انظر؛ قاموس الكتاب المقدس، مقال ((إستير)) (نسخة إلكترونية)

^٥ - The Jewish Encyclopedia, 5/236

^٦ - المصدر السابق

^٧ - إستير ٨/٣

^٨ - انظر؛ The Jewish Encyclopedia, 5/236

^٩ - انظر؛ Jon D. Levenson, Esther, A Commentary, London: Westminster John Knox, 2004, p.24

^{١٠} - انظر؛ Geoffrey W. Bromiley, International Standard Bible Encyclopedia, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1982, 2/159

الرابع عشر: بطل القصة مردخاي كان من سبي عام ٥٨٧ ق م^(١) ومن ثمّ فإنّه في العام الثالث من حكم الملك الفارسي اكركزيس الأول (أي حوالي عام ٤٨٢ ق.م) يكون قد بلغ المئة والعشرين عامًا، كما أنّ استير يجب أن تكون في هذه الفترة عجوزًا!!

الخامس عشر: اضطراب ترجمات سفر إستير في نسب هامان ففي حين يذكر النص السبعيني اليوناني أنّ هامان رجل مقدوني^(٢)، يذهب النص العبري إلى أنّ هامان رجل أجاجي^(٣).. وهذا التناقض يؤكد أنّ هذه الشخصية لا وجود لها في الحقيقة!

إنّ الإشكالات التاريخية المتراكمة في سفر إستير قد جعلت الناقد جون د. ليفنسون Jon D. Levenson^(٤) في تعليقه على هذا السفر يقول: الإشكالات التاريخية في سفر إستير على قدر عظيم من الضخامة بما يقنع كل من لم يُلزمه اعتقاد ديني بالإيمان بتاريخية رواية الكتاب المقدس، أن يشك في صحة هذه الرواية.^(٥) ويرفع البروفسور Israel P. Loken^(٦) سقف محنة هذا السفر اليوم وهو أكاديمي من المحافظين بإقراره أنّ: كلّ النقاد المعاصرين تقريبًا ينكرون تاريخية هذا الكتاب.^(٧)

الوجه الثاني: يعتبر موريس بوكاي^(٨) أول من كشف وجه الإعجاز القرآني في ربط شخصية هامان تاريخيًا بشخصية فرعون الذي عاش في زمانه موسى عليه السلام، وذلك في قوله في كتابه موسى وفرعون (١٩٩٥م): الاسم كما هو مكتوب باللغة العربية في القرآن، نقحرة^(٩) دقيقة لاسم شخص نحن نعرف اليوم هجاء الهيروغليفية. لم يقدّم أي شارح للقرآن، في حدود معرفتي، ببيانه بطريقة دقيقة... أريد أن أعلم هل يتماشى هذا الاسم مع اسم هيروغليفية مُحْتَفَظ به في وثائق تلك الفترة... لا بدّ أن يكون من تُعرض عليه نقحرة الاسم متخصصًا في اللغة الهيروغليفية، ويتقن بالإضافة إلى ذلك العربية الفصحى لا اللهجة المصرية الحالية...

واحد من علماء الآثار المصرية الأكثر تميزًا يتوفّر فيه هذان الشرطان، أراد إجابتي. امتنعت عن التصريح لمحدثي عن أيّ نصّ عربيّ نتحدّث، واكتفيت بتعريفه بأنّ هذا النصّ يعود إلى القرن السابع ميلاديًا. عندما كتبت أمامه الاسم العربي؛ عرف مباشرة كيف يترجمه إلى اللغة المصرية القديمة، مؤكّدًا لي أنني قد خُدعت فيما يتعلّق بتحديد تاريخ النصّ العربي للحجّة الآتية التي لا أجهلها: لا يمكن لأيّ نصّ على مدى زمن نسيان اللغة الهيروغليفية أن يحتوي اسمًا لا يزال مجهولًا إلى اليوم، اسمٌ له نفس الجرس الهيروغليفية، جرس يوافق تمامًا هذه الكلمة العربية.

نصحتني مع ذلك أن أراجع معجم أسماء شخصيات الإمبراطورية الجديدة للألماني رانك، وهو مؤلّف كلاسيكي، وأن أبحث إن كان الاسم الذي رسمه بالهيروغليفية موجودًا في هذا المعجم بنقحرة الألمانية، مما سييسّر لي المراجعة.... اكتشفت أنّ الاسم مكتوب في المعجم كما توقّعه هذا العالم. وباللمفاجأة، ها أنا ذا أقرأ زيادة على ذلك

^١ - إستير ٦ / ٢

^٢ - انظر؛ إستير ١٠ / ١٦

^٣ - انظر؛ إستير ١ / ٣

^٤ - جون د. ليفنسون: أستاذ الدراسات اليهودية. درس في هارفارد وجامعة شيكاغو. حصل على عدد من الجوائز العلمية الكبرى.

^٥ - Jon D. Levenson, Esther, A Commentary, p.23

^٦ - إسرائيل ب. لوكن: أستاذ الكتاب المقدس واللاهوت في كلية (College of Biblical Studies)

^٧ - Israel P. Loken, Esther, Loken Expository Commentary, Xulon Press, 2007, p.20

^٨ - موريس بوكاي (١٩٢٠-١٩٩٨م): باحث فرنسي، له عناية بدراسة الكتب الدينية في ضوء المعارف العلمية والتاريخية الحديثة. من أشهر مؤلفاته كتابه ((La Bible, le Coran et la Science : Les Écritures Saintes examinées à la lumière des connaissances modernes الذي خصصه لكشف مطابقة القرآن الكريم لمكتشفات العلم الحديث وفشل أسفار اليهود والنصارى في هذا الاختبار. له عناية كبيرة بكشف جوانب الإعجاز العلمي والتاريخي في القرآن الكريم. لم يعتنق بوكاي الإسلام على خلاف ما أشيع عنه وأقرّ مع ذلك بإعجاز القرآن الكريم، وهو أمر يدعم موضوعية دراساته العلمية المحايدة. transliteration

مهنته بالألمانية: (رئيس عمال المقالع)، إذ كذلك كان يستمى من كان يشرف على البناء.. عندما عدت إلى هذا العالم مع نسخة مصورة للصفحة التي تعيننا من المعجم، وفتحت أمامه صفحة من صفحات المصحف حيث بإمكانه أن يقرأ كلمة هامان؛ ذهل.^(١)

أضيف هنا أن رانك قد أحال إلى كتاب نشر سنة ١٩٠٦م لعالم المصريات Walter Wreszinski أشار إلى أن اسم هامان موجود على مسألة في متحف مدينة فيينا (النمسا)، لما استطعت لاحقاً قراءة الوظيفة باللغة الهيروغليفية مشكّلة؛ لاحظت أن الإضافة الملحقه بالاسم تؤكد أهمية هذه الشخصية (بالنسبة لفرعون). لو أن الكتاب المقدس أو أي مؤلف أدبي معروف قبل الوحي القرآني، أشار إلى هامان ووظيفته؛ لما كان وجود هذا التفصيل المذكور في القرآن ليشير انتباه أحد. إن الذي يظهر هو أن المعطيات الهيروغليفية المعاصرة فقط هي التي تثير الانتباه إلى هذا التفصيل المذكور في القرآن. بما أن ذلك لا يمكن أن يكون معتمداً على معارف سابقة لعصر ظهور القرآن، فإن وجوده في القرآن يثير التفكير^{(٢) (٣)}

٢ - استعمال الجمال في زمن يعقوب عليه السلام

جاء في العهد القديم ذكر الجمال كوسيلة تستعمل للتنقل وحمل المتاع، من ذلك: (ثم جلسوا-أي إخوة يوسف- ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حامله كثيرون ولبسائناً ولاذناً ذاهبين لينزلوا بها الى مصر.) تكوين ٢٥/٣٧ تكرر ذكر الجمال كأحد وسائل التنقل؛ مما يعني أنه قد تمّ تدجينها من طرف البشر في حياة يعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام .. يعتبر هذا الادعاء خطأ تاريخياً كاشفاً لتأليف التوراة في صورتها الحالية بعد قرون من حصول الوقائع المؤرخة ...

وقد جاء في الدراسة الكاثوليكية في هامش ترجمة (*The New American Bible*) تعليقا على نصّ تكوين ١٢/١٦ الذي ذكر الجمال كأحد وسائل النقل في زمن إبراهيم عليه السلام: (الجمال الأهلية، ربما لم تعرف في الاستعمال العام في الشرق الأدنى القديم حتى آخر الألفية الأولى قبل الميلاد؛ ولذلك فإن الإشارة إلى الجمال في زمن الآباء (تكوين ٢٤/١١-٦٤؛ ٣٠/٤٣؛ ٣١/١٧؛ ٣٤؛ ٣٢/٨، ١٦؛ ٣٧/٢٥) تعتبر خطأ تاريخياً)^(٤) وهو ما اعترف به إمام المحافظين في الدراسات الأركيولوجية الكتابية المعاصرة ويليم فوكسول البرايت بقوله إن الجمال لم تستعمل في زمن يوسف ولا قبله، منافحاً عن هذا الرأي بشدة في أكثر من مؤلف^(٥)، رغم ما عرف عنه من تطرّف

^١ - (il fut sans voix)

^٢ - Maurice Bucaille, Moise et Pharaon, ed. Seghers, 1995, pp.230-231

^٣ - ذكر عالم المصريات الشهير Kenneth Kitchen في كتابه الهام Pharaoh Triumphant the life and times of Ramesses II, Warminster: Aris & Phillips, 1982 الذي أفاض فيه في الحديث عن رمسيس الثاني: حياته وإنجازاته- أمر شخص مقرب من الفرعون رمسيس الثاني اسمه Amen em inet وأنه كان رفيق رمسيس الثاني لما كان أميراً، وقد كانا على نفس السن (ص ٢٨)، وهو رفيق صباه وقريبه (١٣٥)، وقّله وظيفة رئيس المركبات الملكية، وهي وظيفة عسكرية (انظر؛ ما جاء في القرآن الكريم: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِلِينَ} (القصص: ٨) (ص ٤٤) وجعله رسوله إلى البلاد الأخرى (ص ٦٥) وقد نصّب والد Amen em inet واسمه Wennofer رئيساً للكهنة، ونُقل Amen em inet من العمل العسكري والدبلوماسي إلى وظيفة المشرف على الأعمال الملكية الأثرية (انظر؛ ما جاء في القرآن الكريم: {فَأَوْقَدْ بَا هَامَانُ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْخًا لَعَلِّي أُطْلَعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (القصص: ٣٨) (ص ١٢٦) .. علماً أن مقطع Amen كان منتشرًا بصورة كبيرة في الحقبة الرميسية (تشمل عصر الأسرتين ١٩ و ٢٠، وسميت بهذا الاسم لكثرة من حكم فيها باسم رمسيس كجزء من أسماء المصريين؛ فقد تكرر مقطع Amen ٦٩ مرة في قائمة أسماء العمال الذين ورد ذكرهم في كتاب A Community of Workmen at thebes in the Ramesside period لعالم المصريات الشهير Jaroslav Černý، IFAO, Cairo: 2001, pp.419-420

^٤ - Saint Joseph Edition of the New American Bible, p.15

^٥ انظر؛ W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore: Johns Hopkins, 1942, 1953, pp. 96-102, 132, From the Stone Age to Christianity, Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1940, pp. 120-196

لصالح إثبات تاريخية الأحداث المذكورة في العهد القديم! ويحدد بعض الباحثين بدأ تدجين الجمال في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، وربما بعد ذلك، وقد ظلت الجمال على التحقيق غريبة على المصريين، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر من الساميين؛ فقد سافرت قبيلة أبشاي في الأسرة الثانية عشرة على الحمير، لا الجمال.^(١)

لم يذكر القرآن الكريم الجمال كوسيلة نقل في زمن إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام وقد استعمل القرآن عبارة العير في حديثه عن رحلة إخوة يوسف إلى مصر.

{فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَحِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} (يوسف: ٧٠) {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} (يوسف: ٩٢)، {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون} (يوسف: ٦٤).

وقد جاء تعريف العير -بفتح العين- في لسان العرب: الحمار أيًا كان أهليًا أو وحشيًا^(٢)، وفي تعريف العير -بكسر العين-: وقال أبو الهيثم في قوله: ولما فصلت العير كانت حمراء، قال: وقول من قال العير الإبل خاصة باطل. العير: كل ما امتير عليه من الإبل والحمير والبغال، فهو عير^(٣)، وفي معجم مختار الصحاح في تعريف العير: (الحمار الوحشي والأهلي أيضًا)^(٤).. وقال الألوسي: وقيل: العير قافلة الحمير ثم توسع فيها حتى قيلت لكل قافلة كأنها جمع عير بفتح العين وسكون الياء وهو الحمار، وأصلها عير بضم العين والياء استثقلت الضمة على الياء فحذفت ثم كسرت العين لثقل الياء بعد الضمة كما فعل في بيض جمع أبيض وغيد جمع أغيد.^(٥)

وكلمة (لا ٦٦) عير باللغة العبرية تعني حمار^(٦) وقد استخدمت كلمة في سفر إشعياء للدلالة على الحمير التي تحمل المتاع؛ حيث يقول النص ٦/٣٠: (يحملون على كتف حمير ثرواتهم). واستدل المعجمي (جزيوس) بهذا النص لبيان أن من معاني كلمة عير العبرية: الحمير التي تستعمل لحمل المتاع.^(٧)

استعمل القرآن الكريم في سورة يوسف أيضًا عبارة بعير ومن معانيها: حمار كما في لسان العرب: قال ابن بري وفي البعير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة ابن حمدان وكان السائل ابن خالويه والمسؤول المتنبّي قال ابن خالويه: والبعير أيضًا الحمار وهو حرف نادر ألقته على المتنبّي بين يدي سيف الدولة، وكانت فيه خنزوانة وعنجهية، فاضطرب فقلت: المراد بالبعير في قوله تعالى: {وَلَمَن جَاءَ بِهِ جُمْلٌ بِعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ} (يوسف: ٧٢) الحمار، فكسرت من عزته، وهو أن البعير في القرآن الحمار، وذلك أن يعقوب وإخوة يوسف، عليهم الصلاة والسلام، كانوا بأرض كنعان وليس هناك إبل وإنما كانوا يمتارون على الحمير. قال الله تعالى: {وَلَمَن جَاءَ بِهِ جُمْلٌ بِعِيرٍ ...} أي حمل حمار.^(٨)

وقد ذكر الطبري في تفسيره عن مجاهد تلميذ ابن عباس رضي الله عنه وناقل تفسيره للقرآن الكريم أن البعير في قصة يوسف هي الحمير: وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ مُجَاهِدٌ، {كَيْلٌ بِعِيرٍ}: جُمْلٌ حِمَارٍ. قَالَ: وَهِيَ لُغَةٌ. قَالَ الْقَاسِمُ: يَعْنِي مُجَاهِدٌ أَنَّ الْحِمَارَ يُقَالُ لَهُ فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ: بَعِيرٌ^(٩) وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره.^(١٠)

^١ - انظر د. محمد يومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٢٠٦/٢.

^٢ - ابن منظور، لسان العرب، ٦٢٠/٤.

^٣ - المصدر السابق، ٦٢٤/٤.

^٤ - الرازي، مختار الصحاح، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ص ١٩٤.

^٥ - الألوسي، روح المعاني، ٣٣/١٣. نقل ((الألوسي)) قبله قولاً آخر: ((والعير: الإبل التي عليها الأحمال؛ تثبت بذلك لأنها تعير أي تذهب وتجيء)). وليس يخفى بطلان هذا القول؛ إذ إن أصل التسمية ثابت في اللغات السامية الأخرى للحمير، ورث المعنى إلى الذهاب والجيء بعيد جداً!

^٦ - The Brown, Driver, Briggs Hebrew and English Lexicon : with an appendix containing the Biblical Aramaic : coded with the numbering system from Strong's Exhaustive concordance of the Bible, p. 746

^٧ - William Gesenius, A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, , p.774

^٨ - ابن منظور، لسان العرب، ٧١ / ٤

^٩ - الطبري، تفسير الطبري، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ، ١٢/١٣

والبعير العربية، تقابل في اللغة العبرية كلمة بعير (בעיר) التي تعني الدابة عامة^(٢) وتعني كلمة بعيرا (בעيرا) في السريانية الدابة إطلاقاً^(٣)، والدابة التي يحمل عليها المتاع خاصة^(٤)

والمثير أيضاً في هذا السياق أنّ التوراة قد استعملت في قصّة يوسف العبارة العبرية بعير^(٥) التي استعملها القرآن، في الحديث عن دواب إخوة يوسف، وقد صرّحت في مواضع أخرى أنّ إخوة يوسف قد استعملوا الحمير في سفرهم إلى مصر.^(٦)

وقد بحث موريس بوكاي في كتابه موسى وفرعون قضية البعير في سورة يوسف، وأشار إلى أن المستشرق جاك بيرك قد وضع في هامش ترجمته الفرنسية لمعاني القرآن الكريم إشارة إلى أنّ كلمة بعير تعني الدابة التي تحمل المتاع، لا الجمل، وأضاف بوكاي قائلاً: أنا عظيم السرور بسبب هذه الدقة للسبب الآتي: لاحظت أثناء قراءتي للترجمات المختلفة لسورة يوسف بالفرنسية والإنجليزية بالنسبة للآيتين ٦٥، ٧٢ من سورة يوسف، أنّه لم يترجم أي أحد الكلمة العربية بعير إلى غير كلمة جمل. يبدو لي أن هذا الأمر يعتبر خطأ تاريخياً ظاهراً، لأنني أعلم أنه في مصر القديمة وذلك على كامل المدى التاريخي السابق للعصر المسيحي لم تُستعمل الجمال المدجّنة البتّة لحمل المتاع: قدمت تفاصيل وافية لهذا الموضوع في الجزء الكتابي الخاص بقصة يوسف. بدا لي أنا أيضاً بصورة واضحة أنّ إشارة الكتاب المقدس إلى الجمال التي تحمل المتاع في هذا العصر، خطأ تاريخي حقيقي الترجمة السبعينية من القرن الثالث قبل الميلاد تضم هي أيضاً في اليونانية كلمة جمل^(٧).

أثناء إقامتي في هقار^(٨) في نزهة عند مخيم للطوارق مع المأسوف عليه هنري لاهوت سألت هذا العالم المتخصص في هذه المناطق عن الزمن الذي بدأ فيه تدجين الإبل -ذات السنم الواحد والسنامين-، فأجابني بكل ثقة أنه كان لا بد أن ننتظر العصر الروماني لنشهد استعمال هذا الحيوان كدابة نقل. بعد أن حصلت هذه المعلومة حول الجمل من هذا المصدر القيم، تساءلت عن المعنى الحقيقي للكلمة القرآنية بعير والتي ترجمت إلى جمل من طرف كل المترجمين -في حدود علمي- بمن في ذلك الشيخ حمزة بوبكر^(٩).

استعمل القرآن أثناء حديثه عن الجمل كلمة أخرى، كلمة جمل (في المفرد في سورة الأعراف الآية ٤٠، وفي الجمع في سورة المرسلات الآية ٣٣)، واستعمل كلمة إبل للدلالة على مجموع الجمال (سورة الأنعام الآية ١٤٤، سورة الغاشية الآية ١٧).

ما هو إذن معنى كلمة بعير في القرآن!

وجهت هذا السؤال إلى البرفسور جاك بيرك، بعد أن أعلمته بما أعرفه عن الجمال عبر التاريخ مما أخبرني به هنري لاهوت، ومن خلال ملاحظتي لغياب استعمال هذا الحيوان المدجن في مصر القديمة. لما راجع جاك بيرك لسان العرب،

^١ - ابن منظور، لسان العرب، ٧١/٤

^٢ - Gesenius Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, p149

^٣ - بنيامين حداد، الميزان، معجم الأصول اللغوية المقارنة سرياني-عربي، ص ٦٤

^٤ - Carolo Brockelmann, Lexicon Syriacum, Edinburgh: T. & T. Clark, 1895, p.43

^٥ - نصّ تكوين ١٧/٤٥ قول فرعون ((ليوسف)): ((اطلب من إخوتك أن يحملوا دوابهم بالقمح ويرجعوا إلى أرض كنعان))؛ فالدواب في الأصل العبري ((بعير)) كما هو مسطور في الأصل العبري: ((أمر آل-أخيد زاح عשו: سعنو، את-בעيرכם، ולכו-באו، ארצה-כנען)).

^٦ - تكوين ٢٦/٤٣، ١٨/٤٣...

^٧ - (καμήλος) (كاميلوس)

^٨ - منطقة في الجزائر

^٩ - حمزة بوبكر (١٩١٢م-١٩٩٥م): كان إماماً لمسجد باريس. له ترجمة فرنسية لمعاني القرآن الريم.

وجد أن الكلمة تعني كل ما يحمل لذلك فإنه لا بد من استبعاد كلمة جمل من كل الترجمات، وهو ما سيظهر في ترجمته بعد عدة سنوات.

أنصح القارئ أن يراجع الجزء الأول من هذا الكتاب الخاص بالرواية الكتابية لدخول مصر، حيث أشرت إلى استعمال كلمة جمل لا فقط في زمن يوسف، وإنما أيضاً في زمن إسحاق، في النص الذي بين أيدينا اليوم في العهد القديم، العبري واليوناني. دخل الخطأ التاريخي إلى النص من خلال محرري الكتاب المقدس أو نساخه، من الواضح أنه في زمن تبليغ القرآن إلى الناس، كان الجمل يعدّ أفضل دابة لحمل المتاع في السفر بين البلدان القاحلة، ليس الجمل هو الذي يظهر في القرآن على أنه الدابة التي تنقل المتاع في الشرق الأوسط قبل ألفي سنة في قصة يوسف. إنَّ القرآن ينقل لنا المعطيات التاريخية الدقيقة المتعلقة بنقل المتاع.^(١)

الخلاصة: صحيح أنَّ القرآن الكريم قد وافق التوراة في قولها إنَّ إخوة يوسف قد استعملوا الحمير في سفرهم، لكنَّ القرآن الكريم مع ذلك لم يتابع التوراة في زعمها أنَّ الجمال قد دجّنت زمن الآباء إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام، رغم أنَّ البيئة العربيّة كانت قد استقرت على الاعتقاد أنَّ الجمل هو سفينة الصحراء فلا ينفع في الارتحال في الصحاري غيره.

٣ - ادعاء فرعون الألوهيّة

تخلو التوراة من أية إشارة إلى دعوى فرعون الألوهيّة في حين أثبت القرآن الكريم تاريخيّة هذه الدعوى الشنيعة: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} (القصص: ٣٨) {قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} (الشعراء: ٢٩)، لا يقتصر الأمر في التوراة على تجاهل دعوى تأليه فرعون نفسه، بل إنَّ التوراة تجعل موسى إلهًا—على الحجاز—لفرعون: فقال الرب لموسى انظر: أنا جعلتك إلهًا لفرعون!^(٢)، وإلهًا—على الحجاز—لهارون: وهو (أي هارون) يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك فمًا وأنت تكون له إلهًا (إلوهيم)!^(٣)

في مقابل صمت التوراة عن تأليه الفرعون، ينطق التاريخ بأنَّ مؤسس الأسرة المصريّة الأولى، استطاع أن يكون لمصر حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م حكومة مركزيّة قويّة ثابتة الأركان، كان على رأسها الملك المؤلّه الذي استطاع أن يجمع بين يديه كلّ السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور؛ فهو الإله الأعظم وهو الإله الصقر حور الذي تجسّد في هيئة بشريّة؛ ولذلك فهو في نظر رعاياه، إله حي على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، ومن ثمّ فله حق الاتصال بهم، وله على شعبه ما لغيره من الآلهة من التقديس والمهابة.^(٤)

ويقول القرآن ناقلاً عن فرعون دعواه: {فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} (النازعات: ٢١-٢٤) وهو تصوير دقيق لحال الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أنَّ الواحد فيهم هو الإله الأعظم الذي تعود إليه كلّ أمور المملكة وكلّ أمور الناس، وهو الذي يعلم كلّ كبير وصغير من أمر الناس..^(٥)

ومما يلاحظ أيضاً أنَّ القرآن بالإضافة إلى نقله ادعاء فرعون للألوهيّة، يقول على لسان الملأ من قومه: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكْ وَلَهُتَكَ} (الأعراف: ١٢٧) ففرعون مدع للألوهية،

^١ - Maurice Bucaille, Moise et Pharaon, pp. 209-210

^٢ - خروج ١٧/١، والأمر (الظيف!) أن ترجمة ((الحياة)) العربيّة تعرب النصّ هكذا: ((أنا جعلتك إله لفرعون)) في مخالفة لما تذكره المخطوطات العبرية ((נַתַּחַיךְ אֱלֹהִים לְפָרְעֹה)) واليونانية ((ἐθέλωκά σε θεὸν Φαραώ))، والسريانية ((ܐܢܝ ܗܝܬܝܬܟܝܠܐ ܠܦܪܥܝܐ)) بإضافتها حرف الكاف الذي لا وجود له في النص العبري ولا في ترجماته القديمة!!

^٣ - خروج ١٦/٤

^٤ - انظر؛ محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم، ٢١٤ / ٢

^٥ - انظر، محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم، ٢١٤ / ٢

كما أنّ له هو أيضًا آلهة، ورغم أنّ الأمر يبدو في ظاهره متناقضًا إلا أنّ التاريخ المصري يخبرنا أنّ رمسيس الثاني -فرعون التسخير في قصّة موسى عليه السلام، على الراجح- كان يدّعي الألوهية إلى درجة أن رفع نفسه إلى طبقة كبار الآلهة، إلاّ أنّه أيضًا كان يعبد أربعة آلهة أخرى؛ وهي آمون وورع وبتاح وسوتخ^(١) وهذا الغز لم يكشف إلا مع التعرّف على اللغة الهيروغليفية في القرون الأخيرة.

وهنا معجزات دقيقة لا نرى لها أثرًا في التوراة، رغم أهميتها القصوى في نقل ملابسات ما كان بين موسى عليه السلام وفرعون مصر.

ونضيف فائدة أخرى، مادمنّا نتحدث عن رمسيس الثاني وهي أنّ الحديث النبوي الشريف قد سمّى زوجة فرعون التي التقطت موسى من اليم، آسية^(٢) واليوم يخبرنا التاريخ المصري القديم -بعد أن فتح بابه لنا- أنّ اسم الزوجة الثانية لرمسيس الثاني بل الزوجة الرئيسية على قول الأثرية ماري^(٣)، هو آسية^(٤). ومن الواضح سهولة المطابقة بين الاسمين ورد في الحديث النبوي وفي الآثار المصرية، علمًا أنّ التوراة لا تذكر هذا الاسم، بل وترى أنّ ابنة فرعون هي من التقطت موسى من اليم لا زوجته كما يقول القرآن الكريم^(٥).

٤ - الملك لا فرعون

يقول الدكتور محمد بيومي مهران أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بجامعة الاسكندرية: "إن قصة التوراة تتحدث دائمًا عن ملك مصر على أنه فرعون مصر، بينما يتحدث القرآن على أنه الملك وليس الفرعون^(٦)، ومن المعروف تاريخيًا اليوم أن كلمة فرعون في صيغتها المصرية (بر-عا) أو (بر-عو)، كانت تعني بادئ ذي بدء البيت العالي، أو البيت العظيم، وكانوا يشيرون بها إلى القصر الملكي وليس إلى ساكنه -ثم سرعان ما تغيرت وغدت تعبيرًا محترمًا، يقصد به الملك نفسه، وذلك منذ الأسرة الثامنة عشرة، وأما متى حدث هذا التغيير في استعمال لقب فرعون، فإن سير آلن جاردنر -العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة- يحدد ذلك بعهد الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، حيث بدئ في إطلاق الاصطلاح أي فرعون على الملك نفسه ثم في عهد الداعية الديني المشهور أخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م)، مستندًا في ذلك على خطاب من عهده، ثم استعمل منذ الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م)، وفيما بعد، في بعض الأحيان، كمرادف لكلمة جلالته، ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ: خرج فرعون وقال فرعون ... وهكذا .

إن القرآن الكريم أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام يوسف الصديق في عهد الهكسوس فأطلق عليه لقب ملك، وبين حاكم مصر الوطني على أيام موسى الذي أطلق عليه لقب فرعون وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد أخناتون، هذا فضلًا عن أن ذلك من إعجاز القرآن، الذي لا إعجاز بعده، وإذا ما عدنا إلى التوراة، لوجدنا أن الحقائق التاريخية تقف ضد ما أوردته التوراة بشأن استعمال لقب فرعون، إذ إنها تستعمله حين يجب

^١ - انظر، د. رشدي البداروي، مصدر سابق، عن الدكتور محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص ١٥٤

^٢ - قال صلى الله عليه وسلم : ((كَمَلانَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عُثْمَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الرَّبِّدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ...)) (صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون، ح/ (٣٤١١).

^٣ - سليم حسن، مصر القديمة، ٤٣٤/٦ (نقله، محمد بيومي مهران، إسرائيل، ٣٩٢/١).

^٤ - يمكن أن ينطلق بطرق مختلفة، منها ((آسية)) و((إيسى)) وحتى ((إست))؛ انظر؛ محمد بيومي مهران، إسرائيل، ٣٩٣/١

^٥ - خروج ٢/ ٩-٥

^٦ - تكوين ٤٠ / ٧ - ٤١ / ١٥، ٤٦، ٣١ - ٥٠ / ٧

أن تستعمل لقب ملك، وذلك قبل الأسرة الثامنة عشرة، وتستعمل لقب ملك حين يجب أن تستعمل لقب فرعون، وذلك منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م)، وفيما بعدها.^(١)

وقال موريس بوكاي: عبارة أخرى وردت في سورة يوسف بيدولي أنها تحتاج إلى إشارة خاصة، لأنها تمثل مطابقة كاملة للاستعمال الذي كان في زمن يوسف، كما هو مثبت في التاريخ. أنا جد مدين للبرفسور جاك بيرك أنه لفت انتباهي منذ عدة سنين إلى الأمر التالي: لُقّب الحاكم في سورة يوسف خمس مرات الآيات ٤٣، و ٥٠ و ٥٤، و ٧٢، و ٧٦ دائماً باسم ملك، ولم يُلقّب البتة بلقب فرعون الذي اختص به في القرآن الحاكم في الزمن الذي جرت فيه الأحداث المتعلقة بموسى وذلك في خمس وستين مرة استعمال الكتاب المقدس كما أشرت إلى ذلك في الجزء الأول من كتابي، كلمة فرعون في جميع نصوصه للدلالة على حاكم مصر أحياناً مقترنة بكلمة ملك، لا فقط في زمن يوسف أي في أقصى الاحتمالات القرن السابع عشر قبل الميلاد بل حتى قبل ذلك في زمن إبراهيم (الفصل الثامن عشر من سفر التكوين).

لم يُعرف ملك مصر بلقب فرعون إلا منذ حكم أمينوفيس الرابع، أي في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل المسيح. كل استعمال لكلمة فرعون للدلالة على ملك مصر قبل هذا العصر هو خطأ تاريخي: ارتكب محررو الكتاب المقدس هذا الخطأ لما كانوا يستعملون لغة زمانهم عند تأليفهم للكتاب المقدس. في المقابل، فإن استعمال هذه الكلمة للأحداث الأقرب لنا كزمن موسى، هي مطابقة للمعطيات التاريخية.

إنّه عليّ أن أعلن أنه في زمن تبليغ القرآن إلى الناس، كانت اللغة المصرية القديمة قد احتفت منذ أكثر من قرنين من الذاكرة البشرية، وبقيت كذلك إلى القرن التاسع عشر؛ لذلك فليس بإمكاننا أن نعرف أنّ ملك مصر في زمن يوسف يجب أن يدعى بلقب غير المذكور في الكتاب المقدس. دقة اختيار الكلمات في هذا الموضوع في نص القرآن تشير التفكير.^(٢)

٥ - عدد بني إسرائيل في مصر

من أكثر المواضيع التي شغلت النقاد المعاصرين، العدد الضخم للإسرائيليين الذي عاشوا في مصر وخرجوا منها مع موسى عليه السلام بعد أن طاردهم فرعون وجنوده، تذكر التوراة أنّ عدد نفوس بيت يعقوب التي قدمت إلى مصر كانت سبعين نفساً^(٣)، ثم أصبح العدد بعد ٢١٥ سنة على رأي التوراة السبعينية، أو ضعف هذا الرقم على رأي التوراة العبرانية، شعباً أعظم وأكثر من المصريين - أصحاب أقوى وأعظم دولة في العالم في ذاك الوقت -، ولما طردوا من مصر كان من بينهم نحو ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبنكار الذكور، من ابن شهر فصاعداً، اثنين وعشرين ألفاً ومئتين وثلاثة وسبعين.!!^(٤)

يعلق بعض الباحثين على ذلك، بقوله إننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبنكار، لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية من اليهود الآبقين، كانت تلد زهاء ٦٥ وليداً، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلاً عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير، ولا مع ما روي من عبورهم البحر في سويغات قصار، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين، سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون أية أهمية على هذه الأرقام التي ذكرتها التوراة، ويعتبرونها محض خيال إسرائيلي.^(٥)

^١ - محمد يومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١٢١/٢ - ١٢٢، (بتصرف يسير)، Wahiduddine Khan, God Arises, New Delhi:

Goodword Books, 2001, pp. 206- 208

^٢ - Maurice Bucaille, Moise et Pharaon, pp.210-211

^٣ - تكوين ٢٧ / ٤٦

^٤ - خروج ٣٧ / ١٢، عدد ٤٣ / ٤٣

^٥ - محمد يومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن، ١٤٢ / ٢

إنّ القول إنّ الإسرائيليين قد بلغ عددهم زمن موسى أكثر من المصريين، ليس إلاّ علامة على فحش مبالغات التوراة وفحش تناقضاتها، خاصة إذا علمنا أنّ التوراة ذاتها تذكر الاضطهاد والقتل الذي سلّط على الإسرائيليين. فكيف يكون عددهم أكثر من المصريين رغم عمليات القتل؟! وكيف يستدلّ الأقلّ الأكثر؟!^(١)

وقد ردّ الإمام ابن حزم منذ قرابة ألف سنة على هذا الخطأ، وبَيّن الإعجاز القرآني في هذا الباب، بعد أن كشف بمنهجيته النقدية الصارمة خبط التوراة ومبالغاتها الباطلة: أين هذا الكذب البارد من الحق الواضح في قول الله تعالى حاكياً عن فرعون إنه قال إذ تبع بني إسرائيل: {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} (الشعراء: ٥٤). هذا الذي لا يجوز غيره ولا يمكن سواه أصلاً.^(٢)

علماً أنّ هذه الحقيقة التصويبية التي وردت على لسان الإمام ابن حزم رحمه الله، لم تذكر في نقد الرواية التوراتية في الغرب إلا سنة ١٨٦٢م على يد ج. و. كولينسو أحد مؤسسي نقد العهد القديم المعاصر - وإن كان الألماني ه. س. رايماروس قد سخر من الرقم التوراتي قبل ذلك بقرن واحد!^(٣)

قد يقول معترض: إنّ ما قاله فرعون - في القرآن الكريم - لا يعدو كونه محاولة للتهوين من أمر الإسرائيليين! والجواب هو: أولاً: النصّ القرآني في سرده لقصة موسى لا يوحي أصلاً أنّ بني إسرائيل قد بلغوا الكثرة المزعومة في التوراة. ثانياً: العدد المذكور في التوراة كما يقول بوكاي يفوق عدد شعب دولة بأكملها في ذاك الوقت^(٤)، وليس من المعقول أن يوصف شعب كامل تبصرهم عيون الناس بأنهم {شرذمة قليلون}!!

وقد يتوجه المعارض بقوله إلى جهة أخرى ليقول إنّ القرآن لم يقدّم سبقاً علمياً وإنما صوّب خطأ ظاهراً!.. وأقول: إنّ الكشف عن هذا الخطأ قد احتاج من أهل العلم دراسة جادة للنصوص ومقارنة جادة بينها ونظراً جاداً في السنن الكونية في تكاثر الشعب الواحد، وهو أمر لم تعرفه أوروبا إلا منذ ما يعرف بعصر النهضة (القرن ١٦ م). وقد رأيت أنّ هذه الحقيقة لم يعرفها الغرب إلا بعد أكثر من ألف سنة من تنزّل القرآن الكريم! وقد سبقهم علماء الإسلام لأنهم كانوا يسترشدون بنور القرآن الكريم.

إنّه إذن، الإعجاز!

٦ - إسماعيل هو الذبيح

جاء في سفر التكوين ١٢/٢٢-١٣: وبعد هذا امتحن الله إبراهيم، فناداه: يا إبراهيم فأجابه: لبيك! فقال له: خذ ابنك وحيدك إسحق الذي تحبه، وانطلق إلى أرض المريا وقدمه محرقة على أحد الجبال الذي أهديك إليه... ومدا إبراهيم يده وتناول السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء قائلاً: إبراهيم، إبراهيم فأجاب: نعم. فقال: لا تمد يدك إلى الصبي ولا توقع به ضرراً لأنني علمت أنك تخاف الله ولم تمنع ابنك وحيدك (١٢/٢٢) عني.

وهذا بلا ريب خطأ؛ لأنّ الكتاب المقدس نفسه يُقرّر أنّ إسماعيل قد ولد قبل إسحاق. وقد جاءت النصوص القرآنيّة^(٥) كاشفة ضمناً أنّ الذبيح هو إسماعيل.^(٦) قال الإمام ابن القيم في دفع دعوى الكتاب المقدس، وبيان دلالة القرآن الكريم أنّ الذبيح هو إسماعيل: وهي باطلة قطعاً من عشرة أوجه:

^١ - انظر المصدر سابق، ١٤٣/٢

^٢ - ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/١٩٤

^٣ - د. لؤي ضويحي ود. شذى البركرلي، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكر، لندن: دار الحكمة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ص ١٣٣

^٤ - انظر، Maurice Bucaille, Moses and Pharaoh, The Hebrews in Egypt, Tokyo: NTT Mediascope, 1994, pp.7, 111-112

^٥ - لا يصحّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديث في تحديد هويّة الذبيح.

^٦ - ما ذهب إليه بعض العلماء للمسلمين من أنّ الذبيح هو ((إسحاق)) لا دليل عليه من قرآن أو سنة، وإنّما هو متلقًى عن اليهود والنصارى؛ قال ابن تيمية: هذا القول إنّما هو متلقًى عن أهل الكتاب مع أنه باطل. (ابن القيم، زاد المعاد، ت/ شعيب الأناؤوط وعبد القادر الأناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ،

أحدها: أن بكره ووحيدده هو إسماعيل باتفاق الملل الثلاث، فالجمع بين كونه مأمورًا بذبح بكره وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين.

الثاني: أن الله سبحانه وتعالى أمر إبراهيم أن ينقل هاجر وابنها إسماعيل عن سارة ويسكنها في بركة مكة لئلا تغير سارة، فأمر بإبعاد السرية وولدها عنها حفظاً لقلبها ودفعاً لأذى الغيرة عنها، فكيف يأمر الله سبحانه وتعالى بعد هذا بذبح ابن سارة وإبقاء ابن السرية؟! فهذا مما لا تقتضيه الحكمة.

الثالث: أن قصة الذبح كانت بمكة قطعاً، ولهذا جعل الله تعالى ذبح الهدايا والقربان بمكة تذكيراً للأمة بما كان من قصة أبيهم إبراهيم مع ولده.

الرابع: أن الله سبحانه وبشر سارة أم إسحاق بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب^(١)، فبشرها بهما جميعاً، يأمر بعد ذلك بذبح إسحاق وقد بشر أبويه بولد ولده!

الخامس: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصة الذبيح وتسليمه نفسه لله تعالى وإقدام إبراهيم على ذبحه، وفرغ من قصته قال بعدها: {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} (الصافات: ١١٢) فشكر الله تعالى له استسلامه لأمره وبذل ولده له، وجعل من إثابته على ذلك أن آتاه إسحاق، فنجى إسماعيل من الذبح وزاده عليه إسحاق.

السادس: أن إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه سأل ربه الولد؛ فأجاب الله دعاءه وبشّره، فلما بلغ معه السعي أمره بذبحه، قال تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} (الصافات: ٩٩-١٠١)؛ فهذا دليل على أن هذا الولد إنما بُشِّر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهب له ولداً، وهذا المبشّر به هو المأمور بذبحه قطعاً بنص القرآن، وأما إسحاق فإنما بُشِّر به من غير دعوة منه، بل على كبر السن وكون مثله لا يولد له، وإنما كانت البشارة به لامرأته سارة، ولهذا تعجبت من حصول الولد منها ومنه؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَىٰ أَن يُدِيرُهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} (هود: ٦٩-٧٣) فتأمل سياق هذه البشارة وتلك؛ تجدهما بشارتين متفاوتتين؛ مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى، والبشارة الأولى كانت له والثانية كانت لها، والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشر فيها دون الثانية.

السابع: أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم بإسحاق إلى مكة البتة، ولم يفرق بينه وبين أمه، وكيف يأمره الله تعالى أن يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضربتها في بلدتها ويدع ابن ضربتها!؟

الثامن: أنّ الله تعالى لما اتخذ إبراهيم خليلاً؛ والخلة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقاً بربه ليس فيه شعبة لغيره، فلما سأله الولد وهبه إسماعيل؛ فتعلق به شعبة من قلبه، فأراد خليله سبحانه أن تكون تلك الشعبة له ليست لغيره من الخلق، فامتحنه بذبح ولده، فلما أقدم على الامتثال؛ خلصت له تلك الخلة وتمحضت لله وحده، فنسخ الأمر بالذبح، لحصول المقصود وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال.

ومن المعلوم أن هذا إنما يكون في أول الأولاد لا في آخرها، فلما حصل هذا المقصود من الولد الأول لم يحتج في الولد الآخر إلى مثله، فإنه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لأمر بذبحه كما أمر بذبح الأول، فلو كان المأمور بذبحه

١٩٨٦م، ط ١٤٤، ٧١/١، وقال الإمام ابن كثير: وما أظن ذلك تلقى إلا عن طريق أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مُستلماً من غير حجة. (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٥/٤)

^١ - قال تعالى: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ} سورة هود/ الآية ٧١

هو الولد الآخر لكان قد أقرّه في الأول على مزاحمة الخلة به مدة طويلة، ثم أمره بما يزيل المزاحم بعد ذلك، وهذا خلاف مقتضى الحكمة فتأمل.

التاسع: أن إبراهيم عليه السلام إنما رزق إسحاق عليه السلام على الكبر، وإسماعيل عليه السلام رزقه في عنفوانه وقوته، والعادة أن القلب أعلق بأول الأولاد، وهو إليه أميل وله أحب، بخلاف من يرزقه على الكبر، ومحل الولد بعد الكبر كمحل الشهوة للمرأة...^(١)

وقد اعترف بالدلالة القرآنية على أنّ الذبيح هو إسماعيل، جايئز نفسه؛ فبعد أن استعرض ما جاء في القرآن الكريم، قال: " من الواضح إذن أنّه طبقاً لعرض محمد؛ فإنّ إسماعيل هو الذي قام بدور التضحية." ^(٢)

٧ - ألوهية المسيح

تكرر في القرآن الكريم نفي ألوهية المسيح: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (المائدة: ١١٦)، {مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (مریم: ٣٥).

وتكرر مع ذلك تمجيد المسيح عليه السلام، ونسبته إلى البشرية والنبوة: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (آل عمران: ٥٩)، {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} (مریم: ٣٠)، {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (البقرة: ١٣٦) .

وهنا يسأل العاقل نفسه سؤالاً: لقد ذهب النصارى إلى أنّ المسيح قد أعلن أنه إله، وأنه صادق في دعواه، وذهب اليهود إلى اتّهام المسيح أنّه قد ادّعى الألوهية زوراً؛ فلم يذكر قرآن محمد ﷺ أنّ المسيح لم يدّع الألوهية أصلاً؟! ليس في ذلك إنكار (لحقيقة) تاريخية أطبق عليها أهل الكتاب - كما يقولون هم بأنفسهم عن إجماعهم! -؟! أليس ذاك خطأ تاريخي في القرآن الكريم؟! - ليس الاعتراض هنا على صحة (ألوهية) المسيح، فهذا أمر يُدرك حكمه بالعقل المجرد، وإنما هو عن صحة القول إنّ المسيح قد ادّعى أنّه إله! -

الإجابة يقدّمها لنا لاهوتي، بل أحد أعلام اللاهوتيين في زماننا، وهو John Hick^(٣) بقوله في كتابه *The Metaphor of God Incarnate: Christology in a pluralistic age* الصادر - في طبعته الأولى - سنة ١٩٩٣م، ناقلاً ما أجمع عليه النقاد المحققون اليوم: نقطة أخرى عليها اتفاق واسع بين علماء العهد الجديد، وهي أكثر أهمية لفهم تطور علم دراسة طبيعة المسيح *Christology*، وتمثّل في أنّ يسوع التاريخي لم يدّع الألوهية التي ادّعاها له متأخرو المسيحيين: إنه لم يظن في نفسه أنّه تجسّد الإله، أو الإله الابن ... إنّهُ من المستبعد جداً أن يكون يسوع التاريخي قد ظنّ في نفسه ذلك بأية صورة من الصور. في الحقيقة، إنّ المتصور أنه سيرفض هذه الفكرة باعتبارها هرطقة، إحدى الأقوال المنسوبة إليه، هي: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلاّ الله وحده. (مرقس ١٠/١٨).

^١ - ابن القيم، إغاثة اللفهان من مضايدي الشيطان، ت/ محمد سيد كيلاني، القاهرة: مكتبة التراث، د.ت، ٢/٣٤٨-٣٥١

^٢ - A. Geiger, *Judaism And Islam*, p.103.

^٣ - جون هك (ولد سنة ١٩٢٢م): لاهوتي. درس في عدد من الجامعات. رئيس الجمعية البريطانية لفلسفة الدين، ونائب رئيس الكونغرس العالمي للأديان. ذكر Robert Smid أنّه كثيراً ما يشار إلى هك أنه أحد أبرز فلاسفة الدين المهتمين في القرن العشرين، إن لم يكن أبرزهم.

بالطبع لا توجد إفادات من الممكن أن تقدّم بيقين حول ما قاله يسوع أو ما لم يقله أو ما فكّر فيه. لكن الحجّة المتاحة قادت المؤرّخين المتخصصين في الفترة التاريخية لحياة المسيح إلى أن يستنتجوا بإجماع مذهل أنّ يسوع لم يدّع أنه الإله المتجسّد، هذا الأمر محلّ اتفاق عام اليوم حتّى إنّ بضعة اقتباسات ممثلة للرأي السائد مأخوذة من كتاب مستقيمي العقيدة أرثوذكس، تكفي لإثبات غرضنا الحالي.

رئيس الأساقفة Michael Ramsey وهو أيضًا أحد علماء العهد الجديد، كتب أنّ يسوع لم يدّع لنفسه الألوهيّة (١٩٨٠م). وعالم العهد الجديد المعاصر له C. F. D. Moule قال إنّ "كلّ حالة كرايستولوجيا "عالية" قائمة على أصالة الدعوى المدّعاة ليسوع حول نفسه، خاصة في الإنجيل الرابع، لا بد أن تعتبر غير ثابتة." (١٩٧٧م). واستنتج James Dunn في دراسة رائدة حول أصول عقيدة التجسّد أنّه لا توجد حجّة حقيقية في تراث يسوع المبكر ممّا من الممكن أن تسمّى بإنصاف، وعيًا بالألوهيّة (١٩٨٠م)، اعترف أيضًا Brian Hebblethwaite المناصر بقوة للتراث النيقوي^(١) الخلقيدوني^(٢) المسيحاني أنّه لم يعد ممكنًا المدافعة عن ألوهيّة يسوع من خلال الإحالة إلى أقواله (١٩٨٧م). يقول أيضًا متحمس آخر للخلقيدونية وهو David Brown، إنّ "توجد حجج قوية على أنّ يسوع لم ير نفسه البتّة أهلاً لأن يعبد" وإنه "من المستحيل تأسيس أيّة دعوى للتأليه بناءً على إدراكه إذا أهملنا الصورة التقليديّة كما يعكسها الفهم الحرفي للإنجيل يوحنا (١٩٨٥م)" (٣).

هذا هو الإعجاز حيث يخالف القرآن الكريم ما (استقر) عليه اليهود والنصارى زمن البعثة النبويّة واليوم يستقر البحث النقدي الأكاديمي الغربي في شاطئ القرآن الكريم، دون اعتبار لقول أمّتين من الناس عاش أجدادها مع المسيح نفسه!

٨ - الأصول الوثنية للعقيدة النصرانية

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، (التوبة: ٣٠)

يقول الشيخ أحمد عبد الغفور عطار في موسوعته: الديانات والعقائد في مختلف العصور: "إن هذه الآية الشريفة إنباء عن الماضي المجهول، وما كان محمد ﷺ ولا عرب الحجاز يعلمون أن أمّا سبقت أمة المسيح، قالوا ما قالوه فيه، وهذا يجعلنا مطمئنين إلى أن القرآن كلام الله علام الغيوب، لا كلام عبد الله ورسوله محمد ﷺ، لأن الكشوف الأثرية والبحوث لم تكتشف مضاهاة النصرانية للذين كفروا إلا حديثًا، وبعد موت محمد ﷺ بمئات السنين، فعرف ثالوث الهند وغيرها كالصين والمكسيك ومصر ودياناتهم الوثنية التي تشبّتها النصرانية، وهذا سر من أسرار القرآن يظهر مع الزمن".^(٤)، وقد صنّف النقاد الغربيون كتبًا عديدة في موضوع تأثّر النصرانية بالعقائد الشرقية والوثنية، ومنها:

- John Hick, ed. *The Myth of God Incarnate*, Oxford : New Blackfriars, 1977
- Frank Viola and George Barna, *Pagan Christianity*, Ill. : BarnaBooks, 2008, 2002.
- Jonathan Z. Smith, *Drudgery Divine, : On the Comparison of Early Christianities and the Religions of Late Antiquity*, Chicago: University of Chicago Press, 1990

^١ - أي العقيدة التي قرّرها النصارى في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م حيث وصف المسيح أنّه ((إله من إله)) ((θεὸν ἐκ θεοῦ)).

^٢ - أي العقيدة التي قرّرها النصارى في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذي قرّر أنّ للمسيح طبيعتين ومشيتين، إلهية وأخرى بشرية ((إله حق وبشر حق)) ((θεὸν καὶ ἄνθρωπον ἀληθῶς καὶ ἀνθρώπον ἀληθῶς τὸν αὐτὸν)).

^٣ - John Hick, *The Metaphor of God Incarnate: Christology in a pluralistic age*, London: Westminster John Knox Press, 2006, pp.27-28

^٤ - أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، مكة المكرمة: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ٢/ ٥٦١

- Robert J. Miller, *Born Divine: the birth of Jesus and other sons of God*, CA: Polebridge Press, 2003
 - Tom Harpur, *Pagan Christ*, Toronto: Thomas Allen Publishers, 2004.
 - Timothy Freke and Peter Gandy, *The Jesus Mysteries: was the 'original Jesus' a pagan god?*, New York : Harmony Books, 2000.
 - Shirley Strutton Dalton and Laurence E. Dalton, *Jesus Christ: A Pagan Myth*, On Demand Publishing, 2008
- وغيرها كثير جدًا ...

٩ - ابتداء الرهبانية

قال تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} (الحديد: ٢٧)، كانت الرهبنة معلماً أساسياً من معالم النصرانية في القرن السابع ميلادياً، وقد وجدت لها حضوراً بارزاً في تجمعات النصارى الأقرب إلى مكة، وذكر أمرها في الشعر الجاهلي؛ بما يدل على أنها قد أضحت متصلة اتصالاً وثيقاً بالإيمان النصراني والهيكل الكنسي في الثقافة الشعبية العربية .. لكن القرآن الكريم يصحح بما لا يتوقعه العربي في ذلك الإطار الزماني والمكاني؛ إذ يقرر أنّ الرهبنة مسلك دخيل على النصرانية ابتدعه قوم ظنوا فيه الصلاح والتهذيب للنفس، وقد آل أمر هذه الرهبنة إلى الفساد! ^(١)

إنّ الحقيقة التاريخية التي نعرفها اليوم معرفة يقينية هي أنّ الرهبنة لم تعرف في القرنين الأول والثاني ميلادياً، وإنما ظهرت بداية في نهاية القرن الثالث ميلادياً في مصر على يد قديس الكنيسة أنطونيوس الكبير (٢٥١م-٣٥٦م) الذي يسمّى بأبي الرهبنة = *Father of Monasticism*. ^(٢)

١٠ - يوسف النجار، الشخصية الخرافية

تضمنت أناجيل النصارى ذكر شخصية يوسف النجار وأنه كان خطيب مريم أم المسيح عليهما السلام، وزعمت أنه قد تولى رعاية المسيح عليه السلام أثناء طفولته. وقد أهمل القرآن الكريم ذكر هذه الشخصية في حياة المسيح وأمه على صورة تكشف أنّ القرآن الكريم ينكر وجودها أصلاً.

إننا لا نجد ليوسف النجار ذكراً في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبوية، كما أنّ الرواية القرآنية تنطلق بنا من الرغبة في تكريس مريم للهيكل، وكفالتها، إلى ولادتها العذرية، وربة قومها في هذه الولادة العجيبة، دون إشارة إلى اتهام الخطيب بهذه الفعل، مكتفية بتنزيه مريم عن فعل الفاحشة: {يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا} (مريم: ٢٧).

وبالنظر في الكتاب المقدس نفسه؛ يستبين لنا صواب الرواية القرآنية وبطلان تاريخية شخصية يوسف النجار المذكور في الأناجيل؛ لأسباب عديدة من أهمها:

- إنجيل مرقس الذي هو أقدم الأناجيل الأربعة تأليفاً، لم يشر البتة إلى يوسف النجار.

^١ - قال الإمام (ابن كثير) (تفسير القرآن العظيم، ٤/٢٢٩٠): ((وقوله تعالى: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} أي: فما قاموا بما التزموا حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين: (أحدهما) الابتداء في دين الله ما لم يأمر به الله. و(الثاني) في عدم قيامهم بالتزود مما زعموا أنه قرينة يقرهم إلى الله عز وجل)).

^٢ - The Catholic Encyclopedia, 1/555

- أشار إنجيل يوحنا إلى يوسف كشخصية لها علاقة بالمسيح في ٤٥/١: ثُمَّ وَجَدَ فِيلِبُّسُ نَثْنَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ: «وَجَدْنَا الَّذِي كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِي الشَّرِيعَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ فِي كُتُبِهِمْ وَهُوَ يَسُوعُ ابْنُ يُوسُفَ مِنَ النَّاصِرَةِ، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْعَهْدَ الْقَدِيمَ لَمْ يَشِرْ الْبَتَّةَ إِلَى شَخْصٍ اسْمُهُ يَسُوعُ ابْنُ يُوسُفَ مِنَ النَّاصِرَةِ.
- يذكر إنجيل مرقس ٣/٦ أَنَّ الْمَسِيحَ يَعْمَلُ نَجَارًا، فِي حِينٍ ذَهَبَ إِنْجِيلٌ مَتَّى ٥٥/١٣ إِلَى أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ النَجَارِ!!
- نسب يوسف النجار في الأناجيل مضطرب؛ فوالده في إنجيل متى ١٦/١ اسمه يعقوب، في حين أَنَّ اسم والده في إنجيل لوقا ٢٣/٣: هَالِي.
- اختلفت الأناجيل في موطنه؛ فهو في إنجيل متى ١/٢ من بيت لحم، في حين أَنَّهُ فِي إِنْجِيلِ لُوقَا ٢٦/١ مِنَ النَّاصِرَةِ.
- لو كانت مريم مخطوبة ليوسف النجار وثبت حملها أمام الناس؛ لوجب طبق الشريعة اليهودية رجمها (تثنية ٢٢/٢٣-٢٤)، وهو ما لم يكن!
- تنصَّ شريعة اليهود على منع المرأة من الزواج من غير سبطها (العدد ٨/٣٦-٩)، في حين نقرأ أَنَّ مريم من سبط لاوي انظر: لوقا ٥/١ إِذْ إِنَّ الْيَصَابَاتِ قَرِيبَةَ مَرْيَمَ (لوقا ٣٦/١) من بنات هارون، كما ذكر قديس الكنيسة هيبوليتس^(١) أَنَّ أُمَّ مَرْيَمَ وَأُمَّ الْيَصَابَاتِ كَانَتَا أُخْتَيْنِ^(٢)، في حين أَنَّهُ قَدْ تَكَرَّرَ الْقَوْلُ إِنَّ يُوسُفَ النَجَارَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِمَّا يَعْنِي مَنَعَ زَوَاجَهُمَا طَبَقَ شَرِيعَةَ الْيَهُودِ.
- لقد نفى القرآن الكريم ضمناً هذا الزواج، وبرأ مريم أمام قومها الذين كانوا يعتقدون ديانةً وجوب رجم الزانية المخطوبة، بمعجزة كلام ابنها في المهد؛ فكانت الرواية متناسقة ومتكاملة، متجاوزة أخطاء الأناجيل وتناقضها مع العهد القديم!

ثانياً: السبق التاريخي للقرآن الكريم:

لا يقتصر الإعجاز القرآني والتميز التاريخي في القرآن الكريم، مقارنة بما ورد في الأسفار المقدسة عند المنصرين، على التصحيح والتعديل، بل تجاوزه إلى السبق التاريخي المعجز في أبواب التاريخ القديم للأمم الدائرة التي لا علم للعرب الجاهليين وغيرهم بأمرها المطروق في تلك اللغات القرآنية المذهلة، ومن هذه اللحات التاريخية المعجزة التي تشفَّ عن المصدر العلوي لهذا الكتاب الفريد، نذكر نتفاً تغني اللبيب عن طلب المزيد:

١ - نجاة جثة فرعون

يقول تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعُرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلاَ وَقدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُجْجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾، (يونس: ٩٠-٩٢) .

تذكر هذه الآيات حادثة غرق فرعون، وهو ما جاء أيضاً في نص التوراة^(٣)، غير أَنَّ القرآن الكريم يضيف أمرين آخرين لم تعرفهما التوراة:

(١) حفظ الله سبحانه جثة فرعون جثة هالكة من أن تبقى في البحر.

^١ - هيبوليتوس (١٧٠م-٢٣٦م): لاهوتي وأحد قديسي الكنيسة.

^٢ - انظر؛ عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد متقديه، ص ١٧١

^٣ - انظر؛ خروج ١٤/٢٨، مزمور ٥٣/٧٨، ١١/١٠٦

(٢) نَحْيَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْجُثَّةُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي غُرِقَتْ فِيهِ لَتَبْقَى آيَةُ لِلنَّاسِ وَعِبْرَةٌ.

وقد بقي أمر جثث الفراعنة المخططة مخفياً طوال قرون عديدة، ولم يكتشف إلا في آخر القرن التاسع عشر حيث عثر على مومياءات الفراعنة عند فتح قبر امنحتب الثاني.

ذهب باحثون كثيرون، ومنهم مورييس بوكاي الطبيب، وعضو الجمعية الفرنسية للمصريّات *la Société française d'égyptologie*، إلى أنّ فرعون الخروج^(١) هو مرنبتاح بن رمسيس الثاني^(٢). وقد قام الدكتور بوكاي بتقديم بيانات علمية بالغة الأهمية في هذا الشأن - لم تأخذ للأسف الشديد حظّها من العناية من المتخصصين -، فقد ذكر أنّ التحليل الطبّي لمومياء مرنبتاح قد تمّ بين سنتي ١٩٧٤ م و ١٩٧٥ م بمشاركة أطباء مصريين، وكان هو من المشاركين فيه. وقد استقدم من فرنسا أحد أهم المتخصصين في الطب الشرعي لبحث فرضية موت هذا الفرعون بفعل ارتداد الأمواج عليه والغرق في البحر.

نشرت نتائج هذا البحث في كتاب بوكاي مومياءات الفراعنة، الأبحاث الطبية المعاصرة (*Momies du Pharaons : les enquêtes médicales modernes*) الذي نال عنه جائزة الأكاديمية الفرنسية، والأكاديمية القومية الفرنسية للطب. ملخص النتائج كالتالي:

- أصيبت هذه المومياء بكسور بعد الموت إثر تمزق أنسجتها.
- فقدت كلّ الأعضاء الداخلية للمومياء، وبالسؤال عن الرثتين (لاحتمال وجود آثار الغرق) عُلم أنّهما قد اختفتا، وأنّ العادة أن ينزعهما المخطّط.
- بتحليل مجهرى لقطعة صغيرة من عضل المومياء؛ أمكن اكتشاف تفاصيل تشريحية حفظت بصورة جيّدة أثناء عملية التحنيط، أكّدت أنّه من المحال أن تكون هذه الجثة قد بقيت في الماء لفترة طويلة.
- فقدان بعض الأعضاء في البدن أثناء حياة المومياء بما يرجّح أنّ ذلك ناتج عن ضربات (blows) خارجية، وهو أمر أكّدته صور الأشعة السينية (X-rays):
- فقدان أجزاء من القفص الصدري والبطن والجمجمة بسبب ضربات تلقاها الفرعون أثناء حياته.
- فجوة في الصدر من الراح أنّها ناتجة عن إصابة أثناء حياة هذا الفرعون، ومن المستبعد تشريحياً أن تكون ناتجة عن كسر اللصوص لصدر المومياء.^(٣)
- فجوة في أسفل الظهر (١٠ على ١٥ سنتيمتر)، سببها ضربة من الخارج.
- فجوة في الرأس (٣٧ على ٢٣ ملليمتر)، وبصورة دقيقة عند العظم الجداري الأيمن، وكانت بسبب ضربة/ هبة شديدة جداً.^(٤)

^١ - فرعون الخروج أي الفرعون الذي لاقى موسى عليه السلام ومن معه أثناء خروجهم من مصر، وفرعون التسخير هو الفرعون الذي قام بتسخير بني إسرائيل قبل ذلك. وقد ذهب عدد من علماء المصريات إلى أنّ فرعون الخروج هو نفسه فرعون التسخير، في حين ذهب آخرون إلى أنّهما اثنين، فبعد وفاة فرعون التسخير)) استلم حكم مصر فرعون الخروج، وهو الذي مال إليه د. بوكاي، وانتصر له بأدلة قوية، وهو مذهب عدد كبير من أعلام المصريات.

^٢ أشهر فرعون آخر اقترح النقاد أنه فرعون الخروج، هو رمسيس الثاني، وقد رفض مورييس بوكاي هذا القول لأسباب، من أهمها أنّ الدراسة الطبية لهذه المومياء لا تقدّم لنا أدنى أرضية للتفكير في ذلك. في الحقيقة، إنّه من الجلي الواضح أنّ رمسيس الثاني كان عاجزاً تماماً عن أن يتولّى تلك المهمة الحرجة قبل موته. Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical investigations*, New York: St. Martin's Press, 1990, p.107

^٣ - أشار بوكاي إلى أنّ العظم المفقود هنا كان موجوداً عندما صوّرت المومياء في أوائل القرن العشرين (يبدو أنّه كان موضوعاً فوق الفجوة بعد أن انفصل عن الجثة).

^٤ - أبطل بوكاي من خلال صور الأشعة ودراسة جمجمة الفرعون ما رآه ((إليوت سميت)) في بداية القرن العشرين من أنّ هذه الفجوة ناتجة عن فعل اللصوص الذين أصابوا المومياءات بأضرار عند سرقة ما كان معها من جواهر (انظر؛ Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical investigations*, p.123)

فقدان هذه الأعضاء قاد علماء التشريح إلى القول إنّ سببها هو صدمة أصابت الفرعون، وأنّه من الراجح أنّ دخول عظام الرأس إلى منطقة المخ، ودفعها للمخ بصورة عنيفة قد أدّى إلى وفاة الفرعون بصورة سريعة أو ربما آتية مباشرة.

– كشفت الأشعة السينية أنّه لا أثر لانفجار العظام حول الفجوات، وهذا دليل على أنّ فقدان هذه الأعضاء كان بسبب ضربة/هبة أثناء حياة الفرعون.^(١)

ويضيف بوكاي قائلاً: " قدّمت هذه الاستنتاجات مع الوثائق في أبريل ١٩٧٦م، أمام المؤسسة الفرنسية للطب الشرعي، ولم تقدّم أية اعتراضات على استنتاجاتنا"^{(٢) (٣)}

وختم حديثه بالتأكيد على أنّ موت هذا الفرعون كان بفعل انطباق البحر عليه، وهو ما ذكره الكتاب المقدّس^(٤) .. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة وأضاف إليها أخرى؛ وهي نجاة جثة هذا الفرعون؛ لتكتمل عناصر الإعجاز والسبق.

وأشار بوكاي إلى أنّه لو بقيت الجثة فترة طويلة في الماء؛ لصار تحنيطها غير مجدٍ. وأشار هنا إلى لفظة جميلة، وهي أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى نجاة جثة هذا الفرعون من الهلاك في الماء، في نفس اليوم الذي هلك صاحبها فيه^(٥)، وهو ما يزيد الإعجاز القرآني هنا عمقاً!

وكان بوكاي قد قال في كتابه الكتاب المقدّس والقرآن والعلم حول اكتشاف جثة الفراعنة حديثاً: في العصر الذي كان فيه الرسول يضع القرآن في متناول الناس، كانت أبدان كل الفراعنة الذين شكّ الناس في هذا العصر الحديث خطأ أو صواباً بأنهم اهتموا بالخروج، موجودة في قبور وادي الملوك في (طيبا) في الضفة المقابلة للأقصر من النيل. وقد كان الناس في هذا الزمان يجهلون كل هذا الواقع. ولم يكتشفوه إلا في أواخر القرن التاسع عشر.^(٦) وقد ثبت كما يقول القرآن، أنّ بدن فرعون الخروج قد نجا. أيّاً كان هذا الفرعون، فإنه اليوم في صالة الموميآت الملكية في المتحف المصري في القاهرة، ميسرة رؤيته للزائرين.^(٧)

ومّا استدللّ به لصالح إثبات أنّ (مرنبتاح) هو فرعون الخروج، ما جاء في مسألة مرنبتاح الشهيرة التي تضمّ الإشارة الوحيدة لإسرائيل في النصوص المصرية، فقد تعامل نصّ المسألة مع كلمة (إسرائيل) -لغوياً- باعتبارها دالة على شعب لا دولة له -على خلاف بقرّة المذكورين في النص-. وقد أورد هذا النص انتصارات الفرعون: " الأمراء منبطحون يصرخون طالبين الرحمة، وليس من بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، الخراب للتحنو، بلاد خاتي هادئة، وكنعان قد

^١ - انظر؛ Maurice Bucaille, Moses and Pharaoh, pp. 127- 128، انظر أيضاً؛ Maurice Bucaille, Mummies of the Pharaohs, modern medical investigations, pp. 156-160

^٢ - Maurice Bucaille, Moses and Pharaoh, p. 128

^٣ - شاع القول بتسفيه أن يكون ((مرنبتاح)) هو فرعون الخروج -لدى من ينكرون هذا القول-، بدعوى أنّه ليس للقاتلين بذلك إلا حجة واحدة وهي آثار الملح على المومياء كدليل على الغرق، وهو ما ليس بحجة لأنّ عملية التحنيط تستدعي استعمال الملح (انظر؛ لوي فتوحى وشذى الدركلي، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكر، ص ١٢٤)!! وأنت ترى هنا أنّ الأدلة المعروضة في هذا الملخص لا تعلّق لها بالملح وبقائه في جثة المومياء!! انظر في تفصيل الأدلة على أنّ مرنبتاح هو فرعون الخروج، والرّد على المخالفين، محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٣٠٨-٣٢٩

^٤ - انظر؛ Maurice Bucaille, Moses and Pharaoh, pp. 128- 129

^٥ - انظر؛ Maurice Bucaille, Mummies of the Pharaohs, modern medical investigations, pp.158, 160

^٦ - ((في عصر الأسرة الحادية والعشرين حينما توفي كبير كهنة آمون ((بينودجيم الثاني)) قرر زملاؤه الكهنة إخفاء العيث بحث الفراعنة فجمعوا جثثهم واتخذوا من دفن كبير الكهنة ستاراً ودفنوا الجميع في قبر الملكة ((إنجابي)) بالدير البحري والذي تم توسعته ليتسع لجميع جثث الفراعنة منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة. وأغلقوا القبر. وسجلوا أن ذلك قد تم في السنة العاشرة من حكم الملك ((سيامون)) في عام ٩٦٩ ق.م. وردموا المدخل تماماً وضيعوا المعالم حوله حتى لا يستدل عليه اللصوص فيقبى القبر الجديد سلماً من عبث اللصوص لأكثر من ٢٨٠٠ سنة ونسي تماماً وسمي ((خبية الدير البحري)) ويحتوي على جميع المومياءات ومن بينها مومياء رمسيس الثاني.)) (رشدي البدراوي، موسى وهارون عليهما السلام من هو فرعون موسى؟، نسخة إلكترونية)

^٧ - موبس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، دار الكتدي، ط ٢، ص ٢٠٤

استلبت في قسوة، وأخذت عقلاً، وقبض على جازر، وصارت ينوعام كأن لم يكن لها وجود، وإسرائيل قد خربت وأزيلت بذرتها، أصبحت خارو أرملة لمصر.^(١)

(خربت/ضاعت إسرائيل، وأزيلت بذرتها). على غير العادة في نصوص هذه المسألة، فإن العلامة المرتبطة بكلمة إسرائيل ليست علامة دولة، أو مدينة، وإنما علامة تدلّ على طائفة من الناس، من الممكن الربط بين هذا النص وبين ما جاء في القرآن الكريم من قتل الفرعون لذرية بني إسرائيل^(٢)، {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} (القصص: ٤)، {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرِكَ وَلَهُتَك قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} (الأعراف: ١٢٧). وقد جاء أمر قتل ذرية اليهود أيضاً في التوراة. (الخروج: ١٥/١-٢٢)

٢ - وسائل التعذيب في زمن فرعون

قال تعالى مصوراً ما حدث من تحدّد بين سحرة فرعون وموسى عليه السلام، وكيف آمن السحرة بالله وحده وكفروا بفرعون لما انبهروا بمعجزة العصا التي تحوّلت إلى حية حقيقية؛ فقرّر فرعون الانتقام منهم: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُهُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَا تُقْطَعُونَ أَيْدِيكُمْ وَأُتْرُكُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى} (طه: ٧٥-٨١)

ذكر القرآن الكريم هاهنا وسائل التعذيب في زمن فرعون، وقد نشر الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف نصّاً ورد في معبد عمدا من بلاد النوبة المصرية يصوّر وسائل التعذيب في زمان فرعون، وهو يرجع إلى السنة الرابعة من عهد مرنبتاح^(٣) (حوالي سنة ١٢٢٠ ق.م)، وهو يؤكّد أنّ مرنبتاح قد عذب الناس بقطع من خلاف وصلب^(٤).. ولا بدّ من الملاحظة في هذا المقام، أنّ القرآن قد انفرد بذكر إيمان السحرة، بالله سبحانه، وهو ردّ فعل منطقي من قوم امتنوا السحر، فلما جاءهم من برّهم في ما برعوا فيه، وعلموا أنّ ما قام به هو أعظم ممّا صنعوا، وأنه حق لا مجرد خيال، أسلموا لله ربّ العالمين..

والسؤال الذي نواجه به المنصرين هو: لم يورد القرآن هذه الواقعة ويعقبها بذكر حقيقة تاريخية ما كان يعلمها الناس ذاك الزمان ولم ترد في التوراة، إلا أن تكون وحياً من الحق سبحانه؟!

٣ - صعود فرعون إلى السماء

قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} (غافر: ٣٦) يتحدث اليوم علماء المصريات عن اعتقاد كان راسخاً عند الفراعنة أنّه بإمكان الفرعون أن يصعد إلى السماء على سلّم أو برج ليرى الآلهة هناك؛ ويؤكد Alan F. Segal هذه الحقيقة بقوله: "تظهر العديد من الكتابات في

^١ - محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٢/ ٣١١-٣١٢

^٢ - انظر؛ Maurice Bucaille, Moses and Pharaoh, p.194

^٣ - رجع العديد من النقاد كما سبق، أن ((مرنبتاح)) هو فرعون الخروج.

^٤ - انظر، أحمد عبد الحميد يوسف، مصر في القرآن والسنة، ص ١١٠، و A. A. Joussef, Merenptah's Fourth year at Amada, (نقله، د. محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٢/ ٢٠٠) ASAE, I. VIII, 1964, P. 237

نصوص الأهرامات أنّ الفرعون يصعد إلى السماء باستعمال سَلَم. يصعد على سَلَم أعدّه له أبوه رع أو صنعت الآلهة سَلَمًا ل (ن) ليصعد به إلى السماء.^(١)

وقد أشار الباحث بيترى إلى تفشّي الفكرة الدينية في الرغبة في الصعود إلى الآلهة في السماء في مصر الفرعونية^(٢)، ويذهب الكثير من علماء المصريات إلى أنّ الاعتقاد عند قدماء المصريين كان على أنّ الأهرامات ذاتها وسيلة الفرعون لبلوغ السماء.^(٣)

٤ - حفظ القمح في سنبله

قال تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ} (يوسف: ٤٥-٤٩) .

تقرّر القرآن الكريم بذكر خبر في قصة يوسف عليه السلام لم يرد في التوراة والناظر في هذه الزيادة قد لا يرى لها -من وجهة نظره- أهمية خاصة ولكنّ الله سبحانه وتعالى العليم الحكيم، يأبى إلا أن يجعل نور الإعجاز يسري في آي القرآن مدى الزمان .. ونحن اليوم قادرون على أن نفهم إحدى حكم إيراد هذه الزيادة التي تمثل مقطعاً من قصة يوسف عليه السلام غفلت عنه التوراة اليهودية-النصراية.

المقطع هو نصح يوسف عليه السلام لملك مصر أن يحفظ الحبّ في سنبله، رغم أنّ أهل مصر ما كان من عادتهم أن يفعلوا ذلك عند التخزين. وجليّ أنّ الغاية من هذه الوسيلة في الحفظ هي الإبقاء على القيمة الغذائية والصحيّة للحبّ أيام التخزين للاستفادة منه عند المجاعة التي ستحتاج البلاد..

وقد قدّم أحد الباحثين^(٤) في مؤتمر الإعجاز العلمي في الكويت^(٥) بحثاً عن جانب الإعجاز في ما ورد على لسان (يوسف) عليه السلام فقال: "إن الذي يوقفنا في الآية الكريمة ملحوظتان علميتان:

١ . تحديد مدة صلاحية حبة الزرع في خمس عشرة سنة هي حصيلة سبع سنوات يزرع الناس ويحصدون خلالها دأباً وتتابعاً وهي سنوات الخصب والعطاء، يليها سبع سنوات شداد عجاف هي سنوات الجفاف، يليها سنة واحدة هي السنة الخامسة عشرة وفيها يغاث الناس وفيها يعصرون من الفواكه، وقد أفاد البحث العلمي أن مدة ١٥ سنة هي المدة القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو والتطور فيها.

٢ . طريقة التخزين وهو قوله تعالى {فذرّوه في سنبله} وهي الطريقة العلمية الأهم في بحثنا: وفي إطار ترك البذور أو الحبوب في السنابل . قمنا ببحث تجريبي مدقّق حول بذور قمح تركناها في سنبله لمدة تصل إلى سنتين مقارنة مع بذور مجرّدة من سنابلها، وأظهرت النتائج الأولية أن السنابل لم يطرأ عليها أي تغيير صحي وبقيت حالتها ١٠٠%.

^١ - Alan F. Segal, Life After Death: A history of the afterlife in the religions of the West, New York : Doubleday, 2004, p.38

^٢ - د. لؤي فوجيود. شذى الدركري، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكر، لندن: دار الحكمة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ص ١٣٣

^٣ - انظر؛ Jon Manchip White, Everyday Life in Ancient Egypt, Courier Dover Publications, 2003, p.47; Brian M. Fagan, From Stonehenge to Samarkand: an anthology of archaeological travel writing, New York : Oxford University Press, 2006, p.10, Emmet John Sweeney, The Genesis of Israel and Egypt, Algora Publishing, 2008, 1/32

^٤ - د. عبد المجيد بلعابد. وقد كشف هذا السبق العلمي أيضاً د. محمد جمال الدين الفندي منذ بضعة عقود في كتابه ((الإسلام وقوانين الوجود))، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص ١٢٧

^٥ - انعقد في تاريخ ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٦

مع العلم أن مكان التخزين كان عاديًا ولم تراخ فيه شروط الحرارة أو الرطوبة أو ما إلى ذلك. وفي هذا الإطار تبين أنّ البذور التي تركناها في سنابلها فقدت كمية مهمة من الماء وأصبحت جافة مع مرور الوقت بالمقارنة مع البذور المعزولة من سنابلها، وهذا يعني أن نسبة ٢٠.٣% من وزن القمح المجرد من سنبله مكون من الماء مما يؤثر سلبيًا على مقدرة هذه البذور من ناحية زرعها ونموها ومن ناحية قدرتها الغذائية لأن وجود الماء يسهل من تعفنه وترديه صحي. ثم قمنا بمقارنة مميزات النمو (طول الجذور، وطول الجذوع) بين بذور بقيت في سنبلها وأخرى مجردة منها لمدة تصل إلى سنتين؛ فتبين أن البذور في السنابل هي أحسن نموًا بنسبة ٢٠% بالنسبة لطول الجذور و ٣٢% بالنسبة لطول الجذوع. وموازية مع هذه النتائج قمنا بتقدير البروتينات والسكريات العامة التي تبقى بدون تغيير أو نقصان؛ أما البذور التي تعزل من السنابل فتتخفّض كميتها بنسبة ٣٢% من البروتينات مع مرور الوقت بعد سنتين ونسبة ٢٠% بعد سنة واحدة.

وبهذا يتبين في هذا البحث أن أحسن وأفضل تخزين للبذور هي الطريقة التي أشار بها يوسف عليه السلام وهي من وحي الله. ومن المعلوم أن هذه الطريقة لم تكن متبعة في القدم وخاصة عند المصريين القدامى الذين كانوا يختزنون الحبوب على شكل بذور معزولة عن سنابلها؛ وهذا يعتبر وجهًا من وجوه الإعجاز العلمي في تخزين البذور والحبوب في السنابل حتى لا يطرأ عليها أي تغير أو فساد مما يؤكد عظمة الوحي ودقة ما فيه من علم.^(١)

القرآن الكريم يصحح الأخطاء العلمية للكتاب المقدس

لم تكن البلاد العربية عرضة للأفكار العلمية المتطورة في الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، نتيجة غياب التواصل المعرفي بينهما، وبساطة أنماط الحياة الصحراوية التي تعتمد على التجارة البينية ورعي الإبل وزراعة النخيل، والاعتقاد في الآلهة أنّها تورث الخصب والصحة والثراء؛ إذ في غضبها ورضاها تفسر الظواهر الكونية في البشر والبيئة. في ظل هذه الظروف، يستدعي العقل القول إنّ القرآن لن يجد حرجًا في نقل أفكار أهل الكتاب مادامت لا تجد مخالفة من علم عربي ثابت في بيئة الصحراء، إن صحّ الزعم بدعوى الاقتباس من أسفار أهل الكتاب.. ولكن عند النظر فيما ورد في القرآن الكريم؛ يستبين الناظر أنّ القرآن خالف صراحة أو ضمناً أفكارًا علمية خاطئة في الكتاب المقدس وسنستعرض هنا بعضها تمثيلاً لهذه الحقيقة بعد أن نعلن الحقيقة التي كشفتها ترجمة أورشليم للكتاب المقدس، وتبنتها ترجمة الرهبانية اليسوعية العربية في هامشها الأول المتعلق بقصة الخلق في سفر التكوين، وهي أنّ: " النصّ يستند إلى علم لا يزال في عهد الطفولة. فلا حاجة إلى التفنن في إقامة التوافق بين هذه الصور وعلومنا العصرية." (٢) .. إنّ الكتاب المقدس، إذن، يقدم لنا الطفولة الساذجة للعلم البدائي الغر!! وشهد شاهد من أهلها!

١ - كروية الأرض

تضمّن الكتاب المقدس نصوصاً كثيرة تدلّ في مجموعها على ترسخ اعتقاد أنّ الأرض منبسطة، وأنّ لها أركاناً أربعة، وحواش في نهاياتها:

دلّت النصوص في الكتاب المقدس على أنّ الأرض مسطّحة: ثم أخذته إبليس أيضاً إلى قمة جبل عال جداً، وأراه جميع ممالك العالم وعظمتها (متى ٤/٨) .. أخذ إبليس المسيح إلى جبل (٣) عال جداً تطلّ قمته على جميع

^١ - نشر هذا البحث موقع "الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة". <http://www.nooran.org/O/> ١٠/١٠-١٢٠.htm.

^٢ - ترجمة الرهبانية اليسوعية، ط٣، بيروت: دار المشرق، ١٩٩٤م، ص ٦٨.

^٣ - يبدو أنّ مؤلّف إنجيل لوقا قد اتّبعه إلى نكارة ما أورده مؤلّف إنجيل متى من وجود جبل يطلّ على جميع العالم؛ ولذلك حذف ذكر الجبل، واكتفى بالقول إنّ المسيح قد (أُصعد) ((αναγαγων))، لكنّه لم يستطع أن يفلت من الخطأ العلمي في تصوّر وجود مكان من الممكن أن يطلّ منه على جميع البلاد المسكونة، وقد وقع في الزلل العلمي رغم أنّه قد (ضيق) العرض البصري من ((ممالك العالم)) ((τας βασιλεις του κοσμου)) (متى ٤/٨) إلى ((الممالك التي يسكنها البشر)) ((τας βασιλεις της οικουμενης)) (لوقا ٤/٥) .. !!

الأرض، وهذا نظريًا محال إلا أن تكون الأرض مسطّحة، ولاحظ عبارة عالٍ جدًا للدلالة على أنّ المقصود هو العلو المادي الحقيقي الذي يمكن صاحبه من أن يطلّ على جميع الأرض!

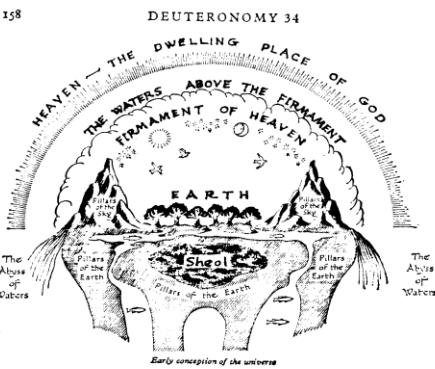
وفي (دانيال ١٠/٤-١١) وهذه هي الرؤيا التي شهدتها في منامي: رأيت وإذا بشجرة منتصبه في وسط الأرض ذات ارتفاع عظيم، وقد نمت الشجرة وقويت حتى بلغ ارتفاعها السماء، وبدت للعيان حتى إلى أطراف الأرض. .. ورد في هذه الرؤيا أن شجرة كانت في وسط الأرض (!) ولعظم علوها؛ فقد أطلت على جميع الأرض، حتى أطرافها، ولا يمنع كونها رؤيا منامية، عكسها لتصوّر بدائي لشكل الأرض عند كاتب/محرّر/معدّل سفر دانيال!!

صرح الكتاب المقدس أن للأرض أطرافًا: ففي (إرمياء ١٦/١٩) يا رب عزى وحصني وملجائي في يوم الضيق إليك تأتي الأمم من أطراف الأرض، وفي (أيوب ٣٨/١٣) (الفاندايك): ليمسك بأطراف الأرض فينفض الأشرار منها؟ وفي (أيوب ٣٧/٣) تحت كل السماوات يطلقها كذا نوره إلى أطراف الأرض. أكرّة ذات أطراف؟! (١) لقد جاءت ترجمة الفولجات دقيقة في ضبط معنى النصّ العربي: extremis و extrema و terminos في الدلالة على الحدود القصوى للأرض التي تمثّل أطرافها!

وصرح الكتاب المقدس أن للأرض أركانًا أربعة: وينصب راية للأمم ويجمع منفني إسرائيل ومشتقي يهوذا من أربعة أطراف الأرض (إشعياء ١١/٢٢) ثبوت الأطراف الأربعة؛ يثبت هندسيًا الزوايا الأربع! (٢)، وبعد هذا رأيت أربعة ملائكة واقفين على أربع زوايا الأرض، ممسكين أربع رياح الأرض لكي لا تهب ريح على الأرض ولا على البحر ولا على شجرة ما. (رؤيا ١/٧) (الفاندايك)

(فيخرج ليضلل الأمم في زوايا الأرض الأربع، جوج ومأجوج، ويجمعهم للقتال، وعددهم كثير جدًا كرمل البحر!) (رؤيا ٨/٢٠) .. كيف تكون الكرة بأطراف أو زوايا؟! وقد شتّع قديس

الكنيسة (يوحنا ذهبي الفم) (٣) في تعليقه على الرسالة إلى العبرانيين ١/٨ على القائلين بكروية الأرض، بقوله: أين هؤلاء الذين يقولون إنّ السماء تدور من حولنا؟ أين هؤلاء الذين يعلنون أنّها كروية؟ Ποῦ τοίνυν εἰσὶν οἱ ἄνθρωποι λέγοντες δινεῖσθαι τὸν οὐρανόν; ποῦ εἰσὶν οἱ σφαιροειδῆ αὐτὸν εἶναι ἀποφαινόμενοι;



Early conception of the universe

١- جاء الحديث في القرآن الكريم عن أطراف الأرض: {أَوَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} (سورة الرعد) {وَيَسْأَلُ الْكُفَّارَ لِمَنْ عَذِّبَ الدَّارَ} (سورة الأنبياء/ ٤٤) .. والسياق هنا قاطع في دلالة على أطراف (حواشي) الأرض التي يمكن فيها أهل الباطل، وأنّها تنقص؛ لاستمرار أهل الكفر في الانحراف عن صراط الحق؛ قال ((الزمخشري)): ((تنقص أرض الكافرين وذاريهم في حواشيه))، أي تنقص أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وذرّتها دار إسلام.)) (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقبائل في وجوه التأويل، ت/ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وفتحى حجازي، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، ١٤٧/٤)، وقال ((سيد قطب)): ((إن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم، فهي تأتي الأمم القوية الغنية . حين تبطل وتكفر وتفسد . فتتقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها؛ وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه، ولا بد له من النفاذ)) (في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ط٣، ٢٠٦٥/٤) .. وقال ((ابن الأعرابي)): الطَّرْفُ والطَّرْفُ الرجل الكريم. قال ((الفيثري)): وعلى هذا فالأطراف الأشراف. (أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، بيروت: دار الكعب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ٣٨٩/٥) .. فإذا قلنا إنّ ((أطراف)) في الآيتين تعني ((حواشي الشيء))؛ يكون المعنى بدلالة السياق: نقصان أرض الكفر، وأما إن فهمت كلمة ((أطراف)) بمعنى ((أشراف الناس))؛ كان المعنى هو : هلاك الأشراف .. فليست هناك صلة سياقية بين ((الأطراف)) وحدود الأرض كشكل هندسي مسطّح له نهايات جانبية!

٢- اختارت الكثير من الترجمات الإنجليزية كلمة ((comers)) ((زوايا)) ك: ((The King James Version)) و ((The English Standard Version)) و ((The American Standard Version)) و ((The Darby Translation)) و ((The Amplified Bible)) وهو نفس ما اختارته الترجمة الفرنسية ((La Bible de Semeur)) باعتبارها كلمة: ((coins)) ...

٣- يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م): رئيس أساقفة القسطنطينية. من أبرز اللاهوتيين النصارى الأوائل. يعتبر من أهم قديسي الكنيسة الأرثوذكسية، كما أنّه من المراجع الكبرى للكنيسة الكاثوليكية. لقب بـ((ذهبي الفم)) لبلاغته في مواعظه وخطبه.

αμφότερα γὰρ ταῦτα ἀνήρηται ἐνταῦθα^(١)) وهذه صورة الكون كما هي متصورة في الكتاب

المقدس، كما وردت في ترجمة *The Revised Standard Version* ^(٢)

جاء التصريح في المقابل بكروية الأرض في القرآن الكريم، ودلت السنة الشريفة على نفس الأمر، وأجمع أهل الإسلام منذ القرون الأولى على هذه الحقيقة؛ يقول ابن تيمية: "ثبت بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة أن الأفلاك مستديرة، قال الله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} (فصلت: ٣٧)، وقال: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (الأنبياء: ٣٣)، وقال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (يس: ٤٠).

قال ابن عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل. وهكذا هو في لسان العرب: الفلك الشيء المستدير، ومنه يقال: تفلك ثدي الجارية إذا استدار، قال تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} (الزمر: ٥)، والتكوير: هو التدوير، ومنه قيل: كار العمامة، وكورها إذا أدارها، ومنه قيل للكرة كرة، وهي الجسم المستدير، ولهذا يقال للأفلاك: كروية الشكل (...). وقال النبي للأعرابي الذي قال: إنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. فقال: ويحك! إن الله لا يُستشفع به على أحد من خلقه، إن شأنه أعظم من ذلك، إن عرشه على سمواته هكذا وقال بيده مثل القبة: وإنه ليضط به أطيح الرجل الجديد براكبه. رواه أبو داود وغيره من حديث جبير بن مطعم عن النبي، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: إذا سألتهم الله الجنة؛ فاسألوه الفردوس؛ فإنها أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن؛ فقد أخبر أن الفردوس هي الأعلى والأوسط، وهذا لا يكون إلا في الصورة المستديرة، فأما المربع ونحوه؛ فليس أوسطه أعلاه، بل هو متساوٍ.^(٣)

وسئل رحمه الله عن رجلين تنازعا في كيفية السماء والأرض هل هما جسمان كريان؟ فقال أحدهما كريان، وأنكر الآخر هذه المقالة وقال: ليس لها أصل وردها فما الصواب؟ فأجاب: السموات مستديرة عند علماء المسلمين، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام: مثل أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي أحد الأعيان الكبار من الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد وله نحو أربعمئة مصنف، وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي، وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين، وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية، وإن كان قد أقيم على ذلك أيضًا دلائل حسابية.^(٤)

٢ - أعمدة السماء

تعتبر الجبال في الكتاب المقدس أعمدة تحمل قبة السماء حتى لا تقع على الأرض كما هو ظاهر في الصورة السابقة التي أوردتها ترجمة *The Revised Standard Version*، وهو نفس الاعتقاد الذي كان شائعًا في الأدبيات المصرية القديمة والأكدية واليونانية^(٥) أهم النصوص الكتابية الدالة على هذا الأمر ما جاء في سفر أيوب

^١ - John Chrysostom, 'Homily xiv on Hebrews,' in Nicene and Post-Nicene Fathers, New York: The Christian Literature Company, 1890, 14/433

^٢ - نقله، أحمد عبد الوهاب، الإسلام والأديان الأخرى، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ص ٢١٣

^٣ - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ١٩٣/٢٥-١٩٤

^٤ - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٥٨٦/٦

^٥ - انظر التفصيل: <http://www.bibleandscience.com/bible/books/genesis/genesis> _pillarsheaven.htm (1/5/2010)

١١/٢٦: من زجره ترتعش أعمدة السماء وترتعد من تفرعه، يقول التعليق على الكتاب المقدس Eerdmans Commentary on the Bible في هذا النص: أعمدة السماء في العدد ١١ هي الجبال التي تحمل السماء.^(١) لا نجد البتة في القرآن الكريم حديثاً عن دور الجبال في إمساك السماء، رغم وفرة الآيات التي تصف الجبال ووظائفها، وإنما نجد في القرآن الكريم نفيًا لوجود أعمدة مادية تمسك السماء: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} (لقمان: ١٠)، لقد جمعت هذه الآية بين حقيقتين تهدمان خرافة الكتاب المقدس:

الأولى: غياب أعمدة من الممكن أن تبصرها العين، تمسك السماء.

الثانية: أنّ وظيفة الجبال هي تثبيت الأرض لا إمساك السماء.

٣ - الأرض الثابتة:

جاء في مزمور ١/٩٣: الرب قد ملك مرتدياً الجلال. متنطقاً بحزام القوة. الأرض تثبتت فلن تتزعزع. وفي مزمور ٥/١٠٤: المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد. وفي أخبار الأيام الأول ٣٠/١٦: ارتعدي أمامه ياكل الأرض، هوذا الأرض قد استقرت ثابتة. قررت النصوص السابقة أنّ الأرض ثابتة لا تتحرك، في حين جاء النص القرآني في إثبات أنّ كلّ شيء يسير في خط متفلك دائري؛ قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (الأنبياء: ٣٣). تثبت هذه الآية أنّ الأرض متحركة غير جامدة من أوجه:

أولاً: الليل والنهار هنا ظرفا زمان، كناية عن ظرف المكان وهو الأرض؛ إذ إنّ الليل والنهار لا يتحركان في خط دائري، وإطلاق الظرف وإرادة المحل والمكان من معهود القرآن الكريم ولغة العرب. ثانياً: جاء الفعل في صيغة الجمع يسبحون؛ بما يؤكد أن متعلّقه جمع؛ وهو: الشمس + القمر + ما دلّ عليها الليل والنهار؛ وهو الأرض.

ثالثاً: استعمال لفظ خلق لا جعل في الحديث عن الليل والنهار رغم أنهما عرض لا جوهر؛ بما يؤكد أنّ المعنى المقصود هو الأرض المتحركة التي يصدق عليها لفظ الخلق.

٤ - الجبال

يقرّر الكتاب المقدس أنّ الأرض قائمة على جبال تحملها من تحتها؛ فقد جاء في ١ صموئيل ٨/٢: ينهض المسكين من التراب، ويرفع البائس من كومة الرماد، ليجلسه مع النبلاء، ويملكه عرش المجد، لأن للرب أساسات الأرض التي أرسى عليها المسكونة. ولما وصف النبي يونس غرقه قال: "قَدْ اكْتَنَفْتَنِي مَيَاةٌ إِلَى النَّفْسِ. أَحَاطَ بِي عَمْرٌ. التَفَّتْ عُشْبُ الْبَحْرِ بِرَأْسِي. نَزَلْتُ إِلَى أَسْفَلِ الْجِبَالِ. مَغَالِيقُ الْأَرْضِ عَلَيَّ إِلَى الْأَبَدِ. ثُمَّ أَصْعَدْتَنِي مِنَ الْوَهْدَةِ حَيَاتِي أَهْيَا الرَّبُّ إِلَهِي" (يونس ٥/٢-٦).. لقد وجد يونس نفسه تحت أسافل قصبيم جمع قاع أسفل قصب^(٢) فالجبال هي مجرّد نتوء على وجه الأرض، وبإمكان المرء أن يرى قاع الجبل من البحر، إذ الأرض قائمة على المياه؛ فقد جاء في مزمور ٦/١٣٦: "الباسط الأرض فوق المياه، لأن رحمته إلى الأبد تدوم. ومزمور ١/٢٤-٢: للرب الأرض وكل ما فيها. له العالم، وجميع الساكنين فيه؛ لأنه هو أسس الأرض على البحار، وثبتها على الأنهار".

^١ James D. G. Dunn and J. W. Rogerson eds. Eerdmans Commentary on the Bible, Michigan: W.B. Eerdmans, 2003, p.348

^٢ عرفها المعجمي ((ويليم جزيوس)) في هذا السياق بـ((نخاعة)) ((أسفل)) ((وأسفل)) William Gesenius, A Hebrew and English Lexicon of (the Old Testament, tr. Edward Robinson, ed. Francis Brown, Oxford: Clarendon Press, 1907, p.891

وقد علّق الناقد Julius A. Bewer^(١) على نصّ يونان ٦/٢ بقوله: "اعتقد اليهود أنّ الأرض مؤسّسة على محيط مائي أسفلها، المزموّر ٢/٢٤، وأنّ نهايات الجبال، أعمدة الأرض، تمتد عمقاً إلى الأسس. انظر مزموّر ١٦/١٨".^(٢)

الجبال في القرآن الكريم ليست أعمدة للسماء، وأنّما هي تمسك الأرض حتى لا تضطرب أو تميد:
 {أَمْ يَجْعَلُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} (النبا: ٦-٧)
 {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (النحل: ١٥).
 {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} (الأنبياء: ٣١).
 {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} (الملك: ١٦).
 وهنا: ١- وصف القرآن الكريم الجبال أنّها مثل الودد، وهو قطعة من الخشب أو الحديد تغرز في الأرض لتشدّ الخيمة، ويكون جزؤها الأكبر مخفياً تحت الأرض.
 ٢- بيّن القرآن الكريم وظيفتها وهي حفظ الأرض من أن تميد.
 ٣- أظهر القرآن الكريم أنّ باطن الأرض يحمل طبيعة مضطربة غير ساكنة.
 يشهد العلم الحديث اليوم على دقّة هذه الأوصاف الثلاثة^(٣) التي لم تعرف إلا منذ بضعة عقود بعد دراسات جادة من العلماء المتخصصين.^(٤)

٥ - السحب الصلبة

جاء في سفر أيوب ٨/٢٦: يصّر المياه في سحبه فلا يتخرق الغيم تحتها.
 جاء في شرح هذا النص في التعليق على الكتاب المقدس Eerdmans Commentary on the Bible: اعتبر السحب هنا كالسقاء (waterskin) الذي يحمل في داخله الماء، وبصورة خارقة لم يتمزّق.^(٥)
 فالسحب عند كاتب هذا السفر تحتزن الماء في داخلها كما تحتزن السقاء المصنوع من جلد الحيوانات الماء، ثم تحمله إلى مسافات بعيدة دون أن يسقط منه شيء، بصورة معجزة .. !
 ويؤكد الخبر اليهودي العَلَمَ راشي هذا المعنى في تعليقه على هذا النص بقوله عن الغيم إنّهُ لا يتمزّق أبداً حتّى ينزل ماؤه جميعاً مع بعض. في مقابل هذا التصوّر البدائي الساذج لطبيعة السحب، يقرر القرآن الكريم أنّ السحب تُنزل الماء مباشرة بعد تكوّنه فيها، في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَاذِبُ سَنًا بَرِّقَهُ يَذْهَبُ

^١ - جوليوس أ. بور: أستاذ الفيلولوجيا الكتابية في (Union Theological Seminary) بنيويورك.

^٢ - Julius A. Bewer, A critical and Exegetical Commentary on Haggai, Zechariah, Malachi and Jonah, A Critical and Exegetical Commentary on Jonah, New York: Charles Scribner, 1912, p.46

^٣ - وظيفة الجبال في حفظ الأرض من أن تميد قال بها العالم الأمريكي (فرنك برس) (Frank Press) الرئيس السابق للأكاديمية الأمريكية للعلوم، في كتابه ((أرض)) (Earth) الذي هو من الكتب المقررة في عدد من جامعات العالم في دراسة الجيولوجيا (انظر: Frank Press, and Raymond Siever, Earth, 3rd ed. San Francisco: W. H. Freeman & Company, 1982، ولم يشع بعد القول بهذا الأمر بين المتخصصين في الجيولوجيا.

^٤ - انظر: Z. R. El-Naggar, the Geological Concept of Mountains in the Qur'an, Cairo: Al-Falah Foundation, 1424/2003، زغلول النجار، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، الأرض، بيروت: دار المعرفة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص ٢٠١-٢١٥

^٥ - James D. G. Dunn and J. W. Rogerson eds. Eerdmans Commentary on the Bible, Michigan: W.B. Eerdmans, 2003, p.348

بِالْأَبْصَارِ} (النور: ٤٣) يكشف استعمال حرف الفاء الذي يدل على التعاقب السريع، أنه ما إن تتراكم السحب وتصبح ذات طبيعة ماطرة حتى ينزل (الودق) أي المطر!^(١).

٦ - نشأة اللغات

يفسّر الكتاب المقدس تعدد لغات البشر، تفسيراً خرافياً بقوله: وَكَانَ أَهْلُ الْأَرْضِ جَمِيعًا يَتَكَلَّمُونَ أَوَّلًا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ وَلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِذْ ارْتَحَلُوا شَرْقًا وَجَدُوا سَهْلًا فِي أَرْضِ شِنْعَارَ فَاسْتَوْطَنُوا هُنَاكَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ((هَيَّا نَصْنَعْ طُوبًا مَشُورِيًّا أَحْسَنَ شَيْءٍ)). فَاسْتَبَدَّلُوا الْحِجَارَةَ بِالطُّوبِ، وَالطِّينَ بِالزَّقِيقِ، ثُمَّ قَالُوا: هَيَّا نُسَيِّدُ لَأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبَرْجًا يَبْلُغُ رَأْسُهُ السَّمَاءَ، فَنُخَلِّدَ لَنَا اسْمًا لِقَلَّا نَتَشَتَّتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كُلِّهَا.)). وَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَشْهَدَ الْمَدِينَةَ وَالْبَرْجَ اللَّذَيْنِ شَرَعَ بَنُو الْبَشَرِ فِي بَنَائِهِمَا، فَقَالَ الرَّبُّ: إِنْ كَانُوا، كَشَعْبٍ وَاحِدٍ يَنْطُقُونَ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، قَدْ عَمِلُوا هَذَا مُنْذُ أَوَّلِ الْأَمْرِ، فَلَنْ يَمْتَنِعَ إِذَا عَلَيْهِمْ أَيُّ شَيْءٍ عَزَمُوا عَلَى فِعْلِهِ. هَيَّا نَنْزِلْ إِلَيْهِمْ وَنُبَلِّلْ لِسَانَهُمْ، حَتَّى لَا يَفْهَمَ بَعْضُهُمْ كَلَامَ بَعْضٍ. وَهَكَذَا شَتَّتَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ كُلِّهَا، فَكَفُّوا عَنِ بِنَاءِ الْمَدِينَةِ، لِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْمَدِينَةُ (بَابِلَ) لِأَنَّ الرَّبَّ بَلَّلَ لِسَانَ أَهْلِ كُلِّ الْأَرْضِ، وَبِالتَّالِيِ شَتَّتَهُمْ مِنْ هُنَاكَ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ كُلِّهَا. (تكوين ١١/٩-١٠)

وهنا:

- تصوّر شنيع لصفات الخالق سبحانه: تظهر هذه القصة الخرافية الإله المعبود في مقام من يخشى أن يبلغ خلقه مرتبته في القوة والسلطان إن اجتمعوا واتحدوا وقويت بيضتهم .. وهذا تصوّر منكر للألوهية قريب مما كان يرد في الأساطير اليونانية والشرقية حيث الحسد والصراع بين الآلهة فيما بينها، أو بين الآلهة والبشر!
- الفهم الخاطئ لمعنى اسم مدينة بابل: كلمة بابل ليست من بابل (בלל) العبرية - التي هي اختزال لكلمة (بلبل) العبرية (בלבל)^(٢) بمعنى بلبل ومزج، وإنما هي تعني باب إل أي (باب الرب)؛ وكما يقول Gerhard Von Rad: "هذا التفسير لكلمة بابل هو بداهة لا معنى له إتيولوجيًا، إنه اختلاق شعبي؛ إذ إنّ بابل تعني (باب الله)^(٣)" ، وقد كان الاسم في الأكادية باب إلو بنفس المعنى السابق، قبل أن يسيء مؤلف سفر التكوين فهمه، أو يزيّف معناه!^(٤)

يقول د. حسن ظا^(٥): وقد اتفق كل الباحثين المحدثين، في أوروبا المسيحية، وفي الأوساط اليهودية المستنيرة، على اعتبار هذه القصة أسطورة شعبية لا تحكي واقعًا تاريخيًا بقدر ما تلمس تعليلًا فنيًا لاختلاف الألسنة واللغات. فالسير جيمس جورج فريزر يفرد لها فصلاً كاملاً في كتابه الكبير الفلكلور في العهد القديم، فيتبع بالنقد والتحليل تطور هذه الأسطورة منذ الوثنيات القديمة، ويقول: إن العلاقة اللغوية بين أمم بابل وبين بلبله الألسن ليست إلا من الخيال الشعبي، إذ إن الثابت علمياً أن كلمة بابل أصلها في اللغة البابلية نفسها (باب - إلو)، ومعناها باب الله، أو باب الآلهة؛ لأنّ بابل كانت مدينة مقدسة، وكان سكان العراق القديم يحجون إلى معبدها الكبير؛ ولأن المعبد البابلي كان يتميز دائماً ببرج ضخم مرتفع مبني في صحنه يسمى زقورة أو زجورة، ظن القدامى من الآراميين واليهود أن هذا البرج شيده الكفار تحدياً لله أو - كما ينقل عنهم فريزر - إنهم اعتقدوا أن بإمكانهم، من هذا البرج، أن يصبّوا السهام والحرايب التي تنطلق نحو السماء فتدمر

^١ - قال الشيخ المفتر (ابن عاشور): ((وأكثر المفسرين على أن الودق هو المطر، وهو الذي اقتضت عليه دواوين اللغة.)) (التحرير والتنوير، ٢٦١/٩)

^٢ - انظر؛ George James Spurrell, Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis, Oxford: Clarendon Press, 1887, p.118

^٣ - Gerhard Von Rad, Genesis: A Commentary, Philadelphia: Westminster John Knox Press, 1972, 3rd edition, p. 150

^٤ - انظر؛ William Ricketts Cooper, An Archaic Dictionary, London : S. Bagster and Sons, 1876 , p.116

^٥ - حسن ظا (1420- 1337هـ ، ١٩١٩- ١٩٩٩م): من أعلام المتخصصين العرب في الدراسات اليهودية. حصل على الماجستير في الأدب العبري والفكر اليهودي من الجامعة العبرية بالقدس في فلسطين، ودكتوراه الدولة من جامعة السربون. له عدد من الكتب والمقالات في اليهودية واللغات ونشأتها.

بملكة الله العليا. وقد حكوا في ذلك خرافات نقلها فريزر عن لويس جنزبرج في كتابه (أساطير اليهود): منها أنهم زعموا أن بعض هذه السهام كان إذا أطلق نحو السماء عاد إلى الأرض مخضباً بالدم. ومنها أن هؤلاء الكفار من سكان بابل كانوا يريدون أن يصل ارتفاع البرج إلى السماء ليضعوا أصنامهم مكان الله. ومنها أن برج بابل عندما تقدم غاص ثلثه في باطن الأرض، واحترق ثلث آخر بالنار، وبقي الثلث الأخير خراباً، ومع ذلك فإن مكانه - كما زعموا - ما يزال محتفظاً بسر المعجزة، فكل من يمر عليه يفقد ذاكرته تماماً وينسى كل شيء يعرفه. ومما لا شك فيه أن كل هذه الأساطير كان يبررها شيء واحد، هو غرابة هذه الصروح المعمارية البابلية الدينية في نظر أولئك البدو من الآراميين والعبريين، فربطوا ذلك بمحاولة تفسير تنوع اللغات الذي كان يبدو لهم غير متفق مع كون الجنس البشري كله يرجع إلى أب واحد وأم واحدة هما آدم وحواء. فإذا ما انتقلنا إلى العالم الإسلامي وجدنا المسألة تأخذ أبعاداً فكرية أكثر اتساعاً^(١)

أمّا القرآن الكريم، فلا يتابع الكتاب المقدس في شيء مما سبق، وإنما يسوق أمر تعدد لغات الناس سوقاً على البشر وإظهار فضل الله عليهم؛ بما ينفي بصورة تامة التفسير التوراتي الساذج؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: ٢٢) .. فتعدد اللغات آية من آيات عظمة الخالق سبحانه وكفى وليس مظهرًا من مظاهر صراع الرب مع البشر (!) وخوفه من اجتماعهم ضده!!

٧ - مراحل خلق الجنين:

جاء في سفر الحكمة^(٢) ٢/٧: وفي مدة عشرة أشهر تكونت في الدم من زرع رجل ومن اللذة التي تصاحب النوم. نقل هذا النص ما قرره الطب اليوناني الأرسطي من أنّ الجنين ينشأ من دم الحيض، وهي النظرية التي هيمنت على الفكر اليهودي والنصراني منذ زمن مبكر وحتى قرون قريبة.

وجاء في سفر أيوب ١٠/٩-١١: اذكر أنك جبلتني من طين، أترجعني بعد إلى التراب؟ ألم تصبني كاللبن وتخترني كالجنين؟ كسوتني جلدًا ولحمًا، فنسجتني بعظام وعصب. ، هذا هو النص المفضل عند آباء الكنيسة لشرح تكون الجنين^(٣) ، وقد لخص الناقد Norman Habel^(٤) معناه بقوله: "شكّل الجنين من الطين، صبّمني كالخليب، ومجدد كالجنين، كسي بالجلد واللحم، وأخيرًا نسج بالعظام والأعصاب."^(٥)

في هذا النص مجموعة أخطاء علمية:

أولاً: يفهم من هذا النص أنّ الجنين يتكون فقط من مني الرجل الذي يُصب في الرحم، وليس لنطفة المرأة دور هاهنا.

ثانيًا: يفهم من هذا النص أنّ الجنين يتكوّن من كامل المنّي الذي يقذفه الرجل.

ثالثًا: يفهم من المعنى الحرفي لهذا الحديث أنّ أول مرحلة من مراحل تكوّن الجنين، هي تحوّل المنّي السائل إلى كتلة جامدة.

وقد علّق الكثير من النقاد على هذا النص بقولهم إنّ المقصود هو أنّ مني الرجل عندما يلتقي بدم الحيض عند المرأة يحوله إلى كيان صلب متخثر، ويشهد على ذلك النص السابق من سفر الحكمة ٢/٧، وهو المعنى الطبي الذي كان سائدًا في البيئة التي كتب فيها هذا السفر؛ ولذلك جاء تعليق ترجمة أورشليم للكتاب المقدس على هذا النص -وقد

^١ - حسن ظاظا، اللسان والإنسان، مدخل إلى معرفة اللغة، دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ص ٤٧-٤٨

^٢ - سفر الحكمة: يؤمن بقداسته النصارى الكاثوليك والنصارى الأرثوذكس

^٣ - انظر هامش: Ante Nicene Fathers, Buffalo: The Christian Literature Publishing Company, 1887, 3/538

^٤ - نورمن هابل (ولد سنة ١٩٦٤م): أستاذ في جامعة جنوب أستراليا، محرر كتاب (The Earth Bible).

^٥ - Norman Habel, The Book of Job: a commentary, Philadelphia: Westminster John Knox Press, 1985, p.119

تَبَيَّنَتْ ترجمة الرهبانية اليسوعية العربية -: كان العلم الطبي القديم يتصوّر تكوّن الجنين كتجمّد دم الأم بتأثير عنصر الزرع (١) (٢).

وقد أكّد ترتليان^(٣) هذا المعنى بقوله في كتابه حول جسد المسيح: Sed materiam seminis ut despumatione mutatum in ,quam constat sanguinis esse t colorem coagulum sanguinis feminae^(٤) أي أنّ الزرع الذي يتكوّن منه الجنين ليس إلّا دماً ولوناً، ويتخثّر هذا الدم بفعل منيّ الرجل.

رابعاً: يفهم من هذا النص أنّ المنيّ المتجمّد أو الدم المتجمّد يتحول إلى الهيئة الأولى للجنين.

خامساً: يفهم من هذا النص أنّ تلك الكتلة تكسي أولاً بالجلد واللحم.

سادساً: يفهم من هذا النص أنّه بعد تكوّن الجلد واللحم (يُنسج) الرضيع بالعظام والأعصاب.

هذا النص في الحقيقة ليس إلّا تكراراً لما قاله أرسطو في كتابه حول ولادة الحيوانات *Περὶ ζῴων γενέσεως*

في المقابل: قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} (الإنسان: ٢) قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} (السجدة: ٨) قال تعالى: {أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِّنْ مَّنِيِّ يَمْنَى} (القيامة: ٣٧) ، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون: ١٢-١٤)، قال رسول الله ﷺ: ما من كل الماء يكون الولد.^(٥)، النصوص السابقة، تخالف منصوص الكتاب المقدس النصراني ومفهومه، وتوافق آخر ما توصّل إليه العلم وثبت بالعين الباصرة:

أولاً: يفهم من هذه النصوص أنّ الجنين يتكوّن من اختلاط مني الرجل بنطفة المرأة، وليس لدم المرأة دور في الولادة، والقرآن والسنة قاطعان هنا في مخالفة التصوّر الأرسطي/التوراتي، وقد قال الإمام ابن حجر: وزعم كثير من أهل التشريح أنّ مني الرجل لا أثر له في الولد إلّا في عقده، وأنّه إنّما يتكوّن من دم الحيض، وأحاديث الباب (أي الموضوع) تُبطل ذلك.^(٦)

ثانياً: يفهم من هذه النصوص أنّ الجنين يتكون من جزء ضئيل من مني الرجل الذي يشارك نطفة المرأة عمليّة التكوين؛ فهو جزء صغير مستخلص سلالة من ماء الرجل.

ثالثاً: يفهم من هذه النصوص أنّ أول مرحلة من مراحل تكوّن الجنين هي اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة، ثم انتقالهما إلى مرحلة العلقّة التي تعني: (١) قطعة الدم المتجمّدة، وهي أيضاً (٢) علقّة لأنّها تعلق في الرحم، كما أنّها (٣) من ناحية الشكل تشبه دودة العلق.

رابعاً: يفهم من هذه النصوص أنّ العلقّة تتحوّل إلى مضغة حيث تتحوّل (العلقّة) إلى ما يشبه قطعة لحم ممضوغ عليها طبقات الأسنان.

^١ - ترجمة الرهبانية اليسوعية، ص ١٠٦٥

^٢ - La Bible de Jerusalem, Éditions du Cerf, 1973, p.664

^٣ - ترتليان: (١٦٠م-٢٢٠م) من أوائل اللاهوتيين النصارى. عرف باهتمامه بالدفاع عن النصرانية والرّد على من اعتبرهم ((هرطقة)). يعتبر أحد المراجع اللاهوتية الكبرى للكنائس التقليدية. يلقبه الكثير من أعلام النصارى الأرثوذكس المصريين بـ((العلامة)).

^٤ - De Came Christi. 19. 3

^٥ - رواه مسلم، كتاب النكاح، باب حكم العزل، ح/١٤٣٨

^٦ - ابن حجر، فتح الباري، ١١/٤٨٠

خامسًا: يفهم من هذه النصوص أنّ العظام تتكوّن قبل اللحم.

سادسًا: يفهم من هذه النصوص من خلال استعمال حرف (الفاء) الذي يفيد التعاقب السريع أنّ المراحل السابقة تتم في أوقات متقاربة. وأنّ مرحلة الانتقال إلى الخلق القريب من مرحلة الوضع تستغرق وقتًا أطول، بدلالة حرف (ثمّ) الذي يفيد الترتيب مع التراخي.

وقد شهد لإعجاز الآيات السابقة العديد من علماء الأجنة من غير المسلمين، ومن أهمهم كيث مور Keith Moore الذي يعد اليوم من أئمة علم الأجنة في الغرب، وهو ليس بمسلم، ويقدم شهادته من منطلق الإقرار العلمي بالبحث، وصرّح بحقيقة الإعجاز القرآني في كتابه الأكاديمي الذي اعتمد كمقرر في جامعات غربيّة تدرّس الطب: (الإنسان المتطوّر = The Developing Human) (١٩٨٨م) حيث قال بعد أن ذكر نظريات تطور الجنين عند الهندوس واليونان وفي التلمود: "لقد كان تطور العلوم التطبيقية بطيئًا في القرون الوسطى، ونحن نعلم القليل عن بعض النقاط الهامة المسجلة حول دراسات علم الأجنة في تلك الفترة. ولقد ذُكر في القرآن (في القرن السابع الميلادي)، كتاب المسلمين المقدس، أنّ الإنسان يخلق من أمشاج إفرازي الذكر والأنثى. وردت عدة إحالات إلى خلق الإنسان من "نطفة". كما قرّرت أن الخلايا الناتجة تستقر في الرحم كالبذرة لستة أيام بعد بداية تشكلها. تمّت الإشارة أيضًا إلى أنّ شكل الجنين في الطور المبكر يشبه العلقه. وبعد ذلك ذكر بأن الجنين يُشبه الشيء المضغوج".

"Growth of science was slow during the medieval period and few high points of embryologic investigation undertaken during this time are known to us. It is cited in the Quran (seventh century AD) the Holy Book of the Muslims that human beings are produced from a mixture of secretions from the male and female. Several references are made to the creation of a human being from a *nutfâ* (small drop). It also states that the resulting organism settles in the womb like a seed 6 days after its beginning. Reference is also made to the leechlike appearance of the early embryo. Later the embryo is said to resemble a "chewed substance" (١).

وكان قد كتب في مقدمة هذا الكتاب (طبعة ١٩٨٢م): "أذهلني دقة التقارير المسجّلة في القرن السابع بعد الميلاد، وذلك قبل تأسيس علم الأجنة. ومع أنني كنت على وعي بتاريخ علماء المسلمين العظماء في القرن العاشر، وبعض ما قدموه لعلم الطب، لم أكن على علم البتة بالحقائق الدينية والمعتقدات الواردة في القرآن والسنة. ومن المهم أن يتعلم الطلبة المسلمون وغيرهم معاني العبارات القرآنية حول تطور نشوء الإنسان، بناءً على المعرفة العلمية المعاصرة."

"I was astonished by the accuracy of the statement that were recorded in the 7th century AD before the science of embryology was established. Although I was aware of the glorious history of Muslim scientists in the 10th century AD and of some of their contributions to medicine, I knew nothing about the religious facts and beliefs contained in the Qur'an and

^١ Keith Moore, The Developing Human: clinically oriented embryology, Philadelphia: Saunders, 1988 p.8

Sunnah. It is important for Islamic and other students to understand the based on meaning of these Qur'anic statements about human development "current scientific knowledge" ^(١).

وصرح في المؤتمر الطبي الذي عقد في (الدمام) سنة ١٩٨١م: إنه لشرف عظيم لي أن أساعد في شرح بعض تقارير القرآن حول تطوّر الخلق البشري. ومن الواضح لدي بأن التقارير القرآنية قد بلغت -قطعا- محمداً من الله؛ وذلك لأن كل تلك العلوم -تقريباً- لم يتم اكتشافها إلا بعد قرون عديدة بعد ذلك. وهذا يثبت لي أنّ محمداً هو قطعاً رسول من الله. وأثناء فترة الأسئلة سئل مور: هل يعني ذلك أنك تؤمن بأن القرآن كلام الله؟ فأجاب: لا أجد إشكالاً في قبول ذلك. ^(٢)

٨ - في الخمر شفاء:

قال بولس في رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٢٣/٥: "لا تشرب الماء فقط بعد الآن. وإنما خذ قليلاً من الخمر مداوياً معدتك وأمراضك التي تعاودك كثيراً، هذا قول لا سند له من علم، فإنّ للخمر أضراراً كثيرة جداً متلفة للبنیان الجسدي للإنسان، فضلاً عما تحدثه في أخلاقه وسلوكه من فساد، سواء أكان الشرب بكميات كبيرة أو صغيرة! ^(٣). وقد جاء النص القرآني في تبشيع الخمر وتقبّحه قبح الميسر وعبادة الأصنام: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (المائدة: ٩٠)، وجاء الحديث النبوي الشريف حاسماً في قوله: إنه ليس بدواء ولكنه داء ^(٤)، وأنّ ما أسكر كثيره؛ فقليله حرام. ^(٥)

٩ - النوم بسبب التهيج النفسي:

جاء في إنجيل لوقا ٤٥/٢٢ في الحديث عن الفترة السابقة مباشرة للقبض على المسيح، وقد كان فيها المسيح وتلاميذه في حالة خوف؛ لأنهم يرقبون محنة قادمة: "ثم قام من الصلاة وجاء إلى التلاميذ، فوجدهم نائمين من الحزن" تعليل إنجيل لوقا للنوم السريع ^(٦) بـ(من الحزن) (απο της λυπης) (أبو تيس لوبيس)، خطأ علمي جلي؛ إذ إنّ الإنسان عند الخوف تفرز عنده غدة الكظر -التي تقع فوق الكلية- هرمون الأدرينالين، مما يحدث عنده حالة تنبّه، لا استرخاء ونوم. ^(٧)، في مقابل ذلك، نجد أنّ القرآن الكريم قد عدّ النوم عند الخوف معجزة؛ لأنّ الأصل عند الخوف هو التنبّه والرعب لا النوم والأمن؛ فجاءت المعجزة بذلك في غزوة بدر خارقة للمألوف، مصادمة للأصل الطبيعي؛ قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} (الأنفال: ٩-١١).

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: "فإسناد الإغشاء أو التغطية إلى الله لأنه الذي قدر أن يناموا في وقت لا ينام في مثله الخائف، ولا يكون عامّاً سائر الجيش، فهو نوم منحهم الله إياه لفائدتهم." ^(٨).

^١ - المصدر السابق، طبعة ١٩٨١م، ص ١٠

^٢ - Muzaffar Iqbal, Science and Islam, p.164

^٣ - انظر الدراسة العلمية الشرعية؛ محمد علي البار، الخمر بين الطب والفقه، جده: الدار السعودية.

^٤ - رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر، ح/ (١٩٨٤)

^٥ - رواه الأربعة، وصححه ابن حبان.

^٦ - ناموا في أقل من ساعة من وصولهم البستان (مرقس ١٤/٣٧)!!

^٧ - Gerard J. Tortora and Sandra Reynolds Grabowski, Principles of Anatomy and Physiology, -

HarperCollins College Publishers, 7th ed, pp.511, 512, 557

^(٨) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٧٨/٥

عاشراً: رمّنتي بدائها وانسلّت.. اقتباسات الكتاب المقدس^(١)

ليس يحسن بالعاقل أن يكتفي بعد هذه الرحلة الطويلة في أغوار شبهات المنصّرين أن ينصرف دون أن يكشف القناع بأكمله عن وجه الحقيقة؛ وحقّ علينا أن نرد سهم الإفك إلى من أرسله طائشاً، ونثبت التهمة ولكن في الأسفار المقدّسة للكنيسة وفي العقائد الثابتة فيها، فاقراً وتأمل .. فقد أشرق الصبح!

أولاً: أثر العقائد القديمة وثقافتها في العهد القديم

بعيداً عن أجواء الفكر الشعبي الذي تروّج له الكنائس العربيّة حيث تتقاذف رجالاً أم الإله يسوع فوق منارات الكنائس، ويخرج المسيح من تحت اللحاف لينير قلب الشابة التائهة، ويدخل من ثقب الباب كمعجزة لهذا القديس أو ذاك. ويطيّر الربّ في لُقّة سريعة عند القدّاس، والناس على الكراسي يتأرجحون فرحاً وهم يبصرونه على شكل حمامة !! بعيداً عن ذلك، تصدر المنصّات العلميّة نغمات تأبها آذان المؤمنين الشعبويين الذين ينتطون فرحاً للخرافات التي (تكوى) بها آذانهم!

لقد استقرّ اليوم في الخطاب العلمي الأكاديمي في الجامعات الغربيّة المهتمة بدراسة النصرانيّة وأسفارها وعقائدها، أنّ العهد القديم يضم بين دفتيه خرافات كثيرة وأساطير عريقة، ويعتبر يوليوس فلهاوزن^(٢) أهم ناقد قضى على ألوهيّة هذه الكتب وألحقها بالقصص الشعبي بعد أن قدّم نظريّته المسماة *The documentary hypothesis*^(٣) والتي اكتسحت الساحة العلميّة في الغرب، مقرّرة أنّ أسفار موسى الخمسة، ليست من تأليف هذا النبي، وإنّما تعود إلى مصادر أربعة:

المصدر اليهودي: كتب سنة ٩٥٠ ق.م في مملكة يهوذا. يستوعب نصف سفر التكوين ونصف سفر الخروج ومقاطع من سفر العدد. سميّ بالمصدر اليهودي لأنّ الربّ يُسمّى فيه يَهُوَه، المصدر الإلهيمي: كتب سنة ٨٥٠ ق.م في شمال مملكة إسرائيل. يستوعب ثلث سفر التكوين ونصف سفر الخروج ومقاطع من سفر العدد. سميّ بالمصدر الإلهيمي لأنّ الربّ يُسمّى فيه إلهيم، المصدر التثنوي: كتب سنة ٦٠٠ ق.م في القدس. يستوعب سفر التثنية. وفيه يسمّى الربّ (يهوه إلّنا) وهو لا يقتصر على سفر التثنية، بل يشمل كذلك سفر يشوع والقضاة والملوك، المصدر الكهنوتي: كتب سنة ٥٠٠ ق.م من طرف الكهنة المارونيّين أثناء السبي البابلي

ثم قام المحررون بدمج هذه المصادر الأربعة في بعضها البعض، لتتشكّل الأسفار الخمسة على صورتها المعروفة اليوم في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، أي بعد قرابة ثمانية قرون من وفاة كاتبها الافتراضي موسى عليه السلام، رغم أنّ نظرية المصادر الأربعة قد لقيت مواجهة عنيفة في بدايتها، وطُرد عدد من المنافحين عنها من وظائفهم في الجامعات، إلّا أنّه مع نهاية القرن التاسع عشر وجدت قبولاً كبيراً من النقاد البروتستانت، والتحقّ بهم النقاد اليهود والكاثوليك — باستثناء المحافظين منهم — في منتصف القرن العشرين.^(٤)

^١ - د. سامي العامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحت عنوان جانبي (نقض شبهة المنصّرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم). ص: ٥٨٧-٦٥٧.

^٢ - كلّ هذه (العجائب) الباردة (!)، شائعة إلى درجة (الإمالة) في الكنائس التقليدية في العالم العربيّ !!

^٣ - يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤م-١٩١٨م): لاهوتي. من أئمة الاستشراق والدراسات الكتابيّة. قدّم نظريّته ل فرضيّة الوثائق في كتابه: مقدمة لتاريخ إسرائيل Prolegomena zur Geschichte Israels، وفي الكتاب السابق له ((تكوين الكتب الستة)) Die Composition des Hexateuch.

^٤ - هو أهم من عرضها بوضوح وترتيب للمصادر، ولم يأت بها من فراغ، وإنما أكمل جهود النقاد السابقين، بترتيبها أساساً. ولعظم دوره فيها، سميت هذه النظرية باسمه (Wellhausen hypothesis).

^٥ - انظر؛ Michael David Coogan, The Old Testament: a very short introduction, New York: Oxford University Press US, 2008, p.16

ويؤكد الناقدان المحافظان Raymond B. Dillard و Tremper Longman أنه حتى النقاد الإنجيليين – على ما فيهم من تعصب – يعترفون اليوم أن الأسفار الخمسة التي تنسب إلى موسى تضم مواد سابقة لموسى وأخرى لاحقة له!^(١)

وقد اعترف الفاتيكان نفسه بهذه الحقيقة في الفقرة (٣٣) من المرسوم البابوي Encyclical Divino Afflante Spiritu^(٢) (١٩٤٣ م) حيث طلب من المفسرين الكاثوليك أن يستفيدوا من المناهج والدراسات الحديثة لمعرفة المصادر المكتوبة أو الشفهية التي لجأ إليها كتاب الأسفار المقدسة^(٣)، وقد أورد الأب اليسوعي الكاثوليكي روبر بنديكي اعترافات صادمة! في كتابه: التراث الإنساني في التراث الكتابي، إشكالية الأساطير الشرقية القديمة في العهد القديم – تغني عن كل حجة من الممكن أن نوردتها، ومنها قوله:

" تتمتع مسألة الاتصالات الثقافية، التي تمت بين تراث الكتاب المقدس ودائرة الثقافات الشرقية القديمة، بأهمية كبرى لفهم العهدين القديم والجديد فهمًا صحيحًا وسليمًا. لقد اكتشف دارسو ثقافات الشرق القديم منذ نيف وقرن أن الثقافات المصرية والسومرية والبابلية الآشورية قد أسهمت إسهامًا هامًا في تكوين آداب العهد القديم، وتشكل بعض مفاهيمه ومقولاته وصياغة بعض تصوراتها. من هذا المنطلق، يُطرح السؤال بإلحاح حول كيفية علاقات تراث الكتاب المقدس وثقافات الشرق القديم. فقد لقي هذا السؤال أجوبة مختلفة. أثبت فريق من الكتاب أن الكتاب المقدس ملق من عناصر ثقافية مقتبسة من الشرق القديم، مما حدا بهم إلى اعتباره "سرقة" و"هتبا" أدبيين. لم يصمد هذا الرأي أمام النقد العلمي الذي بين أصالة الخبرة الروحية التي ولدت تراث العهد القديم وحافظت على هويته الثقافية خلال قرابة ألف سنة: من بزوغ الارهاصات الأولى للتقاليد الشرعية (في عصر موسى: القرن ١٣ ق. م.) إلى صياغة "كتب الشريعة الخمسة" النهائية على يد الفقيه عزرا (أوائل القرن ٤ ق. م.)، وذلك على الرغم من التفنن المدهش في ألوانه الأدبية. ثم وقف فريق آخر من رجال الفكر المسيحي موقف الدفاع عن أصالة "الكتاب الموحى" نافيًا نفيًا قطعياً إمكانية تأثره "بالثقافات الوثنية". يمثل هذان الجوابان موقفين متطرفين، فهما لا يتعاملان مع الوقائع التاريخية تعاملًا موضوعيًا، بل يقفان منها موقفًا مسبقًا يصطبغ بصبغة أيديولوجية أو لاهوتية.

لقد غدا من باب البديهيات أن الكتاب المقدس، في عهده القديم والجديد، تعامل مع محيطه الثقافي فعلاً، وأقام معه علاقات الأخذ والعطاء. وعليه فإن التراث الكتابي جزء لا يتجزأ من التراث الإنساني العام الذي تمثل في الثقافات الشرقية القديمة.^(٤)

" ذكرنا آنفاً أن "الكتب الخمسة" ليست بنت لحظة عمل واحد، بل هي إنتاج تراث ثقافي روحي، مما لم يعد ممكناً أن ننسبه إلى شخصية مبدعة موسى. فقد اكتشف النقد الأدبي، وراء نص الكتب الخمسة، أعمالاً أدبية مختلفة ومؤلفين عدة، بل مجموعات من المؤلفين. ويدلنا النص نفسه على فروع التراث التي انصهرت في هذا العمل الأدبي. ثمة أدلة مختلفة تكشف عن وجود فروع التراث هذه، منها الأسلوب عامة، واستعمال الألفاظ والمصطلحات والأسماء – مثلاً اسم الله ويهو وإبراهيم –، والمفاهيم والمناهج اللاهوتية وما إلى ذلك.^(٥) وقال عن مؤلف النص اليهوي: " تعم

^١ - انظر: Raymond B. Dillard and Tremper Longman, An Introduction to the Old Testament, Michigan: Zondervan, 1994, p.47

^٢ - معنى عنوان المرسوم ((موحى من الروح الإلهية))، وقد أصدره البابا ((بيوس الثاني عشر)) إعلاناً عن مرحلة جديدة من الدراسات الكاثوليكية للكتاب المقدس، يُسمح فيها بالاستفادة الجزئية من المناهج والمعارف الحديثة.

^٣ - avid A. Lysik, ed. The Bible Documents: a parish resource, Chicago: LiturgyTrainingPublications, 2001, p.22

^٤ - روبر بنديكي، التراث الإنساني في التراث الكتابي، إشكالية الأساطير الشرقية القديمة في العهد القديم، بيروت: دار المشرق، ١٩٩٠ م، ط ٢، ص ٦

^٥ - المصدر السابق، ص ١٢-١٣

فكرة الله الأوحد، رب السماء والأرض، فكر اليهوي، إلا أنه لا يستطيع أن يعبر عن هذا المفهوم الراقى لله، ليس هو مفكرًا لاهوتيًا، بل هو قصاص بارع، يستعين بالفن القصصي كي يعبر عن أفكار مجردة، فيصور الله بصورة الإنسان (تك ١٨/١-٣٣)، بل لا يخشى أن يلتجئ إلى الأساطير البابلية في حديثه عن الله (تك ٢٤/٣-٤).^(١)

"اكتشف دارسو العهد القديم، منذ قرن ونيف، أن أسفار هذا العهد تضم نصوصًا شتى تتسم بصفات أساطير الشرق القديم، بل وأكثر من ذلك، فقد استعان مؤلفو روائعها بنصوص أسطورية."^(٢) أما "تاريخ البدايات"^(٣)، فحلًا عن ذلك لا يقبل التاريخ الدقيق ولا يحتوي معلومات موضوعية يمكننا التحقق منها بواسطة أدوات علم التاريخ النقدي. ثم إنه لا يتناسق وأحداث تاريخ الشرق القديم المعروفة، وكذلك لم يكتشف عالم آثاره في بلد من البلدان ... إن هذا المفهوم (لتاريخ البدايات) لم يصمد أمام العلوم النقدية، والتمسك بهذا المفهوم يحملنا على تشويه مغزى (تاريخ البدايات) ومعناه اللاهوتي."^(٤) "وحين دمج التراث "تاريخ البدايات" في تاريخ العهد القديم، أي أدغم هذه القصة الأسطورية في إطار تاريخي وسياق أدبي شامل، جعل من القصة الأسطورية تأملًا لاهوتيًا وقصة فلسفية يتساءل فيها عن معنى التاريخ اللاحق كله."^(٥)

لم تسعف أحدث الدراسات—آخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين—الأسفار الخمسة من محنة نظرية المصادر الأربعة بل زادت رزًا، وزادت فيها النكاي؛ حتى قال الناقد Douglas K. Stuart عند حديثه عن منهج (النقد المصدري = *Source Criticism*) الذي يهتم في الدراسات الكتابية بالكشف عن المصادر التي اعتمدها المؤلف أو المحرر: "يطبق هذا المنهج في الأغلب على الأسفار الخمسة الأولى، وبدرجة أقل على الأسفار التاريخية، وهو يحاول تبين الوثائق المكتوبة المتعددة التي استعملها المحرر الأخير للأسفار الخمسة الأولى مثلًا لإنتاج العمل في تمامه. هذا المنهج النقدي كثيرًا ما ينظر إليه اليوم على أن الأبحاث قد تجاوزته؛ لأن "المصادر" البشرية للعهد القديم هي اليوم أشد تعقيدًا وأعسر على الكشف أو التمييز من بضعة وثائق مكتوبة."^(٦)، وذلك رغم اعترافه أن نظرية الوثائق الأربعة لازالت تلقى قبولًا عند المتخصصين في دراسات العهد القديم!

لقد اتسع الخرق على الراقع!

إن تشتت نصوص الأسفار الخمسة بين مصادر متباعدة، بل ومتشاكسة، متعارضة، قد صار من مسلّمات النقد الحديث، وطويت صفحة نسبة هذه الأسفار كما هي اليوم إلى موسى عليه السلام. ولا شك أن الباحث المسلم يوافق الدراسات الأكاديمية الغربية قولها بتعدد مصادر هذه الكتب لأسباب ذكرها البحث الحديث، وأخرى حررها أئمتنا منذ كتاب الفصل للإمام ابن حزم بتقريرها تحريف هذه الأسفار. والتحريف كاشف عن يد دخيلة امتدت إلى النص زيادة أو حذفًا أو تبديلًا. ولا يعني ذلك أن الباحث المسلم يوافق النقاد الغربيين تفصيلات تقسيمهم للمصادر وتأريخها، فذاك أمر اجتهادي قابل للأخذ والرد عمومًا.

وقد قاد البحث في المصادر الشكلية لهذه الأسفار إلى التفتيش عن المصادر الموضوعية لقصصها وأفكارها؛ وكانت النتيجة كارثية ناسفة لفكرة ربانية هذا النصوص المقدسة في مجملها؛ وفي ذلك يقول كتاب التعليق التاريخي على

^١ - المصدر السابق، ص ١٣

^٢ - المصدر السابق، ص ٢٤

^٣ - ما يرويه سفر التكوين ١-١١

^٤ - المصدر السابق، ص ٢٥

^٥ - المصدر السابق، ص ٢٥-٢٦

^٦ - Douglas K. Stuart, Old Testament Exegesis: a handbook for students and pastors, Kentucky: Westminster John Knox Press, 2001, 3rd edition, p.122

العهد القديم The IVP Bible Background Commentary: Old Testament إنّه: " بالإمكان إظهار العديد من التوافقات بين أساطير الشرق الأدنى القديم ونصوص من العهد القديم ومفاهيم منه.^(١) وتعتبر شهادة مدخل سفر التكوين من الترجمة الفرنسية المسكونية للكتاب المقدس—وقد تبنته أيضاً ترجمة الرهبانية اليسوعية العربية—خير ملخص لما انتهى إليه النقد الأكاديمي الغربي في هذا الشأن: "لم يتردد مؤلفو الكتاب المقدس، وهم يروون بداية العالم والبشرية، أن يستقوا معلوماتهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من تقاليد الشرق الأدنى القديم، ولا سيما من تقاليد ما بين النهرين ومصر والمنطقة الفينيقية الكنعانية. فالاكتشافات الأثرية منذ نحو قرن تدل على وجود كثير من الأمور المشتركة بين الصفحات الأولى من سفر التكوين وبين بعض النصوص الغنائية والحكمية والليتورجية الخاصة بسومر وبابل وطيبة وأوغاريت. ولا عجب في ذلك، عند من يعلم أن البلاد التي أقام فيها إسرائيل كانت منفتحة على المؤثرات الخارجية. وإلى جانب ذلك، كان شعب الله في تاريخه على صلة بمختلف شعوب الشرق الأدنى".^(٢)

وكان قد جاء في مقدمة الترجمة العربية للرهبانية اليسوعية—هذه الترجمة الرائجة بين النصارى العرب، والتي تنتصر للقول إنّ الكتاب المقدس كلمة الله!:" أسفار الكتاب المقدس هي عمل مؤلفين ومحررين عُرفوا بأنهم لسان حال الله في وسط شعبهم. ظل عدد كبير منهم مجهولاً، لكنهم، على كل حال، لم يكونوا منفردين، لأن الشعب كان يساندتهم، ذلك الشعب الذي كانوا يقاسمون الحياة والهموم والآمال، حتى في الأيام التي كانوا يقاومونه فيها. معظم عملهم مستوحى من تقاليد الجماعة. وقبل أن تتخذ كتبهم صيغتها النهائية، انتشرت زمناً طويلاً بين الشعب وهي تحمل آثار ردود فعل القراء، في شكل تنقيحات وتعليقات وحتى في شكل إعادة صيغة بعض النصوص إلى حد مهم أو قليل الأهمية. لا بل أحدثت الأسفار ما هي أحياناً إلا تفسير وتحديث لكتب قديمة."^(٣) ويأتيك الآن التفصيل حتى تتمكني غيمة الشك من سماء المرتاب، ويزداد الذين آمنوا بخرافية كثير من هذه النصوص إيماناً.

قصص وعقائد مقتبسة:

• خلق الكون:

أقر الحبر Julian Morgenstern^(٤) في كتابه تفسير يهودي لسفر التكوين عند تعليقه على قصة الخلق في الفصل الأول من سفر التكوين بما جاء في هذه القصة من أخطاء علمية مكشوفة، وقال بوضوح في ردّ التأويلات البعيدة للأخبار في الهروب من الإشكالات العلمية المطروحة هنا: "من الواضح أنّها لا تعدو أن تكون محاولات فاشلة لتفسير ما هو خطأ تاريخي جلي من طرف المؤلف، وإن كانت دالة على التقوى وتبجيل الكتاب. " it is clear that these are only unsuccessful though pious and reverential attempts to account for what is obviously an anachronism on the part of the author"^(٥)

^١ John H. Walton, Victor Harold Matthews and Mark William Chavalas, The IVP Bible Background Commentary: old testament, IL: InterVasity press, 2000, p.30

^٢—ترجمة الرهبانية اليسوعية، ص ٦٦

^٣—ترجمة الرهبانية اليسوعية، ص ٣٠

^٤—جولين مورنغسترن (١٨٨١م-١٩٧٦): حبر أميكي. أستاذ الكتاب المقدس واللغات السامية، ورئيس كلية الاتحاد العربي.

^٥ Julian Morgenstern, A Jewish Interpretation of the Book of Genesis, Ohio: Union of American Hebrew Congregations, 1920 p.43

وعُتِبَ بعد ذلك بقوله: "من الملاحظ هنا أن طلبة الدراسات الكتابية اليهود كثيراً ما يفاجؤون، بل ويصدمون في البداية عندما تُقدّم لهم فكرة أنّ قصة الخلق هذه، وكذلك قصة الطوفان، وعدد من التقاليد والمعتقدات الكتابية الأخرى إنما استعيرت من الأساطير البابلية وأدبها." ^(١) في إقرار (عجيب) بخرافية هذه القصص ومصدرها الأسطوري!

● الشيطان صاحب السلطان:

نصّ العديد من النقاد على أنّ التصوّر اليهودي للشيطان متشّبع بالتصوّر الجوسي الذي يرى في قوى الشرّ كيئناً متسلطاً على الكون في علاقة تضاد موازية في القوة أو تكاد للإله الذي يمثّل قوّة الخير؛ فليس الشيطان مجرد مخلوق منحرف عن الحق يغوي الناس، وإنّما هو كائن معاند للربّ ومشاكس له. وقد ذهب جمهور النقاد إلى اقتباس اليهود من الجوس عدداً من مفاهيمهم عن الشيطان، ومنهم هيوم ومساني دوشزن-جويلمن ونوس وتساينر ^(٢)، وقد قال الناقد T. K. Cheyne ^(٣) عن الجوسيّة: "معرفة هذه الديانة الأولى ضروريّة للتكوين الكامل للناقد المتخصص في العهد القديم.. لا عذر اليوم لدراسة ديانة العهد القديم دون مقارنتها بالزرادشتيّة." ^(٤)، وهي شهادة معلنة للأثر العميق للمجوسيّة/الزرادشتيّة على أفكار العهد القديم!

● الملائكة أبناء الله:

جاء في تكوين ١/٦-٤: وحدث لما ابتداء الناس يتكاثرون على سطح الأرض وولد لهم بنات، انجذبت أنظار أبناء الله إلى بنات الناس فرأوا أنهن جميلات فاتخذوا لأنفسهم منهن زوجات حسب ما طاب لهم. فقال الرب: (لن يمكث روحي مجاهداً في الإنسان إلى الأبد. هو بشري زائع، لذلك لن تطول أيامه أكثر من مئة وعشرين سنة فقط. وفي تلك الحقب، كان في الأرض جبابرة، وبعد أن دخل أبناء الله على بنات الناس ولدن لهم أبناء، صار هؤلاء الأبناء أنفسهم الجبابرة المشهورين منذ القدم.) "التكوين: ١/٦-٤"

ذهب اليهود في: تفسيراتهم الأقدم، ومخطوطات البحر الميت، والترجمة السبعينية -في قراءة ^(٥) -أنّ أبناء الله أو أبناء الآلهة بني هالوهيم هنا هم الملائكة، وهو ما جاء أيضاً في مؤلفات الكتاب النصاري الأوائل ك (جستين) و(إيرانيوس) و(كلمنت السكندري) و(ترتليان) ... ^(٦)

ومن أهم ما يشهد على هذا التفسير، الكتاب المقدس نفسه، فقد جاء في سفر أيوب ١/٦: في الترجمة العربيّة لترجمة المشتركة -وهي ترجمة اشترك في إعدادها عدد من الطوائف النصرانية-: "وجاء الملائكة يوماً للمثول أمام الرب، وجاء الشيطان أيضاً بينهم." لم يذكر النص العبري الملائكة وإنما ذكر أبناء الله وقد اختارت الترجمة المشتركة ما رأت أنّه دلالة السياق، على حساب المعنى الحرفي، وهو ما يعني أنّ الملائكة في الكتاب المقدس، هم: أبناء الله!

يبدو الاعتقاد أنّ الملائكة هم أبناء الله مشابهاً لما كان عليه عرب الجاهليّة من أنّ الملائكة بنات الله: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُم لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً} [الاسراء: ٤٠]، ويبدو أنّ هذا التصوّر

^١ - المصدر السابق، ص ٤٤

^٢ - انظر؛ Lloyd Applegate, Zoroastrianism and Its Probable Influence on Judaism and Christianity, in Journal of Religion & Psychical Research; Oct2000, Vol. 23 Issue 4, p189

^٣ - توماس كلّي شاين (١٨٤١م-١٩١٥م): ناقد كتابي إنجليزي. درس تفسير الأسفار المقدسة في جامعة أوكسفورد. تميّز بدعوته إلى قراءة العهد القديم في ضوء المعطيات الأدبيّة والتاريخيّة والعلميّة.

^٤ - Rustom Masani, Zoroastrianism: The Religion of the Good Life , p.20 (عن المصدر السابق، ص ١٩٥)

^٥ - القراءة الشائعة هي υιοι του θεου أبناء الله وهناك شواهد على قراءة αγγελιοι του θεου ملائكة الله انظر Archie T. Wright, The Origin of Evil: the reception of Genesis 6.1-4 in early Jewish Literature, Mohr Siebeck, 2005, p.62

^٦ - انظر؛ Gordon J. Wenham, Word Biblical Commentary, Volume 1: Genesis 1-15, Dallas, Texas: Word Books, 1998, CD edition

مأخوذ من الأساطير الكنعانية التي كانت ترى أنَّ الملائكة أبناء الله كما أكَّده الناقد (كلاوس فستمرمان) ^(١) في تعليقه على سفر التكوين. ^(٢)

• صراع الرب مع يعقوب:

ثمَّ قام في تلك الليلة وصحب معه زوجته وجارتيه وأولاده الأحد عشر، وعبر بهم مخاضة يبق، ولما أجازهم وكل ما له عبر الوادي، وبقي وحده، صارعه إنسان حتى مطلع الفجر. وعندما رأى أنه لم يتغلب على يعقوب، ضربه على حق فخذه، فانخلع مفصل فخذ يعقوب في مصارعة معه. وقال له: أطلقني، فقد طلع الفجر. فأجابه يعقوب: لا أطلقك حتى تباركني. فسأله: ما اسمك؟ فأجاب: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل ومعناه: يجاهد مع الله، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. فسأله يعقوب: أخبرني ما اسمك؟ فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. ودعا يعقوب اسم المكان بنيئيل ومعناه: وجه الله إذ قال: لأني شاهدت الله وجهها لوجه وبقيت حيًّا. (تكوين ٣٢/٢٤-٢٩)

كشف العديد من النقاد أنَّ هذه القصة البشعة التي تتحدَّث عن صراع يعقوب النبي مع الله ربَّ العالمين - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - أصلها الأساطير الخرافية القديمة التي تتحدث عن صراع البطل مع الروح الشيطانية التي تحمي النهر، فتظهر ليلاً، وتختفي قبل إشراقة الصبح ^(٣). ^(٤)

• شمشون الجبار:

شمشون بطل شعبي إسرائيلي ورد ذكره في سفر القضاة في العهد القديم. وهو يذكر في سياق استحكام العداوة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وتعتبر قصص شمشون اليوم مادة شائعة للقصص الساذجة التي تروى للأطفال حيث القوة الخارقة، والبطولات الغرّة، وللنقاد في نقاش أصل هذه الشخصية مذاهب متنوعة من أهمها ربط هذه الشخصية بالإله الشمس إذ أنَّ أصل اسم شمشون من شمس أي شمس، وأصل اسم حبيبته دليله في قول -من كلمة ليله أي ليل، ورغم أنَّ الموسوعة اليهودية (*Encyclopedia Judaica*) لم تأخذ بهذا المذهب بإطلاقه إلاَّ أنَّها اعترفت بوجود عناصر أسطورية في القصص البطولية المروية عن شمشون، وذهبت إلى أنَّ أصل القصة هو إفراز فولكلوري، وأنَّ ما ذكر فيها لا يعدو أن يكون من جنس قصص المغامرات الجريئة للبطل الخارق ضد الأجنبي المعتدي. ^(٥)

ومن هذه القصص الشعبية التي لا يمكن أن تربط البتة بالوحي الإلهي وإنما بالخيال الشعبي للأمم القديمة: فانحدر شمشون ووالداه إلى تمّنة حتّى بلغوا كرومها، وإذا بشبل أسد يتحفز مزججراً للانقضاض عليه، فحل عليه روح الرب فقبض على الأسد وشقه إلى نصفين وكأنه جدي صغير، من غير أن يكون معه سلاح. ولم ينبئ والديه بما فعل. (القضاة ١٤/٥-٦) وانطلق شمشون واصطاد ثلاث مئة ثعلب وربط ذيلي كل ثعلبين معا ووضع بينهما مشعلا، ثم أضرم المشاعل بالنار وأطلق الثعالب بين زروع الفلسطينيين، فأحرقت حقول القمح وأكداس الحبوب وأشجار الزيتون. (القضاة ١٥/٤-٥)، وعثر على فك حمار طري، تناوله وقتل به ألف رجل، ثم قال شمشون: «بفك حمار كومت أكداسا فوق أكداس، بفك حمار قضيت على ألف رجل. (القضاة ١٥/١٥-١٦)، وذات يوم ذهب شمشون إلى غرة

^١ - كلاوس فستمرمان (١٩٠٩م-٢٠٠٠م): رُسم قسيسًا. درّس العهد القديم في جامعة هايدلبرغ. يعتبر من أئمة دراسات العهد القديم في القرن العشرين.

^٢ - انظر؛ Claus Westermann, Genesis 1-11: a continental commentary, tr. John J. Scullion, Minneapolis: Fortress Press, 1994, pp.363-383

^٣ - لاحظ: وقال له: أطلقني، فقد طلع الفجر.

^٤ - انظر؛ Eli Yassif, The Hebrew Folktales: history, genre, meaning, tr. Jacqueline S. Teitelbaum, Indianapolis: Indiana University Press, 1999, pp.12-14

^٥ - Encyclopedia Judaica, 17/750

حيث التقى بامرأة عاهرة فدخل إليها. فقبل لأهل غزة: قد جاء شمشون إلى هنا. فحاصروا المنزل وكمنوا له الليل كله عند بوابة المدينة، واعتصموا بالهدوء في أثناء الليل قائلين: عند بزوغ الصباح نقتله. وظل شمشون راقدا حتى منتصف الليل، ثم هب وخلع مصراعي بوابة المدينة بقائمتيها وقفلها، ووضعها على كتفيه وصعد بها إلى قمة الجبل مقابل حبرون. (القضاة ١٦/٣-٣)، وقد كان سر قوة هذا الرجل في خصلات شعره؛ فلما حُلقت؛ ذهبت قوته!! (القضاة ١٦/١٩-٢١)

أسفار مقتبسة من تراث الأمم الأخرى:

● سفر الأمثال:

أثبت العديد من النقاد أن سفر الأمثال ليس نتاج وحي سماوي، وإنما هو انعكاس لحكمة المصريين والكنعانيين: الحكمة المصرية: تتالت الدراسات العلمية الجادة، منذ صدور دراسة الناقد أدولف إرمان، لإثبات أن سفر الأمثال متأثر بتعاليم أمنمؤوب^(١) (١١٠٠ ق.م)، وقد حاول البعض إثبات التأثير العكسي من سفر الأمثال على تعاليم أمنمؤوب، فلم يحالفهم النجاح، لأسباب عديدة، منها أن الدلائل تؤكد سبق هذه التعاليم لكتابة سفر الأمثال. وقد ذهب الناقد Romheld إلى أن أدب الحكمة الإسرائيلية قد استعار من مصر ما أراد، لكن هذا الأدب ذهب مع ذلك إلى وجهته الخاصة التي أرادها.^(٢) ولخص الناقد Dave Bland مذاهب النقاد في قوله: "هناك تقريباً اتفاق إجماعي أن مجموعة الأمثال الواردة في ١٧/٢٢-١١/٢٣ قد تأثرت بصورة ما بعمل الحكيم المصري المعروف بأمنمؤوب.^(٣)"

الحكمة الشامية: دافع عدد من النقاد عن الأثر الكنعاني الفينيقي على سفر الأمثال من ناحية الأسلوب، والألفاظ، والنحو، وكان اعتمادهم أساساً على الأبحاث في التراث الأوغاريتي التي قام بها C. I. K. Story، وقد ذهب الناقد المحافظ ويليام فوكسول ألبرايت إلى أن الأثر الأوغاريتي على سفر الأمثال أعمق من أن يحد في اللغة والأسلوب. ويثبت أن الحكمة المجسدة في الأمثال ٢٢/٨-٣١، وفي الفصل التاسع أيضاً، مأخوذة من الأساطير الكنعانية، ومصدرها الإله الكنعاني حُكمتمو التي هي ابنة الإله الأكبر (إل).^(٤) ووسّع مدخل سفر الأمثال للترجمة الفرنسية المسكونية للكتاب المقدس -وقد تبنته أيضاً ترجمة الرهبانية اليسوعية العربية- مصادر الاقتباس في قوله: "إن سفر الأمثال مجموعة قطع من مختلف المصادر والتواريخ، أو هو بالأحرى مجموعة مجموعات. إنه يعود إلى الفن الأدبي الذي كان مزدهراً منذ زمن طويل في الهلال الخصيب وفي مصر، أي إلى الأدب الحكيم. هناك أكثر من وجه شبه بين سفر الأمثال وما يماثله في النصوص السومرية أو الآشورية البابلية أو الكنعانية أو الحثية أو المصرية، فإن فيها معالجة لمواضيع واحدة بألفاظ واحدة، وفيها أيضاً اقتباسات مباشرة."^(٥)

● سفر الحكمة:

جاء في مدخل سفر الحكمة من الترجمة الفرنسية المسكونية للكتاب المقدس -وقد تبنته أيضاً ترجمة الرهبانية اليسوعية العربية-: "إن واضع سفر الحكمة هو شاعر ومعلم روحي أراد أن يضع مؤلفاً شخصياً طريفاً. ومع أنه يستقي من ينابيع كثيرة، فإنه يجتز من نقلها كما هي، بل يدخلها بفطنة في كتابه. وهكذا يتصرف في استعماله العهد القديم.

^١ - أمنمؤوب (١١٠٠م): حكيم عاش في مصر، في أخميم. حفظت تعاليمه في ثلاثين فصلاً في قالب نصائح أب لابنه كيف يحي حياة صالحة.

^٢ - انظر؛ Roger Norman Whybray, The Book of Proverbs: a survey of modern study, Leiden: BRILL, 1995, p.15

^٣ - Dave Bland, Proverbs, Ecclesiastes and Songs of Songs, Missouri: College Press, 2002, p.19

^٤ - انظر؛ Roger Norman Whybray, The Book of Proverbs: a survey of modern study, pp.17-18

^٥ - ترجمة الرهبانية اليسوعية، ص ١٣١٥

فإن الشواهد المأخوذة من النصوص الكتابية السابقة قليلة عنده، مع أن كتابه تغذيه معرفة وتأمل عميق لهذه النصوص لا سيما التكوين والخروج وإشعيا والأمثال وابن سيراخ التي يبدو أنه طالعها في الترجمة اليونانية السبعينية. ونرى في القسم الأخير أثرًا واضحًا للمدراش، وهو نوع من التفسير اليهودي للنصوص الكتابية، يفسح المجال للتوسيعات الخيالية.

والملاحظة نفسها تصح في الأدب والثقافة الهلنستية. فالكاتب يلجأ بتصرف إلى معارفه في ميادين الشعر والخطابة والعلوم اليونانية، ولا سيما الفلسفة. ويلاحظ القارئ، على سبيل الاستثناء، تكرارًا يكاد يكون حرفيًا لهوميروس أو لأفلاطون ورجوعًا على شيء من الدقة إلى أحد الشروح العلمية أو إلى إحدى النظريات الفلسفية. وتقع أحيانًا على مجرد تلميحات أو ذكريات غير واضحة.

لا عجب أن يكون الكاتب قد استوحى في آن واحد من مؤلفات كتابية سابقة ومن مؤلفات يونانية. فالبعثات الإسكندرية اليهودية تمتاز بهذه الطريقة. إن المواضيع والمعاني الكتابية هي الأساس لكل تفكير لاهوتي، ولكن كثيرًا ما يبحث فيها وترجم ويوسع فيها بالاستعانة بالمعاني اليونانية. لا بد من التذكير بأن الكاتب يتوجه من جهة أولى إلى قراء يهود نسوا أو كادوا ينسون العبرية وتشربوا، على مثال الكاتب، ثقافة هيلنستية، ومن جهة أخرى إلى قراء يونانيين يريد أن يقنعهم بتفوق الحكمة اليهودية. وهو يلجأ، في كل من الحالتين، إلى معاني يونانية ليجعل تراث إسرائيل الخاص في متناول قرائه. فاهتمامه بالتجديد أو بضم العناصر المأخوذة من حضارة أخرى أقل شأنًا عنده من قصده أن يكون، على وجه فعال، شاهدًا أمينًا للتقليد اليهودي. فلا شك أن القارئ يلاحظ نبذ الكاتب لجميع صيغ عبادة الأصنام والفلسفة المادية، أو مقاومته الشديدة للحتمية الفلكية وللأسرار الطقسية، ولا سيما الديونيسية منها.^(١)

إنّ هذا السفر الذي يقّده الكاثوليك والأرثوذكس، قد رتع في أرض الثقافة اليونانية، وغيرها من الثقافات التي لم تستضيئ بنور الوحي، وأخذ منها ما شاء .. وليس بعد الإقرار، فسحة للفرار!

• المزامير:

كان العالم الأمريكي الدكتور جيمس هنري برستد أول من أشار إلى المطابقة بين نشيد إخناتون والمزمور (١٠٤) من أسفار التوراة، ثم قام بعمل مقارنة بين النصين - المصري والعبراني - فخرج من بحثه أو أبحاثه - بأن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب توارد الخواطر بحال من الأحوال وإنما المرجح أن العبرانيين إنما كانوا على علم بأنشودة إخناتون التي وضعها لإله الشمس.

ومن الراجح أن يكون الأصل المصري القديم لأنشودة إخناتون قد انتشر في فلسطين أو فينيقيا قبل ظهور المزامير العبرانية بزم طويل، فقد انتهى إخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) من إخراج أنشودته هذه قبل منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وقد حدث في أنشودة آتون تغيير عظيم، بعد أن ترجمت إلى بعض اللغات السامية من لغات آسيا الغربية، كاللغات الفينيقية أو الآرامية أو العبرية على الأرجح، على أنه بفحص الفقرات المشابهة لها في المزمور (١٠٤) يظهر لنا مدى الشبه بين الصورتين، لا من حيث مضمون أنشودة إخناتون فحسب، بل إننا كذلك، نجد هذا الشبه في تتابع الأفكار، وترتيبها الظاهري، الذي بقي في الرواية الآسيوية العبرية.^(٢)

• نشيد الإنشاد:

^١ - ترجمة الرهبانية اليسوعية، ص ١٣٩٦
^٢ - محمد بيومي مهران، إسرائيل، ٢٩٥/٣ - ٢٩٦، مع تصرف يسير.

طرح النقاد إشكالاً فيما يتعلّق بسفر نشيد الإنشاد، وهو: لماذا قدّس اليهود سفر نشيد الإنشاد إلى درجة اعتباره قدس أقداس الأسفار رغم اللغة الجنسيّة الحارة التي تهيم عليه، وغياب أي ذكر للرب أو لأي معان دينيّة عامة في لفظه! ولقد كانت أهمّ الإجابات هي أنّ هذا النوع من الشعر كان قد اخترق الثقافة اليهوديّة، ووجد له مكاناً في الذهنيّة الجماعيّة الإسرائيليّة، مما يسرّ له أن يعتلي منصّة الخطاب الديني.

وقد رأى الناقد Michael Fox أنّ هذه المنظومة الشعرية موازية لشعر الحب عند المصريين في القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد المتميّز بالطابعين الشخصي والشهواني بين شاب وشابة حيث يستغرق كل منهما في التغزل بالمفاتيح الجسديّة للآخر. وقد انتشر هذا الشعر بصورة واسعة بما يجيز أن يكون هو مصدر هذا النوع من الشعر الغزلي الإسرائيلي في هذا السفر.

وذهب الناقد Samuel Noah Kramer الذي يعد رائد دراسة الثقافة السومرية وأدبها، إلى أنّ مراسم الزواج المقدس في الشرق الأدنى القديم تمثّل خلفيّة سفر نشيد الإنشاد، وبَيّن التشابه بين (إننا) و(تموز) وما جاء في نشيد الإنشاد من حيث اللغة التشبيهيّة والوصفيّة والإطار المكاني.^(١)

تشريعات مقتبسة من تراث الأمم الأخرى:

تقول دائرة المعارف الأمريكيّة: "تحتل شريعة هامورابي التي اكتشفت في سوسا في وقت مبكر من عام ١٩٠٢ م على يد المستكشفين الفرنسيين وتحت إشراف ج. دو مورجان، أهمية خاصة بالنسبة للشريعة التوراتية. فهي مجموعة من القوانين صيغت بأمر من هامورابي، ملك بابل، الذي حكم عام ٢٢٥٠ ق.م تقريباً. ومن المرجح أن أجزاء من هذا القانون تعود إلى فترات سبقت فترة حكم هامورابي. ولقد ظل هذا القانون فيما يبدو معمولاً به من غير أن يلحقه أي تغيير أساسي حتى الفترات المتأخرة من تاريخ بابل وأشور. تظهر المقارنة بين هذا القانون والقوانين التوراتية تشابهات كثيرة للغاية ... التشابهات التفصيلية الكثيرة، متقاربة جداً، وتصل حتى إلى التشابه في الأسلوب. في غالبية حالات التشابه، تتشابه مادة القانونين، لكن التفاصيل تختلف، فالأسفار التوراتية الخمسة تتميز على نحو خاص بقسوة أشد في العقاب. في بعض الأحيان تعطي القوانين التوراتية تعليماً يتناقض تناقضاً مباشراً مع قوانين هامورابي، كما لو كانت الأخيرة في ذهن (المشرع التوراتي). من المهم أن نلاحظ أن جل هذه التشابهات هي مع كتاب العهد في سفر الخروج الذي ينظر إليه بوجه عام باعتباره أقدم تشريع، جنباً إلى جنب مع الوصايا العشر، في الأسفار الخمسة ... تظهر الحقائق بوضوح أنه ثمة صلة بين التشريع التوراتي وشريعة هامورابي."^(٢)

أضافت نفس الموسوعة أنّ المسألة ليست اقتباساً مباشراً حرفياً، وإنما قد دخلت قوانين حمورابي في الثقافة اليهودية عند كتابة الأسفار الخمسة الأولى، فكان الكتاب اليهود يستحضرون هذا النصوص عند صياغتهم للقوانين الواردة في الأسفار، باعتبارها وحياً إلهياً، مع شيء من التعديل.^(٣)

من التشريعات المقتبسة من الأمم الأخرى، التشريع الغريب الوارد في سفر التثنية ١٠-٥/٢٥ الذي ينص على أنّه إذا مات زوج ولم ينجب؛ ينبغي تزويج أرملته بأخيه، وأن يُنسب الولد الذي يكون ثمرة هذا الزواج إلى الأخ المتوفى، وهو ما جاء في الديانة الزرادشتية تحت اسم الأبدال، ومعنى الأبدال أنّ الرجل إذا حان أجله ولم يكن له ولد وكانت له

^١ - انظر؛ Rosemary Radford Ruether, Goddesses and the Divine Feminine: a western religious history, California: University of California Press, 2006, pp.88-89

^٢ - The Encyclopedia Americana, art. Pentateuch, New York: The Americana company, 1904, V.12

^٣ - انظر المصدر السابق

زوجة؛ زوّجت هذه الزوجة إلى أقرب أقاربه، وينسب الولد الذي يولد من هذا الزواج إلى المتوفى صاحب التركة، وينبغي أن يبقى نسل الميت إلى آخر الزمان.^(١)

نصوص مقتبسة من تراث الأمم الأخرى:

جاء في سفر الأمثال ٢١/٢: الرب مطلع على حوافز القلوب. هذه الترجمة التي تقدّمها ترجمة كتاب الحياة محرّفة؛ إذ إنّ النص العبري يقول: (וְתִכֵּן לִבּוֹת יֵהוּ) (وتوكين لبوت يهوه) أي (ويهوه) (أي الله) وازن القلوب)، ولذلك جاءت ترجمة الفاندايك أصدق؛ إذ قالت: (والرب وازن القلوب)، ولعلّ ترجمة كتاب الحياة قد حرّفت النص فராّزا مما شاع أنّ وزن القلوب يوم القيامة هو معتقد مصري فرعوني عريق! والصورة الأثرية التالية توضح الأمر بجلاء حيث يوزن في ساحة الحساب قلب الميت في ميزان على الشمال في مقابل ريشة العدالة اليمين، ويقوم الإله تحوت -إله الحكمة- في أثناء ذلك بتدوين النتائج، فيما يقوم الشيطان الذي يبدو في شكل حيوان بمراقبة كل ذلك.^(٢)



ومن الطرائف في هذا المقام أنّ المنصرّين، وعلى رأسهم تسديل قد ادّعوا أنّ عقيدة وزن الأعمال يوم القيامة كما هي في القرآن، مأخوذة من الديانة المصرية، فهي واردة في الكتاب المصري القديم كتاب الموتى^(٣)، رغم أنّ:

- (١) الخلاف في التفاصيل بارز جدّا بين ما قرّره القرآن الكريم والسنة وبين ما أبدته العقيدة المصرية.
- (٢) لا يوجد أي رافد للحضارة المصرية يصبّ في الجزيرة العربية في القرن السابع ميلادياً.
- (٣) كانت العقيدة المصرية القديمة قد اندثرت تماماً زمن نزول القرآن، وتلاشت معالمها الدينية، وأصبحت لغتها لغزاً لا يفهمه أحد، وفي المقابل نجد أنّ ما جاء في سفر الأمثال:

(١) يطابق بالحرف ما جاء في العقيدة المصرية.

(٢) كتب في زمن كانت فيه العقيدة المصرية حيّة، ولغتها مشتهرة!

فهل بعد الحق إلا الضلال...؟! {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦]

- جاء في سفر ملاخي ٤/٢: أما أنتم أيها المتقون اسمي فتشرق عليكم شمس البر حاملة في أجنحتها الشفاء يقول عالم المصريات James Henry Breasted^(٤) إنّهُ من المعروف أنّ العدالة -فيما يرى المصريون - إنّما كانت ممثلة في شخص الإلهة ماعت التي كان يعتقد القوم أنّها بنت إله الشمس، وبما أنّ شمس العدالة أو البر العبرانية قد وصفت بأنّها أجنحة؛ فلا يمكن أن يكون المراد بذلك الإشارة إلى إله الشمس ذي الأجنحة، لأنّه لم يكن يوجد بين جميع التصورات العبرانية القديمة للإله يهوه، أي صورة تمثّله بأجنحة.

وقد دلّت الحفائر الحديثة في السامرة على أنّ هذه التصورات المصرية لإله الشمس العادل كانت شائعة الانتشار في الحياة الفلسطينية، فقد عثر الحفّارون في خرائب قصر ملوك بني إسرائيل في السامرة على بعض ألواح من العاج

^١ - انظر؛ سهيل زكار، التوراة، ترجمة عربية عمرها أكثر من ألف عام، دمشق: دار قتيبة، ١٤٢٨م-٢٠٠٧هـ، ص ٧٣

^٢ - انظر؛ Bruce K. Waltke, The Book of Proverbs: chapters 1-15, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 2004 p.31

^٣ - انظر؛ St. Tisdall, The Original Sources of the Qur'an, p. 202-205

^٤ - جيمس هنري بريستد (١٨٦٥-١٩٣٥م): أركيولوجي أمريكي. من أعلام الدارسين للحضارة المصرية القديمة. وقد درّس المصريات في جامعة شيكاغو.

منقوشة نقشًا بارزًا كانت تستعمل يومًا ما في التطعيم الزخرفي الذي كان يحلّى به أثاث الملوك العبرانيين، ومن بين تلك القطع قطعة نقشت عليها صورة إلهة العدالة ماعت يحملها إلى أعلى ملاك الشمس هليوبوليس في وضع نفهم منه أنّه كان على ما يظهر يقدم تلك الصورة لإله الشمس، وتصميم الرسم مصري في كل نواحيه، إلا إنّ صناعته تدلّ بوضوح على أنّ نقشه من صنع أياد فلسطينيّة.

ومن ذلك يتضح أن الصّناع العبرانيين كانوا على علم ومعرفة بمثل تلك الرسوم المصريّة القديمة، وأنّ وجهاء العبرانيين الذين كانوا يجلسون عليها، كانوا ينظرون كل يوم إلى هذه الرموز التصويرية الدالة على إله الشمس المصري وهي ترتّب نفس الكراسي التي يجلسون عليها، ولم يكن إله الشمس صاحب الأجنحة المتأصلة في وادي النيل معروفًا عند العبرانيين بأنه إله عدالة فقط، بل كان كذلك معروفًا بأنه الإله الحامي لعباده، الرؤوف بهم، وقد أشارت المزامير العبرانية أربع مرات إلى الحماية الموجودة تحت ظل أجنحتك^{(١) (٢)}

كائنات أسطوريّة مقتبسة من تراث الأمم الأخرى^(٣)

لعالم الرعب الخرافي حضور واضح في الكتاب المقدس وفي التراث اليهودي، وقد ورثت النصرانيّة من اليهوديّة كتابها المقدس، وكثيرًا من تراثها، وأضافت إلى ذلك شيئًا من خرافات اليونان والرومان، فاكتمل بذلك مسرح الخيال!

○ الغول:

في إشعياء ٢١/١٣، وجمهور النقاد اليوم على القول إنّ هذا النص يتحدث عن كائن شيطاني مخيف كالذي تحدث عنه اليهود وجيروم^(٤)، قد جاء النص في ترجمة الأخبار السارة صريحًا، واضحًا: تتلاقى الوحوش وبنات آوى ويتنادى معز الوحش إليها. هناك تستقر الغول وتجد لنفسها مقامًا، وفي إشعياء ١٤/٣٤، يذكر هذا النص الغول ومعه كائن خرافي آخر هو ليليت .. هذا الكائن - بهذا الاسم - معروف في وثائق الحضارات القديمة، مثل النصوص السومرية التي تذكره - منذ القرن الثالث قبل الميلاد - على أنه ليليتو، ومن هذه الوثائق ما ورد عن ملحمة جلجامش السومرية، وهو في قائمة الشياطين البابليّة. وقد تسلسل إلى التراث اليهودي بعد ذلك، هذا الاسم هو من الجذر السامي: ل-ي-ل، أي ليل. ولذلك ارتبط هذا الكائن الخرافي بالليل والخوف والرعب. وأبرز سماته إغواء الرجال وقتل الأطفال الصغار^(٥).

○ الحيّة لويثان

في إشعياء ١/٢٧: في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم المتين لويثان الحيّة الهاربة المتلوية، ويقتل التنين الذي في البحر، وفي أيوب ٨/٣: ليلعنه السحرة الحاذقون في إيقاظ التنين، ونص المزمور ١٤/٧٤ يكشف إحدى المعالم الكبرى لهذا الكائن الخرافي عند السومريين، وهو أنه تنين برؤوس متعددة!

وقد كشف المعجم اللاهوتي للعهد القديم، الشهير *Theological Dictionary of the Old Testament* جانب الاقتباس الذي مارسه اليهود من الحضارة الكنعانيّة القديمة وخرافاتها، بقوله: بإمكاننا أن نقول تلخيصًا لما سبق أنّ لويثان جزء من فكرة خرافيّة هدفها الأصلي تمجيد رب إسرائيل المحارب. ورغم أنّ العلاقة بين الحيّة

^١ - (בצל כנפי) (بتسلي كافيكا): مزمور ١٧/٨، ٣٦/٧، ٥٧/١، ٦٣/٧.

^٢ - James Henry Breasted, *The Dawn of Conscience*, pp. 360, 361 (نقله: محمد بيومي مهران، إسرائيل ٣/ ٣١٤)

^٣ - استفتت في هذا الموضوع من بحث الأستاذ محمد رفاعي: (علم الميثولوجيا يثبت تحريف الكتاب)، في حصره للكائنات الخرافيّة في الكتاب المقدس، وإن كنت قد أحلت إلى مراجع علميّة أخرى عند التحليل والتعليق على هذه النصوص.

^٤ - انظر المصدر السابق

^٥ - انظر؛ Encyclopedia Judaica, 13/17-19

السومرية ذات الرؤوس السبعة ولويثان الكنعاني تبقى غير مؤكدة، إلا أن الشواهد الواضحة قائمة على إثبات العلاقة القريبة بين لويثان الكتاب المقدس ولويثان الكنعاني الذي ورد في النصوص الكنعانية. وهما ينبعان من أصل واحد.^(١) أما الموسوعة اليهودية *Encyclopedia Judaica* فتقول إن لويثان في الكتاب المقدس في صوره المختلفة: يمثل أعداء الله الخارقين (supernatural). هذه العداوة تعكس مباشرة خرافة شائعة في المصادر ما قبل الكتابية حول صراع بين الخالق الإلهي وقوى البحر، منذ بداية العالم.^(٢)

قصد الكتاب المقدس أيضًا بالتنين واللويثان الإشارة إلى الحيوانات التي قيل إنها ثارت ضد الخالق في الزمن القديم، وقد دمرها الخالق عند ذلك (مزمو ١٣/٧٤ - ١٤، انظر؛ إشعياء ١٠/٥١، أيوب ٨/٣، ١٢/٧) مثل الأساطير الأوغاريتية التي تمت الإشارة إليها سابقًا.^(٣)

○ الثعبان الطائر:

وفي إشعياء ٢٩/١٤: تفرحي يا كل فلسطين، لأن القضيب الذي ضربك قد انكسر. فإن من أصل تلك الأفعى يخرج أفعوان، وذريته تكون ثعبانًا سامًا طيارًا، يثبت النص وجود نوع من الثعابين يطير في الهواء!! وقد دقق الناقد Otto Kaiser^(٤) في ترجمته مختارًا عبارة تنين طائر flying dragon كمقابل للأصل العبري.^(٥)

ثانيا: أثر العقائد القديمة وثقافتها في العهد الجديد وعقائد الكنيسة

شغل أمر التشابهات الماثلة بين النصرانية والأديان القديمة، الشرقية منها أساسًا، النقاد في القرن التاسع عشر. وقد أفرز هذا الكشف -مع غياب ذكر المسيح في المصادر التاريخية المحايدة للقرن الأول ميلادي-، ظهور تيار علمي ينكر وجود مسيح الكنيسة ابتداءً، ولا يرى فيه إلا خرافة مختلقة لم تدب على الأرض يومًا. ورغم أن هذا التيار الرافض لتاريخية المسيح قد تقلص حجمه، وأصبح الحديث عن يسوع الخرافة فكرة قد قلّ دعائها وأتباعها، إلا أننا اليوم نعرف نظرية أخرى يتبنّاها جلّ النقاد وأعلامهم، وهي التمييز بين يسوع التاريخي The Jesus of History ويسوع الإيمان The Jesus of Faith.^(٦)

ولازالت التوافقات بين نصوص العهد الجديد وعقائد الكنيسة من جهة والأديان القديمة من جهة أخرى، تمثل رافدًا لهذا التوجّه الفكري الذي ينزع عن يسوع الإنجيل والكنيسة أصوله التاريخية الكبرى. إن نفي الملامح التاريخية الكبرى ليسوع الأنجيل والكنيسة يعني صراحة نسبة عامة ما نسب إلى المسيح إلى الاختلاق. وإن وضع الصورة الدينية للمسيح في إطارها التاريخي في فلسطين في بداية القرن الأول؛ قد كشف عن روافد خرافية وخلفيات اعتقادية وتصوّرات فلسفية ضاربة في أرض تلك البيئة التي أفرزت الشكل اللاهوتي ليسوع. وإن المكتبة الغربية التي تعجّ بالدراسات الخاصة بالمسيح وصورته، تعاني اليوم تيارين متطرفين، وبينهما مذهب وسط قد حكّم الحجة واعترى إلى البرهان التاريخي باعتدال.

^١ - G. Johannes Botterweck, Helmer Ringgren, and Heinz-Josef Fabry, eds. Theological Dictionary of the Old Testament, Michigan: William B. Eerdmans Publishing, 1995, 7/509

^٢ - Encyclopedia Judaica, 12/696

^٣ - المصدر السابق، ٦٩٧/١٢

^٤ - أوتو كايزر (ولد سنة ١٩٢٤م): ناقد كتابي ألماني متخصص في دراسات العهد القديم والفلسفة المعاصرة. رأس دراسات العهد القديم في جامعة (ماربورغ). أصدر عددًا من المؤلفات الضخمة في لاهوت العهد القديم وشروح أسفار.

^٥ - انظر؛ Otto Kaiser, Isaiah 13-39: a commentary, Presbyterian Publishing Corp, 1974, p.49

^٦ - انظر ما قالته ((ندوة يسوع)) في هذه المسألة؛ Robert Funk, Roy Hoover and The Jesus Seminar, The Five Gospels, what did Jesus really say?, New York: HarperSanFrancisco, 1997, pp.5-8

أما الطرف الأول فهو الذي لا يرى في المسيح إلّا تكراراً حرفياً للأديان الوثنيّة السابقة، كالبوديّة والهندوسيّة والمثرائيّة.. فكلّ ما نسبته الأنجيل والكنيسة إلى المسيح، ليس إلّا نقلاً حرفياً من كل الأساطير بصورة متطابقة تطابقاً مسطريّاً، وهذا المذهب يتبنّاه اليوم غلاة الملاحدة، وعامتهم غير متخصصين في تاريخ الأديان، وعدد من هذه التوافقات غير صحيحة أصلاً؛ فهي إمّا مفتراة أو محوّرة لتشابه ما ورد عن المسيح في الأنجيل ودين الكنيسة. وقد أساء هؤلاء إلى كتبهم من وجهين؛ الوجه الأول: تشويههم كتاباتهم المشحونة بالأدلة القويّة والحاسمة لأثر العقائد الوثنيّة والأفكار الفلسفيّة، بزيادات لا دليل عليها، الوجه الثاني: استنباط عدد غير قليل من هؤلاء الكتاب من هذا التطابق أنّ كامل قصّة المسيح لا تخرج عن أن تكون قصّة أسطوريّة مفتراة، وأنّ المسيح ابن مريم ليس إلّا أسطورة محضّة لم تعرفها الأرض على الحقيقة!

ويغلو الطرف الثاني الذي يمثّله الكتاب الدفاعيون النصارى في نفي حقيقة اقتباس النصرانيّة من الأديان والعقائد والفلسفات القديمة. وآفة دعواهم هي استغلال مبالغات السابقين لنفي كلّ التفاصيل التي ذكروها، كما أنّهم دوغمائيين إلى درجة مرّضيّة تشعر معها أنّهم لا يبالون بامتهان عقول القراء؛ إذ يتكلّفون في تقديم تفسيرات ساذجة لخرافات فضيحة في الأنجيل، حتّى لو كانت البداهة العقليّة والمنطق العلمي يجزمان ببطلانها. كلّ ذلك مع النفخ العاطفي في أصالة الأنجيل باعتماد المنهج السفسطي الذي تبنّته Clive Staples Lewis^(١) و John Warwick Montgomery^(٢) و Josh McDowell^(٣)، وقد أسلم اليوم قياده Gary Habermas^(٤). وهو منهج يعيش خارج أسوار الدراسات العلميّة الجادة، ويقتات على ما يطلبه سوق المؤمنین بعصمة الأنجيل والكنيسة ولذلك فعمامة إصداراته تجاريّة بحتة، وإنّ قعقت الحروف وطنظت.

إنّ القراءة الواعية لجيولوجيّة العهد الجديد والتكوين اللاهوتي للتصور المسيحاني ليكشفان وجود طبقات من العقائد الوثنيّة والبنى الفلسفيّة المستوردة من عطاءات زمن كتابة الأسفار وتأسيس الكنيسة الأرثوذكسيّة. وهذا أمر لا يمكن لقارئ منصف أن يردّه، دون أن نبالغ فنقول ليس في النصرانيّة شيء أصيل، وإنّ جميع مفرداتها من المنحول الدخيل! وهذا هو عين الاعتدال. أمّا أدلّتنا على تشبّع النصرانيّة بأفكار السابقين وخرافاتهم، فكثيرة، متنوّعة.. فدعونا نبدأ الحديث من (أوله) دون إسقاط، ولا إفراط، ولا إجحاف.

١ - آباء الكنيسة يعترفون!

لقد كان أمر الاقتباس معروفاً عند الآباء، مشهوراً عند معارضيههم، وليس هو من محدثات القرن التاسع عشر—كما هي دعوى اعتذاربي الكنيسة—ولا نتاج ثورة المعارف الأنثروبولوجيّة وكشوف الحضارات القديمة. وهو يتكشف من خلال دفاع آباء الكنيسة عن النصرانيّة باعتبارها لم تأت بجديد، وإنما هي تدعو إلى نفس جوهر عقائد الوثنيين!

^١ - كليف ستيوار لويس (١٨٩٨م-١٩٦٣م): أديب أيرلندي شهير. اعتبرت مجلة (Christianity Today) سنة ٢٠٠٠ كتابه ((Mere Christianity)) أهم كتاب في القرن العشرين. اشتهر بحجته (الساذجة) لإثبات ألوهية المسيح والتي أصبحت تسمى ((Lewis's Trilemma))، وهي أن يقول المنصّر إلى من يدعو إلى الإيمان بألوهية المسيح: عليك أن تؤمن بأن المسيح هو: مجنون أو كاذب أو ابن الله!!! دون أن يطرح احتمال أن يكون المسيح قد قال عن نفسه إنه نبي، أو أنّ الأنجيل لم تنقل كلامه بصورة دقيقة أو أمانة!

^٢ - جون وارويك مونتغمري (ولد سنة ١٩٣١م): متخصص في القانون. كاتب ومحاضر ومناظر في الدفاع عن النصرانيّة. مدير الأكاديميّة العلميّة للدفاعيات.
^٣ - جوش ماك دويل (ولد سنة ١٩٣٩م): من أشهر الاعتذاريين (الشعبيين)، يعتمد في كتيبه أسلوباً تبسيطياً يجمع بين التدليس والمبالغة بما يرضي رغبات (عوام المتدينين النصارى) الذين لا تستهويهم الدراسات الأكاديميّة الجادة. تُعرض مادة كتيبه اليوم بصورة مكثّفة في كتابات المنصّرين العرب، ومن أهمها كتابات القمص (عبد المسيح بسيط).

^٤ - غاري هيرماس (ولد سنة ١٩٥٠م): اعتذاربي إنجيلي. مهتم بالفلسفة واللاهوت. له عناية خاصة بالدفاع عن تاريخيّة قيامة المسيح من الموت ونفي نسبتها إلى التراث الوثني القديم.

لقد بلغ يقين الآباء بالتشابه بين قصّة المسيح التي تقدمها الأناجيل والكنيسة، وقصّة إله اليونان ديونيسوس ومثرا وغيرهما إلى أن يقول أحدهم -وهو جستين المولود في بداية القرن الثاني- إنّ الشياطين لما علمت نبوءات العهد القديم حول المسيح؛ أرسلت باخوس قبله ليخدع الناس بما بينهما من تشابه!! وذكر جستين بعد ذلك تشابهات كثيرة محاولاً من خلالها إقناع الإمبراطور أنّ النصراني لم يأتوا بشيء جديد لم يعرفه الرومان.^(١)

كان جستين على درجة عظيمة من الوضوح في إقراره، بل وحامسه للتشابه الغريب بين النصرانية والعقائد الوثنية للقرن الأوّل الميلادي، إلى درجة أنه قال في معرض رد الاعتراضات التي تساق لإثبات نكارة العقيدة النصرانية: "عندما نقول إنّ الكلمة التي هي المولود الأوّل لله، قد نتجت عن غير تواصل جنسي، وأنّ يسوع المسيح، معلّمنا، قد صلب ومات، وقام مرّة أخرى، وصعد إلى السماء؛ فإننا لا نعرض شيئاً مختلفاً عما تؤمنون به في شأن من تعتقدون أنهم أبناء جوبيتر."^(٢)

ويزيدنا النقاد قناعة بالحقيقة السابقة؛ بقولهم: "وبعد ذلك بمائة عام تقريباً، منح لاهوتي نصراني آخر جل اهتمامه للمسألة ذاتها. أجاب أريجن القيصري الذي هو على الأرجح أكثر لاهوتي عصره ثقافة، عن نقد وُجّه إلى المسيحيين كتبه فيلسوف يوناني آخر مجهول يسمى كلزوس (اشتهر حوالي عام ١٨٠ م). تنفيذ أريجن لكلامه كلمة كلمة يجعلنا قادرين على تشكيل فكرة جيّدة عن محتوى حجج كلزوس. واحدة من اتهاماته الرئيسة هي التالية بتصرف بسيط: "إن كنتم أيها المسيحيون تؤمنون بصحة قصص معجزات يسوع، إذا كنتم تؤمنون بميلاد المسيح الإعجازي، إذا كنتم تؤمنون بقصة قيامة المسيح من الأموات وصعوده إلى السماء، وما أشبه ذلك؛ فلماذا ترفضون الإيمان بالقصص ذاتها عندما يقال لكم إن فاعليها هم الآلهة المخلصون الآخرون: هيراكليز، أسكليبيوس، والتوأمان ابنا زيوس، وديونيسوس، وعشرات مثلهم آخرين يمكنني تسميتهم؟!"^(٣)

٢ - أعداء النصرانية الأوائل يشهدون!

عايش عدد من الكتّاب في الإمبراطورية الرومانية ظهور أسفار العهد الجديد وتشكّل لاهوت الكنيسة، وقد وجدوا أنفسهم في مواجهة مع دعاة النصرانية كما شكّلها بولس فكانت بينهما مساجلات كتابيّة وشفهيّة كثيرة على مدى القرون الأولى، قبل أن تُبید الكنيسة معارضيها عن بكرة أبيهم عندما تمّ لها التمكين في الأرض، تكشف هذه المساجلات -المحفوظة أساساً في ردود كتّاب الكنيسة عليها بعد أن أعدمت أصولها- أنّ الكنيسة كانت متهمه من مخالفها، وخاصة الوثنيين منهم، أنّها ليست دعوة جديدة في مضمونها، وإنّما هي صياغة جديدة للعقائد الوثنية الموجودة.

ولا ريب أنّ هذه التهمة غريبة على السمع لأنّ الأصل أن نقرأ أنّ الكتّاب الوثنيين قد اتهموا النصراني أنهم قد أتوا بدين جديد يسفّه أحلامهم ويخالف ما استقرّ عليه الأجداد من معتقد وإنّ في تهمة مماثلة النصرانية للموجود من عقائد الوثنيين دلالة قويّة على صدق هؤلاء الكتّاب، بالإضافة إلى شهادة الواقع لصحة قولهم. وننقل هنا أشهر أقوالهم الصريحة:

^١ - انظر؛ Justin, 'The First Apology,' in Ante-Nicene Fathers, New York: Charles Scribner's Sons, 1903, 1/181-234

^٢ - المصدر السابق، ١٦٩/١-١٧٠

^٣ - David R. Cartlidge and David L. Dungan, eds. Documents for the Study of the Gospels, Minneapolis: Fortress Press, 1994, 2nd edition, p.9

- قال (فاوستس = Faustus)^(١) في ما كتبه إلى قديس الكنيسة أوغسطين: "لقد وضعتم أغايي^(٢) مكان قرابين الوثنيين، ومكان أوثانهم وضعتم شهداءكم الذين تعاملوهم بنفس تبجيل الوثنيين لأوثانهم. أنتم تسكنون ظلال الموتى بالخمر والولائم، أنتم تحتفلون بالأعياد المقدسة للأُميين، وتقوِّمهم، والانقلاب الشمسي الموسمي، كما حافظتم على أساليبهم دون تغيير. لا يوجد شيء يميِّزكم عن الوثنيين، باستثناء أنكم تحفظون مجامعكم بعيداً عنهم."^(٣)
- قال الفيلسوف (أمونيوس ساكوس = Ammonius Saccus)^(٤): "إذا فهمنا جيداً المسيحية والوثنية أهما لا يختلفان عن بعضهما البعض في النقاط الأساسية، وإنما يشتركان في الأصل الواحد، وهما حقيقة واحدة وشيء واحد."^(٥)
- قال الفيلسوف اليوناني كلزوس^(٦) إنّ النصرانية لا تضمّ غير ما اشترك فيه النصارى مع الوثنيين؛ فلا جديداً!^(٧)

٣- مِمَّا ثَلَّاتِ واقتباسات:

أ- عقائد الوثنيين وقصصهم

تأليه المخلوق:

رغم وجود صلة شكلية مباشرة بين النصرانية واليهودية متمثلة في مشاركة النصارى اليهود إيمانهم بأسفارهم المقدسة وأنبيائهم، إلّا أنّ العقيدة النصرانية قائمة في حقيقتها على تشرب عقائد الأمم الشرقية والتنكر لأصول عقديّة كثيرة استقرت في الذهنيّة الإيمانية اليهوديّة؛ وأهمّها قبول فكرة تأله البشر في صياغة حلوليّة تمزج اللاهوت الإلهي بالانسانوت البشري.

وهذا قديس الكنيسة جستين يقول في معرض دفاعه عن النصرانية أمام الإمبراطور، إنّ الوثنيين ينبغي ألا يسخروا من المسيحيين لعبادتهم اللوغوس الذي كان (عند الله، وكان الله) وذلك لأنهم ارتكبوا الفعل ذاته. يقول جوستين: "إذا كنّا نحن المسيحيين ننادي ببعض الآراء التي تشبه آراء الشعراء والفلاسفة الذين تمجّدوهم ... فلماذا نبغض بغير حق أكثر من الآخرين؟" "ألا تدري كم من الأبناء نسب كتابكم إلى جوبتر: مركوري، الكلمة ومعلم الكل ... " وفيما يتعلق بابن الله، الذي نسميه يسوع، فإنّه وإن كان إنساناً من ناحية ولادته، فإنّه يستحق أن يدعى ابن الله بسبب حكمته؛ لأنّ كلّ الكتاب ينادون الله بأنّه أبو الإنس والآلهة. وإذا جزمنا أنّ كلمة الله قد ولدت من الله بطريق خاص، مختلف عن السبيل المألوف للتناسل، فليكن هذا الأمر، كما سبق ذكره، غير منكر بالنسبة لك باعتبارك تقول إنّ مركوري هو الكلمة الملائكية لله."^(٨)

^١ - فاوستس (٣٥٠-٤٠٠م): أسقف من الجزائر، مانوي المذهب. كان قديس الكنيسة ((أوغسطين)) قد التقاه -عندما كان هو أيضاً مانويًا- لسؤاله عن بعض الأمور التي استعصت على فهمه، غير أنّه بعد خروج ((أوغسطين)) من المانوية ألّف في الرد عليه كتابه ((ضد فاوستس)) ((Contra Faustum)).

^٢ - استعمل النصارى في القرون الأولى كلمة ((أغايي)) ((αγαίη)) التي تعني ((حب)) للدلالة على حبّ الإله الأب للخلق حتّى إنه قد أرسل ابنه الوحيد ليموت فداءً عنهم!

^٣ - Thomas William Doane, Bible Myths and their Parallels in Other Religions, New York: J. W. Bouton, 1884, 3rd edition, p.411

^٤ - أمونيوس ساكوس Ἀμμώνιος Σακκάς (القرن الثالث): مؤسس الأفلاطونية الجديدة.

^٥ - المصدر السابق

^٦ - كلزوس Κέλσος (القرن الثاني): فيلسوف يوناني ألّف كتابه ((كلمة حق)) ((Λόγος Ἀληθής)) في الرد على النصرانية. وقد حفظت لنا أجزاء من هذا الكتاب من خلال رد ((أريجن)) عليه في كتابه ((Contra Celsum)). يبدو أنّ هذا الكتاب قد ألّف في العقد السادس أو السابع من القرن الثاني.

^٧ - المصدر السابق

^٨ - Justin the Martyr, 'The First Apology,' in The Ante-Nicene Fathers, New York: Charles Scribner's Sons, 1903, 1/169

لقد كانت عقيدة تأليه المخلوقين شائعة ومستشرية في الأمم القديمة، بل وكان أباطرة روما أنفسهم كثيرًا ما يُؤلهون في حياتهم وبعد موتهم.

ويلخص لنا الناقدان ديفيد ر. كارتليدج^(١) وديفيد ل. دونجن^(٢) واقع البيئة التي ظهر فيها عيسى عليه السلام بقولهما: "عندما خرجت المسيحية إلى الوجود في عالم البحر المتوسط القديم، كان هناك بالفعل الكثير من الآلهة في السماء والكثير منها على الأرض، متبوّئين سدة العروش، والهيكل، والأضرحة المقدسة، والمزارات المقدسة. وكان الإنسان العادي، رجلًا وامرأة، في ذلك الوقت قد تعلّم أن يكون متسامحًا مع هذه التخمّة في عدد الآلهة، فلكل واحد منهم وظيفة ما أو محراب يخصّه دون غيره من الآلهة، كان من المؤلف أن يتم تصنيف الآلهة في مجموعات وفق وظيفتها، وأن يخلع على إله الشفاء المصري اسم إله الشفاء اليوناني الذي يقوم بالوظيفة ذاتها، وهكذا. كان ثمة آلهة قديمة للأرض وللسماء وكذا للبحر، كان الناس يعبدونها منذ عهد أطول مما يستطيع الناس تذكره، وآلهة شخصية وإلهات أحدث من سابقتها وأكثر منها عددًا، كانت تحتل أحدث الهياكل وأضخمها بنياً في مناطق قلب البلاد. بالإضافة إلى هذه الآلهة، كان هناك الأباطرة العظام وكذا الملوك والحكام الإقليميين من هذا النوع أو ذاك الذين كانت تُصرف إليهم مراتب مختلفة من الاحترام تتساوي مع ما للآلهة منه. كان هؤلاء من المحسوبين على (آلهة... على الأرض) الذين أشار إليهم بولس.^(٣)"

التلث:

تستمدّ عقيدة التلث في التشكيل الاعتقادي عند الآباء منطقيتها من تصوّر الأفلاطوني الذي قدّم الخلفيّة الفلسفيّة لتأليه الابن من خلال الحديث عن الفصل التام بين الإله الأزلي والخلق المُحدَث؛ مما استدعى وجود الواسطة التي تصل المطلق بالحدود، وهي الكلمة اللوغوس فكانت هذه الثنائية هي التي قرّبت المسافة بين الكنيسة وعقائد الوثنيين المشائين؛ ولذلك قال اللاهوتي Andrews Norton^(٤): "من الممكن تتبّع هذه العقيدة، واكتشاف مصدرها، ولكن ليس في الوحي المسيحي، وإنما في الفلسفة الأفلاطونية التي كانت هي الفلسفة السائدة على مدى الفترات الأولى بعد ظهور النصرانية، وهي التي كان جميع كبار الكتاب النصاري -الآباء كما يُسمّون-، تلاميذها، بدرجة كبيرة أو صغيرة."^(٥)

لقد قدّمت الفلسفة الأفلاطونية المبرّر الفلسفي لهذه العقيدة، أمّا المصدر المباشر الجامد الذي شكّل المعين الذي أخذت منه الكنيسة هذا المفهوم العقدي، فهو تصوّر الوثني الذائع بين الأمم القديمة عن الثالوث الإلهي الذي يعلو قبة الإيمان الجماعي.

قال القسيس المؤرّخ توماس موريس في كتابه عن تراث الهند (*Indian Antiquities*) الذي استغرق سبعة مجلّدات: "هذا الموضوع الكبير والمهم، يستغرق جزءًا ضخمًا من هذا الكتاب، ولهفتي على تهيئة الرأي العام لتقبله، وجهودي التي بذلتها لتوضيح مسألة لاهوتية بالغة الغموض، أغرياني بأن أتبّه القارئ النزّه إلى أن الآثار المنظورة لهذه العقيدة قد أصبحت واضحة تمام الوضوح، ليس فحسب في المبادئ الثلاثة للاهوت الكلداني، وفي مثر الفارسي ثلاثي الشكل، وفي الثالوث براهما وفشنو وشيفا في الهند -الذي أعلن بوضوح في (الجيّتا) قبل ميلاد أفلاطون بخمسمائة عام؛

^١ - ديفيد ر. كارتليدج: أستاذ الدين في كلية مايفيل في ولاية تنسي.

^٢ - ديفيد ل. دونجن: أستاذ الدين في جامعة تنسي.

^٣ - انظر؛ David R. Cartlidge and David L. Dungan, eds. Documents for the Study of the Gospels, p.5

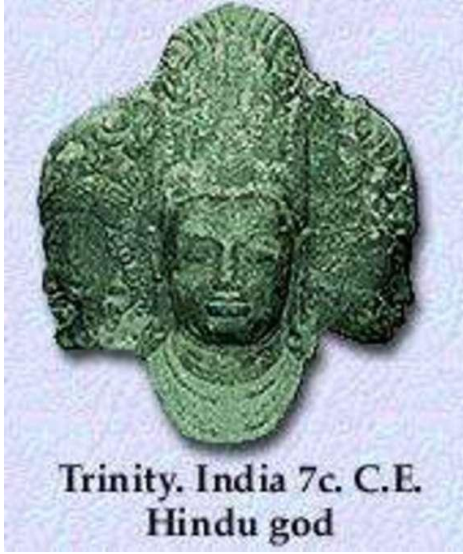
^٤ - أندروز نورتن (١٧٨٦م-١٨٥٣م): لاهوتي أمريكي. من أئمة التيار النصاري التوحيدي في القرن التاسع عشر.

^٥ - Andrews Norton, A Statement of Reasons for not Believing the Doctrines of Trinitarians, Concerning the Nature of God and the Person of Christ, Boston: American Unitarian Association, 1870, p.94

بل وكذلك في ثالث الروح الإلهية (*Numen Triplex*) في اليابان، وفي الكتابة المنقوشة على ظهر الميدالية الشهيرة التي عثر عليها في صحراء سيبيريا (إلى الإله الثلاثي) التي يمكن مشاهدتها في يومنا هذا في المقصورة الإمبراطورية الفخمة في سان بطرسبرج، وفي التانجا تانجا، أو الثلاثة في واحد، عند سكان أمريكا الجنوبية، وأخيراً، بدون الإشارة إلى بقاياها في اليونان، في رمز الجناح والكرة والثعبان، المنقوش على معظم المعابد القديمة في صعيد مصر.^(١)

إنَّ استثناء هذا المفهوم في الأمم التي نشأت الكنيسة في حضنها الجغرافي والعقدي والثقافي قد منع الاعتذارين الكنسيين من جحد أسبقيته بالكلية، وإنَّما اتخذوا أكثر من سبيل خلفي للهروب من حقيقة الاقتباس، ولكن زادتهم ردودهم رهقاً وأكّدت دفاعاتهم حقيقة التهمة.

لقد قالوا إنَّ التثليث النصراني يختلف عن التثليث الوثني من وجهين: أولاً: التثليث الوثني يؤمن بوجود ثلاثة آلهة، والنصرانية لا تقول بذلك!، وثانياً: التثليث الوثني يتمثل في ثلاثة آلهة تعلو عددًا آخر من الآلهة الأدنى^(٢).. وهو رد لا تخفي فيه نفسية التائه الباحث عن مهرب؛ إذ إنَّ النصرانية تؤمن صراحة بثلاثة آلهة؛ فهي تمنح كل واحد منها وظيفة مختلفة عن الآخرين، وتنسب إليه أمورًا يستقل بها عن غيره، وهو عين القول بالآلهة المتعددة، غير أنَّ الكنيسة لما وجدت نفسها مضطرة إلى الإيمان بالعهد القديم الذي ينص صراحة على وحدانية الربوبية، والإيمان أيضًا بما جاء في العهد الجديد في إثبات نفس العقيدة، قرّرت أن تعلن أنها تؤمن بإله واحد مثلث الأقانيم^(٣)، وهو تفسير سفسطي لا معنى له، ولا يغيّر من حقيقة الإيمان بآلهة مثلثة الذوات شيئاً. أما الحديث عن الآلهة المثلثة التي تعلو بقية الآلهة، فهو



لا يجدي من التفلّت من التهمة شيئاً؛ لأنَّ هذا الأمر (١) لا يتّبت في جميع تلك الأديان. (٢) المسافة شاسعة بين الآلهة المثلثة والآلهة الأدنى، حتى كأنَّ الآلهة الأدنى لا تحمل من الألوهية شيئاً. (٣) هذه الأديان الوثنية لم تُعرف بأنها ديانات عشرات الآلهة، وإنما عرفت بأنها أديان تثليثية، في أدبياتها، وشعائرها، ومنحوتاتها؛ فكانت طبيعة التثليث هي التي تميّزها بصورة واضحة. يضاف إلى كلّ ذلك أنَّ الكتاب المقدس ليس فيه قطعاً أية إشارة إلى التثليث تصرّيحاً ولا تلميحاً، والنصّ الوحيد المدّعى هنا قد أجمع النقاد أنه مزيف^(٤)! وأول من استعمل كلمة تثليث هو ترتليان (١٦٠م-٢٢٠م) باختلافه

هذا المصطلح للتعبير عن الثالث الإلهي، في كتابه ضد بركسياس!

^١ - Thomas Maurice, Indian Antiquities, London: W. Richardson, 1800, 1/126-127

^٢ - انظر؛ Jim Valentine and Eric Pement, 'Jehovah's Witnesses and the Doctrine of Salvation,' in Norman Geisler and Chad Meister, eds. Reasons for Faith: Making a case for the Christian faith, Illinois: Good News Publishers, 2007, p.330

^٣ - اخترع النصارى مصطلح ((أقنوم)) ((υποστασις)) (هيبوستاسيس) - وهو لغة يعني: ((تحت القائم!!)) -، للهروب من كلمة ((ذات))، غير أنَّ هذا اللعب بالألفاظ لا يغير من الحقيقة شيئاً؛ إذ هي ثلاث ذوات على الحقيقة.

^٤ - يستعمل اللاهوتيون الغربيون اليوم بلا حرج عبارة ((three persons)) ((ثلاثة أشخاص)) للتعبير عن (الثالوث المقدس).. أما النصارى العرب فإنهم يتعدون عن هذه العبارة بصورة تامة خشية انكشاف تناقضهم العقدي!

^٥ - نصّ ١ يوحنا ٥/٨: ((في السماء هم ثلاثة: الأب، والكلمة، والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم واحد. والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة)) ((εν τω ουρανω ο πατηρ ο λογος και το αγιον πνευμα και αυτοι οι τρεις εν εισιν και τρεις εισιν οι μαρτυρουντες εν τη γη)) غائب تماماً عن المخطوطات اليونانية القديمة (انظر؛ Bruce Metzger, A Textual Commentary on the Greek New Testament, Stuttgart: Deutsche Bibelgesellschaft, 2000, 2nd edition, pp.647-649)

نجم ميلاد المسيح:

جاء في إنجيل متى ١/٢-١٠: (وبعدما ولد يسوع في بيت لحم الواقعة في منطقة اليهودية على عهد الملك هيرودس، جاء إلى أورشليم بعض الجحوس القادمين من الشرق، يسألون: أين هو المولود ملك اليهود؟ فقد رأينا نجمه طالعًا في الشرق، فجئنا لنسجد له)، ولما سمع الملك هيرودس بذلك، اضطرب واضطربت معه أورشليم كلها. فجمع إليه رؤساء كهنة اليهود وكتبهم جميعًا، واستفسر منهم أين يولد المسيح. فأجابوه: في بيت لحم باليهودية، فقد جاء في الكتاب على لسان النبي: وأنت يا بيت لحم بأرض يهوذا، لست صغيرة الشأن أبدًا بين حكام يهوذا، لأنه منك يطلع الحاكم الذي يرعى شعبي إسرائيل!

فاستدعى هيرودس الجحوس سرًا، وتحقق منهم زمن ظهور النجم. ثم أرسلهم إلى بيت لحم، وقال: اذهبوا وابحثوا جيدا عن الصبي. وعندما تجدونه أخبروني، لأذهب أنا أيضًا وأسجد له. فلما سمعوا ما قاله الملك، مضوا في سبيلهم. وإذا بالنجم، الذي سبق أن رأوه في الشرق، يتقدمهم حتى جاء وتوقف فوق المكان الذي كان الصبي فيه. فلما رأوا النجم فرحوا فرحًا عظيمًا جدًا.

هذه قصّة خرافية تكشف عن عقلية بسيطة في فهمها للظواهر الكونية؛ حتّى إنّها تحسب أنّ النجوم تولد في لحظة، وأنّ حجمها صغير جدًا، وأنّ حركتها في السماء بطيئة، وأنّه من اليسير على العين أن تبصر حركتها ووقوفها، وأنّه من الممكن موازاة حركتها في السماء بالسير معها على الأرض، وأنّه يسوغ علميًا أن يقال إنّها وقفت فوق بيت معين أو موضع محدّد في الأرض!!

لقد كانت الأمم السابقة، بل وكثير من عوام اليوم، يرون في حركة الأجرام السماوية دلالة على أقدار الناس ومصائرهم. وكان أمر علاقة ولادة العظماء كثيرًا ما يوصل بعلامات سماوية بارزة ومثيرة، ومن أهمها ولادة نجم لامع في السماء يبيّره الناس بوضوح. وقد كان هذا الاعتقاد مستقرًا في الثقافة الشعبية عند اليونانيين والرومان؛ قال Frederic Farrar: "... حتّى اليونان والرومان كانوا دائماً يعتبرون أنّ ميلاد الرجال العظماء ووفاتهم يرمز له بظهور أجرام سماوية أو اختفائها، وقد استمر هذا الاعتقاد نفسه الى العصور الحديثة."^(١)

ويرى Geikie أنّ هذا الاعتقاد كان له حضور في عامة ثقافات البشر: "لقد كان هناك حقًا اعتقاد ذائع في العالم أنّ الوقائع غير العادية، خاصة ميلاد رجل عظيم أو وفاته، ينبئ بها ظهور نجوم ومذنبات، أو اقتران أفلاك سماوية."^{(٢) (٣)}

^١ - Frederic Farrar, The Life of Christ, London: Cassell and Company, 1894, pp.22-23 -
^٢ - Geikie, Life of Christ, 1/144 (Quoted by, Thomas William Doane, Bible Myths and their Parallels in Other Religions, pp. 144-145)

^٣ - قال القمص عبد المسيح بسيط في مقاله: هل المسيحية مقتبسة من البوذية؟! في سياق دفعه تمهية أن تكون قصّة نجم ميلاد المسيح مأخوذة من البوذية اخطأ الرسم واللغة منقولة كما هي من موقع القمص: ((...)) ونجد ما يقرب من ذلك في سيرة أبين هشام حديث عن نجم احمد الذي ظهر في السماء حيث تقول في رواية حسان بن ثابت عن مولده قال ابن إسحاق: وحديثي صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زبارة الأنصاري. قال حديثي من شفت من رجال قومي عن حسان بن ثابت، قال والله إني لغلام يفعة ابن سبغ سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمه يثرب يا معشر يهود حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له ويلك ما لك؟ قال طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به. قال محمد بن إسحاق فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فقلت. ابن كم كان حسان بن ثابت مقدم رسول الله صلعم المدينة؟ فقال ابن سنين (سنة)، وقدمها رسول الله وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين.... فهل يمكن لنا أن نسأل الأخوة المسلمين الذين يقولون بما قاله الملحدين عن المسيح وبوذا هذا السؤال؟ من أين اقتبس كاتب السيرة وراوة الحديث فكرة هذا النجم نجم أحمد من البوذي كما زعموا عن بوذا؟ أم من هذا الفكر الذي يتحدث عن أن لكل إنسان نجمة؟؟!!)) قلت: الإجابة، سهلة، وهي أنّ هذه القصّة التي وردت في سيرة ابن هشام، مصدرها راو كذاب اختلقها، متأثرًا بخرافات الأمم القديمة!

القمص ((عبد المسيح بسيط)) لا يزال يخرج نفسه بمنهجه (الصحفي) (السادج) في تناول القضايا العلمية الحادة؛ فهو يتصور أنّ كتب السيرة لا تضمّ غير الروايات الصحيحة، رغم أنّه لم يقل أحد من أهل العلم ذلك؛ إذ هي روايات مجمّعة، لا يحكم لها بالصحة إلّا بعد أن تتمنح متناّ وسنّاء، ويجزّ وروود الخير في كتاب ما من كتب السيرة، لا يلزم منه ثبوته!! والرجل في حقيقته قماش ينقل من مواقع الت دون تمييز! قصّة ظهور ((نجم أحمد))، باطلّة سنّاء ومتناّ، وإن تكلف البعض وجود أكثر من طريق لها!

الميلاد في الإسطبل أو الكهف:

ورد عن الآباء كما نقلناه سابقاً أنّ المسيح قد ولد في إسطبل وكهف، ومصدر تحديد مكان الميلاد في الإسطبل هو لوقا ٢/٧، ومصدر قصة الميلاد في الكهف هو التراث الشفهي الذي قبلته الكنيسة منذ زمن مبكر. يحتل الكهف مكانة هامة في التراث الوثني القديم للآلهة المولودة (!) فهو مكان انطلاق السر، وحقيقة الوجود الإنساني^(١). وقد ذكر آباء الكنيسة -كثرتين وغيره- أنّ الكهف الذي في بيت لحم والذي ولد فيه المسيح، كان الوثنيون يحتفلون فيه بميلاد مخلصهم أدونيس باعتباره مكان ولادة إلههم ومكان ظهور أسرارهم^(٢).

وقد قيل إنّ آلهة كثيرة قد ولدت في كهوف، كما نسب هذا الأمر أيضاً إلى عدد كبير من العظماء^(٣) وهي قصص مهما اختلف في قدم بعضها، إلا أنّ في مجموعها دلالة على أنّ الأمم القديمة كانت تعرف قصص آلهة مولودة في كهف!

الملائكة التي ظهرت عند الميلاد:

جاء في لوقا ٢/١٣-١٤: وفجأة ظهر مع الملاك جمهور من الجند السماوي، يسبحون الله قائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام؛ وبالناس المسرة! ظهور الكائنات السماوية وابتهاج السماء، هي علامة شائعة في الأديان الوثنية، فقد جاء في فشنو بورانا ٥. ٣- أحد الكتب المقدسة الهندوسية -أنّه لما ولدت ديفافي كرشنا كانت الآفاق مشرقة بالفرح، كأنّ ضوء القمر قد انتشر على كامل الأرض" كانت الأرواح وحوريات السماء ترقص وتغني " و "في منتصف الليل ... أصدرت السحب أصواتاً ممتعة، وسكبت مطراً من الزهور"^(٤).

وقال المؤرخ بلوتارك الذي عاش في القرن الأول وبداية الثاني: " عند ميلاد أوزيريس، سمع صوت أنّ ربّ كلّ الأرض آت، وقال البعض إنّ امرأة تسمى بمغل، لما كانت تحمل الماء إلى هيكل أمون، في مدينة ثيبز، سمعت صوتاً يأمرها أن تعلن بصوت عال أنّ الإله الرحيم أوزيريس قد ولد. "^(٥)

وقد تتبّع Otto Rank^(٦) في كتابه أسطورة ميلاد البطل: تفسير نفسي للأسطورة *The Myth of the Birth of the Hero: a psychological interpretation of mythology* ولادة المسيح كما في الأناجيل وفي الأديان والأساطير القديمة، فكان التشابه أوضح من أن ينكر، وأجلى من أن يُستتر، ومنه هذه الجزئية^(٧).

الساعون في قتل الوليد:

أما سنذاً؛ فقد وردت رواية ابن إسحاق بسند فيه مبهمين: من شئت من رجال قومي. ووردت بطرق أخرى فيها الواقدي، والواقدي كما قال فيه الإمام أحمد: كذاب!، ورواية الكذاب هدر، لا تقوي إسناداً، ولا تجبر خبراً! وأما متناً؛ فالإشارة بأحمد قد وردت في الإنجيل لا في التوراة، ولا يعرف لليهود كتاب ديني يخبر عن ظهور نجم أحمد! كما أنّ مثل هذه الواقعة التي يفترض أن تكون مشهودة من كثير من أهل مكة، لم ترو عن الكافة من الناس، بل ولا رويت بإسناد واحد صحيح! فنجم أحمد المذكور ليس إلا خرافة أصلها وثني رويت عن كذاب أو كذابين!

^١ - انظر؛ Timothy Freke and Peter Gandy, Jesus and the Lost Goddess: The secret teachings of the original Christians, New York: Random House, Inc., 2002, pp.107-108

^٢ - انظر؛ Thomas William Doane, Bible Myths and their Parallels in Other Religions, p. 155

^٣ - انظر المصدر السابق، ١٥٥-١٥٧

^٤ - المصدر السابق، ص ١٤٧

^٥ - المصدر السابق، ص ١٤٨

^٦ - أوتو رنك (١٨٨٤م-١٩٣٩م): عالم نفس نمساوي. كان وطيذ الصلة ((بفرويد)) قبل أن يفصل عنه. له دراسات كثيرة في علم النفس، وعناية خاصة بالتحليل النفسي للأسطورة.

^٧ - انظر؛ Otto Rank, The Myth of the Birth of the Hero: a psychological interpretation of mythology, New York: The Journal of nervous and mental disease publishing company, 1914, p.49

جاء في إنجيل متى ١٣/٢-١٦: (وبعدما انصرف المجوس، إذا ملاك من الرب قد ظهر ليوسف في حلم، وقال له: قم واهرب بالصبي وأمه إلى مصر، وابق فيها إلى أن أمرك بالرجوع، فإن هيرودس سيبحث عن الصبي ليقتله. فقام يوسف في تلك الليلة، وهرب بالصبي وأمه منطلقاً إلى مصر، وبقي فيها إلى أن مات هيرودس، ليتم ما قاله الرب بلسان النبي القائل: من مصر دعوت ابني. وعندما أدرك هيرودس أن المجوس سخرؤا منه، استولى عليه الغضب الشديد، فأرسل وقتل جميع الصبيان في بيت لحم وجوارها، من ابن سنتين فما دون، بحسب زمن ظهور النجم كما تحققة من المجوس. اتفقت المصادر التاريخية الأولى على تجاهل هذه المجزرة الوهمية، ولم يكن لها أن تتجاهل هذه القصة لو صح حدوثها؛ لأنها ستكون من عظام الأمور التي ارتكبتها الحكام في تلك المنطقة الآهلة بالسكان^١. وقد تجاهل المؤرخ الشهير (يوسيفوس) الذي عاش في القرن الأول ميلادياً وسجل جرائم (هيرودس)، هذه المجزرة، رغم أنه كان مهتماً بتشويه سمعة (هيرودس)^(٢)، وكفى بذلك حجة على أنها من نسج خيال مؤلف إنجيل متى!

وقد ذكر الكثير من النقاد^(٣) أن هذه القصة هي اختلاق أريد منه تأكيد التشابه بين قصة (موسى) و(يسوع)، وذلك باستحضار ما جاء في سفر الخروج ١٥/١-١٦: (ثم قال ملك مصر للقابلتين العبرانيتين المدعوتين شفرة وفوعة: " عندما تشرفان على توليد النساء العبرانيات راقباهن على كرسي الولادة، فإن كان المولود صبياً فاقتلاه، وإن كان بنتاً فاتركاها تحيا " ويخبرنا الناقد الكاثوليكي الأب (رعموند براون=Raymond Brown)^(٤) أن "هناك العديد من الروايات القصصية القديمة التي تتحدث عن محاولة الحاكم الشرير قتل البطل الذي تم التنبؤ بميلاده. لقد ظهرت هذه الروايات في الهند، وفارس، وبلاد ما بين النهرين، واليونان، وروما."^(٥)

تجربة الشيطان:

جاء في إنجيل متى ١٤/١-١١ تفصيل قصة تجربة الشيطان للمسيح: (ثم صعد الروح بيسوع إلى البرية، ليحرب من قبل إبليس. وبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة، جاع أخيراً، فتقدم إليه الجرب وقال له: (إن كنت ابن الله، فقل لهذه الحجارة أن تتحول إلى خبز!). فأجابه قائلاً: (قد كتب: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله!) ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على حافة سطح الهيكل، وقال له: (إن كنت ابن الله، فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه قد كتب: يوصي ملائكته بك، فيحملونك على أيديهم لكي لا تصدم قدمك بحجر!) فقال له يسوع: (وقد كتب أيضاً: لا تجرب الرب إلهك!). ثم أخذه إبليس أيضاً إلى قمة جبل عال جداً، وأراه جميع ممالك العالم

^١ - جاء في الكتاب الأبوكريفي ((استشهاد متى)) (Martyrdom of Matthew) الذي يعود إلى القرن السادس، أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف، وفي الليتورجيا البيزنطية بلغ العدد أربعة عشر ألفاً، وفي تقويم القديسين السوري بلغ أربعاً وستين ألفاً. (انظر؛ Raymond Brown, The Birth of the Messiah, a commentary on the Infancy narratives in the gospels of Matthew and Luke, New York: Doubleday, 1993, pp.205)

^٢ - انظر؛ S. Perowne, The Life and Times of Herod the Great, Nashville: Abingdon, 1956, p. 152
^٣ - انظر؛ Robert Horton Gundry, Matthew: A Commentary on his Handbook for a Mixed Church under Persecution, 2nd edition, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1994, p.35, R. T. France, The Gospel of Matthew, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 2007, pp.77-78, Raymond Brown, The Birth of the Messiah, a commentary on the Infancy narratives in the gospels of Matthew and Luke, pp.214-217

^٤ - رعموند براون: (١٩٢٨م-١٩٩٨م) أمريكي كاثوليكي. ناقد كتابي. وصفه الكاردينال ((ماهوني)) بأنه أكبر عالم كاثوليكي ظهر في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. يعتبر تعليقه على إنجيل يوحنا - في مجلدين - أشهر مؤلفاته.

^٥ - Raymond Brown, The Birth of the Messiah, a commentary on the Infancy narratives in the gospels of Matthew and Luke, pp.227

وقد أحال إلى دراسة علمية في هذا الموضوع: P. Saintyves, 'Le Massacre des Innocents ou la Persécution de l'Enfant predestine,' in Congrès d'Histoire du Christianisme, ed. Paul Louis Couchoud, Paris: Rieder, 1928, 1/229-272

وعظمتها، وقال له: «أعطيك هذه كلها إن جثوت وسجدت لي! فقال له يسوع: (اذهب يا شيطان! فقد كتب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد!) فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة جاءوا إليه وأخذوا يخدمونه.^(١) أشار اللاهوتي (لاردنر = Lardner)^(٢) إلى أن العديد من آباء الكنيسة الأوائل قد رفضوا (قصة تجربة الشيطان) باعتبارها غير قابلة للتصديق.^(٣)

وللقصة أصل ثابت في الخرافات القديمة، خاصة في البوذية؛ حتى قال مؤلف كتاب (يسوع وبوذا وكرشنا ولاو تزو: التعاليم المتوازية لأديان علمية أربعة *Jesus, Buddha, Krishna, Lao Tzu: The Parallel Sayings: The Common Teachings of Four World Religions*): قصة تجربة المسيح في البرية هي تقريباً نسخ حرفي من خرافة أسطورة بوذا.^(٤) أما تحديد عدد أيام الصيام بأربعين يوماً وليلة، فلا يخفى أنه مأخوذ من قصة صوم موسى عليه السلام بأربعين يوماً.^(٥)

الظلمة عند موت المسيح:

جاء في إنجيل متى ٢٧/٤٥: (ومن الساعة الثانية عشرة ظهراً إلى الساعة الثالثة بعد الظهر، حل الظلام على الأرض كلها.) جاء في إنجيل مرقس ١٥/٣٣: (ولما جاءت الساعة الثانية عشرة ظهراً، حل الظلام على الأرض كلها حتى الساعة الثالثة بعد الظهر.) جاء في إنجيل لوقا ٢٣/٤٤-٤٥: (ونحو الساعة السادسة، حل الظلام على الأرض كلها حتى الساعة التاسعة، وأظلمت الشمس.)

يشهد العلم بجرافية هذه القصة لأنه يستحيل علمياً أن تكسف الشمس^(٦) في اليوم الذي حددته الأناجيل؛ إذ إن هذه الظاهرة لا يمكن أن تقع عندما يكون القمر مكتملاً.^(٧) كما أن الكسوف التام لا يمكن أن يتجاوز طوله بضع دقائق، لا كما زعمت الأناجيل!^(٨)

^١ - وردت القصة أيضاً في مرقس ١٢/١-١٣ ولوقا ١٤/١٣.

^٢ - ثنائيل لاردنر (١٦٨٤م-١٧٦٨م): لاهوتي إنجليزي. يعتبر مؤسس الدراسات المعاصرة للأدبيات النصرانية المبكرة.

^٣ - انظر؛ Lardner's works, 8/491 (Quoted by, Thomas William Doane, Bible Myths and their Parallels in Other Religions, p.175)

^٤ - Richard Hooper, Jesus, Buddha, Krishna and Lao Tzu: The Parallel Sayings: The Common Teachings of Four World Religions, AZ: Sanctuary Publications, Inc, 2008, p.1

^٥ - انظر؛ خروج ٢٨/٣٤

^٦ - نصّ لوقا ٤٥/٢٣ في الأصول اليونانية يقول ((του ηλίου εκλιπντος)) ((تو هيليو إكليونتوس)) أي ((كسفت الشمس)) وهي القراءة الواردة في أفضل المخطوطات كالبدينية ٧٥ والمخطوطة الفاتيكانية والسينائية، وقد غيّر النساخ هذا النص إلى ((وأظلمت الشمس)) أي ((και εσκοτισθη ο ηλιος)) ((كاي إسكوتيسشي هو هيلوس)) هروياً من الخطأ العلمي المحقق (انظر؛ Raymond Brown, The Death of the Messiah, New York: Doubleday, 1994, 2/1039)

وقد شعر ((أريجن)) منذ زمن مبكر بهذه (المعضلة العلمية)، وقد رأيت كيف أن الترجمة العربية ((كتاب الحياة)) في المتن قد أخذت بهذه القراءة الضعيفة المخرفة! dicimus ergo, quoniam ((وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة. وأظلمت الشمس.)) مع ذلك في بعض النسخ لا وجود لعبارة ((وأظلمت الشمس))، بل ((فكانت ظلمة على الأرض كلها وكانت الشمس في كسوف)). لعل شخصاً ما كانت تحدوه الرغبة في جعل العبارة أكثر وضوحاً تجرأ على وضع «وكانت الشمس في كسوف» في محل «وأظلمت الشمس»، ظاناً أن الظلام لا يمكن أن يحدث إلا بسبب الكسوف. مع ذلك أؤمن إلى حد ما أن أعداء كنيسة المسيح السريين قد حرفوا هذه العبارة، جاعلين الظلمة تقع بسبب أن «الشمس كانت في كسوف»؛ لعل الأناجيل تكون عرضة للنيل منها على أرضية عقلانية بواسطة هؤلاء الذين كانوا يمتنون مهاجتها. (Origen, Comm. ser. Matt. 134)

ويشهد تراث الأمم السابقة على شيوع هذه الخرافة في أدبياتهم عند ذكر هلاك كبرائهم ومعظميهم ومقدسيهم؛ فقد قال (فرار = Farrar) إنَّ القدماء من اليونان والرومان كانوا يعتقدون أنَّ ميلاد العظماء أو وفاتهم تنبئ عنه علامات سماوية.^(٣)

وقال الناقد (جيمس ر. إدواردز = James R. Edwards) في تلخيص الأمر من جميع جوانبه: "لَفَ القدماء روايات الحوادث الخارقة للطبيعة التي تصاحب وفاة الشخصيات الإنسانية اللامعة؛ فهذا الأدب الحاخامي يسجل روايات غريبة وخيالية بشأن حوادث وفاة الحاخامات المشهورين - بما في ذلك ظهور النجوم في وضوح النهار، وبكاء التماثيل، والرعد المصحوب بالبرق، بل وحتى انشقاق بحيرة طبرية. على نحو مماثل، يسجل كاتبان رومانيان على الأقل أنه عند وفاة ((يوليوس قيصر)) أشرق نجم مذنَّب طوال سبعة أيام متتالية. هذه الأشياء ومعجزات مشابهة عادة ما كان ينظر إليها على أنها تأييدات سماوية تضيف شرفاً على النبيل المتوفى. بالنسبة لمرقس، مع ذلك، لم تكن العتمة التي حلت في منتصف النهار تأييداً سماوياً، بل نذير شؤم وشر، على غرار كارثة الظلام التي خيمت على مصر عند إغلاظ الرب لقلب فرعون (خروج ١٠ / ٢١ - ٢٣) أو حتى ظلام الخراب قبل الخلق (تكوين ٢/١). لا يمكن تفسير الظلمة التي خيمت عند الصلب تفسيراً سليماً بالظواهر الطبيعية: فالكسوف الشمسي لا يحدث عندما يكون القمر بدرًا في وقت الفصح؛ ولا هي عاصفة ترابية أثناء موسم الربيع المطير."^(٤)

القائمون من الموت:

يعتبر أمر الإيمان بقيامة المسيح من الموت الأس الأعظم للإيمان النصراني^(٥)، حتَّى قال (بولس): "ولو لم يكن المسيح قد قام، لكان تبشيرنا عبثاً وإيمانكم عبثاً."^(٦) وقد ثبت من الدراسات الخاصة بالأديان القديمة، خاصة الشرق أوسطية، أنَّ الشعوب التي عاشت في زمن قريب أو معاصر لعصر المسيح، قد عرفت آلهة كانت (تموت) ثم (تقوم من الموت)، سواء أكان هذا الموت مرّة واحدة أو موسميّاً، وقد ثبت هذا الوصف لعدد كبير من الآلهة، ك(تموز) و(بعل) و(ملقارت) و(أدونيس) و(إشمون).

ومن أهم الكتب -وأحدثها- التي فصلت تاريخياً في هذه العقيدة عند الأمم القديمة، كتاب لغز القيامة: الآلهة التي تموت وتقوم في الشرق الأدنى القديم *Riddle of Resurrection: "Dying and Rising Gods" in the Ancient Near East* (٢٠٠١ م) لـ متنجر = Metinger^(٧)، وكانت خلاصة بحثه فيه، قوله: "الآلهة التي تموت وتقوم من الموت كانت معروفة في فلسطين في زمن (كتابة) العهد الجديد."

تحويل الخمر إلى ماء:

^١ - انظر؛ Frédéric Louis Godet, A Commentary on the Gospel of St. Luke, Edinburgh: T. & T. Clark, 1889, 2/336

^٢ - انظر؛ Eugen J. Pentiu, Jesus the Messiah in the Hebrew Bible, New Jersey: Paulist Press, 2006 p.175

^٣ - انظر؛ Thomas William Doane, Bible Myths and their Parallels in Other Religions, p. 207

^٤ - James R. Edwards, The Gospel According to Mark, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 2002, p.475

^٥ - انظر في عرض هذه العقيدة ونقضها، كتابنا، قيامة المسيح بين الحقيقة والافتراء، مكتبة النافذة

^٦ - ١ كورنثوس ١٤/١٥

^٧ - ترايغف ن. د. متنجر: أستاذ متقاعد للعهد القديم من جامعة (لوند) في السويد. درّس في عدد من الجامعات المختلفة كأستاذ زائر. عضو شرقي في الجمعية البريطانية لدراسات العهد القديم.

جاء في إنجيل يوحنا ١/٢-١١ أنّ المسيح قد حضر عرسًا، وقام فيه بأولى معجزاته، وهي تحويل الماء إلى خمر ليسكر الحاضرين (!!). لا شكّ أنه من العجيب جدًّا أن تكون للمسيح معجزة من هذا النوع الشنيع؛ إذ إنّه قد جاء في أكثر من موضع من العهدين القديم والجديد ذم الخمر:

(الخمر مستهزئة، والمسكر سخاب، ومن يدمن عليها فليس بحكيم). الأمثال ١/٢٠
(ليس للملوك يالموئيل، ليس للملوك أن يدمنوا الخمر، ولا للعظماء أن يجرعوا المسكر لئلا يسكروا فينسوا الشريعة، ويجوروا على حقوق البائسين). الأمثال ٣١/٤-٥

(وأمر الرب هارون: لا تشرب أنت وأبناؤك خمرًا مسكرًا عند دخولكم لخدمتي في خيمة الاجتماع، لئلا تموتوا، وتكون هذه عليكم فريضة أبدية جيلا بعد جيل). لاويين ١٠/٨-٩

(وإياها أن تأكل من كل نتاج الكرمة أو تشرب خمرًا أو مسكرًا، أو تأكل طعامًا محرما. لتحرص على إطاعة كل ما أوصيتها به) القضاة ١٣/١٤. (وسوف يكون عظيمًا أمام الرب، ولا يشرب خمرًا ولا مسكرًا، ويمتليء بالروح القدس وهو بعد في بطن أمه). لوقا ١/١٥

سيذول الاستغراب إذا قلنا بما نبّه عليه (فريدرش هولدرلن = Friedrich Hölderlin) من التشابه الكبير بين (يسوع) و(ديونيسوس) إله الخمر، خاصة في كتابيه (*Brod und Wein*) و(*Der Einzige*)، وهو ما أكّده النقاد المعاصرون (كمارتن هنجل = Martin Hengel^(١) و(باري باول = Barry Powell^(٢)) و(بيتر ويك = Peter Wick^(٣)) ...



تفنال الإله
ديونيسوس / باخوس
إله الخمر

رمز الصليب:

رغم ما شاع اليوم في الثقافة الشعبية من أنّ الصليب هو رمز نصراني خالص، يرمز إلى صلب معبود النصارى، إلّا أنّ الحقيقة التاريخية تقول إنّ النصارى هم ورثة لتراث ديني قديم ظهر عند أمم كثيرة تمّ اعتبار الصليب فيه عنوانًا للتعبير عن فكرة دينية، وقد اعترف بهذه الحقيقة الناقد النصراني، الأسقف (كولنصو = Colenso)^(٤) في قوله: (منذ بداية الوثنية المنظّمة في العالم الشرقي إلى التأسيس النهائي للمسيحية في الغرب، كان الصليب دون شك أحد المعالم الرمزية المشتركة والأهم قداسة.^(٥))

وجاء في كتاب (الحجة الأركيولوجية على تاريخ الكنيسة قبل قسطنطين) (*Ante pacem: Archaeological Evidence of Church Life Before Constantine*): "علامة الصليب رمز عريق القدم، موجود في كل الثقافات

^١ - بيتر هنجل (١٩٢٦م-٢٠٠٩م): ناقد ألماني متخصص في تاريخ الأديان.

^٢ - باري باول: أستاذ متقاعد من جامعة وسكنسن-مادسن. متخصص في ((هومر)) وتاريخ الكتابة. له كتاب ((الأساطير التقليدية)) الذي نال شهرة كبيرة كمرجع تدريسي في الغرب.

^٣ - انظر دراسته: ((من يسوع إلى ديونيسوس؟: مساهمة في (فهم) سياق إنجيل يوحنا)) Peter Wick, 'Jesus gegen Dionysos? Ein Beitrag zur Kontextualisierung des Johannesevangeliums,' Biblica 85 (2004) pp. 179-198

^٤ - جون ويليام كولنصو (١٨١٤م-١٨٨٣م): أسقف، ومنصّر، ولاهوتي، وناقد كتابي.

^٥ - Colenso, The Pentateuch Examined, 6/118 (Quoted by Thomas William Doane, Bible Myths and their Parallels in Other Religions, p.309)

المعروفة. تَقَلَّتْ معناه من الأنثروبولوجيين رغم أنَّ استعماله في فن الجنائز من الممكن أن يكون علامة بيّنة على مدافعة الشيطان.^(١)

وكان (مينوسيوس فلِكس=Minucius Felix) -أحد أشهر الكتاب المدافعين الأوائل عن عقيدة الكنيسة- قد كتب في بداية القرن الثالث ردًّا على خصمه الوثني -في شكل حوار تخيُّلي-: "نحن لا نعبد الصليبان ولا نرغب في ذلك. أنتم في الحقيقة من يخضع للآلهة التي هي من خشب، ومن يعبد الصليبان الخشبية ... إنَّ أعلام جيوشكم ولافتاتكم وأعلام معسكراتكم ليست إلَّا صليبانًا مطليّة ومزينة؟ إنَّ كؤوس النصر عندكم لا تقلّد فقط الصليبان في شكلها، وإنما أيضًا تقلّد شكل إنسان مربوط بها."^(٢).. وهو ما يؤكّد أن البيئة التي نشأت فيها النصرانيّة هي التي منحتها هذا الرمز!

لا تشهد الآثار النصرانيّة المبكّرة لقداسة رمز الصليب عند النصارى الأوائل؛ حتّى قال الكاتب الأصولي العميد (برجن =Burgon)^(٣): "أنا أستشكل أمر أن يكون الصليب قد ظهر في أي مَعْلَم مسيحي للقرون الأربعة الأولى."^(٤)، وجاء في المعجم الكتابي (*The Anchor Bible Dictionary*) في مقال (الفن والهندسة (الفن المسيحي المبكر)): "المشهد الهام (لصلب المسيح) والرمز الذي صحبه (الصليب) لم يوجد في الفن المسيحي المبكر. ربما كان أول مشهد لآلام المسيح موجودًا في تابوت للآلام في الفاتيكان قد نحت في منتصف القرن الرابع."^(٥) لم يكن الصليب هو رمز النصارى الأوائل، وإنّما كانت (السمكة) هي الرمز المقدس عندهم، وفي هذا يقول (فزار) في كتابه (حياة المسيح كما يظهرها الفن) (*The Life of Christ as represented in Art*) -وهو دال كما في عنوانه، على صورة المسيح في الفن، منذ بداية النصرانيّة-: "من بين كلّ الرموز النصرانيّة المبكّرة، تبدو السمكة أكثرها ذيوعًا وتفضيلًا (عند النصارى الأوائل)."^(٦)

وليس الأمر في حقيقته قاصرًا على (الصليب)، وإنّما اقتبست النصرانيّة الكثير من رموزها من الوثنيّة، وقد بيّن ذلك (توماس إنمان=Thomas Inman) في كتابه (*Ancient Pagan and Modern Christian Symbolism*). وقد أورد فيه صورًا من آثار الأمم الثالفة وعلّق عليها بما يكشف المشترك من الرموز بين النصرانيّة وثقافات الأمم الأخرى.^(٧)

وتحدّث ويليام هاردويك=William Hardwicke عن الرموز التي اقتبسها النصارى من الأمم الأخرى، وأثبت أنّها: الصليب، والقلب المقدّس، والاسم المقدس المتداخل الحروف (sacred monogram)، والخروف، والسمكة، والمثلث، والحمامة.^(٨)

^١ - Graydon F. Snyder, Ante Pacem: Archaeological Evidence of Church Life before Constantine, Macon: Mercer University Press, 2003, p.60

^٢ - Minucius Felix, 'Octavius, xxix' in Ante-Nicene Fathers, New York: Charles Scribner, 1926: 4/191

^٣ - جون ويليام برجن (١٨١٣م-١٨٨٨م): ناقد نصراني تقليدي، اشتهر بدفاعه عن عصمة الكتاب المقدس من الخطأ. كانت له عناية كبيرة بنصوص الآباء، خاصة المتعلقة بشروح الأسفار المقدسة.

^٤ - John Denham Parsons, The Non-Christian Cross, Echo Library, 2006, p.90

^٥ - The Anchor Bible Dictionary, New York: Doubleday, 1992, 1/461

^٦ - Frederic Willaim Farrar, The Life of Christ as Represented in Art, New York: Macmillan, 1894, p.11

^٧ - انظر؛ Thomas Inman, Ancient Pagan and Modern Christian Symbolism, New York: Peter Eckler Publishing Company, 1915

^٨ - انظر؛ William Hardwicke, The Evolution of Man: his religious systems and social customs, London: Watts, 1899, pp.259-266

HISTORY OF THE CROSS:

THE PAGAN ORIGIN,
AND
IDOLATROUS ADOPTION AND WORSHIP,
OF
THE IMAGE.



BY
HENRY DANA WARD, M.A.,
U.S.A.

كتاب في إثبات الأصل الوثني للصلب
الذي اتخذته الكنيسة رمزًا للنصاريّة

JAMES NISBET & CO., 21 BERNERS STREET.
PHILADELPHIA:
CLAXTON, REMSEN, & HAPPELFINGER,
819 AND 821 MARKET STREET.
1871.

الصلب والفداء:

رغم ما شاع اليوم من أنّ النصاريّة هي دين (صلب المعبود)، فإنّ التاريخ يخبرنا أنّ (صلب المعبود) هو من مشترك الكثير من الديانات القديمة، ورغم أنّ الكثير من هذه الديانات تضمّ أكثر من رواية عن موت هذا الإله، إلّا أنّ ذبوع قصّة الصلب؛ كرواية وحيدة لموت الإله أو (المعظم) أو إحدى روايات موته، يؤكّد أنّ (أسطورة الصلب) هي من المشترك الخرافي القديم في الأمم القديمة، وهو ما تشريته النصاريّة في تراثها الديني.

وقد قال صاحب كتاب (أسرار يسوع، هل كان "يسوع الأصلي" إلهًا وثنيًا؟) *The Jesus Mysteries*; (*was the 'original Jesus' a pagan God?*) في أمر (موت الآلهة): "هناك اعتقاد عام بأن يسوع قد صلب على صليب، لكن الكلمة التي ترجمت باستعمال كلمة (صليب) في العهد الجديد تحمل عمومًا معنى ((الوثن)). فقد كان من عادة اليهود أن يعرضوا جثث هؤلاء الذين رجحوا حتى الموت فوق دعامة، كتحدير لمن سواهم. في سفر أعمال الرسل، لا يقول بطرس إن يسوع قد صلب، بل (علّق على شجرة) وكذلك يفعل بولس في رسالته إلى أهل غلاطية. يخبر فيرميكوس ماتيرنوس^(١)، أحد آباء الكنيسة، أنه ضمن (أسرار آتيس) ربط تمثال إله مستأنس شاب فوق شجرة صنوبر. وكان أدونيس مشهورًا بأنّه (المعلق فوق الشجرة).

جاء في (أسرار ديونيسوس) أن قناعًا كبيرًا ذا لحية يمثل إلهًا مستأنسًا قد علّق على عمود خشبي. أعطي ديونيسوس تاجًا من اللبلاب، كما كان الأمر مع يسوع الذي مُنح وهو فوق صليبه تاجًا من الشوك. وكما ألبس يسوع رداءً أرجوانيًا حينما كان الجنود الرومان يسخرون منه، كذلك فُعل بديونيسوس الذي ألبس هو الآخر رداءً أرجوانيًا.

^١ - يوليوس فيرميكوس ماتيرنوس Julius Firmicus Maternus (القرن الرابع): كاتب نصراي لاطيني. صاحب كتاب (حول أخطاء الأديان الدنسة) (De errore profanarum religionum) في التشنيع على العقائد المخالفة للنصاريّة.

وكان المبتدئون في مدينة إفسينا يرتدون وشاحاً أرجوانياً يغطي أجسامهم. أعطي يسوع قبل موته نبياً مخلوطاً بمرارة ليشربه. كان المحتفلون في طقوس ديونيسوس السرية يشربون النبيذ على نحو طقسي والمفسر الذي كان يمثل ديونيسوس نفسه أعطي مشروباً مرّاً ليشربه.

لقى يسوع حتفه إلى جوار لصين، أحدهما سيصعد معه إلى السماء، بينما سيذهب الآخر إلى الجحيم. حافظ أسطوري مقابل نجده في الأسرار. هناك أيقونة متداولة تصور حاملي مشاعل كل منهما يقف إلى جوار الإله مثراً. أحد هذين الشخصين يشير بمشعله إلى أعلى، حيث يرمز إلى الصعود إلى السماء، والآخر يشير بمشعله إلى الأسفل، معبراً بالرمز عن الانحدار إلى الجحيم. في (أسرار إفسينا)^(١) نجد أيضاً شخصين يحملان المشاعل ويشيران بمشعليهما إلى الأعلى وإلى الأسفل على التوالي، وكل منهما يقف إلى جوار ديونيسوس، لكنهما هذه المرة امرأتان. يُعتقد أنّ حاملا المشاعل في أسرار مثراً يمثلان شكلاً مطوّراً لنموذج الأخوين الأسطوريين اليونانيين كاستور وبولاكس الأقدم من الناحية الزمنية. في يومين متعاقبين، سيكون أحد الأخوين حيّاً والآخر ميتاً. فهما يمثلان الذات الأعلى والذات الأدنى اللتان لا يسعهما أن يكونا (على قيد الحياة) في نفس الوقت. عرف كاستور وبولاكس بأتهما ابنا الرعد، وهو اللقب الذي خلعه يسوع في إنجيل مرقس على اثنين من تلامذته، الأخوين يعقوب ويوحنا، من غير سبب يذكر!

في بعض الأساطير، غريم ديونيسوس، الذي يتمثل في الذات الأدنى لأحد المبتدئين، يموت موة الإله الإنسان عوضاً عنه. في أسطورة باخوس، يشرع الملك بينثيوس في قتل ديونيسوس، لكنه نفسه يعلّق على شجرة. في أسطورة مماثلة موطنها صقلية، يصلب العدو للدود لديونيسوس، الملك ليكورجوس...

اعترف جستين الشهيد في فصل من أحد كتبه كان يحمل في الواقع اسم (عقيدة الصلب عند أفلاطون)، بأن الفيلسوف الوثني قد نشر تعليمًا قبل قرون يقول فيه إن (ابن الله) قد وضع على الصليب في العالم.

كان الصليب رمزاً مقدساً عند القدماء. فقد كانت أذرعه الأربعة تمثل عناصر العالم المادي الأربعة - الأرض والماء والجو والنار. وقد حبس العنصر الخامس، الروح، في المادة عبر هذه العناصر الأربعة...

يبدو أنّه من المستبعد جداً أن يكون الثنائي أوزيريس وديونيسوس قد صورا وكأنهما يموتان الموة نفسها التي ماتها يسوع، لكن هذا ما يشير إليه الدليل. أرنوبيوس^(٢)، أحد آباء الكنيسة، أفزعه أن وجد أن المبتدئين في أسرار ديونيسوس يناولون بعضهم صليباً مقدساً. على بعض صور المزهريات يتم إظهار صنم ديونيسوس وقد تدلى من فوق صليب. يصور تابوت حجري يرجع إلى القرن الثاني أو الثالث الميلاديين تلميذاً طاعناً في السن يحمل الطفل المقدس ديونيسوس صليباً كبيراً. يصف عالم معاصر هذا الصليب بقوله إنه (إعلام بالمصير المساوي النهائي) للطفل.

إلى الفترة نفسها يرجع تاريخ الطلسم غير العادي الذي يظهر شخصاً مصلوباً قد تتسرع وتظن أنه يسوع، لكنه أوزيريس ديونيسوس. النقش الموجود أسفل هذا الشخص مكتوب فيه (أورفيوس باكيكوس) الذي يعني (أورفيوس يصبح باخوي). كان أورفيوس نبياً أسطورياً عظيماً أرسله ديونيسوس الذي كان مبحلاً للغاية حتى إنه كان ينظر إليه باعتباره الإله المتأنس نفسه... يصوّر الطلسم ديونيسوس وهو يحتضر بسبب الصلب، رامزاً بالموت الغامض للمبتدئ إلى طبيعته الأدنى وميلاده الثاني كإله.)^(٣)

^١ - أسرار إفسينا: تطلق على عبادة الإلهة (دمتر) في إفسينا اليونانية.

^٢ - أرنوبيوس الكاكي Ἀρνόβιος ἐκ Σίκκης (توفي ٣٣٠): من منطقة الكاف بتونس. كاتب لاتيني نصراني، كانت له عناية بالكذب الدفاعية ضد المخالفين للنصرانية. القول إنه يعدّ من آباء الكنيسة، فيه نظر، وإنّما هو من كتاب الكنيسة الأوائل للمتحمسين لها.

^٣ - Timothy Freke and Peter Gandy, The Jesus Mysteries, was the 'original Jesus' a pagan God?, pp.50-51

وقد اكتشف المنصرون أنفسهم أنَّ الكفارة الإلهية ذائعة عند الأمم الأخرى؛ فقد قال الأب (هوك): (فكرة الفداء بالتجسد الإلهي، عامة وشائعة).^(١)، وقال (توماس إنمان = Thomas Inman): "إنَّ كلمتي (الخلاص) و(المخلص) قد استعملتا قبل ميلاد المسيح بفترة طويلة، ولزالتا شائعتين بين الذين لم يسمعوا البتة بيسوع."^(٢)

المسيح

أثينا 570 ق.م



أم الإله الممجدة:

غلا النصارى في (مريم) إلى درجة رفعها من حيث حقيقة الحال - وإن لم يكن بصريح المقال - إلى مرتبة الألوهية حتى لقبوها بـ (أم الإله) و(ملكة السماء)... وقد بين (إ. أ. وليس بودج = E. A. Wallis Budge) في كتابه (آلهة مصر = *The Gods of Egypt*) أنَّ النصرانية كانت وريثة الديانة المصرية في هذا الجانب، فقد حوّل المصريون "ولاءهم من إزوريس إلى يسوع الناصري، من غير عسر. وعلاوة على ذلك؛ فقد ربطت إزيس وابنها مباشرة بمرم العذراء وابنها ... منح آباء مصريون للكنيسة العذراء لقب (ثيوتوكوس) أي (أم الإله)، ناسين، في الظاهر، أنه ترجمة دقيقة لـ (نتر موت)، وهو اسم قديم جدًا لإزيس."^(٣)

وقال الناقد (جيمس س. كورل = James S. Curl)^(٤) في كتابه (الإحياء المصري = *The Egyptian*

Revival): "التشابه بين إزيس ورمم العذراء كبير جدًا ومتعدد الأوجه بما يصرفه عن أن يكون عرضيًا. حقيقة، لا يوجد شك في أنَّ عبادة إزيس كان أثرها عميقًا جدًا في الأديان الأخرى، بما في ذلك النصرانية. وكما أشار إلى ذلك الدكتور وِتْ، فإنه كلما تعمقنا في دراسة الطائفة الغامضة للإلهة إزيس؛ كلما ظهرت لنا تلك الإلهة في تعبيرات تاريخية: كانت إزيس إلهة معروفة في المدن الكبرى لروما والإسكندرية، وفي قرى بومبي وهركونيوم، وفي الدول - المدن للعصر الهلنستي (٣٢٣ - القرن الأول قبل الميلاد) في آسيا الصغرى، وعبر بلاد الغال، في الوقت الذي كان يوجد فيه معبد

^١ - Huc, Christianity in China, 1/326-327 (Quoted by, Thomas William Doane, Bible Myths and their Parallels in Other Religions, p.183)

^٢ - توماس إنمان (١٨٢٠م - ١٨٧٦م): كانت له عناية بدراسة الأساطير القديمة، وقد ألّف فيها عددًا من الكتب.

^٣ - Thomas Inman, Ancient Faiths Embodied in Ancient Names, 3/652

^٤ - E. A. Wallis Budge, The Gods of Egypt, 1/xv-xvi (Quoted by, D. M. Murdock, Christ in Egypt: the Horus-Jesus Connection, WA: Stellar House Pub, 2009, p.120)

^٥ - جيمس س. كورل: أستاذ متقاعد من جامعة كوين بيلفاست.

شهير لإيزيس في المدن الرومانية. ما كان بالإمكان أن تنسى أو تزال من الوجود، ولا يتصور أن تزول من قلوب الناس وأفئدتهم في يوم من أيام القرن الخامس ميلادياً. ... لقد كانت تجسيدا مقدسا للأمومة، وعرفت مع ذلك بالعدراء العظيمة، وهو تناقض ظاهر سيصبح مألوقاً عند المسيحيين.^(١)

كما كان (لأم الإله) الممّدة وجود في العديد من الديانات الوثنية القديمة الأخرى ممّا هو مفصّل في الكتب التي عنت بهذا الموضوع.^(٢)

مريم وابنها

إيزيس وابنها



Isis dates to at least 1,800 BC



BABYLONIAN GODDESS SEMIRAMIS AND GOD-INCARNATE SON



INDIAN GODDESS DEVKA AND INFANT KRISHNA



INDIAN GODDESS ISI AND INFANT ISWARA

الإله الرضيع وأمه المقدسة في الديانات القديمة



EGYPTIAN GODDESS ISIS AND SON HORUS



ROMAN CATHOLIC MARY AND GOD-INCARNATE JESUS



GODDESS DIANA OF EPHESUS

○ الفلسفة الأفلاطونية:

لم يقف الأمر عند اقتباس الأسفار المقدسة والكنيسة من عقائد السابقين، وإنما اقتبست الأسفار والكنيسة أيضاً من الأفكار الفلسفية التي كان لها رواج في ذلك الزمان؛ حتى قال المؤرخ (ديورنت) عن الفيلسوف (أفلاطون): (لقد قبلت النصرانية كلّ سطر من كلامه).^٣ كما قال عن كنسية الإسكندرية في القرن الثاني، وهي التي خرج منها (كلمنت) و(أريجن)، إلخ: " زوّجت النصرانية للفلسفة اليونانية."^(٤)

لقد أحسّ آباء الكنيسة بوطأة الفكر الفلسفي اليوناني على المنظومة العقديّة النصرانيّة؛ فحاولوا أن يجدوا لذلك المبررات؛ " فأكدّ كلمنت على أنّ الفلسفة جاءت من الله، وأعطيت إلى اليونان لتكون معلّمة لهم، وذلك حتى يُستجلبوا إلى المسيح."^(٥)

^١ - James S. Curl, The Egyptian Revival, pp.12-13 (Quoted by, D. M. Murdock, Christ in Egypt: the Horus-Jesus Connection, p.121)

^٢ - انظر في أسماء هذه الديانات الهندية والصينية وغيرها؛ Thomas William Doane, Bible Myths and their Parallels in Other Religions, pp. 326-338

^٣ - Will Durant and Ariel Durant, The Story of Civilization: Caesar and Christ, a History of Roman and of Christianity from their beginnings to A.D. 325, Simon and Schuster, 1935, 3/611

^٤ - المصدر السابق، ٦١٣/٣

^٥ - Arthur Cushman McGiffert, A History of Christian Thought, New York: Scribner's. 1932, 1/183

أما (أوغسطين) فسلك فجاً آخر عندما زعم أن (أفلاطون) قد زار مصر أيام النبي (إرمياء)، ومنه أخذ الحكمة (!)، وأنه من الأرجح أن الفلاسفة هم من أخذوا من أنبياء بني إسرائيل الفلسفة!!^(١)

قديس الكنيسة (أوغسطين) هو الذي قال عمّا قرأه في الفلسفة الأفلاطونية: "لقد قرأت هناك أن الله الكلمة ولد من غير لحم ودم، لا من مشيئة الإنسان، ولا من مشيئة الجسد، وإنما من مشيئة الله."^(٢) مقررًا أن أصل هذه العقيدة موجود في الفلسفة اليونانية!

وقد أصاب اللاهوتي الشهير (أدولف هرناك= Adolf Harnack)^(٣) عندما قال: "عبر قبول معتقد (الكلمة) في اللاهوت المسيحي كعقيدة مركزية في الكنيسة؛ أصبحت عقيدة الكنيسة، حتى بالنسبة لغير رجال الدين، عميقة الجذور في أرض الثقافة اليونانية."^(٤)

○ الحكمة اليونانية:

لم يقتصر العطاء اليوناني بالنسبة للعهد الجديد على الأفكار والرؤى الفلسفية، وإنما ظهر جليًا في النقل الحرفي لمقولات كتاب يونان، بما يظهر عمق تأثير الفكر اليوناني الغربي على رسالة المسيح التي ظهرت في فلسطين الشرقية. أهم هذه النصوص اليونانية التي نُقلت بالحرف في العهد الجديد، هي:

○ أعمال الرسل ٢٨/١٧: "لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد، أو كما قال بعض شعرائكم: نحن أيضا ذريته!"

نص "لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد": من الشاعر (إممينيدس = Epimenides).^(٥)

نص (نحن أيضا ذريته): من الشاعر (أراتوس = Aratus).^(٦)

○ أعمال الرسل ١٤/٢٦: " فسقطنا كلنا على الأرض. وسمعت صوتًا يناديني باللغة العبرية قائلاً: شاول، شاول، لماذا تضطهدين؟ يصعب عليك أن ترفس المناخس "

(المناخس)، جمع (منخس) وهو الآلة التي يستعملها الفلاح لدفع الثور بنخسه في دبره حتى يسير إلى حيث يريد صاحبه. وقول ((بولس)) في حديثه عن (هدايته!)، إنَّ المسيح قد ظهر له وقال له: (... لا تستطيع أن ترفس مناخس)، هو في حقيقته استحضار للمثل الذي شاع عند اليونانيين والرومان في التعبير عن عاقبة العناد، بصورة الثور الهائج الذي يأبى أن يطيع صاحبه فيرفس الأداة التي ينخسه بها من ورائه في دبره؛ فيؤذي نفسه!

يقول الناقد المحافظ (ج. س. هوسن = J. S. Howson)^(٧): (الصورة المجازية (من الصعب أن ترفس مناخس) كانت من الصور المفضلة في العالم الوثني ... لقد استعملت بصورة مكثفة من طرف الكتاب اليونانيين والرومانيين. إننا نجد في أعمال (بندر = Pindar) و(أيسخايلوس = AEschylus) و(أوربدس = Euripides) وأيضًا (بلوتوس = Plautus) و(ترونس = Terence). لم ترد هذه الكلمات في أية مجموعة من الأمثال اليهودية المعروفة."^(٨)

^١ - انظر؛ St Augustine, 'On Christian Doctrine,' in Nicene and Post-Nicene Fathers, New York: Charles Scribner's Sons, 1887, 2/549

^٢ - Augustine, The Confessions, tr. J. G. Pilkington, Edinburgh: T. & T. Clark, 1876, p.154

^٣ - أدولف هرناك (١٨٥١-١٩٣٠م): مؤرخ كنسي وأبرز لاهوتي في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. عرف بتأكيد على نفي أصالة ((الإيمان الرسولي)) معتبرًا إياه صناعة يونانية.

^٤ - Adolf Harnack, Outlines of the History of Dogma, tr. Edwin Knox Mitchell, New York: Funk & Wagnalls, 1893, p.194

^٥ - انظر؛ Bruce Barton, Acts, Ill: Tyndale House Publishers, Inc., 1999, p.305

^٦ - ج. س. هوسن: عميد شستر.

^٧ - Philip Schaff, ed. A Popular Commentary on the New Testament, New York: Charles Scribner's Sons, 1880, 2/352

○ ٢ بطرس ٢/٢٢: "وينطبق على هؤلاء ما يقوله المثل الصادق: " عاد الكلب إلى تناول ما تقيأه، والخنزيرة المغتسلة إلى التمرغ في الوحل"

جاء في هامش ترجمة The New American Bible: "المثل الثاني مصدره مجهول، أمّا الأول فيظهر في سفر الأمثال ١١/٢٦."^(١)

○ ١ كورنثوس ١٥/٣٣: "لا تنقادوا إلى الضلال: إن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة!"

ردّ قديس الكنيسة (جيروم) هذا النصّ إلى الكاتب التمثيلي اليوناني (منندر = Menander).^(٢)

○ أعمال الرسل ٢٠/٣٥: (وقد أظهرت لكم بوضوح كيف يجب أن نبذل الجهد لنساعد المحتاجين، متذكّرين كلمات الرب يسوع، إذ قال: الغبطة في العطاء أكثر مما في الأخذ)

نصّ: (الغبطة في العطاء أكثر مما في الأخذ) لا وجود له في الأناجيل، وإمّا هو مقتبس من التراث اليوناني الذي استقى منه مؤلف أعمال الرسل الكثير من أفكاره، وقد أشار عدد من النقاد إلى أنّ نصّ الغبطة في العطاء أكثر مما في الأخذ الذي ورد في أعمال الرسل هو اقتباس عكسي من كلام المؤرخ اليوناني (ثوكيديديس) الذي ورد في سياق الإدانة: (الأخذ أولى من العطاء)!^(٣)

^١ - Saint Joseph Edition of the New American Bible, p.372

^٢ - انظر؛ Anthony C. Thiselton, The First Epistle to the Corinthians: a commentary on the Greek Text, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 2000, p.1254

^٣ - انظر؛ I. Howard Marshall and David Peterson, eds. Witness to the Gospel: the Theology of Acts, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1998 , p.518

البحث الأخير: نظرة شاملة حولة الإنفرادات والإختلافات بين القرآن والكتب السابقة انفرد القرآن بأحكام وتشريعات لم تعهدها الكتب السابقة عليه.

وهذا البحث يرد على قولهم أن القرآن لم يأت بجديد في أحكامه وتشريعاته وقصصه إنما هو مقتبس من الكتب السابقة، لكن الصحيح أن القرآن يتضمن أحكاما وتشريعات مغايرة لما ورد في الكتب السابقة، وأخرى غير معهودة من قبل:

فمما نجده في القرآن من أحكام وتشريعات لم تعهدها الكتب السابقة:

في محيط العقيدة: نرى أن "الله" سبحانه وتعالى في عقيدة اليهود يحمل صفات بشرية، فهو يستشير الحاخامات، ويندم على ما أنزله باليهود وبالهيكال، والله عندهم ضعيف صارع "إسرائيل" فصرعه "إسرائيل"، وهو مصدر الشر، كما هو مصدر الخير.

أما في المسيحية فالله اثنان أو ثلاثة، وله أبناء ينتسبون إليه، والمسيح إله وهو ابن الله، فلو كان القرآن مقتبسا من الإنجيل، فلماذا لم يأخذ بنظرية التثليث، وعقيدة الصلب والفداء والخطيئة الموروثة؟! أيضا كان الإسلام واقعا حين رفض "الرهينة" التي تعني اعتزال الحياة الدنيا، وتحقير الواقع الذي أصله رد فعل على العبودية اليهودية للدنيا.

في محيط التشريعات: تركز التشريعات اليهودية على الوصايا العشر، أما التشريعات المسيحية فتركز على مجموعة مواعظ، وكلتاها تفتقد مفهوم التشريع المطلوب للحياة. أما القرآن فهو رسالة خاتمة صالحة لكل مكان وزمان، وقد حدد القرآن موقف الإنسان وعلاقته بالدنيا والآخرة، وقد أتى بالجديد الذي غير مسار البشرية.

في محيط الأسرة: ينظر العهد القديم إلى المرأة باعتبارها مصدر كل شر، وهي شباك وقلبها أشراك، ويدها قيود، فقد جاء في سفر الجامعة: "درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون. فوجدت أمر من الموت: المرأة التي هي شباك، وقلبها أشراك، ويدها قيود. الصالح قدام الله ينجو منها. أما الخاطي فيؤخذ بها. (الجامعة ٧: ٢٥، ٢٦). أما الإسلام فيضعها في مكان المساواة مع الرجل، ويقدر العديد من النماذج المثالية للمرأة أمثال: مريم ابنة عمران، وامرأة فرعون، وأم موسى، وغيرهن الكثيرات.

في مجال حرية الإرادة وحقوق الإنسان: وفيما يتصل بقضية الحرية واحترام حقوق وكرامة الإنسان، فالقرآن وضع القوانين التي تصون الإنسان، وتحفظ له دمه وماله وعرضه، وتحقق له السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة. فإن الإنسان لا يخضع إلا لخالقه، ويقدر له الحرية من لحظة ميلاده ولو لم يسلم وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "متى استعبدتم الناس، وقد ولدتم أمهاتهم أحرارا؟! إضافة إلى حرية الإنسان في الاعتقاد والسياسة.

أما إذا نظرنا إلى وصية بولس للعبيد لوجدنا أنها تعتبر طاعة الطبقة الحاكمة كطاعة المسيح فيقول: "أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح...". (رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٦: ٥).

في أمر الحرب والسلام: اعتبر القرآن السلام هو الأصل والحرب ضرورة لإصلاح الفساد، فأول مرة في تاريخ الحروب يوصي ألا يقتل شيخ، ولا صبي، ولا امرأة، ولا راهب في صومعته، ولا عابد في محرابه، ولا تقطع شجرة مثمرة ولا مظلة، ولا يجهزوا على جريح ولا يمثل بقتيل... إلخ.

في شئون المال والثروة: كان الربا ولا يزال قوام الاقتصاد بين أهل الكتاب، وهو ما برر فلسفة "الاستعمار" واغتصاب ما بأيدي الضعفاء، أما الإسلام فقد قضى ولأول مرة على هذه الظاهرة أو أُنذر من يتعاملون بها بحرب من

الله ورسوله. وقد أنزل القرآن "المال" من مكانة المعبود إلى حالة الخادم (أي وسيلة لا غاية لرعاية الناس وليس هدفا يتقاتلون عليه، ويمتصون بسببه دماء الفقراء)، وقدر أن المال مال الله، والناس ليسوا إلا مستخلفين فيه.

في العلاقات الدولية والتعايش السلمي: جاء القرآن برؤية مستقبلية جديدة في مجال العطاء الحضاري، قوامها الارتقاء بالإنسان من عنصر الطين فيه إلى عالم الروح، وبين أن تغيير الناس يرتبط بتغيير أنفسهم، بعيدا عن العنف والثورات التي تضر أكثر مما تنفع^(١).

وبالنظر إلى تقييم المنظمات الحقوقية، والأمم المتحدة ومواثيق جنيف، يتبين أن قتل المدنيين جريمة حرب، واغتصاب المنتصر لنساء المهزوم جريمة حرب، وذبح أطفال المهزوم جريمة حرب، وقتل البهائم لكونها ملكية خاصة للمهزوم جريمة حرب وجنون وشذوذ عقلي.

فهل طبقوا هذه القوانين في معاملتهم مع الآخر فهذه القوانين هي ما دعا إليها الإسلام، وطبقها المسلمون؟ بالطبع لا، فكتبهم المقدسة تحثهم على قتل الأطفال والنساء واغتصابهن، وتعد هذا قرى إلى الله، ففي سفر التثنية ينقل لنا الكاتب الكاذب الإلهاب والإجرام في صورة أوامر من الرب، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا: "فضربا تضرب سكان المدينة بحد السيف، وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف". (التثنية ١٣: ١٥)، فهذا أمر صريح بقتل الجميع، وحرق المدينة بما فيها من البهائم، وهذا قليل من كثير".

ففي السفر نفسه نجد: " وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما". (التثنية ٢٠: ١٣-١٦)، بل الأدهى من ذلك ما نجده في سفر أخبار الأيام الأول من أبشع صور القتال المنسوبة إلى نبي الله داود عليه السلام: "وأخرج الشعب الذين بها ونشرهم بمناشير ونواج حديد وفؤوس. وهكذا صنع داود لكل مدن بني عمون. ثم رجع داود وكل الشعب إلى أورشليم". (أخبار الأيام الأول ٢٠: ٣)، وفي سفر العدد: "فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال. وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات". (العدد ٣١: ١٧)، (١٨).

أبعد هذا ما زالوا يصرون على ادعائهم هذا، فهل قرر القرآن هذه الأكاذيب أم صححها وعدل ما بها من تحريف^(٢)؟!

القرآن يحتوي على تشريعات وقصص لم تعهدها الكتب السابقة:

فيما يتصل بهذا الشأن نرى:

اشتمال القرآن على أخبار لم يكن يعرفها أهل الكتاب، فقد ذكر مثلا قصة زكريا وولادة مريم وكفالتها لها، وخصص لها سورة كاملة ولم تذكر في العهد الجديد، فمن أين استقى محمد هذه المعلومات إذن؟ جاء في سفر الخروج: أن ابنة فرعون هي التي تبنت موسى في حين قرر القرآن أن امرأة فرعون هي التي تبنته، وفيه أيضا نسبة عبادة العجل إلى هارون، والقرآن نسبه إلى السامري، وذكر إنكار هارون ذلك عليهم.

^١ - القرآن والرسول ومقولات ظلمة، د. عبد الصبور مرزوق، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ٢٥: ٣٠ بتصرف.

^٢ - رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ١٤٥، ١٤٦.

لقد جعل القرآن الكريم من أنبياء الله نماذج أخلاقية عليا، بينما ينسب العهد القديم إلى بعضهم ارتكاب الفواحش، وهذا لا يتفق مع مكانة الأنبياء في التصور الإسلامي، " فقد زعم أهل الكتاب مثلاً أن لوطاً زنا بابنتيه، وأن نوحاً مثل حتى ترنج سكر، وإبراهيم كاذب وديوث لا يغار على عرضه، وموسى يهدد ربه بالاستقالة من النبوة... وغيرها الكثير".

العبادات في الإسلام والتي جاء بها القرآن من صلاة وصيام وزكاة وحج، وتفاصيل هذه الشعائر وطريقة إجرائها، من الأمور التي لا نظير لها في الديانات السابقة، فالصلوات الخمس وطريقة أدائها في أوقات معينة وبصيغ محددة، والصيام في شهر رمضان من كل عام بالامتناع عن الطعام والشراب وجميع الشهوات من الفجر إلى غروب الشمس، والزكاة، وطريقة أدائها ومصارفها وأنواع الزكاة، والحج وما يشتمل عليه من طواف ووقوف بعرفة وسعى بين الصفا والمروة ورمي للحجار... إلخ، أمور لا يشتمل عليها أي دين بالكيفية التي أتى بها الإسلام^(١).

وعن إعجاز القرآن لن يفي كتاب واحد مهما تضخمت صفحاته بالحديث عن كل مجالات الإعجاز في القرآن، فهي في حاجة إلى أن يتفرغ لها كتاب وباحثون، بحيث تتكون من مجموع بحوثهم مكتبة كاملة عن إعجاز القرآن، سواء الإعجاز البياني الذي لا تنفذ عجائبه، أو الإعجاز الدعوى بوصفه كتاب دعوة قد أبرز عقيدة التوحيد الصافية، كما لم يبرزها كتاب قط، ودخل بها إلى قلوب البشر من جميع منافذها وأقطارها كما لم يفعل كتاب قط، أو الإعجاز التشريعي الذي تضمن شريعة متكاملة، وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم لا في زمان نزولها فحسب، بل مهما امتد بهم الزمن وتعددت مجالات الوجود، أو الإعجاز التربوي الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، أو الإعجاز العلمي الذي تنكشف آياته كلما زاد البشر علماً بما حولهم من الكون^(٢).

وفصل هذا الجديد شيئاً ما د. محمد عبد الله دراز بطرحه السؤال الآتي: ما هو الجديد والتقدمي إذن في تعاليم القرآن الأخلاقية؟ ثم يجيب قائلاً: "هذا هو ما سنوضحه في ملاحظات مختصرة تهم كل باحث منصف:

١. في مجال الفضيلة الشخصية:

في هذا المجال الفردي نجد على الأقل قاعدة جديدة ومبدأً جديداً في القرآن، فالقاعدة الجديدة هي تحريم الخمر والقضاء على مصادرها بمنع تناول أي مشروب مسكر: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠)} (المائدة).

وأما المبدأ الجديد الذي نقصده هنا فهو "النية" باعتبارها لب العمل الأخلاقي، فلكي يحسن موسى قومه كان يغريهم بآمال أرض الميعاد، وبالنصر على الأعداء وبالبركة والرخاء في كل شعور الحياة الدنيا. وجاء المسيح لكي يفتح عهداً جديداً في الدعوة الدينية، فيوضح لنا الإنجيل أن النعيم والسعادة الموعودة ليست في هذه الدنيا. فأمال النفوس وطموح الأرواح، عليها منذ ذلك الحين أن تنصرف عن الحياة الدنيوية وتتجه إلى السماء، وأخيراً يأتي القرآن الكريم، وإذا هو بمنهج البناء يجمع بين هذين الوعدين ويوفق بينهما لا باعتبارهما الباعث المحرك للإنسان وإنما باعتبار أن الهدف الذي ينبغي على الإنسان الفاضل أن يقصده ليس في ملكوت السماء ولا في ملك الدنيا. إنما هو أعلى من هذا كله، إنه في الخير المطلق أي في ابتغاء وجه الله تعالى الذي يجب استحضاره في القلب عند أداء العمل الإنساني بتنفيذ أوامره: {وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله} (البقرة: ٢٧٢) {وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)} (الليل).

^١ - حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص ١٧: ١٩.

^٢ - لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٠.

٢. الفضيلة في العلاقات بين الأفراد:

وها هو تقدم آخر يرتبط بالقاعدة الأخلاقية التي تحدد علاقاتنا بإخوتنا بأحكام التوراة وأحكام الإنجيل استقامت شجرة الفضيلة وبرزت فروعها وأوراقها، أما في المجال القرآني فإن هذه الشجرة الخضراء سوف تزهر وتؤتي ثمارها، فبالإضافة إلى كنز العدل والمحبة الذي عني القرآن بحفظه، أوجد فصلا رائعا فيما يمكن تسميته بالحضارة الأخلاقية، إنه تقنين حقيقي في الأدب والذوق الاجتماعي والتحشم في المظهر: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا (٨٦)﴾ (النساء).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون (٢٧)﴾ فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم (٢٨)﴾ (النور).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (٥٨)﴾ (النور) وقال تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون (٦١)﴾ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم (٦٢)﴾ (النور).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون (٢)﴾ (الحجرات). وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نھوا عن النجوى ثم يعودون لما نھوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٨)﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون (٩)﴾ إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٠)﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١١)﴾ (المجادلة)، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ (الحجرات: ١٢)

الفضائل الجماعية والفضائل العامة:

ونقطة بارزة في القانون الأخلاقي في الديانة الموسوية، ألا وهي هذا الحاجز العالي والقائم بين الإسرائيلي وغير الإسرائيلي. فأبي خير يسديه الإسرائيلي إذا لم يكن مقتصر على شعبه، ينبغي ألا يتعدى وطنه ولا يشمل الغريب المقيم معه. " لا تقرر أخاك بربا، ربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شيء ما مما يقرض بربا، للأجنبي تقرر بربا، ولكن لأخيك لا تقرر بربا". (تثنية ٢٣: ١٩، ٢٠). "الأجنبي تطالب، وأما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه". (تثنية ١٥:

٣). "وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد... لا تتسلط عليه بعنف، بل اخش إلهك. وأما عبيدك وإماءك الذين يكونون لك، فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيدا وإماء. وأيضا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم، منهم تقتنون ومن عشائرتهم الذين عندكم الذين يلدوهم في أرضكم، فيكونون ملكا لكم. وتستملكوهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك. تستعبدوهم إلى الدهر. وأما إخوانكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف". (اللاويين ٢٥: ٣٩ - ٤٦).

أما قانون الأخلاق المسيحي فله الفضل في إسقاط هذا الحاجز الذي كان يفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان "سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنه يشرق شمس على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم، فأجر لكم.. وإن سلمتم على إخوانكم فقط، فأجر لكم فضل تصنعون.. فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل". (متى ٥: ٤٣ - ٤٨).

ولكن في مقابل ذلك لا نجد هنا هذا الالتحام الاجتماعي، وهذا الشعور بالمسؤولية الجماعية الذي تتضمنه النصوص العبرية مثل: "سمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك، وقصها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق، وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك". (التثنية ٦: ٤ - ٩). "فتزعجون الشر من بينكم". (التثنية ١٣: ٥). "فحفظون جميع فرائضي وجميع أحكامي وتعملونها، لكي لا تقذفكم الأرض التي أنا آت بكم إليها لتسكنوا فيها". (اللاويين ٢٠: ٢٢).

والفضيلة الاجتماعية المسيحية كما تقدمها الأناجيل تتعلق بالعلاقات بين الأفراد أكثر من دلالتها على الروح الجماعية بصفة أساسية، فقد كانت الروح الجماعية في الماضي تستهدف غرضين: صالح الجماعة من ناحية وتمييزها عن صالح الغير من ناحية أخرى، ولكن المحبة المسيحية بامتدادها خارج الحدود الإقليمية، وبرغبتها في احتواء الإنسانية كلها، وقد أحسنت صنعا بإبطال هذا الطابع العنصري، واستبداله بأخوة عالمية - المقصود استبدال أخوة عالمية به - ولكنها لم تركز اهتمامها بالقدر الكافي لتقوية الرابطة المقدسة للجماعة بصفة خاصة.

ألا يمكن - في الوقت الذي تراعى فيه عمليا وقلبيا محبة عالمية - أن تخلق في ظل هذه الأسرة العالمية الكبرى أسرة أصغر وأكثر ترابطا، وأكثر إدراكا لكيانها، وكأنها مجموعة من الخلايا تكون كيانا عضويا داخل ذلك الجسم الكبير؟

إن هذا الجمع الموفق بين الفضيلة العامة والفضيلة الجماعية هو الذي أبرمه القرآن الكريم، إذ يعلمنا في الواقع أن خارج الأخوة في الله توجد الأخوة في آدم {إنما المؤمنون إخوة} (الحجرات: ١٠)، وقال تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (١٣)} (الحجرات). وأن اختلاف المشاعر الدينية لا يجوز أن يحول بيننا وبين أن نبادل إخواننا في الإنسانية المحبة والإحسان، وقال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨)} (المتحنة) وأن قسوة الكفار علينا لا ينبغي أن تدفعنا إلى العدوان، ولا لأن نكون غير مقسطين في معاملتهم: {ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما

تعملون (٨) { (المائدة)، ولقد حرم على المؤمنين أن يتعاملوا بالربا مع أي إنسان، وقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين (٢٧٨) } (البقرة). وبين أن التقى العادل داخل الجماعة الإسلامية هو كذلك خارجها، وقال تعالى: { ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٧٥) بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين (٧٦) } (آل عمران).

وإذا كان على المسلم في بعض الظروف أن يبدي عناية خاصة في فك أسر إخوانه المسلمين، فإن عتق العبيد بوجه عام يعتبر إما التزاما عليه، وإما عملا يستحق التقدير ويحث عليه القرآن دائما. وهكذا تتطور فكرة الفضيلة العامة التي أعلنها الإنجيل، وتتحدد أكثر فأكثر عندما تتسع لتشمل مجالات الحياة المختلفة.

ولكن هل معنى ذلك أن الجماعة الإسلامية ستترأخى في روابطها الداخلية لتضيق في محيط البشرية الواسع؟ على العكس، نجد أن مبدئين أساسيين يذكراهما بكل قوة بدورها كجماعة متميزة ومتماسكة:

الأول: يدعو المسلمين بأن يكونوا جماعة موحدة، لا تنقسم بدون فرقة أو انشقاق، تلتف حول مثل أعلى وحول رئيسها، { واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا } (آل عمران: ١٠٣) { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } (النساء: ٥٩) { وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا } (الأنفال: ٤٦).

ومع ذلك، فقد بدا لبعض المستشرقين أن يصوروا المسلم على أنه ذو نزعة فردية لا تقاوم، لم يعرف معنى "رباط التضامن" في يوم من الأيام، إن الدين الإسلامي كما يقول أحد المستشرقين يحترم النزعة الفردية ويقدها، ولا يعرف معنى اندماج النفوس وتلاشيها في تنظيم كبير، فليست الأعمال الجماعية مثل صلاة الجمعة ووقفه عرفات وصلاة الأعياد، إلا أعمالا فردية يؤديها المؤمنون في وقت واحد ومكان واحد، دون أن تتخذ طابع الاحتفالات الموجهة أو المنظمة وفق تنسيق خاص.

وسوف يلاحظ أي إنسان يحضر صلاة الجماعة للمسلمين، أن هذا القول لا أساس له من الصحة، وإنما سوف يرى المؤمنين مصطفين في نظام جميل متلاصقين كتفا إلى كتف، الغني بجانب الفقير، والرئيس بجوار مرءوسه، في وضع واحد واتجاه واحد ودعاء واحد، كل منهم يدعو للجميع { إياك نعبد وإياك نستعين (٥) اهدنا الصراط المستقيم (٦) } (الفاتحة).

إنهم جميعا يطلبون النجاة والفلاح، ليس فقط لمجموعة المصلين، وإنما لجميع عباد الله الصالحين أينما كانوا: "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين". إن هذا التوافق في المظهر لا يعدو أن يكون وسيلة لتأليف القلوب والجمع بينها. يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «لتسوون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم»^(١). فالإسلام ليس فرديا فحسب وإنما هو أخوة في الله { إنما المؤمنون إخوة } (الحجرات: ١٠).

والمسلمون في توادهم وتراحمهم كممثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. فالواجبان الأساسيان اللذان يعتبرهما المسلمون واجبين توأمين، يترتب على التخلف عنهما النبذ والعقاب. هما الصلاة والزكاة، إنهما ينهضان كدليل بالغ عن روح التضامن في الإسلام.

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، (٦٨٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، (١٠٠٦).

أما المبدأ الثاني: وهو على جانب كبير من الأهمية من الناحية الأخلاقية، فهو التزام جميع المسلمين ألا يتركوا المنكر يسود في مجتمعهم {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} (الأنفال: ٢٥). وضرورة أن يتواصوا بالحق والفضيلة: {وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} (العصر) {وتواصوا بالمرحمة (١٧)} (البلد). إنه ليس حقاً، ولكنه واجب كل مسلم صغيراً كان أو كبيراً، أن يدعو أخاه المسلم إلى ما هو حق وعدل، وأن ينهيه عن كل سوء، ويجب ألا يقل اهتمامه بسعادته الأخروية، عن اهتمامه بسعادته المادية. إن علينا جميعاً أن نتعاون في نشر الفضيلة والتقوى بيننا: {وتعاونوا على البر والتقوى} (المائدة: ٢). ودليل القيمة التي يراها القرآن في وضع هذا التضامن موضع التنفيذ العملي أن جعله المقياس الذي على أساسه سمى جماعة المسلمين الأولى خير أمة أخرجت للناس {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر} (آل عمران: ١١٠).

الفضيلة في المعاملات الدولية وبين الأديان:

نضيف إلى كل ما تقدم فصلاً آخر في الأخلاق الإسلامية، جديداً كل الجدة؛ لأن اليهودية والمسيحية في وقت تأسيسهما لم تتح لهما الفرصة لإقامة علاقات مع دول معادية، فدعوى عيسى السلمية المحلية كانت تناقضها في اتجاه مضاد الحروب التي قادها موسى ضد الأمم المجاورة والتي انتهت بالقضاء عليها بسرعة. ولقد اختلف الوضع تماماً بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم خلال العشر سنوات التي كان فيها على علاقات دائمة مع أمم وديانات مختلفة، تارة مسالمة وتارة معادية.

إن هذه الظروف الخاصة التي جعلت من المرشد الروحي والأخلاقي صلى الله عليه وسلم سياسياً وقائداً، اقتضت تشريعاً أخلاقياً لظروف السلم والحرب، تضمن للقرآن مبادئه الأساسية. ومن هذه المبادئ أن الحرب الشرعية لا تقوم إلا من أجل دفع العدوان، ويجب أن تتوقف بمجرد انتهائه {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا} (البقرة: ١٩٠)، {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله} (الأنفال: ٦١).

وهناك بعد ذلك المبدأ الذي يحترم الموائيق المبرمة مع العدو مهما كانت فرص عقدتها غير متكافئة، فالمعاهدة الموقعة بين الأطراف واجبة الاحترام حتى ولو كانت في غير صالحنا: {وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون (٩١)} (النحل). وحتى إذا بدأ العدو في نقض اتفاقه، فلا يحق لنا أن نهاجمه على غرة، بل يجب أولاً إعلانه بإلغاء عهده معنا بطريقة واضحة: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء} (الأنفال: ٥٨).

ولقد أخطأ جولد تسيهر عند ترجمة هذه الآية، وكذلك كازمرسكي وسفاري فترجموها "عامله بمثل معاملته الخائنة"، وهذا يتناقض مع نهاية نفس الآية {إن الله لا يحب الخائنين (٥٨)} (الأنفال)، وهذا بخلاف القواعد التي حددتها السنة والتي نبحث إن لم يكن في القضاء على هذه الأمة فعلى الأقل في التخفيف من نتائجها القاسية^(١). وإذا أردنا في هذا الشأن مزيداً من التفصيل، لمزيد من التوكيد والتدليل على وجوه الجدة والأصالة المتعلقة بالقرآن أسلوباً ومضموناً، فلنختار مثلاً باب "الإعجاز العلمي" وهو المضمون الذي لا يبارى القرآن فيه أي من الكتب السابقة، وهذا ما أثبتته الدراسة الشهيرة للمستشرق الفرنسي موريس بوكاي الذي درس طويلاً الإشارات العلمية الكونية الواردة في الكتب السماوية الثلاث، وقارنها بحقائق العلم الحديث، وخلص إلى نتيجتين ضمنهما كتابه المعروف: "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث"، وهما:

^١ - مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ترجمة: محمد عبد العظيم، دار القلم، الكويت، ط ٥، ٢٠٠٣ م، ص ١١٢: ١١٩.

الأولى: من حيث الكم، فإن كم هذه الإشارات في الكتابين السابقين ضئيل، بينما هو في القرآن كبير.
الثانية: من حيث الكيف، فإن الكم الضئيل يتناقض في معظمه مع حقائق العلم، بينما كم الإشارات في القرآن وهو كثير يتطابق مع هذه الحقائق. وهذا طبيعي لكون القرآن محفوظا بحفظ الله له، بينما الكتابان السابقان طالتهما كما هو معروف يد التحريف والتبديل.

عن وجوه الإعجاز العلمي البارزة المتفردة في القرآن يحدثنا د. عبد الحافظ سلامة الأستاذ بالمركز القومي للبحوث قائلا: "سأذكر بعض الموضوعات في القرآن الكريم تبين لنا صدق ما جاء به، وأنه منزل من عند الله ردا على ما قيل عنه من حيث احتواؤه على دلالات علمية، لم يظهر تفسيرها إلا حديثا مع تطوير العلوم، فكيف وردت هذه الحقائق العلمية في حينها منذ أربعة عشر قرنا، فمن أين جاء بها؟ وكيف صاغها؟ وكيف تناول هذه المعلومات شديدة التعقيد في آية صغيرة؟ وهذا أبرز مواطن الجدة والأصالة ومظاهرها، وكيف لإنسان مهما كان متعلما ومثقفا وفيلسوبا أن يكون عالما في علوم البيولوجي والجيولوجي والفلك والتاريخ.. إلى آخره، سنلقي بعض الضوء على بعض هذه الموضوعات العلمية التي لم ترد في كتاب من قبل نزول القرآن.

من العجيب أن هذا الكتاب الذي ظهر منذ أربعة عشر قرنا في بيئة صحراوية بدوية يحتوي على أكثر من (٢٠٠٠) ألفين من الجمل أو الآيات العلمية التي لم يظهر تفسيرها إلا في القرن العشرين والحادي والعشرين، وسوف تتوالى الحقائق العلمية التي يحتويها القرآن إلى يوم الدين، ثم يخرج علينا بعض العلمانيين والمنافقين من المسلمين والمستشرقين ويدعون أن القرآن ناتج ثقافي، وقد يكون للمستشرقين بعض العذر، لعدم إلمامهم التام بالعربية، وأنهم مدفوعون بغيرتهم على دينهم في تحريج الآخرين، ولكن ما عذر المسلمين الذين ساروا على نهجهم في تحريج القرآن بحجة البحث العلمي أو لطلب الشهرة وإرضاء أوليائهم، فألغوا عقولهم واتبعوا أهواءهم وتكلموا بغير علم؛ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وعندما أعملت عقلي في آيات الله في القرآن وجدت أن أول آية نزلت في هذا الكتاب المبين هي (اقرأ) فكيف يكتب عن نفسه، ويقول: اقرأ، ويدعي أن جبريل قال له: اقرأ، وهو لا يعرف القراءة والكتابة؟ هل هو كاتب هذا الكتاب. أم أن جبريل هو الذي أوحى إليه؟ ولأمانة التبليغ، قال لنا الرسول ما سمعته بالضبط، و (اقرأ) هذا ليس أمر القراءة للرسول فقط، ولكن الأمر هنا من الله سبحانه، لكل من قرأ الآية، ففي أول آيات نزلت في القرآن {اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥)} (العلق).

ما الفرق بين (اقرأ) في الآية الأولى، و (اقرأ) في الآية الثالثة؟ نحن مستمرون في فرضية أنه متعلم، وأنه مؤلف القرآن، وأنت أيضا متعلم مثله، ودائرة معلوماتك المفروضة أنها مئات أو آلاف أضعاف المعلومات المتوفرة لدى زمانه، كيف ربط هذا المؤلف بين علم المشاهدة وأن تقرأ في كتاب الكون، وأن تبدأ بنفسك، وأنت مخلوق من علق، وليس من نطفة مثلا فلم يعرف أن النطفة تتحول إلى علقة في جدار الرحم إلا بعد اكتشاف علم الأجنة ولكنه ذكر ذلك في آية علمية أخرى في سورة المؤمنون: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (١٤)} (المؤمنون). وهي تشرح أطوار الجنين في بطن الأم، وقد أشار القرآن إلى حقائق علم الأجنة وبكل دقة، ولذلك قال الله سبحانه {خلق الإنسان من علق}؛ لأن النطفة يمكن أن تقذف خارج الرحم، وبالتالي لا يتكون جنين، والنطفة الوحيدة التي تلقح البويضة هي التي تكون العلقة، وهو علم المشاهدة، أما (اقرأ) الثانية

في الآية الثالثة أن تقرأ في الكتاب المسطور المدون، أي العلم المكتوب بالقلم، وهذا العلم الذي علمه الله للإنسان منذ خلقه وما زال يمدّه بالعلم إلى يوم الدين، علم الإنسان ما لم يعلم..

ثم يذكر المؤلف نماذج لبعض الإشارات العلمية في مجالات العلوم المختلفة، فيقول:

علم الأرض:

١. شكل الأرض:

قال تعالى: {ذلك بأن الله يُولج الليل في النهار ويُولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير (٦١)} (الحج)، وقال تعالى: {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣)} (الرحمن)، وقال تعالى: {خلق السماوات والأرض بالحق يَكُور الليل على النهار ويَكُور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار (٥)} (الزمر)، وقال تعالى: {والأرض بعد ذلك دحاها (٣٠)} (النازعات).

علمنا من التاريخ أن العلامة جاليليو عندما أعلن أن الأرض كروية حوكم لكفره، وأُحرق في روما؛ لأن المعلومات المتوافرة لديهم في الفاتيكان تقول: إن الأرض مسطحة وهي المقولة السائدة عند الإغريق والعالم أجمع، وكذلك العرب. فمن أين جاء محمد بأن الأرض كروية، بل ببيضاوية، كما رأيناها في التليفزيون عندما صورت بالأقمار الصناعية؟ وبعد ذلك نقول: إنه مؤلفه؟

٢. تركيب الأرض:

{وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين (٥٩)} (الأنعام). في الآية الكريمة السابقة يقسم لنا الله الأرض إلى: البر والبحر، والغلاف الغازي المحيط به وهو ما بين السماء والأرض، ليس هذا فحسب، فكل شيء في الوجود مكتوب في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ: {وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين (٣)} (سبأ).

وقال سبحانه وقوله الحق: {ويعلم ما في البر والبحر} (الأنعام: ٥٩) وهو علم مطلق، {ولا حبة في ظلمات الأرض} وسبق أن قال سبحانه: (ويعلم ما في البر) وهذا يعلمنا أن الأرض هي البر والبحر؛ لأن أية حبة أو بذرة تحملها الرياح وتسقط في البحر ستستقر في القاع، إن لم تأكلها الكائنات البحرية، وبالتالي تصل إلى الأرض أيضا، علاوة على أن الآية تعلمنا أن أية ورقة نباتية تسقط بعلم الله؛ لأنه سيتغذى عليها البلايين من الكائنات سواء الكائنات الحية الدقيقة، أو ديدان الأرض، أو الحشرات، أو منظومة التغذية جميعها؛ لأن الله قد أعلمنا أن أي دابة في الأرض يعلم مستقرها ومستودعها: {ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين (٦)} (هود). ليس هذا فحسب، فهو يعلم أيضا كل رطب سواء في السماء، أو في الأرض، وأي شيء فيه حياة: {أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (٣٠)} (الأنبياء).

فكل رطب على الأرض يحتوي على كائنات تعيش فيه كالبكتريا والفطريات وخلافه من كائنات حية دقيقة، وكذلك الأوليات من الطحالب والبروتوزا، ثم النباتات والدواب الأخرى، وكذلك الرطب؛ والسحب المتناثرة، ثم تتجمع فتصبح سحباً ركامية، ثم تلقح فتصبح سحباً ثقلاً تخرج الودق، والرعد، والبرق، والبرد، والصواعق، وكل بإذن الله، وكل في كتابه فلا يوجد عشوائية في الكون.

٣. ما تحتويه الأرض من كائنات حية:

كان معروفا منذ القدم أن الأرض ميتة ليس فيها حياة حتى أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، عندما اكتشف فان ليفنهوك الميكروسكوب، وكذلك اكتشاف البكتريا عن طريق لويس باستير، وروبرت كوخ عندئذ عرفنا أن التربة أو الأرض يحتوي الجرام الواحد منها على ملايين الملايين من الكائنات الحية الدقيقة من بكتيريا وفطريات وطحالب وبروتوزوا وخلافه، ولذلك أطلق على الأرض بعد هذا "الأرض الحية"، وكذلك اكتشفنا عند سقوط ورقة النبات، أو دفن إنسان أو حيوان، فإن الكائنات الحية الدقيقة، وخصوصا البكتيريا تقوم بتحليلها إلى مكوناتها الأساسية إلى ثاني أكسيد الكربون والماء والطاقة، وبعض العناصر المعدنية، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (طه)، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) أحياء وأمواتا (٢٦) ﴿المرسلات﴾ فيعلم ما تحت الثرى، أي: ما في باطن الأرض من كائنات حية، وغيرها من المعادن والتراكيب الصخرية، وخلافه. وكذلك ما بين السماوات والأرض، وهي السحب المحملة بالمياه، وما تحتويه من شحنات كهربية: برق، ورعد، وصواعق، وفي الآية التالية لها حدد لنا أن الله جعل الأرض كفاتا، أي: مأوى للأحياء وهي الكائنات الحية الدقيقة، والديدان، والحشرات، وكذلك جذور النباتات، وكذلك للأموات عندما تدفن فتحلل إلى موادها الأساسية.

علم النبات:

والنباتات تعتبر من أهم الكائنات الحية على وجه الأرض، ولقد ذكر في القرآن العديد من أشكال وألوان وثمار النباتات المختلفة، إلا أننا سنذكر فقط عملية التمثيل الضوئي في النبات كما جاء في القرآن. فالمعروف علميا أن عملية التمثيل الضوئي تحتاج إلى ضوء وحرارة، وماء وكلوروفيل، وثاني أكسيد الكربون، لإنتاج المواد الكربوهيدراتية. ولذلك ذكر في القرآن أن الشمس سراج وهاج، وهي الطاقة والضوء، وأنزل من المعصرات، وهي السحب الماء العذب الشجاع مع الخضر، ليخرج أو ينبت به حبا ذا فلقلة واحدة، ونباتا ذا فلقتين، وجنات ألفافا وهي الغابات الاستوائية والمدارية والصنوبرية: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَاتَرَا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٩) ﴿الأنعام﴾، ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (١٣) وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا (١٤) لنخرج به حبا ونباتا (١٥) وجنات ألفافا (١٦) ﴿النبأ﴾.

ففي الآيتين الكريمتين ربط الماء مع النبات، بخروج النبات الأخضر نبات كل شيء ذي الفلقلة الواحدة، وهو الحب، كالقمح، والزيتون، والرمان، وكذلك الجنات الألفاف، وهي النباتات الملتفة على بعضها، وهي صورة الغابات الاستوائية والمدارية والصنوبرية. فهل هذه المعلومات كانت متوافرة في زمانه صلى الله عليه وسلم؟ وإن كانت متوافرة فهل يمكن لإنسان أن يوضح هذه المنظومة في جملتين فقط؟! ما هو إلا إعجاز من الله ليبين قدرته في كتابه، أفلا يتدبرون القرآن؟!

علم الحيوان:

﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤) ﴿البقرة﴾. وبث في الأرض من كل دابة من البكتيريا للديناصورات في الأرض، ومن البكتيريا للحيتان في البحر شاملة من الأوليات مثل: البروتوزوا والحشرات والديدان، حتى الحيوانات الراقية كالقردة وخلافه، كما وصف الله الإنسان عند عدم

إيمانه بالله وأنبيائه، وعدم إعمال العقل أنه من شر الدواب: {إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (٢٢)} {الأنفال}، {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون (٥٥)} {الأنفال}.

والدواب: هي كل ما يدب على الأرض، وقد بين لنا الله الحركة للدواب، فمنها من يمشي على بطنه {والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير (٤٥)} {النور} مثل الزواحف (الثعابين) ومنها من يمشي على رجلين كالطيور، ومنها من يمشي على أربع كالحوانات، ثم قال: (يخلق الله ما يشاء) مثل: الحركة بالأسواط، والأهداب، والأقدام الكاذبة، ومفصليات الأرجل وعديدة الأرجل كالديدان، سبحان الله!!

ليس هذا فحسب، فقد بين لنا الله آيات أخرى لم يظهر تفسيرها إلا حديثا مثل:

١. علم تخاطب الطيور:

من المعروف أن الطيور لها أصوات مختلفة التناغم وهي مسموعة، ولكن الغريب هو تخاطب الحشرات، والمعروف أن الحشرات طائفة، ولذلك نجد في القرآن العظيم أن هناك لغة للطيور، فقد تحدث سيدنا سليمان مع الهدهد، وقد سمع النملة، وهي آية من آيات الله، ولم نعرف أن هناك لغة للطيور، أو تحدث الحشرات إلا حديثا في القرن العشرين، ثم نقول: إن هذا الكتاب مؤلف!! {وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين (١٦)} {النمل}، {وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين (٢٠)} {النمل}، {فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبيل نبيي يقين (٢٢)} {النمل}. وقد سمع النملة وهي تتحدث على الرغم من أن تذبذبات صوت النمل لا يمكن لإنسان أن يسمعها، ولكنها قدرة أعطها الله لسيدنا سليمان دون خلقه أجمعين: {وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور فهم يوزعون (١٧) حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون (١٨) فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (١٩)} {النمل}، ولم يطغ سليمان، ولكن شكر الله على نعمائه، فكان من عباد الله الشاكرين.

٢. بيئة الحيوانات:

وفي مجال الحيوان أيضا ذكر الله لنا في كتابه المفترى عليه، أن أنثى العنكبوت هي التي تبني بيتها وليس الذكر، ولا يعرف هذه المعلومة إلا من كان عالما في علم الحيوان، وهل يعرف محمد في عصره أن أنثى العنكبوت هي التي تبني البيت؟ ولماذا لم يقل إن أوهرن الخيوط، وليس أوهرن البيوت؟ {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهرن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون (٤١)} {العنكبوت}.

على الرغم من أن كلمة (بيت) مثل خيط في عدد الحروف وفي الصوت، أي: في النطق، وكذلك في الإعراب، وهو ما نشاهده أن أوهرن الخيوط خيط العنكبوت وليس بيتا، إلا أن العلم الحديث أظهر أن خيط العنكبوت أقوى من خيط من الصلب مماثل له في السمك.

وبالتالي لو قال: أوهرن الخيوط لأثبت العلم أنه لم يكن صادقا، ويكون هذا الكتاب من تأليف بشر، ولكن عندما قال (أوهرن البيوت) فهو فعلا أوهرن البيوت، ولذلك ختمت الآية: (لو كانوا يعلمون)، وهنا العلم مطلوب لإثبات ما جاء في الآية، ولا يصح أن يقال: لو كانوا يعقلون أو يتدبرون، أو يتفكرون، مثل الأمثال الأخرى في القرآن،

ليس هذا فحسب، فالآية التي تليها يذكر لنا الله أن الذي يعرف هذه الحقيقة من العلماء العاقلين، وهنا ذكر العقل والتدبر {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون (٤٣)} (العنكبوت).

وآية علمية أخرى في بيئة الحشرات تدل على آيات الله العلمية في القرآن العظيم، والدالة على صدق ما جاء في هذا الكتاب، وأنه من عند الله خالق كل دابة يعرف مقرها ومستودعها سبحانه {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين (٦)} (هود)، وفي مثل آخر أخذ شغالة النحل لرحيق الأزهار، للحصول على غذائها آية من آيات الله في القرآن: {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨)} (النحل)، {ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩)} (النحل).

من قال: إن في مملكة النحل أن تقوم الشغالة بهذه الوظائف إلا في علم الحشرات، أو علم النحل، كما أفرد له تخصص بذاته لتمييزه عن باقي الحشرات، وقد ظهر لنا في هذا العلم أن الشغالة.. وهي الفرد الأساسي في الخلية - هي التي تبني البيوت بوحى من الله، لذلك نجد الشكل السداسي واحدا في جميع بيوت النحل، سواء أكان في الصين، أم كندا، أم في أوروبا متساويا في أضلاعه وبدقة شديدة.

حيث ذكر لنا الله أنه أوحى إلى النحل، ومن وظائفها أيضا تجميع الرحيق، وحبوب اللقاح لإنتاج عسل النحل، وخبز النحل، وهي التي تنظف الخلايا، وهي المحاربة ضد الأعداء، وهي التي تحوي بأجنحتها داخل الخلية في أوقات الحر، وهي.. وهي.. وليس الذكور مثلا أو الملكات! أما المقولة في الآية: {ثم كلي من كل الثمرات} هي من آيات الله العلمية في القرآن تبين مدى دقة اللفظ، والمعلومة العلمية، فنحن نعلم أن النحل يجمع رحيقه من الأزهار، وكذلك حبوب اللقاح.

فكيف يذكر أن النحل يأكل من الثمرات؟ فمن المعروف أن ٨٥% من الأزهار ذاتية التلقيح، بمعنى أنها تلقح نفسها قبل أن تتفتح الزهرة، ومن المعروف أيضا علميا أنه إذا لقح المبيض الزهرة بحبوب اللقاح تصبح ثمرة. وبالتالي تصبح جميع الأزهار ذاتية التلقيح ثمارا قبل أن تتفتح الأزهار، كما أنه من وظيفة الشغالة في النحل أنها تعمل على تلقيح الأزهار، وذلك بحبوب اللقاح التي تنتشر على ظهورها والمحمولة على أرجلها، وبالتالي تصبح الأزهار ثمارا، فيكون لفظ {ثم كلي من كل الثمرات} هو اللفظ العلمي السليم لأخذ الشغالة لرحيقها من الأزهار، ليس هذا فحسب، فقد وجد من تشريح النحلة في فم النحلة قارض لاعمق، وهي فعلا تأكل جدار المبيض للثمار، فمن أين جاء هذا الكاتب بهذه الحقائق العلمية التي أخذت منى جهدا كبيرا للحصول عليها، وذلك بالبحث في علم تقسيم النبات وكيفية التلقيح في الأزهار، وعلم تشريح الحشرات لمعرفة تركيب فم النحلة وخلافه؟!

كذلك (يخرج من بطونها شراب) على الرغم من أن الحديث عن فرد واحد، وجد عند تشريح النحلة أن لها عدة بطون خمسة أبطن فيكون اللفظ (بطونها) آية من عند الله أيضا.

الإنسان:

ذكر القرآن في آياته العلمية أن الإنسان ذكرا كان أو أنثى هو من نطفة الرجل، ولا دخل للمرأة في تحديد الجنس: {ألم يك نطفة من مني يعني (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩)} (القيامة).

ويلاحظ دقة لفظ القرآن عمليا، حيث ذكر تحول النطفة إلى علقة، وأن هذا التحول هو خلق وليس تكوين، وقد فسر ذلك في آية أخرى أشد تحديدا ودقة، وكما أثبتتها علم الأجنة حديثا: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من

طين (١٢) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (١٤) { (المؤمنون).

ونجد أن مراحل تكوين الجنين في الرحم مذكورة بالتفصيل، وجميعها في آية واحدة، وأنها خلق.. خلق.. خلق حتى كمال الجنين، فالخلق من سلالة من طين، أي نوع من أنواع الطين وهو الصلصال وهو أحد مكونات التراب؛ لأن الطين معدن يتكون من الألمونيوم والسيليكون، بينما التراب علاوة على احتوائه على معدن أو أكثر من معادن الطين إلا أنه يحتوي أيضا على السلت (الشعير) والرمل، والعناصر الغذائية الصغرى والكبرى.. ولذلك ربط الله هذه الأطوار السابقة، وأوصلها إلى نهاية عمر الإنسان بالماء والتراب والنبات، حيث يكون الكربوهيدرات والبروتينات والفيتامينات... إلخ، اللازمة لتكوين الإنسان سواء في بطن أمه أو بعد ولادته، حيث يدخل في تركيب دم الأم الذي يستخلص منه اللبن، وحتى عندما يكبر حيث يدخل النبات أيضا - أي الغذاء - في تعويض ما يفقده الجسم من الخلايا، علاوة على حصول الكائن الحي أو الإنسان على الطاقة اللازمة لحياته: { يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٥) } (الحج). ليس هذا فحسب، فجميع علاقات وسلوك الإنسان بأسرته، ومجتمعه المحلي، ومجتمعه العالمي، وسلوكه في الدنيا، ومآله في الآخرة، مذكور بدقة في هذا الكتاب العظيم، وأما ما ذكرناه سابقا فهو خلقه فقط.

الماء في القرآن:

بدراسة الماء في القرآن العظيم فقد وجد أنه قد ذكر مكثفا شاملا لأنواعه، ومصادره وعلاقته بالرياح، والشمس، والنبات، والدواب، والإنسان، والجبال وقد يأتي الماء بالسحابة والرفاهية، أو يأتي كعذاب من عند الله دمارا شاملا كالطوفان، والسيول، وغيرها. وقد احتوى القرآن العظيم في منظومة علمية فريدة لا يمكن لبشر في عصر نزول القرآن، وحتى عصرنا هذا أن يجمع في كتاب واحد، هذا الموضوع الشائك والمهم في الكون؛ لذا وجد الماء في القرآن العظيم في الآيات الكريمة الدالة على عظمة الخالق، وأن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون إلا من عند الله سبحانه^(١). بل إن الأمر لا يتعلق فقط بالجدّة في المضمون القرآني وقت نزوله والأصالة وعدم التقليد والاحتذاء الحرفي للكتب السابقة عليه، بل تمتد هذه الجدة والأصالة والطرافة للحاضر والمستقبل، ونقصد هنا الحيوية المستمرة والقابلية للتطبيق، والصلاحية الدائمة للمبادئ والتعاليم القرآنية لحل مشكلات الإنسانية على مر عصورها وكر دهورها؛ وذلك لأنها تحوي أصولا وثوابت وهيكلًا عامًا يدور المسلمون في إطاره ولا يخرجون عنه، وفي الوقت نفسه تركت لهم مساحة واسعة من حرية الحركة داخل هذا الإطار العام، فيجتهدون في تفاصيل حياتهم ودقائق ظروفهم ومشكلاتهم بما يتسق مع الثوابت، ويتناغم مع الأصول ولا يند عنها، ومن هنا تمتعت مبادئ هذه الشريعة، وتعاليم كتابها المقدس القرآن الكريم كما ذكرنا، بديمومة حيويتها واستمرارية صلاحيتها للزمان والمكان.

حول هذا المعنى يقول الأستاذ محمد قطب: "يتردد على لسان العلمانيين دائما هذا السؤال: أنى للشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنا أن تحكم الواقع الموجود اليوم، وهو واقع يختلف أشد الاختلاف عن الواقع الذي نزلت فيه تلك الشريعة، فضلا عن الزعم بأنها صالحة للمستقبل كذلك؟

^١ - يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة حامد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٧: ٣٢ بتصرف.

ونقول نحن: إن هذا أحد أوجه الإعجاز في الشريعة التي أنزلها الله، وأمر باتباعها، ولم يجعل لأتباعها حدا زمنيا معيناً يجوز للبشر بعده أن يتخللوا عنها، ولم يحدد أحوالا بيئية أو سياسية أو اقتصادية معينة يكف البشر فيها عن تطبيق الشريعة.

وإن مجرد القول بأن الظروف تغيرت معناه الشك في علم الله وحكمته، فكأنما علمه نستغفر الله كان ناقصا وقت تنزيل الشريعة، فلم يكن يعلم سبحانه أن الظروف ستتغير، وتأتي ظروف غير الظروف! وكأنما حكمته نستغفر الله كانت ناقصة، فلم يقدر سبحانه أثر تغير الظروف في صلاحية هذه الشريعة التي أنزلها وأمر باتباعها اتباعا مطلقا بغير تحديد!

وقد لا يدرك الذين يرفعون لافتة تغير الظروف أنهم بذلك يطعنون في علم الله وحكمته، ولكن هذا هو لازم قولهم، ولزم اعتقادهم، وعوا ذلك أو لم يعوه، وقصدوه أو لم يقصدوه. فلو أنهم آمنوا حقا بأن الله عليم حكيم، لم تجرؤ تلك الخواطر الفاسدة أن تخطر على قلوبهم، وتفسد مشاعرهم تجاه الله ودينه وشريعته. ولا عيب في أن يكون الإنسان جاهلا لأمر من الأمور التي تتعلق بدينه، ولكن عليه عندئذ أن يبحث عن الحق حتى يزيل جهالته، وأن يقول: {وقل رب زدني علما (١١٤)} (طه).

أما الذين يخالفونه فهم الجهال المتأخرون المتخلفون أعداء العلم، وأعداء العقلانية، وأعداء التقدم، فهذا من مصائب الجاهلية.. كل جاهلية.. والجاهلية المعاصرة بصفة خاصة التي ترفع لافتة العلم والتنوير، وتضعها فوق ما أسماه ألكسيس كاريل بـ "الجهل المطبق" في كتابه الشيق "الإنسان ذلك المجهول"^(١).. ونعود الآن بعد هذه الجولة إلى قضية الشريعة الربانية المنزلّة قبل أربعة عشر قرنا، وموقفها من الإنسان وموقف الإنسان منها، على ضوء قضية الثبات والتغير. إذا تبين لنا من البحث الموضوعي أن في الحياة البشرية أصولا دائمة لا تتغير، هي المركوزة في أصل الفطرة، وصورا متغيرة من الممارسة لبعض النوازع الفطرية (وليس كلها) مع ثبات أصولها ومنابعها في الفطرة، فما الطريقة المثلى لتنظيم الشريعة في مجالات الحياة كافة، بصرف النظر عما يجد في حياة البشر؟ أم تركها تتغير في جميع مجالاتها كلما عن للبشر أن يغيروا؟ أم تثبت ما من شأنه الثبات، وإتاحة المجال للمتغيرات أن تتغير مع تثبيت الأصول التي تحكمها في تغييرها؟

هنا في هذا المجال بالذات يتجلى لنا عنصر من عناصر الإعجاز في التشريع الرباني، في الحياة البشرية ثوابت ليس من شأنها أن تتغير؛ لأن تغييرها يفسد حياة الناس، وهذه نصت عليها الشريعة نصا صريحا ملزما. وهناك متغيرات ليس من شأنها أن تثبت على صورة معينة؛ لأن تثبيتها يجمد الحياة مع تثبيت الأصول التي تحكمها بحيث لا تحل حراما، ولا تحرم حلالا، ولا تصادم مقاصد الشريعة. وبهذا تواكب الشريعة البشرية في جميع خطواتها، وتضبط منطلقها في ذات الوقت، فلا تأسن من الجمود، ولا تخرج مع الانحراف.

هناك الضرورات الخمس: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ المال. هذه ثوابت لا تخضع للتغيير، لا من حيث الجوهر ولا من حيث الصورة؛ لأن أي تغيير فيها يفسد الحياة. ومن حفظ الدين تحكيم الشريعة وتحريم الردة. ومن حفظ العقل، تحريم المسكر، والمخدر. ومن حفظ النفس تحريم القتل والعدوان، ومن حفظ العرض تحريم الفاحشة، وما يقرب منها أو يؤدي إليها. ومن حفظ المال تحريم السرقة، والغش، وأكل أموال الناس بالباطل. وتتعلق بهذه جميعا حدود لا تغير فيها، ولا استبدال لغيرها بها.

^١ - لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص١٧٥، ١٧٦ بتصرف يسير.

ثم هناك ثوابت أخرى ناشئة من ثبات أركانها وعدم قابليتها للتغيير، كعلاقات الأسرة، وعلاقات الجنسين، وعلاقات المجتمع الإسلامي بعضه بعض، وعلاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم. وتلك كلها تحكمها قواعد ثابتة ونصوص تفصيلية غير قابلة للتغيير.

وهناك بعد ذلك أمور كثيرة تتغير صورتها على الدوام، نتيجة تفاعل العقل البشري مع الكون المادي، واكتساب الإنسان خبرات جديدة من خلال هذا التفاعل فتتغير الصورة السياسية، والصورة الاقتصادية، والصورة الاجتماعية، ولكنها في تغييرها الدائم لا ينبغي لها أن تخرج على القواعد العامة التي تحكمها، والمنصوص عليها في كتاب الله، والسنة مكملة وشارحة، وهي من الوحي الرباني.

وهكذا تنمو المجتمعات نموا سويا، وتتغير بعض الصور في حياتها من جيل إلى جيل، ومن طور إلى طور، ولكن أصولها لا تتغير، فتظل الشريعة عاملة في حياتها، لا تحتاج إلى تعديل، ولا تغيير ولا تعديل. بينما يظل باب الاجتهاد مفتوحا لتغطية ما يجد من أمور في حياة الناس بغطاء الشريعة الدائم الذي لا يتغير، وتظل الأمة محافظة على إسلامها بمحافظتها على عقيدتها وشريعتها، ومحافظة في الوقت ذاته على رضوان الله، الذي أنزل غضبه على من لم يحكم بما أنزل الله {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٥٠)} {المائدة}، {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٦٥)} {النساء} ^(١).

ولا يفوتنا أن نذكر في باب الإعجاز التشريعي ذلك الشمول الذي تتميز به الشريعة الربانية، مع خاصية التوازن التي أشرنا إليها من قبل. فما من مجال من مجالات الحياة إلا للشريعة مدخل فيه. فهو بالضرورة واقع في واحد من هذه الأبواب الخمسة: حرام أو حلال، أو مباح، أو مندوب، أو مكروه. سواء أكان مجالا اقتصاديا، أم سياسيا، أم اجتماعيا، أم أخلاقيا، أم فكريا، أم ما يكون من ألوان النشاط البشري في الأرض، وذلك من الإعجاز: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١٦٣)} {الأنعام}.

إن النظم البشرية بحكم قصور البشر عن الإحاطة بكل شيء تهتم ببعض الجوانب على حساب جوانب أخرى، وتركز على مجالات وتهمل مجالات.

ففي الديمقراطية "الليبرالية": هناك تركيز كبير على (الحقوق السياسية) يقابله إهمال ملحوظ في الجوانب الأخلاقية يصل إلى حد التسبب الذي يهدد تلك المجتمعات في النهاية بالانهيار.

وفي النظم الرأسمالية تركيز شديد على حرية رأس المال في العمل والحركة، ورفع الحواجز من طريقه، دون النظر إلى العواقب المحلية والعالمية التي تنجم عن هذه الحرية التي عبر عنها أحد كتابهم، وهو يتحدث عن عواقب الربا، والمعاملات الربوية بأن نتيجتها النهائية هي: تزايد الثروة في يد فئة يتناقص عددها باستمرار، وتزايد الفقر في أعداد من الناس يتزايد عددهم باستمرار، وذلك فضلا عن الحروب والصراعات العالمية التي تطحن الناس طحنا، وتفسد عليهم أمنهم وطمانينتهم، والعوامة الحاضرة نموذج!

وفي النظم الدكتاتورية: تركيز شديد على سيادة (السيد) الذي يحكم، وإحاطته بكل وسائل السيطرة، وكبت حريات الناس في المقابل؛ لأنها تخدم سلطان (السيد)، ولا حقوق للناس إلا ما يتكرم به السيد على الناس تكرما، وعليهم أن يرضوا صاغرين.

^١ - لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٨٣: ١٨٥ بتصرف يسير.

وفي الوقت ذاته تباح الملهيات ليغرق الناس فيها، وينسوا همومهم، كما كانت الشيوعية تفعل بشعوبها، وتفتخر بأن أعلى الرواتب هي رواتب الممثلين والممثلات والراقصين والراقصات.

وبهذا البيان يتضح لنا أن النظرة الشاملة التي تضع كل شيء في مكانه ليست من شأن البشر! فالبشر تحركهم أهواؤهم أكثر مما تحركهم عقولهم: {إلا عباد الله المخلصين (٤٠)} {الصفات} لا لأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر، ولكن لأنهم يلتزمون بشريعة الله، فتمنع عنهم الجنوح في جانب والإهمال في جانب. وتوازن حياتهم فينعمون بالأمن والطمأنينة والاستقرار^(١).

يؤكد على هذه الخصوصية خصوصية جدة وحيوية مبادئ الشريعة، وتعاليم القرآن الدائمة الأستاذ محمد فريد وجدي، مبرزاً قابليتها لاستيعاب كل جديد، وتسخيرها لفائدة البشر، على عكس الجمود الراسخ الذي أصاب تعاليم الأديان السابقة، وتحجر المؤسسات الممثلة لها في مواجهة كل جديد، مما حدا بمجتمعاتها إلى معاداتها، والخروج عن طوعها فبرزت فيها لذلك العلمانية المخافية للدين.

يقول الأستاذ وجدي: "الإسلام مرن يتسع لما يجد من الآراء العلمية، ولا يستعصي على ما يثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية، ولا ما يقوم الدليل عليه من الشؤون الكونية، والواقع أنه قليل على الإسلام أن يوصف بالمرونة وسعة الصدر للآراء والمذاهب والكونيات؛ لأنه دين انطلاق وتعقل وتفكير ومطالبة بالفهم والدليل، وإشعار بالتبعية الشخصية، ونهي عن التقليد. وقد كان الناس إلى عهده أسرى الأوهام والأضاليل، وصرعى الموروثات والتقاليد، ليس في الدين فحسب، ولكن في العلم أيضاً.

نعم، في العلم الذي يفخر اليوم بأنه أطلق العقل من إساره، وخلصه من أغلاله، وأرسى المعلومات على أساس الواقع المحسوس، هذا العلم صادق فيما يدعي، وقد سبق الإسلام باكون العلامة الإنجليزي بنحو ألف سنة يمثل هذه الآيات: {قل انظروا ماذا في السماوات والأرض} (يونس: ١٠١) {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها} (الحج: ٤٦)، {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً (٨٥)} (الإسراء)، {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب (٩)} (الزمر)، {وقل رب زدني علماً (١١٤)} (طه)، {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون (٤٣)} (العنكبوت)، ويمثل هذه الآيات في النعي على الخياليين والمقلدين: {وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً (٢٨)} (النجم)، {قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون (١٠٤)} (المائدة)، {قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (١١١)} (البقرة)، ويمثل هذه الآيات في وجوب التثبت والتدقيق. {ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً (٣٦)} (الإسراء).

لقد جاء الإسلام إلى العرب في عهد كانت فيه حياتهم الاجتماعية قد استوت على قرار منذ قرون، فأهل البداوة منهم كانوا هملاً، ومن الفوضى بحيث كانوا يتناحرون، وكان من جاور الفرس والروم منهم قد وقعوا تحت نير هاتين الدولتين منذ قرون، واستكانوا لهذه العبودية وألفوها، ولم يحركوا ساكناً لرفع نيرها عنهم. زد على هذا أن الأمة العربية كانت تكاد تكون وحيدة في عملها من الناحية الكتابية، فلم تترك لنا كتاباً واحداً حتى ولا ما تحرص عليه كل أمة من مخطوطات دينية ونقوش طلسمية.

جاء الإسلام إلى هذه الأمة، وهي في هذا الدور من الجاهلية الجهلاء، فصاح بها صيحات تحمل في تياراتها نفحات من روح الحق، فهبت من سباتها العميق تتطلب الحياة، وسارت في طريق التطور الاجتماعي، فما مضت عليها

^١ - لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٩٠: ١٩٢ بتصرف يسير.

مائتا سنة حتى أصبحت صاحبة القيادة العلمية والسياسية في الأرض، وكانت سببا مباشرا في حفظ تراث الإنسانية من ثمرات العقول، ونتائج الفكر.

فهذه الحركة العلمية القوية فيها ما نشأت إلا بباعث من الإسلام، وما اتجهت وجهتها إلا بإملائه، وما توسعت وأملت بجميع فروع المعارف إلا بدافع منه، وقد شهد بذلك جميع مؤرخي العالم قديما وحديثا.

وثمة شواهد تاريخية على أن المسلمين الأوائل لم يجرموا على أنفسهم مذهبا من المذاهب، ولم يهملوا رأيا من الآراء، ولم يهجروا أسلوبا من الأساليب بحجة دينية، ولكنهم ألقوا بأنفسهم أحرارا في عباب العلوم، والفلسفات غير مقيدين ولا متأثرين، فبنوا للناس من ثمرات جهودهم صرحا من المجد لا تعفى على آثاره الدهور.

قال العلامة درابر المدرس بجامعة نيويورك في كتاب (المنازعة بين العلم والدين): "لقد كان تفوق العرب في العلوم ناشئا من الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم، وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان الأوربيين، فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلي أي النظري الفكري المجرد لا يؤدي إلى التقدم، وأن الأمل في الوقوف على الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها. ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم، الأسلوب التجريبي والدستور العلمي.. إلى أن قال: وهذا الأسلوب هو الذي حقق لهم التقدم الباهر في الهندسة، وحساب المثلثات، وهو أيضا الذي مكنتهم من وضع قواعد علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية... إلخ.

إن من يتأمل فيما ذكرناه، يرى أن المسلمين الأولين قد ألقوا بأنفسهم في باحات العلم مطلقين غير مقيدين، فلم تكن هنالك سلطة دينية تحكم العلماء على الفتيل والقطمير وتحاول أن تجعل العقل والعلم تحت وصايتها فتقف حجر عثرة في سبيله.

فهل في الأديان المعروفة شيء من هذا النوع؟

لو شئنا ملأنا مجلدات من أخبار مكافحتها للعلم، والعقوبات القاسية على كل صغيرة وكبيرة منها أكثر من عشرة قرون متوالية؟ على عكس موقف الإسلام المتألق من العلم، وإعمال العقل، وهذا من طرائف هذا الدين ومواطن الجدة في تعاليمه القرآنية، وهو ما نؤكد في ردنا على هذه الشبهة الزاعمة أنه لم يأت بجديد، وأنه نسخة ملفقة مما سبقه من كتب الأديان السابقة ولكنك لو علمت أن هذا الدين شرع ليكون دين البشرية العام الخالد، وأنه أنزل للناس في آخر الزمان حيث يبلغ العلم أبعد شأوا مما يتصوره الخيال بعيد المدى، وتكثر المسائل العلمية الحديثة التي يؤيدها الإعجاز العلمي في القرآن، لبطل تعجبك وأدركت العاقبة له حتما، وإن كره ذلك الكارهون، مصداقا لقوله تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٥٣)} (فصلت) ^(١).

هل هناك براهين وحجج أوضح من هذا ما نزال نعوزنا للتدليل على أن هذا الكتاب الكريم - القرآن -

قد حوى جديدا غير معهود من قبل، فيما سلف من كتب ورسالات؟

ثانيا. القرآن مصوب ومتمم، وليس نسخة مقتبسة مما سبقه:

التشابه في ذكر الوقائع والأحداث بين القرآن والكتب السابقة لا يعني أنه اقتبس منها، فقد أضاف وعدل وذكر ما لم تعرفه؛ فالجديد في القرآن لا يتمثل في الإضافة فقط، وإنما في تصويب الأخطاء التي وردت في العهدين القديم، والجديد بسبب التحريف والتزييف ^(٢):

^١ - الإسلام دين الهداية والصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٥٩ وما بعدها.

^٢ - حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص٤٩٥.

الأول: التشابه بين التوراة والقرآن في أصل الواقعة فقط لا في التفاصيل.

١. لقطة من قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز:

• القصة في التوراة:

"وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: "اضطجع معي". فأبى وقال لامرأة سيده: "هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت، وكل ما له قد دفعه إلى يدي. ليس هو في هذا البيت أعظم مني. ولم يمسك عني شيئا غيرك، لأنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟" وكان إذ كلمت يوسف يوما فيوما أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها.

ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!" فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج. وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج، أنها نادت أهل بيتها، وكلمتهم قائلة: "انظروا! قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا! دخل إلى ليضطجع معي، فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أي رفعت صوتي وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبه وهرب وخرج إلى خارج". فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته. فكلّمته بمثل هذا الكلام قائلة: "دخل إلى العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني. وكان لما رفعت صوتي وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبه وهرب إلى خارج".

فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة: "بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك"، أن غضبه حمي. فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن، المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه". (التكوين ٣٩: ٧ - ١٧).

• أما النص القرآني:

قال تعالى: {ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون (٢٣) ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين (٢٤) واستبقا الباب وقدرت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥) قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم (٢٨) يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (٢٩) وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين (٣٠) فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (٣١) قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين (٣٢) قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين (٣٣) فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم (٣٤) ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين (٣٥) { (يوسف).

وبالنظر في النصين التوراتي والقرآني يتبين أنهما لم يتفقا إلا في أصل الواقعة، ويختلفان بعد ذلك في كل

شيء، على أن القرآن قام هنا بعملين جليلي الشأن:

• أورد جديدا لم تعرفه التوراة فمثلا: حديث النسوة وموقف المرأة منهن، شهادة الشاهد الذي هو من أهل

امرأة العزيز.

• تصحيح أخطاء وقعت فيها التوراة ومن أبرزها: لم يترك يوسف ثوبه لدى المرأة، بل كان لابسا إياه، ولكن قطع من الدبر، غياب يوسف حين حضر العزيز وإسقاطها التوراة دفاعه عن نفسه.

ربما يقول قائل: ولماذا تنحيز للقرآن وتعتبر النص التوراتي هو الخاطيء؟!

والرد على هذا الاعتراض يبينه دواعي حكمنا هذا بدون تعصب للقرآن أو المسلمين، إذ إنه لم يرد في القرآن قط ما هو خلاف الحق؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وقد ثبتت هذه الحقيقة في كل مجالات البحوث التي أجريت على "مفاهيم" القرآن العظيم في كل العصور، وهذا الداعي وحده كاف في تأييد ما ذهبنا إليه، بالإضافة إلى أنه منتزع من الواقعة نفسها: فكل من التوراة، والقرآن متفق على عفة يوسف وإعراضه عن الفحشاء، ثم اختلف في سرد القصة كاملة.

فالتوراة تذكر أن يوسف ترك ثوبه كله لدى المرأة وهرب، والقرآن يقول: إنه لم يترك قطعة الثوب، بل أمسكته المرأة من الخلف، ولما لم يتوقف يوسف اقتطعت قطعة منه وبقيت ظاهرة في ثوبه، فأى الروايتين أبقى بعفة يوسف المتفق عليها بين المصدرين، أن يترك ثوبه كله؟ أو أن يخرق ثوبه من الخلف؟!

وإذا سلمنا جدلا بصحة رواية التوراة فيوسف ليس عفيفا، والمرأة على حق في دعواها، وهذا ما لا يليق بنبي من أنبياء الله؛ لأن يوسف لا يخلع ثوبه هكذا إلا إذا كان هو الراغب وهي الأبية، ولا يقال إن المرأة هي التي خلعت ثوبه عنه؛ لأن يوسف رجل وهي امرأة، فكيف تتغلب عليه وتخلع ثوبه بكل سهولة، وعندما يتمتع، تحتفظ هي بالثوب كدليل مادي على جنايته المشينة؟! وهل خرج يوسف "عريانا" وترك ثوبه لدى غريمته؟ يقال أما ما نلمحه في القرآن من فرار يوسف من المرأة، وإمساكها وتشبثها به، فأدى ذلك إلى قطع ثوبه من الخلف، فيتفق مع عفة يوسف التي صرح بها في المصدرين فكيف يقال إن القرآن مقتبس من التوراة؟

والمعروف أن المقتبس لا بد أن ينقل الفكرة كلها أو بعضها، وما نحن رأينا أن القرآن يتجاوز هذه الأسس، فيأتي بجديد لم يذكر فيما سواه، ويصحح خطأ وقع فيه ما سواه، والاختلاف بين النص هنا وهناك يشمل الأصول والفروع بالإضافة إلى إحكام البناء، وعفة الألفاظ، وشرف المعاني.

٢. قصة قابيل وهابيل ابني آدم:

• النص في التوراة:

"وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت: "اقتنيت رجلا من عند الرب". ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعيا للغنم، وكان قايين عاملا في الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه. فقال الرب لقايين: "لماذا اغتظت؟ ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أفلا رفع؟ وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة، وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها". وكلم قايين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين: "أين هابيل أخوك؟" فقال: "لا أعلم! أحارس أنا لأخي؟" فقال: "ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلى من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الأرض". فقال قايين للرب: "ذني أعظم من أن يحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض، ومن وجهك أختفي وأكون تائها وهاربا في الأرض، فيكون كل من وجدني يقتلني". فقال له الرب: "لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه". وجعل الرب

لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجدته. فخرج قايين من لدن الرب، وسكن في أرض نود شرقي عدن". (التكوين ٤: ١ - ١٦).

• نص القرآن:

وقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قريا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين (٢٧) لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين (٢٨) إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين (٢٩) فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (٣٠) فبعث الله الغراب فإبى في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتنا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين (٣١) من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون (٣٢)﴾ (المائدة).

اتفق المصدران في مسألة القربان، وقتل أحد الأخوين للآخر. وما ورد في القرآن عدا ذلك يختلف تماما عن نظيره في التوراة. فنلاحظ أنه لا هدف لذكر القصة في التوراة إلا مجرد التاريخ، فهي معلومات ذهنية خالية من روح التربية والتوجيه، أما القرآن فيجعل من هذه القصة هدفا تربويا، أو يبني شريعة القصاص العادل عليها، ويلوم بني إسرائيل على إفسادهم في الأرض بعد مجيء رسل الله إليهم، إضافة إلى هذا سوء مخاطبة قابيل الرب في قوله: "أحارس أنا لأخي" ففيها فظاظ، لو صدرت من إنسان لأبيه لعد عاقا فظا غليظا، فكيف تصدر من "مربوب" إلى ربه وخالقه؟ ولكن هكذا تنهج التوراة، فهي لا تعرف قدرا للرب، ولا من تنقل عنه حوارا مع الرب، ولا غرابة في ذلك، فالتوراة تذكر أن موسى أمر ربه أن يرجع عن غضبه على بني إسرائيل، بل هدده بالاستقالة من النبوة إذا لم يستجب لأمره.

فكيف يقال إن القرآن اقتبس هذه الأحداث من التوراة، وصاغها في قالب البلاغة العربية؟! والاختلاف بينهما أصيل. فمن أين أتى القرآن بكلام الشقيق الذي قتل بيد أخيه؟ ومن أين أتى بقصة الغراب الذي جاء ليرى القاتل كيف يواري سوءة أخيه؟ ولماذا أهمل القرآن الحوار الذي تورده التوراة بين الرب وقابيل القاتل، وهذا الحوار هو هيكل القصة كلها في التوراة، إن القرآن له مصدره الخاص به الذي استمد منه الوقائع على وجهها الصحيح، ومجرد التشابه في أصل الواقعة لا يؤثر في استقلال القرآن أبدا.

٣. مسألة المحرمات من النساء:

• في التوراة:

"لا يقترب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة. أنا الرب. عورة أبيك وعورة أمك لا تكشف. إنها أمك لا تكشف عورتها. عورة امرأة أبيك لا تكشف. إنها عورة أبيك. عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجا لا تكشف عورتها. عورة ابنة ابنك، أو ابنة ابنتك لا تكشف عورتها. إنها عورتك. عورة بنت امرأة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف عورتها. إنها أختك. عورة أخت أبيك لا تكشف. إنها قريبة أبيك. عورة أخت أمك لا تكشف. إنها قريبة أمك. عورة أخي أبيك لا تكشف. إلى امرأته لا تقترب. إنها عمتك. عورة كنتك لا تكشف. إنها امرأة ابنك. لا تكشف عورتها. عورة امرأة أخيك لا تكشف. إنها عورة أخيك. عورة امرأة وبناتها لا تكشف. ولا تأخذ ابنة ابنها، أو ابنة بنتها لتكشف عورتها. إنهما قريبتاها. إنه رذيلة. ولا تأخذ امرأة على أختها للضرر لتكشف عورتها معها في حياتها". (اللاويين ١٨: ٦ - ١٨).

• في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا (٢٢)﴾ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمّهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان عفورا رحيمًا (٢٣) والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ (النساء).

ونلاحظ ما يلي:

- التوراة لا تقيم شأنًا للنسب من جهة الرضاع.
- تحرم نكاح امرأة العم وتدعوها عمة.
- تحرم نكاح امرأة الأخ لأخيه.
- لا تذكر حرمة النساء المتزوجات من رجال آخرين وزواجهن قائم.
- تجعل التحريم غالبًا للقرابة من جهة غير الزوج مثل قرابة الأب، الأم، العم.... إلخ.

أما القرآن:

- فيحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.
 - لا يحرم نكاح امرأة العم ولا يدعوها عمة.
 - لا يحرم نكاح امرأة الأخ لأخيه، إذا طلقها أو مات عنها أخوه.
 - يحرم نكاح المتزوجات فعلا من آخرين زواجا قائما، ويطلق عليهن وصف المحصنات من النساء.
 - يجعل التحريم لقرابة الزوج ممن حرمت عليه، أو قرابة زوجته أحيانا.
- هذه الفروق الدقيقة لا تؤهل النص التوراتي لأن يكون أصلا للنص القرآني لا علميا ولا عقليا، فالحجم مئات المرات. ولكن لا مجال للمقارنة بين التوراة والقرآن، فهو فوق ما يأتي به من جديد، يصحح الأخطاء التي وقعت فيما سواه، وهذا هو معنى الهيمنة {مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه} (المائدة: ٤٨).
- فالأمر الذي لم يلحقها تحريف في التوراة جاء القرآن مصدقا لها أو هو مصدق لكل من التوراة والإنجيل بالصفة التي أنزلها الله عليهما قبل التحريف، أما الأمور التي حرفت وتعهدا القرآن بالتصحيح، فذلك سلطان الهيمنة المشهود للقرآن بها من منزل الكتاب على رسله.

الثاني: الاختلاف بين الإنجيل والقرآن.

بشارة زكريا بـ "يحيى" عليهما السلام:

• نص الإنجيل:

"كان في أيام هيروودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا، وامرأته من بنات هارون واسمها أليصابات. وكانا كلاهما بارين أمام الله، سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد، إذ كانت أليصابات عاقرا. وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما. فبينما هو يكهّن في نوبة فرقة أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخّر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجا وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: "لا تخف يا زكريا، لأن طلبتك قد

سمعت، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنا وتسميه "يوحنا". ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيما أمام الرب، وخمرا ومسكرا لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته، ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار، لكي يهيم للرب شعبا مستعدا". فقال زكريا للملاك: "كيف أعلم هذا، لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها؟" فأجاب الملاك وقال له: "أنا جبرائيل الواقف قدام الله، وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا. وها أنت تكون صامتا ولا تقدر أن تتكلم، إلى اليوم الذي يكون فيه هذا، لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته". وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل. فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم، ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل. فكان يومئذ إليهم وبقي صامتا". (لوقا ١: ٥ - ٢٢).

• أما النص القرآني:

قال تعالى: {هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء (٣٨) فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحسورا ونبيا من الصالحين (٣٩) قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء (٤٠) قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار (٤١)} (آل عمران). وقال تعالى: {ذكر رحمت ربك عبده زكريا (٢) إذ نادى ربه نداء خفيا (٣) قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئا ولم أكن بدعائك رب شقيا (٤) وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا (٥) يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا (٦) يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا (٧) قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا (٨) قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (٩) قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا (١٠) فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (١١) يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا (١٢) وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا (١٣) وبرأ بوالديه ولم يكن جبارا عصيا (١٤) وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا (١٥)} (مريم).

وبمطالعة ما ورد في النصين تبين أن القرآن ينفرد بدقائق لا وجود لها في النص الإنجيلي أبرزها:

- تقدم على قصة البشارة في "آل عمران" قصة نذر امرأة عمران ما في بطنها لله محررا، وهذا لم يرد في النص الإنجيلي.
- الإخبار بأنها ولدت أنثى "مريم" وكانت ترجو المولود ذكرا.
- كفالة زكريا لمريم، وسؤاله إياها عن مصدر رزقها، وجوابها إياه "هو من عند الله".
- القرآن يربط بين قصة الدعاء بمولود لزكريا، وبين قصة مولودة امرأة عمران.
- دعاء زكريا منصوح عليه في القرآن، وليس له ذكر في النص الإنجيلي.
- هذا في سورة "آل عمران"، أما في سورة "مريم":
- فقد رتب زكريا على هبة الله له وليا، أن يرثه ويرث من آل يعقوب.
- السبب في حمل زكريا على دعاء ربه، هو خوفه الموالي من ورائه.
- كون زكريا أوحى لقومه بأن يسبحوا بكرة وعشيا.

• الشناء على المولود "يحيى" بأنه بار بوالديه يوم ولادته ويوم موته، ويوم بعثه حيا ورد في القرآن، ولا مقابل له في النص الإنجيلي.

إذن ما قام به القرآن الكريم هنا هو: تصحيح الأخطاء التي وردت في النص الإنجيلي:

١. النص الإنجيلي يجعل الصمت الذي قام به زكريا عقوبة له من الملاك، فصحيح القرآن، وجعل الصمت استجابة لدعاء زكريا ربه، فالصمت كان تكريما لزكريا من الله، وليس عقوبة من الملك. فما هو الذنب الذي ارتكبه زكريا حتى يعاقب من الله أو حتى من الملاك؟! هل إقراره بكبر سنه، وعقر امرأته هو الذنب؟! لقد وقع هذا من إبراهيم حين بشر بإسحاق، ووقع من سارة حين بشرت به، فلم يعاقب الله منهما أحدا، وقد وقع هذا من مريم حين بشرت بحملها بعبسى، ولم يعاقبها الله عليه، فما السر في ترك إبراهيم وسارة ومريم بلا عقوبة، وإنزالها بزكريا وحده، أفى المسألة محاباة؟!

إن أكبر دليل على نفي هذا القول هو خلو النصوص القرآنية منه، وليس هذا تعصبا منا للقرآن، وهو الحق، ولكنه الملك الكريم اللائق بمنزلة الرسل عند ربهم.

إن الصمت الذي حل بزكريا كان بالنسبة لتكليم الناس، ومع هذا فقد ظل لسانه يلهج بذكر الله وتسييحه في العشي والإبكار.

٢. النص الإنجيلي يحدد مدة الصمت بخروج زكريا من الهيكل إلى يوم أن ولد يحيى، وهذا خطأ ثان صححه القرآن المهيمن فجعل مدته ثلاثة أيام بلياليهن بعد الخروج من المحراب.

٣. يجعل البشارة على لسان ملاك واحد، بينما النصان القرآنيان يجعلانها على لسان جمع من الملائكة {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب} {يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى}.

٤. النص الإنجيلي يجعل التسمية بـ "يحيى" من اختيار زكريا، بيد أن الملاك تنبأ بها، والقرآن جعل التسمية من وحي الله إلى زكريا: {اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا}.

٥. النص الإنجيلي يقول: إن زكريا حين جاءه الملاك وقع عليه خوف واضطراب، وقد خلا منه النص القرآني، فدل خلوه على أنه لم يقع، ذلك أن القرآن الكريم عودنا في قصه للوقائع المناظرة لهذه الواقعة أن يسجلها إذا حدثت ولا يهملها، بدليل أنه قد نص عليها في واقعة السجدة مع موسى، فقال: {فأوجس في نفسه خيفة موسى (٦٧)} {طه)، وقال: {فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب} (القصص: ٣١)، وحكاية إبراهيم لضيفه: {إنا منكم وجلون (٥٢)} (الحجر)، وعن مريم: {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (١٨)} {مريم} إذن فلم يقتبس القرآن جزءا من الواقعة، ولا الواقعة كلها، بل قام بإضافة الكثير جدا من الجديد الذي لم يعرفه الإنجيل، وصحح كثيرا من الأخطاء التي وردت فيه بفعل التحريف والتزوير، إما بالنص وإما بالسكوت، وهذا لا يتأتى من مقتبس ليس له مصدر سوى ما اقتبس منه، وإنما يتأتى ممن له مصادره، ووسائله، وسلطانه المتفوق، ومن يقل غير هذا فقد ظلم نفسه.

حول إثبات أصالة الوحي القرآني، وأنه وحي سماوي رباني خالص، وليس تأليفا بشريا مجتزأ من كتب سابقة، دار نقاش كثير برهن العلماء من خلاله على رابانية مصدر هذا الكتاب الجليل لا بشريته.

وقد فصل الحجج والأدلة على أصالة القرآن، وكونه وحيا سماويا لا اقتباسا أرضيا، د. محمد عبد الله دراز "فكان مما أورده في هذه القضية نافيا في بحث علمي شائق أن يكون الرسول الكريم قد ألفه من عند نفسه أساسا، قوله: "لقد علم الناس أجمعون علما لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أُمي ولد بمكة، في القرن

السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادة لكتاب غيره، ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض.

أما بعد، فمن أين جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؟ أمن عند نفسه ومن وحي ضميره، أم من عند معلم؟ ومن هو ذلك المعلم؟ نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه، وإنما هو قول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، ذلكم هو جبريل تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم نزل به بلسان عربي مبين على قلب محمد فتلقاه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصا من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا:

• الوعي والحفظ.

• الحكاية والتبليغ.

• البيان والتفسير.

• التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شيء، إن هو إلا وحي يوحى. هكذا سماه القرآن حيث يقول: ﴿وإذا لم تأتكم آية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ (الأعراف: ٢٠٣) ويقول: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ (يونس: ١٥) وأمثال هذه النصوص كثيرة في شأن إحياء المعاني، ثم يقول في شأن الإحياء اللفظي: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا﴾ (يوسف: ٢)، ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ (٦)، ﴿(الأعلى)، لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ (١٦) ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ (١٧) فإذا قرأناه فاتبع قرآنه (١٨) ثم إن علينا بيانه (١٩) ﴿(القيامة)، فانظر كيف عبر بالقراءة والإقراء، والتلاوة، والترتيل، وتحريك اللسان، وكون الكلام عربيا، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحتة.

القرآن إذا صحيح في أنه "لا صنعة فيه لمحمد ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه"، والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمد.

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جني (الدعوى) فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه ولا يتوقف صديق، ولا عدو في قبوله منه، إن أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول: أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخا؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة وشأنا، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه، ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيرا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله، وغلت قيمته، وأمنت قهمنته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم، ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة. أما أن أحدا ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأعلى ما تجود به قريحته، فهذا ما لم يلده الدهر بعد. ولو أننا افترضناه افتراضا لما عرفنا له تعليلا معقولاً، ولا شبه معقول اللهم إلا شيئا واحدا قد يحوك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم، قد رأى أن في "نسبة القرآن إلى الوحي الإلهي" ما يعينه على استصلاح الناس باستحباب طاعته عليهم، ونفاد أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبته إلى نفسه، وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه.

أما أنه فاسد في ذاته فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه، والكلام المنسوب إلى الله تعالى، فلم تكن نسبة ما نسبته إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئاً، ولا نسبة ما نسبته إلى ربه بزائدة فيها شيئاً، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتهم في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله. ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى، لو كان الأمر كما يهيجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته، لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المواربة، وأن سره وعلايته كانوا سواء في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشئون، وحقيقتها، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها، كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون (١٦)} (يونس).

فمثلا ما كتبه توماس كاريل الإنجليزي في كتاب "الأبطال"، وما كتبه الكونت هنري دي كاستري الفرنسي في خواطره وسوانحه عن الإسلام، ثم اقرأ شهادة قريش التي سجلها أبو سفيان وهو في الجاهلية بين يدي هرقل قيصر الروم، لما سأله هرقل: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، وسأله: هل يغدر؟ قال: لا. وكأني بك ها هنا تحب أن أقدم لك من سيرته المطهرة أمثلة واضحة الدلالة على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي الذي نحن بصددده، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه، فإليك طرفا من ذلك: لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفره إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآنا يقرأه على الناس.

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «إني لا أعلم عنها إلا خيرا»، ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال، واستشارة الأصحاب، وفي شهر بأكمله والكل يقولون: «ما علمنا عليها من سوء»، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت أملت بذنب فاستغفري الله»^(١).

هذا كلامه بوحى ضميره، وهو كما ترى كلام البشر، الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المثبت الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنا براءتها، ومصدر الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه لو أن أمر القرآن إليه أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي ال سماوي لتقطع ألسنة المتحرصين؟

ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله {ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)} (الحاقة).

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا (٢٥١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، (٧١٩٦).

وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه، فيخطئه في الرأي يراه. ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فإذا تلبث فيه يسيرا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد، والعتاب القاسي، والنقد المر، حتى في أقل الأشياء خطراً: {يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم (١)} (التحریم) {وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} (الأحزاب: ٣٧) {عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣)} (التوبة). {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (١١٣)} (التوبة).

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه، ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه، أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرية آرائه؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتفم شيئاً من ذلك الوجدان، ولو كان كاتماً شيئاً لكم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانها: {وما هو على الغيب بضنين (٢٤)} (التكوير). وتأمل آية الأنفال المذكورة، تجد فيها ظاهرة عجيبة، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بدئت بالخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها، وتطبيب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها. فهل الحالة النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام لو كان عن النفس وصدوره يمكن أن يصدر عنها آخره ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زجرة الغضب والندم، وبين ابتسامه الرضى والاستحسان؟

كلا، وإن هذين الخطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضراباً عن الأول ماحياً له، ولرجع آخر الفكر وفقاً لما جرى به العمل. فأى داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر المحو وتسجيله، على ما فيه من تقريع علني بغير حق، وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالاً طيبة؟ إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ها هنا ألبتة شخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده: لقد أسأت، ولكني عفوت عنك وأذنت لك.

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها لوجدتها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه كان إذا ترحح بين أمرين، ولم يجد فيها إلماً اختار أقرهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه، وأبعدهما عن الغلظة والجفاء، وعن إثارة الشبه في دين الله، فلم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحاً، أو جاوزه خطأ ونسياناً، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيراً فتخير. هبه مجتهداً أخطأ باختيار خلاف الأفضل. أليس معذوراً ومأجوراً؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية وما كان اختيار عمر في مسألة الأسرى ونحوها إلا مظهرها من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه، وإن كانت هذه الشدة لتفتنه عن أمر الله يوم الحديبية، فكانت موافقته الوحي في تلك المسائل مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقية التي انفرد بها علام الغيوب، وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية.

هل ترى في ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتشريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟

توفي عبد الله بن أبي كبير المنافقين، فكفنه النبي في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال عمر رضي الله عنه: «أصلي عليه وقد نھاك ربك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إنما خيرني ربي فقال: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم

إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم { (التوبة: ٨٠) وسأزيده على السبعين^(١). وصلى عليه، فأنزل الله تعالى: { ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره } (التوبة: ٨٤)، فترك الصلاة عليهم اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين وانظر ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع، وقد اتخذ من القرآن دستورا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم، وقد آنس من ظاهر النص الأول تخيرا له بين طريقتين، فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع. وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها، تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة، ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة، تجلى لك في مقابل ذلك من القرآن، معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض، بل تصدع بالبيان فرقانا بين الحق والباطل، وميزانا للخبيث والطيب، أحب الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيد طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين، فترى بين المقامين ما بينهما وشتان بين سيد ومسود، وعابد ومعبود.

ولقد كان يجيئه الأمر أحيانا بالقول المجمل أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله، حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد. قل لي بربك: أي عاقل توحى إليه نفسه كلاما لا يفهم هو معناه، وتأمرة أمرا لا يعقل هو حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟ نزل قوله تعالى: { وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله } (البقرة: ٢٨٤) فأزعجت الصحابة إزعاجا شديدا، ودخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها، فقالوا: «يا رسول الله، أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير»^(٢). فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بياضا بقوله: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (٢٨٦)) (البقرة). وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب، وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة، لا من الخواطر والأمانى الجارية على النفس بغير اختيار.

وموضع الشاهد منه أن النبي لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر، لبين لهم خطأهم ولأزال اشتباههم من فوره؛ لأنه لم يكن ليكنتم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة إليه، ولم يكن ليتركهم في هذا الملح الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رءوف رحيم، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها، ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان، ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله: { ثم إن علينا بيانه (١٩) } (القيامة).

واقرا قضية الحديبية ففيها آية بينة: أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه، فقال تعالى: { وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم } (البقرة: ١٩٠)، فلما أجمعوا على زيارة البيت الحرام في ذلك العام، وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذرا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع.

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة براءة (٤٣٩٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة المنافقين وأحكامهم (٢٢٠٣).
^٢ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه) (البقرة: ٢٨٤) (٣٤٤).

ولما أشرفوا على حدود الحرم، علموا أن قريشا قد جمعت جموعها على مقربة منهم فلم يثن ذلك من عزمهم؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة، بل زادهم ذلك استبسالا وأصروا على المضى إلى البيت، فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد أنهكتها الحروب، فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدفعه، وإنهم لسائرون عند الحديبية، إذ بركت راحلة النبي وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا: خلأت القصواء، أي حزننا الناقة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»^(١).

يعني أن الله الذي اعتقل الفيل، ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين هو الذي اعتقل هذه الناقة، ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة. وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بآذنين ولا مكافئين، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى، فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالاً لهذه الإشارة الإلهية التي لا يعلم حكمته، وأخذ يسعى لدخول مكة عن طريق الصلح مع قريش قائلاً: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها»^(٢). ولكن قريشا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربا ولا مسلما، وأملت عليه شروطا قاسية، بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسلما، وألا ترد هي أحدا يجيئها من المدينة، تاركا لدينه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم.

وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا، فلا تسل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيئ في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يخلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضا ذهولا وغما، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة، فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعون هو نفسه قائلين: لم تعط الدنيا في ديننا؟ وهكذا كاد الجيش يتمرّد على أمر قائده، ويفلت حبله من يده، ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر: "إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري"، يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي، واثقا بنصره قريبا أو بعيدا.

وهكذا ساروا راجعين، وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح فبينت لهم الحكم الباهرة، والبشارات الصادقة، فإذا الذين ظنوه ضيما وإجحافا في بادئ الرأي، كان هو النصر المبين والفتح الأكبر، وأين تدبير البشر من تدبير القدر: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٢٤)﴾ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوبا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (٢٥)﴾ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦)﴾ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مخلصين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧)﴾ (الفتح).

ولقد كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلا، فيحرك به لسانه وشفتيه؛ طلبا لحفظه، وخشية ضياعه من صدره، ولم يكن ذلك معروفا من عاداته في تحضير كلامه، لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها، ولا كان

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل العرب (٢٥٨١).

^٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل العرب (٢٥٨١).

ذلك من عادة العرب، إنما كانوا يزورون كلامهم في أنفسهم، فلو كان القرآن منبجسا من معين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم، ولكن له من الروية والأناة الصامتة ما يكفل له حاجته من إنضاج الرأي وتمحيص الفكرة، ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتيا ويلم به سريعا، بحيث لا تجدي الروية شيئا في اجتلابه لو طلب، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء، وكان عليه أن يعيد كل ما يلقي إليه حرفا، فكان لا بد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألّفها من نفسه أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية، حتى ضمن الله له حفظه وبيانه.

هذا طرف من سيرته بإزاء القرآن، وكلها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وأنه لم يفيض عن قلبه بل أفيض عليه، فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة، لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة. وحسبك الآن منها أمثلة يسيرة إذا ما تأملتتها صورت لك إنسانا الطهر ملء ثيابه، والجد حشو إهابه، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغي إلى غلو المادحين له، تواضع هو حلية العظماء، وصراحة نادرة في الزعماء، وثبت قلما نجده عند العلماء، فأنى من مثله الختل أو التزوير أو الغرور أو التغرير؟ حاشا لله!

«جلست جوهرات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارى، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال صلى الله عليه وسلم: لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين»^(١) ومصادقه في كتاب الله تعالى: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب} (الأنعام: ٥٠) والآن، وقد وفينا بكل الوعد بعرض هذه النماذج من السيرة النبوية نعود إلى تقدير ما قصدنا من هذا العرض فنقول: إن صاحب هذا الخلق العظيم، وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن، ما كان ينبغي لأحد أن يمتري في صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب، وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد، بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البرئ دليلا آخر على صراحته وتواضعه^(٢).

ومما يزيد الأمر وضوحا ما قاله د. دراز، فقد قال تحت عنوان "الاتصال بالكتب المقدسة": "إن أول إجابة تتبادر إلى الذهن في هذا المجال، هو أن محمدا قد استخلص دروسه من مطالعته المباشرة للكتب المقدسة القديمة، سواء كانت مسيحية، أو يهودية، أو غيرها.. ولكن هل كان محمد يعرف القراءة والكتابة؟

يجيب القرآن بالنفي، ويبرهن بأمية الرسول الكريم على ربانية تعليمه، إنه لا يقرر فحسب أنه أُمي من شعب أُمي {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي} (الأعراف: ١٥٧)، أي غير متعلم، وليس فقط كما يريد سبرنجر أنه ينتمي إلى شعب وثني لم يتلق أي كتاب سماوي من قبل، وإنما يؤكد بصريح العبارة أنه لم يسبق له أن قرأ كتابا قبل القرآن، أو كتب بيده: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك} (العنكبوت: ٤٨).

ولا شك أن معارضية كانوا يعرفون فيه هذه الأمية جيدا؛ لأنهم عندما أرادوا تعليل المصدر الذي تلقى عنه أساطير العصور القديمة، لم يجرؤوا أن يقولوا "كتبها" وإنما قالوا "اكتتبها" أي كتبها له غيره {وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٥)} (الفرقان)، وهما عبارتان مختلفتان تمام الاختلاف، إلا أنه التبس معناهما على بعض المستشرقين.

وحتى على فرض أنه كان يعرف القراءة، فقد كانت هناك عقبة يستحيل تذليلها؛ لأن في هذا الوقت لم تكن قد وجدت بعد تورا ولا إنجيل باللغة العربية، ووجود هذه الوثائق بلغة أجنبية جعلها حكرا لبعض العلماء المتحدثين

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا (٣٧٧٩)، وفي موضع آخر.

^٢ - النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٤، ١٩٧٧م، ص٤٩: ٦٤ بتصرف.

بأكثر من لغة الذين حفظوها بعناية، بل لقد وصفهم القرآن بالبخل بما عندهم من العلم، بحيث إنهم لم يكونوا ليتنازلوا عن بضع أوراق من التوراة إلا مع حرصهم على إخفاء الجزء الأكبر منها: {تجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيرا} (الأنعام: ٩١)، وسوف يكشف القرآن فيما بعد في المدينة وسائلهم الأخرى لإخفاء العلم شفوياً وتحريراً: {وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله} (آل عمران: ٧٨)، {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً} (البقرة: ٧٩)، وعلى كل حال لم يبنئنا التاريخ عن أي اتصال كان بين النبي وبين وسط العلماء قبل الهجرة، فظالماً أن الكلام يدور في العموميات التي يصعب التحكم فيها، فلا شك أنه يمكن افتراض وجود مثل هذه العلاقة، وذلك بإتاحة الفرصة لكل حدس وخيال، أما عندما نطالب بالتحديد فإنه يحدث التناقض والتخبط في الحال^(١).

وعن القصص الديني اليهودي والمسيحي في القرآن يقول: "فيما يختص بالقصص المسيحي واليهودي بوجه عام، يؤسفنا ألا نجد ما يؤيد هذه الملاحظة، من قريب أو بعيد، والرجوع إلى النص القرآني يثبت لنا العكس تماماً، فالسور المكية هي التي تعرض أطوار قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة، ولم يترك للسور المدنية حيث احتك الرسول احتكاكاً فعلياً مباشراً باليهود سوى فرصة استخلاص الدروس منها، وغالباً في تلميحات موجزة.

هل بقي بعد كل هذا مجال للقول بأن القرآن تكرر لمضمون الكتب السابقة، أو بعضها؟! ولم يأت بجديد؟!

الخلاصة:

تضمن القرآن الكريم أحكاماً وتشريعات مغايرة لما ورد في الكتب السابقة، وأخرى غير معهودة من قبل. فالذات الإلهية في العقيدة اليهودية من خلال ما يسمى بالعهد القديم تتصف بصفات بشرية، فالرب يستشير الخاحامات ويندم على ما أنزله باليهود والهيكل، وهو ضعيف فقد صارح يعقوب إسرائيل فصرعه الأخير، وهو مصدر الخير والشر على حد زعمهم، أما المسيحية من خلال ما يسمى بالعهد الجديد فאלله والد ومولود، وهو على ثلاثة أقانيم وصور، أما الإسلام فقد جاء فيما يخص مقام الألوهية بأنصع وأصفى، وأنقى عقيدة توحيدية عرفها تاريخ الأديان، فالله في العقيدة الإسلامية واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولا شريك له في ملكه، وليس كمثله شيء، فإذا كان القرآن مقتبساً من هذه الكتب السابقة عليه، فلم لم يكرر فكرها الملوث المحرف الوثني هذا عن الذات الإلهية، وغايرها في هذا الشأن على طول الخط؟!!

وفي جانب التشريع، فإنه يتركز في التوراة والتلمود العهد القديم في الوصايا العشر المنسوبة لموسى أما التشريع المسيحي في العهد الجديد فمجموعة مواعظ، أما الجانب التشريعي في القرآن فهو أحد أبرز مواطن الإعجاز فيه، إذ تضمن شريعة متكاملة وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم، لا في زمان نزوله فحسب، بل على مر الزمان وتغاير الحداث وحدد موقف الإنسان وعلاقته بالدنيا والآخرة، وجاء بالجديد الذي غير مسار البشرية في شئون الأسرة والمجتمع، والمال، والحرب، والسلم، والعلاقات الدولية... إلخ.

من أبرز ملامح الجدة والأصالة عدم الاقتباس والتكرار والتقليد في القرآن باب الإعجاز العلمي المتضمن فيه، والذي لا يباريه فيه أي من الكتب السابقة، كما أثبت وما يزال يثبت كثيرون من العلماء المنصفين المستبصرين، كالمستشرق الفرنسي موريس بوكاي في كتابه: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث.

ومن جهة أخرى فقد جاء القرآن مصوباً ومتمماً للكتب السماوية السابقة، التي أصابها التحريف والتبديل ولم يقتبس منها أو يكرر مضامينها. ولم يؤلفه محمد منها ولا من غيرها فعند استعراضنا لبعض القصص في التوراة والإنجيل

^١ - مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ترجمة: محمد عبد العظيم، دار القلم، الكويت، ط٥، ٢٠٠٣م، ص١٤٨ وما بعدها.

ومقارنتها بما جاء في القرآن، نجد القرآن قد بين ووضح، وأزال اللبس والغموض، وجاء بأمور لم يرد ذكرها في العهدين القديم أو الجديد، مثل قصة سيدنا يوسف وقصة سيدنا زكريا وتبشيره ببيحي عليهم السلام وغيرهما كثير. فلو لم يكن وحيا حقا وكان من تأليفه ﷺ فكم نزلت به في سيرته العطرة نوازل من شأنها أن تحفز إلى القول والتأليف، وكانت الحاجة القصوى وقتها ماسة لأن يتكلم لو كان الأمر إليه، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي ولا يجد في شأنها قرآنا يقرأ على الناس.

من ذلك مثلا إرجاف المنافقين بحادثة الإفك عن زوجه عائشة وإبطاء الوحي عليه، والناس يخوضون في الأمر حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو يردد: إني لا أعلم عنها إلا خيرا"، فلو كان الأمر إليه لألف وادعى وبرأها وبرأ ساحة عرضه على الفور، ثم إنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب فكيف له بقراءة هذه الكتب والاقتباس منها، والنسج على منوالها، وعلى فرض عدم أميته وهو فرض خاطئ فلم تكن هذه الكتب السابقة قد ترجمت في عصره للعربية بعد، إذ تأخر ذلك لقرون لاحقة.^(١)

^١ - راجع: موسوعة بيان الاسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط ١/٢٠١٢.

الفصل الثالث: يقولون آيات القرآن تدعم النصرانية والتثليث.

- القرآن وألوهية المسيح.
- الضمير نحن في القرآن المقصود به عيسى (التثليث له وجود في القرآن)!!.
- هل نسب القرآن إلى المسيح صفة الخالقية؟.
- ادعاء ثبوت صور للتثليث في العقيدة الإسلامية.
- هل امتدح القرآن النصارى؟.
- أتباع المسيح موعودون بالظفر على الكافرين؟.
- سؤال أهل الكتاب فيما يشكل على النبي.!!
- إن القرآن يقر الإنجيل بصورته الحالية ويوجب على أهل الأديان جميعا الإيمان به وفيه حكم الله.
- الزعم أن القرآن يقر عقيدة الفداء النصرانية.
- هل الذكر المحفوظ هو كتب أهل الكتاب؟.
- الكتاب الذي لا ريب فيه هو الإنجيل وليس القرآن؟؟.
- كيف يمكن القول بأن عيسى لم يموت في الوقت الذي يؤكد فيه القرآن وفاته في سورة آل عمران؟.
- روح القدس في القرآن المؤيد للمسيح؟.
- لم تنزل مائدة من السماء.!!
- الاستدلال بالآية ١٤٦ من سورة البقرة على عدم تحريف الإنجيل.
- ما معنى (حتى يقيموا التوراة و الإنجيل)؟؟.
- معنى الإحتكام لكتب القوم في قوله: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك} (يونس : ٩٤).
- دعوى عدم حسم القرآن مسألة صلب المسيح عليه السلام.
- إنّ القرآن ينكر صلب المسيح والأنجيل تثبته، فهل كان الصلب أولا ثم القتل أم القتل ثم الصلب.
- ادعاء أن الموضوع مأخوذ من التعميد في المسيحية.
- توهم أن التكبير في الصلاة مأخوذ عن المسيحية، وعادات الجاهلية.
- توهم أن المسلمين يرسمون الصليب في صلاتهم.
- ادعاء أن القرآن والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح على محمد صلى الله عليه وسلم.
- ادعاء أن القرآن الكريم أقر أزلية المسيح.
- ادعاء أن القرآن الكريم يقرر ألوهية المسيح عليه السلام.
- الزعم أن القرآن ينص على أن المسيح ابن الله.
- دعوى تناقض القرآن حول تصويره للمسيح عليه السلام.
- ادعاء أن بنوة المسيح عليه السلام لله سبحانه وتعالى لا تنافي التوحيد.
- قالوا إن المسلمين يثبتون العصمة للمسيح وينفونها عن محمد صلى الله عليه وسلم.

تمهيد:

قال ابن تيمية: (فتبين أنهم (أي النصارى) يريدون أن يحرفوا القرآن كما حرفوا غيره من الكتب المتقدمة ، وأن كلامهم في تفسير المتشابه من الكتب الإلهية من جنس واحد)^(١).

وقال رحمه الله في شأن ما يستدل به النصارى من آيات الذكر الحكيم : (ان جميع ما يحتجون به من هذه الآيات وغيرها ، فهو حجة عليهم لا لهم ، وهكذا شأن جميع أهل الضلال إذا احتجوا بشيء من كتاب الله وكلام أنبيائه ، كان في نفس ما احتجوا به ما يدل على فساد قولهم ، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة على أنبيائه ، فإنه جعل ذلك هدى وبيانا للخلق وشفاء لما في الصدور ، فلا بد أن يكون في كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين من الهدى والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، لكن الناس يؤتون من قبل أنفسهم ، لا من قبل أنبياء الله تعالى)^(٢). فالأمر كما قال الله: {وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ} (المائدة: ١٣) !

فمن دعواهم إقرار القرآن بأن النصارى على حق ، فيزعمون أن القرآن أقر أن النصارى على حق ، ويستدلون على هذا بقوله سبحانه وتعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} (العنكبوت: ٤٦)، حيث أمر بجداهم وليس بمخالفتهم، وهذا يدل على الاتفاق مع شيء من الاختلاف في الرأي.

الجواب: لو كان أهل الكتاب على حق لما كان الجدل من أساسه، إن قوله سبحانه وتعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} (العنكبوت: ٤٦) لا يدل على أن أهل الكتاب على الحق، ولو كانوا على الحق لأمر القرآن باتباعهم والاستجابة لهم وعدم مخالفتهم في دعوتهم، فهذا فهم خاطئ واستدلال لا وجه له، بل هو تحريف للكلم عن موضعه، إنما الذي تأمر به الآية، هو جدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن؛ لأنهم قد يكونون أقرب إلى الإسلام من غيرهم من المشركين، وأقرب فهم لطبيعته، وأعلم بحقيقته من غيرهم، لما عندهم من بقايا دياناتهم، وإن كنتموا وحرفوا؛ ولأن القرآن يسعى إلى الارتقاء بأسلوب الحوار وعملية الجدل إلى أعلى مستوى - أمر بأن يكون الحوار بالتي هي أحسن معتمدا على الحجة والبرهان، ومتجنباً للإساءة والخداع والادعاء الباطل، وسائر أدوات ووسائل الجدل العقيم والنقد الهدام، فتلك دعوة قرآنية لإقامة الحق وإظهاره، والكشف عن الباطل وبيان ضعفه وتفاهته دون سب أو تجريح، أو إساءة.

الأمر بالجدال في الآية لا ينفي بطلان ما هم عليه، ولا يعني أن الاختلاف مجرد اختلاف في الرأي، إن القرآن وقف من أهل الكتاب موقف الناقد البصير، والمعلم الذي يصوب لهم أخطاءهم، ويصحح لهم عقائدهم، ويبين لهم إثم كتمان الحق وجرمته، وشناعة تحريف الكلم عن مواضعه وقبحه، وخصوصاً في الأمور الجوهرية عند أهل الكتاب، وهي الأمور التي تمس صلب العقيدة، إذ أظهر القرآن في صراحة ووضوح بطلان ما يعتقد أهل الكتاب من العقائد الفاسدة، وشدد النكير وأكد الرفض لكل عقائدهم الشركية الفاسدة في مواضع عديدة، منها قوله سبحانه وتعالى: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣٠)} (التوبة).

وقوله سبحانه وتعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (٧٢)} (المائدة)، وقوله سبحانه وتعالى: {يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون (٧١)} (آل عمران).

^١ - الجواب الصحيح ٢٧٤/٣ لابن تيمية ، الناشر: دار العاصمة، السعودية ، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

^٢ - الجواب الصحيح ٤٣/٤ مرجع سابق

وقال عن النصارى: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون (١٤)} (المائدة). وقال أيضا: {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير} (المائدة: ١٥).

والآيات التي تنتقد أهل الكتاب في صلب عقائدهم وتشنع عليهم جرائمهم وضلالاتهم سواء تحريفهم الكلم عن مواضعه أو كتمانهم الحق وإخفائهم إياه عن الناس كثيرة كثيرة ظاهرة، فالخلاف مع أهل الكتاب خلاف جوهري مبدئي، باتساع الفجوة بين عقائد المسلمين وعقائدهم الفاسدة التي حرفوها وغيروها.

فالبنون في التصورات الدينية بين الديانة الإسلامية ودياناتهم بعد تحريفها بون شاسع، فكيف يدعي هؤلاء المدعون أن القرآن يثبت أن النصارى على حق، وأن الخلاف معهم مجرد خلاف في الرأي؛ مستدلين بآية العنكبوت: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} زاعمين أنه لم يأمر بقتالهم طالما أنه قد أمر بمجادلتهم بالتي هي أحسن، فلماذا يكون الجدل إذن ما داموا على حق؟ وهل تعني بمجادلتهم بالتي هي أحسن عدم قتالهم، عندما يعتدون أو يخونون العهود والمواثيق؟ وبماذا يسوغ هؤلاء قتال النبي لليهود في المدينة عندما خانوا العهود ونبذوا المواثيق، وإخراجهم فرقة تلو الأخرى ثم قتاله لهم في خيبر؟ وماذا يقول هؤلاء عندما يسمعون أو يقرءون الآيات التي تحض على قتال المشركين من أهل الكتاب وغيرهم إذا استلزم الأمر ذلك، ومنها قوله سبحانه وتعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٢٩)} (التوبة)، وبهذا البيان بطل زعم هؤلاء المدعين أن القرآن يثبت كون النصارى على حق، فذلك زعم لا سند له ولا دليل عليه، بل هو وهم من بنات خيال من افتراه.

١ - القرآن وألوهية المسيح.

قالوا: القرآن وافق المسيحية في معتقدها وبخاصة تأليه المسيح، فقد ذكر بأنه كلمة الله وروحه: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} (النساء: ١٧١)، فهذا عين ما يقوله النصارى عنه، فكلمة الله ليست مخلوقة، بل هي كلمة أزلية، وكذلك روحه هي حياته، وإذا كان كذلك فالمسيح أزلي، والأزلية من لوازم الربوبية والألوهية. وذلك يجعل (من) للتبعيض (روح من الله) وكلمته التي تجسدت وصارت إنساناً. كما يقول فندر: "توجد بعض الآيات الأخرى التي تعطي له (لعيسى) أعظم الألقاب التي لم تعط لغيره فيه (في القرآن) البتة، منها: كلمة الله وهذا اللقب لا يصح أن يسمى به أي مخلوق كان"^(١)، هكذا يزعم المنصرين والقسس.

ومضى بعضهم إلى القول: إن القرآن المكّي كان بمتدح النصارى ويتقرب إليهم بسبب علاقة النبي ﷺ بخديجة ابنة عم ورقة بن نوفل وبالنجاشي الذي آوى المسلمين في الحبشة، وأن القرآن المدني هو الذي سجل موقفاً رافضاً للمسيحية، خلافاً للقرآن المكّي.

وفي الجواب نقول: تتكامل الآيات المكّية والمدنية في رفض مظاهر الشرك المسيحية المتمثلة في عبادة المسيح عليه السلام والقول بالثالوث. ولعله يحسن أن نبدأ بما جاء في السور المكّية حول هذا الموضوع، ثم تنتقل إلى المدنية منها. ففي الحبشة وقف المسلمون الملتجئون إلى النجاشي بين يديه فسألهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول"^(٢)، وهذا

^١ - عبد الرحمن الجزيري: "أدلة اليقين في الرد على ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين" ص (٣٥٩). الطبعة الأولى ١٩٣٤/١٣٥٣.

^٢ - أخرجه أحمد ح (٤٣٨٦).

القول مصداق ما أنزل الله: { قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمتنون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم { (مريم: ٣٠ - ٣٧)، فهذه الآيات المكية ناطقة بعبودية المسيح لله، وأنه مخلوق بكلمة (كن)، وأن الله متوعد بعذابه الذين خالفوا الحقيقة وتنكبوها في شخص المسيح.

ومن أراد مزيد بيان فليصغ السمع إلى التقرير الذي ترتفع لقوته الأفئدة وتهتز القلوب، تقرير يشنع فيه القرآن المكي على من زعم أن لله ولداً { وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا { (مريم: ٨٨ - ٩٥).

لقد كان القرآن الكريم صريحا في التشنيع على أقوال النصارى في المسيح، وإثبات عبوديته لله في الآيات المكية والمدنية على السواء، ففي المكي يقول: { ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أأهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل { (الزخرف: ٥٧ - ٥٩) ثم تمضي الآيات لتقول: { ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم { (الزخرف: ٦٣ - ٦٥).

وفي المدني يقول الله: { لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا { (النساء: ١٧٢)، وفي سورة المائدة: { وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد { (المائدة: ١١٦ - ١١٧)، فأبي فرق يجده القارئ بين القرآني المكي والمدني؟!

وكما كان القرآن المكي صريحا في اعتبار المسيح رسولا من رسل الله الكرام { يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد { (الصف: ٦)، فإن القرآن المدني كان كذلك: { أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم { (المائدة: ٧٥ - ٧٦).

وهكذا تبين بطلان الدعوى باختلاف حديث القرآن المكي عن المدني في المسيح عليه السلام، فالكل من عند الله علام الغيوب، إذا كان كذلك، فكيف يتوافق القول بعبودية المسيح مع القول بأنه كلمة الله وروح منه؟! وبداية ننبه إلى أن هذا الاستدلال المغلوط قلتم، قاله نصارى نجران بين يدي النبي ﷺ حين سألوهم: " أأنت تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ فقال: «بلى». قالوا: فحسبنا. فأنزل الله عز وجل: { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون

ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله { (آل عمران: ٧)^١، فهذا القول من الفتنة لما فيه من التلبس اعتماداً على المتشابه من القول، أي ما يحتمل معاني مختلفة.

ولو قرؤوا الآية بتمامها لوجدوا فيها بيان ما تشابه عليهم، فهي تنعى عليهم غلوهم في شخص المسيح، وقولهم بأنه ابن الله، وأنه مشترك مع الله في الثالوث { يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً { (النساء: ١٧١ - ١٧٢)، فالمسيح عبد الله ورسوله، وهو أيضاً كلمته وروح منه.

فماذا يعني قولنا: المسيح كلمة الله؟ هل يعني أنه عليه السلام صفة الكلام الأزلية لله؟ بالطبع: لا، فالمسيح كلمة الله المخلوقة، لا الكلمة التي يخلق الله بها خلقه [كن]، وهذا صريح القرآن { إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون { (آل عمران: ٤٥ - ٤٧)، فصرحت الآيات أن المسيح { كَلِمَةٌ مِنْهُ }، وأكمل السياق القرآني فوصفه بأنه مخلوق { الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ }.

فكيف تكون كلمة الله مخلوقة مع يقيننا بأن القرآن كلام الله المنزل غير المخلوق؟ ولتقريب معنى "كلمة الله" نضرب مثلاً بعبارة "اضطهاد اليهود"، فهي تدل على معنيين متغايرين صحيحين: الأول: "اضطهاد النازيين لليهود"، أي أنها تدل على المفعول. الثاني: "اضطهاد اليهود للفلسطينيين"، أي أنها تدل على الفاعل. وهكذا اختلفت دلالة العبارة بين هذين المعنيين.

ومثلها قولنا: "كلمة الله" فيمكن أن تدل على كلمة الله التي خلق بها الأشياء { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون { (يس: ٨٢)، كما يمكن أن تدل على ما خُلق بهذه الكلمة { إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون { (آل عمران: ٥٩)، والباحث عن الحق يختار منهما ما وافق السياق، وانسجم مع المعاني المحكمة؛ خلافاً لأصحاب القلوب المريضة الذين يختارون من المعاني ما يوافق أهواءهم؛ ولو خرج بالنصوص عن مساقها: { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله { (آل عمران: ٧).

وسبب اختصاص المسيح بهذا الاسم الشريف دون غيره من المخلوقين بكلمة الله؛ أنه خلق من غير تدخل أبوي، خلق بأمر الله وكلمته التكوينية (كن)، ولما لم يكن للمسيح سبب بشري قريب ينسب إليه من جهة أبيه كغيره من الناس؛ فقد نُسب إلى السبب البعيد، وهو تخليقه بكلمة الله، التي تَخْلُقُ وفق إرادة الله تبارك وتعالى (أ). ومما يؤكد أن مقصود القرآن بالكلمة؛ كلمة الله التي كانت سبباً في وجوده، لا المعنى الفلسفي الذي يزعمه النصارى (اللوغس) (logos) وهو مصطلح لاهوتي مسيحي، يطلق على المسيح كلمة الله، بمعنى أنه عقل الله الناطق. قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ { (آل عمران: ٤٥)، فهو كلمة من الله، وليس صفة الله الأزلية.

^١ - (الطبري في تفسيره (٣/ ١٧٧)). مرجع سابق

^٢ - الرد الجميل لإهية عيسى بصريح الإنجيل، أبو حامد الغزالي، ص (١٦٦)، والداعي إلى الإسلام، ابن الأثير، ص (٣٧٦). نقلاً عن كتاب منقذ السقار، " تنزيه القرآن عن دعاوى المبطلين ص ١٧٦، مرجع سابق.

وأما قوله تبارك وتعالى عن المسيح {وروح منه} فلا يفيد أن المسيح روح الله أو حياته كما نطق بذلك فلاسفة المسيحية، لأن قوله: {منه} ليست للتبعيض، بل لابتداء الغاية، بمعنى صادرة عنه، فهي كقوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} (الجاثية: ١٣)، أي خلقت منه.

ويجدر هنا التنبيه إلى أنه ليس من المسلمين أحدٌ يعتقد أن الروح صفة من صفات الله القائمة بذاته، بل الأرواح جميعاً مخلوقاته تبارك وتعالى، ونسبتها إليه من باب نسبة المخلوق إلى خالقه وموجده، وهو من باب التشريف، كقولنا: بيوت الله، شعب الله، وأمثالهما.

ولا يختص المسيح بأنه روح الله، فقد قال الله عن الصديقة البتول مريم: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} (مريم: ١٧)، فالمراد بالروح في الآية جبريل عليه السلام، كما سماه الله عز وجل في آية أخرى روح القدس: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} (النحل: ١٠٢)، وفي آية أخرى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} (الشعراء: ١٩٣)، وسبب تسميته بالروح أنه مخلوق روحي غير مادي. وقد تمثل جبريل (روح الله) للعدراء في صورة رجل {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} (مريم: ١٧)، فنفخ في جيبها، فسرى المسيح في أحشائها، فالمسيح خلق بنفخة منه {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا} (الأنبياء: ٩١).

وهذا المعنى الشريف ورد في حق آدم أيضاً الذي خلق من طين، ثم: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي} (الحجر: ٢٩)، فإضافة روحه عليه السلام إلى الله إضافة تشريف وتكريم، ولو أوجبت هذه الإضافة معني خارجاً عن الإنسانية؛ لكان آدم أولى بذلك من المسيح {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (آل عمران: ٥٩).^(١) يقول الإمام أحمد المعنى في قوله جل ثناؤه {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم} (النساء: ١٧١) الكلمة التي ألقاها إلى مريم: حين قال له كن، فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن، ولكن بكن كان. فالكن من الله قول، وليس الكن مخلوقاً. وكذب النصاري والجهمية على الله في أمر عيسى. وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة"^(٢).

ويقول أبو عبيد القاسم بن سلام: "وأما المسيح فالمراد أن الله خلقه بكلمة لا أنه هو الكلمة لقوله {ألقاها إلى مريم} ولم يقل ألقاه ويدل عليه قوله تعالى {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} "^(٣) ف "ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى .. قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل".^(٤)

أما زعم المنصرين والنصارى أن (من) في قوله تعالى {بكلمة منه} للتبعيض فإنه خطأ فاحش، ولكنها لابتداء الغاية وهو الغالب عليها حتى ادعى جماعة [كما يذكر ابن هشام الأنصاري] . أن سائر معانيها راجعة إليه"^(٥) كما في الآية {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه} (الجاثية : ١٣)، يقول الشنقيطي: "ولكن من هنا لابتداء الغاية يعني أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حيا من الله تعالى لأنه هو الذي أحياه به. ويدل لما ذكرنا

^١ - تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين ، منقذ بن محمود السقار ص ١٧١ - ١٧٧

^٢ - الرد على الجهمية والزنادقة ص ٤٣ "الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله: أحمد بن محمد بن حنبل. قام بتصحيحه والتعليق عليه: إسماعيل الأنصاري، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والأفتاء والدعوة والإرشاد بالملكة العربية السعودية.

^٣ - فتح الباري ج (١٣) ، ص (٤٩٨) . مرجع سابق .

^٤ - ابن كثير ج (٢) ص (٤٧٨) . مرجع سابق .

^٥ - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ج (١) ص (٣١٨) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي.

فلو افترض أن من للتبعيض لكان المعنى كالتالي: إن الله يشرك بعيسى بعض من الله ولأصبح المعنى فاسدا فسادا بينا من ناحية نصرانية فضلا عن بطلانه قبل ذلك من ناحية إسلامية ولغوية ، فعيسى يصبح جزءا وبعضا من الإله. والبعض ليس مساويا للكل عقلا، والنصارى يعتقدون أن المسيح (الابن) بزعمهم إله مساو للأب في الجوهر وليس جزءا منه بل يعتقدون أن الكلمة وهي عيسى هي الله فعيسى ليس بعضا من الله سواء كان هو الروح أو هو الكلمة بحسب اعتقادهم. وهذا مبطل لكون (من) للتبعيض، فضلا من استخدام (من) لابتداء الغاية في كتبهم على نحو يمنع من خلال السياق أن تكون للتبعيض وهو ما يماثل ما ههنا. ولذلك أول من يجب عليه إبطال أن (من) للتبعيض كما ترى هم النصارى أنفسهم وبحسب اعتقادهم الباطلة ومن الأمثلة التي لا يجوز استخدام من للتبعيض في كتبهم في مثل قوله "امتحنوا الأرواح هل هي من الله نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا وكل من يجب فقد ولد من الله" (١ يوحنا ٤: ١-٧). ولكنهم يحاولون التلبيس على المسلمين لتحقيق أغراضهم ولو كانت حقيقة اعتقاداتهم تناقض دعواهم وافتراءاتهم على كتاب الله.

لكن الذين في قلوبهم مرض وزيف يغمضون أعينهم عما عظم من المتشابه عندهم كتسمية موسى إلهاً بنص التوراة الحالية^(٢)، ويأخذون من القرآن "بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لإحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى {ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ} أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الإحتجاج بقوله {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} وبقوله {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله".

١- أعضاء البيان ج ١ ص ٣٢٣-٣٢٤ الشقيطي دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان ، عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م
٢- جاء في التوراة الحالية فيما نسب إلى الله مخاطباً موسى أنه قال له "وانت تكون له [هارون] إلهاً" الخروج [٤: ١٦] وجاء قوله "أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك" [الخروج (٧: ١)]
٣- الجواب الصحيح ج ٢ ص (١٥٦-١٥٧) .

عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله ولهذا قال جماهير العلماء: إنه جبريل عليه السلام فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس وسماه جبريل^(١). وهذا يوضح أنه ليس لهم أدنى شبهة في هذا إذ المقصود بالروح القدس (وروحنا): جبريل عليه السلام وليس المسيح بل إن البعض جعل معنى الروح في قوله تعالى {وَرُوحٌ مِنْهُ} أيضاً جبريل عليه السلام يقول ابن جرير "وقال آخرون معنى الروح ههنا: جبريل عليه السلام قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم وألقاها أيضاً إليها روح من الله قالوا: فالروح معطوف به على ما في قوله "ألقاها" من ذكر الله بمعنى أن إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله ثم من جبريل عليه السلام".

- الروح أو الروح القدس أو روح الله عند النصارى هو الأَقْنُوم الثالث في الثالوثيم الوثني وهذا مبطل لادعاء النصارى على القرآن فيما يتعلق بقوله وروح منه أو روحنا من أساسه. لأن القرآن قال عن عيسى عليه السلام إنه روح من الله سبحانه وتعالى أو سماه بذلك بينما المسيح عند النصارى هو الابن أو "الأَقْنُوم الثاني" بزعمهم وليس هو روح الله، لأن روح الله، أو الروح، أو الروح القدس عندهم ليس عيسى عليه السلام وإنما هو الأَقْنُوم الثالث ولكل أقنوم بحسب اعتقاداتهم وظائف وأعمال ومهمات لا يقوم بها الأَقْنُوم الآخر فجعلهما أقنوماً واحداً لاشك أنه مبطل للثلاثية النصارى جملة وتفصيلاً.

وقد جاء في الأناجيل ما يوضح أن عيسى كان يخرج الشياطين بروح الله مما يعني أن عيسى شيء والمقصود بروح الله شيء آخر إذ ينسب إلى عيسى قوله "ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله" متى (١٢: ٢٨) وفي نص آخر يقول: "وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ومن قال كلمة على ابن الإنسان [عيسى] يغفر له وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي" متى (١٢: ٣٢-٣٣) وفي نص آخر "لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس" متى (١: ٢٠) وفي غيره "فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيا عليه" متى (٣: ١٦)، فروح الله أو الروح أو الروح القدس الواردة في النصوص السابقة لاشك أن المقصود بها غير عيسى والمقصود بذلك عند النصارى: الأَقْنُوم الثالث (الروح القدس) والذي هو غير عيسى مما يبطل كل شبههم التي يحاولون من خلالها تأليه عيسى استناداً إلى كتاب الله القرآن العظيم منطلقين من إنزال بعض معتقداتهم الفاسدة على قوله تعالى "روح منه" أو "روحنا" ومخفين بعضاً. والعجيب أن في الأناجيل ما يدل على أن المقصود بالروح أو الروح القدس أو روح الله إنما هو الملك جبريل عليه السلام وليس ما افتروه من أقنوم ثالث أو رابع فإنجيل لوقا يوضح ويشرح النص الأنف الذكر وهو "لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس" فيبين لمن يعقل أن هذا الروح القدس إنما هو جبريل عليه السلام حيث يقول في قصة حمل مريم بعيسى: "وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصره إلى عذراء" لوقا (١: ٢٦-٢٨) ويقص قصة حمل مريم عليها السلام بعيسى إلى آخرها.

فالمنصرون والنصارى ينظرون بمنظاري فاعتقاداتهم المعتمدة لديهم تبطل أن يكون الروح أو روح الله أو الروح القدس (الأَقْنُوم الثالث) هو المسيح لأنه عندهم الابن وهو الأَقْنُوم الثاني لكنهم إذا جاؤوا للقرآن أخفوا معتقداتهم هذه تلبساً على المسلمين وزعموا أن القرآن يدل على ألوهية عيسى استنتاجاً بزعمهم من أنه قال عنه أو جعله روح الله أو روحاً منه وهو عين ما ترفضه معتقداتهم لأن جمعهما في أقنوم واحد مبطل حسب اعتقاداتهم لأقنيم النصارى وتثليثهم من أصوله وهو تناقض بَيِّن بين ما يدعون على القرآن وما يعتقدونه فهم يسيرون وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة^(٢).

^١ - المرجع السابق ج ١ ص (٢٤٠).

^٢ - راجع: افتراءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح، د. علي الحربي ص: ٦٥-٧٠ مجمع الملك فهد.

٢- الضمير نحن في القرآن المقصود به عيسى (التثليث له وجود في القرآن) ؟

فقد كان نصارى نجران "يقولون عن عيسى عليه السلام: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة ويحتجون بأنه ثالث ثلاثة بقول الله: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا وقضينا فيقولون: لو كان الله واحدا ما قال إلا فعلت، وقضيت وأمرت وخلقته ولكنه هو وعيسى ومريم"^(١)، كما احتجوا على الرسول ﷺ بقوله تعالى: {إنا نحن} (الحجر: ٩) قالوا: وهذا يدل على أنهم ثلاثة"^(٢)، ويقول المنصر فندر إن "مما لا يصح إغفاله إن القرآن يتفق مع الكتاب في إسناد الفعل، وضمير المتكلم في صيغة الجمع إلى الله. وفي القرآن ما ورد في سورة العلق حيث يقول: {سندع الزبانية} وإنما أوردنا ذلك إشعاراً بأننا لا نخطئ إذا اعتبرنا عقيدة التثليث موافقة لإسناد ضمير الجمع إلى الله في القرآن"^(٣)، فالتثليث عند النصارى هل له وجود في الاسلام؟ فلماذا يستخدم القرآن لفظ نحن في الآيات؟ كثير من غير المؤمنين يقولون إن هذا إشارة إلى عيسى....؟

الجواب : ورد بطلانه والمنادة على صاحبه بالكفر والشرك ، بقوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (المائدة / ٧٣) والتثليث الذي اخترعه النصارى المتأخرون لا يستدل عليه بشيء من العقل والفطرة ولا بشيء من الكتب الإلهية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى . قال ابن القيم : وهذا شأن جميع أهل الضلال مع رؤسائهم ومتبوعيههم ، فجهل النصارى إذا ناظرهم الموحد في تثليثهم وتناقضه وتكاذبه قالوا : الجواب على القسيس ، والقسيس يقول : الجواب على المطران ، والمطران يحيل الجواب على البترك ، والبترك على الأسقف ، والأسقف على الباب ، والباب على الثلاثمائة والثمانية عشر أصحاب المجمع الذي اجتمعوا في عهد " قسطنطين " ، ووضعوا للنصارى هذا التثليث والشرك المناقض للعقول والأديان "^(٤) . ومن حيث اللفظ فإنه لم يأت في القرآن ولا في السنة ، بل جاء لفظ " التثليث " في كلام العلماء عند كلامهم على التثليث في " الاستحمار بالحجارة ، الوضوء ، الغسل ، غسل الميت ، التسبيح في الركوع والسجود ، الاستئذان للدخول للبيت ، وغير ذلك .

١ - قال تعالى: { يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم } ، فذكر سبحانه في هذه الآية " التثليث والاتحاد " ، ونهاهم عنهما وبَيَّن أن المسيح إنما هو {رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} ، وقال: { فآمنوا بالله ورسله } ، ثم قال: { ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم }^(٥) . وقد ظن بعض النصارى لجهلهم أن ضمير الجمع الدال على التعظيم في نحو قوله تعالى : (إنا فتحنا لك) ، (إنا أنزلناه) أنه يدل على عقيدتهم الفاسدة عقيدة التثليث .

و قال: وأما قوله { نتلوا } و { نقص } { فإذا قرأناه } : فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له أعوان يطيعونه ، فإذا فعل أعوانه فعلاً بأمره قال: نحن فعلنا، كما يقول الملك: نحن فتحنا هذا البلد، وهزمنا هذا الجيش، ونحو ذلك لأنه إنما يفعل بأعوانه، والله تعالى رب الملائكة وهم لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون، ولا يعصون الله

^١ - "السيرة النبوية" ج ٢ ص: (١٦٠) . لابن هشام الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة ، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد

^٢ - ابن تيمية "الجواب الصحيح" ج ٣، ص: (٤٤٨) . المرجع سابق .

^٣ - عبد الرحمن الجزيري: "أدلة اليقين في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المشركين المسيحيين في الإسلام" (٢١٩) .

^٤ - مفتاح دار السعادة " (٢ / ١٤٨) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت بلا تاريخ نشر .

^٥ - "الجواب الصحيح" (٢ / ١٥) مرجع سابق .

ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهو مع هذا خالقهم وخالق أفعالهم وقدرتهم، وهو غني عنهم ، وليس هو كالمملك الذي يفعل أعوانه بقدرة وحركة يستغنون بها عنه، فكان قوله لِمَا فعله بملائكته: نحن فعلنا: أحق وأولى من قول بعض الملوك . وهذا اللفظ هو من " المتشابه " الذي ذكر أن النصارى احتجوا به على النبي ﷺ على التثليث لما وجدوا في القرآن { إنا فتحنا لك } ونحو ذلك ، فذمهم الله حيث تركوا المحكم من القرآن أن الإله واحد ، وتمسكوا بالمتشابه الذي يحتمل الواحد الذي معه نظيره ، والذي معه أعوانه الذين هم عبيده وخلقه ، واتبعوا المتشابه يبتغون بذلك الفتنة ، وهي فتنة القلوب بتوهم آلهة متعددة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم .^(١) من أساليب اللغة العربية أن الشخص يعبر عن نفسه بضمير " نحن " للتعظيم ويذكر نفسه بضمير المتكلم الدال على المفرد كقوله " أنا " وضمير الغيبة نحو " هو " وهذه الأساليب الثلاثة جاءت في القرآن والله يخاطب العرب بلسانهم . ويقول: " فإله سبحانه وتعالى يذكر نفسه تارة بصيغة المفرد مظهراً أو مضمرًا، وتارة بصيغة الجمع كقوله: " إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً " وأمثال ذلك. ولا يذكر نفسه بصيغة التثنية قط، لأن صيغة الجمع تقتضي التعظيم الذي يستحقه، وربما تدل على معاني أسمائه، وأما صيغة التثنية فتدل على العدد المحصور، وهو مقدس عن ذلك " ولفظ (إنا) و (نحن) وغيرهما من صيغ الجمع قد يتكلم بها الشخص عن جماعته وقد يتكلم بها الواحد العظيم ، كما يفعل بعض الملوك إذا أصدر مرسوماً أو قرارا يقول نحن وقرنا ونحو ذلك وليس هو إلا شخص واحد وإنما عبر بها للتعظيم ، والأحق بالتعظيم من كل أحد هو الله عز وجل فإذا قال الله في كتابه إنا ونحن فإنها للتعظيم وليست للتعدد ، ولو أن آية من هذا القبيل أشكلت على شخص واشتبهت عليه فيجب أن يرد تفسيرها إلى الآيات المحكمة ، فإذا تمسك النصراني مثلاً بقوله : { إنا نحن نزلنا الذكر } ونحوه على تعدد الآلهة ، ردنا عليه بالمحكم كقوله تعالى: { إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم }، وقوله: { قل هو الله أحد }، ونحو ذلك مما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وعند ذلك يزول اللبس عمن أراد الحق، وكل صيغ الجمع التي ذكر الله بها نفسه مبنية على ما يستحقه من العظمة ولكثرة أسمائه وصفاته وكثرة جنوده وملائكته.

٢ - من العجيب أن عبد المسيح الكندي نفسه في رسائله التبشيرية التي ترد على القرآن استخدم ضمير الجمع للدلالة على المفرد على نفسه هو في عرض شبهته نفسها حيث قال: " وشبهه بما ذكرنا " . وهذا في رسالته كثير فهل هو ثالث ثلاثة؟ وهكذا القسيس فندر حيث قال: " وإنما أوردنا ذلك إشعاراً باننا لا نخطئ^(٢) " إن هذا دليل على أن هذا الأسلوب شائع مستخدم بكثرة ولا سيما في الكتب وعند الكتاب ويجري في سليقة العرب وسنن العربية قديماً وحديثاً وليس فيه أدنى غرابة أو شبهة لكن النصارى قوم ملبسون.

٣ - من الشواهد الإنجيلية لاستخدام ضمائر المتكلمين التي تدل على الفرد: قول بولس: " كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو فماذا نقول أَلعل عند الله ظلماً حاشاً " رومية (٩: ١٣-١٤) . ويقول أيضاً: " إذا نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس. أفنبطل الناموس بالإيمان حاشاً بل نثبت الناموس " رومية (٣: ٢٨-٣١) . ويقول أيضاً: " فماذا نقول إن أبانا إبراهيم قد وجد حسب الجسد " المصدر نفسه (٤: ١) ويقول: " فماذا نقول إن الأمم الذين لم يسعوا في أثر البر أدركوا البر الذي بالإيمان " المصدر نفسه (٩: ٣٠) . بل قال بولس: " لذلك أردنا أن نأتي إليكم أنا بولس مرة ومرتين وإنما عاقنا الشيطان " (١) تسالونيكي (٢: ١٨) . فقوله: (فماذا نقول) و

^١ - مجموع الفتاوى " (٥ / ٢٣٣ ، ٢٣٤) مرجع سابق .

^٢ - رسالة عبد المسيح الكندي إلى الهاشمي يرد بما عليه ويدعو إلى النصرانية "، طبعت في مصر سنة ١٨٩٥م، ص ٥ و ص ٦

(نحسب) و (أفنبطل) و (نثبت) و (أردنا) و (نأتي) و (عاقنا) تشتمل على ضمائر جمع مستترة وجوبا أو ضمائر ظاهرة أسندت إلى أفعال وهي تدل على مفرد هو بولس وحده وليس ثلاثة هو ثالثهم.

وهكذا نرى أن من الأساليب المعهودة في اللغة العربية التي نزل بها القرآن وترجمت إليها التوراة والإنجيل استخدام ضمائر الجمع للدلالة على المثنى أو على المفرد فقط وقد استخدمت لتعود إلى غير الله مما يبين فساد دعوى النصارى والمنصرين في أن ضمائر الجمع المسندة لله سبحانه وتعالى في القرآن تدل على ألوهية عيسى عليه السلام بزعم دلائلها على التثليث، وإنما هو أسلوب من أساليب التعظيم أولى به الخالق سبحانه وتعالى من كل مخلوق، واستخدامه جرى على لسان العرب كثيرا حتى النصارى كما مر وهو إلى اليوم معهود غير مستغرب سواء في مخاطبات الملوك أو غيرهم. فهذا أسلوب سائع لغة كما يقول ابن قتيبة^(١) وابن فارس رحمه الله: "ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع فيقال للرجل العظيم: انظروا في أمري وكان بعض أصحابنا يقول: إنما يقال هذا لأن الرجل العظيم يقول: نحن فعلنا: فعلى هذه الابتداء خوطبوا في الجواب"^(٢). فهل هناك من هو أعظم من مالك الملك وأولى منه بمثل هذا الأسلوب؟ يقول ابن تيمية إن ضمير الجمع يقع "على من كان له شركاء وأمثال وعلى الواحد المطاع العظيم الذي له أعوان يطيعونه وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء، والله تعالى خلق كل ما سواه فيمتنع أن يكون له شريك أو مثيل والملائكة وسائر العالمين جنوده تعالى. فإذا كان الواحد من الملوك يقول: إنا ونحن ولا يريدون أنهم ثلاثة ملوك فمالك الملك رب العالمين، ورب كل شيء ومليكه هو أحق بأن يقول: إنا ونحن مع أنه ليس له شريك، ولا مثيل بل له جنود السموات والأرض"^(٣).

٤ - كما أن اللغة العربية مليئة بالشواهد على خروج ضمائر الجمع عن ظاهرها للدلالة على المفرد ومن ذلك ما في الشعر الجاهلي: يقول امرؤ القيس حين رأى قبر امرأة في سفح جبل عسيب الذي مات عنده:
أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينا فالقراة بيننا ... وإن تصرمينا فالغريب غريب
أجارتنا ما فات ليس يؤوب ... وما هو أت في الزمان قريب"^(٤)
ويقول عمرو بن كلثوم متغزلا:
قفي قبل التفرق يا ظعينا ... نخبرك اليقين وتخبرنا
قفي نسألك هل أحدثت صرما ... لوشك البين أم خنت الأمانة"^(٥)
ويقول زهير بن أبي سلمى مخاطبا هرم بن سنان والحارث بن عوف:
سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ... ومن أكثر التسأل يوما سيحرم."^(٦)
ويقول الحارث بن حلزة متغزلا: آذنتنا بينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء"^(٧)
ويقول الجهمي: منقذ بن الطماح في زوجته:

^١ - مسلم ابن قتيبة "تأويل مشكل القرآن" ص ٢٩٣.

^٢ - أحمد بن فارس: "الصحاح" ص: ١٦٠ الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م

^٣ - ابن تيمية "الجواب الصحيح" ج ٣ ص (٤٤٨) مرجع سابق .

^٤ - ديوان امرؤ القيس "دار بيروت للطباعة والنشر (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) ص (٧٩)

^٥ - الحسين بن أحمد الزوزني: "شرح المعلقات العشر" طبعة (١٩٨٣م) دار مكتبة الحياة، بيروت ص (٢٠٢)

^٦ - المرجع السابق ص (١٥٥)

^٧ - المرجع السابق ص (٢٦٣) .

أُمسّت أمانة صمتنا ما تكلمنا ... مجنونة أم أحست أهل خروبي

فإن تقري بنا عينا وتختفضي ... فينا وتنتظري كري وتغري^(١)

فضمائر المتكلمين في: أجاتنا، وتصلينا، وتصرمينا، ونخربك، وتخبينا، ونسألك وسألنا وعدنا وأذنتنا، كلها ضمائر جمع للمتكلمين قصد بها الواحد كما هو واضح من السياق.

٥ - من الشواهد اللغوية في القرآن التي استخدمت فيها ضمائر الجمع للدلالة على غير الجمع مع أن الضمائر فيها تعود إلى غير الله سبحانه وتعالى ما يأتي: قوله تعالى {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين} (الأنبياء: ٧٨) . وقوله تعالى {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين} (فصلت: ١١) فالضمير في قوله (لحكمهم) ضمير جمع يدل على المثني وليس على الثلاثة فأكثر ولا على الواحد وكذلك ياء الجماعة في (طائعين) ومثل ذلك قوله (أتينا) هذه بعض أمثلة استخدام ضمائر الجمع للدلالة على المثني، أما استخدام ضمائر الجمع في القرآن للدلالة على المفرد فشواهدها:

قوله تعالى عن الخضر {وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً} (الكهف: ٨٠-٨١) .. وقال تعالى {قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستنقله من أمرنا يسراً} (الكهف: ٨٦-٨٨) . وقال تعالى {وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين} (النمل: ١٦) .

فالضمائر في: (فخشينا) و (فأردنا) و (نعذبه) و (سنقول) و (أمرنا) و (علمنا) و (أوتينا) ضمائر جمع تدل على واحد وليس على اثنين أو ثلاثة أو أكثر.^(٢)

٣- هل نسب القرآن إلى المسيح صفة الخالقية؟

ثلاثة الأسافي عندهم في دعم الخالقية للمسيح قالوا: القرآن يعتبر المسيح خالقاً محيياً للموتى {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله} (آل عمران: ٤٩)، ولم يشهد بمثل ذلك لغيره من المخلوقات، فالخلق صنعة الله التي لا يشاركه فيها إلا المسيح، وفي هذا دليل ألوهيته واستحقاقه للعبادة، ويوافق ما ذكره العهد الجديد عن المسيح "الله خالق الجميع يسوع المسيح" (أفسس ٣ / ٩)، وفي إنجيل يوحنا "كان في العالم، وكوّن العالم به، ولم يعرفه العالم" (يوحنا ١ / ١٠). وهذا ما زعمه المنصر المشهور فنذر أن ما ورد في القرآن من أن عيسى خلق طيراً من الطين إنما هو من صفات الله وحده ذاهباً إلى أن القرآن يؤيد بذلك ألوهية المسيح،^(٣) وكذلك المنصر المعاصر يوسف يقول: "إن القرآن يقرر بصورة عامة أن المسيح آية في حياته، آية في رسالته، آية في قداسته وكماله، آية في شخصيته، آية في انفراده، وأن هذه الشخصية في القرآن تسمو على جميع الأنبياء، وأن الآيات بمجملها لا يمكن إلا أن تترك في نفس القارئ فكرة عظيمة عن سمو المسيح حتى لتخرج به عن طبقة البشر وتترك الباب مفتوحاً لاعتقاد النصارى بألوهيته"^(٤).

^١ - المفضل بن محمد الضبي: "المفضليات" ص (٣٤-٣٥) الناشر: دار المعارف - القاهرة، الطبعة: السادسة تحقيق شاکر وهارون

^٢ - افتراءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح، د. علي بن عتيق الحري ٤٣ - ٥٥، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة.

^٣ - الجيزي، أدلة اليقين ص: (٣٦٣) مرجع سابق .

^٤ - محمد عزة دروزة: "القرآن والمبشرون" الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ-١٩٧٢م)، ص: (٣٩٩)

هذه الشبه الثلاثة أبرز الإدعاءات التي زعم المنصرون قديما وحديثا إستنادا إليها أن القرآن يؤيد اعتقادهم بالوهمية المسيح وقد بدأت منذ عصر الرسول على يد نصارى وفد نصارى نجران كما مرّ سابقا وفي هذه قالوا : في قولهم عن عيسى بأنه هو الله بأنه كان يحيى الموتى ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ثم تبعهم فيما بعد عبد المسيح الكندي، وغيره. والجواب: هذه المعجزات لم يرد فيها شيء البتة في الأناجيل الحالية ولا يعلم النصارى عنها شيئا من خلال الأناجيل إلا ما اطلعوا عليه من خلال القرآن الكريم، وذلك مثل: كلام عيسى في المهد وكهلا، خلقه من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله، ومثل: إنبائه لهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم . وإن كان قد ورد أنه أنبأهم ببعض الأمور المستقبلية كتهدم الهيكل مثلا . وهذا يدل على جهل النصارى بكثير من أحوال عيسى سواء معجزاته أو حياته قبل الثلاثين من عمره أو غير ذلك حيث "لا نجد ذكرا لعيسى عنهم إلا حينما كان طفلا لا يتجاوز عمره ثمانية أيام عند ختنته ثم لا تذكر الأناجيل على شيء من حياته عليه السلام حتى يبلغ اثني عشرة سنة فتذكر أنه (لما كانت له اثنتا عشرة سنة صعد إلى اورشليم كعادة العيد) ثم لا تتكلم الأناجيل عن شيء من أحوال عيسى عليه السلام حتى يبلغ الثلاثين من عمره فتذكر أنه بعث آنذاك" ^(١).

كما ذكرت الأناجيل أنه ذهب إلى مصر وهو صبي هو وأمه مع يوسف النجار إضافة إلى ما زعمت الأناجيل أنه نسب للمسيح ذلك النسب المضطرب اضطرابا كبيرا كما هو معروف متى (١ : ١٧-١٨) ولوقا (٣ : ٢٣-٣٨) . هذا هو أغلب ما يعرفه النصارى من تاريخ عيسى عليه السلام إلى مبعثه انطلاقا من الأناجيل الحالية ولذا فإن القرآن الكريم {يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون} (النمل: ٧٦) .

١ - حين تحدثت الآيات القرآنية عن معجزات عيسى عليه السلام؛ ما فتئت تذكر أن هذه المعجزات عطية الله تعالى لبنيه المسيح عليه السلام {قد جئكم بآية من ربكم}، وقد صنعها وغيرها من المعجزات بإذن الله {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله}، فمعجزاته عليه السلام ومعجزات غيره من الأنبياء لا تنفك عن مشيئة الله وإقذارهم عليها.

فهل نسب القرآن الخالقية المطلقة للمسيح حين قال {أخلق لكم}؟

والجواب بدون ريب ولا تلكؤ: لا. ولفهم الآيات يحسن الوقوف على معنى لفظة (الخلق) في لغة العرب، إذ تطلق هذه اللفظة على معانٍ، وبهمنها منها معنيان:

الأول: الإيجاد من العدم، والإبداع من غير مثال سابق، فالله {بديع السماوات والأرض أى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم} (الأنعام: ١٠١)، فهذا خلق يختص به الله وحده.

الثاني: التصوير لما أوجده الله وخلق، ومنه قول الله: {فتبارك الله أحسن الخالقين} [المؤمنون: ١٤]، فقد وردت في سياق الحديث عن تصوير الإنسان ونقله من طور إلى طور {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤].

قال القرطبي: «أتقن الصانعين. يقال لمن صنع شيئا خلقه؛ ومنه قول الشاعر:

ولأنت تقري ما خلقت وبع ... ض القوم يخلق ثم لا يفري

^١ - علي الحربي، نصيرية عيسى عليه السلام ونصيرية بولس دراسة مقارنة من أسفار العهد الجديد" بحث ماجستير (١٤٠٧هـ). ص ٣٣.

ولا تنفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع وإيجاد من العدم^١. وبمثل هذا المعنى تحدث القرآن عن صنع عيسى من الطين كهيئة الطير { أَنِي أَخْلَقَ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ } (آل عمران: ٤٩).

قال أبو حيان الأندلسي: «والخلق يكون بمعنى الإنشاء وإبراز العين من العدم الصرف إلى الوجود. وهذا لا يكون إلاً الله تعالى. ويكون بمعنى: التقدير والتصوير، ولذلك يسمون صانع الأدم ونحوه: الخالق، لأنه يقدر، وأصله في الأجرام، وقد نقلوه إلى المعاني، قال تعالى: { وَتَخْلُقُونْ إِنْكَاءً } (العنكبوت: ١٧)، ومما جاء الخلق فيه بمعنى التقدير قوله تعالى: { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } أي المقدرين»^(٢).

ومن هذا المعنى أيضاً ما يقال يوم القيامة للمصورين، قال ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»^(٣)، أي ما صورتوه من الصور، فهذا معنى الكلمة في لغة العرب لمن أراد تدبراً وحقاً. وفي الآية { أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بَآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ } أي جئتكم بعلامة من ربكم ولو كان هو ربهم لكانت العلامة منه وليس من غيره .

قالوا إنه قال: { بآية من ربكم } ولم يقل ربي فيستدل بذلك على كونه إله أو ابن إله !! رد تعالى: عليهم بالآية التالية مباشرة من نفس السورة قول عيسى: { إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } (آل عمران: ٥١) ، يستدلون بأن الذي يخلق إنما هو إله واستدلواهم بذلك يدل على جهلهم فقد يُستدل بجزء من الآية بما يتنافى مع آخرها فهو يقول بإذن الله أي أنني أفعل شيئاً ليس بإذني ولا بقدرتي ولكنه بإذن الله الذي أرسلني وعليه فيكون مفهوم الآية أنني أحمل لكم ما يدل على أن الذي أرسلني هو الله.

لم ينفرد عيسى عليه السلام بهذه المعجزات ولو انفرد لما كان دليلاً على ألوهيته لأنه أوتيتها بإذن الله تعالى كما مر آنفاً. فكيف وقد شاركه غيره من الرسل والأنبياء في أنواع المعجزات التي أنعم الله بها عليه، إضافة إلى من ليس بنبي ولا رسول، وإن من أول ما شورك به: إحياء الموتى كما شاركه بها العديد من أنبياء الكتاب المقدس فقد أحيوا الموتى بإذن الله.

ذكر القرآن الكريم معجزات عدة لإحياء الموتى إنعاماً من الله على بعض رسله ، فقد أخذ إبراهيم عليه السلام طيوراً أربعة بأمر الله له بعد دعائه الله أن يريه كيف يحيى الموتى ومزقهن وفرق أجزأهن على كل جبل منهن جزءاً ثم دعوته لهن أن يأتينه، فأتيته سعياً (البقرة: ٢٦٠) وقد ألقى موسى لعصاه الجماد التي لا روح فيها، ثم تحولها إلى ثعبان عظيم عند فرعون والماء من قومه فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين { (الأعراف: ١٠٤-١٠٧) . وقوله تعالى { وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون } (الأعراف: ١١٧). فهذه معجزة عظيمة أنعم الله بها على موسى ﷺ إذ أحيى الله هذه القطعة الصغيرة من الخشب الجماد التي لا حياة فيها وجعلها حية عظيمة تسعى وتبتلع بفيها ما وضعه السحرة من عصي وحبال. إلخ. كما أحيى الميت الذي قتل في بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام بإذن الله بعد أمر الله لهم أن يضربوا الميت ببعض البقرة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن يقول تعالى { وإذا قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون }

^١ - الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١١٠). مرجع سابق .

^٢ - البحر المحيط (٣/ ١٦٣) مرجع سابق .

^٣ - أخرجه البخاري ح (٥١٨١)، ومسلم ح (٢١٠٧).

(البقرة: ٧٢-٧٣). فهؤلاء الذين ضربوا الميت ببعض لحم البقرة فقام حيا بإذن الله ليسوا من الرسل على ما يظهر وعلى الرغم من هذا حدثت على أيديهم هذه المعجزة بإذن الله فهل كان هذا مدعاة لتأليه أحد منهم؟ أو تأليه موسى عليه السلام؟

إن النصارى زعموا أن علة تأليه عيسى هي إحياءه للموتى ولو فرض أنها علة لتأليه أحد ما من البشر، لكن العقل موجبا أن يؤله كل من اشترك في هذه العلة فقام العديد بمثل هذه المعجزات أو الأمور الخارقة للعادة كما سنذكر لاحقا، وقالوا: بما أن عيسى خلق فهو إله لأن الخالق حتما ولا بد أن يكون إله كما قال: { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (النحل: ١٧).

لكن عيسى لم يخلق خلقا سويا باقيا متناسلا من تلقاء نفسه بل كان خلقا مؤقتا ليبرهن لهم على صدق نبوته مع ذكر من أذن له بذلك وهو الله والآية الكرمة ليتأكد لنا نسبة الفعل إلى الله وليس إلى عيسى عليه السلام ، وإذا كان عيسى قد صنع من الطين كهيفة الطير فصار طيرا بإذن الله فمن قبله موسى رمى عصاه فصارت حية تسعى أيضا بإذن الله ولم يقل أحد أنه إله والحية مخلوق له روح كالطائر الذي ذكر في شان عيسى بل أن الحية كانت اكبر من الطائر وابتلعت حبال وعصي السحرة التي أوهموها الناس أنها تتحرك .

إن الله يؤيد أنبياءه بمعجزات ولكي تكون معجزة لا بد أن تكون أمرا خارقا للعادة وأن تكون من جنس ما نبغ فيه القوم المرسل إليهم هذا النبي ومن ذلك موسى عليه السلام أرسل على قوم انتشر فيهم السحر فكانت معجزته أن أيدته الله بشيء عجز عنه السحرة بل لم يقفوا عند حد العجز ولكنه تيقنوا أن ما جاء به موسى عليه السلام من العصا التي انقلبت إلى حية والتهمت ما قدموه من سحر وكان متمثلا في حبال وعصي أعلنوا إيمانهم بالله رب العالمين ، وثمة معجزة أخرى لموسى بن عمران عليه السلام فقد حدث أن رجلا قتل من بني إسرائيل ولم يعرفوا من قتله فأحياه الله على يد موسى وأخبر عن قاتله وفي ذلك أشار القرآن الكريم (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } ٧٢ { فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ٧٣ { البقرة)

ومع أنها إحياء للموتى مثل إحياء الموتى عند عيسى عليه السلام فقد وقفت عند كونها معجزة أيد الله بها نبوته فقط ، و لم يقل أحد أن موسى إله أو ابن الله^(١).

وفي زمن عيسى عليه السلام كان الناس قد اشتغلوا بالطب ولكنهم عجزوا عن أمور منها إبراء الأكمه وهو الذي ولد أعمى والأبرص وهو المرض الجلدي المعروف وكذلك أن يتكلم ميت بعد موته فأيده الله بما عجز عنه قومه وهم يعلمون أنه لم يدرس الطب ولا غيره ليعلموا أن هذا الإعجاز من عند الله فيكون أدعى لإيمانهم .

وحجة النصارى تكمن في كون معجزة عيسى لا يقدر عليها بشر فإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى مما يعجز عنه بشر وطالما أن عيسى فعله فهو إله . إن كانت عندهم بقية عقل كل المعجزات التي أتى بها الأنبياء يعجز عنها البشر ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها . فهل كل الأنبياء آلهة ؟ فمعجزة صالح عليه السلام الناقة

{ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ } (الأعراف: ٧٣) ، أخرج لكم من الصخرة ناقة عظيمة كما سألوا، { وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ } (هود: ٦٤)

^١ - افتراءات المصيرين على القرآن الكريم أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح عليه السلام ، الدكتور علي بن عتيق الحري ص ٧١ - ٨٥ وتنزيه القرآن عن مطاعن الرهبان للسقار ، من نفاذات المؤلف عن النص المطبوع في النسخة الإلكترونية وهي موجودة في المكتبة الشاملة

ويا قوم هذه ناقة الله جعلها لكم حجة وعلامة تدل على صدقي فيما أَدْعُوكُمْ إليه، فاتركوها تأكل في أرض الله فليس عليكم رزقها، ولا تمسوها بعقر، فإنكم إن فعلتم ذلك يأخذكم من الله عذاب قريب من عقرها. {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} (الأعراف: ٧٧)، فنحروا الناقة استخفافاً منهم بوعيد صالح، واستكبروا عن امتثال أمر ربه، وقالوا على سبيل الاستهزاء واستبعاد العذاب: يا صالح ائتنا بما تتوعدنا به من العذاب، إن كنت من رسل الله.

فهل يقدر بشر أن يأتي بناقة من الجبل أو من الصخر كناية صالح ؟

٤ - لقد جاء في التوراة والأنجيل معجزات كمعجزات المسيح عليه السلام ولاسيما إحياء الموتى. وقبل ذكرها لابد من الإشارة إلى أن معجزات المسيح عليه السلام التي وردت في الأنجيل إنما هي بنص الأنجيل بإذن الله تعالى هذه بعض النصوص :

(١) - قوله "فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعاً ورفع يسوع عينه إلى فوق وقال أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا أعلم أنك في كل حين تسمع لي ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم: لعازر هلم خارجاً فخرج الميت" يوحنا (١١ : ٤١-٤٣) رفع عيسى بصره إلى السماء ودعا الله ومجده، وأوضح النص أن هذه المعجزة إنما هي من أجل أن يصدقوا به رسولا من عند الله، وقد استجاب الله دعاءه فخرج الميت حياً بإذن الله.

(٢) - قوله "فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب" يوحنا (٥ : ١٩). وينسب إلى عيسى أنه قال: "والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك" يوحنا (١٧ : ٧) فكل ما أوتيهِ المسيح عليه السلام من إحياء للموتى، ومن إنباء بالغيب إلى غير ذلك من معجزات إنما هو بنص أقوال المسيح عليه السلام من عند الله وبإذن الله سبحانه وتعالى وهذا مثبت أنه ليس له من الأمر شيء ومبطل لدعوى ألوهية المسيح من خلال الأنجيل

(٣) - جاء في نص آخر: "فقلت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي لكن الآن أعلم أن كل ما تطلبه من الله يعطيك إياه" يوحنا (١١ : ٢١-٢٢) فهذه المرأة تعلم أن الأمر ليس بيده وإنما إذا دعا الله أعطاه الله سؤاله فإحياء الموتى الذي حدث على يد المسيح إنما هو بإذن الله سبحانه وتعالى.

(٤) - وفي نص آخر: "أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل [!] قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم تعلمون" أعمال الرسل (٢ : ٢٢) وانظر: أعمال الرسل (١٠ : ٣٨). فالأمر بدهي عند المؤمنين بعيسى آنذاك من بني إسرائيل: أن المعجزات التي جاء بها إنما أوجدها وصنعها الله وليس عيسى عليه السلام وإنما حصلت على يد عيسى فهي من (قبل الله) أو من عند الله وبإذن الله وأوجدها الله سبحانه وتعالى وما عيسى إلا (رجل) أو عبد من عبيد الله ورسول من رسله ثبت صدقه بما أنزله الله على يديه من المعجزات (القوات والعجائب).

ولذا على الرغم من إحياء عيسى للموتى بإذن الله، لم يجعل ذلك منه عند الجموع التي قام بالمعجزات في وسطها إلا أنه نبي فقط فلم يتجاوزوا به طور البشرية. جاء في الأنجيل "فقال (أي عيسى) أيها الشاب لك أقول قم فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه فأخذ الجمع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه" لوقا (٧ : ١٤-١٦)

وهذه بعض المعجزات التي تشبه معجزات عيسى عليه السلام من التوراة والأنجيل:

١ - جاء في سفر الملوك الأول: "قال (إيليا) يا رب إله لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش. وقال إيليا (لأم الولد) انظري ابنك حي فقالت المرأة لإيليا هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب في فمك حق" (١٧: ٢١-٢٤) فأقصى ما قالته المرأة لإيليا بعد أن أحيا الله على يديه ابنها "إنك رجل الله" أي نبي الله. ولم تغل فيه فتقول له: إنك إله.

كما جاء في التوراة قوله "ودخل أليشع البيت وإذا بالصبي ميت ومضطجع على سريره فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما وصلى إلى الرب. فعطس الصبي سبع مرات ثم فتح الصبي عينيه. فدعاها (أي أم الصبي) ولما دخلت إليه قال احملي ابنك" الملوك الثاني (٤: ٣٢-٣٦) فما اتخذ اليسع إلها لذلك الإحياء الذي هو بإذن الله وهو كمعجزات عيسى عليه السلام. كما جاء فيها قوله "ومات أليشع فدفنوه وكان غزاة موآب تدخل على الأرض عند دخول السنة وفيما كانوا يدفنون رجلا إذا بهم قد رأوا الغزاة فطرحوا الرجل في قبر أليشع فلما نزل الرجل ومس عظام أليشع عاش وقام على رجله" الملوك الثاني (١٣: ٢٠-٢١) فاليشع فيما تروي التوراة حتى وهو ميت تحيي عظامه بإذن الله ميتا وجاء عن حزقيال أنه أحيا جيشا عظيما جدا بإذن الله كانت عظام أفرادهم رميما حزقيال (٣٧: ١-١٠) فهؤلاء أحيوا بإذن الله أمواتا وبعضهم أحيا جيشا عظيما من الأموات فلم لم يكونوا آلهة مثل عيسى - تدرجا مع زعم النصارى؟ علما أن العلة التي ادعاها النصارى والمنصرون لتأليه عيسى هي: إحياء الموتى، وهؤلاء اشتركوا مع عيسى عليه السلام في العلة نفسها وقاموا بالأفعال أو المعجزات نفسها. مما يوجب على النصارى عقلا الاشتراك مع عيسى في النتيجة نفسها وهي الألوهية فعدم تأليه النصارى لمن شارك عيسى في الفعل والعلة (المقدمة الصغرى والكبرى) مكابرة ومعاودة يرفضها العقل فهي من باب التفريق بين المتماثلات والمتطابقات لأن تطابق المقدمات مفض لتطابق النتائج. ومنطقيا كل من شارك عيسى عليه السلام بإحياء الموتى فهو إله كعيسى بجماع إحياء الموتى وتأليه هؤلاء البشر نتيجة كاذبة يكذبها النصارى قبل غيرهم ولما كانت النتائج كاذبة والمقدمات (الصغرى) مسلمة - ولاسيما المقبول منها عند المسلمين والنصارى - ثبت عقلا أن العلة - أو المقدمة الكبرى في قياس الشمول - هي سبب بطلان النتائج وكذبها. وهذا ما تدل عليه آيات القرآن ونصوص التوراة والأنجيل من أن حصول معجزة إحياء الموتى على يد أحد من البشر وإن كان نبيا أو صالحا ليس دليلا على ألوهيته. مما يسقط دعوى النصارى في تأليه عيسى لأنه أحيا موتى إذ تبين أن هذا ليس علة للألوهية حيث قام بهذا الإحياء من ليس بإله من الرسل والأنبياء بإذن الله بل ومن ليس من الأنبياء أو الرسل.

٥ - وبقي في جواب هذه الأبطولة أن ننبه القائلين بها إلى أن المسيح لم يدع في الإنجيل المنسوب إلى تلاميذه وتلاميذهم أنه خالق، وأن غاية ما ذكره بولس أن الله هو الخالق، ولكنه خلق الخلائق به "الله خالق الجميع ييسوع المسيح" (أفسس ٣/ ٩)، فهو واسطة الخلق، وليس الخالق، يقول القس جيمس أنس: "الآب خلق العالم بواسطة الابن".^(١)

^١ - علم اللاهوت النظامي، القس الدكتور جيمس أنس، ص (١٧٨) مراجعة القس منيس عبد النور. الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة. القاهرة، وللمزيد من البيان انظر كتاب "الله جل جلاله واحد أم ثلاثة؟". وانظر تنزيه القرآن عن دعاوى المبطلين له. وكتاب افتراءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح عليه السلام، الدكتور علي بن عتيق الحري ص ٧١-٨٥

٤ - ادعاء ثبوت صور للتثليث في العقيدة الإسلامية

إن الإسلام إن يكن رد عقيدة التثليث النصرانية ظاهراً، فإنه في حقيقة الأمر قد ألمح إلى صور ومظاهر لها تتجلى في البسمة التي يرددونها المسلمون، وفي الصفات الإلهية العديدة التي أسندها الإسلام إلى الله لا سيما اسم "الودود" الذي يستدعى ضرباً من التآلف في الذات الإلهية بين أقانيمها المكونة لحقيقتها، وربما أضافوا إلى ذلك ما يشيع في القرآن الكريم من إسناد الأفعال إلى الله بضمير الجماعة كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٩)﴾ (الحجر).

ويرون أن عقيدة التثليث التي جاء بها عيسى بزعمهم هي التصور الوحيد الذي يسد الفجوة بين الرب وعباده بروابط الحب التي أقامها تحسده ثم صلبه فداء لهم وتكفيراً عن خطاياهم، والتثليث فيها لا يعني الكثرة والتعدد، فالمراد بالآب الذات، وبالابن النطق الذي هو قائم بتلك الذات، وبروح القدس الحياة، والثلاثة واحد، ويدعون أن الإسلام يؤمن بهذا الثلاث، ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ (النساء: ١٧١)،

الجواب:

- العقيدة النصرانية في عيسى عقيدة متناقضة مضطربة، لا يستسيغها عقل أو يطمئن إليها ضمير.
- المحاولات الكثيرة التي أقدم عليها بعض كتاب النصارى لإثبات أن الإسلام أقر بعض مظاهر التثليث هي من التكلف والعنت على نحو يسقط قيمتها ويجعلها غير جديرة بالاعتبار.
- تعلق بعض النصارى بتعدد الصفات الإلهية في الإسلام للقول بضرب من التعدد في الإسلام يخالف ما يعرفه المسلمون من دينهم وما يفهمونه من هذه الصفات.
- لم يدع عيسى عليه السلام كغيره من الرسل إلا توحيد الله عز وجل، وكثير من العقائد النصرانية إنما مرجعه إلى بولس الذي لا تخلو سيرته من شبهات وشكوك.
- عقيدة التثليث في النصرانية قد فشلت في طمأنة الضمير المسيحي وبخاصة في العصر الحديث؛ وهذا يفسر إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام.

- القرآن الكريم صريح في نفي عقيدة التثليث النصرانية وذلك في غير آية من آياته.
- ما يزعمونه من شواهد إسلامية تقرر عقيدة التثليث أو تدانيتها هو زعم متهافت لا يعرفه المسلمون، ولا يحسونه في كلامهم.
- عقيدة التوحيد هي دعوة الأنبياء جميعهم، ولقد وجد لها شواهد في العهدين القديم والجديد، على ما حل بهما من تبديل وتغيير.

أولاً. التناقض في عقيدة التثليث: يستهلون شبهتهم بسرد بعض آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى توحيد الله، ونبذ التثليث الذي مهما حاولوا أن يقنعوا الناس بأنه توحيد فلا بد أن يردهم إلى أنه تعدد وتثليث، ويعقبون على الآيات المذكورة في مضمون الشبهة وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (١٦)﴾ (المائدة)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في

الأرض وكفى بالله وكيلاً (١٧١) { (النساء)، وقوله سبحانه وتعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً} (المائدة: ١٧)، ويقولون: إن هذه الآيات توضح أن محمداً سمع من بعض أصحاب البدع من النصارى أنه يوجد ثلاثة آلهة، هم الله ومريم وعيسى، فرد على هذه البدعة، وكرر المرة بعد الأخرى أن الله واحد.

وإذا كانوا ينقلون عن التوراة والإنجيل هذا النص: "الرب إلهنا رب واحد". (التثنية ٦: ٤، ومرقس ١٢: ٢٩)، فلماذا يجعلون هذا الواحد من الثلاثة يتميز عن الآخر، فهما ذاتان، لا يفهم العاقل من هذا التعبير إلا ذلك، ومع ذلك فهما عند النصارى إله واحد!!

يقول د. عبد الحليم محمود: "لقد سمعت مرة وكدت لا أصدق أذني بطريك أقباط مصر عند تتويجه يقول عن السيد المسيح عليه السلام: يجلس عن يمين أبيه على العرش، وهما واحد!! وإذا كانت تصريحات كتابهم المقدس يأتي فيها أحياناً القول بالإله الواحد، وتعتمدون بعد ذلك على التثليث فهذا يعني تناقضهم في تصور الإله الواحد، وخروجهم على ما صرح به كتابهم، وقد ثبت للعلماء أن عقيدة التثليث عند النصارى عقيدة مقتبسة من الديانات الوثنية القديمة، مثل ديانة البراهمة والبوذية، ووثنية قدماء المصريين، والفرس واليونان والرومان"^(١).

ومهما حاول النصارى الجمع بين التوحيد والتثليث، فهي محاولة غير موفقة، كالذي يجمع بين النقيضين، ويعبر هؤلاء عن تناقضهم وتناقض أبناء ملتهم بقولهم: المسيحيون لا يعبدون ثلاثة آلهة، بل إلهاً واحداً في وحدانية جامعة هو: الآب، والابن، والروح القدس، فالوحدانية في العقيدة النصرانية ليست هي عبادة إله واحد، بل مجموعة مركبة، وهي إله واحد سواء فهمت ذلك أم لم تفهمه!!

إنكارهم ألوهية مريم قولا، وعبادتهم لها فعلا:

يقول هؤلاء المدعون: "ولم يقل مسيحي حقيقي إن العذراء مريم إله، مع كل التقدير والمحبة لها". وليتهم في إنكارهم ألوهية مريم يعبرون عن كل النصارى، فلسنا هواة خلاف، وقد دعانا المولى إلى أن نلتقي مع أهل الكتاب على كلمة سواء، فطائفة البروتستانت من فرق النصارى وهي فرقة ظهرت متأخرة هي وحدها التي تنكر ألوهية مريم، أما ما عداها من الفرق، فالجميع يقول بألوهية مريم، والنصارى وإن عبدوا مريم إلا أنه لم يثبت أنهم أطلقوا عليها إلهاً، كما أطلقوا على عيسى ومن هنا ندرك دقة التعبير القرآني عندما قال عن مريم وعيسى مجتمعين: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} (المائدة: ١١٦)، والاتخاذ غير التسمية، فهو يصدق بالعبادة، وهي واقعة قطعاً، بينما قال الله تعالى في عقيدتهم في عيسى خاصة: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} (المائدة: ٧٢).

فهم عبدوه وسموه إلهاً، وهذا موافق لواقع النصارى {ومن أصدق من الله حديثاً (٨٧)} (النساء)، وعن عبادة النصارى لمريم يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "إن هذه العبادة التي يوجهها النصارى لمريم، والدة المسيح منها: ما هو صلاة ذات دعاء وثناء واستغاثة واستشفاع، ومنها: صيام ينسب إليها ويسمى باسمها، وكل ذلك يقرن بالخشوع، والخضوع، والخشوع، لذكرها ولصورها وتماثيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها التي تمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها، وقد صرحوا بوجود العبادة لها"^(٢).

^١ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ج ٦، ص ٣٣.

^٢ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ج ٧، ص ٢٦٣.

فظهر أن ما يدعيه هؤلاء بعد ذلك هو موافقة للبروتستانت وخروج على إجماع الكنيستين الشرقية والغربية، أو هو نوع من التضليل ظنا منهم أن الناس سيصدقونهم في كل ما يقولون؟! قال سبحانه وتعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو} (التوبة: ٣١)، وإن كنا وجدنا بعض فرق النصارى تنكر قصد السيدة مريم بالعبادة كما هو الحال بالنسبة للبروتستانت فذلك كان في مراحل متأخرة، ولا يقدح ذلك في عبارة القرآن؛ فإن المعبود في القرآن وكذلك المتبوع اتباعًا كاملاً يسمى إلهًا، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم} (التوبة: ٣١)، وقوله سبحانه وتعالى: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون (٢٣)} (الجناتية)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطى رضي، وإن لم يعط لم يرض»^(١).

ثانياً. استحالة عقيدة التثليث وموقف القرآن منها:

إن ما حاولوا أن يلتمسوه لعقيدة التثليث من مسوغ عقلي لم يزدها إلا استحالة عقلية، وبعداً عن الواقع، وتعقيداً يعلمه زعمائهم أكثر من غيرهم، فالآب ذات، والابن ذات كذلك بدليل انفصاله عنه ودخوله في جوف أمه مريم، ولا مهرب لهم من هذا، فالمسيح مكث في جوف أمه، ثم خرج منه، ثم عاش بين الناس يأكل الطعام مثل أمه، وتداعيات أكل الطعام كثيرة، كلها تقول إنه إنسان كبقية البشر، إنه مخلوق كبقية الخلق، له متطلباته، له حاجاته كأي واحد منا، ثم تنتهي حياته نهايةً مأساوية، حسب اعتقادهم، يقتل ويصلب ولا يدفع عن نفسه ضراً، فأين ألوهيته؟ وأين بنوته للإله؟ وإذا لم يدفع عن نفسه الأذى فكيف يملك الخلاص لغيره؟! ولمن؟ للعالمين؟! نريد عقولاً غير العقول لتصدق ما تقولون!!! وكيف يتحول النطق إلى ذات؟! أرونا نموذجاً واقعياً يصدق ما تقولون، وكيف تكون هذه الثلاثة واحداً؟! إنها ثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس، لكل حقيقته، واستقلاليتته، وصفاته، وخصائصه، فكيف يكون مجموع الثلاثة واحداً، وإلهًا واحداً؟! من أين تأتي بعقل يصدق بهذا؟!

وليس في الإنجيل نص صريح على أن الآب والابن والروح القدس شيء واحد، على الرغم من أننا لا نعترف بأن هذه الأناجيل كتاب موحى به من عند الله، ويشاركنا في ذلك عقلاؤهم غير المتعصبين وكل عاقل منصف، فقد ثبت أن إنجيلهم ليس نصاً صحيحاً يعتمد عليه، ولا هو مضبوط النقل، ولا يوثق به في الدين.

والقرآن الكريم ينص صراحةً دون أدنى شك على نفي التثليث وكفر معتقده، والنهي عن القول به، يقول الله سبحانه وتعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد} (المائدة). وقال تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٩١)} (المؤمنون).

والآية التي احتجوا بها وهي قوله سبحانه وتعالى: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} حجة عليهم لا لهم؛ فهي تؤكد كغيرها من آيات كثيرة على أن عيسى ابن مريم وليس ابن الله، وهي تنص صراحةً على أنه رسول الله وليس إلهًا، ثم هي تنهى صراحةً عن التثليث ولو بالقول فضلاً عن الاعتقاد {ولا تقولوا ثلاثة} (النساء: ١٧١).

وهي تؤكد النهي عن ذلك القول مرة أخرى: {انتهوا خيراً لكم} (النساء: ١٧١)، وتأمراً بالاعتقاد الحق في الله ورسوله بمن في ذلك عيسى: {فآمنوا بالله ورسوله}، وهي تبرهن على خصائص الألوهية وتنزه أن يكون الإله مخلوقاً من

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧١)، وفي موضع آخر.

المخلوقات، وتطرح هذا الاستفهام التعجبي الاستنكاري، لعل الغافلين يفيقون: {سبحانه أن يكون له ولد} (النساء: ١٧١)، والآية تبرهن على أن من له ملك السماوات والأرض ليس بحاجة أن يتخذ واحدا من خلقه إلها معه أو ابنا له. والآية تحرر العقل والقلب من التوكل على أي عبد مخلوق من دون الله {وكفى بالله وكيلا (١٧١)} (النساء) وقبل ذلك كله تعد الآية هذا الاعتقاد الفاسد، وهو التثليث، غلوا في الدين، وخروجا عن النهج القويم، وتنهى عن هذا الغلو {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم}، كما تنهى عن التقول على الله بغير الحق، وهو هذا الاعتقاد الفاسد الذي يبرأ منه الله ورسوله عيسى وأن يلزموا الحق {ولا تقولوا على الله إلا الحق}.

ثم تأتي الآية التالية لهذه الآية لتعلن أن عيسى عبد الله، ولن يتكبر عن عبادة ربه لا هو ولا الملائكة المقربون: {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون} (النساء: ١٧٢). أبعد هذا كله يبقى وجه للاستدلال بهذه الآية الكريمة على هذه العقيدة الباطلة، عقيدة التثليث، وكل كلمة فيها تنطق ببطلانها وتبرهن على ذلك، وما يتلوها من آيات يؤكد بطلان هذا الزعم؟

فإذا كانت الجمل الآتية في الآية وهي: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} تدل على التثليث النصراني، فأين الآب في الآية المتمم للثالوث النصراني؟ أهو المسيح؟ هم لا يقولون بذلك، وأين الابن؟ لم تصرح الآية بل تقول الآية: {إنما المسيح عيسى ابن مريم} فتذكر المسيح على أنه ابن مريم، بشر من بشر، رسول الله، فهو رسول الله إذن وليس الله، وليس ابنا لله كما زعم هؤلاء.

ثالثا. محاولات التماس صور التثليث عند المسلمين وتهافتها:

التثليث عند من يعتقده هو اعتقاد بأن الإله مجموع ثلاثة كل منهم مستقل عن الآخرين وهذا بعيد كل البعد عن اعتقاد المسلمين جميعا، عوامهم وخواصهم، فالتثليث عندهم هو اعتقاد بأن الإله مجموع ثلاثة، وكل واحد من الثلاثة منفصل مستقل عن الآخرين، وهم يقولون: باسم الآب والابن والروح القدس، والعطف يقتضي المغايرة، الآب عندهم يختلف عن الابن، وقد انفصل الابن عن الآب وخاطبه ودعاه، مما يدل على أن الابن غير الآب، وكذلك القول الروح القدس.

واستدلواهم على صحة التثليث بالبسملة، فهذا مما لا صحة فيه، فالبسملة توحيد في مقابل تثليث؛ لأن الله تعالى في البسملة ذات موصوفة بصفات الكمال ونعوت الجلال، والرحمن الرحيم وصفان له باعتبار الخير والإحسان الصادرين عن قدرته، فإن صفات الله تعالى منها: "صفات ذات، وصفات فعل، وضابط صفات الذات هي التي لا تنفك عن الله، وضابط صفات الفعل هي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة.

ومثال صفات الذات: النفس والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه واليد والرجل والملك والعظمة والكبرياء والإصبع والعين والغنى والقدم والرحمة والحكمة والقوة والعزة والوحدانية والجلال، وهي التي لا تنفك عن الله.

ومثال صفات الفعل: الاستواء والنزول والضحك والمجيء والعجب والفرح والرضى والحب والكره والسخط والإتيان والمقت والأسف، وهذه يقال لها: قديمة النوع حادثة الأحاد، ويصلح أن تقول قبلها: إذا شاء" (١).

وأين هذه الافتتاحية الربانية الحققة في البسملة من هذا الهراء الذي لا يقبله دين قويم ولا عقل سليم، فكيف يلتقي تثليث وتوحيد في عبارة واحدة؟ كيف يكون الثلاثة واحدا؟ كيف يكون الآب والابن والروح القدس وكل منهم له استقلالته بحكم سرد الأحداث التي سطرها أناجيلكم المحرفة إلها واحدا كما يتردد في شعائركم؟!

^١ - الكواشف الحلية عن معاني الواسطية، السلطان، مكتبة الرياض الحديثة، ص ٤٢٩، ٤٣٠.

ما أبعد الفارق بين التسمية باسم الله الواحد الذي أخص صفاته الرحمة، وبين الافتتاحية بإعلان الوثنية المسروقة من جاهلييات موغلة في القدم، لا يقبلها عقل ولا دين!

وأما الاستدلال بما يقوله العامة نحو: والله العظيم ثلاثاً، أو أنت طالق ثلاثاً وما إلى ذلك، ففي الحق أن هذه حجة مضحكة، يسيء صاحبها إلى نفسه وعقله، ولا يضير المسلمين بذلك في شيء؛ فإن القسم بالله ثلاثاً إنما يعني به المقسم ثلاث مرات لا أنه يقسم بثلاثة آلهة، وهم يؤكدون بلفظ الثلاثة كما يستعلمون غيره من ألفاظ العدد كالستين والسبعين ونحوهما، وليس العدد ثلاثة "خصوصية في الإسلام، وإنما يشيع في مثل الإيمان والكفارات على سبيل التدرج والإمتهال، أو على سبيل التوكيد والتوثيق، وأما أن هذا أمانة على التثليث النصراني فقول طائش شاذ لا يعرفه المسلمون، ولا يحسونه في كلامهم، ولا يذهب إليه في تحقيقه باحث جاد وإن كان نصرانياً فيما نظن.

من هذا الزعم دعواهم أنه "من العسير أن تستخلص من القرآن نفسه مذهباً في العقيدة موحداً متجانساً خالياً من المتناقضات؛ فالتوحيد مذهب ينطوي على النقائص العسيرة الفهم، أما التثليث فمذهب واضح في فهم الألوهية^(١)، وهذه أحكام مبينة لا تستند إلى بحث علمي ولا إلى برهان، يكذبها واقع الإسلام وواقع النصرانية، ويشهد لذلك العقلاء من الباحثين المنصفين، فالإله في الإسلام واحد لا يعبد سواه؛ لأنه لا يستحق أحد أن يعبد إلا هو عز وجل، فهو وحده الخالق المدبر المهيمن، الذي يرجع الأمر كله إليه، وكل معبود من دونه لا يملك من أمر نفسه فضلاً عن غيره شيئاً؛ فكيف يعبد مع الله؟!

والإله الواحد لا يشبه خلقه؛ فللخلق صفات تخصهم، ولا توجد في الإله الحق، وإلا كان الإله الخالق مخلوقاً، ولإله الخالق صفات تخصه لا توجد في المخلوق وإلا لكان المخلوق إلهاً خالقاً، أين هذا الموضوع من عقيدة التثليث الغامضة المعقدة، التي تقف أمام العقل، ولا يستطيع العاقل أن يجمع بينها وبين عقله، فإما أن يتخلى عنها إذا احترق عقله، وإما أن يتخلى عن عقله إذا تمسك بها؟!

رابعاً. محاولات فاشلة لإقحام التثليث في القرآن الكريم:

من العجب أن يحاول فريق من هؤلاء المدعين أن يقحموا التثليث في القرآن الكريم، مع أنهم لا يعترفون بأن القرآن منزل من عند الله.

١. يحاول هذا الفريق أن يقابل بين معتقدهم في الأقانيم الثلاثة، وبين ما يتوهمونه من عبارة القرآن: الله، وكلمته، وروح منه، قائلاً: والكل في ذات واحدة، وهذه سفسطة واضحة، فالآية القرآنية تقول: {يا أهل الكتاب لا تغلوا} إلى قوله سبحانه وتعالى: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} ولم تقل: الله وكلمته، وروحه في ذات واحدة، كما يفترى هؤلاء على كتاب الله تعالى، وإنما وصف عيسى بن مريم في الآية بثلاث صفات: أنه رسول الله، وأنه كلمته وأنه روح منه، فهي أوصاف ثلاثة للمسيح، وليس الله والكلمة والروح القدس ذاتاً واحدة في زعمهم، وتأكيد الآيات على نسبة عيسى إلى مريم "عيسى بن مريم" رد على النصراني الذين ينسبونه إلى الله فيزعمون أنه ابن الله.

ووصفه بأنه رسول الله تأكيد على أنه عبد الله طائع له بالقيام ببلاغ رسالته، ووصفه بأنه كلمته إشارة إلى ميلاده غير المعتاد، فهو نفاذ لكلمة الله، وهي قوله تعالى: "كن" وهذا الفهم لكلمة "كن" أظهر وأشهر ما قيل في تفسيرها. واستدل بعض القسوس في إثبات التثليث في الإسلام بقوله سبحانه وتعالى: {بسم الله الرحمن الرحيم} فإن فيه ثلاثة أسماء فيدل على التثليث، ونحن نقول: لهم لقد قصرتم، عليكم أن تستدلوا بالقرآن على التسبيح، ووجود سبعة آلهة

^١ - الفكر الاستشراقي: تاريخه وتكوينه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، للنسوة، ط ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص ٧٩.

بمبدأ سورة "غافر" وهو هكذا: {حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣)} {غافر)، بل عليهم أن يقولوا إنه يثبت وجود سبعة عشر إلها من القرآن بثلاث آيات من آخر سورة الحشر التي ذكر فيها سبعة عشر اسما من الذات والصفات متوالية.

وأسماء الله الحسنى تسعة وتسعون فهل يعني ذلك تعدد الآلهة في الإسلام؟!، الإسلام حرص أكثر ما حرص على تعميق عقيدة المسلم في التوحيد الخالص، قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما (٤٨)} {النساء)، أما التثليث فقد رفضه الإسلام وندد به، كما نبذه القرآن الكريم على النحو السابق، وعلى هذا فدعواهم أن البسمة تدل على التثليث إنما هو إسقاط؛ فلم يخطر في بال المسلمين أنهم يعبدون ثالوثا، أحد "أقانيمه" محمد كما أن عند النصارى ثالوثا أحد أقانيمه "يسوع"، وقد قال الله تعالى مخاطبا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهم واحد}، وحين وفاة الرسول نزل نبأ وفاته على الصحابة كالصاعقة، ولم يكذبهم يصدق بهذا النبأ فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» هذه عقيدة المسلم لا ما يدعون!^(١)

ومعنى قوله سبحانه وتعالى: {وروح منه} أي بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة، وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم، كما يقال: بيت الله، وناقاة الله.

٢. محاولة جر القرآن للاعتراف بالتثليث، ولو بفرضها على القرآن الكريم فرضا، بل بفرضها على العقل ولغة القرآن العربية، ولو خالفت الواقع الذي نطق به القرآن الكريم!!

يقولون: وقد اتفق القرآن مع الكتاب المقدس في إسناد الفعل وضمير المتكلم في صيغة الجمع إلى الله، ولم يرد في الكتاب المقدس ولا في القرآن كلام مخلوق، كائنا من كان، تكلم عن نفسه بصيغة الجمع، مما يدل على وحدة الجوهر مع تعدد الأقانيم في الذات العليا، فمثلا ورد في قوله تعالى: {نزلنا على عبدنا} (البقرة: ٢٣) بصيغة الجمع، وفي قوله تعالى: {الله الذي نزل الكتاب} (الأعراف: ١٩٦) بصيغة المفرد، فتشير الصيغة الأولى إلى جمع الأقانيم، وتشير الصيغة الثانية إلى توحيد الذات، وهذه التفرقة بين ما جاء بصيغة الجمع وصيغة المفرد في الآيتين السابقتين هي افتراء على الله عز وجل، فليس في القرآن الكريم أن الله واحد في جوهره جمع من حيث الأقانيم، وكل أقنوم متميز عن الآخر، ولكن اختلاف التعبير حسب اختلاف المقام، فلكل مقام مقال، فإذا كان المقام يقتضي التعبير بالجمع عبر بالجمع، وإذا كان المقام يقتضي التعبير بالإفراد عبر بالإفراد.

فالتعبير بنون المضارعة في الفعل المضارع، مثل: {ونزل} و{إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤)} {الشعراء}... إلخ، وبـ "نا" التي في أصل استعمالها لجماعة المتكلمين قد يأتي للمفرد المظم نفسه كما يصدر القانون بجملة: نحن رئيس الجمهورية، والله أحق بالتعظيم وأولى.

وقد يتطلب المقام في التعبير بالإفراد لثبت أنه وحده الذي ينتسب إليه الفعل في مواجهة من يشركون مع الله غيره فيكون الأفراد في مثل هذا أدل على ذلك المعنى، وقد يكون التعبير بصيغة الجمع إشارة إلى أن الفعل المعبر عنه، وإن كان بأمر الله إلا أنه جرى وصدر بأسباب، وعلى أيدي جنوده من الملائكة الذين ينفذون أمره في خلقه.

بهذه الصيغة يعبر المولى عن نفسه وعن جنوده المنفذين لأمره، كقوله تعالى: {إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (١٢)} {يس)، وقوله تعالى: {وإنا له كاتبون (٩٤)} {الأنبياء)، وقال: {ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون (٨٥)} {الواقعة)، ومعلوم أن ملائكة الموت قريبون من الميت.

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، (١١٨٥) أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، شوقي أبو خليل، ليبيا، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٩م، ص ٢٥٠.

خامساً. التعلق بالصفات الإلهية في إثبات التعدد:

وقد سلك بعض هؤلاء مسلوكاً آخر لإثبات أن الإسلام أقر عقيدة التثليث ولو في صورة من صورها، وذلك بتفسير بعض الصفات الإلهية الثابتة لله أزلاً على نحو يحتم افتقارها إلى أطراف أخرى متعددة، وأن الوحدة التامة للذات الإلهية لا تستقيم مع هذه الصفات.

وهنا يلجأون إلى تفسير القرآن تفسيراً وثنياً، وباللهعجب! فقد أصبح منكرو القرآن مفسرين له، وأصبح من لا يعرف أساليب العرب في لغتهم حجة فيها، وهو يفتقد أبجديتها!! وقد زعم هؤلاء أن: من أسماء الله الحسنى أنه الودود، فالود صفة من صفاته، ومعرفتنا أن هذه الصفة أزلية تستدل أن هناك تعدد أقانيم في الوحدة الإلهية، لتبادل الود بينها قبل أن يخلق شيء، وإلا ففي الأزل اللانهايي كانت صفة الود عاطلة عن العمل، وابتدأت تعمل فبدأ الله "يود" بعد أن خلق الملائكة، والناس، وحاشا لله أن يكون قابلاً للتغيير.

والحق أن الودود من أسماء الله الحسنى يدل على صفته، وهي الود، ومعنى الودود هو الذي يحب الخير لجميع الخلق، فيحسن إليهم ويثني عليهم (بمعنى: يذكرهم لما يقرهم منه، ويجيبهم فيه) وهو قريب من معنى الرحيم، لكن الرحمة إضافة إلى مرحوم، والمرحوم هو المحتاج والمضطّر، وأفعال الرحيم تستدعي مرحوماً ضعيفاً، وأفعال الودود لا تستدعي ذلك، بل الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود^(١).

وصفة الود في الله لا تتطلب الود المتبادل بينه وبين غيره، حتى يلزم القول بأقانيم يتبادل الود بينها في الأزل، كما توهموا، ولكن الود إرادة الإحسان والإنعام إلى الخلق، فهو يريد الإحسان إلى خلقه أزلاً إرادة قديمة قدم وجوده ولكن تنفذ إرادته بتحقيق الإحسان، والإنعام إلى الخلق حين يوجد الخلق فيما بعد، وهذا معنى قول علماء التوحيد في هذه الصفة وغيرها من الصفات، إن الصفة قديمة ومتعلقها حادث، ولو كان ما يقولون حقاً من أن قدم وأزلية الصفة الإلهية مما تستدعي أزلية الخلق كما زعموا من أن أزلية ود الله التي تستدعي أزلية المودود لكان جميع الخلق يتصفون بالأزلية! وإذا كان هؤلاء يعترفون بـود الله لهم، فهم أزيون إذن! والصواب أن صفة الله "الودود" أزلية ولكن نفاذ الود وثماره بالإحسان والإنعام متأخر بحدوث الخلق، وإذا ضربنا أمثلة توضيحية زال هذا اللبس عند طلاب الحقيقة، فمثلاً: إذا تعلم الإنسان مهنة الطب أو الهندسة أو التجارة أو أية مهنة من المهن فإنه يصير بهذا التعلم متصفاً بهذه الصفة، فيكون طبيباً أو مهندساً أو تاجراً، أو غير ذلك سواء مارس هذا الأعمال فعلاً، أو لم يمارسها.

فالله يتصف بصفة الود أزلاً؛ لأنه يعلم أنها فيما بعد تتحقق آثارها عند خلق الخلق، فالله لم يتغير، فالصفة أزلية ومستمرة فيه ولكن أثرها ظهر عندما ظهر المخلوق المنعم عليه، فالتغير في المخلوق لا في الخالق.

فلا وجه لزعم أن وجود ثلاثة أقانيم في إله واحد يحل مشكلة تتعلق بالإيمان بصفات الله الأزلية التي لها أثرها كالسمع والكلام، فهذه الصفات إلهية وإن كانت لها متعلقات حادثية، فآثارها ونتائجها تحدث فيما بعد عند حدوث الخلق، ولا تناقض في ذلك ولا لبس، وعلى هذا فلا حاجة إلى الاعتقاد بأقانيم متميزة يتشخص كل أقنوم منها ليكون ذاتاً مستقلة عن الآخر، فالآب عندهم شيء يغير الابن، والروح القدس يغيرهما معاً، ومع ذلك فالثلاثة إله واحد، فالإله مجموع الثلاثة، فهل بعد ذلك غموض وتعقيد وتناقض؟! فالإله واحد وله صفات الكمال ما لا يخفى مما نعلمه وما لا نعلمه كما أخبرت بذلك الشرائع السماوية فلا لبس ولا إشكال، على أن المسيحية الحقبة التي جاء بها المسيح ما دعت إلى التثليث، ولكن اخترعتها المجامع النصرانية البشرية.

سادساً. فشل عقيدة الأقانيم في هداية الضمير المسيحي:

^١ - المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى، الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، ص ١١٤، ١١٥.

إن كثيرا من مروجي النصرانية يعمدون إلى المقارنة بين صلة الإنسان بالله في النصرانية والإسلام، ويصورون إله النصرانية رحيمًا ودودًا يتنزل من عليائه في صورة الإنسان الفادي الذي يتحمل عن البشر خطاياهم التي ورثوها عن أبيهم الأول القديم، وأن هذا التجسد للإله مما يقارب بين الإنسان وخالقه، ويصل بينهما بروابط الود والمحبة، هذا على عكس إله المسلمين العلي المتكبر الذي لا يقنع من عباده إلا بالركوع والخضوع.

وهذا الذي يزعمونه زيف كله، فإن المحبة المدعاة لا يتوصل إليها بالخلط بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وهما حقيقتان مستقلتان لا سبيل إلى المزج بينهما إلا بالردة إلى تصورات الوثنيين الذين أحسوا روحا إلهية تسري في كل شيء حتى دعاهم ذلك إلى تقديس مظاهر الطبيعة وصنوف الحيوان والحجارة.

إن الإله عند المسلمين غفور ودود، يدعو عباده إلى طاعته بالحب كما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم} (آل عمران)، والله غفور رحيم (٣١) { (آل عمران)، هكذا يدعوكم في غير تعقيد أو دخول في متاهات الأقانيم والتجسد من أجل التقريب بينه وبين عباده.

وليسأل العاقل نفسه عندما تملأ عليه هذه العقيدة الوثنية، ما الذي يعود علي وعلى علاقتي بربي إذا اعتقدت أن الإله عبارة عن مجموعة أو شركة مكونة من ثلاثة، كل واحد من الثلاثة متميز عن الآخر؟ هل استقامت علاقتي بالله بهذه العقيدة؟ أو أن الفجوة بسببها تزداد اتساعا؟ ألا يتكل الإنسان أن ابن الله سيخلصه من الخطايا الموروثة فيغيره ذلك بالخطأ والبعد عن الله بمعصيته؛ فتزداد العلاقة بينه وبين ربه سوءا والفجوة المدعاة اتساعا؟

عقيدة التثليث عقيدة وثنية غامضة معقدة، وهي دخيلة على دين الله، فالله سبحانه منزّه عن أن يشبهه شيء أو يشبهه هو سبحانه شيئا آخر. يقول سيد سابق: عقيدة التثليث أساسها الثالوث الأقدس، أي المركب من ثلاثة أقانيم أو أصول هي: الآب والابن وروح القدس، وهي جواهر ثلاثة، وكل جوهر منها مستقل عن الآخر، والثلاثة مع ذلك إله واحد، والتثليث ليس خاصا بالنصارى، فقد جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية قولها في تحديد الدين لفظة ثالوث: "إنه اتحاد ثلاثة أشخاص متميزة مكونة لإله واحد في عقيدة الديانة النصرانية وبعض الديانات الأخرى، فيقال، مثلا، الثالوث النصراني والثالوث الهندي".

وقال الأستاذ محمد فريد وجدي: "نعم كان الثالوث موجودا في ديانة قدماء المصريين بالنسبة لألهتهم الوطنية، وقد اندثرت تلك الديانة الآن، والثالوث الهندي موجود لآن لدى الملايين من الناس في الهند والصين، وهو أن البراهمة يعتقدون أن الخالق تجسد أولا في "برهما" ثم في "فيشنو" ثم في "سيفا"، ويصورونهم ملتصقين إشارة إلى هذا التجسد الثلاثي، ويعتقد البوذيون أن الإله فيشنو الذي هو أحد أركان الثالوث الهندي تجسد مرارا عديدة لتخليص العالم من الشرور والذنوب، وكان تجسده في بوذا للمرة التاسعة^(١).

إن عقيدة التثليث غامضة معقدة، تقف أمام العقل دون أن يستطيع العاقل أن يجمع بينها وبين عقله، فإما أن يتخلى عنها إذا احترق عقله، وإما أن يتخلى عن عقله إذا تمسك بها؟! وهذا اعتراف جوستاف لوبون أحد قادة الفكر في أوروبا يتحدث عن بساطة التوحيد، وغموض العقائد في الديانات الأخرى قائلا: "إذا رجعنا إلى القرآن الكريم في عقائده الرئيسية أمكننا عد الإسلام صورة مبسطة عن النصرانية، ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيم على كل شيء، ولا تحف به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسهم.

^١ - انظر: العقائد الإسلامية، السيد سابق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٦م.

وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم، وتشق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد الخفض، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، فالإسلام إدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم غالباً من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها. وإنك ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة إلا رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة، وما شابه ذلك من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل^(١).

إقبال الغربيين على اعتناق التوحيد والإسلام:

فمن خلال البحوث والدراسات تطلع أتباع المسيحية في هذا العصر إلى الإسلام، فوجدوه ديناً يتلاءم مع الفطرة، يتوافق مع العلم، يتآخى مع العقل، دين لا يجسد الإله، ولا يرفع البشر إلى درجة الألوهية، دين يكره التعدد وينبذ الثالوث، ويدعو إلى الاعتقاد بإله واحد في أفعاله لا شريك له، كل شيء قائم بأمره، وكل شيء خاضع له، من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه، وهو فوق كل شيء، وليس دونه شيء، هو مالك كل شيء، والشواهد على ذلك كثيرة:

ففي جريدة الرأي العام، جاء خبر أن ثلاثين شخصاً يعلنون الإسلام في دولة الإمارات العربية خلال شهر يناير ١٩٨٨م، وفي المملكة العربية السعودية واحد وخمسون شخصاً من مختلف الجنسيات العالمية يعلنون إسلامهم، ويشهر أحد عشر ألفاً من المسيحيين إسلامهم في سنتي ١٩٨٧م و١٩٨٨م في كوريا الشمالية، وفي فرنسا وصل عدد المسلمين إلى ٥.١ مليون مسلم، وفي أمريكا وصل تعدادهم إلى ٥.٧ مليون مسلم في عام ١٩٨٨م، وفي لندن، معقل المسيحية، اعتنق الإسلام حوالي ٧٦ ألف موحد في ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢).

والمسيو "أتين دينيه" الفرنسي يقول عن الإسلام: "إن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشرياً، أو ما إلى ذلك من الأشكال، أما في المسيحية فإن لفظ "الله" تحيطه تلك الصورة الأدمية لرجل شيخ طاعن في السن، وقد بانث عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة، والانحلال، فمن تجاعيد في الوجه غائرة إلى الحية بيضاء، مرسله مهملة، تثير في النفس ذكرى الموت والفناء.

الكاتبة الأمريكية مريم جميلة ترى أن التجسد موروث عن الأديان البدائية الوثنية، أما الادعاء بأنه أوحى به من قبل السماء، فلا نصيب له من الصحة، وقد وجدت من الأساقفة من يقول: إن المسيحية يجب أن تخضع لناموس التطور والتغيير، وتقول الكاتبة أيضاً: قرأت عن حفلات راقصة داخل الكنيسة بواشنطن، وعن كاهن في مدينة نيويورك يعين مستشاراً لبعض الفرق الموسيقية، ويطوف معها في الملاهي الليلية، وعن مجموعة من القسس الشبان تقيم خدمة استشارية للشواذ جنسياً في سان فرانسيسكو، وعن هذه العقيدة تقول: "إن العقيدة الصافية النفيسة في الإسلام ترفض كل أشكال القومية والعنصرية والتثليث، وعبادة القديسين وتقديس الصور، والكهنوت وتجعل المؤمن يتعاطف مع كل المخلوقات التي أوجدها الإله، ويقيه الخوف من غير الله، ويدفعه إلى التقوى وعدم اليأس، إذن ففي ظل الإيمان بعقيدة التوحيد، الانتحار والتشاؤم والقنوت أمور لا محل لها في نفس المؤمن^(٣)".

^١ - حضارة العرب، جوستاف لوبون، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص١٢٥ بتصرف يسير.

^٢ - جريدة الرأي العام، القاهرة.

^٣ - المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٣٠: ٣٣٢.

^٤ - راجع: موسوعة بيان الإسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط١/ ٢٠١٢.

٥- هل امتدح القرآن النصارى؟

قالوا: امتدح القرآن النصارى، وذكر بأنهم في الجنة في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: ٦٢).

والجواب: كما كان القرآن واضحاً في بيان وحدانية الله وعبودية المسيح وبشريته؛ كان صريحاً في إضلال القائلين بالوهيته وربوبيته وتكفيرهم، وهذا منشور في مواضع كثيرة من القرآن، منها قول الله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} (المائدة: ١٧)، وقوله: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (المائدة: ٧٣)، فهاتان الآيتان وغيرهما واضحتان في بيان كفر القائلين بعقيدة التثليث والوهية المسيح.

ولكن هذا الحكم القرآني لا يسري على المسيح الذي تبرأ من هذه المعتقدات {وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} (المائدة: ٧٢)، كما لا يسري الحكم بالكفر والنار على أتباعه المخلصين المؤمنين الذين آمنوا بالله وحده، وشهدوا للمسيح بالرسالة فحسب، واتبعوه ونصروه {قَالَ الْخَوَارِثِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (آل عمران: ٥٢-٥٣)، وفي موضع آخر يقول الله تعالى: {وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِثِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (المائدة: ١١١)، فهؤلاء من خيرة الله في خلقه، وهم مؤمنون بالمسيح الرسول، وبريئون من معتقدات النصارى التي استقاها المسيحيون من أقوال بولس والجماع الكنسية من بعده.

إن هذه الثلاثة المؤمنة ممدوحة في القرآن ولا ريب، وقد وصفهم الله بقوله: {أَنْصَارُ اللَّهِ} (الصف: ١٤)، ومدحه الله لهم في القرآن تسري على كل مؤمن مشى على نهجهم إلى يوم الدين (يمتلى تاريخ المسيحية بما تسميه الكنيسة اليوم بفرق الهرطقة، كالأريوسية والأبيونية، وهي فرق تنكر ألوهية المسيح وتندد بالتثليث، وكانت تمثل السواد الأعظم من النصارى حتى القرن الرابع الميلادي). ولما بعث النبي ﷺ كان لمنهجهم بقايا على الأرض تمثل في أشخاص أحبهم الله؛ لاستقامتهم على التوحيد، وإعراضهم عن مذاهب التثليث والشرك التي كرهها الله، يقول ﷺ: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عريهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١).

فهؤلاء ومن سلفهم من المؤمنين هم الذين أثنى الله عليهم بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: ٦٢)، وقد ذكر في سبب نزولها أن سلمان حذث النبي ﷺ عن أصحابه النصارى الذين كانوا على الإيمان الخالص بالله عز وجل قبل مبعث النبي ﷺ، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: «يا سلمان، هم من أهل النار». فأنزل الله هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} (٣).

وهذا المعنى بين واضح لمن قرأ الآية في سياقها فتدبر الآيات التي قبلها والتي بعدها، حيث تكفر الآيات قبلها اليهود والنصارى، وتنسب إليهم الإساءة إلى الله، وتتوعدهم بالنكال والعذاب: {وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْغَدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ

^١ - أخرجه مسلم ح (٢٨٦٥).

^٢ - أخرجه الطبري في تفسيره بإسناد منقطع (١٥٤/٢).

لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا { (المائدة: ٦١ - ٦٤)

ويستمر السياق القرآني بعدها في تكفيرهم مع استثناء المؤمنين منهم من كان على منهج الأنبياء {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ { (المائدة: ٦٨ - ٦٩).

فمن المحتم أن الذين سماهم الله في آخر الآية: {الْكَافِرِينَ} ليسوا الذين تحدث عنهم صدر الآية التالية {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى}، فهؤلاء غير الأولين، هؤلاء من المؤمنين بدليل ما ذكر في الآية في وصفهم: {مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا}، والمرء لا يكون مؤمناً بالله بمجرد الإيمان بوجوده، فقد آمن بذلك كفار قريش، ولم يستحقوا هذا الاسم الشريف الذي يختص به من آمن بالله تبارك وتعالى وحده رباً وإلهاً، فلم يعبد معه أحداً غيره.

ثم يمضي السياق القرآني ليقول: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ { (المائدة: ٧٢ - ٧٥)، ويستمر السياق القرآني إلى آخر آيات السورة وهو يتحدث عن كفر النصارى، فلم أعرض القائلون بمدحة الله للنصارى عن هذا كله، وبتروا الآية من سياقها؟! ^(١).

٦- أتباع المسيح موعودون بالظفر على الكافرين ؟

قالوا: وصف القرآن النصارى بأنهم أتباع المسيح الموعودون بالظفر على الكافرين إلى يوم القيامة، فقد أقر الدوام والخلود للدين المسيحي وأتباعه إلى يوم القيامة، فقال: {وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} (آل عمران: ٥٥). كما شهد لأخبارهم ورهبانهم بالورع والتقوى والتواضع، فقال: {ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون} (المائدة: ٨٢)، وهذا كله يدل على صحة طريقتهم ودينهم؛ خلافاً لما يقوله المسلمون من تكفيرهم، وأنهم من أهل النار.

والجواب: قد سبق لنا بيان الموقف القرآني من النصارى القائلين بألوهية المسيح والتثليث!! نعم شهد القرآن لهؤلاء القسيسين والرهبان، ولكنه شهد للرهبان والقسيسين الذين لا يستكبرون، والذين إذا سمعوا آيات القرآن، وأحاديث النبي فاضت أعينهم من الدمع لما عرفوا من الحق، ونادوا بصوت عال: {ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين (٨٣) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٤)} (المائدة).

فإن أرادوا أن يستدلوا بالقرآن على صدقهم وأمانتهم وعدلهم وتقواهم، فلا ينبغي لهم أن يقطعوا النصوص عن سياقاتها، ويفهموا الألفاظ على ما يتناسب مع أهوائهم، فليس ذلك من الأمانة العلمية في شيء، وأما القسيسون

^١ - تنبيه القرآن عن دعاوى المبطلين ص ١٧٧ - ١٨٠ مرجع سابق .

والرهبان الذين أخفوا الحق في كتبهم وأظهروا الباطل، غيروا الحق باطلا، وبدلوا الدين بالأساطير والخرافات، مسحوا عقول أتباعهم، وألغوها، حتى قالوا لهم: "اعتقد وأنت أعمى" فلا خير فيهم، ولا في اتباعهم، وقد هاجمهم القرآن أشد الهجوم، وأظهر عيوبهم وضلالاتهم وافترائاتهم، ولم يمدح منهم أحدا.

فآيات سورة المائدة: {ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون} آيات مادحة لا شك، ولكنها مادحة للذين اعترفوا بالحق، وسلموا أمرهم للصواب، وأما هؤلاء الضالون والمضللون فقد شنع عليهم، فقال: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} (المائدة: ٧٣)، وقال: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} (المائدة: ١٧).

ومن الذين اتبعوا عيسى عليه السلام حقا؟ هل هم أولئك الذين قالوا: {الله هو المسيح ابن مريم}؟ أم هم الذين قالوا: {إن الله ثالث ثلاثة} أم هم الذين قالوا: {ولد الله} (الصفاء: ١٥٢)؟ أم هم الذين اعتقدوا صلب المسيح، واتخذوا تلك العقيدة رمزا، يدقونه على أيديهم، ويعلقونه على صدورهم؟ أم هم الذين حرفوا وبدلوا الدين المسيحي الحنيف بالأساطير والخرافات؟!

أي هؤلاء أتباع المسيح عليه السلام؟ وأيهم يستحق اتباع الدين المسيحي؟ لا يصلح أن يكون حاملا لكتاب قانون يخص دولة من الدول، فكيف يصلحون لحمل رسالة من الله عز وجل؟ كيف يصلحون لتبليغ دعوة أو منهج رباني؟ إن هؤلاء انقسموا إلى طوائف مختلفة، كل طائفة تسفه أحلام الأخرى؟ وتكذب أقوالها ومعتقداتها، فهل يعقل أن تكون طائفة من هذه الطوائف على الحق الذي يدعون؟ إن تضارب الأناجيل للدليل على تحريفها وزيفها، فأولى لهم أن يسلموا للحق زمامهم وأن يذعنون لما كان في كتبهم قبل تحريفها من البشارة بالنبي الخاتم.

فأتباع المسيح حقا، هم الذين اتبعوا محمدا عليه السلام لما جاءهم البينات، الذين لا يستكبرون وإذا سمعوا آيات الله تتلى فاضت أعينهم من الدمع قائلين: {ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين} الذين سمعوا كلام المسيح؛ فحفظوه في صدورهم، حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم بشارة عيسى والمكتوب عندهم في الإنجيل، باعتراف النصارى أنفسهم فاتبعوا النور الذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم.

والآية التي استدلوها بها على أفضليتهم: {وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة}، لم تشهد لهم بذلك، وإنما شهدت لمن استمسك بالدين السماوي الذي أنزل على عيسى عليه السلام، وأما غيرهم ممن بدلوا وغيروا فقد أعلن القرآن كفرهم، وبرأ عيسى من رجسهم، هذا هو رأي القرآن أو حكمه في هؤلاء النصارى.

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور في سياق تفسيره لآية سورة المائدة: "المراد بـ (الذين اتبعوه) الحواريون، ومن اتبعه بعد ذلك، إلى أن نسخت شريعته بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم". هذا وقد ذكر الشيخ رأيا آخر في تفسير من وجه إليه الخطاب في هذا الصدد، يقول: "ويجوز أن يكون خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين"^(١).

أتباع المسيح عيسى هم الذين أقاموا الإنجيل السماوي وآمنوا به، بحقه ولما جاءهم محمد ﷺ اتبعوه. فهؤلاء هم المقصودون بقوله تعالى: {وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة}، فالذين اتبعوا عيسى هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح... الإسلام... الذي عرف حقيقته كل نبي وجاء به كل رسول، وآمن به كل من آمن بدين الله حقا؛ وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله... كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما وجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان وحقيقة الاتباع، ودين الله واحد، وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء من قبله ومن بعده كل رسول، والذين يتبعون محمدا هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم، من لدن آدم إلى آخر الزمان.

^١ - التحرير والتنوير لابن عاشور دار سحنون تونس، مجلد ٣ ص: ٢٦٠

فالآية فهي تمتدح أتباع المسيح عليه السلام، وهم المسلمون الذين يصدقون أقواله والمسلمون هم الذين يقولون: ادعاء الألوهية للمسيح ليس بحق، في حين يزعم النصارى أنه إله معبود بحق. ووفق هذا فإن المسلمين هم أتباع المسيح، وقد قال ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»،^(١) والإخوة لعلات هم الإخوة من أب واحد، وأمهم مختلفات).

إن الدلالة على اتباع المسلمين للمسيح ومفارقة النصارى له ليست من القرآن فحسب، بل هي في كتابهم أيضاً؛ فإن قارئ العهد الجديد (الإنجيل) لن يجد فيه حرفاً واحداً يتحدث فيه المسيح عن ألوهية نفسه، بل على العكس من ذلك تجده يصرح بما ينقضها، فيقول عن نفسه: "وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله" (يوحنا ٨/٤٠)، كما يجده عليه السلام يخبر عن كونه رسولاً لله فحسب، مما يقتضي التنديد بأهل التثليث؛ والحكم بحرمانهم من الحياة الأبدية، فيقول مخاطباً الله: "هذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يوحنا ١٧/٢ - ٣)، وهذا معنى صريح في أن الجنة مدخرة فقط لمن يقول: (لا إله إلا الله، المسيح رسول الله)، وهذا بالحقيقة قول المسلمين؛ لا النصارى، فتبين أننا أتباعه عليه الصلاة والسلام الموعودون بالعلو على الكافرين إلى يوم القيامة، وقد علوناهم بالحجة والدليل والبرهان بالأمس واليوم وغداً بإذن الله ومُنَّته. ولئن غابت شمس المسلمين اليوم عن قيادة الحضارة الإنسانية المادية (لا الروحية) فقد كان لهم شرف ريادتها، وإنها سحبت توشك أن تنبلج، لتشرق شمسنا من جديد، هذه الصحوّة الإسلامية التي تهدر في عالم اليوم طلائع هذا الفجر الآتي.

٧- سؤال أهل الكتاب فيما يشكل على النبي !!

قالوا: طلب القرآن من النبي أن يسأل النصارى فيما يشكل عليه، وفيما يقع له من الريبة في دينه بقوله: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشَكِّينَ} (يونس: ٩٤)، وكما طلب هذا من النبي؛ فإنه طلبه من المسلمين حين أمرهم بسؤال أهل الذكر، أي الكتب السابقة في قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النحل: ٤٣).

والجواب: أن الآية الكريمة {فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشَكِّينَ} (يونس: ٩٤)، لا تتحدث عن مشركي النصارى المنكرين لنبوته، ولا تجعلهم مرجعاً للنبي ﷺ، بل تتحدث عن الذين يشهدون له بأنه أتاه الحق من ربه.

كما يلزم التنويه أيضاً إلى أن النبي ﷺ لم يشك في شيء من نبوته، ولم يسأل أهل الكتاب ولا غيرهم، بل نقل عن بعض التابعين أن النبي ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»^(٢) فلفظة (إن) لا تفيد أي تحقق لوقوع الشك من النبي ﷺ، إذ قد يعلق المحال بـ (إن)، كما في قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} (الزخرف: ٨١)، وقوله: {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ} (الأنعام: ٣٥). وقد فسر العلماء مقصود الآية بقولين يكمل أحدهما الآخر:

^١ - (أخرجه البخاري ح (٣٤٤٣))

^٢ - عبد الرزاق في المصنف ح (١٠٢١٠) الناشر: المجلس العلمي الهند، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، يطلب من: المكتب الإسلامي بيروت الطبعة: ط ٢ ١٤٠٣

الأول: أن المقصود بالسؤال هم المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما: (الذين أدركوا محمداً ﷺ من أهل الكتاب فآمنوا به .. فأسألهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم) ^(١).
 الثاني: أن المقصود في الآية ليس أمر النبي ﷺ بالسؤال، بل الخطاب في ظاهره ﷺ، والمراد به غيره من المشركين، على عادة العرب في الخطاب "إياك أعني واسمعي يا جارة" ^(٢).

ومثله في القرآن كثير، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } (الأحزاب: ١)، وقال: { وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (الزمر: ٦٥)، وقال: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ } (الطلاق: ١).

وهذا الوجه صححه الطبري، واستدل له الرازي بقول الله تعالى في آخر السورة: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } (يونس: ١٠٤)، وقال: "فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح .. فثبت أن الحق هو أن الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ؛ إلا أن المراد الأمة، ومثل هذا معتاد، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص، فإنه لا يوجه خطابه عليهم، بل يوجه ذلك الخطاب إلى ذلك الأمير الذي جعله أميراً عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم" ^(٣).

بقي أن نشير إلى أن الأمر بالسؤال ليس على ظاهره، فإن العرب تستخدم طلب السؤال؛ بمعنى تأكيد الأمر، ولا تريد طلب السؤال حقيقة، ومنه قول الشاعر:

سلوا الليل عني مذ تناءت دياركم ... هل اكتحلت بالغمض لي فيه أجفان

وقول الآخر: سلوا نسيمات الريح كم قد تحملت ... محبة صب شوقه ليس يكتم

فهذان وأضرابهما لا يراد منه في لغة العرب حقيقة السؤال؛ إذ كيف يُسأل الليل أو نسيمات الريح، إنما يراد تأكيد تلك المعاني التي طلب السؤال عنها.

ومثله في القرآن قوله تعالى: { سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ } (القلم: ٤٠)، وقوله: { وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا } (الزحرف: ٤٥)، وقوله: { وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ } (الأعراف: ١٦٣)، ففي كل هذا لم يطلب الله من النبي ﷺ حقيقة السؤال، إنما قصد الإخبار وتأكيد صدق هذه المعاني والأخبار التي ذكرها الله تبارك وتعالى في القرآن.

وأما قوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (النحل: ٤٣)، فهو خطاب من الله للمشركين المنكرين للنسبة؛ المستغربين نزول الوحي على رجل، فقد نبههم الله إلى أن نزول الوحي على بشر أمر معهود تعرفه البشرية، ودعاهم إلى سؤال أهل الكتاب للتأكد من حقيقته والوقوف على جلالته، يقول ابن القيم: "فبقاؤهم [أي أهل الكتاب] من أقوى الحجج على منكر النبوات والمعاد والتوحيد، وقد قال تعالى لمنكري ذلك { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }، يعني سلوا أهل الكتاب: هل أرسلنا قبل محمد رجلاً يوحي إليهم أم كان محمد بدعاً من الرسل لم يتقدمه رسول حتى يكون إرساله أمراً منكراً؟" ^(٤).

^١ - جامع البيان، الطبري (٢٠٠ / ١٥) مرجع سابق.

^٢ - انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (١٦٧) مرجع سابق طبعة دار الكتب العلمية بيروت

^٣ - التفسير الكبير، الرازي (٣٠٠ / ١٧)، مرجع سابق

^٤ - أحكام أهل الذمة، ابن القيم (٩٧ / ١) المحقق: يوسف بن أحمد البكري الناشر: رمادي للنشر - الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ - ١٩٩٧.

وهكذا فالآية تجعل من شهادة أهل الكتاب دليلاً ناهضاً للاحتجاج على مشركي مكة في مسألة نبوة النبي ﷺ، وهو معنى تكرر في مواضع أخرى من القرآن، كقوله: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} (الرعد: ٤٣)^(١).

٨- إن القرآن يقر الإنجيل بصورته الحالية ويوجب على أهل الأديان جميعاً الإيمان به وفيه حكم الله.

إن القرآن يُعلي من شأن التوراة والإنجيل، ويصفهما بالهدى والنور {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} (المائدة: ٤٤)، و{وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ} (المائدة: ٤٦)، وقالوا: ذكر القرآن أن التوراة والإنجيل الموجودين عند أهل الكتاب زمن النبي غير محرفين؛ بدليل أنه دعا إلى تحكيمهما {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّحْمَةٍ لَّا كَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ} (المائدة: ٦٦)، وقال لهم: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتَفَيِّمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّحْمَةٍ} (المائدة: ٦٨)، وقالوا: شهد القرآن والسنة أن كتبنا فيها حكم الله {وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ} (المائدة: ٤٣)، ولما أخذها النبي بيده نزع الوسادة من تحته، فوضع التوراة عليها، ثم قال: «أمنت بك ومن أنزلك».

والجواب: ١- القرآن إنما يقر الإنجيل الذي أنزل على عيسى قبل أن يدخله التحريف.

٢- الإنجيل بمضمونه الحالي ليس كتاباً سماوياً، ولو كان الإنجيل كما أنزل من عند الله لما كانت به تلك التناقضات التي لا يقبلها عقل.

٣- الإنجيل الصحيح عد القرآن كتاباً سماوياً خاتماً ناسخاً لما قبله متعبداً به دون غيره، بعد نزوله وقد بشر هذا الإنجيل بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً خاتماً إلى الناس كافة.

أولاً. كلمة حق أريد بها باطل، الإنجيل كتاب سماوي لكن أي إنجيل يقر القرآن؟ امتدح الله في القرآن ما أنزله على أنبيائه ورسله، وذكر أنه هدى ونور، فكل كتب الله تعالى كذلك، ولو أقام البشر في حياتهم ما أنزل الله إليهم؛ لسعدوا ونجوا، لكن هذه الكتب المنزلة ضاعت وحرفت وبدلت، فما التوراة ولا الإنجيل اللذين بين أيدي اليهود والنصارى بتوراة الله ولا إنجيله؛ وإن كان فيهما بقية أثارة حق مما نزل على الأنبياء، يقول ﷺ: «إن بني إسرائيل لما طال الأمد وقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوتهم قلوبهم واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهوراتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون»^(٢) ويكفي في هذا الموضع أن نؤكد أن التوراة والإنجيل الموجودين اليوم ليسا الكتابين اللذين أنزلهما الله عز وجل وامتدحهما القرآن، وإثبات هذا ميسور، فقد نسب القرآن الكريم إلى توراة الله وإنجيله معاني نفتقدها في الكتب الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى، ففقدوها دليل على أن هذه الكتب قد غيرت وبدلت، وأنه ضاع منها ما أشار القرآن الكريم إلى وجوده فيها.

قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} (التوبة: ١١١)، فالآية صريحة في أن موعود الله بالجنة للمؤمنين المجاهدين في سبيله مسطور في التوراة والإنجيل اللذين أنزلهما الله تعالى، ولا وجود لهذه المعاني في العهد القديم ولا الجديد.

^(١) - تنزيه القرآن عن دعاوى المبطلين ص ١٨٢ - ١٨٥ مرجع سابق .

^(٢) - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٩٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٢٦٩٤).

ومثله قوله تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} (الأعلى: ١٦ - ١٩)، فهذا المعنى لا وجود له في الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام في العهد القديم، والتي تخلو من الحديث عن الآخرة والقيامة، فضلاً عن المقارنة بينها وبين الدنيا.

ومثله نفقد في الأسفار الحالية ما نسبته الله إلى توراته وإنجيله في سورة الأعراف من حديث عن النبي الأمي الذي يبعثه الله فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَجِئُوا لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} (الأعراف: ١٥٧).

وهكذا نخلص إلى القول؛ أن التوراة والإنجيل الممدوحين بالقرآن ليسا بالأسفار الموجودة اليوم؛ لفقد هذه المعاني منها، كما شهد القرآن على الأسفار الموجودة بين يدي اليهود والنصارى بأنها محرفة، وقعت فيها الزيادة، كما وقع فيها النقص، فقد قال تعالى عن تحريف النقص: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} (المائدة: ١٥)، فما جاء به محمد ﷺ فيه بيان لبعض ما أخفاه أهل الكتاب، وقد عفا عن الكثير مما أخفوه فلم يذكره، قال ابن كثير: "أي: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيره، ولا فائدة في بيانه"^١.

كما أخبر القرآن الكريم عن وقوع الزيادة في هذه الكتب: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} (البقرة: ٧٩)، وقال: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران: ٧٨). لكن وقوع الزيادة والنقص في الكتاب لا يعني بالضرورة أن التحريف قد طال كل سطر وكل كلمة في الكتاب، بل القرآن شهد لهذه الكتب أن فيها بقية من الحق الذي أنزله الله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (آل عمران: ٧١).

ومن بقايا الحق الذي شهد القرآن بوجوده حكم الرجم للزاني والزانية، فهو موجود في سفر التثنية في الإصحاح الثاني والعشرين، لذلك قال الله: {وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ} (المائدة: ٤٣)، فكون حكم الله بشأن الزانيين موجوداً فيها لا يعني أن كل ما فيها هو حكم الله تعالى، فإسم التوراة باق عليها رغم تحريفها، فهي التوراة المحرفة؛ لا المنزلة .

ليس بالضرورة أن تكون العنصرية دليلاً على أن المخاطبين بالسياق القرآني المعاصرون للنبي ﷺ، فإن القرآن حين يخاطب بني إسرائيل يخاطبهم كأمة واحدة، ويتجاوز في خطابه معهم حدود الزمان، فيقول لهم: {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} (البقرة: ٨٧)، مع أن قتل الأنبياء لم يقم به جيل واحد منهم، ومثله قوله: {وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَى كُنْ تَؤْمِنُ لَكَ} (البقرة: ٥٥)، والقائل حقيقة أجدادهم، ومثل هذا كثير في القرآن يطول المقام بتتبعه.

وأما قوله تعالى لليهود حين أنكروا أن الأطعمة كانت حلالاً عليهم قبل نزول التوراة: {فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (آل عمران: ٩٣)، فهو لا يفيد سلامة التوراة التي بين أيديهم من التحريف، فمطالبتها بالإتيان بها؛ إنما يريد به إقامة مزيد من الحجة عليهم من كتابهم (التوراة المحرفة)، قال ابن حزم: "إنما هو في كذب كذبوه، ونسبوه إلى

^١ - (ابن كثير ٦٧/٣) طبعة طيبة للنشر تحقيق: سلامة مرجع سابق .

التوراة على جاري عاداتهم؛ زائد على الكذب الذي وضعه أسلافهم في توراتهم، فبكتهم عليه السلام في ذلك الكذب الحدث بإحضار التوراة إن كانوا صادقين، فظهر كذبهم^(١).

وقد دعا الله عز وجل أهل الكتاب إلى إقامة هذا الحق المتبقي، لأنه كفيلاً بهديتهم إلى الإسلام، قال ابن كثير: "أي: إذا أقمتوها حق الإقامة، وآمنت بما حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادمكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} (الأعراف: ١٥٧)"^(٢) وقال القرطبي: " وإقامة التوراة والإنجيل؛ العمل بمقتضاها وعدم تحريفهما"^(٣).

وقال ابن حزم: "وأما قول الله عز وجل: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}؛ فحق لا مرية فيه، وهكذا نقول، ولا سبيل لهم إلى إقامتها أبداً، لرفع ما أسقطوا منها، فليسوا على شيء إلا بالإيمان بمحمد، فيكونون حينئذ مقيمين للتوراة والإنجيل، كلهم يؤمنون حينئذ بما أنزل الله منهما؛ ووجد أو عدم، ويكذبون بما بدل فيهما مما لم ينزله الله تعالى فيهما، وهذه هي إقامتهما حقاً"^(٤).

وهذا الأسلوب في طلب المحال على سبيل التبكيت أسلوب قرآني ونبوي، ومنه قول الله تعالى للمنافقين يوم القيامة: {قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} (الحديد: ١٣)، ومن المعلوم أنهم لا يقدرّون على الرجوع، ولو رجعوا لم يفتحهم رجوعهم.

ومثله في التبكيت قول النبي ﷺ: «من تحلم بحلم لم يره؛ كُلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ... ومن صوّر صورة؛ عُذّب وكُلف أن ينفخ فيها، وليس بنافع»^(٥).

ثانياً. هل لا يزال الإنجيل بمضمونه الحالي كتاباً سماوياً؟ لأجل أن يكون الكتاب حجة يجب الأخذ به على أنه شريعة الله ودينه، ومجموع أوامره ونواهيه، ومصدر الاعتقاد وأساس الملة يجب أن يتوافر في هذا الكتاب أمور: أحدها: أن يكون الرسول الذي نسب إليه قد علم صدقه بلا ريب ولا شك، وأن يكون قد دعم ذلك الصدق بمعجزة، أي بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين والمكذبين، وأن يشتهر أمر ذلك التحدي وهذا الإعجاز، ويتوارثه الناس خلفاً عن سلف، ويتواتر بينهم تواتراً لا يكون للإنسان مجال لتكذيبه.

ثانيها: ألا يكون ذلك الكتاب متناقضاً مضطرباً يهدم بعضه بعضاً، فلا تتعارض تعليماته، ولا تتناقض أخباره، بل يكون كل جزء منه متمماً للآخر ومكملاً له؛ لأن ما يكون عن الله لا يختلف ولا يفترق ولا يتناقض، بل إن العقلاء في أقوالهم وفي كتبهم، يتحرون ألا يتناقض قولهم ولا يختلف تفكيرهم.

ثالثها: أن يدعي ذلك الرسول أنه أوحى إليه به، ويدعم ذلك الادعاء بالبينات الثابتة، وهي المعجزات التي بعث بها الرسول ودعا إلى كتابه على أساسها، ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر أو يثبت بالكتاب نفسه.

رابعها: أن تكون نسبة الكتاب إلى الرسول الذي نسب إليه ثابتة بالطريق القطعي، بأن تثبت نسبة الكتاب إلى الرسول، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف جيلاً بعد جيل من غير أي مظنة للانتحال.

^١ - الفصل في الملل والنحل، ابن حزم (١/ ١٥٨) (المتوفى: ٤٥٦هـ). الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة، بدون تاريخ نشر .

^٢ - ابن كثير (١/ ٤٠٤). طبعة طيبة للنشر

^٣ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٤١). مرجع سابق، دار الكتب المصرية ط ٢ .

^٤ - الفصل في الملل والنحل، ابن حزم (١/ ١٥٨). مرجع سابق .

^٥ - أخرجه البخاري ح (٧٠٤٢)، ومسلم ح (٢١١٠).

وأساس ذلك التواتر أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، حتى تصل إلى الرسول، بحيث يسمع كل فرد من الجمع الراوي عن الجمع الذي سبقه، والذي سبقه كذلك، حتى يصل إلى الرسول الذي أسند إليه الكتاب ونسب إليه، ونزل به الوحي عليه^(١).

فهل تنطبق هذه الشروط على الإنجيل الموجود بأيدينا الآن، "إن الكتب في الدين هي أساسه، فإن لم تكن مستوفية الشروط السابقة لم يكن الاطمئنان إلى صحتها كاملاً وتطرق إليها الريب والظن من كل جانب، وبذلك يتهدم الدين من أساسه ويؤتى من قواعده ولا يكون شيئاً مذكوراً في الأديان، بل يكون طائفة من أساطير الأولين كتبها طائفة من الناس، وادعوا ديناً ونسبوا لشخص معترف به، لتروج عند العامة وتدخل في أوهامهم، ويعتمدون على الزمان في تمكينها في نفوسهم وقلوبهم.

وهل الكتب المقدسة عند النصارى سواء أكانت من كتب العهد القديم أو العهد الجديد مستوفية هذه الشروط، فتكون ملزمة للكافة؟ لا يزعم أن الذين كتبوها من بعد عيسى رسل مبعوثون بها يبشرون الناس بما فيها؛ فنبحث هل هؤلاء رسل حقاً وصدقاً، قد تثبت رسالتهم بدليل لا مجال للريب فيه؟! إن الطريق لذلك أن يدعوا هم هذه الرسالة ويشبّوها بمعجزة يجريها الله على أيديهم، ويتحدّوا الناس ليدفعوهم إلى الإذعان أو ليسجلوا عليهم الكفر بعد أن يقوم الدليل عليهم.

إننا نبحث في مراجعهم فلا نجد مرجعاً صحيحاً قرر أن هؤلاء ادعوا مثل هذه الرسالة، ودعوا الناس إلى الإيمان بما ومعهم البرهان عليها والدليل القائم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. نعم قد نجد في رسالة أعمال الرسل ذكراً لأخبار تلاميذ المسيح وأن روح القدس تجلّى عليهم، وأنهم كانوا يأتون بأمور خارقة للعادة، وسمّاهم كاتب تلك الرسالة رسلاً، ففيها يذكر أن عدد الأصحاب بعد المسيح أحد عشر وهم: بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس وفيلب وتوما وبرثلماوس ومتى ويعقوب بن حلفى، وسمعان الغيور، ويهوذا أخو يعقوب، وأن بطرس وقف وألقى في وسط التلاميذ الذين بلغوا نحو عشرين ومائة خطبة، وأنهم امتلأوا جميعاً بروح القدس، وتكلموا باللسنة غير ألسنتهم. ثم يذكر أن بطرس شفي أعرج من عرجه، ومات من كذب عليه، بعد أن كشف كذبه واختلاسه هو وامراته.

ذكر سفر الأعمال هذا وذكر عجائب أتى بها بولس في زعمه في آخر ذلك السفر أيضاً، وكذلك نجد في إنجيل لوقا أنه يذكر أن المسيح أرسل سبعين رجلاً ليبشروا باسمه، وأنهم عادوا يقولون له: "يارب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك! فقال لهم: «رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء. ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو، ولا يضركم شيء. ولكن لا تفرحوا بهذا: أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كتبت في السماوات»". (لوقا ٩: ١٧ - ٢٠).

ونريد أن نناقش أعمال الرسل وإنجيل لوقا في هذا المقام، لنعرف منه من هم هؤلاء الرسل، لم يذكر سفر الأعمال أسماء العشرين والمائة الذين ملئوا من روح القدس، نعم إنه ذكر أسماء الحواريين الأحد عشر، وليس منهم من ينسب إليه كتب أو رسائل، سوى متى وبطرس ويوحنا ويعقوب ويهوذا.. ولا ننسى الشك العلمي في نسبة إنجيل متى ويوحنا إليهما، وأما بطرس والباقيون فلهم رسائل، ولم يكن معترفاً بصحتها إلى سنة ٣٦٤، حتى إن مجمع نيقية لم يعترف بصحة نسبتها إلى أصحابها، وقد كان سنة ٣٢٥.

^١ - محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، د. ت، ص ٧١، ٧٢.

وإذا كان سفر الأعمال لم يذكر أسماء العشرين والمائة، ولم يذكر كذلك إنجيل لوقا أسماءهم، فكيف تؤمن برسالة رسل لم تعرف أسماءهم، نعم كانت تذكر بعد ذلك أسماء أشخاص، ويوصفون بأنهم رسل، ولكن لم يذكر أنهم من العشرين والمائة، ومن المؤكد أن بولس لم يكن في العدد الذي ذكر في الأعمال، ولا في العدد الذي ذكر في إنجيل لوقا. إذن لا مقنع فيما جاء في سفر الأعمال، ولا في إنجيل لوقا؛ لأنه لم يذكر أسماء هؤلاء معينين بالاسم، ثم من هو مؤلف سفر الأعمال؟ قالوا إنه لوقا صاحب الإنجيل.

إذن فالمصدر هو لوقا في الاثنين، ولوقا طبيب وقيل إنه مصور، أو هو طبيب مصور، فهل كان من تلاميذ المسيح، أو كان من تلاميذ تلاميذه. لم يثبت شيء من ذلك.

وكل ما ثبت من صلته برجال المسيحية أنه كان من أصحاب أو تلاميذ بولس، وإذن فروايتة عن هؤلاء وعن المسيح ليست برواية من شاهد وعين، وعلى ذلك يكون السند غير متصل بين لوقا والمسيح أو تلاميذ المسيح. لم نعرف إذن حقيقة هؤلاء الرسل ومن هم بسند صحيح، فضلا عن أن يكون السند قطعيا، وإذا كنا لا نعرف من هم، فكيف نؤمن لهم بمعجزات؟ إن المصدر الذي ذكر المعجزات هو نفس المصدر الذي ذكر الرسل من غير أن يبين من هم، وهو راو لم يعين ولم يشاهد، وعلى ذلك يكون الكلام في الإلهام وأهم رسل ملهمون، لم يثبت بسند يصح الاعتماد عليه والاطمئنان إليه وبناء عقيدة تشرق وتغرب على أساسه.

ولكننا لا نكاد ننتهي إلى هذه النتيجة حتى نجد من مجادلي القوم والمناظرين عنهم، من يزعمون أن لوقا نفسه صاحب سفر الأعمال وصاحب الإنجيل، كان من الرسل الملهمين فهو لا يحتاج إلى سند؛ لأن كل كلامه من الروح القدس الذي ملأه كما ملأ إخوانه الرسل. ولكن أين معجزته التي تثبت إلهامه حتى نصدق كل ما جاء في كتابيه، ويؤمن مؤمن "يحترم الإيمان" بكل ما اشتملا عليه، لم يرد عندهم أي شيء يدل على إلهام لوقا، وأنه كان في العشرين والمائة الذين ألقى فيهم بطرس خطبته وامتألوا بروح القدس في زعمهم، ولم يكن من السبعين الذين أرسلهم المسيح كما ذكر في إنجيله وأخضعوا الأرواح، وأخبرهم أن أسماءهم كتبت في السماء.

ولسنا في ذلك إلا مطالبين بأن يثبتوا إلهام لوقا، لنصدق بإخباره عن الرسل وأعمالهم وعن إلهامهم وامتلائهم بالروح القدس وإعجازهم، لا يوجد أماننا أي دليل يثبتون به إلهام لوقا فيما كتب، حتى كنا نصدق في كلامه عن الرسل الذين تجلى عليهم الروح القدس وامتألوا به، وإن كنا لا نعرف أشخاصهم ولا شيئا عن أسمائهم وأعمالهم.

بل لقد وجدنا من كتاب القوم الباحثين من يصرح بأن لوقا لم يكن من الملهمين وأن إنجيله لم يكن إلهاميا، وبالأولى رسالته لم تكن بإلهام؛ فقد قال من المحدثين واطسن في المجلد الرابع من كتاب الإلهام ما ترجمته: إن عدم كون تحرير لوقا إلهاميا يظهر مما كتب في ديباجة إنجيله، ونصها: "إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المستيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به". ومثل هذا القول من أن ما كتب لوقا ليس بإلهام قاله العلماء الأقدمون من المسيحيين، فيقول أرينوس: إن الأشياء تعلمها من بلغها إلينا. **لم يكن إذن لوقا ملهما؛ لأنه لا يوجد دليل يثبت إلهامه، ولأن مقدمة إنجيله كمقدمة رسالته تدل على أنه** لم يكن ملهما؛ ولأن الثقات من العلماء الأقدمين والمحدثين يقررون أنه لم يكن ملهما فيما كتب، بل كتب ما تعلم ولقن، لا ما أوحى إليه به وألهم.

وإذا كانت رسالة الأعمال هي المصدر المثبت لإلهام الرسل وامتلائهم بالروح القدس، فيكون ذلك المصدر قد فقد صلاحيته؛ لأنه لم يكن متصل السند بين لوقا والتلاميذ والمسيح؛ ولأن لوقا لم يكن ملهماً، وهذا كله على فرض صحة نسبة ما أسند إلى لوقا، وفي تلك الصحة كلام سنثبت في موضعه.

ليس عندنا إذن دليل نقلي عنهم يثبت رسالة من يسمونهم رسلا، ويثبت أنهم كتبوا بالإلهام، حتى يعتبر كلامهم وحيا أوحى به، ويجب تصديقه وقبوله، ولا نجد من الكتب ما يؤيد هذه الدعوى ويثبتها، بل إن راجعنا هذه الكتابات لا نجد أن كاتبها يدعون لأنفسهم أنهم رسل، ولا من تلاميذه العشرين والمائة، ولا من السبعين الذين ذكرهم لوقا.

وقد رأينا بطرس في رسالتيه يقدمهما بأنه رسول يسوع المسيح، ولم يذكر لنفسه وصف الرسالة المطلقة عن الله، ولا نجد في عباراتهم ما يدل على أنهم كتبوا بالإلهام إلا رسائل بولس، فهو الذي يذكر في رسالته أنه يتكلم عن الله، وأحيانا يقول إنه يتكلم من نفسه.

وإذن نقول إن أصحاب هذه الكتب والرسائل لا يدعون لأنفسهم الرسالة والإلهام، إلا بولس الذي كانت صلته بالمسيحية على ما علمتم، وليس في كتبها ما يشهد له بالرسالة والإلهام إلا سفر الأعمال، وقد علمت قوة الاستدلال به، والاعتماد عليه في الاحتجاج والإثبات^(١).

وبعد أن يعرض المؤلف الإنجيل على محك المقاييس التي سبق وضعها للكتاب السماوي الصحيح، كعدم التضارب، وعدم انقطاع السند، وهو ما ثبت لديه عكسه يقول مجمل القضية: "هذه كلمتنا في كتبهم، تحرينا فيها أن نكتبها كما كتبها المسيحيون، ونوجه من النقد ما وجهوا، وذلك لكي ننصف القوم.

ولقد ألقينا عليها نظرة فاحصة لنوائم بين أخبارها المختلفة ونجمع بين الأقوال المتضاربة، ونشير إلى حكم العقل المستقيم عليها، أهي صالحة لأن تكون مصدر دين يتدين به ألوف الألوف من البشر وأهل العلم؟ أم غير صالحة؟ إن كتاب كل دين هو الأصل والدعامة والأساس، فإذا كان غير صحيح السند أو غير مقبول لدى العقول كان ثبوت الدين فيه نظراً، بل إنه انهار، وفقد أصله ولم يعد شيئاً في الأديان المذكورة^(٢).

أفدين كتابه المقدس بهذه الحالة من جهالة أحوال من يدعون رسله وافتقارهم للوحي والإلهام والإعجاز، وانقطاع سنده واضطراب متنه، وتناقض أقواله، وهزال بعض أفكاره وسخافة بعضها الآخر خاصة فيما يتعلق بمقام الألوهية والنبوة كأنها هلاوس بشر بنصف عقل، فهل دين بهذه الأوصاف يستحق أن يتعبد به بعض الناس، فضلاً عن أن يوجب على المؤمنين من أهل الأديان جميعاً أن يقرءوا كتابه ويؤمنوا به بوضعه الحالي، ومضمونه المحرف المتهافت؟ إذن بنينا موقفنا الرافض لهذا الطلب، المتمثل في الدعوة إلى قراءة الإنجيل الحالي والإيمان به، على أنه محرف وليس باقياً على أصله السماوي الصحيح.

وإن ما يحتج به النصارى على استحالة التحريف في كتبهم ببناء القرآن عليها وتعظيمه لها، فنقول: القرآن أثنى على كتبكم نعم، والإنجيل فيه هدى ونور نعم أيضاً، ومحمد ﷺ صدق ما قبله من الكتب، ومن جاء من الرسل نعم، كل هذا حق وصدق والقرآن ذكر ذلك، ولكن أراد الكتب التي لم تحرف ولم تبدل، فالقرآن أثنى على توراتهم وإنجيلهم قبل التحريف، وعلى من بقي إلى عهد محمد ﷺ على نفس الدين الصحيح الذي جاء من عند الله، أما الكتب بعد التحريف والتبديل، فليس لها اعتبار في الإسلام، ولا تدل الآيات التي استشهدوا بها على أن كتبهم

^١ - محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، د. ت، ص ٧١ وما بعدها.

^٢ - محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، د. ت، ص ٩٠.

صحيحة، وغير محرفة، كيف وقد ثبت فعلا أنها محرفة وشهد القرآن عليها بذلك صراحة في قوله سبحانه وتعالى: {يحرّفون الكلم عن مواضعه} (المائدة: ١٣)، وغيرها من الآيات، وقد بين الله أنه أنزل هذا القرآن مهيمنا على ما بين يديه من الكتب.

وليس المسلمون وحدهم هم الذين يقولون بوقوع التحريف في كتب أهل الكتاب عامة، وكتب النصارى خاصة، بل إن المسيحيين أنفسهم شهدوا على ذلك، ومنهم من هداه الله للإسلام، ومنهم من بقي على مسيحيتهم رغم اعترافه بالتحريف في كتبهم، يقول هورن: الحالات التي وصلت إلينا في بادئ زمان تأليف الأناجيل من قدام مؤرخي الكنيسة (بتراء) غير معينة، لا توصلنا إلى أمر معين، والمشايخ الأقدمون صدقوا الروايات الواهية وكتبوها، وقبل الذين جاءوا من بعدهم مكتوبهم تعظيما لهم، وهذه الروايات الصادقة والكاذبة وصلت من كاتب إلى كاتب آخر، وتعذر نقدها بعد انقضاء المدة.

وهذا أيضا اعتراف آخر، من أحد كبار المؤرخين المسيحيين، وهو ول ديورانت الذي يعترف صراحة بالتحريف في كتبهم، وخصوصا العهد الجديد، لا سيما الأناجيل، فيقول: وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة، إلى القرن الثالث، أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي ٦٠، ١٢٠م، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل، ولعلها تعرضت أيضا لتحريف مقصود.. وملاك القول أن ثمة تناقضا كثيرا، بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأن فيها نقاطا تاريخية مشكوكا في صحتها، وكثيرا من القصص الباعثة على الريبة، والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين، وكثيرا من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها، تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس من طقوسها.

ويقول المسيو ايتين دينيه في كتابه "أشعة خاصة بنور الإسلام" ما نصه: "أما أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه، فالذي لا شك فيه أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر، ولم يبق له أثر، وبعض علماء المسيحية يرون أن أناجيلهم ما هي إلا كتب أدبية أكثر منها دينية، يقول ول ديورانت في ذلك: نقيس الآداب المسيحية في القرن الثاني بالأناجيل والرسائل والرؤى والأعمال.

لكننا مع ذلك نرى أنها ليست أدبية بالمعنى الصحيح، بل هي أدب مفكك تنقصه الاستمرارية، وتتضح فيه التناقضات، وفي ذلك يقول د. موريس بوكاي: اللوحة العامة التي أعطيناها عن الأناجيل، والتي استخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص، تقود إلى اكتساب مفهوم أدب مفكك تفتقر خطبه إلى الاستمرار، وتبدو تنقضاته غير قابلة للحل.

فهذه الأناجيل بشهادة المسيحيين أنفسهم ليست كتباً مقدسة وإنما هي كتب أدبية، بلغ أدبها من الركافة والتفكك مبلغا كبيرا.

يقول شارل ديني بير: وتصفح الأناجيل وحده يكفي بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى تركيبات واضحة التعارض، لنفس الأحداث والأحاديث، مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتزموا الحقيقة الواقعية، ولم يستلهموا تاريخا ثابتا، يفرض تسلسل حوادثه عليهم، بل على العكس من ذلك اتبع كل هواه وخطته الخاصة في ترتيب وتنسيق مؤلفه.

وبعد هذا الذي قدمناه من شهادات علماء الأديان من المسلمين، وكذلك شهادات المسيحيين أنفسهم، يمكننا القطع بأنه من الخطأ الكبير أن نعتبر أسفار الكتاب المقدس الموجودة حاليا كتباً سماوية بالمعنى الصحيح؛ فليست إلا

من وضع كاتبيها، ولم يحفظوا فيها من الكتب السماوية الحقيقية إلا النادر القليل كما شاء الله إذا قيس إلى ما أثبتوه فيها من تحريفات وتناقضات ومبتدعات" (١).

هذا، ولم يقتصر التحريف على العهد الغابرة، بل امتد للعصر الحاضر على يد الصهاينة، يقول الأستاذ أحمد عبد الوهاب: "رأينا فيما سبق أن العقيدة الصهيونية التي تدعو اليهود للسيطرة على العالم، والتحكم في مقدراته، قد حددت وسائلها لتنفيذ ذلك المخطط الصهيوني الرهيب.

ومن أخطر هذه الوسائل ما يتعلق بالخطة الخاصة بهدم العقائد الدينية، والتشكيك فيها عن طريق العبث بتراتها الديني وكتبها المقدسة، ولما كان المؤتمر الديني العالمي الذي عقد بالفاتيكان في الستينيات من هذا القرن، قد أقر بعد مجادلات وانقسامات لأسباب مختلفة ما أصبح يعرف باسم "وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح"، فقد أثبتت تلك الوثيقة صدق توقعات معارضيها، من رجال الدين المسيحي، فقد كان رأي أولئك العلماء أن اعتراف المسيحية بما جاء بوثيقة التبرئة إنما يعني بالضرورة إعادة كتابة الأناجيل والأسفار المسيحية المقدسة، حتى تتطابق عقائد الكنيسة في القرن العشرين مع عقائدها في القرن الأول للمسيحية.

وهذا ما حدث بالفعل، فقد تكفلت إسرائيل التي تمثل تجسيد العقيدة الصهيونية بذلك، فقامت بإعادة كتابة الأناجيل والرسائل المقدسة وحرفتها بأن غيرت فيها، وبدلت؛ حتى تقترب في صورتها المحرفة مع ما جاء في وثيقة التبرئة. ولقد صدرت هذه الطبعة المحرفة لأسفار العهد الجديد عن "دار النشر اليهودية" بالقدس في عام ١٩٧٠م، وتقوم بتوزيع نسختها الإنجليزية التي نعتد عليها في هذه الدراسة وكالة ريد بلندن.

تقول مقدمة الترجمة المحرفة لأسفار العهد الجديد أو ما سوف نستخدم على تسميتها باسم "النسخة الإسرائيلية" وذلك للتمييز بينها وبين الترجمة المسيحية المعتمدة التي سنشير إليها باسم النسخة المعتمدة ما يلي: إن هذه الترجمة اليهودية والمعتمدة للعهد الجديد يمكن وصفها بأنها: العهد الجديد خاليا من معاداة السامية.

إن التعديلات التي أدخلت هنا على ترجمة عام ١٦١١م الإنجليزية المعتمدة، يمكن إثباتها من المصادر الأولى، وقد اختيرت جميعها لهدف واحد هو: التخلص بقدر ما تسمح به الحقيقة مما تحويه تلك الكلمة النكدة والتي تهدف إلى بذر العداوة بين المسيحيين واليهود.

إن تعاليم العهد الجديد الحقيقي تتضمن المحبة، بدلا من تلك الكراهية القاتلة، وعلى هذا الأساس فإن هذه الترجمة اليهودية يحق لها أن يقال بأنها الترجمة المسيحية الصادقة، وفيما عدا ذلك من تعديلات، فإن نصوص هذه الترجمة تبقى كما هي في ترجمة ١٦١١م، ولتجنب أي لبس فإن الحواشي المذكورة في نهاية الصفحات تبين في كل لحظة موضع الانحراف الذي حدث للترجمة المعتمدة، بحيث يمكن القول بأن هذا الكتاب يعتمد على الترجمة المعتمدة والترجمة اليهودية على السواء. إن هذه الترجمة تمثل إعلانا تأخر كثيرا عن مواعده للتقارب بين المسيحية واليهودية.

من هذا يتبين لنا بوضوح نظرة الترجمة الإسرائيلية المحرفة لمحتويات العهد الجديد الذي قبلته الكنيسة وعلمت به وعملت من أجله طوال تسعة عشر قرنا مضت، كذلك تتحدد الخطة العامة للتحريف التي يستطيع القارئ حين يتصفح النسخة الإسرائيلية المحرفة أن يقرر أنها قد سارت على النحو الآتي:

- محو كلمة "اليهود" من أسفار العهد الجديد وهي الكلمة التي تكرر ذكرها ١٥٩ مرة ثم استبدال كلمات مختلفة بها؛ في محاولة لتمييع المسؤولية التي تكون قد علق باليهود من جراء قول أو فعل نسبته إليهم تلك الأسفار،

١ - موقف ابن تيمية من النصرانية، د. مريم عبد الرحمن زامل، معهد البحوث، جامعة أم القرى، الرياض، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٢٤ وما بعدها.

لذلك نجد كلمة "اليهود" قد حُيت ثم استبدلت بها كلمات أخرى؛ مثل: مواطني ولاية اليهودية، وفيهم اليهود وغير اليهود، وهؤلاء قد أطلق عليهم "أهل اليهودية".

- نحو ما يتعلق بالشعب اليهودي باعتباره جماعة دينية ترتبط بـ "الناموس" و "المجمع" ويقوم على رأسها "الشيوخ"، و "رؤساء الكهنة" وتعرف بينها طوائف "الفريسيين" وجماعة "اللاويين"، ففي النسخة الإسرائيلية المحرفة نجد "الناموس" قد استبدل به "الكتاب المقدس"، واستبدل بالمجمع "الحكمة"، وبالشيوخ "المشرعين"، و "رؤساء الكهنة" "القسس والكهنة"، و "الفريسيين" "المنعزلين" و "اللاويين" "المساعدين"، كذلك استبدل بمشيخة الشعب اليهودي "مثيري الرعاع"، وبالجمع أو الجميع أو المجموع من اليهود الغوغاء أو الرعاع، و "بخدام اليهود" الخدام، فقط مع إسقاط كلمة "اليهودية".

- التخلّص من كلمة "الصلب" وما يشتق منها، وذلك بتحريفها إلى كلمات أخرى قد تقترب منها في المعنى، أو لا تقترب على الإطلاق؛ مثل استبدالهم بكلمة "أصلبه" كلمات أخرى؛ نحو: "خذه" أو "أبعده"، أو "أنفه"، أو "أشنته".

- تجنب كلمة القتل وما يشتق منها، وذلك باستبدال كلمات أقل حدة بها؛ ككلمات: يدين أو ينفي أو يأخذ أو يضايق أو ينكر أو يقاوم.

- نحو الفقرات التي تلقى مسؤولية دم يسوع على اليهود وأولادهم من بعدهم، واستبدال فقرات أخرى بها تحمل المصلوب وزر دمه المراق.

- تحميل الرومان مسؤولية حادثة الصلب بعد تخليص اليهود منه، وذلك بتحريف الفقرات التي تلصق تلك المسؤولية باليهود، أو بالشعب اليهودي، وإلصاقها بالحاكم الروماني بيلاطس، رغم ما تقرره أسفار العهد الجديد بوضوح لا يحتمل اللبس من أن بيلاطس حاول إنقاذ يسوع، وإطلاق سراحه، هدية من السلطة الرومانية الحاكمة للشعب اليهودي في عيده، فلم يصلح حتى اضطر إلى أن أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا: إني بريء من دم هذا البار.

- تحريف الفقرات التي خاطب بها تلاميذ المسيح اليهود مباشرة، وأدانوهم فيها لمواقفهم الإجرامية من المسيح، وذلك بتحويلها من صيغة ضمير المخاطب الحاضر إلى صيغة ضمير الغائب، فاستبدل بالضمير "أنتم"؛ الضمير "هو" حتى تضع المسؤولية في تحديد من "هم".

هذا، ولسوف نعرض فيما يلي عينات ونماذج لما أصاب أسفار العهد الجديد من تحريف على يد المحرفين الإسرائيليين، وقد بلغت جملتها ٦٣٦ تحريفاً، مع الإشارة إلى أن الأعداد التي تبين مقدار ما أصاب أي سفر من التحريف قد أحصيت من الهوامش المذكورة في النسخة الإسرائيلية المحرفة، وهي لذلك تعتمد على أمانة القائمين على التحريف في رصد تلك الحواشي، إن كان لهم بقية من أمانة يمكن الإشارة إليها في حديث.

ثم يورد الأستاذ أحمد عبد الوهاب نماذج التحريف، التي نقتبس منها ما يلي:

١. تشتمل الترجمة المحرفة للإنجيل متى على ٩١ تحريفاً موزعة على إصحاحاته الثماني والعشرين، لكن أكثر هذه التحريفات وأخطرها هو ما حدث للإصحاحات الأخيرة، وخاصة الإصحاح السادس والعشرين والإصحاح السابع والعشرين، وهما اللذان يرويان أحداث الصلب، وما سبقها من دسائس ومؤامرات وفيما يلي نماذج لبعض ما عاناه هذا الإنجيل من تحريف.

تقول النسخة المعتمدة: "ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام هيرودس الملك، إذا محوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له". (متى ٢: ١،

٢). وفي هذا تقول النسخة الإسرائيلية: "قد جاءوا إلى اورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهودية". ونقرأ في النسخة المعتمدة: "ولكن احذروا من الناس، لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس، وفي مجامعهم يجلدونكم". (متى ١٠: ١٧). وهذه تقرأ في النسخة الإسرائيلية: "وفي محاكمهم يجلدونكم".

وتقول النسخة المعتمدة: "من ذلك الوقت ابتداء يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى اورشليم ويتألم كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويقتل، وفي اليوم الثالث يقوم". (متى ١٦: ٢١). وهذه يناظرها في النسخة الإسرائيلية: "يذهب إلى اورشليم ويتألم كثيرا من المتشرعين الكهنة والكتبة".

وفي نذير المسيح إلى الكتبة والفريسيين - فرق يهودية - تقول النسخة المعتمدة: "أيها الحيات أولاد الأفاعي! كيف تهربون من دينونة جهنم؟ لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينة إلى مدينة". (متى ٢٣: ٣٣، ٣٤). لكن النسخة الإسرائيلية تحاول الهرب من كلمة "الصلب" ولذلك تقول: "ها أنا أرسل إليكم أنبياء، فمنهم تقتلون وتشنقون، ومنهم تجلدون في محاكمكم".

ولما قررت العصاة التي تحكم الشعب اليهودي التخلص من المسيح، تجدد النسخة المعتمدة تقول: "حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الكهنة الذي يدعى قيافا، وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه". (متى ٢٦: ٣، ٤). لكن النسخة الإسرائيلية تحاول التخفيف من هدف المؤامرة على المسيح فتحرف كلمة القتل إلى النفي أو الإبعاد، ولذلك نقرأ فيها الفقرة السابقة هكذا: "وتشاوروا لكي يمسكوا بيسوع بمكر وينفوه". لقد تظاهر جمع كثير من الشعب اليهودي ضد المسيح ساعين للقبض عليه توطئة لقتله. وفي هذا تقول النسخة المعتمدة: "وفيما هو يتكلم، إذا يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلا: الذي أقبله هو هو. أمسكوه". (متى ٢٦: ٤٧، ٤٨).

ولما كانت النسخة المعتمدة تقرر أن تلك الجموع الثائرة ضد المسيح هي جموع يهودية كانت تلتقي به في الهيكل وتستمع إلى تعليمه، وذلك حين تقول: "في تلك الساعة قال يسوع للجموع: كأنه على لص خرجتم بسيف وعصى لتأخذوني! كل يوم كنت أجلس معكم أعلم في الهيكل ولم تمسكوني". (متى ٢٦: ٥٥).

لذلك لجأت النسخة الإسرائيلية - في محاولة لتميع القضية ومنع تحديد المسؤولية - إلى استبدال كلمة "رعاع" بكلمة "جمع" مع إسقاط كل ما يشير إلى أن هذا الجمع الكثير من الشعب اليهودي، قد جاء من عند قاداته، وذلك بحذف الفقرة التي تقول: "من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب"، وبهذا صارت النسخة الإسرائيلية تقرأ هكذا: "وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه رعاع كثير بسيف وعصى، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلا: الذي أقبل هو هو، أمسكوه".

ونحن نأتي إلى المثل الأخير لما أصاب إنجيل متى من تحريف، فإننا نأتي كذلك إلى بيت القصيد الذي من أجله نسجت ولا تزال تنسج إلى الآن المؤامرات الدينية والسياسية، ألا وهو تقرير أن دم يسوع يتحمل إثم يسوع نفسه وليس أحد سواه، ولئن صح ذلك فلا بد أن تزول عن اليهود، وعن أولادهم من بعدهم كل مسؤولية تتعلق بتلك الجريمة النكراء، وما على العالم المسيحي بعد هذا التحريف إلا أن يبكي على المآسي والنكبات التي ذاقتها اليهود من جراء خطيئة تقرر خطأ منذ ما يقرب من ألفي عام تحميلهم تبعاتها!!

ففي محاولة من الوالي الروماني لفك أسر يسوع وتخليصه من القتل، تذكر النسخة المعتمدة ما جرى بينه وبين اليهود من محاولات كان آخرها حين قال الوالي: "وأأي شر عمل؟ فكانوا يزدادون صراخا قائلين: «ليصلب!» فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئا، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا: «إني بريء من دم هذا

البار! أبصروا أنتم!». فأجاب جميع الشعب وقالوا: «دمه علينا وعلى أولادنا». حينئذ أطلق لهم باراباس، وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب". (متى ٢٧: ٢٣ - ٢٦). أما النسخة الإسرائيلية فإنها تقول: "قال الوالي: وأي شر عمل، فكانوا يزدادون صراخا قائلين: ليمنت، فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بالحري يحدث شعباً، أخذ ماء وغسل يديه قدام الرعاع، قائلاً: إني بريء من دم هذا البار، أبصروا أنتم، فأجاب الرعاع وقالوا: دمه عليه".

٢. وبلغت تحريفات إنجيل مرقس ٥٢ تحريفاً، وكما حدث لإنجيل متى فقد تركزت هذه التحريفات في كل ما يتعلق بأحداث الصلب، وفيما يلي عرض لبعض منها:

تقول النسخة المعتمدة: "وكانوا في الطريق صاعدين إلى أورشليم ويتقدمهم يسوع، وكانوا يتحIRON. وفيما هم يتبعون كانوا يخافون. فأخذ الاثنى عشر أيضاً وابتدأ يقول لهم عما سيحدث له: ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الأمم". (مرقس ١٠: ٣٢، ٣٣). لكن النسخة الإسرائيلية خففت الحكم بالموت، وجعلته مجرد إدانة، وفي هذا تقول: "ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى الكهنة والكتبة فيدينونه".

٣. وبلغت تحريفات إنجيل لوقا ٧٣ تحريفاً أدخل أغلبها على قصة الصلب؛ بهدف إبعاد المسؤولية عن اليهود، وإلقاء الشبهة على رعا ذلك الشعب والطبقة الدنيا منه، مع بيان أن ثورة أولئك الرعاع ضد المسيح لم تكن تبغي صلبه، وإنما كانت تطالب بإبعاده أو التخلص منه بصورة أو بأخرى. وفيما يلي عرض لبعض ما تقوله كل من النسختين - المعتمدة والإسرائيلية - في هذا المجال.

تقول النسخة المعتمدة: "وقرب عيد الفطير، الذي يقال له الفصح. وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه، لأنهم خافوا الشعب". (لوقا ٢٢: ١، ٢). وتقول النسخة الإسرائيلية: "وكان الكهنة والكتبة يطلبون كيف يضايقونه". وفي بدء أحداث الصلب، تقول النسخة المعتمدة: "وبينما هو يتكلم إذا جمع، والذي يدعي يهوذا، أحد الاثنى عشر، يتقدمهم، فدنا من يسوع ليقبله". (لوقا ٢٢: ٤٧). وتقول النسخة الإسرائيلية: "وبينما هو يتكلم إذا رعا والذي يدعي يهوذا"، وتقول النسخة المعتمدة: "ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب: رؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجمعهم". (لوقا ٢٢: ٦٦). بينما تقول النسخة الإسرائيلية: "ولما كان النهار اجتمع كثير من الرعاع والكتبة والكتبة وأصعدوه إلى مجمعهم". ونقرأ في النسخة المعتمدة: "فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس". (لوقا ٢٣: ١). بينما نقرأ ذلك في النسخة الإسرائيلية: "فقام كل رعاهم، وجاءوا به إلى بيلاطس".

٤. ويعد إنجيل يوحنا أكثر الأناجيل تحريفاً، فقد بلغت جملة تحريفاته ١٣٥، وما ذلك إلا لأن الخط العام الذي سار عليه المحرّفون هو محو كلمة "اليهود" التي تكررت فيه ١٥٣ مرة، وهو رقم يزيد عن عشرة أمثال ورودها في أي من الأناجيل الثلاثة السابقة؛ لذلك فاز إنجيل يوحنا بأكبر عدد من التحاريف. وفيما يلي عرض لبعض ما تذكره كل من النسختين - المعتمدة والإسرائيلية - في مختلف المواقف والروايات:

تقول النسخة المعتمدة: "وهذه هي شهادة يوحنا، حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه: «من أنت؟». فاعترف ولم ينكر، وأقر: «إني لست أنا المسيح»". (يوحنا ١: ١٩، ٢٠). وتقول النسخة الإسرائيلية: "وكان الفصح اليهودي قريباً، فصعد يسوع إلى أورشليم". وتقول النسخة المعتمدة: "كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس، رئيس لليهود". (يوحنا ٣: ١). وتقول النسخة الإسرائيلية: "كان إنسان من المنعزلين اسمه نيقوديموس رئيساً للعبريين".

وحين شفي المسيح مريضاً في السبت، تقول النسخة المعتمدة: "ولهذا كان اليهود يطردون يسوع، ويطلبون أن يقتلوه، لأنه عمل هذا في سبت. فأجابهم يسوع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل». فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضاً: إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله". (يوحنا ٥: ١٦-١٨). لكن النسخة الإسرائيلية تقول في ذلك: "لهذا كان أهل اليهودية يطردون يسوع ويطلبون أن يضايقوه؛ لأنه عمل هذا في السبت، فمن أجل هذا كان أهل اليهودية يطلبون أكثر، أن يضايقوه".

كذلك تقول النسخة المعتمدة: "وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل، لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه". (يوحنا ٧: ١). بينما تقول النسخة الإسرائيلية: "وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل؛ لأنه لم يرد أن يتردد في ولاية اليهودية؛ لأن أهل اليهودية كانوا يطلبون أن يضايقوه".

٥. وأصيب سفر أعمال الرسل بأكبر عدد من التحريفات، فقد بلغت جملتها ١٦٥ تحريفاً، وترجع الزيادة في هذا الرقم لنفس السبب الذي ذكر عند الكلام على التحريف في إنجيل يوحنا، ألا وهو كثرة ذكر هذا السفر لكلمة "اليهود"، فقد تكررت ٦٤ مرة، بالإضافة إلى سرده للمحاورات والمواجهات التي حدثت بين تلاميذ المسيح وبين اليهود، وما تطلبه ذلك من تسجيل هذا السفر لما كان يوجه من كلام إلى اليهود بطريق مباشر، أو ما كان يقال عنهم، بطريق غير مباشر.

تقول النسخة المعتمدة: "فوقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال لهم: أيها الرجال اليهود والساكنون في أورشليم أجمعون، ليكن هذا معلوماً عندكم وأصغوا إلى كلامي... أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم، كما أنتم أيضاً تعلمون. هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، وبأيدي أئمة صلبتموه وقتلتموه". (أعمال الرسل ٢: ١٤-٢٣). لكن النسخة الإسرائيلية تقذف بهذا الاتهام الصريح بعيداً عن الإسرائيليين وتلصقه بكل جرأة بالرومان، وذلك حين تقول: "وقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال: هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، وقد صلبته أيدي الرومان وقتلته".

واستمراراً للحديث بطرس السابق إلى الإسرائيليين، تقول النسخة المعتمدة: "فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا، الذي صلبتموه أنتم، رباً ومسيحاً". (أعمال الرسل ٢: ٣٦). بينما تقول النسخة الإسرائيلية: "ليعلم يقيناً أن الله جعل يسوع هذا المصلوب، رباً ومسيحاً". (١)

هل بعد كل هذا لا يزال هناك موضع ومبرر لعاقلة يحترم عقول الناس وأفهامهم لأن يدعوهم إلى تقديس الإنجيل بوضعه الحالي والتبرك بقراءته؟! صدق من قال: اكذب ثم اكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس، وربما تصدق أنت نفسك من طول تعهدك الكذب وإفكك إياه.

يا الله يا حي يا قيوم يا واهب الإنسان العقل ومكرم بني آدم به من بين خلقك، أهذا مضمون كتاب فيه ما فيه من دس وتحريف وخداع وتمويه يستحق أن ينسب لبشر عاقل. فضلاً عن أن يعد كتاباً سماوياً مقدساً يستأهل من الناس التقديس والاحترام، أم هو مجرد إثبات وجود، وحفاظ على مكاسب، تحققت لفئة من السدنة عبر التاريخ؟!

ثالثاً. الإنجيل الصحيح بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً خاتماً وبالقرآن ناسخاً:

^١ - إسرائيل حرفت الأناجيل، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧م، ص ٤١ وما بعدها.

لو كان الإنجيل حقا بحالته الآن سليما من عبث العابثين ويستحق التقديس، لآمن أهله بمحمد ﷺ نبيا خاتما ورحمة للعالمين، وبالقرآن كتابا سماويا مهيمنا على ما سبقه من رسالات السماء، وناسخا لما نزل قبله من كتب وصحائف كما في البشارة عندهم بذلك، وهذا ما لم تستطع يد التحريف إخفاءه إخفاء تاما.

تحت عنوان "ابن الإنسان من هو" يقول الأستاذ محمد فاروق الزين:

تكررت الإشارة إلى ابن الإنسان في العهد الجديد نحو ثلاث وثمانين مرة في الكلام المنسوب إلى عيسى، فمن هو ابن الإنسان الذي كان يقصده عيسى في كلامه؟ ورد في سفر المزامير بالعهد القديم أنه ابن آدم؛ أي بني آدم، كما يقول مجازا عن جنس البشر؛ ففيه: "فمن هو الإنسان حتى تذكره؟ وابن آدم حتى تفتقده؟ وتنقصه قليلا عن الملائكة، ومجد وبهاء تكلمه. تسلطه على أعمال يديك. جعلت كل شيء تحت قدميه: الغنم والبقر جميعا، وبهائم البر أيضا، وطيور السماء، وسمك البحر السالك في سبل المياه". (المزامير ٨: ٤-٨).

غير أن هنالك تعريفا محددًا لابن الإنسان ورد في سفر دانيال بالعهد القديم: "كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام، فقربوه قدامه. فأعطى سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة". (دانيال ٧: ١٣، ١٤).

وهذا التعريف هو الأساس لفهم شخص ابن الإنسان في الكتاب المقدس، فهو المنقذ من الضلال المخلص، الذي يغير عند مجيئه الأوضاع القائمة.

وعموما، فإننا نجد تركيزا في تعاليم اليهود، وكتبهم ونبوءاتهم على مجيء النبي المنقذ، الذي يزعمهم يجب أن يكون من سلالة داود النبي الملك، وأنه عند مجيئه سوف يحرر اليهود من مضطهديهم؛ لأن ظفر المنقذ بوصفه نبيا قائدا سيكون دينويا دينيا في الوقت نفسه.

أما معلقو الكنيسة فيودون إعطاء الانطباع المباشر أو غير المباشر، أن عيسى في أحاديثه المتكررة عن ابن الإنسان كان يشير إلى نفسه من طرف خفي، هذا على الرغم من أنه كان على ابن الإنسان المنقذ عند مجيئه، أن يفكك الأوضاع والأنظمة القائمة، وينشئ مكانها نظاما جديدا يكون فيه ابن الإنسان منقذا نبيا ملكا، أي ذا سلطة دينوية، وليست سلطته دينية فقط، فالمفترض أن تنهار عند مجيئه السلطات الدنيوية بكل ما فيها من شرك ومن وثنية، وبكل ما فيها من إباحية لا أخلاقية وإباحية جنسية. ومن الواضح أنه خلافا لتوقعات العامة لم يتحقق شيء من ذلك في زمن عيسى، ولا حتى في زمن أتباعه فاليهود الذين كانوا وقتها يمثلون الديانة التوحيدية الوحيدة لم يحققوا النصر على إمبراطورية روما، مع أنهم كانوا يتطلعون إلى قدوم المخلص المنتظر؛ كي ينقذهم من جيوش روما ومن إمبراطوريتها. ومع ذلك تلهف مؤلفو أسفار العهد الجديد على تصوير عيسى المسيح بأنه ابن الإنسان المنقذ المظفر، لدرجة أنهم ابتدعوا في قصة دخوله الأخير إلى القدس لقبا مصطنعا محيرا ومربكا؛ إذ أطلقوا عليه صفة "الدخول المظفر إلى القدس". (يوحنا ٦: ١٠).

رغم أن دخول عيسى إلى القدس، لم يكن له علاقة بأي ظفر ولا نوايا من جانبه لقيادة اليهود ضد إمبراطورية روما، ولا إنشاء نظام سياسي جديد، ولا القيام بأي مهمة من المهام المفترض على ابن الإنسان أن ينجزها. وإذا لم يكن ممكنا الادعاء أن المسيح هو ابن الإنسان الذي تنبأ به دانيال، لذا فقد اللقب في أذهان مؤلفي الأسفار أي مفهوم وأي مغزى عسكري له، وبالتالي حاولوا تجريده من أي مغزى أو دلالة سلطة دينوية، وحولوه إلى مفهوم رمزي داخلي بحت، فأصبح اللقب عندهم رمزيا بحتا مختلفا عن صلة النبي ذي السلطة الدنيوية المشار له في سفر دانيال، وقد وجد بولس لنفسه المخرج من هذه المعضلة بأن دخل في روعه أن المسيح في مجيئه المظفر الثاني سوف يحقق ما لم

يستطيع تحقيقه في المجيء الأول، وبحيث تطابق أوصافه في المجيء الثاني ما تنبأ به دانيال لابن الإنسان من القوة والسلطان والمجد، وزاد بولس أن المجيء الثاني لن يكون في المستقبل البعيد بل قريبا جدا، قبل أن تدرك المنية بولس الثاني.

غير أن عيسى في أحاديثه كان يتكلم عن ابن الإنسان دوما بصيغة الغائب مشيرا بشكل خفي إلى شخص آخر غيره هو شخصا، وهذه الصيغة وحدها هي التي يمكن أن تجعل أحاديثه منطقية، ولا بد أنه كان يشير إلى النبي الأحمد، خاتم الأنبياء والرسل لأنه في هذه الحالة فقط تتحقق النبوة عن ابن الإنسان المذكورة في سفر دانيال، إذ محمد وحده حقق صفة النبي ذي السلطة الدنيوية، فجمع بين صفات النبوة والدين والتقى، وصفات السلطة الدنيوية والقوة الظاهرة.

أجاب عيسى عن سؤال رسل يحيى قائلا لهم: فأجاب يسوع وقال لهما: «اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنتظران: العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يبشرون».

(متى ١١: ٤، ٥).

غير أن يحيى كان يدرك ولا شك أن هذه المعجزات الخارقة، مهما كانت باهرة، ليست كل ما هو متوقع من النبي المنتظر، كان سؤال يحيى ليس واضحا كل الوضوح: هل أنت ذلك النبي أو لا؟ هل أنت المنقذ المخلص؟ هل أنت النبي المنتظر ذو السلطة الدينية والدنيوية معا؟ وكان جواب عيسى بدوره واضحا في مغزاه: المسيح النبي ولكي لست المنقذ المخلص، لست النبي المنتظر ذا السلطة الدنيوية.

لقد نفى عيسى بكل وضوح أن يكون هو المخلص وفي الواقع لو كان يحيى يعتقد أن عيسى هو النبي المخلص حقا لما اضطر إلى سؤاله، ولكنه كان يتوقع ويأمل أن يكون عيسى شخصا أكثر من المسيح، كان يتمنى لو كان عيسى هو النبي المنتظر ذا السلطة الدينية والدنيوية معا، ولم يكن يحيى وحده الذي يحتضن هذا الأمل والرجاء، حتى الحواريون أنفسهم بدا عليهم الالتباس، مع أن عيسى كان يؤكد لهم باستمرار وفي أكثر من مناسبة ولباقة، ويعرض لهم ألا يتوقعوا منه القيام بالدور الذي لم يكن مقدرا له أن يلعبه، الدور الذي كان مقدرا لغيره، كان طبيعيا ألا يقوم عيسى بمهام المخلص؛ لأنه هو نفسه لم يكن المخلص، لقد علم عيسى الناس أن يقبلوا ويتحملوا الاضطهاد، أن يقبلوا الأوضاع الراهنة، علمهم الحلم والخضوع والتوبة والاستقامة، وأن يسعوا وينشدوا مملكة الله القادمة، إذ لم يكن عصره جاهزا لقيام مملكة الله على الأرض التي يعبد فيها الله وحده والتي تحمى منها الأوثان والوثنية. كان عيسى في صلواته يدعو الله قائلا: "ليأت ملكوتك" وكان تعبير "مملكة الله" مألوفا في العهد القديم، ولا شك أن عيسى علم أتباعه أن مملكة الله سوف تتحقق فعلا لا مجازا، ولكن ليس في زمنه هو.

كان عيسى يعلم أنه بصفته المسيح يستطيع أن يجترح المعجزات، أما النبي المنتظر فكان يتوقع منه غير ذلك، النبي المنتظر يجب أن يكون ابن الإنسان المذكور في سفر دانيال، النبي المخلص الذي يفتح عصرا جديدا في تاريخ البشرية، الذي يقهر أعداءه ويقضي على الشرك والوثنية، وينشئ مملكة الله على الأرض التي لا يعبد فيها إلا الله عز وجل، إنه النبي الأحمد العلم الذي بشر به عيسى بالاسم، وكان مقدرا له أن يبعث بعده بستة قرون.

في بداية بعثته اتخذ عيسى لنفسه مقرا في "كفر ناحوم" وهي قرية على الشاطئ الشمالي لبحر الجليل بحيرة طبريا سكانها خليط من الأهالي والرومان والرمميين من الحكام، فلم تكن القرية من هذه الناحية مناسبة لمتنرد أو لثائر أن يتخذها مقرا له، بل على العكس كانت مناسبة لمن أراد التهدة والدعوة إلى ضبط النفس.

لم يدع عيسى قط أنه النبي المنقذ، إذ لم يكن مقدرا له إنقاذ شعبه من إمبراطورية روما ولا إعادة بناء مملكة داود، وهو طيلة مدة بعثته القصيرة لم يبد من جانبه أدنى ملاحظة أو تلميح في خطابه وأحاديثه، ولا في أفعاله وتخطيطه لما يوحى بأي دلالة يمكن أن يفهم منها أنه النبي المنقذ، وهو لهذا السبب بالذات تجنب أن يدعو الناس للمواجهة، بل على النقيض من ذلك نرى كل تعاليمه تتركز على المسالمة والتهدئة، وخاصة عند لقاءه مع ثوار الجليل، ومع المتحمسين لطرد الرومان من فلسطين، فكان يحذرهم مرة بعد أخرى من الثورة والعصيان المسلح، ومن أقواله: "أحب عدوك ولا تحابه الشر" و "من صفحك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن أكرهك على السير معه ميلا سر معه ميلين".

لقد أُنذر اليهود صراحة وعمدا ألا يسلكوا سبيل العنف، والثورة ولا الرد على الشر بالمثل. ولا يمكن أن يفوتنا في أحاديث عيسى وخطابه إنكاره المتكرر لمن اعتقد فيه شخصية المنقذ. وفي حادثة مهمة من هذا القبيل حاول تهدئة مجموعة من الثوار قوامها نحو خمسة آلاف تبعوه إلى الجليل؛ كي يجعلوا منه قائدا لهم، معتقدين أنه النبي المنقذ، وهي الحادثة التي قام خلالها بمعجزة أرغفة الخبز؛ ففي إنجيل يوحنا: "فرغ يسوع عينيه ونظر أن جمعا كثيرا مقبل إليه، فقال لفيلبس: «من أين نبتاع خبزا ليأكل هؤلاء؟» وإنما قال هذا ليمتحنه، لأنه هو علم ما هو مزعم أن يفعل. أجابه فيلبس: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئا يسيرا». قال له واحد من تلاميذه، وهو أندراوس أخو سمعان بطرس: «هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان، ولكن ما هذا لمثل هؤلاء؟» فقال يسوع: «اجعلوا الناس يتكثون». وكان في المكان عشب كثير، فاتكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف. وأخذ يسوع الأرغفة وشكر، ووزع على التلاميذ، والتلاميذ أعطوا المتكئين. وكذلك من السمكتين بقدر ما شاءوا. فلما شبعوا، قال لتلاميذه: «اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء». فجمعوا وملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر، من خمسة أرغفة الشعير، التي فضلت عن الآكلين. فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم". (يوحنا ٦: ٥ - ١٤).

ومغزى هذه القصة شديد الأهمية، ويتمحور حول قول عيسى للثوار اليهود "ليجلس الرجال"؛ فقد كان هناك مغزى عملي في كلامه شديد الوضوح، لقد أُنذر الرجال كي لا يستولي عليهم الوهم، بأن الوقت قد حان لثورة أخرى ضد روما، وكي لا يظنوا أن عيسى جاءهم قائدا عسكريا، أو منقذا لهم من الاضطهاد، فأمرهم أن يجلسوا وأطعمهم من خمسة أرغفة، وسمكتين، أرادهم أن يفهموا أن الوقت لم يحن بعد لمجيء النبي المخلص، وأفهمهم ألا يسلكوا طريق العنف؛ لأنه لا يفيدهم سوى الدمار، وبينما هو يعظهم بمملكة الله القادمة التي لم يكن مقدرا له أن يقودها، كانوا بالمقابل لشدة حماسهم يتوقون أن يكون هو منقذهم ومخلصهم، يتشوقون أن يقودهم ضد إمبراطورية روما دون انتظار، لقد سيطر عليهم الوهم بأنه النبي المنتظر، وهو ما أراد عيسى نفسه أن ينفيه عن نفسه.

كانت رسالته إلى بني إسرائيل مختصرة ومفهومة، قال لهم: "ليجلس الرجال"، فلم يكن عيسى المخلص، ولم يدع أنه المخلص، لقد بشرهم بمملكة الله التي سوف تنشأ في المستقبل، ومن هنا فقط نستطيع أن نفهم دعاءه المتكرر في الصلاة "ليأت ملكوتك" بصيغة المستقبل.

كانت مجموعة الرجال التي حاول عيسى تهدئتها في الجليل نموذجا لشعب إسرائيل المتمرد، ولشدة عنادهم لم يفهموا الرسالة، ولم يستوعبوا كلام عيسى، ولا المغزى من معجزة أرغفة الخبز، وربما فهموا النقيض من ذلك؛ إذ قالوا: "فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: «إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم»، وأما يسوع فإذ علم أنهم مزعمون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا، انصرف أيضا إلى الجبل وحده". (يوحنا ٦: ١٥). أي عندما فشل في إقناع

ذوي العقول العنيدة بحقيقة مهمته وبحقيقة بعثته، وخوفاً أن يظنوا أنه ملك دنيوي، توارى عنهم نحو الجبل، واختفى عن ناظرهم.

فمن المحزن أن إيضاح عيسى المتكرر لجمهوره عن طبيعة مهمته، وتحذيره لهم ألا يسيئوا فهم بعثته وألا يعلقوا عليها آمالاً للخلاص من روما عسكرياً، ومحاولته أن يوازن تطلعاتهم بشئ الوسائل كل ذلك لم يفلح لا على المستوى المحلي بين أفراد شعبه اليهود، ولا بعد وفاته على المستوى الهلنستي في العالم اليوناني الروماني، فلم يكتف اليهود بأن أساءوا فهم رسالة عيسى، بل أصروا على تمردهم وعصيانهم المسلح ضد روما حتى سبب ذلك الكوارث لهم في عام ٧٠م، وعام ١٣٥م، ومن جهة أخرى في العالم الهلنستي أصر بولس على الاعتقاد أن عيسى كان مخلصاً فعلاً، ولكن بشكل خفي وغامض وميثولوجي، من حيث إنه خلص العالم من الخطايا، أما الخلاص على الأرض، فكان المفترض أن يتحقق قبل أن يموت بولس حسب نبوءة بولس نفسه عندما يعود عيسى في مجيئه الثاني بصورة ابن الإنسان فيهزم روما عسكرياً وينشئ مملكة الله على الأرض بزعامته، ثم إن هذا النمط من التنبؤات رغم فشله تكرر من قبل يوحنا العراف اللاهوتي في كتابه سفر الرؤيا، الذي صار فيما بعد سفراً من أسفار العهد الجديد.

وهكذا أدى إصرار معاصري عيسى على الخلط بين شخصية المسيح، وشخصية "النبي المنتظر المنقذ" وعدم فهمهم لطبيعة بعثته، بل رفضهم لها إلى عواقب وخيمة على كل الجهات، ففي فلسطين هزم اليهود والذين رفضوا الإيمان بعيسى على يد الرومان وتشتتوا في أنحاء الأرض، وفي الوقت نفسه تشتت معهم النصارى الذين آمنوا بعيسى على حقيقته، وبسبب تشتت النصارى وظهور بولس على مسرح الأحداث فقد النصارى السيطرة على مجريات الأمور، ففي العالم الهلنستي انخرطت رسالة عيسى عن هدفها الأساسي بالكامل، وحلت محلها ديانة غامضة من صنع بولس، ثم كان على العالم الانتظار ستة قرون لإعادة الأمور إلى نصابها بظهور الإسلام.

ومما يلفت النظر في دخول عيسى المظفر إلى القدس كما يحلو للكنيسة أن تصفه بعد معجزة أرغفة الخبز في الجليل ببعض الوقت نقطة ذات شقين:

١. أن دخول القدس تم بعد أن توارى عيسى عن أنظار ثوار الجليل (خمسة آلاف) الذين حاولوا تنصيبه ملكاً، بمعنى أن الذي رفض من الجماهير تنصيبه ملكاً لا يدخل القدس بهذه الصفة.

٢. أن عيسى تعمد أن يدخل القدس وهو يركب حماراً - وليس حصاناً - مما يعني أنه لم يأت فاتحاً لتأسيس مملكة دنيوية، ومع ذلك توهمت الجماهير أنه المخلص النبي المنتظر، فتجمع الناس حوله، وجعلوا يهتفون "أوصنا! مبارك الآتي باسم الرب! مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب! أوصنا في الأعالي". (مرقس ١١: ٩، ١٠). "والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين: أوصنا لابن داود! مبارك الآتي باسم الرب! أوصنا في الأعالي". (متى ٢١: ٩). ذلك بالرغم من نفيه القاطع أن يكون ابناً لداود "ثم أجاب يسوع وقال وهو يعلم في الهيكل: «كيف يقول الكتبة: إن المسيح ابن داود؟ لأن داود نفسه قال بالروح القدس: قال الرب لربي: اجلس عن يميني، حتى أضع أعدائك موطئاً لقدميك. فداود نفسه يدعو ربا. فمن أين هو ابنه؟» وكان الجمع الكثير يسمعه بسرور". (مرقس ١٢: ٣٥ - ٣٧، متى ٢٢: ٤١ - ٤٥، لوقا ٢٠: ٤١).

أراد عيسى بدخوله القدس على حمار أن يفهم اليهود أنه لم يأت فاتحاً، أراد منهم أن يتخلصوا من الأوهام، وأعلمهم أنهم يجلبون الدمار إلى أنفسهم بعقليتهم العنيدة وسلوكهم الطائش، وهي الرسالة نفسها التي حاول إيصالها لعقولهم يوم اجتمع عليه في الجليل خمسة آلاف من الثوار فأمرهم بالجلوس وأطعمهم خبزاً وسمكاً.

وزيادة في الإيضاح فإنه بعد أن دخل القدس لم يزد على أن ذهب إلى المعبد فنظر حوله، ثم غادر مع الحواريين الاثنى عشر "فدخل يسوع أورشليم والهيكل، ولما نظر حوله إلى كل شيء إذ كان الوقت قد أمسى، خرج إلى بيت عنيا مع الاثنى عشر". (مرقس ١١: ١١)؛ فلم يكن دخوله إلى القدس سوى بادرة رمزية توحى بالسلام، لا الحرب.

وقد نسبوا إلى عيسى القول: "الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه". (متى ١١: ١١، لوقا ٧: ٢٨). وقد أعيت هذه العبارة معلقي الكنيسة لقرون طويلة وحيرتهم، فمنهم من قال هي مقارنة بين مستقبل النخبة وبين عظمة يحيى، وآخرون فهموا مملكة الله، بأنها تشمل أرواح المؤمنين بعيسى بالمقارنة مع حياة يحيى على الأرض، وآخرون اعتقدوا أن عيسى هو الأصغر لجهة كونه عبد الله. وعلى أية حال لا يمكن القبول أن عيسى كان يقصد نفسه؛ لأن مملكة الله لم تتحقق في أيامه، وحتى لو تحققت كما يزعم البعض لاستحال أن يكون هو أصغر من فيها؛ إذ يكون عندئذ مؤسسها.

يكمن مفتاح تفسير هذا القول في كلمة "الأصغر"؛ ففي اللغة الآرامية والعربية والعبرية تحمل الكلمة معنى: "الأخير زمناً" أو "الأصغر في مجموعة مسلسلة". والترجمة الآرامية السريانية للعهد الجديد الطبعة البسيطة تستخدم كلمة "زغيراً" التي تقابل كلمة "صغير" بالعربية بمعنى: الأصغر سناً، ولا بد للكنيسة أن تعترف أن عيسى لم يكن آخر الأنبياء، وبالتالي فهو ليس أصغرهم زمناً، فمن يكون إذن آخر الأنبياء، وخاتمهم سوى محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنه قطعاً وبلا جدال آخر الأنبياء، فهو بالتالي أصغرهم زمناً، ومع ذلك فهو أعظمهم، مقارنة مع أي منهم؛ لأن العمل الضخم الذي أنجزه أعظم من الأعمال التي قام بها الأنبياء قبله مجتمعين" (١)

فإذا كان الإنجيل الموجود حالياً على هذه الصورة التي تابعتها تفصيلاً، من التحريف والتزييف والتبديل والتغيير لفظاً ومعنى بشهادات شهود من أهله قبل أهلنا، وإذا كان هذا الإنجيل نفسه في أصله الصحيح قبل التحريف وفيما لم تستطع الأيدي المزيفة إطفاءه تماماً قد بشر بالإسلام رسالة خاتمة ناسخة وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً خاتماً فهل هناك مجال للقول الآن بأن هذا الإنجيل، بوضعه الحالي، محل للتقديس والتعبد به من قبل النصراني وغير النصراني؟! (٢)

رابعا. حول حديث أبو داود: يجدر هنا التنبيه على ضعف الحديث الذي رواه أبو داود في سننه، وفيه أنه ﷺ وضع التوراة على وسادة وقال: «آمنت بك ومن أنزلك»، فأصل الحديث ورد في قصة رجم اليهوديين الزانين (٣).

وقد ضعف هذه الرواية غير واحد من أهل العلم، منهم ابن حزم إذ يقول: "قوله عليه السلام: «آمنت بما فيك»؛ فإنه باطل لم يصح قط، وكله موافق لقولنا في التوراة والإنجيل بتبديلهما، وليس شيء منه حجة لمن ادعى أنهما بأيدي اليهود والنصارى كما نزلا ... فخير مكذوب موضوع، لم يأت قط من طرق فيها خير، ولسنا نستحل الكلام في الباطل، لو صح فهو من التكلف الذي نخينا عنه كما لا يحل توهين الحق ولا الاعتراض فيه". (٤) وهذه الزيادة «آمنت بك ومن أنزلك» مروية في إسناد ضعيف متهالك لا يصلح للاحتجاج، فهي من رواية هشام بن سعد القرشي، وقد ضعفه العلماء، وترك التحديث عنه جملة من المحدثين، منهم يحيى القطان الذي كان لا يحدث عنه، ومما قاله العلماء عنه: قال النسائي: "ضعيف"، وقال في موضع آخر: "ليس بالقوي".

وقال يحيى بن معين: "ليس بشيء"، وفي موضع آخر قال: "ليس بذاك القوي".

١ - المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣، ص ١٩٣.

٢ - راجع: موسوعة بيان الإسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط ١، ٢٠١٢.

٣ - صحيح البخاري ج (٣٦٣٥)، (٤٥٥٦)، (٦٨١٩)، (٦٨٤١)، (٧٥٤٣)، وصحيح مسلم ج (١٦٩٩)، (١٧٠٠)، والموطأ ج (١٥٥١)، وسنن الدارمي ج (٢٣٢١)، وهذه الزيادة غير موجودة حتى في روايات أبي داود الأخرى للقصة (سنن أبي داود ج (٤٤٤٦)، (٤٤٥٠)).

٤ - الفصل في الملل والنحل، ابن حزم (١٥٧/١ - ١٥٨). مرجع .

وأما أحمد بن حنبل فقال عنه: "ليس هو محكم الحديث". وفي موضع آخر قال: "لم يكن بالحافظ". قال أبو حاتم: "يكتب حديثه ولا يحتج به"، وقال ابن حبان: "كان ممن يقلب الأسانيد، وهو لا يفهم، ويسند الموقوفات من حيث لا يعلم، فلما كثُر مخالفته الأثبات فيما يروي عن الثقات بطل الاحتجاج به، وإن اعتبر بما وافق الثقات من حديثه فلا ضير" ^(١).

وهكذا فهذه الرواية التي تفرد بها هشام مردودة، ولا يحتج بها إلا الذين يتعلقون بخيوط أوهى من بيت العنكبوت. كما لن يفوتني تسجيل عجيبي من اليهود والنصارى الذين يرومون توثيق كتبهم من القرآن والسنة؛ في حين أن كتبهم تشهد على نفسها بالتحريف في مواضع كثيرة منها: قول النبي إرمياء: "كيف تقولون: نحن حكماء، شريعة الرب معنا حقاً، إنه إلى الكذب، حوّلها قلم الكتبة الكاذب" (إرميا ٨ / ٨)، أي أن دعواكم بامتلاك شريعة الرب كذب منكم، لأن هذه الشريعة غيّرناها وبدّلنا الكتبة الكاذبة بأقلامهم المحرّفة.

ويؤكد النبي إرمياء وقوع التحريف في الكتاب، ويتهدد بالعقوبة أولئك الذين مازالوا يتحدثون عن كلام الرب، فينسبون ما في أيديهم إليه بعد أن حرفوه، فيقول: "وإذا سألك هذا الشعب أو نبي أو كاهن قائلاً: ما وحي الرب؟ فقل لهم: أي وحي؟ إني أرفضكم هو قول الرب، فالنبي أو الكاهن أو الشعب الذي يقول: وحي الرب أعاقب ذلك الرجل وبيته .. أما وحي الرب فلا تذكره بعد، لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه، إذ قد حرّفتكم كلام الإله الحي رب الجنود" (إرمياء ٢٣ / ٣٣ - ٣٦).

٩- الزعم أن القرآن يقر عقيدة الفداء النصرانية

إن العقيدة الإسلامية تقر عقيدة الصلب والفداء النصرانية، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: {وفديناه بذبح عظيم} (١٠٧) {الصافات}.

أولاً. موقف القرآن من عقيدة الصلب النصرانية: تقر المسيحية أن عيسى ظل مصلوباً حتى مات، وأنه تحمل الآلام ليمسح بدمه خطيئة آدم التي ارتكبها في الجنة بأكله من الشجرة المحرمة؛ فكيف قبل الإله وهو ابن الإله بزعمهم أن يصلب ويعذب هكذا؟ أليس للإله قدرة يدفع بها عن نفسه؟ وقد جاء في القرآن غير مرة أن آدم تاب إلى الله من خطيئته، فتاب الله عليه، وذلك كما وكز موسى عليه السلام رجلاً مصرياً ففضى عليه، ثم قال: {قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم} (١٦) {القصص}.

وباب التوبة مفتوح دائماً لكل مذنب، وهذه رحمة الله وإذا كان المسيح من أبناء آدم، فما مسئوليته عن خطيئة لأبي البشر جميعاً؟ ولماذا يكون عيسى هو الذي يمحوها من بين ملايين البشر؟

وإذا كان عيسى ابن الله، فما ذنب ابن الله حتى يقتل نفسه لخطيئة ارتكبها واحد من مخلوقاته أو مخلوقات أبيه كما يزعمون؟ وتقص الأناجيل أن عيسى لم يكن يريد أن يقتل، وأنه دافع عن نفسه أمام بيلاطس، وأن محاكمته كانت على ادعائه أنه ملك اليهود حسبما وشي به أعداؤه فلو أنه كان قد صلب ليمسح خطيئة آدم لقدّم نفسه طائعا بدون محاكمة، ولما دافع عن نفسه وطلب النجاة!

ثم إننا نجد قبل ذلك مع تلاميذه يبيت خائفاً وجلاً أن يقبض عليه جند الرومان، بل ويعاتبهم على أنه يسهر وينامون، ونجدّه يتنقل من مكان إلى مكان؛ كي يخدعهم ويفلت منهم، ولو أنه كان يريد محو خطيئة آدم ما تردد، ولا تهيب الصلب أو حاول الإفلات؛ لأنه إنما جاء بإرادته لهذا العمل المزعوم.

^١ - انظر: المرحون، لابن حبان (٨٩ / ٣)، والموضوعات، ابن الجوزي (٣٦٦ / ١)، والكامل، ابن عدي (١٠٨ / ٧)، وتذيب الكمال، المزي (٣٧ / ١١)، وتذيب التهذيب، ابن حجر (٢٠٦ / ٣٠)، والضعفاء والمتروكين، النسائي (٢٤٥ / ١).

ومن المغالطة الواضحة القول بأن الله لم يتب على آدم؛ لأن الله هو التواب الرحيم، ولكن بعض هؤلاء أصر على إصاق الخطيئة بآدم وغلق باب التوبة أمامه، ثم تمادوا فجعلوا حبل الخطيئة معلقا في أعناق ذريته إلى مجيء المسيح عليه السلام كي يصلب من أجل غفران هذه الخطيئة وفداء البشرية.

وكتبهم ذاتها تعلن بأن كل من صلب على خشبة فهو ملعون!! وقد نفى القرآن أن يكون المسيح قد صلب أو قتل، بل رفعه الله إليه، وبين القرآن أن هناك حادث صلب قد وقع، ولكن لم يقع للمسيح، بل لشبيه له آخر. قال تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ (النساء: ١٥٧).

وإذا كان حادث صلب المسيح وقتله في حد ذاته أسطورة لم تقع أصلا، فإن ما يترتب عليه من قولهم: ابن الله الفادي، أو المخلص لأبناء آدم من خطيئة أبيهم، هو أسطورة وخرافة لا تصح ولا تعقل، ولا أساس لها.

إلى جانب أنها عقيدة الفداء تنفي المسؤولية الشخصية، فكيف يرتضيها الله لكي تكون سنته في التعامل مع البشر؟ إن هذا الاعتقاد الخاطئ يتناقض مع قوله تعالى: ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (٣٨) وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩) ﴿(النجم).

لا ريب أن فكرة الصلب، والفداء لا تخضع لمنطق، ولا يقبلها عقل، فهل من المعقول أن يحب الله البشر الخطاة أكثر من حبه للمسيح البار، فيضحي به من أجلهم؟! وهل من العدل أن يعذبه ويقتله من أجل ذنب لم يقره؟ ولقد نفاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا﴾ (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما (١٥٨) ﴿(النساء).

ثانيا. فداء إسماعيل وما يرشد إليه: إن استدلال بعضهم بقوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ (١٠٧) ﴿(الصفات) على إقرار القرآن الكريم لعقيدة الفداء النصرانية هو استدلال خاطئ، فالنصارى يرون في عقيدتهم أن المسيح قدم نفسه فداء للبشرية من خطيئتها الموروثة من لدن آدم، فلم لا يكون فداء إسماعيل الذي سبق فداء المسيح المزعوم تكفيرا للبشرية عن خطيئتها الموروثة من لدن آدم؟!

ولماذا اختص المسيح بذلك إن كان هناك إقرار بعقيدة الفداء؟ إن القرآن الكريم يقرر أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره يوم القيامة وربما أيضا وأن من يعمل مثقال ذرة شرا يره يوم القيامة وربما في الدنيا أيضا ويقرر أنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

وبهذه التوجيهات الصائبة الحكيمة رفع الإسلام عن كاهل البشر عبء الخطيئة الأولى، رابطا مصير الإنسان الفرد بمدى إيمانه بالله وتسليمه له، وبعمله صالحا كان أو غير صالح، وبالتماسه الغفران من الله بالصدقة، والزكاة، وتقديم الأضحيات من الحيوانات بحسب ما تقره الشريعة.

إن فداء إسماعيل بذبح عظيم هو مكافأة من الله للنبين إبراهيم وإسماعيل على صبرهما واستسلامهما لأمر الله قال تعالى: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ (١٠٣) وناديانه أن يا إبراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) ﴿(الصفات)؛ فقد اجتازا الابتلاء بصبر واستسلام واحتساب، فأثبتا معا بهذا أنهما مسلمان حقا. فما أبعد الفارق بين هذا الحدث الذي سجله القرآن الكريم؛ ليكون نموذجا لإسلام الوجه لله والصبر على البلاء واجتياز الحن، وبين عقيدة الفداء النصرانية التي لا يقبلها عقل ولا يقرها دين^١.

^١ -المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ٢٠٠٢ م. رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شليبي، دار القلم، ط ١، ١٩٨٢ م. راجع: موسوعة بيان الإسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط ١/٢٠١٢.

١٠- هل الذكر المحفوظ هو كتب أهل الكتاب؟

قالوا: سمى القرآن كتبنا ذكراً في قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النحل: ٤٣)، فاعتبر الكتب السابقة ذكراً، ثم أخبر أن الذكر محفوظ من التحريف والتبديل {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩)، فدل ذلك على سلامتها من التحريف والتبديل.

والجواب: أن كل ما ينزله الله تعالى من وحي هو ذكر، يذكر الله به عباده.

لكن الله لم يحفظ من الذكر إلا ذكره الأخير، أي القرآن، فهو الذي تكفل الله بحفظه بقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩)، بدلالة السياق الذي وردت فيه الآية، إذ يقول الله: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٦ - ٩)، فالذكر المحفوظ هو الكتاب المنزل على النبي ﷺ كما هو ظاهر في السياق، وهكذا تبين وضوح المعتقد الإسلامي بخصوص ما أنزله الله على الأنبياء، وكذلك تبين تحريف الكتب الحالية وتبديلها، وأنها ليست من عند الله.

١١- الكتاب الذي لا ريب فيه هو الإنجيل وليس القرآن؟؟!

يتوهم البعض أن الكتاب الذي لا ريب فيه هو الإنجيل وليس القرآن، ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه وتعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} (٢) {البقرة}، ويتعللون بأنه لو كان المقصود بالكتاب الذي لا ريب فيه القرآن كما يدعي المسلمون لقال الله تعالى: (هذا الكتاب لا ريب فيه)، ولما قال: {ذلك الكتاب لا ريب فيه}، فاسم الإشارة للبعيد (ذلك) يشير إلى الإنجيل لا القرآن، الذي لو كان هو المقصود لأشير إليه بـ (هذا).

الجواب: أولاً: القرآن نزل على لغة العرب، واللغة تقرر أن المقصود بقوله: {ذلك الكتاب لا ريب فيه} هو القرآن، فالإشارة هنا لبعده المنزلة وعظيم الشرف، وليست للبعد التاريخي، إنه تجاهل لما هو معلوم من اللغة العربية بالضرورة، في اللغة العربية اسم الإشارة "ذا" للقريب، واسم الإشارة "ذاك" للمتوسط في البعد، واسم الإشارة "ذلك" للبعيد، ولكن البعد والقرب يكونان تارة بالزمان، وتارة بالمكان، وتارة بالشرف، وتارة بالاستحالة، ومن قبيل ذلك قول امرأة العزيز في حق يوسف: {فذلك الذي لم تنني فيه} (يوسف: ٣٢)، ف {فذلك} اسم إشارة للبعيد مع قرب يوسف منها، ولكنه إن كان قريباً بالمكان فهو بعيد في شرف الحسن خلقاً وخلقة.

وكذلك القرآن الكريم، لما عظمت رتبته في الشرف، أشير إليه بـ (ذلك) وقيل لبعده زمانه؛ لأنه وعد به في الكتب المنزلة قديماً، وأنه بعيد الزمان؛ لأنه كلام الله، وكلام الله قديم، فأشير إليه بذلك توضيحاً لقدمه وعدم حدوثه. ونضيف إلى رد القرآني السابق وهو يستند إلى فهم لغة القرآن الكريم، أن (ذلك) في قوله سبحانه وتعالى: {ذلك الكتاب} لو كان معناها الإشارة إلى البعد تاريخياً، لكان الأولى أن يشار بها إلى التوراة فهي أبعد تاريخياً من الإنجيل، أو يشار بها إلى صحف إبراهيم، فهي أبعد زمناً منهما، لكن لفظة (ذلك) في الآية، لا تشير إلى هذا ولا إلى ذاك، ولكنها تشير إلى القرآن، كما بين القرآني.

وهذه الجملة، تعد أول جملة تقابلنا في القرآن الكريم، إذا أخذنا في الاعتبار أن سورة البقرة، التي صدرت بهذه الجملة أول سورة مفصلة من سور القرآن، فساقتها هي فاتحة الكتاب، وهي كالمقدمة له، فكأن الله عز وجل يشير إلى الكتاب الذي بين يدي الإنسان المحاطب به، لبدأ التعريف به، وكأن تقدم تلميذك الذي تعتر به للآخرين، فتقول: ذلك التلميذ، لا شك في نجابته.

ولهذا نظير في القرآن الكريم، فقد ابتدأت سورة النور بقوله سبحانه وتعالى: {سورة أنزلناها} (النور: ١) إشارة إلى السورة نفسها، وقد افتتحت سورة لقمان والسجدة، بمثل هذه الافتتاحية، فقال سبحانه وتعالى: {الم (١) تلك آيات الكتاب الحكيم (٢)} {لقمان}، وقال سبحانه وتعالى: {الم (١) تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٢)} (السجدة)، وقد جاءت افتتاحية سورة البقرة، ولقمان، والسجدة، وبداية سورة يس، وص، والزمر، وجميع الحواميم بذكر الكتاب، فكل هذه السور مفتتحة بذكر الكتاب، والمعنى بها قطعاً وصراحة القرآن الكريم.

ذلك وقد سمي القرآن بـ "الكتاب" كثيراً في القرآن الكريم، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق} (النساء: ١٠٥)، وقوله: {كتاب أنزلناه إليك مبارك} (سورة ص: ٢٩)، وسمي "كتاباً"؛ لأنه يحفظ عن طريق كتابته، كما سمي "قرآناً"؛ لأنه يحفظ عن طريق قراءته.

ثانياً. عود (ذلك) على القرآن باتفاق المفسرين:

لقد اتفق المفسرون على عود اسم الإشارة (ذلك) على القرآن الكريم، في مفتتح سورة البقرة يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وعلى الأظهر تكون الإشارة إلى القرآن المعروف لديهم يومئذ. اسم الإشارة مبتدأ، و (الكتاب) بدل، وخبره ما بعده، فالإشارة إلى الكتاب النازل بالفعل، وهي السور المتقدمة على سورة البقرة؛ لأن كل ما نزل من القرآن فهو المعبر عنه بأنه القرآن وينضم إليه ما يلحق... ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع القرآن: ما نزل منه وما سينزل؛ لأن نزوله مترقب، فهو حاضر في الأذهان، فشبه بالحاضر في العيان، فالتعريف فيه للعهد التقديري^(١).

١٢ - كيف يمكن القول بأن عيسى لم يمت في الوقت الذي يؤكد فيه القرآن وفاته

في سورة آل عمران ؟

الجواب : فنحن غالباً ما نأخذ معنى الألفاظ من الغالب الشائع ، ثم نموت المعاني الأخرى في اللفظ ويروج المعنى الشائع . إن كلمة (التوفي) نفهمها على إنها الموت ، ولكن هذا اللفظ موضوع لمعان متعددة ، فيأخذ واحد ليجمعه خاصاً بواحد من هذه .

إن كلمة (التوفي) قد يأخذها واحداً للمعنى (الوفاة) وهو الموت، ولكن ألم يكن ربك الذي قال {إني متوفيك}؟ وهو القائل في (الأنعام : ٦٠): {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

إذن {يتوفاكم} هنا بأي معنى ؟ إنها بمعنى ينيمكم . فالنوم معنى من معاني التوفي ففي (الزمر : ٤٢): {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ} لقد سمي الحق النوم موتاً أيضاً . هذا من ناحية منطق القرآن ، إن منطق القرآن الكريم بين لنا أن كلمة (التوفي) ليس معناها هو الموت فقط ولكن لها معان أخرى ، إلا أنه غلب اللفظ عند المستعملين للغة على معنى فاستقل اللفظ عندهم بهذا المعنى ، فإذا ما أطلق اللفظ عند هؤلاء لا ينصرف إلا لهذا المعنى ، ولهؤلاء نقول : لا ، لا بد أن ندقق جيداً في اللفظ ولماذا جاء ؟

وقد يقول قائل : ولماذا يختار الله اللفظ هكذا ؟ والإجابة هي : لأن الأشياء التي قد يقف فيها العقل و لا تؤثر في الأحكام المطلوبة ويأتي فيها الله بأسلوب يحتمل هذا ، ويحتمل ذلك ، حتى لا يقف أحد في أمر لا يستأهل وقفة .

^١ - التحجير والتبوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، ج ١، ص ٢١٩. وراجع الأجوبة الفاحرة عن الأسئلة الفاحرة، القراني، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.

فالذي يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إلى السماء ما الذي زاد عليه من أحكام دينه ؟ والذي لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رُفِعَ ، ما الذي نقص عليه من أحكام دينه ، إن هذه القضية لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين ، لكن العقل قد يقف فيها ؟ فيقول قائل : كيف يصعد إلى السماء ؟ ويقول آخر : لقد توفاه الله . وليعتقد أي إنسان كما يريد لأنها لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين.

إذن ، فالأشياء التي لا تؤثر في الحكم المطلوب من الخلق يأتي بها الله بكلام يحتمل الفهم على أكثر من وجه حتى لا يترك العقل في حيرة أمام مسألة لا تضر ولا تنفع.

إن الحق سبحانه قد سمى النوم موتاً لأن النوم غيب عن حس الحياة، واللغة العربية توضح ذلك : فأنت تقول على سبيل المثال لمن أقرضته مبلغاً من المال، ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه.. فتقول: لا، لا بد أن أستوفي مالي، وعندما يُعطيك كل مالك، تقول له: استوفيت مالي تماماً، فتوفيته هنا تعني: أنك أخذت مالك بتمامه إذن معنى {متوفيك} قد يكون هو أخذك الشيء تاماً، {فمتوفيك} تعني مرة تمام الشيء، (كاستيفاء المال) وتعني مرة (النوم).

وحين يقول الحق : {إني متوفيك} ماذا يعني ذلك ؟ إنه سبحانه وتعالى يريد أن يقول: أريدك تاماً، أي أن خلقي لا يقدر على هدم بنييتك، إني طالبك إليّ تاماً ، لأنك في الأرض عرضه لأغيار البشر من البشر، لكني سآتي بك في مكان تكون خالصاً لي وحدي، لقد أخذتك من البشر تاماً، أي أن الروح في جسدك بكل مواصفاتها .

و قول: {ورافعك إليّ} هذا القول الحكيم يأتي مستقيماً مع قول الحق {متوفيك} وقد يقول قائل: لماذا نأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟

نقول : إن الحق بجلال قدرته كان قادر على أن يقول : إني رافعك إليّ ثم أتوفاك بعد ذلك . . . ونقول أيضاً : من الذي قال : إن (الواو) تقتضي الترتيب في الحدث ؟ ألم يقل الحق في [القمر: ١٦] : {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نَذْرِي} هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن (الواو) تفيد الجمع للحدثين فقط . وكذلك في (الأحزاب: ٧): {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ}

إن (الواو) لا تقتضي ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك قد أخذت {متوفيك} أي (ميتك)، فمن الذي قال : إن (الواو) تقتضي الترتيب في الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه .

فإذا قال قائل : ولماذا جاءت {متوفيك} أولاً ؟

نرد على ذلك : لأن البعض قد ظن أن الرفع تبرئه من الموت .ولكن عيسى عليه السلام سيموت قطعاً ، فالموت ضربه لازب ، ومسألة يمر بها كل بشر .

وفي الحديث المتفق عليه : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) ؟ أي أن النبي ﷺ بين لنا أن ابن مريم سينزل مرة أخرى .

ولنقف الآن وقفة عقلية لنواجه العقلانيين الذين يحاولون التعب في الدنيا فنقول : يا عقلانيون أقبليتم في بداية عيسى عليه السلام أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق في الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون : نعم .

هنا نقول : إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشيء عجيب خارق للنواميس فكيف تقفون في نهاية حياته إن كانت خارقة للنواميس ؟ إن الذي جعلكم تقبلون العجبية الأولى يمهّد لكم أن تقبلوا العجبية الثانية .

فآية كاملة : {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأُفْعِكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}

٣٤٢

قوله تعالى: {وأيدناه بروح القدس} هو جبريل على الأصح، ويدل لذلك قوله تعالى: {نزل به الروح الأمين} (الشعراء: ١٩٣) وقوله {فأرسلنا إليها روحنا} (مریم: ١٧)، هو الثابت والمروي عن جمع كبير من الصحابة والتابعين والمفسرين، ويؤيد هذا القول ما رواه الشيخان بسنديهما عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يا حسان أجب عن رسول الله، اللهم أيده بروح القدس" قال أبو هريرة: نعم^(١)، وقال ابن تيمية: قال جماهير العلماء إنه جبريل عليه السلام فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس وسماه جبريل^(٢) وعقد فصلاً في ذلك فقال:

فصل "في معنى روح القدس" قال تعالى: {يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس} (المائدة: ١١٠) ... فإن الله أيد المسيح عليه السلام بروح القدس كما ذكر ذلك في هذه الآية وقال تعالى في البقرة: {وأتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} (البقرة: ٨٧) وقال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وأتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} (البقرة: ٢٥٣) وهذا ليس مختصاً بالمسيح بل قد أيد غيره بذلك وقد ذكروا هم أنه قال لداود روحك القدس لا تنزع مني، وقد قال نبينا ﷺ لحسان بن ثابت: "اللهم أيده بروح القدس وفي لفظ روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه" وكلا اللفظين في الصحيح

وعند النصارى أن الحواريين حلت فيهم روح القدس وكذلك عندهم روح القدس حدث في جميع الأنبياء وقد قال تعالى (النحل: ١٠٢): {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} وقد قال تعالى في موضع آخر: {نزل به الروح الأمين على قلبك} (الشعراء: ١٩٣-١٩٤) وقال: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} (البقرة: ٩٧) فقد تبين أن روح القدس هنا جبريل .. قال: ولم يقل أحد أن المراد بذلك حياة الله ولا اللفظ يدل على ذلك ولا استعمل فيه.

إن تأييد الله لعيسى بروح القدس في القرآن ليس محصوراً به وأن القرآن قد ذكر أيضاً أن الله قد أيد نبينا محمداً ﷺ به. وأن آية النحل تفيد أن بِرُوحِ الْقُدُسِ هو اسم الذي كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ. وقد ورد هذا التعبير بلفظ الرُّوحِ الْأَمِينُ في آيات (الشعراء: ١٩٣) وفي آية سورة البقرة اسم جبريل بوصفه الذي كان ينزل بالقرآن حيث يكون التعبير في سورتي النحل والشعراء كناية عن جبريل، على أن المفسرين قالوا: وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ الْوَارِدَةِ فِي الْآيَةِ أَنْ تَأْيِيدَ اللَّهُ بِمَعْنَى تَأْيِيدِهِ بِرُوحِهِ وَقُوَّتِهِ وَنَصْرِهِ، وأنه بمعنى تأييد الله له بجبريل.

ولقد ورد تعبير (روح القدس) في الأناجيل الأربعة المتداولة اليوم والتي يعترف بها وحدها النصارى بأساليب ومناسبات متعددة بل وبمعان مختلفة أيضاً على ما يفيد السياق الذي وردت فيه. فمن ذلك ما ورد في سياق حبل مريم في إنجيل متى (لما خطبت مريم أمه ليوسف وجدت من قبل أن يجتمعا حبلى من الروح القدس). وفي إنجيل لوقا على لسان الذي بشر مريم بحبلها: (فأجاب الملاك وقال لها إن الروح القدس يحل عليك). ومن ذلك في إنجيل متى على لسان عيسى: (من قال كلمة على ابن البشر يغفر له وأما من قال على الروح القدس فلا يغفر له لا في هذا الدهر ولا في الآتي) وفي إنجيل مرقس على لسان عيسى أيضاً: (فإذا ساقوكم وأسلموكم فلا تهتموا من قبل بما تتكلمون به بل بما أعطيتكم في تلك الساعة تكلموا لأنكم لستم أنتم المتكلمين ولكن الروح القدس). و (وأما من جدف على الروح

^١ - موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشر ١٩٢/١ - ١٩٣) الناشر: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة - المدينة النبوية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م والحديث أخرجه البخاري (٤٥٣) باب الشعر في المسجد ومسلم ح (٢٤٨٥) باب فضائل حسان بن ثابت.

^٢ - دقائق التفسير ج: ١ ص: ٣١٠ و ج: ٢ ص: ٩٢) المحقق: د. محمد السيد الجليلي، الناشر: مؤسسة علوم القرآن - دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤

القدس فلا مغفرة له). وفي إنجيل لوقا (ورجع يسوع من الأردن وهو ممتلىء بالروح القدس). وفي إنجيل يوحنا على لسان يوحنا المعمدان الذي هو النبي يحيى في القرآن: (إن الذي ترى الروح ينزل ويستقر عليه هو الذي يعمد بالروح القدس). وبعض هذه العبارات الانجيلية قد يفيد أن روح القدس شخصية إلهية مقدسة. كما قد يفيد بعضها أنه روح ربانية تنزل لتأييد الأشخاص المؤمنين. أو أنه رسول رباني لتنفيذ أوامر الله وهذا المعنى الأخير مطابق لما جاء في القرآن على ما شرحناه في سياق تفسير سورة مريم.

ومعلوم أن هذا التعبير في العقيدة النصرانية يعني أحد أقانيم أو صور الذات الإلهية التي هي الأب والابن وروح القدس. وهذه الألفاظ وردت في الأناجيل المتداولة. ولكن تلك العقيدة ليست محبوبة بشكلها الراهن في أي إنجيل، وإنما هي من قرارات مجامع دينية انعقدت في القرن الرابع بعد الميلاد بأمر ورعاية الامبراطور الروماني بسبب ما كان بين رجال الدين النصراني من خلافات حول لاهوتية المسيح والروح القدس، والمرجح أن هذا التعبير كان مستعملاً من قبل نصارى العرب قبل الإسلام ترجمة عن اللغة الإنجيلية السريانية أو اليونانية.

ومهما يكن من أمر فالذي يتبادر لنا أن التعبير القرآني يضع الأمر في نصابه من وجهة نظر القرآن والعقيدة الإسلامية في عيسى حيث ينطوي في الجملة التي جاء فيها تقرير كون عيسى رسول من رسل الله وأن الجملة تعني تأييد الله إياه بروح وقوة منه اقتضت حكمة التنزيل تسميتها بروح القدس ولا ضير على المسلم بل من واجبه أن يستعمل هذه التسمية في التعبير عن تأييد الله تعالى لعيسى لأن ذلك نص قرآني، مع الوقوف عند ذلك وإيكال مدى هذه الحكمة لله تعالى ودون أن يكون ذلك من المسلم تسليماً منه بما استقرت عليه عقائد النصارى الجمعية من مدى ومعنى روح القدس لأن فحوى الجملة وروحها ومقامها في القرآن لا يمكن أن يتحمل ذلك. وهي صريحة كل الصراحة بأن روح القدس الذي يؤيد الله به عيسى غير ذاته وليس جزءاً منه أو صورة له بأي حال كما هو في تلك العقائد. والقرآن هو الضابط المهيمن على الكتب السماوية التي ينسبها أهل الكتاب إلى الله ويتداولونها كما جاء صراحة في آية سورة المائدة: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَمَا يقرره هو الحق.^(١)

١٤ - لم تنزل مائدة من السماء!!

يقول القرآن: إن الحواريين طلبوا مائدة من السماء، وأن الله قال إني منزلها عليكم ولا يقول الإنجيل: إن تلاميذ المسيح طلبوا منه آية من السماء، ولا يقول: إن مائدة نزلت من السماء!! وهذه القضية دليل أن القرآن أخذ من الإنجيل لكن فهمه بشكل خاطئ!!

الجواب: لو كان القرآن مقتبساً من أي مصدر لنقل خرافاتهم كما هي، أو على الأقل لما تخلص مما تحمله من أمور لا يقبلها عقل عاقل، وإلا فأى الأمرين أبعد في الاستحالة العقلية: أن يتحول الخبز إلى جسد المسيح، والخمر إلى دمه، كما جاء في إنجيل متى (٢٦: ٢٦-٢٨)، هل هذا يقبله عاقل؟ أن يكون الخبز جسداً، والخمر المسكر دماً؟! وإن المعترض غير دارس للإنجيل وغير دارس للتوراة. وذلك لأن في إنجيل يوحنا أن الحواريين طلبوا آية من السماء " فقالوا له: فأية آية تصنع ؛ لنرى ونؤمن بك ؟ ماذا تعمل ؟ آباؤنا أكلوا المنّ في البرية. كما هو مكتوب: أنه "أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا"، يوحنا (٦: ٣١-٣٠)، إنهم طلبوا مائدة من السماء ؛ لأنهم قالوا: " آباؤنا أكلوا المن في البرية "

^١ - التفسير الحديث ، محمد عزت دروزة ٦ / ١٩٨ الناشر: دار إحياء الكتب العربية - القاهرة الطبعة: ١٣٨٣ هـ

بعد قولهم " فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ؟ " واستدلوا على أكل آبائهم للذين بقولهم مكتوب في التوراة أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا.

وهذا يدل على أن آباءهم أكلوا المن والسلوى في سيناء، والنص هو: " وأمطر عليهم مناً للأكل وبرّ السماء أعطاهم " (مزمور ٧٨: ٢٤)، فهل نزل المنّ من السماء ؟ وقد سماه داود مائدة في قوله عنهم: " قالو: هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية ؟ " (مز ٧٨: ١٩) فمعنى نزوله من السماء: أنه من جهة الله لا من جهة إله آخر. ونص إنجيل يوحنا يبين أنهم طلبوا مائدة من السماء. ذلك قوله: " أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا " فإذا بارك الله في طعام من الأرض ليشبع خلقاً كثيراً؛ فإنه يكون مائدة من السماء. كالمنازل من السماء. وهو لم ينزل من السماء وإنما كان على ورق الشجر، وكالسلوى.

ومن أعجب العجب: أن مؤلف الإنجيل قال كلاماً عن المسيح في شأن محمد رسول الله لا يختلف اثنان في دلالة عليه ﷺ وقد استدلل المسيح فيه عليه ﷺ بنص في الإصحاح الرابع والخمسين من سفر إشعياء. ويقول المعارض: ولعلّ قصة القرآن عن نزول مائدة من السماء نشأت عن عدم فهم بعض آيات الإنجيل الواردة في متى ٢٦ ومرقس ٢٤ ولوقا ٢٢ ويوحنا ١٣. وغرضه من قوله هذا أن لا يعرف المسلمون موضع المائدة من الأناجيل لأنها بصدد كلام من المسيح في شأن محمد رسول الله، وموضعها الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا^(١).

يقول الأستاذ دروزة: قصة المائدة لم ترد في الأناجيل المتداولة على الوجه الذي جاءت عليه في الآيات أو مقارب له. وإنما ورد فيها قصة معجزة لعيسى عليه السلام حيث قدّم لجمع يبلغ خمسة آلاف خمسة أرغفة وسمكتين بعد أن قطعها فأكلوا وشبعوا وبقي من الكسر ما ملأ اثنتي عشرة قفة أو سبعة سلال^(٢). وفي الإصحاح العاشر من سفر أعمال الرسل من ملحقات الأناجيل التي سُمّي مجموعها العهد الجديد قصة فيها شيء مقارب فيها «إن سمعان أحد حواربي المسيح الملقب بطرس كان في الطريق إلى يافا فجاء ووقع عليه انجذاب فرأى السماء مفتوحة ووعاء هابطاً كأنه سماط عظيم معقود من أطرافه الأربعة ومدلى على الأرض وكان فيه من كل ذوات الأربع ودواب الأرض وطيور السماء وإذا بصوت يقول قم يا بطرس اذبح وكل فقال بطرس حاشا يا رب فإني لم أكل قط نجساً أو دنساً فخطابه الصوت ثانية ما طهره الله لا تنجسه أنت. وحدث هذا ثلاث مرات ثم رفع الوعاء إلى السماء»^(٣). غير أن المتبادر أن هذه القصة وتلك ليستا هما المائدة القرآنية. ويوجد في بيت المقدس مكان تقليدي يحترمه المسلمون والنصارى معا يعرف ببيت المائدة في العمارة المعروفة بالنبي داود حيث قد يفيد هذا أن النصارى أو فريقاً منهم كانوا يتداولون خبر معجزة مائدة نزلت من السماء على المسيح والحواريين جيلاً عن جيل. والروايات المأثورة عن زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقطع النظر عما فيها من غرابة قد تدل على أن قصة هذه المعجزة لم تكن مجهولة.

ونحن نعتقد أن أهل بيعة النبي ﷺ قد عرفوها عن طريق النصارى كما نعتقد أنها كانت واردة في بعض أسفارهم التي لم تصل إلى عهدنا. والقصة إنما ذكرت في القرآن بأسلوب خاطف لا بيان فيه على سبيل التذكير والاستطراد على ما يلهمه أسلوب الآيات وفحواها. ولا بدّ من أنها كانت معروفة في الوسط الذي كانت تتلى فيه لأن هدف القرآن التذكيري إنما يتحقق بذلك. وعلى كل حال فالإيمان بما أخبر القرآن به من خبر المائدة وما دار من حوار بين عيسى عليه السلام والحواريين في صدها ودعاء عيسى لله وجواب الله واجب^(٤).

^١ - حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٦م، ص ٥١١، ٥١٢.

^٢ - انظر إنجيل متى الإصحاح ٦ ويوحنا الإصحاح ١٥ ومرقس الإصحاح ٦ ولوقا الإصحاح ٩.

^٣ - النص منقول من النسخة الكاثوليكية.

^٤ - التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٩ / ٢٦٢ مرجع سابق.

لذا نقول إن الأناجيل تثبت طلب الحوارين آية من السماء وهي المائدة: والمائدة لا تكون مائدة إلا إذا كان عليها طعام، فإن لم يكن عليها طعام، فهي طاولة، وخوان، ويسمى الطعام أيضا مائدة تجاوزا؛ لأنه يؤكل على المائدة، وعن مائدة عيسى يأتي في إنجيل متى: "وأما يسوع فدعا تلاميذه وقال: «إني أشفق على الجمع، لأن الآن لهم ثلاثة أيام يمكنون معي وليس لهم ما يأكلون. ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا (يضعفوا) في الطريق» فقال له تلاميذه: «من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار، حتى يشبع جمعا هذا عدده؟» فقال لهم يسوع: «كم عندكم من الخبز؟» فقالوا: «سبعة وقليل من صغار السمك». فأمر الجمع أن يتكئوا على الأرض، وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكر وكسر وأعطى تلاميذه، والتلاميذ أعطوا الجمع. فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد. ثم صرف الجمع وصعد إلى السفينة وجاء إلى تخوم مجدل". (متى ١٥: ٣٢ - ٣٩).

وفي إنجيل لوقا يشترط المسيح للمائدة، فيقول: "إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدع أصدقاءك ولا إخوانك ولا أقربائك ولا الجيران الأغنياء، لئلا يدعوك هم أيضا، فتكون لك مكافأة. بل إذا صنعت ضيافة فادع: المساكين، الجذع، العرج، العمي، فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافؤك، لأنك تكافى في قيامة الأبرار". (لوقا ١٤: ١٢ - ١٤). وفي إنجيل يوحنا: "وكان الفصح، عيد اليهود، قريبا. فرجع يسوع عينيّه ونظر أن جمعا كثيرا مقبل إليه، فقال لفيلبس: «من أين نبتاع خبزا ليأكل هؤلاء؟» وإنما قال هذا ليمتحنه، لأنه هو علم ما هو مزعم أن يفعل. أجابه فيلبس: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئا يسيرا». قال له واحد من تلاميذه، وهو أندراوس أخو سمعان بطرس: «هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان، ولكن ما هذا لمثل هؤلاء؟» فقال يسوع: «اجعلوا الناس يتكئون». وكان في المكان عشب كثير، فاتكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف. وأخذ يسوع الأرغفة وشكر، ووزع على التلاميذ، والتلاميذ أعطوا المتكئين. وكذلك من السمكتين بقدر ما شاءوا. فلما شبعوا، قال لتلاميذه: «اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء». فجمعوا وملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر، من خمسة أرغفة الشعير، التي فضلت عن الآكلين. فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم!" (يوحنا ٦: ٤ - ١٤)^(١).

ومما يستفاد من هذه الروايات أنهم كانوا صياما، وأن المدعويين هم الفقراء والمحتاجون، والدرس المستفاد هو ما قاله الناس: "هذا حقا هو النبي الآتي إلى العالم".

١٥- الاستدلال بالآية ١٤٦ من سورة البقرة على عدم تحريف الإنجيل .

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة: ١٤٦) قالوا: هذه الآية تعد دليلا قويا أن الكتاب كان موجودا في وقت نبي الإسلام، بعد ٦٠٠ سنة من رسالة الإنجيل وهي تعد دليلا على أن الإنجيل كانت له أصولا في هذا الوقت، والسؤال هو: هل يقصد نبي الإسلام الإنجيل المنزل على المسيح عيسى بن مريم وهو التعبير الذي يستخدمه القرآن أم الأناجيل الأربع الموجودة بين أيدينا، أم الكتاب المقدس ككل والذي نستخدمه الآن، وهل يقصد التوراة المنزل على موسى كتعبير القرآن أم كتاب العهد القديم الموجود بين أيدينا .

^١ - موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المعظم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ج١، ص١١٣٥، ١١٣٥.

يحاول المسلم التفريق بين التعبير التوراة المنزل على موسى والإنجيل المنزل على عيسى وبين الكتب الموجودة في أيدينا زاعماً أن هذه الكتب المنزلة هي الكتب الأصلية. والسؤال إذا كانت هذه الكتب هي الأصلية وليست الموجودة بين أيدينا فهي لابد وأن يكون لها أصول في القرن السادس الميلادي بناء على هذه الآية... فكيف يكون لها وجود في القرن السادس مع مسيحيين ويهود الجزيرة العربية وتختفي تماماً بعد هذا؟ علمياً مستحيل اختفاؤها ولا بد أن يكون لها أصول من المخطوطات.

ولكن الواقع يقول أنه لا يوجد كتاب اسمه الإنجيل المنزل على عيسى ولكن يوجد لدي المسيحيين الكتاب المقدس، إذا فهذا الكتاب هو ما يقصده القرآن بتعبير {آتيناهم الكتاب}

وإذا كان القرآن يقصد الإنجيل الذي بين أيدينا فبناء على هذه الآية الإنجيل صحيح وغير محرف... إذ أن هناك من أهل الكتاب من يعرفونه معرفة تامة في وقت رسالة نبي الإسلام. إذا علينا أن نحضر المخطوطات التي كانت موجودة في القرن السادس ومطابقتها بالتي هي بين أيدينا... وسنكتشف أنها متطابقة... وبالتالي يجب علينا أن نعتز بصديق الإنجيل الذي بين أيدينا دون تحريف... لأنه إذا قلنا أن الإنجيل حرف يكون السؤال متى؟ فإذا كانت الإجابة قبل نزول القرآن نجعل القرآن كاذباً وهذا ما لا يرضاه أي مسلم.

الجواب :

الكاتب قد قفز مرة واحدة من الآية إلى الاستنتاج دون أن يوضح لقرائه كيف توصل لهذا الاستنتاج الذي غاب عن المسلمين شرقاً وغرباً و شمالاً وجنوباً على مدار ١٤ قرناً من الزمان! أقل واجب هو أن يوضح الكاتب لقرائه كيف توصل إلى استنتاجه ، أليس كذلك ؟ والعجيب أنه بعد أن وضع المقدمة العقلية العارية من البرهان التي هي وجود الكتب الصحيحة اللامحرفة في أيدي أهل الكتاب انطلق يسرد قضيته ويفصلها ويقعدها ويوصلها وكأن توضيح كيفية وصوله لمقدمته هو أمر مفروغ منه !

في البداية نقول : الضمير في قوله { يعرفونه } لا يعود على الكتاب بل على النبي ﷺ؛ فلو راجع أبسط التفاسير وأوضحها مثل تفسير الجلالين لما وقع في غلط فاضح : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ } أي محمداً { كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } بنعته في كتبهم قال ابن سلام: (لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ومعرفتي لمحمد أشد)

وفي الكشف للزمخشري^(١) : { يَعْرِفُونَهُ } يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جليلة يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص { كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } لا يشتبه عليهم أبناءهم وأبناء غيرهم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني بابني. قال: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي. فأما ولدي، فلعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه. وحاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع ، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه معلوماً بغير إعلام . وقيل: الضمير للعلم أو القرآن أو تحويل القبلة.

وفي تفسير النسفي^(٢) : { يَعْرِفُونَهُ } أي محمداً عليه السلام أو القرآن أو تحويل القبلة. والأول أظهر لقوله { كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } قال عبد الله بن سلام: أنا أعلم به مني بابني فقال له عمر: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه.

^١ - الكشف للزمخشري ج ١ ص ٢٠٤ . مرجع سابق .

^٢ - تفسير النسفي (ج ١ ص ١٤١) . راجعه وقدم له: محي الدين ديب مستو الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

وفي تفسير البيضاوي^(١): { يَعْرِفُونَهُ } الضمير لرسول الله وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه. وقيل للعلم، أو القرآن، أو التحويل { كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } يشهد للأول: أي يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم. عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سأل عبد الله بن سلام، عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني بابني قال: ولم، قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت.

وبناءً على هذه الشواهد تنمحي القضية التي بنى عليها الكاتب النصراني قضيته؛ فالذي يعرفه أهل الكتاب كأبنائهم هو الرسول ﷺ وليس الكتب الموجودة في أيدي أهل الكتاب، لكن: دعنا نفترض جدلاً - أقول جدلاً - أن الرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم قد شهدا للكتاب المقدس بالأصالة وعدم التحريف، هنا يبرز السؤال: أي كتاب مقدس شهدا له؟؟

هل هو الكتاب المقدس للكنيسة الأرثوذكسية القبطية؟ أم الأرثوذكسية اليونانية؟ أم الكاثوليكية الرومانية؟ أم السيريانية؟ أم الأثيوبية؟ أم ربما هو الكتاب المقدس للكنيسة البروتستانتية؟ وكل كنيسة كتاب مقدس! نعود لكاتب المقال مرة أخرى، وهذه المرة لنناقش اعتراضه على كون أهل الكتاب يعرفون الرسول عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم والرد - ببساطة - هو شهادة حبر إسرائيلي جليل معاصر للرسول في مقام عبد الله بن سلام والذي شهد له يهود المدينة بالعلم، بل والرياسة في العلم، وكذلك دخول الآلاف المؤلفة من النصراني في الإسلام من أهل مصر والشام والعراق على أيدي الفاتحين المسلمين ولم يكن هذا إلا لأنهم وجدوا هذا تحقيقاً للنبوءات التي علموها من كتابهم (رغم تحريف العديد من المواضع فيه) وقرأ إن شئت كتبهم التي فضلوا وشرحوا هذه النبوءات بدءاً من (الدين و الدولة) لابن ربان الطبري و انتهاءً بكتاب (محمد في الكتاب المقدس) لعبد الأحد داود (بنجامين كلداني سابقاً). ومن المعاصرين الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم محمد زكي النجار صاحب كتاب (المنارات الساطعة في ظلمات الدنيا الحالكه) و كان أسقفاً مصرياً بطهطا و الدكتور إبراهيم خليل محمد صاحب كتاب (محمد في التوراة والإنجيل و القرآن) و كان قسيساً مصرياً أسلم و أبناءه الأربعة في منتصف القرن العشرين و واصف سليمان الراعي صاحب كتاب (كنت نصرانياً) و غيرهم .. هؤلاء هم الذين أتاهم الله الكتاب و يعرفونه كما يعرفون أبناءهم و ليسوا من المعاندين ككاتب هذا المقال نرجو له الهداية .

١٦- ما معنى (حتى يقيموا التوراة و الإنجيل)؟؟

يقول الله تعالى { قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليكم من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الفاسقين } (المائدة: ٦٨) وإشكالي في كون الله عز وجل أخبر عن أهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل ومعلوم أن القرآن نسخ الكتب السابقة والخطاب كان موجهاً في الآية لمن هم في زمن النبي ﷺ .

الجواب: تم شرح معنى الآية والرد على ما فهموا منها في خلال الشبهات السابقة وتختصر: المقصود بالتوراة والإنجيل هنا هي الكتب قبل التبديل والتحريف فلا سبيل لإقامتها إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم المهيمن الذي يشهد لما أنزله الله فيهما ويشهد على ما حرفه الناس فيهما وهذا ما أخبرنا به الله في سورة المائدة في قوله تعالى "مهيماً عليه"

^١ - البيضاوي (ج ١ ص ١١٢) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي

فما وافق القرآن هو صدق أنزله الله وما خالفه كذب وما لم يوافقه ولم يخالفه نتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه، أما المقصود بقوله تعالى {وما أنزل إليكم من ربكم} فهو القرآن الكريم فهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح والقرآن المنزل وهذا كله لا يمكن بلوغه إلا بالقرآن المصدق المهيم .

قال ابن حزم^(١): وأما قول الله عز وجل {يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم} فحق لا مرية فيه وهكذا نقول ولا سبيل لهم إلى إقامتها أبداً لرفع ما أسقطوا منها فليسوا على شيء إلا بالإيمان محمد ﷺ فيكونون حينئذ مقيمين للتوراة والإنجيل كلهم يؤمنون حينئذ بما أنزل الله منهما وجد أو عدم ويكذبون بما يدل فيهما مما لم ينزله الله تعالى فيهما وهذه هي إقامتهما حقاً فلاح صدق قولنا موافقاً لنص الآية بلا تأويل .

١٧ - معنى الإحتكام لكتب القوم في قوله: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين

يقرؤون الكتاب من قبلك} (يونس : ٩٤).

تم التفصيل في شرح الآية والرد على الشبهة التنصيرية خلال الشبهات السابقة حول المسيحية ونختصر: لفظة (إن) لا تفيد أي تحقق لوقوع الشك من النبي ﷺ، إذ قد يعلق الحال بـ (إن)، كما في قوله تعالى: {قُلْ (أي يا محمد) إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} (الزخرف: ٨١)، وقوله: {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ (يا محمد) إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ} (الأنعام: ٣٥) وقد فسر العلماء مقصود الآية بقولين يكمل أحدهما الآخر:

الأول: أن المقصود بالسؤال هم المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما: (الذين أدركوا محمداً ﷺ من أهل الكتاب فآمنوا به .. فاسألهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم)^(٢).
الثاني: أن المقصود في الآية ليس أمر النبي بالسؤال، بل الخطاب في ظاهره للنبي ﷺ، والمراد به غيره من المشركين، على عادة العرب في الخطاب "إياك أعني واسمعي يا جارة"^(٣) ومثله في القرآن كثير، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} (الأحزاب: ١)، وقال: {وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الزمر: ٦٥)، وقال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ} (الطلاق: ١). وهذا الوجه صححه الطبري، واستدل له الرازي بقول الله تعالى في آخر السورة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} (يونس: ١٠٤)، وقال: "فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح، فثبت أن الحق هو أن الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ؛ إلا أن المراد الأمة، ومثل هذا معتاد، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص، فإنه لا يوجه خطابه عليهم، بل يوجه ذلك الخطاب إلى ذلك الأمير الذي جعله أميراً عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم"^(٤)، بقي أن نشير إلى أن الأمر بالسؤال ليس على ظاهره، فإن العرب تستخدم طلب السؤال؛ بمعنى تأكيد الأمر، ولا تريد طلب السؤال حقيقة، ومنه قول الشاعر:

سلوا الليل عني مذ تناءت دياركم ... هل اكتحلت بالغمض لي فيه أجفان.

وقول الآخر: سلوا نسيمات الريح كم قد تحملت ... محبة صب شوقه ليس يكتم.

^١ - ابن حزم في الفصل بين الملل والنحل ج ١ ص ١٥٨ مرجع سابق .

^٢ - جامع البيان، الطبري (١٥ / ٢٠١). مرجع سابق تحقيق شاکر، نشر مؤسسة الرسالة .

^٣ - انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (١٦٧).

^٤ - التفسير الكبير، الرازي (١٧ / ٣٠٠). مرجع سابق .

فهذان وأضرابهما لا يراد منه في لغة العرب حقيقة السؤال، إذ كيف يُسأل الليل أو نسيمات الريح، إنما يراد تأكيد تلك المعاني التي طلب السؤال عنها، ومثله في القرآن قوله تعالى: {سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ} (القلم: ٤٠)، وقوله: {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا} (الزخرف: ٤٥)، وقوله: {وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} (الأعراف: ١٦٣)، ففي كل هذا لم يطلب الله من النبي ﷺ حقيقة السؤال، إنما قصد الإخبار وتأكيد صدق هذه المعاني والأخبار التي ذكرها الله تبارك وتعالى في القرآن.

وأما قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النحل: ٤٣)، فهو خطاب من الله للمشركين المنكرين للنبوة؛ المستغربين نزول الوحي على رجل، فقد نبههم الله إلى أن نزول الوحي على بشر أمر معهود تعرفه البشرية، ودعاهم إلى سؤال أهل الكتاب للتأكد من حقيقته والوقوف على جلالته، يقول ابن القيم: "فبقاؤهم [أي أهل الكتاب] من أقوى الحجج على منكر النبوات والمعاد والتوحيد، وقد قال تعالى لمنكري ذلك {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} .. يعني سلوا أهل الكتاب: هل أرسلنا قبل محمد رجلاً يوحي إليهم أم كان محمد بدعاً من الرسل لم يتقدمه رسول حتى يكون إرساله أمراً منكراً؟"^١.

وهكذا فالآية تجعل من شهادة أهل الكتاب دليلاً ناهضاً للاحتجاج على مشركي مكة في مسألة نبوة النبي ﷺ، وهو معنى تكرر في مواضع أخرى من القرآن، كقوله: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} (الرعد: ٤٣).

وايضاً هم قالو كيف ينزل الكتاب على بشر واستنكروا ذلك بحجة ان الذي اتى بالكتاب الانجيل لديهم ابن الله وهذا الله رد عليهم به وقال : {قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا} (الإسراء : ٩٥).

وهنا الدليل على انه يا محمد من ينكر عليك انك رسول بشر فأسال الذين لديهم الكتاب هل ارسلنا عليهم بشرا ام ملاكا فأن كان بشرا فلما تستكبرون ان اكون رسول بشرا مثلكم ؟ وان كان ملاك فان صفة المعية للملاك مختلفة عن البشر ذلك بان الملاك وجب ان يكون من صنفه لكي يرويه ويكلموه ويفهموا منه فان معية الملاك مختلفة عن معية البشر ولذلك الله يرسل لكل جنس من جنسه وحتى لما جاء جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام قال الله فتمثل لها بشرا سويا يعني اخذ شكل بشر معتدل حتى تستطيع ان تراه ويكلمها لكي تكون الرسالة واضحة .

وهنا الله يخبر نبيه الكريم انه يا اهل الكتاب هل الذين اتو من قبلي كانوا بشرا ام ملائكة؟ ولهذا قال هاهنا { قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين } أي كما أنتم فيها { لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا } أي من جنسهم ولما كنتم أنتم بشرا بعثنا فيكم رسلا منكم لطفاً ورحمة .

وهذا الرد انه ليس المقصود اسألهم يا محمد واحتكم بما في كتبهم بل يقول الله : لو عارضوك فقل هاتوا كتبكم لنرى هل الحكم موجود به الذي عارضتم عليه ام لا فإن كان موجودا فلما تعترضون على ما هو أصلا موجود بكتبكم وترفضونه ؟ فهذه حجة عليكم ايها النصارى وليست لكم فقد رفضتم الجزية وهى مدونه فى كتابكم لما قال المسيح فأعطوا الجميع حقوقهم الجزية لمن له الجزية والكرامة لمن له الكرامة والاكرام لمن له الاكرام فلما تعترضون عليها والمسيح قال انه حق من الحقوق ولم يقل كسب بالغصب .

^١ - أحكام أهل الذمة، ابن القيم (٩٧/١). مرجع سابق .

١٨-دعوى عدم حسم القرآن مسألة صلب المسيح عليه السلام

إن القرآن لم يكن حاسماً في إثبات صلب المسيح، ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ (النساء: ١٥٧) حيث يدعون أنه يعارض قول الله على لسان المسيح: ﴿فلما توفيتني﴾ (المائدة: ١١٧)، مستنكرين الجمع بين إنكار صلب المسيح، وإلقاء الشبه على غيره وصلبه بدلاً منه، ونجاته من الصلب مع الإقرار بوفاة عليه السلام. ويسوقون قول الإمام الرازي لتقوية زعمهم: لو كان الله يلقي شبه إنسان على آخر لاختلت الموازين. ويتساءلون: هل يصح أن يخلط القرآن في حديثه عن أحد أنبياء الله بهذه الصورة؟!

نقاط المناقشة:

- عرض القرآن في سورة النساء يؤكد نجاة المسيح برفعه إلى السماء من القتل والصلب، وعقيدة المسلمين في خاتمة المسيح يسيرة لا تعقيد فيها، خلافاً لعقيدة النصارى.
- القرآن يقدم على الإنجيل في حادثة رفع المسيح وغيرها؛ لخلوه من الخلط والأباطيل، ولعصمته من التحريف، ولتواتره القطعي الثبوت، خلافاً للإنجيل.
- الأدلة العقلية تؤكد نفي صلب المسيح وترد كل ما يقال عن قصة صلبه المزعومة.
- تعارض أقوال وأفعال المسيح في الإنجيل مع عقيدة الصلب والفداء عند النصارى، يؤكد عدم صلاحية الإنجيل كمرجعية لإثبات حادثة الصلب أو غيرها.
- مصادر مسيحية تؤكد نجاة المسيح من الصلب، ووقوعه على شبهه.
- اختلاف الأناجيل في مسألة الصلب يؤكد أن المسيح لم يصلب.
- تنبؤات المسيح في الكتاب المقدس بنجاته من القتل!
- شخصية المسيح لا تتلاقى مع النهاية الاستسلامية التي صنعها كتاب الأناجيل.
- هناك طوائف نصرانية متعددة تنكر صلب المسيح!
- مسألة الصلب بين إقرار بولس ونفي المسيح، أيهما يصدق النصارى؟!
- نهاية يهوذا خير شاهد على صدق القرآن وتحريف الإنجيل، ونجاة المسيح.
- كلام الإمام الرازي مقطوع من السياق، إيهاما للمسلمين أنه ينكر أن عيسى شبه لهم، ولو رجعت إلى مصدر كلامه لعلمت تدليس المدلسين.

التفصيل:

أولاً. عرض القرآن في سورة النساء يؤكد الرفع وينفي قتل المسيح وصلبه:

التبس على النصارى صلب عيسى كما التبس على اليهود.. وحل القرآن الإشكال، وأزال اللبس، لكن النصارى لم يصدقوا القرآن. قال الله عز وجل: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً (١٥٨)﴾ (النساء).

واعترض النصارى على نفي القرآن قتل عيسى وصلبه، واعتبروه خطأ وقع فيه القرآن، واستغرب كثير منهم إنكار القرآن أمراً مجمعا عليه بين اليهود والنصارى، واليونان، والرومان. ويتساءلون: "لماذا ينكر القرآن صلب المسيح وقته

بأيدي اليهود، مع أن اليهود يعترفون بذلك، والنصارى يؤكدونه ويفتخرون به؟ ومدار الإنجيل كله على خبر صلب المسيح والبشارة به، كفاد للبشر؟

ويدعون أن القرآن ذكر في مواضع أخرى موت المسيح وقيامته، وارتفاعه إلى السماء، كقوله سبحانه وتعالى: {إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي} (آل عمران: ٥٥)، وفيه يقول المسيح: {فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم} (المائدة: ١١٧)، ويقول أيضا: {والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (٣٣)} (مریم). ويقولون: أليس غريبا أن يجيء من ينكر صلب المسيح بعد حدوثه بستمائة سنة؟! إن حادثة الصلب حقيقة تاريخية، سجلها اليونان، والرومان، واليهود، والمسيحيون... وفي "مجمع نيقية" الذي انعقد سنة (٣٢٥م)، كتب أساقفة العالم المسيحي قانون الإيمان مقرين صلب المسيح!

يؤمن كل النصارى أن اليهود والرومان قتلوا عيسى وصلبوه، وأن روحه خرجت على الصليب، وبعد ثلاثة أيام من دفنه ردت إليه روحه، فقام من قبره، وصعد إلى السماء! وكان اليهود يتباهون ويتفاخرون بقتل عيسى قال سبحانه وتعالى: {وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} (النساء: ١٥٧). أما النصارى فقد جعلوا الصليب جزءا من عقيدتهم ودينهم، والشعار المميز لهم عن باقي أتباع الأديان، ووضعوا الصليب في أعناقهم وعلى كنائسهم، وملابسهم، ومرافق حياتهم، فإذا نفى القرآن صلب عيسى نفيا صريحا، فإن النصرانية تنهاى من أساسها. أما القرآن الكريم فقد نفى صلب عيسى وكذب اليهود في ادعاء ذلك.

ويقرر القرآن أن المختلفين في موضوع القتل والصلب من اليهود والنصارى في شك منه لم يصلوا إلى اليقين؛ لأنهم لا ينطلقون من العلم، وإنما يتبعون الظن، والظن لا يوصل إلى يقين قال سبحانه وتعالى: {وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن} (النساء: ١٥٧). ويؤكد القرآن مرة أخرى أنهم لم يقتلوا عيسى يقينا؛ لأن الله العزيز الحكيم رفعه إليه قال سبحانه وتعالى: {وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما (١٥٨)} (النساء).

لقد أراد اليهود الرومان صلب عيسى ولكن الله حماه وعصمه منهم، ورفعهم إلى السماء، أما هم فقد صلبوا رجلا آخر، وكل ظنهم أنه عيسى! فقال اليهود متبحرين: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله عليه السلام، أما معنى قوله سبحانه وتعالى: {ولكن شبه لهم} شبه لهم أمر الصلب والقتل، والتبس عليهم، وهذا معناه أنهم قتلوا وصلبوا شخصا آخر سوى عيسى ومعنى قوله سبحانه وتعالى: {وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه} (النساء) لم يقتل اليهود عيسى يقينا، ولم يكن الشخص المقتول المصلوب عيسى حقيقة، إنما كان شخصا آخر غيره، بينما كان عيسى في السماء^(١).

يقول الإمام محمد رشيد رضا في تفسيره لآيات سورة النساء: (وما قتلوه وما صلبوه) أي: والحال أنهم ما قتلوه، كما زعموا تبجحا بالجريمة، وما صلبوه كما ادعوا وشاع بين الناس: (ولكن شبه لهم) أي: وقع لهم الشبهة، أو الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى، وإنما صلبوا غيره، ومثل هذا الشبه أو الاشتباه يقع في كل زمان كما سنبينه قريبا (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) أي: وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب في شك من حقيقة أمره، أي: في حيرة وتردد ما لهم به من علم ثابت قطعي، لكنهم يتبعون الظن أي القرائن التي

^١ - بالنسبة لعقيدة الصلب والفداء: هي عقيدة عند النصارى في عيسى . عليه السلام . أنه صلب وتحمل الآلام؛ ليفدي البشرية من خطيئة آدم . عليه السلام . والتي لم تكن لتكفر في نظرهم إلا بصلبه، وإن المرء ليعجب من الاختلاف الكبير من قبل الأنجيل في إيراد هذه القصة، ولو صح أن هذا أساس وأن المسيح أتى له، لكان اهتمامهم بدونه متساويا أو متقاربا، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٨٤: ١٨٦.

ترجح بعض الآراء الخلافية على بعض، فالشك الذي هو التردد بين أمرين شامل لمجموعهم لا لكل فرد من أفرادهم، هذا إذا كان كما يقول علماء المنطق لا يستعمل إلا فيما تساوى طرفاه بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر، والذين يتبعون الظن في أمرهم هم أفراد رجحوا بعض ما وقع الاختلاف فيه على بعض القرائن أو بالهوى والميل، والصواب أن هذا معنى اصطلاحى للشك. وأما معناه في أصل اللغة فهو نحو من معنى الجهل، وعدم استبانة ما يجول في ذهن من الأمر، وفي لسان العرب: أن الشك ضد اليقين، فهو إذن يشمل الظن في اصطلاح أهل المنطق، وهو ما ترجح أحد طرفيه. فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أكان هو المصلوب، أم غيره؟ فبعض المختلفين في أمره الشاكين فيه يقول: إنه هو، وبعضهم يقول: إنه غيره، وما لأحد منهما علم يقيني بذلك، وإنما يتبعون الظن. وفي الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن المسيح قال لتلاميذه: "كلكم تشكون في في هذه الليلة". (متى ٢٦: ٣١، وماركس ١٤: ٢٧)، أي: التي يطلب فيها للقتل.

فإذا كانت أناجيلهم لا تزال ناطقة، فإنه أخبر أن تلاميذه وأعرف الناس به سيشكون فيه في ذلك الوقت وخبره صادق قطعاً، فهل يستغرب اشتباه غيرهم وشك من دونهم في أمره، وقد صارت قصته رواية تاريخية منقطعة الإسناد؟ {وما قتلوه يقينا} أي: وما قتلوا عيسى ابن مريم قتلاً يقيناً أو متيقنين أنه هو بعينه؛ لأنهم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة. وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الإسخريوطي، وأنه جعل لهم علامة أن من قبله يكون هو يسوع المسيح فلما قبله قبضوا عليه. وأما إنجيل برنابا فيصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظناً أنه المسيح؛ لأنه ألقى عليه شبهه. فالذي لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية. وقيل: إن الضمير في قوله سبحانه وتعالى: {وما قتلوه يقيناً} للعلم الذي نفاه عنهم، والمعنى ما لهم به من علم، لكنهم يتبعون الظن، وما قتلوه عن علم وتثبت منه، بل رضوا بتلك الظنون التي يتخبطون فيها، يقال: قتلت الشيء علماً وخبراً: إذا أحطت به واستوليت عليه حتى لا ينزع ذهنك منه اضطراب ولا ارتياب. وجاء عن ابن عباس أنه راجع إلى الظن الذي يتبعونه قال: "لم يقتلوا ظنهم يقيناً"^(١) أي: إنهم يتبعون ظناً غير محص ولا موفى أسباب الترجيح، والحكم التي توصل إلى العلم، {وكان الله عزيزاً حكيماً} فبعزته وهي كونه يقهر ولا يقهر، ويغلب ولا يغلب، أنقذ عبده ورسوله عيسى من اليهود الماكرين، والروم الحاكمين، وبحكمته جزی كل عامل بعمله^(٢).

خاتمة المسيح عند النصارى وعند المسلمين:

جعل النصارى خاتمة المسيح خاتمة شنيعة ومأساة مروعة، وجعلوا الاعتقاد بحصولها على الوجه الذي صوروه أصلاً من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بما ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة ولا بر، ولا تقوى، ولا إخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح.

وقد تلمسوا لتلك العقيدة أصلاً في العهد القديم، وأسسوا عليه صلب المسيح. فقالوا: إن آدم وهو أول كل البشر قد عصى الله بالأكل من الشجرة، التي نهاه عن الأكل منها، فصار خاطئاً وصار جميع ذريته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي، وقد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين فهم يحملون وزر ذنوبهم، ووزر ذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم.

ولما كان الله من صفته العدل والرحمة، فمن عدله أنه لا يترك الجريمة دون عقاب، وإلا لم يكن عادلاً، والعقاب منافع للرحمة فلا يكون رحيماً إذا عاقب، ولا بد من تحقق العدل والرحمة معاً، وللخروج من هذا الإشكال شاء الله أن

^١ - أخرجه الطبري في تفسيره (٣٧٧/٩) برقم (١٠٧٩٠).

^٢ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج ٦، ص ١٨: ٢١ بتصرف.

يحل ابنه الذي هو بنفسه الله في رحم امرأة من ذرية آدم، ويتجسد جنينا في رحمها ويولد منها، فيكون ولدها إنسانا كاملا من حيث إنه ابن لتلك المرأة، وإلها كاملا من حيث إنه ابن الله، ويكون معصوما من جميع المعاصي. ثم بعد أن يعيش كما يعيش الناس، ويأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، ويتلذذ ويتألم كما يتلذذون ويتألمون، يأتي أعداء الله وأعداء شريعته ويقتلونه شر قتلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويضفروا له إكليلا من الشوك، ويصبغوا في وجهه، كل ذلك ليفيدي البشر من جريمة لم يقتربها هو ولا هم.

إن هذه العملية لم يتحقق بها عدل ولا رحمة؛ لأنه ليس من العدل في شيء أن يؤتى بيريء غير مذنب، ويطوق إثم جريمة جناها سواه، كما أن عقاب غير الآثم ليس فيه رحمة، وبخاصة إذا كان المعاقب من شأن الجيلة أن تشمله بالرحمة، ولو مع الذنب، فالابن البار غير الآثم أولى.

والعقاب على هذا الوجه يخالف الكتاب المقدس عندهم، فقد جاء فيه: "لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيته يقتل". (التثنية ٢٤: ١٦)، "وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت، فقتل وعلقته على خشبة، فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، لأن المعلق ملعون من الله. فلا تنحس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيبا". (التثنية ٢١: ٢٢، ٢٣)، وعلى قول المسيحيين قد بقي الله تعالى مجردا عن صفتي العدل والرحمة من زمن عصيان آدم إلى أن اهتدى إلى تلك الحيلة التي ظهرت له قبيل خلق المسيح في مريم. هذا فضلا عن أن عقيدة الصلب لما كانت هي كل الإيمان كانت حادية لمعتنقها إلى نبذ كل الفضائل، بل مخذلة عن أفعال البر والتقوى، فيكون صاحبها إباحيا فاتكا ليس للفضيلة في نفسه نصيب.

أما حاقمة أمر المسيح بحسب قصص القرآن فهي بسيطة لا تعقيد فيها؛ ذلك أن المسيح قد أخرج الكهنة والفريسيين بتعليمه، وتجريمه إياهم في طريقتهم، وفضح ربائهم وخبثهم، فدفعهم ذلك إلى الكيد له والتدبير لقتله، فلما احتمر هذا الأمر في أنفسهم شكوا أمره إلى الوالي وزينوا شكواهم بما يستدعي اهتمامه بأن ادعوا عليه أنه يقول: إنه ملك اليهود، وأنهم لا يقرون بملك سوى قيصر رومية، فأرسل الوالي جندا للقبض على المسيح عيسى ابن مريم فلما أتوا ولم يبق إلا القبض عليه والمسيح قد اهتم لهذا الأمر، وخشى أن ينالوه بالأذى أنقذه الله من أيديهم وطهره منهم، وألقى شبهه على شخص آخر، علم فيما بعد أنه تلميذه الخائن وعرفته الأناجيل بأنه يهوذا الإسخريوطي كما هو مشهور وصار بحيث إن كل من رآه لا يشك في أنه يسوع، فأخذ وصلب وقتل ونجا المسيح من شرهم، وقد أعلم الله المسيح بما سيتم، وشاع في الناس أن يسوع الناصري قتل بعد أن صلب، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم^(١).

ثانيا. القرآن يقدم على الإنجيل: لقد تتبع الحكام والأباطرة الرومان من يخالفهم الاعتقاد، فقتلوا وأحرقوا الكثير منهم، كما عقدوا العديد من المجمع التي تدرس العقيدة وتقررها حسب أهوائهم واعتقاداتهم الوثنية القديمة، وتحذف ما يعارضها في هذا الاعتقاد من الأناجيل، ولقد استمر هذا الأمر حتى اليوم، حيث يتم عقد العديد من المجمع على غرار مجمع نيقية وحذف الكثير من مواد الإنجيل، يقول أحمد ديدات تحت عنوان "كذبة الكتاب المقدس": "لم يسمر عيسى على الصليب، كما سمر الآخرون، على العكس من الاعتقاد الشائع، هذا إذا كان فعلا قد صلب! شك توما في صلب المسيح، وقد تكون هذه القصة مجرد اختلاق أثيم، تماما كقصبة المرأة التي أمسك بها متلبسة بفعل الزنا، وقد حذفت قصة المرأة هذه من إنجيل يوحنا في النسخة الإنجليزية الحديثة، يبدأ الإصحاح الثامن لهذا الإنجيل

^١ - قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٥٠٤: ٥١٤ بتصرف.

بفقرة (١٢)، أي كتاب ديني يبدأ بفقرة (١٢)، لقد أزيلت الفقرات (١. ١١)؛ لأن الاثنين والثلاثين عالما، والخمسين طائفة تعاونت معهم لتنقيح الكتاب المقدس، ووجدوا أن هذه النصوص مختلفة وكاذبة فأمرُوا بإزالتها"^(١).

وإذا تكلمنا عن التواتر عند نقل النصارى للكتاب المقدس، فإن الواقع يؤكد لنا "أن دعوى التواتر ممنوعة، فإن التواتر عبارة عن إخبار عدد كثير لا يجوز العقل اتفاهم وتواطؤهم على الكذب بشيء قد أدركوه بحواسهم إدراكا صحيحا لا شبهة فيه، وكان خبرهم بذلك متفقا لا اختلاف فيه، هذا إذا كان التواتر في طبقة واحدة، فإن كان التواتر في طبقات كان ما بعد الأولى مخبرا عنها، ويشترط أن يكون أفراد كل طبقة لا يجوز عقل عاقل تواطؤهم على الكذب في الإخبار عن قبلهم، وأن يكون كل فرد من كل طبقة قد سمع جميع الأفراد الذين يحصل بهم التواتر من قبلهم، وأن يتصل السند هكذا إلى الطبقة الأخيرة، فإن اختل شرط من هذه الشروط لا ينعقد التواتر.

وأني للنصارى بمثل هذا التواتر، والذين كتبوا الأناجيل والرسائل المعتمدة عندهم لا يبلغون عدد التواتر، ولم يخبر أحد منهم عن مشاهدة، ومن تنقل عنه المشاهدة كععض النساء لا يؤمن عليه الاشتباه والوهم، بل قال يوحنا في إنجيله: إن مريم المجدلية وهي أعرف الناس بالمسيح اشتبهت فيه وظننت أنه البستاني، وهو قد كان صاحب آيات، وخوارق عادات، فلا يبعد أن يلقي شبهة على غيره، وينجو بالشكل بصورة غير صورته، كما رووا عنه أنه قال لهم: إنهم يشكون فيه، وكما قال مرقس: إنه ظهر لهم بمهيئة أخرى، ثم إن ما عزى إليهم لم ينقله عنهم عدد التواتر بالسماع منهم طبقة بعد طبقة إلى العصر الذي صار للنصارى فيه ملك، وحرية يظهرون فيها دينهم. وقد بين الشيخ رحمة الله الهندي وغيره انقطاع أسانيد هذه الكتب بالبيانات الواضحة.

وإذا كانت الأناجيل ورسائل العهد الجديد قد أثبتت صلب المسيح دون القول بغير ذلك، ودون قبول أي رأي آخر يقول بغير ذلك، فالحق الذي يبدو جليا ولا يحتاج إلى برهان أن هذه الكتب:

١. لا دليل على عصمتها، ولا على أن كاتبها كانوا معصومين.
٢. لا دليل على نسبتها إلى من نسبت إليهم؛ لأنها غير متواترة كما تقدم.
٣. معارضة بأمثالها كإنجيل برنابا وترجيحهم إياها على هذا الإنجيل لا يصلح مرجحا عندنا؛ لأنهم اتبعوا في اعتمادها تلك المجامع التي لا ثقة لنا بأهلها، ولا كانوا معصومين عندهم ولا عندنا.
٤. إنها متعارضة في قصة الصلب وفي غيرها.
٥. إنها معارضة بالقرآن العزيز وهو الكتاب الإلهي الذي ثبت نقله بالتواتر الصحيح دون غيره، فقصارى تلك الكتب أن تفيد الظن بالقرآن، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا﴾ (١٥٧) { (النساء) والقرآن قطعي فوجب تقديمه؛ لأنه يفيد العلم القطعي^(٢).

ثالثا. الأدلة العقلية على نفي صلب المسيح:

كما يمكن أن يقبل العقل قصة صلب المسيح لعدد من النتائج التي تترتب عليها، ولعدد من الأسباب هي: لا يمكن أن يقبل هذه القصة من يؤمن بالدليل العقلي أن خالق العالم لا بد أن يكون بكل شيء عليمًا، وفي كل صنعه حكيمًا؛ لأنها تستلزم الجهل والبداء على الباري كأنه حين خلق آدم ما كان يعلم ما يكون عليه أمره، وحين عصى ما كان يعلم ما يقتضيه العدل والرحمة في شأنه، حتى اهتدى إلى ذلك بعد ألوف من السنين مرت على خلقه، كان فيها جاهلا كيف يجمع بين تينك الصفتين من صفاته، وواقعا في ورطة التناقض بينهما، ولكن قد يقبلها من يشترط في

^١ - أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص٢٠٨.

^٢ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج٦، ص٣٥ بتصرف.

الدين عندهم ألا يتفق مع العقل، وأن يأخذ صاحبه بكل ما يسند إلى من نسب إليهم عمل العجائب، ويقول آمنت به، وإن لم يدركه، ولم تدعن له نفسه، ومن ينقلون في أول كتاب من كتبهم الدينية سفر التكوين هذه الجملة: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه". (التكوين ٦: ٦)، تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا.

يلزم من يقبل هذه القصة أن يسلم بما يحيله كل عقل مستقل من أن خالق الكون يمكن أن يحل في رحم امرأة في هذه الأرض التي نسبتها إلى سائر ملوكه أقل من نسبة الذرة إليها، وإلى سمواتها التي ترى منها، ثم يكون بشرا يأكل ويشرب ويتعب ويعتريه غير ذلك مما يعتري البشر، ثم يأخذه أعداؤه بالقهر والإهانة فيصلبوه مع اللصوص، ويجعلوه ملعونا بمقتضى حكم كتابه لبعض رسله، تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا.

تقتضي هذه القصة أن يكون الخالق العليم الحكيم قد أراد شيئا بعد التفكير فيه ألوا من السنين، فلم يتم له ذلك الشيء، ذلك أن البشر لم يخلصوا وينجوا بوقوع الصلب من العذاب، فإنهم يقولون: إن خلاصهم متوقف على الإيمان بهذه القصة وهم لم يؤمنوا بها، ولنا أن نقول: إنه لم يؤمن بها أحد قط؛ لأن الإيمان هو تصديق العقل وجزمه بالشيء، والعقل لا يستطيع أن يدرك ذلك، والذين يقولون: إنهم مؤمنون بها يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم تقليدا لمن لقنهم ذلك، فإن سمينا مثل هذا القول إيمانا، نقول: إن أكثر البشر لا يقولون به، بل يردونه بالدلائل العقلية، ومنهم من يرده أيضا بالدلائل النقلية، من دين ثبتت أصوله عندهم بالأدلة العقلية، ومنهم من لم يعلموا بهذه القصة، ومنهم من يقول بمثلها لآلهة أخرى، فإذا عذبهم الله في الآخرة ولم يدخلهم ملكوته كما تدعي النصارى لا يكون رحيمًا على قاعدة دعاة الصلب والصلب، فكيف جمع بذلك بين العدل والرحمة؟

يلزم من هذه القصة شيء أعظم من عجز الخالق عن إتمام مراده بالجمع بين عدله ورحمته، وهو انتفاء كل من العدل والرحمة في صلب المسيح؛ لأنه عذبه من حيث هو بشر وهو لا يستحق العذاب؛ لأنه لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب والظعن بالحرب على ما زعموا لا يصدر من عادل ولا من رحيم بالأحرى، فكيف يعقل أن يكون الخالق غير عادل ولا رحيم، أو أن يكون عادلا رحيمًا فيخلق خلقا يوقعه في ورطة الوقوع في انتفاء إحدى هاتين الصفتين، فيحاول الجمع بينهما فيفقداهما معا؟

إذا كان كل من يقول بهذه العقيدة، أو القصة ينجو من عذاب الآخرة كيفما كانت أخلاقه وأعماله، لزم من ذلك أن يكون أهلها إباحيين، وأن يكون الشرير المبطل الذي يعتدي على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم، ويفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، من أهل الملكوت الأعلى لا يعذب على شروره وخطيئاته ولا يجازى عليها بشيء، فله أن يفعل في هذه الدنيا ما شاء هواه، وهو آمن من عذاب الله وناهيك بهذا مفسدا للبشر وإذا كان يعذب على شروره وخطيئاته كغيره من غير الصليبيين فما مزية هذه العقيدة؟ وإذا كان له امتياز عند الله في نفس الجزاء فأين العدل الإلهي؟ ما رأينا أحدا من العقلاء، ولا من علماء الشرائع والقوانين يقول: إن عفو الإنسان عمن يذنب إليه، أو عفو السيد عن عبده الذي يعصيه، ينافي العدل والكمال، بل يعدون العفو من أعظم الفضائل، وترى المؤمنين بالله من الأمم المختلفة يصفونه بالعفو، ويقولون: إنه أهل للمغفرة، فدعوى الصليبيين أن العفو والمغفرة مما ينافي العدل مردودة غير مسلمة^(١).

رابعاً. تعارض أقوال وأفعال المسيح في الإنجيل مع عقيدة الصلب والفداء عند النصارى:

هناك العديد من الشواهد والأدلة الواردة في الإنجيل التي تتعارض مع عقيدة الصلب والفداء عند النصارى، ومن هذه الشواهد:

^١ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج ٦، ص ٢٦: ٢٨.

أن أصل هذه العقيدة أن المسيح بذل نفسه باختياره فداء، وكفارة عن البشر، مع أن هذه الأناجيل تصرح بأنه حزن واكتأب عندما شعر بقرب أجله، وطلب من الله أن يصرف عنه هذه الكأس. ففي إنجيل متى: "ثم أخذ معه بطرس وابني زبدي، وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم: نفسي حزينة جدا حتى الموت. امكثوا ههنا واسهروا معي". ثم تقدم قليلا وخر على وجهه، وكان يصلي قائلاً: «يا أبتاه، إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت». ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياما، فقال لبطرس: «أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف». فمضى أيضا ثانية وصلى قائلاً: «يا أبتاه، إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها، فلتكن مشيئتك". (متى ٢٦: ٣٧ - ٤٢). ومثل هذا في لوقا: "لما صار إلى المكان قال لهم: «صلوا لكي لا تدخلوا في تجربة». وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى قائلاً: يا أبتاه، إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك". (لوقا ٢٢: ٤٠ - ٤٢)، فكيف يقول المسيح هذا وهو إله عندهم، فهل يمكن أن يجهل بما يمكن وما لا يمكن، وأن يطلب إبطال الطريقة التي أراد الآب وهو هو عندهم أن يجمع بها بين عدله ورحمته؟!

ومن الشواهد عليها مسألة اللصين اللذين قالوا: إنهما صلبا معه، قال مرقس: "وصلبوا معه لصين، واحدا عن يمينه وآخر عن يساره. فتم الكتاب القائل: «وأحصى مع أئمة». وكان المجتازون يجدفون عليه، وهم يهزون رؤوسهم قائلين: «آه يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام! خلص نفسك وانزل عن الصليب!» وكذلك رؤساء الكهنة وهم مستهزئون فيما بينهم مع الكتبة، قالوا: «خلص آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها! لينزل الآن المسيح ملك إسرائيل عن الصليب، لنرى ونؤمن!». واللذان صلبا معه كانا يعيرانه". (مرقس ١٥: ٢٧ - ٣٢).

وكذلك قال متى: "ثم جلسوا يحرسونه هناك. وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة: «هذا هو يسوع ملك اليهود». حينئذ صلب معه لسان، واحد عن اليمين وواحد عن اليسار. وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين: «يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، خلص نفسك! إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب!». وكذلك رؤساء الكهنة أيضا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا: «خلص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها! إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به! قد اتكل على الله، فلينقذه الآن إن أراد! لأنه قال: أنا ابن الله». وبذلك أيضا كان اللسان اللذان صلبا معه يعيرانه. (متى ٢٧: ٣٦ - ٤٤).

وأما لوقا فقد سمى الرجلين اللذين صلبا معه مذبذبين، ولكنه قال: "وكان واحد من المذبذبين المعلقين يجدف عليه قائلاً: «إن كنت أنت المسيح، فخلص نفسك وإيانا!» فأجاب الآخر وانتهره قائلاً: «أولا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئا ليس في محله». ثم قال ليسوع: «اذكري يا رب متى جئت في ملكوتك». فقال له يسوع: «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس». (مرقس ٢٣: ٣٩ - ٤٢)، فكانت نبوءة الكتاب (إشعيا) أنه يصلب مع أئمة بصيغة الجمع، ثم كان الجمع اثنين ولا بأس بذلك، ولكن كيف يقول اثنان من الإنجيليين المعصومين على رأيهم أن الذي عيّره وأهاناه هو أحدهما، وهما مثله في عصمته؟

ومثل هذه المخالفات والمعارضات في هذه القصة كثيرة، ومن أظهرها مسألة دفنه ليلة السبت، وقيامه من القبر قبل فجر يوم الأحد، مع أن البشارة أنه يكون في بطن الأرض ثلاثة أيام لبلياليها، وهي مدة مكث يونس في بطن الحوت، ومنها مسألة النساء اللواتي جئن القبر، وفيها عدة خلافات في وقت الجيء ورؤية الملك... إلخ^(١).

^١ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج ٦، ص ٣٧، ٣٨.

إن وقوع التشابه أمر وارد وواقع يراه الناس ويتلمسونه ويدركونه حق الإدراك، فهو يقع في التوهم، ويقع في غيرها من المتباعدين الذين يسكنون في أقطار شتى، وبيئات متباينة بين أفراد الجنس البشري، ووقوع شبه المسيح على غيره، سواء كان يهوداً أم غيره له ما يقويه وما يعضده من الأدلة، وهو متحقق من وجهين هما:

١. أنه عهد بين الناس أن يشبه بعضهم بعضاً شبيهاً تاماً، بحيث لا يميز أحد المتشابهين المعاشرون والأقربون، وقد يكون هذا بين الغرباء كما يكون بين الأقربين، ولعله يقل في الذين يسافرون وينقلبون بين الكثير من الناس من لم يقع له الاشتباه بين من يعرف ومن لا يعرف، وإننا لزيادة البيان نورد قليلاً من الشواهد عن الإفرنج الذين يثق دعاة النصرانية عندنا بهم ما لا يثقون بغيرهم؛ لأن هؤلاء الدعاة من أبناء جنسهم أو مقلداتهم.

قال إميل صاحب كتاب "التربية الاستقلالية" حكاية عن كتاب كتبه امرأة الدكتور إراسم إلى زوجها ما نصه: "لقد كثرت ما لاحظت أنه يوجد في بعض الأحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والأنوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين أفراد أسرة واحدة، مع أن كلا منهما يكون أجنبياً عن الآخر من كل الوجوه، أتدري من هو الذي حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصري على السيدة وارنجتون؟ ذلك هو صديقك يعقوب نقولا، خلعتني أراه بذاته في زي امرأة". فهذا مثال لرأي الكاتب في تشابه الناس.

ويوجد في كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة في باب تحقيق الشخصيات دالة على أنه كثيراً ما يحدث للناس الخطأ في معرفة بعض الأشخاص، ويشتهون عليهم بغيرهم، وقد ذكر جاي وفريير مؤلفاً كتاب "أصول الطب الشرعي" في اللغة الإنجليزية حادثة است حضر فيها ١٥٠ شاهداً لمعرفة شخص يدعى "مارتين جير"، فحزم أربعون منهم أنه هو، وقال خمسون: إنه غيره، والباقيون ترددوا جداً ولم يمكنهم أن يبدوا رأياً، ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير، وانخدع به هؤلاء الشهود المبتون، وعاش مع زوجة مارتين محاطاً بأقاربه وأصحابه ومعارفه مدة ثلاث سنوات، وكلهم مصدقون أنه مارتين، ولما حكمت المحكمة عليه - لظهور كذبه بالدلائل القاطعة - استأنف الحكم في محكمة أخرى فأحضر ثلاثون شاهداً آخرين، فأقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة: إنه غيره، وتردد الباقيون، وقد حدثت هذه الحادثة سنة ١٥٣٩م في فرنسا.. وأمثالها كثيرة.

وقد بلغ من شبه بعض الأشخاص بغيرهم أن وجد فيهم بعض ما يوجد في غيرهم ممن شابههم من الكسور أو الجروح، أو آثارها وغير ذلك؛ حتى تعسر تمييز بعضهم عن بعض، ولذلك جد الأطباء في وضع مميزات لأشخاص البشر المختلفين.

٢. أن هذه الحادثة من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى ابن مريم، وأنقذه من أعدائه، فألقى شبهه على غيره، وغير شكله هو فخرج من بينهم وهم لا يشعرون، وفي أناجيلهم وكتبهم جمل متفرقة تؤيد هذا الوجه أشرنا إلى بعضها من قبل، ولا شك أن هذا من الممكنات الخاضعة لمشيئة الله وقدرته.

ويمكن أن يستدل على استحابة الله لدعائه بقول يوحنا حكاية عنه في سياق قصة الصلب: "أجابهم يسوع: الآن تؤمنون؟ هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركوني وحدي. وأنا لست وحدي لأن الأب معي. قد كلمتكم بهذا ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم". (يوحنا ١٦: ٣١ - ٣٣)، وفي هذا المعنى قول متى: "في تلك الساعة قال يسوع للجموع: «كأنه على لص خرجتم بسيف وعصي لتأخذوني! كل يوم كنت أجلس معكم أعلم في الهيكل ولم تمسكوني. وأما هذا كله فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء». حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا. (٢٦: ٥٥، ٥٦)، وقول مرقس: "فأجاب يسوع وقال لهم: «كأنه على لص خرجتم بسيف وعصي لتأخذوني! كل يوم كنت معكم في الهيكل أعلم ولم تمسكوني! ولكن

لكي تكمل الكتب». فتركه الجميع وهربوا". (مرقس ١٤ : ٤٨ - ٥٠). فهذا نص في أن التلاميذ كلهم هربوا حين جاء الجند ليقبضوا على المسيح، فلم يكن الذين يعرفونه حق المعرفة هنالك.

ومما يدل على استحابة الله دعوته بأن ينقذه ويعبر عنه تلك الكأس عبارة المزامير التي يقولون: إن المراد بها المسيح، وهذا نصها: "أعني يا رب إلهي خلصني حسب رحمتك وليعلموا أن هذه يدك أنت يا رب فعلت هذا، أما هم فيلعنون، وأما أنت فتبارك، قاموا وخزوا، أما عبدك فيفرح، ليلبس خصمائي خجلا وليتعطفوا بخزيهم كالرداء، أحمد الرب جدا بغمي وفي وسط كثيرين أسبحه؛ لأنه يقوم عن يمين المسكين ليخلصه من القاضين على نفسه". (المزامير ١٠٩ : ٢٦ - ٣١)، وفي العبارات التي ينسبونها إلى المسيح شواهد أخرى تدور حول هذا المعنى^(١).

خامسا. مصادر مسيحية تؤكد نجاة المسيح من الصلب، ووقوع الصلب على شبیهه:

إن من أشهر وأقدم الأناجيل في الديانة النصرانية إنجيل برنابا، وهو أحد مصادر النصرانية الأساسية قبل انعقاد "مجمع نيقية"، ولقد كان برنابا صاحب هذا الإنجيل من أتباع المسيح القائمين على نشر دعوته، والتبشير باقتراب ملكوت السموات، وقد جاء عنه: "وكان هذا الرجل موثوقا به في الكنيسة ثقة تامة ويندب لوعظ الناس المدعوين للدخول في الدين". (الأعمال ٢ : ٢٦).

هذا الرجل وجد له إنجيل مدون، وهو عبارة عن قصة للمسيح كإنجيل متى ولوقا، ومرقس، ويوحنا، منقطع السند كما هي منقطعة السند، وهذا الإنجيل يقول فيه مترجمه د. خليل سعادة: تضاربت فيه آراء الباحثين وتشعبت بخصوصه مذاهب المؤرخين وخبطوا فيه بين ضلالة وهدى، وتلمسوا حقيقته بين رشاد وهوى، واستنطقوا الآثار، والأسفار، واستفسروا الأعصار والأمصار، فما ظفروا بعد كل ذلك بما يشفي منهم غليلا، أو يبرد لهم غليلا.

وهذا الإنجيل كانت نسخته بمكتبة الباب سكتس بروما واختلسها أسقف يقال له "فرامرينو" حين عثر عليها مصادفة، فقرأها واعتنق الإسلام، وذلك في أواخر القرن السادس عشر، ويقول المترجم في مقدمته: إنه يرى أن كاتب إنجيل برنابا يهودي أندلسي متمكن من الديانة اليهودية والاطلاع عليها قد تنصر واطلع اطلاعا عظيما على النصرانية، ثم أسلم واطلع على الديانة الإسلامية، ويرى أن هذا الحل أقرب إلى الصواب، ثم قال: وبعد كل ما تقدم فإن هذا الإنجيل قد أتى على آيات باهرة من الحكمة وطراز راق من الفلسفة الأدبية وأساليب تسحر الأبواب ببلاغتها السامية على ما فيها من البساطة في التعبير، وهو يرمي إلى ترقية العواطف البشرية إلى أفق سام وتنزيهاها عن الشهوات البهيمية، أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، حاثا على الفضائل، مقبحا للذائل داعيا الإنسان إلى التضحية بنفسه في سبيل الإحسان إلى الناس حتى يزول منه كل أثر للأنانية ويحيا لنفع إخوانه.

وقال ناشره محمد رشيد رضا في مقدمته: "لم نقف على ذكر لإنجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول في بيان الكتب التي تحرم قراءتها فقد جاء في ضمنها إنجيل برنابا، وقد تولى جلاسيوس البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد أي قبل بعثة نبينا محمد على أن بعض علماء أوربا يرتابون اليوم في ذلك المنشور، كما ذكر د. سعادة في مقدمته والمثبت مقدم على المنفي.

مهما يكن من أمر فإنجيل برنابا واحد من الأناجيل التي ألقت في قصة المسيح، وإن كان يمتاز عن سائرهما بالبلاغة، ودقة التعبير، ويصرح بأمور لعلها هي التي زهدت الكنيسة فيه حتى حرمه البابا جلاسيوس، ومن ذلك: التصريح باسم محمد في كثير من المواضع، وإني أنقل عن إنجيل برنابا لا لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛

^١ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج ٦، ص ٣٨ : ٤٠ بتصرف.

بل لأن روايته للحوادث أبين، واستقصاءه للأخبار أتم، وإن كان في نظري لا تخلو بعض الموضوعات فيه من المبالغات الشعرية.

على أن د. سعادة مترجم إنجيل برنابا قال في مقدمته بعد أن أفاض في الاحتمالات والآراء في إنجيل برنابا: "بيد أن هناك إنجيلا يسمى بـ "الإنجيل الأغنطسي" طمست رسومه، وعفت آثاره، يتبدى بمقدمة تندد بالقديس بولس، وينتهي بخاتمة فيها مثل ذلك من إنجيل برنابا، فمن المحتمل أن يكون الإنجيل الأغنطسي أبا لإنجيل برنابا. وأقول: ومن المحتمل أيضا أن كاتب الإنجيل الأغنطسي ألم بما كتبه برنابا في إنجيله واقتبس منه ما أثبتته في إنجيله وأن إنجيل برنابا يصح أن يكون أبا للإنجيل الأغنطسي. ولو أن المسيحيين أبقوا جميع الأناجيل ولم تحرم الكنيسة قراءتها لوصلت إلينا، ولو على نوع من التحريف، ولكن ذلك التحريم أعدم تلك الأناجيل وربما كان فيها الكثير الطيب، وإلا فأين الإنجيل الأغنطسي والأناجيل المذكورة في الأناجيل، وأنها وجدت والأناجيل التي كان الداعون إلى المسيحية كبولس يحذرون الناس من اتباعها كالتى كانوا يقولون إن أصحابها يحرفون إنجيل المسيح(١)؟

ومن المعلوم أن إنجيل برنابا يقرر أن الذي صلب هو يهوذا الإسخريوطي تحديدا، وأن المسيح لم يصلب؛ لذا نجد أن هذا الإنجيل تم استبعاده من قبل الكنيسة، ومن قبل "مجمع نيقية"؛ لأنه يتعارض مع ما يعتنقه الإمبراطور الروماني، والطوائف النصرانية الحاكمة، والموجودة داخل هيكل السلطة، والقوة، والنفوذ، والتغيير، والعجب كل العجب أن تتبع الطوائف النصرانية بولس وتثق به، ولا تتبع برنابا ولا تثق بإنجيله، ومن يراجع صفحة أو صفحات في تاريخ النصرانية، يتبين له الحق، وليقارن بين بولس صاحب عقيدة الصلب والفداء وبرنابا صاحب الإنجيل الشهير ليجد العجب، حيث كان النصراني لا يثقون ببولس، بل كانوا يعتبرونه عدوا للنصرانية، أما برنابا فكان يقرر أن المسيح لم يصلب، وأن الذي صلب هو يهوذا شبيهه، ولكن النصراني لا يأخذون بقوله!؟

أضف إلى ذلك ما نشرته مجلة "المجلة" في عددها الصادر بتاريخ ١٠/٩/١٩٩٣م، برقم (٧١٢) حول اكتشاف عدد من المخطوطات الضائعة من مكتبة الإسكندرية، كانت بنجع حمادي، وعثروا فيما عثروا على أناجيل مكتوبة بالقبطية، كانت قد دفنت يوم أصدرت روما في القرن الرابع الميلادي أمرها بإحراق الأناجيل غير الأربعة. وقد جاء في الأناجيل القبطية المكتشفة: جاء على لسان بطرس: "إن الذي رأيته سعيدا يضحك هو يسوع الحي، لكن من يدخلون المسامير في يديه وقدميه فهو البديل، فقد وضعوا العار على الشبيه"، وورد فيها أيضا على لسان المسيح: "كان آخر هو الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه، كنت أنا في العلاء أضحك لجهلهم"(٢)، لا أعلم إلى متى سيكتم النصراني المصادر التي تصرح بعدم صلب المسيح، ووقوع الصلب على شبيهه، وإلى متى لا يعترفون بالحقيقة الواضحة، أم إنهم كما يقول الله سبحانه وتعالى: {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم} (القصص: ٥٠).

سادسا. اختلاف الأناجيل في مسألة الصلب يؤكد أن المسيح لم يصلب:

لم تختلف الأناجيل الأربعة في مسألة من المسائل كاختلافها في تفصيل مسألة صلب المسيح وقتله، فلا تكاد جزئية من الجزئيات في أحدها تتحد مع الجزئية نفسها في إنجيل آخر، ولما كانت هذه الأناجيل من تأليف قوم يدعي المسيحيون لهم الإلهام ويعتقدون خلوها من الخطأ، كان ينبغي أن تكون كتابتهم في هذه الحادثة المهمة التي هي مناط النجاة، ودعامة الإيمان في نظرهم متطابقة متوافقة بحيث لا يكون فيها اختلاف أصلا، إذ النفس لا تطمئن إلى الأخذ

^١ - قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص٤٧٩: ٤٨١.

^٢ - مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٣٢٩.

بروايات إذا اتفقت في موضع واحد من قصة جاءت في جميعها فإنها تتخالف في مواضع كثيرة، وإذا لم يكن الراوي أميناً كل الأمانة كانت الثقة بروايته ضعيفة والتصديق بها غير سائغ.

فقد خالف مرقس متى، فزاد في شهادة الشهود عليه قول الشاهدين: "إني أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادي، وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأياد.. فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له: أأنت المسيح ابن المبارك؟ فقال يسوع: أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة، وآتيا في سحب السماء". (مرقس ١٤: ٥٨ - ٦٢)، فخالف متى في هذه المواضع. وقوله: "المبارك" يريد "داود".

وأما لوقا فقد ضرب صفحا عن طلب شهود زور على المسيح، ولم يذكر سوى قول مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة: إن كنت أنت المسيح، فقل لنا! فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني. منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله. فقال الجميع: أفأنت ابن الله؟ فقال لهم: أنتم تقولون إني أنا هو". (لوقا ٢٢: ٦٧ - ٧٠)، فخالف بذلك كلا من سابقيه، ومن المفارقات قول لوقا: إنهم قالوا له: "أفأنت ابن الله؟" مع أنه لم يدع أنه ابن الله، بل عبر بلفظ "ابن الإنسان".

وأما يوحنا فقد ألغى شهادة الزور وشهوده، وألغى محاكمة الكهنة والشيخ والكهنة له، ولم يذكر من ذلك شيئا أصلا وهو من أصحاب المسيح وقد شهد ما لم يشهده متى؛ لأنه كان معروفا من رئيس الكهنة، ودخل داره مع يسوع، كما نص على ذلك يوحنا في إنجيله مكذبا مرقس الذي يقول: وهرب منهم عريانا". (مرقس ١٤: ٥٢)، وبعد هذا فشهادة من شهدوا بمسألة نقض الهيكل ليست شهادة زور، فقد جاء في يوحنا: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه". (يوحنا ٢: ١٩)، فكيف يصح أن يقال: إنهم شهدوا زورا؟

وبعد هذا كله فإن الكهنة، ورئيسهم لم يقولوا: إن سبب الموت هو ما ذكر من هدم الهيكل، وبناءه، بل حين قال لهم: إنه المسيح على رأي مرقس، وإنه سيكون على يمين قوة الله، ومع هذا، فلم يرفعوه إلى الوالي بشيء من هذا، بل قالوا: إنه يفسد الشعب ويقول: إنه ملك اليهود.

قال متى: "ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس البنطي الوالي. (متى ٢٧: ١، ٢)، ووافق مرقس غير، أنه لم يذكر صفة بيلاطس ولا جنسيته، واختصر فقال: "فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس". (لوقا ٢٣: ١)، وقال يوحنا: "ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية، وكان صبح. ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجسوا، فبأكلون الفصح". (يوحنا ١٨: ٢٨). وهذه العبارة انفرد بها يوحنا دون الثلاثة.

قال متى: "حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيخ قائلا: قد أخطأت إذ سلمت دما بريئا. فقالوا: ماذا علينا؟ أنت أبصر! فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وحنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا: لا يحل أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرة للغرباء. لهذا سمي ذلك الحقل «حقل الدم» إلى هذا اليوم. حينئذ تم ما قيل بإرميا النبي القائل: وأخذوا الثلاثين من الفضة، ثمن المثلث الذي ثمنوه من بني إسرائيل، وأعطوها عن حقل الفخاري، كما أمرني الرب". (متى ٢٧: ٣ - ١٠).

هذا التقرير قد أسقطه أصحاب الأناجيل الثلاثة وخالفه مؤلفه الأبركسيس: "إن هذا أي يهوذا اقتنى حقلا من أجرة الظلم وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط، فانكبت أحشاؤه كلها، وصار ذلك معلوما عند سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم "حقل دما" أي: حقل دم". (أعمال الرسل ١: ١٨، ١٩)، فالفرق بين تقرير متى

وتقرير سفر الأعمال ظاهر، وإذا أخذنا بأحدهما وجب أن يكون الآخر كاذبا، وعبرة سفر الأعمال تفيد أن مؤلفه ليس عبرانيا؛ بدليل قوله: "في لغتهم".

وبعد هذا فقد نسب متى إلى رؤساء الكهنة شراء حقل الفخاري بالفضة، وحينئذ تم ما قيل بأرمياء إلى آخره. ونسب القول إلى أرمياء غلط؛ فإن هذا القول لا يوجد في كتب أرمياء فذكر متى لاسم أرمياء غلط يقينا، وورد هذا القول في سفر زكريا، ونصه: "فقلت لهم: «إن حسن في أعينكم فأعطوني أجرتي وإلا فامتنعوا». فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب: «ألقها إلى الفخاري، الثمن الكريم الذي ثمنوني به». فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلى الفخاري في بيت الرب. ثم قصفت عصاي الأخرى حبالا لأنقض الإخاء بين يهوذا وإسرائيل". (زكريا ١١: ١١٢ - ١٤).

وبعد فهذا الكلام الذي في زكريا لا تعلق له بالمسيح أصلا، وليس في شأنه، ولكن القوم يتصيدون كل الكلام ويلحقونه بكتبهم المقدسة لقيموموه دليلا على أن الحادثة قد تنبأ بها الأنبياء من قبل، وهي بعيدة من غرضهم بعد السماء من الأرض.

وكذلك فقد اختلفت الأناجيل الأربعة في بسط السبب الذي بنى عليه الوالي صلب المسيح، وكل واحد يخالف الآخر، وإذا قلنا الوالي، فلا نعني بذلك أنه أدان المصلوب أو وجده مذنبا، فإن كل أنجيل القوم مصرحة بأنه لم يجد فيه علة تستوجب الموت، قال متى: "فوقف يسوع أمام الوالي. فسأله الوالي قائلا: «أأنت ملك اليهود؟» فقال له يسوع: «أنت تقول». وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء. فقال له بيلاطس: «أما تسمع كم يشهدون عليك؟» فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة، حتى تعجب الوالي جدا. (متى ٢٧: ١١ - ١٤)، وقد وافقه مرقس: "فسأله بيلاطس: «أأنت ملك اليهود؟» فأجاب وقال له: «أنت تقول». وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيرا. فسأله بيلاطس أيضا قائلا: «أما تحبب بشيء؟ انظر كم يشهدون عليك!» فلم يجب يسوع أيضا بشيء حتى تعجب بيلاطس". (مرقس ١٥: ٢ - ٥)، وأما لوقا فأثبت ما لم يثبت متى ومرقس؛ حيث قال: "وابتدءوا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة، ويمنع أن تعطى جزية لقيصر، قائلا: إنه هو المسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلا: أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: أنت تقول". (لوقا ٢٣: ٢، ٣)، وبدهي أن هذا ضد ما قاله متى من أنه لم يجب بشيء حتى تعجب الوالي.

والمطلع على الأناجيل يعلم فساد تلك الدعاوى بما أثبتته أصحابه من قوله: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ومن هربه ممن أرادوا المناداة به ملكا، فلو أنه المسيح نفسه لتبرأ من مقاتلتهم واستشهد على نقض دعواهم، ولكنه المسكين يهوذا الاسخريوطي الذي دهش للقبض عليه وارتبك عقله واستغرق في التأمل فيما هو قادم عليه من أهوال الموت، فأنساه ذلك الجواب، وقد انفرد لوقا بإحياء هيرودس الذي أثبت موته من قبل، وذكر أن بيلاطس أرسل إليه بيسوع، وكان هيرودس المبت من زمن مديد يتمنى رؤية المسيح، وأراد أن يصنع أمامه آية، فلم يجبه بشيء، وكيف يجيبه أو يصنع آية وليس هو المسيح صاحب الآيات، وإنما هو يهوذا^(١)؟

سابعاً. تنبؤات المسيح بنجاته من القتل:

لعله قد تبين لنا مما سبق أن فكرة قتل المسيح كانت دخيلة على رسالته، وأنه بذل كل جهده للعمل ضدها. ويزداد الأمر يقينا حين نرى ما تذكره الأناجيل عن تنبؤات المسيح بنجاته من كل المحاولات التي يبذلها اليهود لقتله. وسوف نكتفي بذكر تلك التنبؤات الواضحة، التي لا يحتاج فهمها إلا لقراءتها فقط:

^١ - قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٥١٦: ٥٢٦ بتصرف.

"فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلا: «تعرفوني وتعرفون من أين أنا، ومن نفسي لم آت، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه، وهو أرسلني». فطلبوا أن يمسكوه، ولم يلق أحد يدا عليه، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد. فأمن به كثيرون من الجمع، وقالوا: «ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا؟». سمع الفريسيون الجمع يتناجون بهذا من نحوه، فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خداما ليمسكوه. فقال لهم يسوع: «أنا معكم زمانا يسيرا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبوني ولا تجدوني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا». فقال اليهود فيما بينهم: إلى أين هذا مزعم أن يذهب حتى لا نجده نحن؟ ألعله مزعم أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلم اليونانيين؟ ما هذا القول الذي قال: ستطلبوني ولا تجدوني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟" (يوحنا ٧: ٢٨ - ٣٦).

لا نظن أن أحدا يشك في وضوح هذا القول الذي يعني رغم أي شيء أن اليهود حين يطلبون المسيح لقتله فلن يجدهوه؛ لأنه سيمضي للذي أرسله، أي: سيرفعه الله إليه. ومن الطبيعي أن يقال: إن السماء مكان يعجز اليهود عن بلوغه تعقبا للمسيح، بالإضافة إلى عجزهم عن فهم قوله وتحديد المكان الذي أشار إليه في حديثه هذا، إن هذه النبوءة تقرر شيئا مهما، وهو أن اليهود حين يطلبون المسيح فلن يجدهوه، سوف تحدث المعجزة قبل أن يمسكوه، وتتدخل ذراع الرب لإنقاذه قبل أن يلقي أحد عليه الأيدي.

وفي موقف آخر من مواقف التحدي بين المسيح واليهود أكد لهم نبوءته السابقة، وأن محاولاتهم ضده ستنتهي برفعه إلى السماء بعد عجزهم عن الإمساك به: "قال لهم يسوع أيضا: أنا أمضي وستطلبوني، وتموتون في خطيتكم. حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال اليهود: ألعله يقتل نفسه حتى يقول: حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟ فقال لهم: أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم. فقلت لكم: إنكم تموتون في خطاياكم، لأنكم إن لم تؤمنوا بي أنا هو تموتون في خطاياكم. فقالوا له: من أنت؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدء ما أكلمكم أيضا به. إن لي أشياء كثيرة أتكلّم وأحكم بها من نحوكم، لكن الذي أرسلني هو حق. وأنا ما سمعته منه، فهذا أقوله للعالم. ولم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الآب. فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أي أنا هو، ولست أفعل شيئا من نفسي، بل أتكلّم بهذا كما علمني أبي. والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه". (يوحنا ٨: ٢١ - ٢٩).

ولقد كانت آخر أقوال المسيح لتلاميذه - في تلك اللحظات التي سبقت عملية القبض مباشرة - هو تأكيده لهم أن الله معه دائما، ولن يتركه: "أجابه يسوع: الآن تؤمنون؟ هوذا تأتي ساعة، وقد أت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي. وأنا لست وحدي لأن الآب معي. قد كلمتكم بهذا ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم". (يوحنا ١٦: ٣١ - ٣٣).

من المؤكد إذن أن ذلك المصلوب الذي تركه إلهه فأطلق صرخة اليأس على الصليب قائلا: "إلهي إلهي، لماذا تركتني". (متى ٢٧: ٤٦) - إنما هو شخص آخر غير المسيح الذي يقول لتلاميذه بكل ثقة ويقين: "أنا لست وحدي لأن الآب معي". وما من شك في أن المصلوب قد غلبه أعداؤه، وقهر الموت وساد عليه بعد أن تجرع كأسه المريرة حتى النهاية. ولهذا يقول بولس: "إن المسيح بعدما أقيم من الأموات لا يموت أيضا. لا يسود عليه الموت بعد". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٦: ٩)، نعم لقد ساد الموت على المصلوب كما يسود على كل الموتى كما قرر بولس أما ذلك الذي غلب العالم، فهو الذي حطم الإرادة الشريرة لمن في ذلك العالم من أشرار، فمنع محاولاتهم سحقه، ورد الضربة على رأس الخائن.

"أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب". (متى ٢٣: ٣٩). إن التحدي في هذا القول واضح، ذلك أن المسيح يؤكد لأعدائه أنهم لن يروه منذ تلك الساعة، حتى يأتي في نهاية العالم: "وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيا في سحابة بقوة ومجد كثير". (لوقا ٢١: ٢٧). لكن ذلك المصلوب رآه الكهنوت اليهودي أسيرا في قبضته أثناء المحاكمة، ثم رأوه بعد ذلك معلقا على الخشبة قتيلا، قد أسلم الروح والمشيئة، ولم يبق منه إلا جسد خامد، فقد نبض الحياة^(١).

ثامنا. شخصية المسيح لا تتلاقى مع النهاية الاستسلامية التي صنعها كتاب الأنجيل:

إذا كانت الأنجيل مليئة بالتناقضات التي يستحيل قبولها وتصديقها عقليا على المستوى العام، فإنها مليئة بتناقضات أشد استعصاء وأبعد تصديقا في الأحداث الأخيرة في حياة المسيح قبل الصلب المزعوم وبعده، وبوسع أي قارئ غير متخصص أن يدرك هذا بعد قراءة سريعة لصفحات الإنجيل فضلا عن عالم متخصص. وتعليقا على الأحداث الأخيرة قبيل الصلب المزعوم وتحليلا لها يقول الداعية الإسلامي أحمد ديدات: "لن يظل يسوع كالبطة الساكنة في انتظار القبض عليه خلسة من اليهود، ها هو يهوذا يعد حواريه للخاتمة الوشيكة، وفي حيلة وحذر؛ حتى لا يدخل الخوف على قلوب حواريه، أعد خطة الدفاع، فيقول لهم في لطف: "حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية، هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا. فقال لهم: لكن الآن، من له كيس فليأخذه ومزود كذلك. ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا". (لوقا ٢٢: ٣٥، ٣٦).

هذا الإعداد للجهاد، للحرب المقدسة ضد اليهود، لماذا؟ لماذا هذا التحول نحو العنف؟ ألم يسبق له أن نصحههم: "سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا". (متى ٥: ٣٨، ٣٩)، "حينئذ تقدم إليه بطرس وقال: يا رب، كم مرة يخطئ إلى أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات". (متى ١٨: ٢١، ٢٢)، (٧٠ × ٧ = ٤٩٠)، أليس هو الذي أرسل حواريه الاثني عشر المختارين قائلا لهم: "ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمائم". (متى ١٠: ١٦).

الموقف والظروف تغيرت، وكأي قائد مقتدر وحكيم، فإن الاستراتيجية يجب أيضا أن تتغير. كان الحواريون قد تسلحوا بالفعل، كانت لهم بصيرة، لم يكونوا قد غادروا الجليل صفر اليدين من السلاح. أجابوا قائلين: "يا رب، هوذا هنا سيفان. فقال لهم: يكفي". (لوقا ٢٢: ٣٨).

يقول المبشرون إبقاء على الانطباع السائد عن يسوع الوديع المسالم أمير السلام: "إن السيوف كانت سيوفا روحية. ولكن إذا كانت السيوف روحية لكان من الواجب أن تكون الملابس أيضا ملابس روحية. ولو كان الحواريون سيبيعون الملابس الروحية لشراء سيوف روحية، فإنهم في هذه الحالة سيكونون عراة روحانيين، وبالإضافة إلى ذلك فإن أحدا لا يستطيع قطع آذان الناس بسيوف روحية، ففي إنجيل متى: "وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه. فقال له يسوع: رد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون". (متى ٢٦: ٥١، ٥٢)، إن العمل الوحيد للسيوف والبنادق هو القطع والقتل، والناس في عصر المسيح لم تكن تحمل السيوف لتقشير التفاح والموز^(٢).

^١ - المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص٢٠٧: ٢٠٩.

^٢ - أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٦٨، ١٦٩.

ويستطرد ديدات في تحليل ووصف مشهد القبض على يسوع، فيقول: "تم القبض عليهم نياماً، داس عليهم عدوهم بأحذيته الثقيلة،" فلما رأى الذين حوله ما يكون، قالوا: «يا رب، أنضرب بالسيف؟» وضرب واحد منهم بطرس عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. فأجاب يسوع وقال: «دعوا إلي هذا!» ولمس أذنه وأبرأها. (لوقا ٢٢: ٤٩ - ٥١)، ألم يكن يسوع يعرف وجه الحق في قوله السالف، عندما أمر أتباعه أن يبيعوا ملابسهم، ويشترؤا بثمانها سيوفاً؟ بالتأكيد كان يعرف، إذن فلماذا هذا التناقض الآن؟! لماذا لا يعطي المسيحيون المجادلون سيدهم ومولاهم حقه وقدره؟ لأنهم برمجوا لمدة ألفين من السنين على أن عيسى الحمل الوديع، أمير السلام، لا يستطيع أن يؤدي ذبابة. ويتجاهلون الجانب الآخر في طبيعته الذي يتطلب الدم والنار. وهم يتناسون أوامره إلى أتباعه أن يحضروا أعداءه الذين لا يعترفون بحكمه: "جئت لألقي نارا على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت؟ ولي صبغة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تكمل؟ أتظنون أنني جئت لأعطي سلاماً على الأرض؟ كلا، أقول لكم: بل انقساماً". (لوقا ١١: ٤٩ - ٥١) (١).

ثم يتكلم ديدات عن خطة الخلاص التي يعرضها الإنجيل، فيقول: "إذا كان ذلك هو خطة الله لتخاذ قربان أخطاء البشرية فإنه يكون قد اختار الفداء غير المناسب، إن الممثل الشخصي لله كان حريصاً على ألا يموت. يتسلح، يبكي، يعرق، يصيح، يشكو! وازن بينه وبين شخص آخر كاللورد نلسون بطل الحرب الإنجليزي الذي واجه الموت، بهذه الكلمات الخالدة: "شكراً لله فقد أدت واجبي"، هناك ملايين اليوم يقدمون أرواحهم طواعية، وفي سرور من أجل الملك ومن أجل الوطن بابتسامة على وجوههم، وهم يصيحون "الحمد لله"، أو "الله أكبر"، أو "فلتحيا الملكة". عيسى كان ضحية غير راغبة في ذلك.

إذا كان ذلك حقاً بتدبير الله في الخلاص، إذن فهي مؤامرة قاسية، إنه اغتيال بالدرجة الأولى وليس فداء شخصياً. يقول الميجور بيتس براون في كتابه "حياة قنص في بلاد البنجال" ملخصاً عقيدة الفداء المسيحية في جملة واحدة: "لم تتفهم قبيلة واحدة من تلك القبائل الوثنية مثل هذه الفكرة الهائلة، وفيها ما فيها من أن الإنسان كان قد جاء إلى الوجود ملطخاً بالخطيئة، وأن هذه الخطيئة التي لم يكن مسئولاً عنها كانت في حاجة إلى من يكفر عنها، وأن خالق كل الأشياء كان عليه أن يضحي بابنه الوحيد المولود من صلبه؛ لكي يزيل أثر هذه اللعنة المبهمة" (٢).

وهكذا نرى المسيحية غير مقنعة لدى المبشرين والمبشرين بها على حد سواء، ومن العجب أن يطلبوا منا أن نقبل هذه الأضاليل التي لا يسوغها عقل سليم، فكيف إذا كان بين أيدينا السراج الساطع، والبرهان الواضح، والتفسير الشامل، أنتركه ونتبعهم؟! ولقد ترتب على بحث قضية الصلب في الأناجيل الكلام للواء أحمد عبد الوهاب ما يلي:

١. اختلفت روايات الأناجيل الأربعة في أحداث الصلب: فقد اختلفت الرواة في مقدمة الأحداث مثل قصة مسح جسد المسيح بالطيب، وقصة خيانة يهوذا. كذلك اختلفت الرواة في العشاء الأخير وكيفية التحضير له وتوقيته ودور يهوذا، وما قيل عن شك التلاميذ الذي تنبأ المسيح بوقوعهم فيه في تلك الليلة الأخيرة، واختلفت الأناجيل في الليلة الأخيرة وأحداثها، وإن كان هناك اتفاق على أنه في قمة المحنة التي تعرض لها المسيح "تركه التلاميذ كلهم وهربوا". واختلفوا في المحاكمات وإعدادها وزمانها ومكانها، كما اختلفوا في قصة إنكار بطرس، وكان الخلاف حاداً في الصلب، وأحداثه السابقة واللاحقة، ولعل أخطر خلاف وقع هو ما قيل عن توقيت الصلب ويومه، فقد تأرجح ذلك بين يوم الخميس على أحد الأقوال، ويوم الجمعة على أقوال أخرى، وكما اختلفوا في الصلب، فإنهم اختلفوا في الدفن.

١ - أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٧٤، ١٧٥

٢ - أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٧١، ١٧٢.

٢. واختلفت الروايات التي ذكرت عن نهاية يهوذا، وإن كانت قد اتفقت على أنه هلك في أعقاب حادث الصلب، وفي ظروف غامضة تناظر ما قيل عن هلاك بيلاطس الحاكم الروماني. وهذا الأخير ذكرت بعض الروايات أنه مات ميتة القديسين والشهداء، بينما قالت رواية أخرى أنه مات ميتة الشياطين.

٣. وفي شتى المناسبات رأينا المسيح يرفض كل محاولة لقتله يقول لليهود: "لماذا تطلبون أن تقتلوني؟" وعند المحاكمة كان المقبوض عليه يقول لمحاكميه: "إن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني". بل في النزاع الأخير نجد ذلك المصلوب يصرخ في يأس وحسرة قائلا: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟!".

٤. ويكفي أن نورد في موضوع تنبؤات المسيح بنجاته من القتل قوله: "ستطلبوني ولا تجدوني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا".

٥. وأما عن تنبؤات المزامير بنجاة المسيح من القتل، فقد ظهرت فيها الحقيقة بأوضح ما تكون مؤكدة جميعها بنجاة المسيح؛ لأن "الرب يحفظه ويحييه، يغتبط في الأرض، ولا يسلمه إلى مرام أعدائه". (المزامير ٤١: ٢). وجاء على لسان المسيح أيضا: "لا أموت بل أحيأ وأحدث بأعمال الرب. تأديبا أدبني الرب، وإلى الموت لم يسلمني". (المزامير ١١٨: ١٧، ١٨)، أما يهوذا الخائن فإنه "سقط في الهوة التي صنع. يرجع تعبته على رأسه، وعلى هامته يهبط ظلمه. أحمد الرب حسب بوه، وأرثم لاسم الرب العلي". (المزامير ٧: ١٥، ١٧)، وذلك لأن: "معروف هو الرب. قضاء أمضى. الشرير يعلق بعمل يديه". (المزامير ٩: ١٦)، لقد صلب يهوذا، فهكذا تنبأت المزامير.

٦. ولقد اختلف المسيحيون الأوائل في صلب المسيح: اختلفوا فيه كحادث فقال بعضهم: ما صلب المسيح، ولكن صلب أحد تلاميذه. كذلك اختلفوا في الصلب كنظرية تتكلم عن الفداء والخلاص، فرفضه الرفضون، وقالوا: إن الإنسان يعتمد على ركيزتين اثنتين هما: إيمان بالإله الواحد خالق الأكوان، وعمل صالح يثبت ذلك الإيمان ويصدقته. وما عدا ذلك فهو ضلال وضياح.

تلك هي خلاصة النتائج التي انتهى إليها بحث قضية الصلب، وهي تبين أن الصلب يمثل بحق ذروة المشاكل والتناقضات التي تحتويها الأناجيل.

إنه مشكلة رئيسة يكمن حلها في عقل القارئ، وضميره، وهو يستطيع حلها بسهولة بشرط ألا يكون من الذين قال عنهم المسيح: تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة: "أذهب وقل لهذا الشعب: اسمعوا سمعا ولا تفهموا، وأبصروا إبصارا ولا تعرفوا. غلظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه واطمس عينيه، لئلا يبصر بعينه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه، ويرجع فيشفى". (إشعياء ٦: ٩، ١٠)^(١).

تاسعا. طوائف نصرانية تنكر صلب المسيح:

إذا نظرنا إلى مسألة صلب المسيح وقتله لم نجد عند المسيحيين مسألة إجماعية، بل وجد من طوائف المسيحيين من ينفي الصلب والقتل، فمن القائلين بذلك: (الساطرسيون - والكاريوكراتيون - والمراكيون - والبارديسيانيون - والبارسكالونيون - والبوليسيون)، هؤلاء مع كثير غيرهم لم يسلموا بوجه من الوجوه بأن المسيح سمر فعلا، ومات على الصليب وما ذكر هنا مقرر في تاريخهم الذي يدرس في مدارس اللاهوت الإنجيلية.

ومن القائلين بأن الشخص المصلوب غير عيسى قطعا، وأنه لم تسلط عليه أيدي مضطهدين، بل رفع إلى السماء طوائف: (الدوسيتية - والمرسيونية - والقلنطينية)، ونذكر هنا شهادات من بعض علماء النصرانية تفيد المطلاع بصيرة:

^١ - المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٢٨٠: ٢٨٣ بصرف.

١. قال المسيو إرادوارسيوس الشهير بمعارضة المسلمين في كتابه "عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانية" صفحة ٤٩ قال: "إن القرآن ينفي قتل عيسى وصلبه، ويقول بأنه أُلقي شبهه على غيره فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه، وما قاله القرآن موجود عند بعض طوائف النصارى، وقد صرح إنجيل القديس برنابا باسم الذي صلب بدل عيسى فذكر أنه يهوذا".

٢. ذكر الهرارنست دي بونس الألماني في كتابه "الإسلام أي النصرانية الحق" في صفحة ١٤٢: أن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شائبه من الذين لم يروا المسيح من أصول النصرانية الأصلية

٣. قال ملن في الجزء الأول من كتابه المسمى "تاريخ الديانة النصرانية": "إن تنفيذ الحكم كان في وقت الغلس وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال أحد المجرمين بالمسيح ممن كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم، كما اعتقدت بعض الطوائف وصدقهم القرآن" (١).

٤. ألقى البروفسور فنك مؤسس "ندوة عيسى" الشكوك على قصة صلب المسيح إذ كتب: "إن قصة الصلب ليست من الأمور المقطوع بها"، وكتب أيضا: "إن قصة إلقاء القبض على المسيح ومحاكمته وإعدامه هي في معظمها من نسج الخيال"، وكتب: "إن رواية مرقس عن الآلام التي تصل ذروتها بإلقاء القبض على عيسى، ومحاكمته وصلبه هي من نسج خياله القصصي"، وأيضا: "إن قصة الصلب لا تليق أن تحدث للمسيح إطلاقا".

٥. وكتب ويلسون: "ليس هنالك من براهين حقيقية وصادقة لقصة اعتقال عيسى وإعدامه"، وكتب أيضا: "تذكر الأسفار الثلاثة الأولى أن عيسى أسس طقس القربان المقدس خلال، أو بعد الوجبة التقليدية لعيد الفصح اليهودي، فلو صح ذلك لكانت كل تفاصيل القصة: الاعتقال والمحاكمة، والصلب من نسج الخيال، إذ لا يعقل أن يقوم اليهود بخرق أكثر أعيادهم قداسة لأجل محاكمة شخص".

٦. أما البروفسور بورتون ماك فليس لديه أي شك في أن القصة خرافية؛ حيث كتب: "أما بالنسبة لقصة الصلب والقيامة، فإن مرقس - أول من كتب القصة - أخذ الفكرة الأساسية من أسطورة كريستوس، غير أنه تجرأ بأن تخيل كيف يمكن أن تبدو قصة الصلب والقيامة لو كتبها تاريخا فعليا تمت أحداثه في القدس، وهو ما كانت الأسطورة ترفضه، وهكذا يمكننا أن نفهم قصة مرقس باعتبارها دجما لأحداث عيسى الحقيقي مع أسطورة كريستوس"، وكتب: "كافة القصص في الأسفار الأخرى تبدأ من مرقس فلا يغير أحد من المؤلفين بعد مرقس أساس القصة"، وكتب أيضا: "ثم بعد ذلك صار المسيحيون يتخيلون قصة مرقس الخيالية كما لو كانت تاريخا واقعا".

٧. وكتب البروفسور Geza Vermes ما يلي: "لم يكن النصارى يعتقدون بقصة آلام المسيح ولا بقصة صلبه"، و"إن أحداث محاكمة المسيح من قبل المحكمة اليهودية العليا بتهمة دينية، وصدور الحكم عليه ثم تصديقه من السلطة السياسية، كل هذه الأحداث ليست خارج نطاق الالتباس والريبة"، وفوق كل ذلك نلاحظ أنه لا يوجد في سفر الأقوال، ولا في سفر توما، المكتشف حديثا، أي إشارة لا من قريب ولا من بعيد عن قصة الآلام والصلب، مع أنهما كتبوا في وقت مبكر أي حوالي ثلاثين عاما قبل أول ما كتب من الأسفار الأربعة، فلا بد أنهما أقرب إلى الحقيقة فيما يتعلق بحياة عيسى عليه السلام من الأسفار القانونية الأربعة.

٨. كانت رسالة شيث الكبير الثانية Second Treatise of the Great Seth من جملة المخطوطات التي تم اكتشافها في نجع حمادي بمصر سنة (١٩٤٥م)، وقد ورد فيها على لسان المسيح ما يلي: "لقد كان

^١ - قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص٥٣١، ٥٣٢.

شخصاً آخر.. الذي شرب المر والخل، لم يكن أنا.. كان شخصاً آخر. كان شخصاً آخر الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه، في حين كنت مبتهجا في الأعمالي من فوق.. كان خطوهم وكنت أضحك من جهلهم". (٢٠ - ٦: ٥٦).
 ٩. كما ورد أيضا في مخطوطة "رؤيا بطرس" Apocalypse of Peter، المكتشفة أيضا في نجع حمادي ما يلي: "لقد رأيته، كما بدا لي في ظاهره، وهم يقبضون عليه فقلت: ماذا أرى؟ يا إلهي! هل أنت حقا الذي أخذوه؟ وهل يدقون المسامير في قدمي ويدي شخص آخر؟ ومن هو هذا الذي فوق الصليب يضحك مبتهجا؟ قال لي: هذا الذي تراه يضحك مبتهجا فوق الصليب هو المسيح الحي، أما الذي يدق المسامير في يديه ورجليه فهو البديل، لقد ألحقوا العار بشبيهه الذي بقي بين أيديهم فانظر إلي، وانظر إليه!". (رؤيا بطرس ٨١: ٤ - ٢٤)^(١).
 إن القرآن الكريم حسم التخبیط واللغط في موضوع الصلب حين قال سبحانه وتعالى: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧)﴾ (النساء).

عاشرا. مسألة الصلب بين إقرار بولس ورفض المسيح:

نشر ماكيل ه. هارت وهو مؤرخ بحاثة وعالم رياضيات مشهور كتابا بعنوان "المائة العظام في التاريخ" ووضع لائحة بأسماء هؤلاء المائة العظام، موضحا الأسباب الموجبة لموقع كل واحد منهم في لائحته، ومن المدهش حقا أن يضع محمدا ﷺ على رأس لائحة المائة وذلك لأسباب وجيهة، في حين أنه وضع عيسى المسيح الرجل الذي يدعوه المسيحيون "الرب" و "المخلص"، ولأسباب وجيهة أخرى، وضعه في المقام الثالث في القائمة.
 مع العلم بأن عدد المسيحيين اليوم يزيد على عدد المسلمين بما يقرب من مائتي مليون، فإن موقع عيسى هو الثالث في اللائحة؛ لأن المؤرخ هارت يقول بأن بولس وعيسى هما مؤسسا المسيحية، ولكنه يعطي الفضل الأكبر إلى بولس، وكل مسيحي يسلم بأن المؤسس الفعلي للمسيحية هو بولس، وليس عيسى عليه السلام.
 إن أسباب الخلاف بين المسلم والمسيحي حول العقيدة، والإيمان، والأخلاق، والفضائل تعود إلى أقوال بولس في رسائله، كورنثوس، فيلي، غلاطية، تسالونيكي وغيرها في الكتاب المقدس.

وعلى العكس مما نصت عليه تعاليم المعلم عيسى بأن الخلاص يتم فقط بحفظ الوصايا وتطبيق الناموس: "فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا، يدعى أصغر في ملكوت السماوات. وأما من عمل وعلم، فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات". (متى ٥: ١٨، ١٩)، يدق بولس هذا مسماره واضعا الوصايا والناموس على الصليب "كولوسي ١٤٠٢ مدعيا أن الخلاص هو فقط في موت وقيامة عيسى المسيح: "لأنه يقول: «الرسائل ثقيلة وقوية، وأما حضور الجسد فضعيف، والكلام حقير». «لأننا لا نمدد أنفسنا كأننا لسنا نبلغ إليكم. إذ قد وصلنا إليكم أيضا في إنجيل المسيح. غير مفتخرين إلى ما لا يقاس في أعاب آخرين، بل راجين إذا نما إيمانكم أن نتعظم بينكم حسب قانوننا بزيادة". (رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٠: ١٤، ١٥). يقول القديس بولس: ليس لدى المسيحية ما تقدمه إلى البشرية غير دم المسيح، فإن لم يمت عيسى ولم يقيم من الموت، فلا خلاص في المسيحية!

^١ - المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص ٢٢١: ٢٢٣.

يقول البروفيسور جورغين مولتمان في كتابه "الرب المصلوب": "إن موت عيسى على الصليب هو أساس اللاهوت المسيحي.. وترتكز جميع الأقوال المسيحية عن الرب، والخلق، والخطيئة، والموت على مسألة المسيح المصلوب. كما تنبع كل الأقوال المسيحية عن التاريخ والكنيسة، والإيمان، والقدسية، والمستقبل، والأمل، عن قصة المسيح المصلوب".

وبعبارة موجزة: لا اعتقاد بالصلب.. إذن لا مسيحية!!

إن دعاة المسيحية يزعمون أن الخلاص يأتي فقط من "دم الرب عيسى"، ويقولون في ذلك: إن كل أعمالكم نجس فلو قبلتم دم عيسى لغسل الخطايا، ولو قبلتم به على أنه مخلصكم لأصبحتم كملائكة تمشي على الأرض. ماذا نقول نحن المسلمين ردا على هذا الادعاء المسيحي؟ ليس لدينا جواب أفضل من رد الله على التجمع اليهودي: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بختاننا عظيما (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما (١٥٨)﴾ (النساء).

لقد تبنى بولس فكرة سفك دم المسيح كفارة من خطايا البشر، وروج لها في رسائله، تلك الرسائل التي لم يكتب أقدمها إلا بعد رفع المسيح بأكثر من ٢٠ عاما، فلقد كان الصلب وسفك الدم هو ما عزم بولس على ألا يعرف من المسيحية شيئا غيره، وهو يقرر ذلك في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، حيث يقول: "أنتم الذين أمام عيونكم قد رسم يسوع المسيح بينكم مصلوبا". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣: ١).

ولقد كان ذلك هو ما قبله بولس وإنجيله الذي ذهب يبشر به: "وأما أنتم أيها الإخوة فلستم في ظلمة حتى يدرككم ذلك اليوم كلص. جميعكم أبناء نور وأبناء نهار... وأما نحن الذين من نهار، فلنصح لابسين درع الإيمان والمحبة، وخوذة هي رجاء الخلاص. لأن الله لم يجعلنا للغضب، بل لاقتناء الخلاص برنا يسوع المسيح، الذي مات لأجلنا، حتى إذا سهرنا أو نمنا نحيا جميعا معه". (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي ٥: ٤ - ١٠). ومن المعلوم أن بولس كان عدو المسيحيين وخصمهم، وأنه لما ادعى الإيمان لم يصدقه جماعة المسيح ولولا أن شهد له برنابا لما قبلوه. وبرنابا يقول في أول إنجيله: إن بولس نفسه كان من الذين بشروا بتعليم جديد غير تعليم المسيح".

وإذا كان بولس مجرد مبشر يهودي بالإنجيل اعتنق النصرانية بدون قبول له من النصارى، لعداوته السابقة للنصرانية، وإذا كان بولس قد أخذ عقيدة الصلب والفداء من الوثنيين الهنود وقام بنسبها للمسيح تلفيقا وزورا، على ما يؤكد علماء النصرانية المنصفون؛ فإننا - أولا وأخيرا - لا نريد أن نقف عند مصب النهر، بل أن نقف عند منبعه، إن الأهم من رأي بولس هو رأي المسيح، هل وافق المسيح على الصلب، وهل سلم نفسه لليهود، وهل تخلى الله عنه؟ ما هو تصورنا لما حدث من خلال تعاليم المسيح، وما ورد على لسانه في الكتاب المقدس، إن عقيدة الصلب والفداء تقتضي أن يبذل المسيح نفسه عن رضا، وطيب خاطر فداء للبشرية، كما يفعل المواطنون حينما يبذلون أنفسهم طوعية في الحروب، ويقبلون على الموت فداء لأوطانهم، فهل كان هذا هو موقف المسيح؟

"منذ بدأ المسيح دعوته حتى آخر يوم فيها، نجد الأناجيل تضع لنا، بين الحين والحين علامات على طريق الرسالة المسيحية، تذكرنا دائما باستبعاد فكرة قتل المسيح مهما وضع من أجل تبريرها من نظريات وفلسفات، فالمسيح صاحب الدعوة الذي يعلم حقيقتها وحدودها، أكثر من بولس وغيره من كتبة الرسائل المسيحية، هو الذي رفض فكرة قتله واستنكرها تماما، ثم هو قد عمل كثيرا لإحباط جميع المحاولات التي رآها تبذل من اليهود لقتله، فلقد حدث أن "ولما كان العيد قد انتصف، صعد يسوع إلى الهيكل، وكان يعلم. فتعجب اليهود قائلين: كيف هذا يعرف الكتب، وهو

^١ - المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص ١٩١، ١٩٢.

لم يتعلم؟ أجابهم يسوع وقال: تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم، هل هو من الله، أم أتكلّم أنا من نفسي. من يتكلّم من نفسه يطلب مجد نفسه، وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم. أليس موسى قد أعطاكم الناموس؟ وليس أحد منكم يعمل الناموس! لماذا تطلبون أن تقتلوني؟ (يوحنا ٧: ١٤ - ١٩). "أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم. لكنكم تطلبون أن تقتلوني؛ لأن كلامي لا موضع له فيكم. أنا أتكلّم بما رأيته عند أبي، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم". أحابوا وقالوا له: «أبونا هو إبراهيم». قال لهم يسوع: «لو كنتم أولاد إبراهيم، لكنتم تعملون أعمال إبراهيم! ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله. هذا لم يعمله إبراهيم". (يوحنا ٨: ٣٧ - ٤٠).

ولما كان المسيح يخشى على حياته من القتل، فإنه اتخذ من الاحتياطات ما يجنبه الوقوع في براثن أعدائه من اليهود؛ فقد "وجاء إلى الناصرة حيث كان قد تربى. ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ، فدفع إليه سفر إشعياء النبي.. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه.. فامتلاً غضبا جميع الذين في المجمع حين سمعوا هذا، فقاموا وأخرجوه خارج المدينة، وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى. (لوقا ٤: ١٦ - ٣٠).

"فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه. فعلم يسوع وانصرف من هناك". (متى ١٢: ١٤، ١٥). "فرفعوا حجارة ليرجموه أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازا في وسطهم ومضى هكذا". (يوحنا ٨: ٥٩). "وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل؛ لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية؛ لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه". (يوحنا ٨: ١). "فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه، فلم يكن يسوع أيضا يمشي بين اليهود علانية، بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية إلى مدينة يقال لها أفرام، ومكث هناك مع تلاميذه". (يوحنا ١١: ٥٣، ٥٤).

وفي الساعات العصبية، أو الساعات الأخيرة للمسيح بين الناس نجده يصرخ بكل قوته طالبا النجاة، فما كانت فكرة سفك دمه فدية عن خطايا الكثيرين إلا سرابا علق برسالته فيما بعد. إن الذين يرفضون هذا القول، إنما يلحقون بالمسيح صفات يبرئه منها كل مؤمن وعاقل. إن الأناجيل تربنا وخاصة في الساعات الأخيرة مواقف حاكمة، ترفض كلها فكرة قتل المسيح، وتقطع كل صلة بينها وبين رسالته ومن هذه المواقف ما يلي:

١. في نهاية الفترة التي سبقت عملية القبض مباشرة، كان آخر ما نطق به المسيح في صلاته، هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه المسيح رسول الله، فقال: "وهذه هي الحياة الأبدية أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". ثم أعقب المسيح ذلك مباشرة بتقرير واضح لا لبس فيه ولا إبهام بين فيه أن الرسالة التي بعثه الله بها قد اكتملت؛ فقال: "أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته". (يوحنا ١٧: ٣، ٤). لقد اكتملت رسالة المسيح تماما قبل حادث الصلب، فمن الذي يفتي بما يخالف شهادة المسيح؟!

٢. وينطق كل مشاهد من مشاهد المعاناة في النصوص الحديثة برفض المسيح فكرة قتله: "ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا، وابتدأ يدهش ويكتئب. فقال لهم: «نفسى حزينة جدا حتى الموت! امكثوا هنا واسهروا». ثم تقدم قليلا وخر على الأرض، وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن. وقال: «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس. ولكن ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت». ثم جاء ووجدهم نياما، فقال لبطرس: «يا سمعان، أنت نائم! أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف». ومضى أيضا وصلى قائلا ذلك الكلام بعينه. ثم رجع ووجدهم أيضا نياما، إذ كانت أعينهم ثقيلة،

فلم يعلموا بماذا يجيبونه. ثم جاء ثالثة وقال لهم: «ناموا الآن واستريحوا! يكفي! قد أتت الساعة! هوذا ابن الإنسان يسلم إلى أيدي الخطاة. قوموا لنذهب! هوذا الذي يسلمني قد اقترب". (مرقس ١٤ : ٣٣ - ٤٢).

٣. وحين شعر المسيح بالخطر يقترب منه وقوة الظلم تتقدم للقبض عليه، كانت صيحته لتلاميذه: "قوموا ننطلق؛ هوذا الذي يسلمني قد اقترب". (متى ٢٦ : ٤٦). لقد كان يطلب بإلحاح إلى تلاميذه أن ينهضوا لمعاونته في الانطلاق بعيدا عن المحنة الوشيكة، إلا أنهم كانوا "نياما إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه" وتركوه وحيدا يعاني آلامه. ٤. وحين جاءت قوة الظلم وتقدم يهوذا ليدلهم على سيده: "قال له يسوع: يا صاحب، لماذا جئت" (متى ٢٦: ٥٠).

٥. وفي المحاكمة: "ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب: رؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجتمعهم قائلين: إن كنت أنت المسيح، فقل لنا! فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني". (لوقا ٢٢ : ٦٦ - ٦٨)، وهنا نجد أن المسئول لو جاوبهم، فلن تخرج الإجابة عن أحد قولين، لا ثالث لهما: . نعم، أنا المسيح. . لا، لست أنا المسيح.

ومن الواضح أن كل من يؤمن بروايات الأناجيل عن أحداث الصلب، سوف يرفض حتما الإجابة الثانية، وبذلك تبقى الإجابة الأولى، والتي يمكن أن توضع في الصيغة الآتية: "فقال لهم: نعم، أنا المسيح، لكنكم لا تصدقون وإن سألت لا تجيبوني، ولا تطلقوني"، وسواء وضعت الإجابة الأولى في الصيغة المقترحة، أم لم توضع، فالنتيجة التي لا مفر من قبولها تقول: بفرض أن الذي يستجوبه الكهنوت اليهودي هو المسيح، فمن الواضح أنه كان يطلب إطلاق سراحه. وبذلك لا يوجد محل لأي قول يقول: إنه جاء ليبدل نفسه فدية عن كثيرين.

ومن الواضح أيضا أنه باستخدام القول الثاني، فإن إجابة المقبوض عليه يمكن أن تأخذ الصيغة التالية: "فقال لهم: لا، لست أنا المسيح الذي تطلبونه، لكنكم لا تصدقون. وإن سألت النجاة لا تجيبوني ولا تطلقوني". وسواء كان هذا أو ذاك، فإن ما جاء في هذه المحاكمة يلغي كل ما يقال عن نظرية قتل المسيح.

٦. ونصل الآن إلى الشهادة الأخيرة، التي تنسبها الأناجيل للمصلوب في الرمح الأخير، ألا وهي: صرخة اليأس على الصليب. من يسمع قول مصلوب يصرخ إلى ربه "بصوت عظيم قائلا: إلوي إلوي، لما شبقتي؟ الذي تفسيره: إلهي إلهي لماذا تركتني؟" (مرقس ١٥ : ٣٤)، من يسمع هذا ثم يقول إن المسيح "بذل نفسه لأجل خطايانا؛ لينقذنا من العالم الحاضر الشرير". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ١ : ٤)، وإنه "بذل نفسه فدية لأجل الجميع". (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تيموثاوس ٢ : ٦)، أو إنه "إذ وجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب". (رسالة بولس الرسول إلى أهل فيليبي ٢ : ٨)، أو إنه "بعدما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله، منتظرا بعد ذلك حتى توضع أعداؤه موطئا لقدميه". (الرسالة إلى العبرانيين ١٠ : ١٢، ١٣)!

منذ ما يقرب من ٢٠٠٠ عام وقف المسيح يعلم الكهنوت اليهودي مشيئة الله، فقال لهم: "لو علمتم ما هو؛ إني أريد رحمة لا ذبيحة". (متى ١٢ : ٧)، وحتى اليوم لا يزال الكثيرون مصرين على تجاهل مشيئة الله، فيرفضون الرحمة، ويقبلون الذبيحة^(١)!

إننا نظلم عيسى ونغمطه حقه إذا قلنا: إنه كان يبكي كامرأة لينقذ جسده من الآلام الجسمية، سوف يحملون منطقا زائفا لو أنهم نجحوا في قتل أي واحد على أنه المسيح، سوف يتأكدون حينئذ أنه دعا؛ لأن الله العلي القدير لم

^١ - المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٢٠٢ : ٢٠٦.

يكن ليسمح أبدا بقتل المسيح الحق، ومن هنا كان الرفض الدائم لليهود لعيسى ابن مريم على أنه المسيح الذي وعدوا به "الرفض الأبدي"^(١).

حادى عشر. نهاية يهوذا خير شاهد على صدق القرآن وتحريف الإنجيل:

اتفقت النصارى على القول بأن يهوذا الإسخريوطي هو الذي دل على يسوع المسيح، وكان يهوذا هذا رجلا عاميا من بلدة تسمى "خريوت"، تبع المسيح وصار من خواص أتباعه الذين يلقبونهم بالتلاميذ الاثني عشر، الذين بشهرهم بأنهم يكونون معه في الملكوت على اثني عشر كرسيًا، ويدينون بني إسرائيل، أي: يحاسبونهم يوم الدين، ومن الغريب أن يهوذا كان يشبه المسيح في خلقه، كما نقل "جورج سايل" الإنكليزي في ترجمته للقرآن المجيد، في تعليقه على سورة آل عمران، وعزا هذا القول إلى "السيرنثيين والكريوكراتيين" من أقدم فرق النصارى الذين أنكروا صلب المسيح، وصرحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الذي كان يشبهه شبحا تاما.

وقالوا: "حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلا: قد أخطأت إذ سلمت دما بريئا». فقالوا: «ماذا علينا؟ أنت أبصر!» فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه". (متى ٢٧: ٣ - ٥)، وغرضنا من هذا الخبر بيان أنهم معترفون بأن يهوذا فقد بعد حادثة الصلب، ولم يظهر في الوجود، وأنهم يدعون أن سبب هذا هو قتل نفسه من الحزن والأسف. ونحن نرى أنه إنما فقد؛ لأنه هو الذي صلب، والمسيح هو الذي نجاه الله ورفع، فإن الذي يحمله حزنه وألم نفسه على أن يبخل نفسه بيده خنقا أو شنقا لا يستبعد منه أن يسلبها بالاستسلام إلى من يتولى ذلك عنه فإنه أهون عليه، فمن المعقول أن يكون يهوذا عندما دل اليهود على المسيح في الليل رأى بعينيه عناية الله بإنجائه وإنقاذه من بين أيديهم "كما أنجى أخاه محمدا عليهما الصلاة والسلام من أيدي كفار قريش، وكانوا أشد معرفة له من معرفة اليهود للمسيح لأنهم لم يكونوا يحتاجون إلى بذل المال لمن يدهم عليه، كما بذلت اليهود ثلاثين قطعة من الفضة ليهوذا فخرج ليلة الهجرة من بين الذين كانوا ينتظرونه عند داره ليقتلوه ولم يبصروه"، فلما رأى يهوذا ذلك وعلم درجة عناية الله بعبده ورسوله عظم ذنبه في نفسه، واستسلم للموت ليكفر الله عنه ذنبه كما كفر ذنب الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل بقتل أنفسهم فأخذوه وصلبوه من غير مقاومة تذكر، فرواية الإنجيل وسفر الأعمال عن وجدانه مخنوقا أو مشنوقا غير مسلمة، وقد تعارض القولان فتساقطا، ووجب اعتماد قول برنابا الذي أخذ به بعض قدماء النصارى.

وإذا كان إيمان يهوذا قويا إلى هذه الدرجة درجة الانتحار والبخل من ألم الذنب فليت شعري، لماذا لا تقبل توبته ولا ينفعه إيمانه حتى ادعوا أنه مات كافرا، وأن كرسيه في الملكوت سيبقى خاليا، وبشارة المسيح لا تكون صادقة؟ ولماذا تقبل توبة بطرس الذي أنكر المسيح ولعنه المسيح في حياته وسماه شيطانا، على أن توبته دون توبة يهوذا، وما كان يهوذا إلا متمما لذريعة الفداء التي هي أساس الدين عندهم".

"إن ما اتفق عليه متى ولوقا وصمت عنه مرقس ويوحنا هو أن يهوذا الخائن قد هلك في ظروف مريبة، لكن روايتهمما اختلفت في ثلاثة عناصر:

الأول: كيفية موته، وفيها يروي متى أن يهوذا قد انتحر بخنق نفسه، بينما يروي لوقا أنه مات ميتة دموية، انشق فيها وسطه وانسكبت جميع أحشائه.

الثاني: يتعلق بمشتري الحقل، فيروي متى أن رؤساء الكهنة هم الذين اشتروه، بينما يروي لوقا أن يهوذا كان هو الشاري.

^١ - أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٧١.

الثالث: كذلك اختلفت روايتا متى ولوقا في سبب تسمية الحقل باسم: حقل دم، فرواية متى ترجع ذلك لكونه قد اشترى بنقود كانت ثمنًا يبيع به دم بريء، بينما يرد لوقا تلك التسمية إلى الميتة الدموية التي ماتها يهوذا. إن ما يذكره متى ولوقا عن هلاك يهوذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا هو: أن يهوذا قد اختفى في فترة الاضطراب التي غشيت أحداث الصلب وملا بساته. وإذا كان هناك من يعطي أيا من هاتين الروايتين قدرًا من الثقة، فإن ذلك القدر يمكن تقييمه بمقارنتهما بما تروييه المصادر المسيحية القديمة عن هلاك بيلاطس.

عجبا، وأي عجب... لقد جعلت القصة الأولى من بيلاطس شهيدًا، تتسلم رأسه ملائكة السماء؟! في حين جعلت منه القصة الثانية شيطانًا، ترتع في جسده الشياطين؟! على أن ما يعنينا هو التشابه الملحوظ بين نهايتي كل من يهوذا وبيلاطس، فقد وجدت روايات تقول أن كلا منهما أهلك نفسه انتحارًا، بينما وجدت روايات أخرى تقول بعكس ذلك. فأيهما نرفض، وأيهما نصدق!!

إن ذلك يعني شيئًا جوهريًا لا مناص من الأخذ به في كل ما يتعلق بالعقائد، والروايات الدينية، ألا وهو أن تخضع جميعها للبحث والتمحيص على ضوء ما ميز به الله الإنسان من عقل وفكر، وعندئذ يستطيع الإنسان أن يميز الخبيث من الطيب، والحق من الضلال، أما أن يدعي الناس إلى إبطال عقولهم، والتسليم بكل ما يقال عنه أنه كتاب مقدس، باعتبار "أن كل الكتاب هو موحى به من الله"، فتلك مغامرة لها باب واسع يستطيع التوصليل بسرعة إلى الهلاك الأبدي^(١).

إن ما يحكيه متى عن نهاية يهوذا يتعارض كما بينا مع ما يحكيه لوقا، والقاعدة الأصولية في المتعارضين إذا لم يمكن الجمع بينهما ولا ترجيح أحدهما على الآخر أن يقال: "تعادلا فتساقطا"، وبهذه القاعدة التي لا مندوحة عن القول بما في هذه القصة وغيرها من التعارض في هذه الأناجيل اتقاء الوقوع في الترجيح بغير مرجح.

إذن فرواية متى عن نهاية يهوذا ساقطة وكذلك رواية لوقا، فإذا أضفنا إليها إنجيل مرقس ويوحنا، صار عندنا أربعة أناجيل لا يوجد بها رواية صريحة وصحيحة لنهاية يهوذا، وإننا بناء على ما سبق لا يسعنا إلا أن نتوجه إليهم بالسؤال قائلين: كيف كانت نهاية يهوذا عندكم يا كتاب الأناجيل ويا أصحاب المعرفة والعلم؟!

إن الإجابة المتوقعة هي: ليس في الإمكان أفضل مما كان، وما كان للأسف الشديد من رواية متى ولوقا ساقطة، لا يعتد به! وإذا سألنا: لماذا لا يقبل النصارى إلقاء شبه المسيح على يهوذا، أو غيره وصلبه بدلًا من المسيح؟ وهل هذا الأمر صعب الحدوث على أرض الواقع؟

يجيب عن هذا السؤال د. عبد الوهاب النجار فيقول: مما يسهل إلقاء شبه المسيح على غيره هذه الحادثة التي ذكرها متى في إنجيله، ونصها: "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين. وتغيرت هيئته قدامهم، وأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه. فجعل بطرس يقول ليسوع: «يا رب، جيد أن نكون ههنا! فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة». وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم، وصوت من السحابة قائلا: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا». ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جدا. فجاء يسوع ولمسهم وقال: «قوموا، ولا تخافوا». فرفعوا أعينهم ولم يروا أحدًا إلا يسوع وحده". (متى ١٧ : ١-٨).

وقد ذكر هذه الحادثة أو المعجزة كل من مرقس ولوقا، وأغفلها يوحنا، ومن العجيب أنه كان أحد شهودها، ومع ما بينهم من التناقض في عدد الأيام فقد اتفقوا على حصولها في الجملة، إن هذا التغيير الذي يقرون به في هيئة المسيح

^١ - المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص١٨٣ : ١٨٨.

في وجهه وثيابه يفسر لنا بأجلى بيان إلقاء شبهه على غيره وتغير هيئته، حتى إن الذين أتوا للقبض عليه أخذوا من ألقى عليه شبه المسيح فوق في الورطة ونجا عيسى عليه السلام^(١).

ثاني عشر. كلام الإمام الرازي مقطوع من سياقه:

وأما كلام الإمام الرازي المستدل به فكلام مقطوع من السياق، إيهاما للمسلمين بأن أحد علماء المسلمين ينكر أن عيسى شبه لهم، ولو رجعنا إلى مصدر كلامه لعلمت تدليس هؤلاء المدلسين. والذي ذكره الإمام الرازي هو سؤال أي: اعتراض نقله عن أصحابه نقلاً أميناً بكامل أدلته كعادة علمائنا في المنهجية والأمانة العلمية، ثم أعقب هذا السؤال بعدة أجوبة عليه من علماء الأمة، ولما وجد أن هذه الأجوبة لا تسلم من الاعتراض ولم ترق إلى الأجوبة العقلية المقنعة من وجهة نظره فوض حقيقة الأمر إلى علم الله فقال: "وهذه الوجوه متعارضة متدافعة، والله أعلم بحقائق الأمور".^{(٢)(٣)}

١٩- إِنَّ الْقُرْآنَ يَنْكَرُ صَلْبَ الْمَسِيحِ وَالْأَنَاجِيلُ تَشْبِهُهُ، وَهَلْ كَانَ الصَّلْبُ أَوْلاً ثُمَّ الْقَتْلُ أَمْ الْقَتْلُ ثُمَّ الصَّلْبُ،

وفي هذه الآية مشاكل: {وَقَوْلِهِمْ (أي اليهود) إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ} (النساء: ١٥٧).

١ - لقد قَوْل القرآن اليهود ما لم يَقُولُوهُ، فمن المفترض (عقلاً ومنطقياً) أن اليهود لم يقولوا إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ فلو أنهم اعتقدوا أنه رسول الله لما صلبوه وقتلوه.

٢ - أليس من المنطقي أن الصلب يسبق القتل؟ فكان الأصوب أن يقول وما صلبوه وما قتلوه .

٣ - صلب المسيح حادثة حقيقية مؤيدة بالنبوات والتواريخ والمؤرخين اليهود والرومان من أمثال فيلو ويوسيفوس فكيف ينكرها القرآن بعد ٦٠٠ سنة من حدوثها، والبيّنة على من ادّعى؟ .

٤ - ناقض القرآن نفسه، فهو يقول {ما قتلوه} ولكنه يقول {إني متوفيك} (آل عمران: ٥٥) ويقول {فلما توفيتني} (المائدة: ١١٧) و يقول {والسلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموت} (مريم: ٣٣).

٥ - إن قتلوه ترجع لليهود فلماذا ينكر المسلمون تاريخية الصليب؟ ولماذا لا يكون المعنى أن اليهود صلبوا المسيح فعلاً (تاريخياً) ولكن لم يصلبوه أثراً، أي لم تتحقق لهم النتيجة المرجوة من صلبه وهي اندثار دعوته إن القرآن نفسه يعترف بقتل بعض الناس دون أن يعترف بوفاتهم، فيقول: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} (البقرة ٢: ١٥٤).

الرد :

١ - فلو أنهم اعتقدوا أنه رسول الله لما صلبوه وقتلوه عن قوله: { وقولهم إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ } والمعنى: أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: {يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون} (الحجر: ٦)، فكفار قريش يصفون النبي ﷺ بالمجنون، ولا يؤمنون بأن القرآن (ذكر)، ولا يصدقون بنزوله على النبي ﷺ، وقولهم: {نزل عليه الذكر} خرج مخرج السخرية منه، أو بمعنى: (يا أيها الذي يزعم أنه نزل عليه الذكر). ومثله أيضاً ما حكاه الله تعالى من قول كفار قوم شعيب عليه السلام {قالوا يا شعيب

^١ - قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص٥٠٧، ٥٠٨.

^٢ - مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، عند تفسير قوله تعالى: (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم).

^٣ - الشبهة والجواب كاملاً عن: موسوعة بيان الاسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط١/٢٠١٢.

أصلا تترك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنك الحليم الرشيد { (هود: ٨٧)، أي (أنت الذي تزعم أنك الحليم الرشيد). ومثله كذلك خرج مخرج السخرية والاستصغار للمشارك حين يدخل النار قول الله تعالى: { ذق إنك أنت العزيز الكريم (٤٩) } إن هذا ما كنتم به تمترون { (الدخان: ٥٠)، أي (كنت تزعم أنك العزيز الكريم). فمن عرف ما عرف العرب لم ينكر ما سكتوا عنه، فإن القرآن نزل بلسانهم، ووفق طرائقهم في البيان والتعبير، ومنها التهكم والحكاية.

٢- هل صُلب المصلوب ثم مات على الصليب أم قتل ثم صُلب ؟

لنلاحظ الدقة في قول: { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ } وقد وجه النصارى سؤال عجيب لهذه الآية وضح من خلال هذا السؤال أمر خطير وهو: أليس من المنطقي أن الصلب يسبق القتل؟ فكان الأصوب أن يقول وما صلبوه وما قتلوه؟ ولكن عهدهم القلم يقول: بسفر التثنية: ٢١: ٢٢ (و إذا كان على انسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة) وبسفر يشوع ٨: ٢٣ (و اما ملك عاي فامسكوه حيا و تقدموا به الى يشوع ٨: ٢٤ و كان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم و سقطوا جميعا بحد السيف حتى فنوا ان جميع اسرائيل رجع الى عاي و ضربوها بحد السيف ثم بعد ضربه بحد السيف { أي قُتل } ٨: ٢٩ و ملك عاي علقه على الخشبة الى وقت المساء) و بسفر استير ٩: ١٠ كذلك، إذن من خلال ما جاء بالعهد القديم وقوانين الصلب نجد أنه لا يُصلب أحد إلا بعد قتله أولاً، وبهذا فكل النصوص والفقرات الواردة عن قصة صلب اليسوع باطلة، لأنه لا يصلب أحد إلا بعد قتله أولاً.

٣- يدعي النصارى أن المسلمين بقولهم بنجاة المسيح من الصلب ينكرون حقيقة تاريخية أجمع عليها اليهود والنصارى الذين عاصروا صلب المسيح ومن بعدهم. فكيف لنبي الإسلام وأتباعه الذين جاءوا بعد ستة قرون من الحادثة أن ينكروا صلب المسيح؟! عند التأمل في شهادة الشهود تبين لنا تناقضها وتفكك رواياتهم. ولدى الرجوع إلى التاريخ والتنقيب في رواياته وأخباره عن حقيقة حادثة الصلب، ومن المصلوب فيها؟

يتبين أمور مهمة: أن قدماء النصارى كثر منهم منكرو صلب المسيح، وقد ذكر المؤرخون النصارى أسماء فرق مسيحية كثيرة أنكرت الصلب. وهذه الفرق هي: الباسيليديون والكورنثيون والكاربوكرايتون والساطرينوسية والبارديسيانية والسيرنثيون والبارسكالونية والبولسية والمائيسية، والتايتانيسيون والفلنطانيانية والهرمسيون.

وبعض هذه الفرق قريبة العهد بالمسيح، إذ يرجع بعضها للقرن الميلادي الأول ففي كتابه "المهرطقات مع دحضها" ذكر القديس الفونسو ماريادي ليكوري أن من بدع القرن الأول قول فلوري: إن المسيح قوة غير هيولية، وكان يتشع ما شاء من الهيئات، ولذا لما أراد اليهود صلبه؛ أخذ صورة سمعان القروي، وأعطاه صورته، فصلب سمعان، بينما كان يسوع يسخر باليهود، ثم عاد غير منظور، وصعد إلى السماء^(١). ويبدو أن هذا القول استمر في القرن الثاني، حيث يقول المفسر جون فنتون شارح متى (ص ٤٤٠): "إن إحدى الطوائف الغنوسطية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القيرواني قد صلب بدلاً من يسوع"^(٢). وقد نقل أوريجانوس تقليداً شائعاً في عهده بأن يسوع كانت يستطيع

^١ - Bruce Metzger , Canon of the new testament , page 79 نقلا عن هل اقتدانا المسيح على الصليب؟ (ص ٤٥) المؤلف: منقذ بن

محمود السقار الناشر: دار الإسلام للنشر والتوزيع الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

^٢ - المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، ص (٢٧٣، ٢٧٤) ط ٢. مكتبة وهبة. القاهرة، ١٤٠٨ هـ. ، وانظر تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضر (١/ ٢٠٧)، وقاموس الكتاب المقدس، ص (١١٢). عن السقار المرجع السابق ص ٤٦

في حياته أن يغير شكله وقتما وكيفما يشاء، ويقول إن هذا كان السبب في ضرورة قلة يهوذا الخائن؛ وإلا فإن المسيح كان معروفاً لدى عموم أهل أورشليم^(١).

وقد استمر إنكار صلب المسيح، فكان من المنكرين الراهب تيودورس (٥٦٠ م) والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص (٦١٠ م) وغيرهم.

ولعل أهم هذه الفرق المنكرة لصلب المسيح الباسيليديون الذين تعتبرهم الموسوعة الكاثوليكية في نسختها الإنجليزية من أهم الفرق النصرانية في القرن الثاني؛ وقد نقل عنهم سيوس في "عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانية" والمفسر جورج سايل القول بنجاة المسيح، وأن المصلوب هو سمعان القيرواني، وسماه بعضهم سيمون السيرناي، ولعل الاسمين لواحد. وهذه الفرقة كانت تقول أيضاً ببشرية المسيح، يقول باسيلوس الباسليدي: "إن نفس حادثة القيامة المدعى بها بعد الصلب الموهوم هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح". ولعل هؤلاء المنكرين لصلب المسيح قديماً هم الذين عناهم جرجي زيدان حين قال: "الخياليون يقولون: إن المسيح لم يصلب، وإنما صلب رجل آخر مكانه"^(٢).

ومن هذه الفرق التي قالت بصلب غير المسيح بدلاً عنه: الكورنثيون والكربوكراتيون والسيرنثيون. يقول جورج سايل: إن السيرنثيين والكربوكراتيين، وهما من أقدم فرق النصارى، قالوا: إن المسيح نفسه لم يصلب ولم يقتل، وإنما صلب واحد من تلاميذه، يشبهه شبيهاً تاماً، وهناك الباسيليديون يعتقدون أن شخصاً آخر صلب بدلاً من المسيح. وثمة فرق نصرانية قالت بأن المسيح نجا من الصلب، وأنه رفع إلى السماء، ومنهم الروسيتية والمرسيونية والفيلنطينائية. وهذه الفرق الثلاث تعتقد ألوهية المسيح، ويرون القول بصلب المسيح وإهانته لا يلائم البنية والإلهية^(٣).

كما تناقل علماء النصارى ومحققوهم إنكار صلب المسيح في كتبهم، وأهم من قال بذلك الحواري برنابا في إنجيله، ويقول ارنست دي بوش الألماني في كتابه "الإسلام: أي النصرانية الحقّة" ما معناه: إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح، لا في أصول النصرانية الأصلية.

ويقول ملمن في كتابه "تاريخ الديانة النصرانية": "إن تنفيذ الحكم كان وقت الغلس، وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم كما اعتقد بعض الطوائف، وصدقهم القرآن"^(٤). وأخيراً نذكر بما ذكرته دائرة المعارف البريطانية في موضوع روايات الصلب حيث جعلتها أوضح مثال للتزوير في الأناجيل^(٥).

وأما الطائفة التي يسميها القس الخضري بالرومانسيين (القرن التاسع عشر) فقد ذكروا أن المسيح "أنزل من على الصليب فاقد الوعي، وعالجه أطباء أسينيون إلى أن استرد قوته وظهر لتلاميذه الذين اعتقدوا أنه مات"^(٦)، وإذا كان هؤلاء جميعاً من النصارى، يتبين أن لا إجماع عند النصارى على صلب المسيح، فتبطل دعواهم بذلك.

^١ - دائرة المعارف الكتابية (٤٠ / ١ - ٤١). عن هل العهد الجديد كلمة الله؟ للسقار ص ٤٦

^٢ - أقيام النصارى، أحمد حجازي السقا، ص (٧٥)، الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي، ص (٤٦٥ - ٤٦٦)، قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص (٥٠٣)، عقيدة الصلب والفداء، محمد رشيد رضا، ص (١٠١). عن السقار هل العهد الجديد كلمة الله؟ ص ٤٧

^٣ - الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي البغدادي، ص (٤٦٥)، قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص (٥٠٣). مرجع سابق .

^٤ - الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي البغدادي، ص (٣٦٦)، قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص (٥٠٣).

^٥ - دراسة تحليلية نقدية لإنجيل مرقس، محمد عبد الحليم أبو السعود، ص (٥٣٠ - ٥٣١). عن السقار هل العهد الجديد كلمة الله؟ ص ٤٧

^٦ - تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١٥٨ / ١) وهل حقاً قام المسيح؟ د. صموئيل حبيب، ص (٣٩). عن السقار هل العهد الجديد كلمة الله؟ ص ٤٧ . مرجع سابق .

ويذكر معرّب " الإنجيل والصليب " ما يقلل أهمية إجماع النصارى لو صح فيقول: إن العالم المسيحي العظيم الذي أطبق على ترك السبب خطأ ١٩٠٠ سنة، هو الذي أطبق على الصلب. وأما إجماع اليهود فهو أيضاً لا يصح القول به، إذ أن المؤرخ اليهودي يوسفوس المعاصر للمسيح والذي كتب تاريخه سنة ٧١م أمام طيطوس لم يذكر شيئاً عن قتل المسيح وصلبه. أما تلك السطور القليلة التي تحدثت عن قتل المسيح وصلبه في كتابه، فهي إلحاقات نصرانية كما جزم بذلك المحققون وقالوا: بأنها ترجع للقرن السادس عشر، وأنها لم تكن في النسخ القديمة^(١). ولو صح أنها أصلية فإن الخلاف بيننا وبين النصارى ومن وافقهم قائم في تحقيق شخصية المصلوب، وليس في وقوع حادثة الصلب. {وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه} (النساء: ١٥٧)، وهذا حال اليهود والنصارى فيه.

ولكن قد يقال: إن المؤرخ الوثني تاسيتوس كتب عام ١١٧م كتاباً تحدث فيه عن المسيح المصلوب. وعند دراسة ما كتبه تاسيتوس، يتبين ضعف الاحتجاج بكلامه، إذ هو ينقل إشاعات ترددت هنا وهناك، ويشبه كلامه أقوال النصارى في محمد ﷺ في القرون الوسطى.

ومما يدل على ضعف مصادره وتخطئه، ما ذكرته دائرة المعارف البريطانية، من أنه ذكراً موراً مضحكة، فقد جعل حادثة الصلب حادثة أممية، مع أنها لا تعدو أن تكون شأنًا محلياً خاصاً باليهود، ولا علاقة لروما بذلك، ومن الجهل الفاضح عند هذا المؤرخ، أنه كان يتحدث عن اليهود - ومقصده: النصارى. فذكر أن كلوديوس طردهم من رومية، لأنهم كانوا يحدثون شعباً وقلقل يحرضهم عليها " السامي " أو " الحسن " ويريد بذلك المسيح. ومن الأمور المضحكة التي ذكرها تاسيتوس قوله عن اليهود والنصارى بأن لهم إلهاً، رأسه رأس حمار، وهذا هو مدى علمه بالقوم وخبرته.

كما قد شكك المؤرخون بصحة نسبة العبارة إلى تاسيتوس، ومنهم العلامة أندريسن وصاحب كتابي " ملخص تاريخ الدين " و " شهود تاريخ يسوع ". وقد تحدث أندريسن أن العبارة التي يحتج بها النصارى على صلب المسيح في كلامه مغايرة لما في النسخ القديمة التي تحدثت عن CHRESTIANOS بمعنى الطيبين، فأبدلها النصارى، وحوروها إلى : CHRISTIANOS بمعنى المسيحيين. وقد كانت الكلمة الأولى (الطيبين) تطلق على عبّاد إله المصريين "أوزيريس"، وقد هاجر بعضهم من مصر، وعاشوا في روما، وقد مقتهم أهلها، وسموهم: اليهود، لأنهم لم يميزوا بينهم وبين اليهود المهاجرين من الإسكندرية، فلما حصل حريق روما؛ ألصقوه بهم بسبب الكراهية، واضطهدوهم في عهد نيرون.

وقد ظن بعض النصارى أن تاسيتوس يريد مسيحهم الذي صلبوه، فحرف العبارة، وهو يظن أنه يصححها. ويرى العلامة أندريسن أن هذا التفسير هو الصحيح. وإلا كان هذا المؤرخ لا يعرف الفرق بين اليهود والنصارى، ويجهل أن ليس ثمة علاقة بين المسيح وروما^(٢).

وهكذا فإن التاريخ أيضاً ناطق بالحقيقة، مثبت لما ذكره القرآن عن نجاة المسيح وصلب غيره.

٦ - معنى (التوفي) والقدر الجامع في مشتقاته في القرآن إنما هو الأخذ والاستيفاء، وهو يتحقق بالإماتة، والنوم، وبالأخذ من الأرض وعالم البشر إلى عالم السماء. راجع التفاصيل في الشبهة السابقة الخاصة بمعنى التوفي.!

^١ - قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص (٤٨٥)، دين الله في كتب أنبيائه، محمد توفيق صدقي أفندي، ص (٧٩)، تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الحضري (١٥٠/١).

^٢ - عقيدة الصلب والفداء، محمد رشيد رضا، ص (٩٤ - ٩٧) وموت أم إغماء؟ د. فيز صموئيل، ص (٨٠). و هل افدانا المسيح على الصليب؟ منقذ بن محمود السقار ص ٤٥ - ٥٠

٥ - من صلب هو الشبيه لذا فالذين قالوا: "رأيناه مصلوباً" أخبروا بما رأوا إذ ظنوا الشبيه هو عيسى عليه السلام نفسه، والذين قالوا: "رأيناه بعد الحادثة" هم على حق، لأنه لم يصلب، وأتى القرآن الكريم بالعلم الذي يكشف الحقيقة ويخرج الناس من الاختلاف وهذا النوع من الإعجاز يعد من أدلة صدق الرسول، لأن القصة وقعت بعيدة عن زمن سيدنا محمد ﷺ وصار أهلها في ارتباك وحيرة، ويأتي نبي أُمِّي في أمة أُمِّيَّة بعد قرون يكشف لهم السر ويبين لهم التفسير الحقيقي للمشاهدات التي تبدو متناقضة، فيرفع عنها التناقض ويزيل الإشكال وهذا دليل على أن هذا العلم الذي جاء علي يد النبي الأُمِّي لا يمكن أن يكون إلا من عند الله وبعد اعتناق العدد الكثير من الأَجبار والرهبان الإسلام طوال التاريخ إقراراً بصدق ما جاء في القرآن من خبر صادق عن التاريخ الصحيح للرسول وأتباعهم، والذي جاء على يد نبي أُمِّي ليس في ثقافة قومه شيء من هذه الأخبار .

ولقد أورد الأستاذ أحمد ديدات في كتابه "مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء" ثلاثين نقطة استخلصها من أسفار الأناجيل المختلفة من بين أدلة أخرى تفند فرية صلب المسيح عليه السلام وتؤكد ما أقره القرآن الكريم بشأن الحادثة، أمّا هم فيقولوا العلة المترتبة على صلب المسيح هي غفران خطايا من يؤمن به ربّاً مصلوباً والغفران لكل من كان في المدة من آدم إلى المسيح إذا قدر أنهم لو كانوا له مشاهدين لكانوا به مؤمنين. فهل هذه العلة صحيحة؟ بالتأكيد ليست بصحيحة وذلك لأن آدم لما أخطأ هدته الحكمة أن يعترف بخطئه وأن يتوب. فتاب الله عليه. وإذ هو قد تاب ، فأية فائدة من سريان خطيئة آدم في بنيه ؟ ففي سفر الحكمة: (والحكمة هي التي حمت الإنسان الأول أب العالم الذي خلق وحده لما سقط في الخطيئة ؛ رفعته من سقوطه ، ومنحته سلطة على كل شيء) (الحكمة (١٠ : ٢١). وفي التوراة: أن نجاة المرء من غضب الله يكون بالعمل الصالح حسبما أمر الله. ومن لا يعمل بما أمر الله ؛ فإنه لا يكون له نجاة. ففي سفر الحكمة عن نوح. عليه السلام. وولده: " وعندما غاصت الأمم في شرورها ؛ تعرفت الحكمة برجل صالح ، وحفظته من كل عيب في نظر الله ، وجعلته قوياً يفضل العمل بأمر الله على الاستجابة إلى عاطفته تُجاه ولده " (حكمة (١٠ : ٥) انظر إلى قوله " تجاه ولده " أي ولده الذي غرق لعدم إيمانه وعمله ويقول المسيح عيسى عليه السلام : " كل كلمة فارغة يقولها الناس ؛ يُحاسبون عليها يوم الدين. لأنك بكلامك تُبَرِّر ، وبكلامك تُدان " (متى (١٢ : ٣٧). ٣٦.

وفي التوراة: " لا يُقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كل إنسان بخطيئته يُقتل " (تث (٢٤ : ١٦)، إذا رجعنا للكتاب المقدس عند النصارى وجدنا أقوال المسيح على الصليب إذا فرضنا صحه هذا الأقوال، فإنها تخلف بكل عقل نظريتهم المزعومة و لكنها قد توافق هذه القصة حيث ان المحكوم عليه بالصلب رفض التصريح بانه ملك اليهود وهي كما يلي في انجيل متي : نَحْوُ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «إِلِيلِي، إِلِيلِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟» أَيْ: «إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» (متى (٢٧: ٤٦)

انه ذلك الشاب الذي تطوع لأخذ مكان المسيح فهو يستغيث بالله من الألم و ذلك طبيعي للمعذب ولكنه بالقطع ليس طبيعي بالنسبة للرواية المسيحية ان الله يستغيث بالله! وإذا كان ابن الله فمن الأخرى ان يقول: " ابي ابي لما تركتني "، في انجيل متى مره اخري : وَلَكِنَّ يَسُوعَ ظَلَّ صَامِتًا. فَعَادَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ يَسْأَلُهُ: قَالَ: «أَسْتَخْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟»، ٦٤ فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ قُلْتَ! وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضًا إِنَّكُمْ مِنْذُ الْآنَ سَوْفَ تَرَوْنَ ابْنَ الْإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُدْرَةِ ثُمَّ آتِيًا عَلَى سَحَابٍ السَّمَاءِ!» متى (٢٦: ٦٥)، فانه لم يكذب كلام الحاخام اليهودي ولم يقول ومن الطبيعي انه اذا كان هو المسيح وهو كما يدعون ابن الله لما كان كذب !^(١).

^١ - راجع حقائق الاسلام في مقابل شبهات المشككين ، الشبهة رقم ١١٧ ، لمجموعة من العلماء نشر وزارة الاوقاف المصرية

٢٠- ادعاء أن الوضوء مأخوذ من التعميد في المسيحية.

يزعمون أن الوضوء في الإسلام مأخوذ عن التعميد في المسيحية، ويستدلون على ذلك بأن الوضوء يبدأ بالبسملة "بسم الله الرحمن الرحيم" التي تقابل التثليث في المسيحية. ويهدفون من وراء ذلك إلى إثبات أن الإسلام لم يأت بجديد في جانب العبادات.

(الجواب: ١) الوضوء هو التطهر بالماء بطريقة معينة، وهو واجب شرعا للصلاة والطواف، وقراءة القرآن ومقاصد الوضوء التربوية والشرعية كثيرة، والحكمة منه ظاهرة، إذ هو طهارة للجوهر والمظهر.

(٣) الوضوء يختلف عن التعميد قصداً وكيفية وعبادة؛ فالوضوء طهارة، أما التعميد فبقصد محو الخطايا خصوصاً الخطيئة الأصلية لآدم، وهي ما لم يرتكبه الطفل المعمد ولا ذنب له فيه، مع العلم أن التعميد عادة وثنية قديمة.

(٤) البسملة تشتمل على صفات متعددة لله الواحد، أما التثليث فيشتمل على أقانيم - آلهة - ثلاثة، فلا وجه للتشابه أو التقارب بينهما.

أولاً: انعقد إجماع المسلمين على مشروعية الوضوء من لدن رسول الله إلى يومنا هذا فصار معلوماً من الدين بالضرورة^(١). قال صلى الله عليه وسلم: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»^(٢). وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله يقول: «لا تقبل صلاة بغير طهور»^(٣).

الوضوء واجب في مواضع ثلاثة: الصلاة مطلقاً؛ فرضاً، أو نفلاً، ولو صلاة جنازة لقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) (المائدة: ٦)، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول»^(٤)، وللطواف بالبيت: لما رواه ابن عباس أن النبي قال: «الطواف حول البيت مثل الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه فمن تكلم فيه فلا يتكلمن إلا بخير»^(٥)، ولمس المصحف على خلاف: لما رواه أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده «أن النبي كتب لأهل اليمن كتاباً، وكان فيه: لا يمسه القرآن إلا طاهر»^(٦)، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: «لا يمسه القرآن إلا طاهر». فالحديث يدل على أنه لا يجوز مس المصحف، إلا لمن كان طاهراً، ولكن "الطاهر" لفظ مشترك، يطلق على الطاهر من الحدث الأكبر، والطاهر من الحدث الأصغر، ويطلق على المؤمن، وعلى من ليس على بدنه نجاسة، ولا بد لحمله على معين من قرينة، فلا يكون الحديث نصاً في منع المحدث حدثاً أصغر من مس المصحف، وأما قول الله سبحانه: {لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)} (الواقعة)؛ فالظاهر رجوع الضمير إلى الكتاب المكنون، وهو اللوح المحفوظ؛ لأنه الأقرب، والمطهرون الملائكة، فهو كقوله تعالى: {في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦)} (عبس)، وذهب ابن عباس، والشعبي، والضحاك، وزيد بن علي، والمؤيد بالله، وداود، وابن حزم، وحامد بن أبي سليمان، إلى أنه يجوز للمحدث حدثاً أصغر مس المصحف، وأما القراءة بدون مس فهي جائزة اتفاقاً^(٧).

أما المقاصد التربوية والشرعية للوضوء فلها جوانب متعددة:

^١ - المختصر في شرح أركان الصلاة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ط ٢، ١٤٢٦ هـ، ص ٣٦، ٣٧.
^٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيل، باب في الصلاة (٦٥٥٤)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، (٥٥٩).
^٣ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة (٥٥٧).
^٤ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة (٥٥٧). والغلول السرقة من المال العام وبالاخص الغنime.
^٥ - صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصوم (٩٦٠)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، (٢٧٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٥٥).
^٦ - صحيح: أخرجه مالك في الموطأ، كتاب النداء للصلاة، (٦٨٠)، والدرامي في سننه، كتاب الطلاق، (٢٢٦٦)، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٢).
^٧ - فقه السنة، السيد سابق، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط ٢، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م، ج ١، ص ٦٩، ٧٠.

فالوضوء يعيد للنفس نقاءها من الذنوب التي يرتكبها الإنسان، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه، وإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه، قال: ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له»^(١).

بهذا يكون الوضوء سببا في عودة الروح إلى صفائها مثلما يعود الثوب الأبيض الملوث إلى نقائه، وربط الوضوء بالذكر الذي يطمئن القلب ويشرح النفس، قال صلى الله عليه وسلم: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»^(٢).

والوضوء من علامات الإيمان التي يعرف بها المؤمنون يوم القيامة. فالوضوء يبعث في الوجه نورا، وفي اليدين نورا، والرجلين ضياء يعرف به الصالحون من الكالحين. وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: «أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله»^(٣). فإطالة الغرة في الوجه، والتحجيل في اليدين والرجلين، هما من العلامات المضيفة التي تشع النور يوم القيامة.

والوضوء يجعل المسلم أنيقا نظيفا، في جميع أوقاته؛ لأن الصلوات تتوزع على اليوم واللييلة، فإذا قام المسلم من نومه يبادر إلى الوضوء، وفيه طهارة لأعضاء جسمه، ثم يصلي الصبح، ويتوضأ لصلاة الضحى، وفي أثناء عمله يتوضأ لصلاة الظهر، وعند عودته من عمله يزيل بقية الشوائب التي تعلق به في وضوء العصر وفي المغرب والعشاء، حتى يبيت خاليا من جميع الأقدار والأدران والأوساخ، هذا يحول النظافة إلى أدب، وخلق يتحلى به المسلم^(٤).

والوضوء تطهير لليدين والأظافر، والثابت علميا أن هناك أمراضا تنقلها اليدين من خلال الأظافر التي تتراكم تحتها جراثيم تنقل مرض التيفود والدوسنتاريا والتلذات المعوية، لكن المسلم الذي يتوضأ خمس مرات، ويغسل يده أول شيء، ثم يغسل يده مع كل عضو يغسله أيضا، ويحرص على غسل الأظافر بشكل دائم، كل هذا يجعله في حصن وقائي من هذه الأمراض.

من الثابت علميا أن كل سنتيمتر مكعب من الهواء به ملايين الميكروبات، وأكثر الأعضاء تعرضا لهذه الميكروبات هي الأيدي والفم والأنف والوجه واليدين والرجلان؛ لانكشافها طوال الوقت أمام هذا الهواء فيأتي الوضوء طهارة كاملة من كل هذه الميكروبات التي تعلق قطعاً بجسم الإنسان، خاصة هذه الأعضاء الظاهرة في أغلب الأحوال للهواء، الذي قد يحمل التراب أو الدخان أو تلوثا إشعاعيا أو غيره من صور التلوث التي امتلأ بها عالم العوادم والنفائات، وأعضاء الوضوء هي أكثر أعضاء الجسم تعرضا لهذه الأجواء الملوثة فتحظى عند المسلم بعناية فائقة في التخلص المستمر منها بين حين وآخر في خمس مرات على الأقل يوميا، وفي هذا يقول الأستاذ محمد كامل عبد الصمد: أثبت العلم الحديث أن الوضوء يقلل من حدوث الأورام السرطانية التي تسببها المواد الكيميائية؛ لأن الوضوء يكفل إزالتها قبل أن تتراكم بكمية تمكنها من النفاذ إلى الجسم عبر الجلد مما يؤدي إلى حدوث تغيرات سرطانية. ويشير إلى أن سرطان الجلد أكثر شيوعا في المجتمع الغربي والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا رغم ضعف أشعة الشمس هناك وقوتها في بلاد الشرق، لكن الوضوء يرطب الجلد، ويقلل من آثارها السلبية عليه، وأشار كذلك إلى أثر الغسل

^١ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٥٦٢).

^٢ - صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، (٩٤٠٨)، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، (١٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥١٤).

^٣ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (٦٠٢).

^٤ - المقاصد التربوية للعبادات في الروح والأخلاق والعقل والجسد، د. صلاح الدين سلطان، سلطان للنشر، أمريكا، ط ١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ٤١-١٢.

والوضوء في إزالة العرق الذي يحتوي على أملاح، ومواد دهنية، فإن تبخر تبقى هذه الأملاح والدهون، وتسدد مسام الغدد العرقية^(١)، وقد ثبت علمياً أن لغسل كل عضو من أعضاء الوضوء على حدة فوائد صحية كثيرة.

ثانياً. الوضوء يختلف عن التعميد قصداً وكيفية وعبادة:

الوضوء في الإسلام يختلف تماماً عن التعميد في النصرانية من حيث القصد والكيفية والعبادة، فيمكننا تفصيل ذلك على النحو الآتي:

١. من حيث القصد:

يؤدي الوضوء إلى طهارة الجوهر مع طهارة المظهر، وتنقية النفس من الذنوب والمعاصي، فالوضوء يحث الإنسان على الطهارة الحسية والمعنوية، وتشريع الوضوء في الإسلام قد ألغى العقائد الباطلة التي تؤمن بتقوية الروح عند إهمال البدن حتى عرف ذلك عندهم بالقذارة المقدسة، والوضوء يطهر اليدين والأظافر وكل أطراف الجسم المعرضة للتلوث؛ فالوضوء يطهر هذه الأطراف من الجراثيم والميكروبات، وأثبت العلم الحديث أن الوضوء يقلل من حدوث الأورام السرطانية... إلخ.

أما التعميد في النصرانية، فيقصد به تعميد الأطفال عقب ولادتهم بغطاسهم في الماء، أو الرش به باسم الأب والابن والروح القدس، بزعم أنه يحمل عنهم آثار الخطيئة الأصلية التي لم يرتكبوها، وإعطاء الطفل شيئاً من الحرية والمقدرة لعمل الخير، فهذه عادة وثنية كانت عند الهندوس وعند البرهمنين، وهي تشبه ما كان يعمل به الفرس، والمصريون، واليونانيون، والرومانيون القدماء، فقد كانوا يتوسلون للشمس، ويأخذ الكاهن البرهمني الطفل، ويلطخه بالوحل، ثم يغمسه في الماء ثلاث مرات.

وعند تغطيسه يقول الكاهن: "يا أيها الرب العظيم، إن هذا الطفل خاطئ تلطخ بخطيئة كتلطخه من وحل هذه القناة، فكما أن الماء ينظفه من الوحل طهره وخلصه من الخطيئة" ويعتقدون أن العمادة بالماء تزيل الخطايا، مهما تكن ويسمون الكهنة الذين يقومون على حافتي الأنهار لأجل عمادة الطالبين "أبناء الشمس".

وقال لندي: "إذا تصفحنا التاريخ نرى طقس العمادة قدم العهد جدا فقد كان شائعاً في آسيا، وأمريكا، وكانوا يدعون ماء العمادة ماء الولادة الثانية، وقد ذكرنا العمادة عند الأمم الوثنية قبل الميلاد، وبهذا يتضح أن التعميد عادة وثنية قديمة، وليست مسيحية، وأن المسيحية أخذت هذه العادة عن الأمم السابقة عليها، وبذلك يتضح تحريفهم لكتابتهم المقدس، ويطل زعمهم هذا"^(٢).

٢. ومن حيث الكيفية:

فالوضوء له فرائض لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين} (المائدة: ٦)، مع بعض السنن في أدائه.

أما كيفية التعميد في المسيحية: فالتعميد عندهم هو غمر الأطفال وغطاسهم في الماء، أو الرش باسم الأب والابن والروح القدس.

٣. ومن حيث العبادة:

^١ - المقاصد التربوية للعبادات في الروح والأخلاق والعقل والجسد، د. صلاح الدين سلطان، سلطان للنشر، أمريكا، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١١٤، ١١٥.

^٢ - العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد بن طاهر التير البيروني، دار عمران، بيروت، الزهراء، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص ١٧٩: ١٨١.

ففي الوضوء يمثل العبد لأوامر خالقه؛ ابتغاء مرضاته، ويطهر جوارحه ويغذي بها إيمانه؛ استعداداً للوقوف بين يدي الله، فهو يهيئ المسلم لتذوق لذة العبادة، وتكرر عملية الوضوء في اليوم الواحد، وتستمر كل يوم، فيزداد الإنسان طمأنينة وسكينة، ويرتفع رصيده من الإيمان، وتزنى النفس على مراقبة الخالق والتوبة والعودة مع كل وضوء وصلاة. أما التعميد: هو عبارة عن غطاس الطفل عند السابعة من عمره أو رش الماء عليه، بزعم أن هذا يحميه من آثار الخطيئة الأصلية، وهذا على خلاف بينهم في صورته ووقته، ولا يكون إلا مرة واحدة في العمر، فهل هذه عبادة؟! أرى أنها مجرد مظهر شكلي لا أثر له في حياة الإنسان، وهي عادة وثنية قديمة من قبل الميلاد. فأين التشابه بين التعميد على هذه الصورة والوضوء في الإسلام؟!^(١).

الوضوء يبدأ بالبسملة: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وهي من سنن الوضوء، وهي تعني التوحيد الخالص لله تعالى. أما التعميد باسم الأب والابن والروح القدس، فهذه الأقانيم الثلاثة آلهة ثلاثة، كيف تكون إلهاً واحداً، فهذا كفر وشرك بالله الواحد.

والوضوء يقوم به الإنسان بكامل حريته وإرادته، راجياً عبادة الله ونيل مغفرته ورضوانه. أما التعميد في المسيحية: فيتم بلا إرادة من المعمد؛ لأنه طفل صغير لا يفهم شيئاً عن التعميد، ولا حرية له ولا اختيار، فهو مجبر على ذلك. البسملة يبدأ بها المسلم كل عمل، وليس الوضوء فقط، فليست قاصرة عليه. وبهذا البيان يتضح أن هناك فرقاً شاسعاً بين الوضوء في شكله وكيفية وقصده، وبين التعميد الذي يشبه العبادات الوثنية، ويتضح عدم وجود تشابه بين الوضوء والتعميد في أي شيء.

رابعاً. شتان بين البسملة والتثليث:

في محاولة إيجاد وجه شبه بين البسملة والتثليث، مما حكة فجة، وتعسف ظاهر، فما أبعد الشقة بين ابتداء باسم الإله الواحد الموصوف بالرحمة، وتبرك بذلك في كل شيء في حياة المسلم، وبين إقرار بآلهة ثلاثة: أب وابن وروح قدس. في شأن هذه المحاولة السقيمة يقول د. شوقي أبو خليل: كل شيء خطر في البال، إلا نسبة عبادة الثالوث إلى الإسلام.

جاء في ملحمة رولان، والتي تمثل فرسان شارلمان وهم يحطمون أصنام المسلمين، أن المسلمين يعبدون ثالوثاً مؤلفاً من: ترفاجانت ومحمد وأبولون. واستدل بعض القسس في دلهي كما يذكر رحمة الله خليل الرحمن الهندي في إثبات التثليث في الإسلام، بقوله تعالى: {بسم الله الرحمن الرحيم} (الفاخرة)، زعماً أن فيه ثلاثة أسماء: "الله، الرحمن، الرحيم"، فيدل على التثليث.

وسمع بعض الظرفاء في مدينة دلهي قول المبشر في إثبات التثليث بقوله تعالى: "بسم الله، الرحمن، الرحيم"، فقال له: إنك قصرت، عليك أن تستدل بالقرآن على التسبيح بمبدأ سورة غافر: {حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣)} (غافر)، بل عليك أن تقول: إنه ثبت وجود سبعة عشر إلهاً من القرآن، بثلاث آيات من آخر سورة الحشر، التي ذكر فيها سبعة عشر اسماً متوالية.

فما حرص الإسلام على شيء في صلب عقيدة المسلم حرصه على التوحيد الخالص: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً (٤٨)} (النساء)، وجعل التوحيد المصفي في سورة الإخلاص: {قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفواً أحد (٤)}

^١ - الصلاة، عبد الله بن محمد الطيار، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ص ٣٩.

والتثليث دخیل على المسيحية التي أنزلها الله على المسيح عليه السلام: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣٠)} (التوبة). لقد عرفت العقائد الوثنية القديمة جميعها التثليث، ولا تخلو كافة الأبحاث الدينية المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي، أي: الأب والابن والروح القدس، وكان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي، أي أن الإله ذو ثلاثة أقانيم.. وإذا أرجعنا البصر نحو الهند، نرى أن أعظم وأشهر عباداتهم اللاهوتية هو التثليث أي القول بأن الإله ذو ثلاثة أقانيم. براهما، وفشنو، وسيفا. وفي الديانة المصرية القديمة "جب" إله الأرض تزوج "نوت" إلهة السماء، وأنجبا "رع" أي الشمس، وكان كهنة معبد ممفيس يعبدون هذا الثالوث المقدس، ومع التثليث عرف الوثنيون الصلب والفداء أيضا.

ورد عند الهنود بأن "كرشنا" المولود البكر، الذي هو نفس الإله "فشنو"، والذي لا ابتداء ولا انتهاء له على رأيهم، تحرك حنواكي يخلص الأرض من ثقل حملها. فأتاها وخلص الإنسان بتقديمه نفسه ذبيحة عنه، فصلب. هذا غيظ من فيض، وقليل من كثير، وموضة سريعة، وقطوف قليلة مختارة عن التثليث عند النصارى: {يضاهئون قول الذين كفروا من قبل}، وهي عقيدة أدخلها "شاؤول بولس" إلى المسيحية، بعد التوحيد الذي أنزل على السيد المسيح.

لقد عبد النصارى ثالوثا أحد أقانيمه "يسوع"، فأسقطوا ما فيهم على المسلمين، وحين وفاة رسول الله نزل نبأ وفاته على الصحابة كالصاعقة، ولم يكذب بعضهم يصدق هذا النبأ، قال أبو بكر الصديق عندها، مخاطبا المسلمين: «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»^(١). هذه عقيدة المسلم لا ما يدعون في إسقاطهم.

ولم يخل الغرب من صاحب كلمة حق، يقولها ولو أغضب الكنيسة، يقول كلود إيتان سافاري في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم: "أسس محمد ديانة عالمية، تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلا ما يقره العقل من إيمان بالإله الواحد الذي يكافئ على الفضيلة، ويعاقب على الرذيلة، فالغربي المتنور، وإن لم يعترف بنبوته، لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ"^(٢).

هل بقي بعد كل هذا مجال للقول بالتشابه بين البسمة عند المسلمين وبين التثليث عند النصارى؟!^(٣)

٢١- توهم أن التكبير في الصلاة مأخوذ عن المسيحية، وعادات الجاهلية

إن التكبير الذي يبتدئ به المسلمون صلاتهم مأخوذ عن المسيحية وعن عرب الجاهلية، ويستدلون على زعمهم ذلك بوجود طائفة من المسيحيين يقولون: إن أقنوم الأب أعظم من أقنوم الابن، وأن عرب الجاهلية كان من عادتهم التكبير عند البيت، وقد صاحوا بالتكبير عند نجاة عبد الله بن عبد المطلب من الذبح. كما يتوهمون أن معنى "الله أكبر" وجود إله آخر، الله أكبر منه. وهذا دليل في زعمهم على أن العبادات الإسلامية مأخوذة من الأديان والعادات السابقة.

^١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذا خليلا" (٣٤٦٧)، وفي مواضع أخرى.
^٢ - أضواء على مواقف المستشرقين والبشنيين، د. شوقي أبو خليل، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط ٢، ١٤٢٨ هـ / ١٩٩٩ م، ص ٢٤٣ وما بعدها، وإن كانت كلمة حق عرجاء، فلفظة "أسس" في بداية هذا الاقتباس توحى بما تعود المستشرقون المنكرون لنبوة محمد . صلى الله عليه وسلم . ومما يؤيد رسالته وقرآنه، من نسبة القرآن للإسلام لشخص الرسول، أي أنه . في زعمهم . قد ألفه من تلقاء نفسه، وليس وحيا من ربه.
- راجع: موسوعة بيان الإسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر ، ط ١/ ٢٠١٢.

الجواب:

أولا. فرق شاسع بين التكبير عند المسلمين، وبين ما يقوله المسيحيون وما صنعه عرب الجاهلية:

عندما يقول المسلم في بداية صلاته "الله أكبر" فهذا معناه أنه في موقف جليل يجمعه مع الله فليتنبه، ويسمي الفقهاء هذه التكبيرة تكبيرة الإحرام، كأن الإنسان حرم على نفسه الانشغال بشيء آخر؛ لأنه شرع في مناجاة الله، والالتفات إليه وحده^(١)، فيحس أن الله أكبر من كل ما يروعه ومن يروعه في هذه الدنيا، معلنا أنه قد توجه إلى الخالق الكبير العليم العظيم، وأنه قد ترك الدنيا وما فيها وتعلق بحبال الله المتينة ورحمته العميمة، وأنه قد أسلم أمره إلى ربه وتوكل عليه وأطاع أوامره وترك نواهيه.

أما ما تقوله هذه الطائفة من المسيحيين: "إن أقنوم الأب أعظم من أقنوم الابن" فهذا نابع عن عقيدتهم الباطلة التي يؤمنون بها، وهي عقيدة التثليث، فشتان بين ما يقوله المثلثون، وبين ما يقوله الموحدون الذين يؤمنون أن الله واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

إن العرب الجاهلية كانت تعرف وتؤمن أن الله رب كل شيء، وقد نص القرآن على ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَلْفَىٰ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُونَ (٨٧)﴾ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون (٨٨) فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون (٨٩)﴾ (الزخرف)، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)﴾ (الزخرف).

وإيمانهم هذا يسمى بـ "توحيد الربوبية"، أما "توحيد الألوهية"، فلم تكن العرب تجهله، وإنما كانت تتجاهله؛ حتى توههم بأنها ذات دين دون تكليف يأمرهم به إلههم، فإنه بدون تكليف خير من لا إله، وذلك زعم المبطلين، فالعرب كانوا كغيرهم يقولون إن الله أكبر لكنهم لم يحسوها كإحساس المسلمين بها، ولم يؤمنوا بها كإيمانهم، فما قاله الجاهليون كان مجرد لفظة صاحوا بها في حال فرحهم وسعادتهم، دون أن يشعروا معناها، ويعملوا بمقتضاها، أما ما يصنعه المسلمون، فهو يصدر عن إيمان بهذه الكلمة "الله أكبر"، وبعد أن يقولوها يعملون بمقتضاها، فيتركون الدنيا بزینتها ونوائبها ويقبلون على الله خاشعين تائبين راجين رحمته خائفين من عذابه، فشتان بين هذا وذاك، ثم إنهم عددوا الآلهة واتخذوها واسطة تقربهم إلى الله زلفى، وما هي إلا أحجار وأصنام، فلا إخلاص ولا توحيد عندهم.

ثانيا. المسلمون يكبرون طاعة لربهم، وتصديقا لأمر نبيهم، إذ إن تكبيرة الإحرام ركن من أركان الصلاة

التي لا تنعقد الصلاة إلا به:

إنه ليس عيبا ولا منقصة أن يقول المسلمون كلمة قالها أحد قبلهم، ولا أن يصنعوا شيئا فعلوه، فهم حين يقولون أو يصنعون، فلا يكون هذا من سبيل التقليد، أو الأخذ عن أحد، ولكنهم يأخذون بما أمرهم به دينهم، ويصنعون ما كلفهم به ربهم ونبيهم.

فقد ورد في القرآن الكريم مواضع فيها تكليف للمسلمين بما كان يصنعه السابقون مثل التكليف بالصوم، وقول "الله أكبر" وقول "لا إله إلا الله"، والمسلمون يصنعون هذا الفعل طاعة لربهم لا تقليدا لما كان يصنع غيرهم، وقد أمر الله تعالى بالتكبير حيث يقول: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)﴾ (الأعلى)، وعين قول "الله أكبر" بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ

^١ - مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نخبة مصر، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٤م، ص ٦٢.

فكبر (٣) { (المدثر). ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم» فتكبيرة الإحرام ركن من أركان الصلاة التي لا تنعقد الصلاة إلا بها، ومن تركها عمداً، أو سهواً لم تنعقد صلاته^(١).
الخلاصة:

هناك فرق شاسع بين التكبير عند المسلمين، وبين ما يقوله المسيحيون، وما صنعه الجاهليون، فعندما يقول المسلم "الله أكبر" فإنه يعلم أنه قد ترك الدنيا وما فيها، وتعلق بحبال الله المتينة، ورحمته العميقة. أما ما يقوله المسيحيون، فهو نابع من عقيدة التثليث التي يؤمنون بها فشتان بين قول الموحدين، وقول المثلثين، وما قاله العرب الجاهليون هو كلام لا يتعدى كونه لفظة جافة خالية من المشاعر والإحساس، صاحوا بها وقت فرحهم وسعادتهم.

المسلمون يكبرون طاعة لربهم، وتصديقا لأمر نبيهم لا تقليداً وأخذاً عن أحد، فالتكبير - تكبيرة الإحرام - ركن من أركان الصلاة الذي لا تنعقد الصلاة إلا به.

ولعل التكبير عند الجاهليين كان من بقايا ملة إبراهيم وهي الإسلام؛ لأن العرب كانوا على ملة إبراهيم ردحا من الزمن إلى أن دخل فيهم الشرك وغيروا شريعة الله في الحج وغيرها، كما غيرت اليهود والنصارى دينهم؛ وبذلك يكون الإسلام موافقا لما صح وبقي دون تحريف من الملة الحنفية السمحاء فهو مصدقا لما سبقه من الحق، ومبيناً الصواب فيما بدل وحرف.

٢٢- توهم أن المسلمين يرسمون الصليب في صلاتهم.

يقولون: أن التفات المسلم المصلي عند إنهاء صلاته يمينا ويسارا، يشبه تماما ما اعتاده المسيحيون عند ابتداء الصلاة وانتهائها، حين يرسمون علامة الصليب، فالمسيحيون يرسمون الصليب بأصابعهم والمسلمون يرسمونه برؤوسهم حسب تصور هؤلاء الواهمين.

أولا. كيف ينقض الإسلام عقيدة النصارى المحرفة، ثم ينتحل منها التصليب؟!

لقد جاء الإسلام بالدين الحق، والتوحيد الذي لا يعترف بعبادة غير الله من الشركاء، فقد نقض الإسلام عقيدة النصارى المحرفة، لما شابها من التحريف والتبديل؛ ولأن أهلها حرفوا الكلم عن مواضعه، وكان نتاج هذا التحريف والتضليل والتزييف للكتب السماوية احتواء كتبهم على سخافات الإنتاج الفكري للبشر، فبدلوا بكلام رب الأرض والسموات زبالات الفكر البشرية، فكتبوا ما تموه أنفسهم كما قال لنا حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٢).

لذلك حذرنا من التهاون في تطبيق شرعنا حتى لا نكون مثلهم، فكيف يأخذ عنهم وينتحل منهم التصليب في أهم ركن من أركان الإسلام؟! وكيف يأمرنا النبي بعدم موافقة أهل الكتاب، ثم بعد ذلك ينتحل هذه النحلة في الصلاة؟! {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦)} (الحج).

^١ - فقه السنة، السيد سابق، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٤١هـ / ١٩٩٩م، ج١، ص١٥٧. والحديث صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، (١٠٠٦)، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب فرض الوضوء (٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٨٥).

^٢ - مؤلفات أحمد يدا: المجموعة الثانية، أحمد يدا، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، على عثمان، كتاب المختار، القاهرة، د. ت، ص٦. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأتباء، باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم) (الكهف) (٣٢٨٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشفيف وغيره (٤٥٠٥).

لقد جاء الإسلام مصححاً لما غير وبدل قبله، ومتمماً للشرعية، فلقد كانت الرسائل السابقة تناسب في الشريعة القوم الذين شرعت لهم، ونتيجة لهذا التطور في عقلية البشرية ووصولها إلى مرحلة النضج الذهني، فكان لا بد من إرسال خاتم الأنبياء بالرسالة الخاتمة، فلقد أصبحت البشرية بعد هذا التدرج والنضج العقلي قادرة على تحمل أعباء هذه الرسالة وتبليغها، فهي ليست في حاجة إلى رسالة أخرى متممة لها، فهي رسالة خاتمة كاملة؛ حيث قال الله تعالى عنها: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (المائدة: ٣)^(١).

فهذا الدين أتمه الله عز وجل فهو لا يأخذ من ديانات أخرى وخصوصاً إذا كانت هذه الديانات محرفة وعقائدها باطلة، بل إن أصحاب هذه الديانات هم الذين دهشوا بما في الإسلام وتمنوا لو أن عندهم مثله، فلقد قال يهودي عن هذه الآية السابقة لعمر بن الخطاب: «آية في كتابكم تفرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً»^(٢)، فكيف يدعون بعد ذلك أن الإسلام أخذ شيئاً عقيماً فاسداً من النصارى؟ كيف هذا، والإسلام ينقض عقيدة الصلب، وينكرها على النصارى؟! كيف هذا وهو يعلمنا أن الصلب والصليب ليس له أصل إلا في العقائد الوثنية؟! فكيف يحارب الإسلام عقيدة الصلب كل هذه المحاربة ثم يعتمد على التصليب في ركن من أهم أركان دينه وهو الصلاة؟!!!

ثانياً. لا وجه للشبه بين التسليم من الصلاة عند المسلمين، وبين التصليب عند المسيحيين:

ثم إن الناظر في هذه الشبهة ليرى عجباً عجاباً، فأين التسليم في الصلاة؟ وأين التصليب عند النصارى؟ أين وجه الشبه؟ وفيم يتشابهان؟! وهما يفترقان في كل شيء، أم هو تلفيق أعمى وإلحاق أي شيء بأي شيء؟ إذ إن التصليب عند النصارى يبدأ من اليسار، ويكون باليد، وبنية التصليب، ويكون فيه الإيماء لأعلى وأسفل، أما التسليم عند المسلمين فيبدأ باليمين، ويقتن بلفظ السلام، على عكس ما في التصليب، ثم إن المصلي له أن ينهي صلاته بتسليمه واحدة، وهذا ما ذهب إليه المالكية والشافعية^(٣)، فهل في التسليم الواحدة رسم للصليب، أو حتى في التسليمتين؟! أم أنه كلام بلا معنى يحاولون أن يزيفوا به الحقائق، ولكن أين الثرى من الثريا؟ ثم إن المسلم حينما يسلم عن يمينه وعن يساره، فإنه ينوي بمخرج الخروج من الصلاة، بعكس التصليب؛ ثم إن الصليب ليس خطأ مستقيماً، فإن التسليم لو افترضنا جدلاً أنه يرسم شيئاً أو يرمز لشيء فإنه يرسم خطأ مستقيماً، فأين هذا من شكل الصليب؟ وبذلك يتبين لنا زيف هذه الشبهة، وسفه عقولهم، وخراب فكرهم، وضيق أفقهم، وانتكاسة فطرهم.

الخلاصة:

لقد جاء الإسلام ناقضاً لعقيدة النصارى الزائفة، داعياً لعبادة الله وحده، مبيناً فساد ما في النصرانية من عقائد فاسدة باطلة، ومن ذلك عقيدة الصلب والفداء، ولذلك فلقد نهي الإسلام أتباعه عن التشبه باليهود والنصارى حتى في أبسط الأمور «خالفوا اليهود والنصارى»^(٤)، فكيف يوافقهم ويتشبه بهم في عقيدة نقضها وتبين زيفها؟!!

ثم إنه لا وجه للشبه بين التسليم عند المسلمين والتصليب عند النصارى، فلو قلنا إن التسليم يرسم شيئاً أو يرمز لشيء، فإنه لا يعدو أن يكون خطأ مستقيماً، وكذلك فإن هناك اختلافات أخرى إذ إن التسليم يكون بنية الخروج من

^١ - مؤلفات أحمد ياد: المجموعة الثانية، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصنفناوي، على عثمان، كتاب المختار، القاهرة، د. ت، ص ٦، ٧.

^٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (٤٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب التفسير (٧٧١٢).

^٣ - الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، دار الصفوة، الكويت، ط ١، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م، ج ٢٧، ص ١٠١.

^٤ - صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، (٦٥٢)، وابن حبان واللفظ له (٥ / ٥٦١)، كتاب الصلاة، (٢١٨٦)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

الصلاة، والتصليب يكون بنية التصليب، ثم إن التسليم تصاحبه لفظة السلام، وهذا عكس التصليب، فأين وجه الشبه بينهما؟!

إن المسلم لا يكون في نيته ولا يخطر بباله أن يرمز لشيء أو يرسم أي شيء عندما يخرج من الصلاة بالتسليم ويلتفت يمينا ويسارا مصاحبا ذلك بالتسليم وإنما تكون نيته الخروج من الصلاة كما أمر ربه وبالكيفية التي شرعها.

٢٣- ادعاء أن القرآن والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح على محمد ﷺ

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح على محمد ﷺ ويستدلون على زعمهم بما يأتي:

- أن عيسى ابن الله، وأن محمدا ﷺ بشر، ويستندون في ذلك إلى عبارة: "أني قلت: إني ابن الله".

- أن يسوع أجرى المعجزات، وأن محمدا ﷺ لم تؤثر عنه أية معجزة، ويستندون في دعواهم إلى قوله سبحانه وتعالى: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون} (الإسراء: ٥٩).

- أن عيسى يعلم الغيب: {وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم} (آل عمران: ٤٩)، وأن محمدا ﷺ لا علم له به: {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير} (الأعراف: ١٨٨).

- أن عيسى يشفع في خطايا العالم كله، وأن محمدا ﷺ لا يشفع، ولا تقبل منه الشفاعة، ويستدلون بقوله سبحانه وتعالى: {إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} (التوبة: ٨٠).

- أن المسيح دعا للمحبة والسلام، وأن محمدا ﷺ سن لأُمَّته الإرهاب، ويستندون في ادعائهم إلى قوله سبحانه وتعالى: {يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون} (الأنفال).

نقاط المناقشة:

- المفاضلة الصحيحة بين اثنين تكون في نص واحد، لا في نصين متباينين، من حيث صحة المعنى وصحة التوثيق، وعبارة: "أني قلت: إني ابن الله" مقابلة ومعارضة بتصریحات الأناجيل المتكررة بأن عيسى عليه السلام "ابن الإنسان"؛ فكيف يقوي الإنجيل على محاجة القرآن وهو متناقض ينقض بعضه بعضا، فمرة يقول هو: "ابن الله"، ومرة يقول: "ابن الإنسان".

- المسيح لم يفعل المعجزات استقلالا، ولكن الله أجراها على يديه تصديقا له، ولقد أيد الله محمدا ﷺ بالمعجزات المبهرة، وأعظمها معجزة القرآن، والمقصود بالآيات الممنوعة إرسالها إلى النبي هي الآيات المقترحة من المشركين، لا مطلق الآيات.

- إن علم الغيب هو بيد الله لا يظهر عليه أحد إلا من ارتضى من رسول مرسل أو ملك مقرب، وما اطلع عليه عيسى من أمر الغيب هو من هذا القبيل، وهو ليس بدعا من الرسل، فنبينا محمد ﷺ أيضا ممن أطلعه الله على أمور غيبية، وقوله وتعالى على لسان نبيه: {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير} (الأعراف: ١٨٨) لا تفيد نفي علم الغيب عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

- إن الشفاعة التي يزعمها النصارى لعيسى شفاعة أوحى بها فكرهم الباطل ومنطقهم الفاسد، ليبيحوا لأنفسهم فعل المنكرات واستحلال الحرمات، وبلغ من حقهم أن أجازوها أي: الشفاعة للناس برمتهم المؤمنين منهم بعيسى عليه السلام وغير المؤمنين به.

- ما نسب ولفق للمسيح من دعوته للسلم في الأحوال كلها مهانة ومذلة، لا يرضاها ذو مروءة وكرامة فضلا عن نبي مرسل فالأمر إذا اقتضى القتال فالعفو فيه تهاون وخذلان، وتحريض النبي للمؤمنين على القتال من هذا الباب. التفصيل:

أولا. المفاضلة الصحيحة بين اثنين تكون في نص واحد، لا في نصين متباينين:
على من أراد المفاضلة بين اثنين مفاضلة صحيحة، أن يفاضل بينهما في نص واحد، أما أن يفاضل بعضهم بين النبي في القرآن، وعيسى في الإنجيل، فأمر لا يجوز؛ ذلك أننا لا نؤمن بأن الكتاب المقدس الحالي بعهديه وحي من عند الله، ولا النصراني أنفسهم يقولون: إنه وحي منزل، بل هو مكتوب بأيدي من نسب إليهم؛ وعليه فالمفاضلة ليست من الصحة في شيء.

أما عبارة: "أني قلت: إني ابن الله" فهي مناقضة ومعارضة بتصريحات الأناجيل المتكررة بأن عيسى عليه السلام "ابن الإنسان": "إني الحق أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان". (متى ١٠: ٢٣)، "فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله. الحق أقول لكم: إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا في ملكوته". (متى ١٧: ٤٠)، "وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء. وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان". (يوحنا ٣: ١٣، ١٤).

وعقلاء النصراني يدركون أن معتقد بني دينهم أن الله ثلاثة باطل، وأنه إله واحد، وكون عيسى ابن الله على الحقيقة لم يرد في كلام عيسى، وأن التعبير بـ "ابن الله" تعبير مجازي، كما جاء أن الجميع أبناء الله، يقول د. نظمي لوقا: "ولم يرد على لسان المسيح في أقواله الواردة في بشارات حواريه (الأناجيل) إشارة إلى شيء من ذلك" التثليث النصراني، بل كان يدعو نفسه على الدوام بـ "ابن الإنسان"، أما البتوة لله فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق، ومعنى يشمل البشر كافة، حين أوصى أن تكون صلاة الناس إلى الله بادئة بقولهم: "أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك". (متى ٦: ٩)، وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البر؛ كي يكونوا حديرين بنسبتهم إلى الله: "أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات". (متى ٥: ٤٤، ٤٥).^(١)

وبناء على ما سبق، فلا فرق بين ما صرحت به الأناجيل في شأن عيسى من أنه ابن الإنسان، وبين النبي محمد ﷺ وحجيء القرآن مصرحا بأنه بشر؛ فالأنبياء جميعا بشر أرسلهم الله إلى البشر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم﴾ (الأنبياء: ٧)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ (الفرقان: ٢٠) بشر بكامل خواص البشرية.

ثانيا. المسيح لم يفعل المعجزات استقلالا، ولكن الله أجراها على يديه تصديقا له، كما أن الله أيد محمدا بالمعجزات المبهرة، وأعظمها معجزة القرآن الكريم:

إن من يزعمون أن يسوع أجرى المعجزات، مستدلين بنص الأناجيل: "عمل كل شيء حسنا، جعل الصم يسمعون، والخرس يتكلمون". (مرقس ٧: ٣٧)، وأن محمدا لم يجر المعجزات، مستدلين على ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ (الإسراء)، متخذين ذلك دليلا على تفضيل عيسى على محمد ﷺ زعم باطل وقول متهافت.

^١ - محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط ٢، ١٩٥٩م، ص ٤١.

نعم إن الله أجرى المعجزات على يد عيسى تصديقا له، ولا ينكر ذلك المسلمون، والقرآن الكريم يذكر ذلك في الآيات: {ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} (آل عمران)، ولكنه لم يفعلها استقلالا، وإنما هي من فعل الله، أظهرها على يدي عيسى وإذا نسبت إليه في القرآن، أو في الإنجيل، فهي نسبة مجازية، كما ينسب الشيء الواحد إلى أكثر من ذات، حسب دور كل من نسب إليه، فينسب إلى فاعله الأصلي، وينسب إلى من باشره، وينسب إلى من تسبب فيه... إلخ.

كما نسب الله التوفي إلى الله، وإلى ملك الموت، فعيسى يمسح بيده على الأبرص، فيعقب هذا المسح أن يرثه الله من هذا الداء، وينفخ فيما شكله من الطين، فيعقب هذا النفخ أن يوجد الله الحياة، فنسب هذا وذاك إلى عيسى باعتباره متسببا.

وأما نفى المعجزات عن النبي بحجة قوله سبحانه وتعالى: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون} (الإسراء: ٥٩)؛ فليس المراد بالآيات التي امتنع الله من إرسالها مطلق المعجزات التي تؤيد الرسول في صدقه ودعواه النبوة، ولكن المراد الآيات التي يقترحها المشركون، فالله لم يلب ما طلبوه؛ لأن من سبقهم من الأمم طلبوا من رسلهم آيات، وجاءهم الآيات بناء على ما طلبوا، فما ازدادوا إلا تكديبا، كما حدث من بني إسرائيل مع نبيهم موسى وكما حدث من عاد وثمود، فإن من طلب الآيات وجاءته، واستمر على التكذيب هلك، فالمقصود بالآيات الممتنع إرسالها الآيات المقترحة، لا مطلق الآيات.

عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، ف قيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألو، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل الله قوله: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا} (الإسراء: ٥٩)»^(١).

وقد أيد الله تعالى نبيه بالمعجزات الباهرات، وأعظمها معجزة القرآن الكريم، تلك المعجزة التي تخاطب العقول وتستحوذ على القلوب، وهي معجزة باقية صالحة للأمم جميعا، والمستويات الناس كافة أبد الدهر، وما زال القرآن الكريم يثبت لأولي العلم كل يوم أنه وحي من الله، وليس من عند بشر، وأنه الذي بلغه رسول الله للناس، هذا فضلا عن معجزاته الأخرى التي جرت على يديه، منها ما أثبتته القرآن الكريم، ومنها ما جاء في سنته، فمن معجزاته في القرآن الكريم معجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، وإخباره بالغيب بجميع أنواعه: الماضي، والحاضر، والمستقبل، وما أكثر ما جاء في السنة من معجزات، كنيع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع، وتكثير الطعام القليل^(٢).

ثالثا. الذي يعلم الغيب ويعلم ما في القلوب هو علام الغيوب وحده دون غيره:

ينسب بعضهم علم الغيب إلى عيسى استنادا إلى عبارة جاءت في العهد الجديد تقول: "فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص للكلية والقلوب، وسأعطي كل واحد منكم بحسب أعماله". (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢: ٢٣). وينفي علم الغيب عن النبي استنادا إلى قوله تعالى: {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير} (الأعراف: ١٨٨)

^١ - صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنه (٢٣٣٣)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.
^٢ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ج ٩، ص ٥٥٥: ٦١٨، ج ١٠، ص ١٣: ٩٠٠. دلائل النبوة، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٥٧: ١٦٤.

وللجواب عن هذا نقول: لا نسلم بأن عيسى يقول مثل هذا الكلام، فهو ليس إلها ولا ابن إله، حتى يوحى إلى يوحنا بهذا الكلام، وإذا كان عيسى سيكلف يوحنا برسالة إلى الكنائس كما جاء في مستهل رؤيا اللاهوتي، فإنما يكلفه بأن يدعو الناس إلى عبادة الإله الواحد، ومتى كانت الكلى موضع أسرار؟! على أي حال، إن الذي يعلم ما في القلوب هو علام الغيوب وحده دون غيره.

وأما قول الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: {ولا أعلم الغيب} (الأنعام: ٥٠) فهذا حق لا ريب فيه، فلا النبي يعلم الغيب من تلقاء نفسه، ولا غيره من البشر، ولكن النبي إذا علم، وظهر له من الغيب شيئا، فإنما بتعليم الله له، قال سبحانه وتعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا (٢٦) إلا من ارتضى من رسول} (الجن)، وقد أظهر الله لنبيه من الغيب ما كان آية على صدقه، فقال سبحانه وتعالى: {غلبت الروم (٢) في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣) في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٤)} (الروم)، ولو لم يتحقق ما جرى على لسان النبي ونبوته بهذا الحدث الكبير في هذه الأمة العظمى وهو حدث ترقبه العالم آنذاك لكذب الناس بالقرآن وما صدقه أحد، وهناك الكثير من الأحداث التي أخبرت بالغيب جاءت على لسان رسول الله في سنته؛ كإخباره بعلامات الساعة: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان»^(١). وقد تحققت هذه الأخبار وغيرها، مما يثبت صدقه صلى الله عليه وسلم.

ولو افترضنا أن عيسى قال هذا الكلام، فليس معنى ذلك أنه يعلم الغيب بل يكون علمه بأمور جزئية أعلمها الله له لتقع في المستقبل للدلالة على نبوته، كما أخبر النبي محمد ﷺ عن أمور كثيرة تقع في المستقبل ووقعت بالفعل مثل فتن وملاحم آخر الزمان، وعلامات الساعة، والإعجاز العلمي الذي أخبر به القرآن والسنة، وما زال يقع ويتحقق حتى اليوم.

رابعا. دليلهم على شفاعته عيسى للخطايا يتعارض مع العقل والواقع النصراني نفسه، وقد نفى الله شفاعته محمد ﷺ في المنافقين:

في هذه المقارنة يثبتون الشفاعته لعيسى، وينفونها عن محمد فني حق عيسى جاء في إنجيل يوحنا: "أنا قد جئت نورا إلى العالم، حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة. وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم". (يوحنا ١٢: ٤٦، ٤٧). وفي حق محمد يستشهدون بقوله سبحانه وتعالى: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} (التوبة: ٨٠).

أما ما جعلوه دليلا على شفاعته عيسى لخطاياهم، وخطايا كل العالم، فهو يتعارض مع العقل والواقع النصراني نفسه؛ حيث إن شفاعته عيسى للخطايا تعد تحريضا على ارتكاب كل الرذائل والمنكرات، ما دام المسيح يشفع لكم بمجرد أن تؤمنوا بأنه المخلص، فهل ترضون معاشر القساوسة لأتباعكم أن يرتكبوا كل المنكرات باسم شفاعته عيسى وتكفيره لخطاياكم؟! وما جدوى مواعظكم في بني دينكم إذا كان الأمر كذلك؟

لقد فهم المسيحيون في الغرب الأمر على هذا الوجه، إنهم يستبيحون لأنفسهم كل الشهوات الدنيوية بلا حدود على اعتبار أن هذا حق الجسد من المتعة، ويكفيهم من أمر الآخرة أن المسيح مخلص لهم!

وأعجب من ذلك حينما يعممون القاعدة في حق العالم جميعا، حتى من لم يؤمن بالمسيح على طريقتهم فهل تكفر خطايا جميع العالم بشفاعة المسيح من آمن به، ومن لم يؤمن به؟!

إذن فليفسد العالم، ولينتشر الفسق والفجور ما دام المسيح سيشفع للعالم عن خطاياهم في نهاية الأمر!

^١ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدار (١٠٢).

أما الآية التي استدلو بها على نفي شفاعة نبينا محمد فهي واردة في حق المنافقين، وهم قوم أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، والنفاق أشرس أنواع الكفر، وأخطر من الكفر الصريح، فحق عليهم ألا يغفر لهم، وهذا إخبار من الله لنبيه، ما لم يكن يعلمه في شأنهم، وصدق الله القائل: {ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا (١٢٣)} ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (١٢٤)} (النساء)، إن الشفاعة لا تكون إلا لمن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ومن آمن فإن إيمانه حتما سيدفعه إلى شيء من العمل، فيتداركه الله بشفاعة الشافعين في بعض ما قصر بمنه وكرمه.

خامسا. ما نسب ولفق للمسيح من دعوته للسلم في كل الأحوال مهانة ومذلة، لا يرضاها ذو مروءة وكرامة، فضلا عن نبي مرسل، فالأمر إذا اقتضى القتال فالعفو فيه تهاون وخذلان:

وهذه المفاضلة تدخل ضمن ترويح اتهام الإسلام بالإرهاب، وأنه انتشر بالسيف، وأن النبي سن لأمته الإرهاب، فكانوا إرهابيين، أما المسيحية فهي دعوة للمحبة والسلام. ويستدلون على منع يسوع أتباعه من استعمال السيف بقوله: "رد سيفك إلى مكانه؛ لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون". (متى ٢٦: ٥٢) وبقوله: "سمعت أن قيل: عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا". (متى ٥: ٣٨، ٣٩).

أما محمد ﷺ فقد حث أتباعه على استعمال السيف: {يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال} (الأنفال: ٦٥)، وهذه مغالطة ومناقضة، فهم لا ينقلون عن المسيح قوله: "لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما، بل سيفا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماها، وأعداء الإنسان أهل بيته، من أحب أبا أو أما أكثر مني فلا يستحقني". (متى ١٠: ٣٤: ٣٧).

"لكن المسيحية اضطرت في القرن الرابع أي بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الإمبراطور قسطنطين أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار؛ ثم لما حصلت الكنيسة على السلطة الزمنية، جعلت الحرب من وسائلها، فاتخذت الجيوش والأساطيل.. وهل يغيب عن ذاكرة أحد.. الحروب الصليبية أو ما ورد في الكتاب المقدس من أوامر بالقتل، والتدمير، والقهر، والاستئصال لسكان المدائن التي اختص بها بنو إسرائيل دون أهلها الأصليين (١). فكيف يلتقي هذا مع ما استدلو به من ترك السيف؟! فإما أن يكون النصان متناقضين، وإما أن تكون تعاليم السيد المسيح مثل تعاليم النبي في هذا الأمر، وإن أخطئوا في تصويرها؛ فيكون العفو في موضعه، والقتال في موضعه، فإذا كان الأمر يقتضي قتالا لعدو معتد باطش؛ فالعفو هنا تهاون وفتنة في الدين، ومهانة لدين الله وتابعيه، وإن كان العفو عند القدرة يقود إلى تذوق سماحة الإسلام؛ للانقياد له فهو عفو مطلوب.

لكن هذه المهانة والمذلة التي تقولوها على السيد المسيح لا يرضاها ذو مروءة وكرامة فضلا عن نبي مرسل، فمن العقلاء إذا لطمه شخص على خده حول له خده الآخر، ليلطمه بدل اللطمة لطمتين؟! وهل يرضى مسيحي بهذا من مسيحي مثله فضلا عما يخالفه في الدين؟! هل عمل بهذا مسيحي في تاريخهم؟ كم لطموا الأبرياء بغير حق لطمات تلوثت بها أيديهم، وتلوثت بها صفحات التاريخ الذي كتب مآسيهم (٢).

٢٤- ادعاء أن القرآن الكريم أقر أزلية المسيح

١ - الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فيد وحدي، دار الجبل، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ص ١٨١، ١٨٢.

٢ - راجع: موسوعة بيان الاسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط١/ ٢٠١٢.

إن القرآن الكريم أقر أزلية المسيح ويستدلون خطأ على زعمهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ (آل عمران: ٤٥)، قائلين: إن القرآن شهد للمسيح بأنه كلمة الله، وبما أن الله له صفة القدم، فإن كلمة الله قديمة، ونتيجة لذلك يكون عيسى أزليا.

الجواب:

أولا. الأزلي هو الذي لا أول لوجوده ولا يكون إلا ذاتا وهو الله وما عداه حادث له أول: إن كل موجود يسأل عمن أوجده، فهو حادث، ومن أوجده إما أن يكون أزليا أو حادثا، فإن كان حادثا فهو يسأل أيضا عمن أوجده، وهكذا تنتهي سلسلة المحدثات بنا إلى موجود واحد ليس قبله موجود وهو الله فالأزلي هو الله وحده، وصفاته أزلية؛ لأنه لا يكون إلها حقا إلا بتحقيقه بصفاته، والصفات لا تتحول إلى ذات، كما زعموا تحول الكلمة إلى المسيح، وزاد بعضهم الأمر على جهل حينما زعموا أن عيسى كلام الله، وليس فقط كلمته، فخالفوا كتابهم المخرف، ومن على دينهم، وأضافوا إلى باطلهم باطلا! كيف يكون عيسى كلام الله؟ هل يقصدون أن الإنجيل هو عيسى مثالا؟!

ثانيا. المراد بلفظ "كلمة" يقع على خمسة أوجه هي:

١. أن الكلمة هي كلمة التكوين لا كلمة الوحي؛ ذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن البارئ مما يعلو على عقول البشر، فقد عبر عنه بقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ (يس)، فكلمة "كن" هي كلمة التكوين وهنا يقال: إن كل شيء قد خلق بكلمة التكوين، وخص المسيح بإطلاق الكلمة عليه؛ لأن الأشياء تنسب في العادة والعرف عند البشر إلى أسبابها، ولما فقد في تكوين المسيح تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البويضات التي يتكون منها الجنين، أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله؛ لأن الله أكمل هذه الحلقة المفقودة في عملية خلق المسيح بقوله: ﴿كن﴾ فكان.

٢. لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرفه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين ماديا محضا، قاله الرازي، وجعل من قبيل ذلك وصف الناس للسلطان العادل بظل الله ونوره؛ لأنه سبب لظهور ظل العدل، ونور الإحسان، قال: فكذلك كان عيسى سببا لظهور كلام الله بسبب كثرة بياناته له، وإزالة الشبهات والتحريفات عنه.

٣. لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارة الأنبياء به. فقد عرف بكلمة الله، أي: بوحيه إلى أنبيائه، والكلمة تطلق على الكلام، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولقد سبقنا كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ (١٧١) (الصفافات).

٤. المراد بالكلمة "كلمة البشارة" فقوله: ﴿بكلمة منه﴾ أي: بخبر عنده أو بشارة، وهو كقول القائل: ألقى إلى فلان بكلمة سرني بها، أي: أخبرني خبرا فرحت به، قاله ابن جرير، واستشهد له بقوله سبحانه: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ (النساء: ١٧١) أي: بشرى إلى مريم بعيسى ألقاها إليها^(١)، قال القرطبي: وقيل: "كلمته" إشارة الله تعالى لمريم ورسالته إليها على لسان جبريل وذلك قوله: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ (آل عمران: ٤٥).

٥. قيل: الكلمة هاهنا بمعنى الآية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾ (التحریم: ١٢) و ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ (لقمان: ٢٧)، وكان لعيسى أربعة أسماء: المسيح، وعيسى، وكلمة، وروح، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن، ومعنى: ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أمر بها مريم^(٢).

^١ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج ٣، ص ٢٥٠.

^٢ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م،

وذهب بعضهم إلى أن "عيسى" سمي كلمة الله من حيث إنه صار نبيا، كما سمي النبي رسولا، وعلى كل فليس إطلاق "كلمة" على المسيح يعد إطلاقا حقيقيا، فالكلمة لا تتجسد لتكون كائنا حيا، وهذا الكائن يكون إلها كما يزعمون حل في بطن مخلوق، فكيف تكون الكلمة الأزلية متصفة بصفات الحوادث؛ من حلوله في بطن مخلوق، وكونها محاطة بجدران الرحم، ودخول وخروج من الرحم، وغير ذلك من الصفات الخاصة بالحوادث، والتي لا تصلح صفات للقدس ولا للأزلي.

٢٥- ادعاء أن القرآن الكريم يقرر ألوهية المسيح عليه السلام

مضمون الشبهة:

إن القرآن الكريم يقرر أن المسيح إله، ويستدلون على ذلك بقوله عن المسيح: {وكلّمته ألقاها إلى مريم وروح منه} (النساء: ١٧١)، وقوله حكاية عن عيسى عليه السلام: {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبيئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} (آل عمران: ٤٩)، فيستدلون بالآية الأولى على أن المسيح ابن الله، والآية الثانية على أنه يشارك الله بصفات منها: صفة الخلق وإحياء الموتى وعلم الغيب، كما يزعم هؤلاء أن المسيح قال عن نفسه: أنا ابن الله، وأن الإسلام لا ينكر عقيدة المسيحيين في ألوهية المسيح، مستدلين على ذلك بما جاء في تفسير أبي السعود من قول السدي: إن أم يحيى قابلت أم عيسى، ثم قالت لها: إن ما في بطني يسجد لما في بطنك والسجود لا يكون إلا لإله. وهم بهذا تقول على القرآن الكريم وعلى علماء المسلمين يهدفون إلى إثبات الألوهية للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

الجواب: أولا: الفهم الصحيح لمعنى الكلمة في الآية:

لا بد من تفصيل القول في جزأين رئيسين في الآية، الجزء الأول قوله سبحانه وتعالى: {وكلّمته ألقاها إلى مريم}، والجزء الثاني قوله سبحانه وتعالى: {وروح منه}، ولنبدأ بالجزء الأول، فنقول: إن "كلمة الله" مركبة من جزأين: مضاف "كلمة"، ومضاف إليه "الله"، وإذا كان الأمر كذلك، فإما أن نقول: إن كل مضاف لله هو صفة من صفاته، أو نقول: إن كل مضاف لله ليس صفة من صفاته، وبعبارة أخرى، إما أن نقول: إن كل مضاف لله مخلوق، أو إن كل مضاف لله غير مخلوق، وإذا قلنا: إن كل مضاف لله صفة من صفاته وهو غير مخلوق؛ فإننا سنصطدم بآيات في القرآن، وكذلك بنصوص في الإنجيل، يضاف فيها الشيء إلى الله، وهو ليس صفة من صفاته، بل هو مخلوق من مخلوقاته.

كما في قوله سبحانه وتعالى: {ناقة الله} (الأعراف: ٧٣) وكما نقول: بيت الله، وأرض الله وغير ذلك، وإذا عكسنا القضية، وقلنا: إن كل مضاف لله مخلوق؛ فإننا كذلك سنصطدم بآيات ونصوص أخرى، كما نقول: علم الله، وحياة الله، وقدرة الله. إذن لا بد من التفريق بين ما يضاف إلى الله؛ فإذا كان ما يضاف إلى الله شيئا منفصلا قائما بنفسه، كالناقة، والبيت، والأرض فهو مخلوق، وإذا كان ما يضاف إلى الله شيئا غير منفصل، أي: صفة من صفاته، فيكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ومن البدهي أن يكون هذا غير مخلوق، إذ الصفة تابعة للموصوف ولا تقوم إلا به، فلا تستقل بنفسها بحال.

أما الجزء الثاني، فهو "كلمة الله"، وهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ف"الكلمة" هي صفة الله تعالى، وليست شيئا خارجا عن ذاته حتى يقال: إن المسيح هو الكلمة، أو يقال: إنه جوهر خلق بنفسه كما يزعم النصارى.

فخلاصة هذا الوجه أن "كلمة الله" صفة من صفاته وكلامه كذلك، وإذا كان الكلام صفة من صفاته فليس شيئاً منفصلاً عنه، لما تقرر آنفاً من أن الصفة لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من موصوف تقوم به، وأيضاً فإن "كلمة الله" ليست بداهة جوهر مستقلاً، فضلاً عن أن تتجسد في صورة المسيح كما يزعم النصارى.

إن أبي المغرضون ما سبق، وقالوا: بل المسيح هو "الكلمة" وهو الرب، وهو خالق وليس بمخلوق، إذ كيف تكون الكلمة مخلوقة؟ فالجواب: إذا سلمنا بأن المسيح هو "الكلمة" وهو الخالق، فكيف يليق بالخالق أن يلقي إلى مخلوق (السيدة مريم)، إن الخالق حقيقة لا يليق به شيء، بل هو يلقي غيره.

فلو كان خالقاً ما ألقى، ولما قال الله: {وكلمته ألقاها} (النساء: ١٧١) أي: المسيح عيسى، ومن ثم كان لزاماً علينا أن نبين المراد بكلمة الله الواردة في الآية موضوع النقاش: {وكلمته ألقاها إلى مريم}، والجواب على ذلك أن نقول: إن المراد من "كلمة الله" يشتمل على معنيين كلاهما صحيح، ولا يعارض أحدهما الآخر:

المعنى الأول: أن قوله: "وكلمته" الكلمة هنا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ومعنى الآية على هذا: أن كلمة الله التي هي صفته ألقاها إلى مريم لتحمل بعيسى وهذه الكلمة هي الأمر الكوني الذي يخلق الله به مخلوقاته وهي كلمة "كن"؛ ولهذا قال تعالى في خلق آدم عليه السلام: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩)} (آل عمران) فكما أن آدم خلق بكلمة "كن"، فكذلك خلق عيسى، فـ "الكلمة" التي ألقاها الله إلى مريم هي كلمة "كن"، وعيسى خلق بهذه "الكلمة" وليس هو "الكلمة" نفسها. •

المعنى الثاني: أن قوله "كلمته" هو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، فـ "الكلمة" هنا عيسى وهو مخلوق؛ لأنه منفصل، وقد بينا سابقاً أن إضافة الشيء للقائم بذاته إلى الله، هو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، فيكون المراد بـ "الكلمة" هنا عيسى وأضافه الله إلى نفسه تشريفاً له وتكريماً. فإن قلتم: كيف يسمى الله عيسى "كلمة"، والكلمة صفة الله؟ فالجواب: أنه ليس المراد هنا الصفة، بل هذا من باب إطلاق المصدر، وإرادة المفعول نفسه، كما نقول: هذا خلق الله، ونعني: هذا مخلوق الله؛ لأن خلق الله نفسه فعل من أفعاله، لكن المراد هنا المفعول، أي المخلوق، ومثل قولنا: أتى أمر الله، يعني المأمور به، أي ما أمر الله به، وليس نفس الأمر، فإن الأمر فعل من الله تعالى.

والمعنى الثاني للآية راجع عند التحقيق إلى المعنى الأول؛ فإننا إذا قلنا: إن عيسى "كلمة الله" بمعنى أنه نتيجة "الكلمة"، ومخلوق بـ "الكلمة"، فهذا يدل على "الكلمة" أساساً، وهو فعل الله، ويدل على عيسى وهو الذي خلق بـ "الكلمة".

فحاصل هذا الجزء من الآية أن "كلمة الله" تعالى التي ألقاها إلى مريم هي أمر التكوين، أي قوله (كن)، فكان عيسى ومن هنا صح إطلاق الكلمة على عيسى من باب إطلاق المصدر على المفعول، وكما يسمى المعلوم علماً، والمقدور قدرة والمأمور أمراً، فكذلك يسمى المخلوق بالكلمة كلمة.

هذا جواب ما يتعلق بالجزء الأول من الآية، أما الجزء الثاني، وهو قوله سبحانه وتعالى: {وروح منه} فليس فيه أيضاً دلالة على ألوهية المسيح أو بنوته لله، فضلاً عن أن يكون فيه أي دليل لما يدعيه النصارى عن طبيعة عيسى وبيان ذلك فيما يلي:

١. أن قول الله سبحانه وتعالى: {وروح منه} ليس فيه ما يدل على أن عيسى جزء من الله تعالى، أو أن جزءاً من الله تعالى قد حل في عيسى، وغاية ما في الأمر هنا أننا أمام احتمالين لا ثالث لهما: فإما أن نقول: إن هذه "الروح" مخلوقة، وإما أن نقول: إنها غير مخلوقة؛ فإذا كانت الروح مخلوقة، فإما أن يكون خلقها الله في ذاته، ثم انفصلت عنه، ولهذا قال عنها: "منه"، أو خلقها الله في الخارج؛ فإذا كانت هذه الروح غير مخلوقة فكيف يصح عقلاً أن تنفصل

عن الله تعالى لتتجسد في شخص بشري؟ وهل هذا إلا طعن في الربوبية نفسها، لتجوز التجزؤ والتبعض على الخالق وإذا كانت الروح مخلوقة، وخلقها الله في ذاته، ثم انفصلت عنه، فهذا معناه تجويز إحداث الحوادث المخلوقة المربوبة في ذات الإله سبحانه، وهذا عين الإلحاد والزندقه، أما إذا كانت الروح مخلوقة، وخلقها الله في الخارج، فهذا يدل على أن الله خلق الروح ونفخها في مريم، ليكون بعد ذلك تمام خلق عيسى ومولده، هذا هو عيسى في التصور الصحيح، أما ما سوى ذلك فهو مجرد ترهات تأبأها الفطر السليمة، فضلا عن العقول المستقيمة.

٢. ما دمتم تقولون أنه ليس ثمة أحد يحمل صفات الألوهية، أو البنوة لله إلا المسيح وتستدلون على ذلك بقوله سبحانه وتعالى: {وروح منه}، فحينئذ يلزمكم أن تقولوا: إن آدم أحق بالبنوة من عيسى، حيث قال الله في آدم: {فإذا سويته ونفخت فيه من روحي} (الحجر: ٢٩)، ولا شك أن القول بهذا حجة عليكم لا لكم، فإذا كان قوله سبحانه وتعالى: (من روحي) في حق آدم معناه الروح المخلوقة، وأن هذه الروح ليست صفة لله فهي كذلك في حق عيسى؛ إذ اللفظ واحد، بل إن الإعجاز في خلق آدم بلا أب ولا أم أعظم من الإعجاز في خلق عيسى بأم بلا أب، وحسب قولكم يكون آدم حينئذ أحق بالبنوة والألوهية من عيسى، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ولو سلمنا بأن الروح في الآية هو جزء من الإله، فهذا يقتضي أن يكون في الإله أقنومان حسب اعتقاد النصارى أقنوم الكلمة، وأقنوم الروح، وفي هذا تناقض في موقف النصارى؛ إذ إنهم لا يقولون إلا بأقنوم "الكلمة"، ولا يقولون بأقنوم "الروح".

٣. لو كان معنى "منه" أي: جزء من الله، لكانت السماوات والأرض وكل مخلوق من مخلوقات الله جزءا من الله، ألم يقل الله سبحانه وتعالى: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه} (الجن: ١٣)، وقال عن آدم: {ونفخت فيه من روحي}، وقال سبحانه وتعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله} (النحل: ٥٣)، إن معنى "منه" وفق السياق القرآني، أي: منه إيجادا وخلقاً، فـ "من" في الآية لا ابتداء الغاية، وليس المعنى أن تلك الروح جزء من الله تعالى.

وبعد ما تقدم نقول: إن القرآن الكريم في هذا الموضع وفي غيره، يقرر بشرية المسيح وأنه عبد الله ورسوله، وأنه ليس له من صفة الألوهية شيء، وقد قال الله في نفس الآية نفسها: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} فهو ابن مريم وليس ابن الله، وهو رسول الله وليس هو الله، وقال سبحانه وتعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} وقال سبحانه وتعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} (المائدة: ٧٣-٧٢)^(١)، فهل بعد هذا الاستدلال العقلي؛ والبيان القرآني يبقى متمسكاً بشبهات أوهى من بيت العنكبوت؟ أو يلصق بالقرآن ما ليس منه؟

ثانياً. إن الله هو الذي أوجد المعجزات وأظهرها على يد عيسى تأييداً وتصديقاً له في نبوته ورسالته: إن الاستدلال على ألوهية المسيح بالمعجزات التي جسدت على يديه باطل؛ فعيسى لم يوجد هذه المعجزات، وإنما الله هو الذي أوجدها وأظهرها على يديه، وعيسى لما نفخ في الأموات، أو ناداهم كما أمره الله، فكان عقب هذا أن أحياهم الله فنسب الإحياء إلى عيسى على اعتبار أنه باشر أسبابه بأمر الله، وهذه معجزة دلت على صدقه في نبوته ورسالته؛ ولذلك صدر الحديث عن هذه المعجزات بقوله على لسانه: {أني قد جئكم بآية من ربكم}.

وإننا إذ نتحدث عن معجزات عيسى يجب أن نلاحظ شيئاً مهماً، هو أن الله أكد على نسبة الإرادة لله تعالى بإذن الله رغم أن عيسى رسول مؤيد من الله، فقال الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى عليه السلام: (ورسولاً إلى بني

^١ - هداية الحيارى في أحوية اليهود والنصارى، ابن القيم، دار ابن القيم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٥ وما بعدها.

إسرائيل أني قد جئتمكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيفة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله { (آل عمران).

ذلك أن الله قد احتفظ بسر خلقه لنفسه، ولم يعطه لعبد من عباده، ومن هنا كان لزاما أن تأتي كلمة "بإذن الله" بمعنى أن الخلق يتم لا بمعجزة ذاتية ولكن بإذن الله ثم تمضي السورة: { وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله } ذلك أن الشافي هو الله وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا كانت هذه المعجزات إعلانا من الله وهو الفاعل لا يشرك أحدا معه في ذلك، وإذا كانت هذه المعجزات قد تمت على يد رسول؛ فإنها تتم بإذن الله، فإنه هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يشفي من المرض.

فعيسى من أنبياء الله ورسله الذين أيدهم الله بالمعجزات وإحياء الموتى، والله لم يجر المعجزات على يد عيسى وحده، ولكنه أجزاها على يد غيره من الأنبياء كذلك، فلو كان ذلك دليلا على ألوهية عيسى؛ لكان كذلك دليلا على ألوهية كل من ظهر على يديه إحياء الموتى، ولقد ظهر إحياء الموتى على يد موسى عندما احتكم إليه المختصمون من قومه في شأن القتيل؛ قال سبحانه وتعالى: { وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها } (البقرة: ٧٢)، وأحيا الله على يد إبراهيم الطير بعد أن ذبحها وقطعها، وخلطها، وجعل على كل جبل منهن جزءا.

فإن قالوا: استدللنا على كون المسيح إلها؛ لأنه أحيا الموتى، ولا يحيي الموتى إلا الله، قلنا لهم: فاجعلوا موسى إلها آخر؛ فقد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه، وأتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره، ولا ما يقاربه، فقد جعل العصا حيوانا عظيما ثعبانا فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسم كانت فيه أولا.

فإن قلتم: جعلناه إلها للعجائب التي ظهرت على يديه، قلنا: إن عجائب موسى أعجب وأعجب، وهذا إيلياء النبي بارك على دقيق العجوز، ودهنها فلم ينفد ما في جرابها من الدقيق، وما في قارورتها من الدهن سبع سنين.

وإن جعلتموه إلها؛ لكونه أطعم من الأرغفة اليسيرة آلافا من الناس، فهذا موسى قد أطعم أمته أربعين سنة من المن والسلوى، وهذا محمد بن عبد الله قد أطعم العسكر كله من زاد يسير جدا حتى شبعوا وملئوا، وسقاهم كلهم من ماء يسير لا يملأ اليد حتى ملئوا كل سقاء في العسكر، وهذا منقول عنه بالتواتر، فهل قال المسلمون بأنه إله؟!

وإن قلتم: جعلناه إلها؛ لأنه كان يعلم الغيب؛ إذ كان ينبي أصحابه بطعامهم وشرابهم الذي يأكلونه أو يدخرونه في بيوتهم، فإننا نقول لكم: إن مصدر علمه بذلك هو الوحي، وقد جرت مثل هذه المعجزة على يدي نبي الله يوسف حيث أخبر صاحبه في السجن: { قال لا يأتیکما طعام ترزقانه إلا نبأ تکما بتأويله قبل أن يأتیکما ذلكما مما علمني ربي } (يوسف: ٣٧)^(١).

كما أن علم عيسى لبعض الأمور ليس من ذاته، وليس علما مطلقا بكل غيب، ولكنه بإعلام الله له، وإيحائه إليه، وهو بعض الغيب، وليس كله، فالغيب كله لا يعلمه إلا الله: { قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله } (النمل: ٦٥)، والله يعلم رسله من الغيب ما يجعله آية لهم على صدقهم، كما قال سبحانه وتعالى: { عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا (٢٦) إلا من ارتضى من رسول } (الجن)، ولو كان عيسى إلها لعلم الغيب كل الغيب بذاته من غير إعلام الله له، ولعلم يوم القيامة، متى يكون؟ وقد أعلن في الإنجيل أنه لا يعلمها، وأن الله وحده هو الذي يعلمها، جاء في إنجيل مرقس: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بها أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الآب، انظروا، اسهروا وصلوا؛ لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت". (مرقس ١٣: ٣٢)^(٢).

^١ - مدرسة الأنبياء: عمر وأضواء، محمد بسام الزين، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص ٣٢٧ بتصرف.

^٢ - رسالة للرد على رسالة تنصيرية شهيرة تزعم ألوهية المسيح من القرآن، إعداد وترتيب: محمود مهران، د. د. م. د. ن. د. ت.

فلو كان عيسى إلهًا لعلم الغيب علما ذاتيا، ولعلم موعد الساعة، فما علم بالذات لا يتخلف، لكنه اعترف بعدم علمها، وأنه لا يعلمها إلا الله عز وجل، إن معجزات عيسى مثلها كمثّل معجزات غيره من الأنبياء والرسل كناقاة صالح، وعدم إحراق النار لإبراهيم، وكونها بردا وسلاما عليه، وعصا موسى، ومعجزة رسول الله الخالدة، التي ما زالت تتحدى العالمين، وكل يوم يثبت للعقلاء صدقها وصدق من نقلها، وهي القرآن الكريم، وخلاصة القول أن غرابة الخوارق التي جرت على يد المسيح لا تجعل منه إلهًا، بل تجعله آية على قدرة خالقه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ (مریم: ٢١).

ثالثا. لم يثبت عن المسيح أنه قال عن نفسه: إنه ابن الله، بل إن فريقا من النصارى هم الذين زعموا ذلك
إن عقيدة المسلمين في المسيح عيسى ابن مريم أنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد أمر المسيح أتباعه بعبادة الله وحده، وحذرهم من عاقبة الشرك بالله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ (المائدة: ٧٢)، فالمسيح لم يقل عن نفسه: إنه ابن الله، بل إن فريقا من النصارى الذين غالوا فيه، ورفعوه عن درجة البشرية إلى درجة الألوهية هم الذين زعموا ذلك، ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ (التوبة).

وقد جاء في إنجيل يوحنا على لسان عيسى: "الحق أقول لكم، من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان". (يوحنا ١: ٥١)، وكذلك ورد أن عيسى يخاطب ربه على أنه الإله الواحد، وأنه رسوله وليس ابن إله ولا إله: "وهذه هي الحياة الأبدية أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا: ١٧: ٣)، فإن جعلتموه إلهًا؛ لأنه ادعى ذلك كما تقولون، فإما أن يكون الأمر كما تقولون عنه، أو يكون كما ادعيتم عليه فهو أخو المسيح الدجال، وليس بمؤمن ولا صادق، فضلا عن أن يكون نبيا كريما، وجزاؤه جهنم وبئس المصير، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ (الأنبياء: ٢٩)، وكل من ادعى الألوهية من دون الله، فهو من أعظم أعداء الله كفرعون، والنمرود، وأمثالهما من أعداء الله، فأخرجتم المسيح عن كرامة الله، ونبوته، ورسالته، وجعلتموه من أعظم أعداء الله، ولهذا كنتم أشد الناس عداوة للمسيح في صورة محب موال! ومن أعظم ما يعرف به كذب المسيح الدجال، أنه يدعي الألوهية، فيبعث الله عبده ورسوله مسيح الهدى ابن مريم فيقتله، ويظهر للخلائق أنه كان كاذبا، هذا فضلا عن أنه لو كان إلهًا لم يقتل، فضلا عن أن يصلب، ويسمر ويصق في وجهه كما زعمتم!

ولو كان المسيح قد أقر بأنه عبد، ونبي، ورسول، كما شهدت بهذا الأناجيل كلها ودل عليه العقل، والفطرة، وشهدتم أنتم له بالألوهية وهذا هو الواقع فلم لم تأتوا على ألوهيته ببينة؟ وقد ذكرتم عنه في أناجيلكم في مواضع عديدة ما يصرح بعبوديته، وأنه مريبوب مخلوق، وأنه ابن البشر، وأنه لم يزد عن كونه نبيا رسولا، وكنتم بهذا مكذبين له ولكتابكم، وصدقتم من كذب على الله وعليه وحرف في كتابكم!

وها هي نقول من الكتاب المقدس تؤكد على لسان المسيح نفي الألوهية عنه منها:

"أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة؛ لأني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني". (يوحنا ٥: ٣٠).

"قال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو، ولست أفعل شيئا من نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني أبي، والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي؛ لأني في كل حين أفعل ما يرضيه". (يوحنا ٨:

٢٨).

"فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم، وافتقد الله شعبه". (لوقا ٧: ١٦).
"فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم". (يوحنا ٦: ١٤).
"قال لها يسوع: «لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم". (يوحنا ٢٠: ١٧).
"يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم". (أعمال الرسل ٢: ٢٢).

"ولا تدعوا لكم أبا على الأرض؛ لأن أباكم واحد، الذي في السماوات، ولا تدعوا معلمين؛ لأن معلمكم واحد المسيح". (متى ٢٣: ٩، ١٠).
"تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: «أيها الآب، قد أتت الساعة. مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضا، إذ أعطيته سلطانا على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا ١٧: ١ - ٣).
"إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى". (مرقس ١٢: ٢٩، ٣٠).
"ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا. فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل". (متى ٢١: ١٠، ١١).

"الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله". (يوحنا ١٣: ١٦).
"ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله". (يوحنا ٨: ٤٠).
"الله لم يره أحد قط". (يوحنا ١: ١٨).
"أبي أعظم مني". (يوحنا ١٤: ٢٨).
ومن الواضح أن المقصود بالابن: العبد؛ إذ لو كان المسيح ابن الله، لصار النصارى كلهم أبناء الله، إذ يقول الكتاب المقدس: "إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم"، أو آلهة كما يزعمون، وهذا ما لم يدعه أحد منهم. وهذه النصوص كما أسلفنا صريحة في نفي الألوهية عن المسيح، وتوقع النصارى في التناقض^(١).
رابعاً. حوار النبي مع نصارى نجران، حول طبيعة المسيح أثبت عقلا ونقلا بشرية المسيح وعدم ألوهيته:

لقد رد القرآن على أهل التثليث، وأوضح في رده عليهم أن عيسى إنما أتى بعقيدة التوحيد، كما أنكر عيسى نفسه أن يكون إلهاً، أو أن توصف أمه بالألوهية، ولكن عبد الله ورسوله، وقد حذر قومه من الشرك بالله ودعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، ويدل على ذلك آيات كثيرة من القرآن، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (٧٢)﴾ {المائدة}. وذكر القرآن أن تأليه عيسى ليس إلا نوعاً من الغلو، والقول على الله بغير حق، ولذلك يجب العدول عنه: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ (النساء: ١٧١).

^١ - انظر: البهريز في الكلام الي غيظ، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦م.

ولم يكتف القرآن بالحديث عن بشرية عيسى ورسالته، وعبادته لربه، وتنزيهه لله عن أن يكون له شريك في الألوهية، بل وصفه بصفات هي من صفات البشر، والله يتنزه عن هذه الحاجة وعما يرتبط بها، من جوع وضعف وهزال، وعما يترتب عليها من هضم وتخلص من بقايا الطعام، فالله يطعم ولا يطعم، وهو الرازق للعباد وهم لا يرزقونه، ويطعمهم من خيره وهم لا يطعمونه، وهو الغني عن العالمين وهم مفتقرون إليه.

فإذا كان المسيح يأكل الطعام، فإن ذلك دليل حاسم على أنه بشر وليس بإله، وقد جاء في السنة النبوية ما يؤيد حجة القرآن ويفصلها، وذلك في جدال الرسول لنصارى نجران حول طبيعة المسيح فقد أثبتوا له الألوهية؛ لأنه ولد من غير أب، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: من أبوه؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: أستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ فقالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شيء يكلؤه، ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا. قال: أستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى. قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم؟ قالوا: لا. قال: أستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذي الصبي، ثم كان يطعم ويشرب الشراب ويحدث الحديث؟ قالوا: بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا، ثم أبوا إلا جحوداً^(١)

وقد كان مما جاء في هذه الآيات وصف الله تعالى بأنه الحي القيوم "الحي الذي لا يموت"، وقد مات عيسى وصلب في قولهم والقيوم: القائم على مكانه، من سلطانه في خلقه لا يزول، وقد زال عيسى في قولهم عن مكانه الذي كان به، وذهب عنه إلى غيره، وكان مما وصف الله به نفسه قوله: {هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء} (آل عمران: ٦)، أي: قد كان عيسى ممن صورهم الله في الأرحام، ومثيرو هذه الشبهة لا يدفعون ذلك ولا ينكرونها، فكيف يكون عيسى إلهاً، وهو بذلك المنزل^(٢)؟!

خامساً. ما نسب إلى السدي على فرض صحة نسبته إليه ليس حجة على الإسلام؛ لأنه لم يرد في القرآن أو السنة المطهرة ما يؤيده، والسجود بمعنى الاحترام والتقدير لا العبادة:

استدل فريق من النصارى على ألوهية المسيح بما جاء في تفسير أبي السعود من قول السدي: إن أم يحيى قابلت أم عيسى ثم قالت لها: إن ما في بطني يسجد لما في بطنك قالوا: السجود لا يكون إلا لإله؟ والحق أننا لا نستطيع أن نجزم بصحة نسبة هذا القول للسدي، ولو صحت نسبته إليه فلا تصح نسبته إلى أم يحيى؛ لأنه من كلام القصاصين. وعلى فرض صحته، فالمراد بالسجود هنا التقدير والاعتراف بالفضل والنبوة، وليس سجود العبادة. وعلى كل فهذا القول ليس حجة على الإسلام، ما دام لم يرد في القرآن الكريم، ولا في السنة المطهرة، ولا عصمة لأحد بعد الأنبياء وهذا الكلام لا ينهض أمام النصوص القاطعة بأن عيسى عبد الله ورسوله، وأن الإله هو الله وحده دون سواه.

أما الانتقال من هذا الدليل الضعيف إلى الزعم أن علماء المسلمين، ونصوص القرآن تقرر بأن المسيح هو الله، فهذا عبث، وكلام مرسل يصطدم بواقع الإسلام وإجماع النصوص من القرآن والسنة. تلك النصوص التي تؤكد دون أدنى شك، أو موارد أن السيد المسيح إن هو إلا عبد الله ورسوله، وأنه يتبرأ من دعوى تأليه الناس، قال سبحانه وتعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم

^١ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٤/٦) برقم (٦٥٤٤).

^٢ - أصول العقيدة الإسلامية، د. محمد أبو خليفة، دار الهادي، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٨٠.

وأمه ومن في الأرض جميعاً} (المائدة: ١٧). وقال سبحانه وتعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (٧٢) لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد} (المائدة)^(١).

٢٦- الزعم أن القرآن ينص على أن المسيح ابن الله

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم يقرر أن المسيح هو روح الله، وروح الله غير مخلوقة، وإذا كانت روح الله مخلوقة وكلمته مخلوقة، فإن الله كان قبل خلقهن بلا روح ولا عقل، وهذا لا يمكن تصوره، ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه وتعالى: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين (٩١)} (الأنبياء). مستدلين بذلك على أن عيسى ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

الجواب: أولاً. نسب المسيح عند النصارى يقرر بشرية المسيح، وأنه ليس ابن الله.

إن زعم النصارى أن المسيح ابن الله، في نفس الوقت الذي ينسب فيه الكتاب المقدس عيسى إلى يوسف النجار، يدل على فساد هذا القول وعدم صحته؛ حيث ورد في إنجيل لوقا في نسب المسيح: "ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يظن ابن يوسف، بن هالي، بن مثنى، بن لاوي، بن ملكي، بن ينا، بن يوسف، بن مثنى، بن عاموص، بن ناحوم، بن حسلي، بن نجاي، بن ماث، بن مثنى، بن شمعي، بن يوسف، بن يهوذا، بن يوحنا، بن ريسا، بن زربابل، بن شالتيئيل، بن نيري، بن ملكي، بن أدى، بن قصم، بن ألمودام، بن عير، بن يوسي، بن أليعازر، بن يوريم، بن مثنى، بن لاوي، بن شمعون، بن يهوذا، بن يوسف، بن يونا، بن ألياقيم، بن مليا، بن مينا، بن مثنى، بن ناثن، بن داود، بن يسي، بن عوبيد، بن بوعز، بن سلمون، بن نحشون، بن عميناداب، بن أرام، بن حصرون، بن فارص، بن يهوذا، بن يعقوب، بن إسحاق، بن إبراهيم، بن تارح، بن ناحور، بن سروج، بن رعو، بن فالج، بن عابر، بن شالح، بن قينان، بن أرفكشاد، بن سام، بن نوح، بن لامك، بن متوشالح، بن أخنوخ، بن يارد، بن مهللئيل، بن قينان، بن أنوش، بن شيت، بن آدم، ابن الله". (لوقا ٣: ٢٣ - ٣٨).

فالمسيح كما هو واضح من النص على فرض صحته لم ينسب لله، بل الذي نسب لله هو آدم، ويعني ذلك أن الكتاب المقدس نفسه يضع آدم في مكانة أعلى من المسيح.

ويذكر إنجيل متى نسب المسيح فيقول: "كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم، إبراهيم ولد إسحق... ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح". (متى ١ - ١٦). وورد فيه أيضاً: "فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع؛ لأنه يخلص شعبه من خطاياهم، وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل. هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا، فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب، وأخذ امرأته ولم يعرفها، حتى ولدت ابنها البكر، ودعا اسمه يسوع". (متى ١: ٢١ - ٢٥).

إذن فآدم في زعمهم هو ابن الله، وأما المسيح فهو أحد أبناء آدم كما في كتبهم. وأما نحن المسلمين فعقيدتنا واضحة فهو ابن مريم، وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم.

ومن الجدير بالذكر أن المسيح لم يدع "عمانوئيل" رغم أن هذا الاسم يطلق على من ليسوا بأبناء الله، كما أن النص يقول: إنها ستسميه "يسوع"؛ لكي تتحقق النبوءة القديمة التي تقول: إنه سيمسى "عمانوئيل"، ومن فهمهم وبلسانهم أنفسهم يدانون! فقد كان الناس جميعاً يقولون بأن أبا عيسى هو يوسف النجار، لا نقول افتراء عليهم ذلك،

^١ - الشبكة الإسلامية، الخميس ٨ / ٩ / ٢٠٠٤م (شبهات حول القرآن وشبهات أخرى). راجع: موسوعة بيان الإسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار نضرة مصر، ط ١/٢٠١٢.

بل إن أنجيلهم هي التي تقول، ومن ذلك: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة". (يوحنا ١: ٤٥). "ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعي المسيح". (متى ١: ٥٥). "وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، ويقولون: أليس هذا ابن يوسف؟" (لوقا: ٤: ٢٢)، وكان عيسى يسمع ذلك منهم فلا ينكره عليهم، بل إن لوقا نفسه قال عن مريم ويوسف: إنهما "أبواه" أو "أبوه وأمه". ونص ذلك: "وعندما دخل بالصبي يسوع أبواه، ليصنعا له حسب عادة الناموس، أخذه على ذراعيه". (لوقا ٢: ٢٧). "وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح. ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد. وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم، ويوسف وأمه لم يعلما. وإذ ظناه بين الرفقة، ذهباً مسيرة يوم، وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف. ولما لم يجدها رجعا إلى أورشليم يطلبانه. وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل، جالسا في وسط المعلمين، يسمعون ويسألهم. وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته. فلما أبصره اندهشا. وقالت له أمه: «يا بني، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين!» فقال لهما: «لماذا كنتما تطلباني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي؟» (لوقا ٤: ٤١ - ٤٩) ^(١).

نصوص الكتاب المقدس أكبر دليل على أن المسيح ليس ابن الله:

إن الكتاب المقدس لم يقل: إن عيسى وحده هو ابن الله، بل لقد أطلقت هذه اللفظة على بشر كثيرين منذ أول الخليقة؛ حيث سمى آدم كما رأينا "ابن الله". وهذه شواهد على ما نقول، وهي أكبر برهان على أن كل ما يزعمه القوم كلام باطل بأدلة من كتابهم المقدس نفسه، لا من العقل والمنطق فحسب، ناهيك عن أدلة القرآن الكريم: "وحدث لما ابتداء الناس يكتثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب: «لا يدين روعي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه، هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة». كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم". (تكوين ٦: ١ - ٤)، "قدموا للرب يا أبناء الله، قدموا للرب مجداً وعزاً". (المزامير ٢٩: ١)، "من في السماء يعادل الرب، من يشبه الرب بين أبناء الله". (المزامير ٨٩: ٦)، "طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون". (متى ٥: ٩).

فلماذا يخصون عيسى وحده بهذه الصفة، فضلاً عن أن المسيح قد أخذه الشيطان ليخرجه فوق الجبل ويدفعه إلى السجود، وليس من المعقول أن يجرب الشيطان الله، ليرى أيمكن أن يسجد له الله أم لا، كما أنه ليس من المعقول أن يكون رد الله على الشيطان هنا هو "اذهب يا شيطان؛ لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد". (لوقا ٤: ٨)، وهو ما يعني بكل جلاء أن عيسى كان ينظر لله على أنه "ربه" ومن الواجب عليه أن يسجد له لا على أنه هو نفسه ولا على أنه "أبوه"، كما أنه قد سمى نفسه أيضاً: "ابن الإنسان". (متى ١١: ١٩).

فهذا كتابهم المقدس يدل على أن المسيح ليس ابن الله، وإلا لكان كل هؤلاء أيضاً أبناء الله تعالى وهناك دليل آخر من أفواههم، حيث يقول د. شارل جنير الذي نشأ مسيحياً من أب مسيحي، وأم مسيحية في بيئة مسيحية صحيحة في كتاب "المسيحية: نشأتها وتطورها": "والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هي أن عيسى لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه: إنه "ابن الله"، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل بالنسبة إلى اليهود سوى خطأ لغوي فاحش، وضرب من ضروب السفه في الدين، كذلك لا يسمح لنا أي نص من نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير

^١ - انظر: النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص٦٥ وما بعدها. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص٧٨ وما بعدها.

"ابن الله" على عيسى، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين المتأثرين بالثقافة اليونانية، إنها اللغة التي استخدمها القديس بولس منشئ الديانة المزعومة، والذي وقف وراء زعم ألوهية المسيح^(١).

إن القرآن الكريم لم يذكر أن عيسى ابن الله، بل إن القرآن بين أنه بشر:

لقد دعا القرآن إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده؛ مما يدل على جهل الكافرين الفاضح بحقيقة الأمور، حيث إنهم تركوا كل هذه الآيات التي تقرر بشرية المسيح، وما هذا إلا لجهلهم واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

ومن الآيات التي تبين بشرية المسيح، وتدعو إلى التوحيد قوله في سورة المائدة: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (٧٢)} لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٧٣) أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم (٧٤) ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون (٧٥)} {المائدة}. وقال سبحانه وتعالى: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (١١٦)} ما قلت لهم إلا ما أمرني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد (١١٧)} {المائدة}.

فهذا هو القرآن الكريم الذي تستدلون بكلامه يدعو إلى التوحيد، بل إنه يصف من يقول: إن المسيح ابن الله بالكفر، ولكن إذا احتاج ضوء النهار إلى دليل فلا يثبت في الأذهان شيء: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦)} {الحج}.

ثانياً. أصل الإشكال عند النصارى في هذه الآية هو عدم فهمهم وإدراكهم للنص القرآني، واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن:

يحاول النصارى الاستدلال بالقرآن الكريم على أن المسيح جزء من الإله، انفصل عن الكل، ولهم أن يعتقدوا من العقائد الباطلة ما يشاءون، أما أن يستدلوا على عقيدتهم الباطلة في أن عيسى ابن الله تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً بآيات القرآن الكريم التي تدعو إلى توحيد الله، وتحارب الوثنية بكل وسيلة، فهذا لا سبيل لهم إليه.

حيث إن الإشكال عند النصارى في هذه الآية هو عدم فهمهم، وإدراكهم للنص القرآني، أو فهمهم للنص القرآني وفق ما يروق لهم؛ واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

ولو كان هذا الاستدلال بالآية الكريمة: {فنفتحنا فيها من روحنا} (الأنبياء: ٩١) صحيحاً، لكان هذا دليلاً على بنوة آدم لله من باب أولى وليس عيسى وحده، فالله يقول: {فإذا سويته ونفخت فيه من روحي} (الحجر: ٢٩)، تماماً مثلما جاء في الحديث عن عيسى وأمه.

بل ليس آدم وعيسى وحدهما فقط يصيران ابني الله إن صحت الآية دليلاً، بل كل أبناء آدم يصبحون أبناء الله سبحانه وتعالى فالله يقول عن النوع الإنساني كله: {الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين (٧)} ثم

^١ - أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهية المسيح، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٨) ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٩) { (السجدة).

وأما استدلالهم هذا فغير صحيح، بل هو استدلال فاسد، فلو أننا تأملنا القرآن الكريم حيث يقول عن آدم: {ونفخت فيه من روحي} مثلما يقول عن مريم: {فنفخنا فيها من روحنا} لوجدنا أن النفخ حسبما يقول، لم يتم في آدم وعيسى، بل في آدم ومريم.

إن الذي يترتب على ذلك أن يكون الخارج من آدم ومريم متشابهًا، أي: إن البشر جميعًا، وهم الذين خرجوا من صلب آدم، يشبهون عيسى الذي خرج من رحم مريم، وعلى هذا فإما أن نقول: إن الطرفين جميعًا البشر من ناحية، وعيسى من الناحية الأخرى آلهة إذا قلنا إن "الروح" تعني "الألوهية"، أو أن نقول: إنهم جميعًا بشر على أساس أن "الروح" تعني "الحياة، والوعي، والإرادة، وما إلى ذلك"، وعلى النصارى والزاعمين أن عيسى ابن الله أن يختاروا الطريق للتمييز بين عيسى وأبناء آدم، وليعلموا أن الطريق أمامهم مسدود، إذ هما شيء واحد، على حد زعمهم.

فلو كان إلها لكان البشر جميعًا آلهة، فأنت إله، وأنا إله، فإذا حكموا بذلك فلن تستقيم الحياة، ولن يكون لإرسال الرسل فائدة، وستكون الدنيا بأسرها عبثًا، ولن تكون هناك خطيئة، فلا بد إذن أن يكونوا بشرًا، فمن هنا نقول بأن عيسى بشر^(١).

٢٧-دعوى تناقض القرآن حول تصوره للمسيح عليه السلام

في القرآن تناقضا حول تصوره للمسيح فتارة يذكر أنه عبد، وتارة أخرى يشير إلى أن طبيعته تشبه الطوائف الإلهية. كما أن القرآن يعطي المسيح من الألقاب العظام ما لم يعطه لغيره من الأنبياء، فهو "كلمة الله"، و "روح الله"، و: {وجيها في الدنيا والآخرة} (آل عمران: ٤٥)... إلى غير ذلك. ويتساءلون: إذا كان الذي ذكره القرآن عن المسيح يفوق ما ذكره عن سائر البشر بمن فيهم محمد صلى الله عليه وسلم هذا إلى تمييز المسيح عن سائر البشر، وهذا ما يقره الإنجيل عن لاهوت المسيح؟!

الجواب: لا تناقض بين الآيات التي تعرضت لذكر المسيح فهي تصفه بأنه بشر خصّه الله ببعض الخصائص التي تميز بها عن بقية الرسل، وهذه الخصائص والمزايا، منح من الله تعالى له، وليست ذاتية فيه، مثل تسميته بـ "كلمة الله"، و "روح الله"، وولادته بالروح القدس من عذراء، وقدرته على إتيان المعجزات، ورفعته إلى السماء، وكونه وحيها في الدنيا والآخرة، ووصفه بأنه المخلص وأنه قدوس بلا شر، وهذه الخصائص والمزايا منح من الله له، وليست ذاتية فيه؛ ولو كان القرآن الكريم ينسب للمسيح شيئًا بمعزل عن إرادة الله وإذنه، لكان لهؤلاء المغالطين حق في أن يستدلوا بهذه الخصائص على ألوهيته.

أما وإنما منح من الله له، فإنها تدل على عبوديته لله، لا على ألوهيته، كما قال الله: {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبي إسرائيل (٥٩)} (الزخرف)، ولو كانوا موضوعيين، يبحثون عن الحقيقة المجردة، لاعترفوا بفضل القرآن، وأنه كلام الله، وبفضل رسول الله محمد وأنه مبلغ عن الله كلامه، وبفضل الأمة الإسلامية، وأنها نقلت ما بلغه رسول الله لها نقلاً أميناً، ولم تبادلهم بغضاء ببغضاء، ولم تبدل كلام الله، بل نقلت ما قاله الله في نبيه عيسى دون تبديل أو تحريف، ولم تبادلهم تشويهاً بتشويهه، فكم حاولوا زورا تشويه صورة الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم!!

^١ - راجع: موسوعة بيان الاسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط ١/٢٠١٢.

أما البيان التفصيلي لما قيل عن لاهوت عيسى عليه السلام في القرآن فهو كالتالي:

١. وصفه بأنه كلمة الله، أو كلمة منه، أي: أنه نفاذ كلمته (كن) وإن كان الخلق جميعا نفاذ كلمته، وأثرا لها، إلا أن عيسى جاء على نسق غير مألوف للناس لكونه ولد من غير أب، ومن هنا وصف بهذا الوصف. و "من" في قوله سبحانه وتعالى: { بكلمة منه } ليست للتبعيض حتى لا يفهم أنه جزء من الله انفصل منه كما يتوهم النصارى، وإنما هي للابتداء، مثل "من" في قوله سبحانه وتعالى: { وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه } (الجاثية: ١٣)، وإذا كان المسيح هو ذات كلمة الله كما يزعم النصارى، وما دامت كلمة الله تعالى قابلة لأن تنفصل منه وتتحول إلى مخلوق أو إنسان، فلم لا يكون الخلق أو الإنسانية كلها كذلك؟! إن تحول الصفة إلى ذات هو غاية في الشناعة، وإغراق في الاستحالة العقلية.

ووصفه بأنه "روح منه" لا يعنى أنه ابن الله كما زعموا، ولا يعنى أنه انفصل من الله، وإلا كان آدم أحق بذلك فقد قال الله تعالى في حقه: { ونفخت فيه من روحي } (ص: ٧٢)، وكان البشر كلهم كذلك؛ فالنبي قال في الحديث: «إن أحدكم يجمع خلقه.. ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح»، وضم الحديث مع الآيات في شأن آدم وعيسى يقدم لنا الحقيقة ناصعة، وهي أن جميع البشر بمن فيهم عيسى عليه السلام نفخت فيهم الروح بتكليف الملك المخصص بنفخ الروح، وبنفخ الروح تحل الحياة في الجسد.^(١)

فقد قال تعالى في حق مريم: { فنفخنا فيها من روحنا } (الأنبياء: ٩١)، كما قال عن آدم: { ونفخت فيه من روحي }، لكن التعبير عن عيسى بأنه "روح" أو "روح منه" لكونه جاء على غير الإلف، فكأنه هو الروح، ومشكلة النصارى أنهم حولوا التعبيرات المجازية في كتابهم ككلمة الأب، إلى تعبيرات حقيقية.

٢. ولادته بالروح القدس من عذراء: يتخذ بعض المغالطين من هذا التمييز لعيسى عن سائر الأنبياء دليلا على أنه إله وابن إله، ويصرحون بأنه ابن، وأمه مريم وأبوه الله أما السبب في هذا التمييز عندنا نحن المسلمين فهو لكي يظهر الله تعالى لنا آية على طلاقة قدرته، وأنه يخلق الشيء وضده، لا يعجزه شيء، فكما خلق الإنسان من أبوين، أعطانا آية على أنه يخلق من غير أب، كما خلق آدم بلا أب ولا أم، وكما خلق حواء من آدم، فقدم لنا الاحتمالات المفترضة كلها، وأنه سبحانه وتعالى لم يعجزه واحد منها، كما قدم الاحتمالات الأربعة في قوله سبحانه وتعالى: { يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور (٤٩) } أو يزوجهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير (٥٠) { (الشورى)، وأنه ينفذها كلها.

ولو كان المقصود بقوله تعالى: (بكلمة منه)، وقوله: (روح منه) أنه جزء من الله انفصل منه، وأنه ابن الإله، ما عقب الله على هذه الآية بإثبات الوجدانية له ونفي الولد وإبطال التثليث، وأكد أن المسيح عبد الله ورسوله، وأن المسيح لا يستنكف أن يكون عبدا لله، بل إن مقصود الآية في المقام الأول هو نهي النصارى عن الغلو في المسيح بتأليهه، قال سبحانه وتعالى: { إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥) } (آل عمران)، { يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكبيلا (١٧١) } لن يستنكف

^١ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ج٦، ص ٢٠: ٢٥. بتصرف. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج٢، ص ٨١٤: ٨٢٣. بتصرف. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد البضاوي، تحقيق: عبد القادر عرفت، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٨م، ج٢، ص ١٣٠، ١٣١. بتصرف. والحديث أخرجه البخاري رقم (٣٠٣٦) ومسلم (٦٨٩٣)

المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا (١٧٢) { (النساء).

معاني كلمة "روح الله" في الكتاب المقدس^(١):

إن الله خلق آدم ونفخ فيه من روحه ولم يقل أحد: إن آدم إله، ثم إن روح الله تأتي عندكم في المسيحية على عدة أوجه: فهي القدرة: "ولكن في الناس روحا، ونسمة القدير تعلقهم". (أيوب ٣٢: ٨).
الرأي: "الحكمة تنادي في الخارج. في الشوارع تعطي صوتها. تدعو في رؤوس الأسواق، في مداخل الأبواب. في المدينة تبدي كلامها قائلة: «إلى متى أيها الجهال تحبون الجهل، والمستهزئون يسرون بالاستهزاء، والحمقى ييغضون العلم؟ ارجعوا عند توبيخي. هاأنذا أفيض لكم روحي. أعلمكم كلماتي". (الأمثال ١: ٢٠ - ٢٣).
نفس الإنسان: "فيرجع التراب إلى الأرض كما كان، وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها". (الجامعة ١٢: ٧).
الإلهام: "وحل علي روح الرب وقال لي: قل هكذا الرب". (حزقيال ١١: ٥).
قوة الله وقدرته: "وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضا بروحه الساكن فيكم". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨: ١١).
الخلق والإحياء: "روح الله صناعي، ونسمة القدير أحييتني". (أيوب ٣٣: ٤).
منزل الوحي على رسل الله: "لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون، مسوقين من الروح القدس". (رسالة بطرس الرسول الثانية ١: ٢١).

وهل من الممكن أن تكون الكلمة الصادرة عن الرب هي الرب نفسه؟ فأنتم تقولون بذلك في بداية إنجيل يوحنا، بيد أن العقل السوي يأبي ذلك ويناقض معتقداتكم. فليس معنى أنه كلمة الله أنه هو الله نفسه؛ فالكلمة هنا تعني أمر الله إلى أمه مريم. وفي هذا إجلال لمريم؛ إذ يصفها الله بأنها أطاعت كلمته وأمره بمجرد تأكدها أنها صادرة من عند الله.
معاني كلمة "كلمة الله" في الكتاب المقدس^(٢):

كتاب الله وكلامه وتعاليمه: "وهؤلاء هم الذين زرعوا بين الشوك: هؤلاء هم الذين يسمعون الكلمة، وهموم هذا العالم وغرور الغني وشهوات سائر الأشياء تدخل وتخنق الكلمة فتصير بلا ثمر". (مزمور ٤: ١٨، ١٩).
الإيمان وجهاد النفس لطاعة الله: "وإذا كان الجمع يزدحم عليه لسمع كلمة الله". (لوقا ٥: ١)، وأيضا: "وهذا هو المثل: الزرع هو كلام الله والذين على الطريق هم الذين يسمعون ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم لئلا يؤمنوا فيخلصوا". (لوقا ٨: ١١، ١٢).

الكلمة العادية أو الأمر الموجه لشخص ما، والتي قد تكون سبب سعادة أو حزن: "قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك، وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني، فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا؛ لأنه كان ذا أموال كثيرة". (متى ١٩: ٢١، ٢٢).

النطق والكلام العادي: "ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرحت إليه قائلة: "ارحمي يا سيد يا ابن داود. ابنتي مجنونة جدا"، فلم يجبها بكلمة". (متى ١٥: ٢١ - ٢٣).

^١ - المناظرة الكبرى مع القمص زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٩٩ وما بعدها.
^٢ - المناظرة الكبرى مع القمص زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ١٠٠ وما بعدها.

دليل أو إثبات: "وإن لم يسمع فخذ معك أيضا واحدا أو اثنين؛ لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة". (متى ١٨ : ١٦).

السؤال: "فأجاب يسوع: وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة، فإن قلتم لي عنها أقول لكم أنا أيضا بأي سلطان أفعل هذا: معمودية يوحنا من أين كانت؟ من السماء أم من الناس؟". (متى ٢١ : ٢٤ ، ٢٥).

التجديف: " لذلك أقول لكم: كل خطية وتجديف يغفر للناس، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس. ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي". (متى ١٢ : ٣١ ، ٣٢).

السب واللعن والتهجم على الآخرين: "ولكن أقول لكم: إن كل كلمة بطلاة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حسابا يوم الدين". (متى ١٢ : ٣٦).

الخطأ، أو الإثم، أو العلة، أو سبب الإدانة: "فراقبوه وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم أبرار؛ لكي يمسكوه بكلمة، حتى يسلموه إلى حكم الوالي وسلطانه. فسألوه قائلين: «يا معلم، نعلم أنك بالاستقامة تتكلم وتعلم، ولا تقبل الوجوه، بل بالحق تعلم طريق الله. أيجوز لنا أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟» فشعر بمكرهم وقال لهم: «لماذا تجربوني؟ أروني دينارا. لمن الصورة والكتابة؟» فأجابوا وقالوا: «لقيصر». فقال لهم: «أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». فلم يقدرُوا أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب، وتعجبوا من جوابه وسكتوا". (لوقا ٢٠ : ٢٠ - ٢٦).

وكما رأينا لم تأت "الكلمة" أبدا بمعنى ذات الله ولا نفس الله، كما يحلوا لهم أن يفسروا على هواهم ما يثبت ألوهية يسوع؛ ومن ثم لا يمكن أن يكون الذي أوحى بكل معاني لفظ "الكلمة" قد أفاق أخيرا؛ ليوحى في إنجيل يوحنا بأن الكلمة هي الإله نفسه، مع الأخذ في الاعتبار أن علماء اللاهوت يعلمون أن هذا الإنجيل كتب بعد عام ١٢٠ ميلادية، فلا يمكن أن يكون الرب المتجسد عندهم نسي أن يوحى بأنه الكلمة لباقى الإنجيليين، وتذكرها بعد ١٢٠ سنة من مولده!! ثم قالوا: "والذين قاموا بكتابة أسفار الكتاب المقدس هم أناس الله القديسون".

لقد خلت الأناجيل الأربعة وما ألحقوه بها من رسائل من بيئة واحدة على أن عيسى أشار إلى نفسه أنه الكلمة، كما أن الثلاثة أناجيل الأولى المتوازية لم تشر بها إليه قط على السنة كاتبها أو حكاية عن غيرهم، وأشير إلى قول لوقا الشهير في بداية إنجيله: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به". (لوقا ١ : ١ - ٤). فماذا تعني "الكلمة" هنا غير ما سوف نذكره؟ وما الذي يمنع أن يكون هذا المعنى هو الذي قصده يوحنا في بداية إنجيله هو أيضا؟

معاني لفظ "كلمة" في إنجيل لوقا:

ورد هذا اللفظ في إنجيل لوقا، بالمعنى نفسه الوارد في أسفار التوراة، أي: بمدلول الوحي، أو الأمر الإلهي، أو الرسالة النبوية عند أنبياء العهد القديم، ولم يتجاوز هذا الحد ولم يشر بها إلى مسيح الناصرة، أو حتى أي مسيح آخر. وهو نفس المدلول في سفر إرميا، ونصه: "اسمعوا الكلمة التي تكلم بها الرب عليكم يا بيت إسرائيل. هكذا قال الرب: ألا تتعلموا طريق الأمم ومن آيات السماوات لا ترتعوا؛ لأن الأمم ترتعب منها". (١٠ : ١ ، ٢).

ومعنى "الكلمة" هنا واضح لا يحتاج إلى شرح، ويمثله قال لوقا عن يوحنا المعمدان: "في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية". (لوقا ٣ : ٢)، فقد جاءت بعدة معانٍ منها:

كتاب الله: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانيين وخداما للكلمة". (لوقا ١: ١، ٢).

رضا الله: "وقال له إبليس: إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا. فأجابه يسوع: مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة من الله". (لوقا ٤: ٣، ٤).

التوبيخ والنهر: "فوقعت دهشة على الجميع، وكانوا يخاطبون بعضهم بعضا قائلين: ما هذه الكلمة؛ لأنه بسلطان وقوة يأمر الأرواح النجسة فتخرج". (لوقا ٤: ٣٦).

أوامر الله ونواهيته: "وإذ كان الجمع يزدحم عليه ليسمع كلمة الله كان واقفا عند بحيرة جنيسارت". (لوقا ٥: ١). الإيمان وجهاد النفس لطاعة الله: "وهذا هو المثل: الزرع هو كلام الله، والذين على الطريق هم الذين يسمعون، ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم؛ لئلا يؤمنوا فيخلصوا". (لوقا ٨: ١١، ١٢).

العمل بكتاب الله: "والذي في الأرض الجيدة هم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح ويثرون بالصبر... وجاء إليه أمه وإخوته ولم يقدر أن يصلوا إليه لسبب الجمع. فأخبروه: أملك وإخوتك واقفون خارجا يريدون أن يروك، فأجاب: أُمِّي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها". (لوقا ٨: ١٥ - ٢١).

التجديف: "وكل من قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من جدف على الروح القدس فلا يغفر له". (لوقا ١٢: ١٠).

السؤال: "فأجاب: وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة، فقولوا لي: معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس؟". (لوقا ٢٠: ٣).

الخطأ أو الإثم: "فراقبوه وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم أبرار؛ لكي يمسكوه بكلمة حتى يسلموه إلى حكم الوالي وسلطانه.. فلم يقدر أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب وتعجبوا من جوابه وسكتوا". (لوقا ٢٠: ٢٠ - ٢٦).

ومن هذا نستنتج بوضوح أن الكلمة عند لوقا هي: التعليم، والوحي، والأمر الإلهي الصادر عن الله والمبلغ عن طريق نبي من عباده. فهل شذ من كتب إنجيل يوحنا واستخدم الكلمة "لوجوس" في وصف عيسى مخالفا سياق الأناجيل الأخرى والرسائل مستسقى مصادر أجنبية، وهي الفلسفة اليونانية في جانبها الوثني؛ ليدسه في النصرانية؛ لأن المضمون عند فلاسفة اليونان مثل هيراقليطس: أن "الوجوس" أو الكلمة هو العقل الإلهي الضابط لحركة الموجودات والمهيمن على الكون، وهذا ما التقطه كاتب إنجيل يوحنا كفكرة فلسفية ليس لها أي أصل ديني صحيح، بل هو تصور وثني أضافه كاتب هذا الإنجيل؛ ليزيد الأمور تعقيدا عند النصارى.

والملاحظ أنه سبحانه وتعالى قال عن عيسى وأمه: {آية للعالمين (٩١)} {الأنبياء: ٩١}، ولم يقل: "رحمة للعالمين" كما فهم الكاتب، ولكنه قال: {ورحمة منا} {مریم: ٢١} إشارة إلى أنه من حيث كونه آية فهو آية للعالمين على طلاقة قدرة الله تعالى، ونفاذ مشيئته بلا حدود، أما من حيث كونه رحمة فهو رحمة لأناس بعينهم، وهم قومه من بني إسرائيل، كما قال سبحانه وتعالى: {وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)} {الصف: ٦}.

وكما جاء في الإنجيل على لسانه: "إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة" فهو آية للعالمين وليس رحمة للعالمين لأن رسالته ليست عالمية. أما صاحب الرسالة العالمية فهو محمد ﷺ {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١٠٧)} {الأنبياء: ١٠٧}.

إن الله غني عن أن يكون له ابن، أو زوجة تلد له ابنا، وهو لا يشبه خلقه، فالتوالد نتيجة التجانس والتشابه، وهو سبحانه وتعالى: {ليس كمثله شيء} {الشورى: ١١}، وكل المخلوقات خلقه وملكه، فلا حاجة لاختصاص أحد

من الخلق ببنة، ولهذا كانت الحجج في القرآن الكريم تتوالى لإبطال الولد: {سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض} (يونس: ٦٨).

أما أن القرآن لقب المسيح بأنه قدوس بلا شر: فهذا افتراء على كتاب الله تعالى؛ فالله تعالى لم يسم أحدا من خلقه باسم القدوس، وإنما هو سبحانه وحده القدوس ومعنى القدوس: المنزه عن كل وصف يدركه حس، أو خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير.^(١)

وكون المسيح ذكر في القرآن الكريم من غير أن يذكر له خطيئة لا يعني أنه إله، أو ابن إله، فهو بشر، عبد الله، عصمه الله من الوقوع في المعصية، ولم يمسه الشيطان عند ولادته كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب». وفي رواية: أن رسول الله قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان؛ فيستهل صارخا من نخسه الشيطان إلا ابن مريم وأمه»، ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: {وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (٣٦)} {آل عمران}.^(٢) لا لأنه إله ابن إله، ولكن تحقيقا لدعوة المرأة الصالحة امرأة عمران عندما لجأت إلى الله أن يعيد مريم وذريتها من الشيطان الرجيم.

أما ما يستدل به بعضهم على ألوهية المسيح، وهو:

قدرته على إتيان المعجزات: والمعجزة فعل من الله أظهره الله على أيدي أنبيائه، ولم يختص عيسى دون سائر الأنبياء بالمعجزات؛ فلكل نبي معجزاته التي أظهرها لقومه؛ ليثبت لهم صدقه، ولا تدل المعجزة على ألوهية من جرت على يديه، وإلا كان الأنبياء جميعا آلهة، وكما قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: {وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون} {آل عمران: ٥٢} قال على لسان يوسف عليه السلام: {قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي} (يوسف: ٣٧).

والإحاطة الكاملة بالغيب كله ليست إلا لله علما كاملا ليس مستمدا من غيره وهذا لا يمنع أن يعلم بعض خلقه ما تقتضيه الحكمة، كإطلاع رسله على بعض الغيب، وما جاء في القرآن الكريم من نسبة الخلق لعيسى في قوله سبحانه وتعالى: {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله} {آل عمران: ٤٩}، فعيسى لم يدع أنه يتفرد بالخلق، ولكنه لا يفعل شيئا إلا بإذن الله، ومن معاني الخلق التقدير قال الشاعر:

فلأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

فالخلق الذي نسب له هو التقدير، لذلك جاء في الآيتين أنه يخلق (كهية الطير) ولم يرد أنه يخلق الطير، فهو لا يوجد الطير ويخلقه، ولكنه يعمل من الطين شكل الطائر، كما يصنع ذلك أي إنسان، لكن الله تعالى أعطاه آية، بأن ينفخ فيما شكله فيكون طائرا بإذن الله فهو الذي يوجد الحياة عقب نفخ عيسى في الطين المشكل طيرا، وكذلك الأمر في إحياء الموتى فإنه بإذن الله تستجيب الأموات لندائه، فإذا بهم أحياء، وليس عيسى أول من أظهر الله على يديه هذه المعجزة، فقد أجرى الله على يد إبراهيم إحياء الطير بعد تقطيعها أشلاء، وخلط بعضها ببعض، وعلى يد موسى جاءت معجزة إحياء القتيل عندما ضربوه ببعض البقرة المذبوحة، قال سبحانه وتعالى: {فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون (٧٣)} (البقرة).

وابراء الأكمة والأبرص معجزة كغيرها من معجزات الأنبياء، والله هو الذي شفاهما على الحقيقة، ولكن نسبة الإبراء إلى عيسى بإذن الله لما باشر السبب بأن مسح عليهما فشفيا بإذنه تعالى، والفعل ينسب إلى السبب المباشر كما

^١ - المقصد الأسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، د. ت، ص ٥٥.

^٢ - الاول أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، (٣١١٢). والثاني: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، (٦٢٨٢).

ينسب إلى الفاعل الحقيقي، وذلك كثير في القرآن وفي اللغة، تقول: شفى الله المريض، وشفى الطبيب المريض، وقال الله: {وارزقوهم فيها} (النساء: ٥)، مع أنه سبحانه هو الرزاق.

رفعه إلى السماء:

لا يدل ذلك على ألوهيته، بل يدل على ما خصه الله به لتكتمل خصائصه، وليكون آية للعالمين في بدء حياته، وفي خاتمته، وفي أثنائها، أما أن يتخذ البعض من رفعه دليلاً على خلوده، ويجعل ذلك اعترافاً من القرآن بخلوده، فهذا ما يكذبه القرآن نفسه؛ فالقرآن الكريم يذكر على لسان عيسى أنه يموت كغيره من البشر، قال سبحانه وتعالى: {والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (٣٣)} (مریم)، وقال سبحانه وتعالى: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} (النساء: ١٥٩)، والآية التي استدلل بها الكاتب على موت النبي محمد ليقارن بين موت محمد، وخلود عيسى تدل على موت عيسى ولو بعد حين، فالآية تقول: {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد} (الأنبياء: ٣٤)، وعيسى من بين البشر الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم.

وجيها في الدنيا والآخرة:

نعم جاء ذلك عن عيسى بمعنى أنه ذو جاه ومنزلة في الدنيا والآخرة، وكونه ذا جاه ومنزلة لا ينفي أن يكون غيره كذلك، وقد قال الله تعالى في حق الكافرين: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين (٤٨)} (المدثر: ٤٨)، فيفهم من هذا أن غير الكافرين من أهل الإيمان تنفعهم الشفاعة، وأنها شفاعة شافعين كثيرين، وليست شفاعة واحد فقط، فعيسى يشفع لمن أذن الله له بأن يشفع له، وغيره من ذوي الجاه من الأنبياء والملائكة والصالحين كذلك، ولو أكمل الكاتب الآية ووقف عندها، ما تطاول على كتاب الله، فالله يقول: {ومن المقربين} (آل عمران: ٤٥)، فهو واحد من المقربين إلى الله، لكنه يفرض عقائده الباطلة فرضاً على آيات كتاب الله؛ ليقول عن المسيح عليه السلام: "إنه ابن الله المتجسد، والوسيط الوحيد بين الله والناس".

المخلص:

يتخذ بعض الكتاب من إطلاق القرآن الكريم على المسيح اسمه المتداول؛ أي: عيسى، ولقبه المعروف؛ أي: المسيح، وإطلاق القرآن اسم "الإنجيل" على كتابهم - اعترافاً من القرآن بعقائدهم، فعيسى هو الإطلاق العربي لاسم يسوع عندهم، ويسوع بمعنى المخلص، ويزعمون أن هذا اعتراف من القرآن بأن يسوع مخلص العالم من الخطيئة الموروثة، ومخلص المؤمنين به، كما أن إطلاق المسيح في القرآن اعتراف منه بأنه معين ملكاً ونبياً وكاهناً، لتعيينه مخلصاً للجنس البشري، كما أن الإنجيل بمعنى: الخبر المفرح.

ونقول رداً على هذه المزاعم: إن استخدام القرآن الكريم لهذه الإطلاقات: "عيسى، المسيح، الإنجيل" لا يعني الاعتراف بعقائدهم الفاسدة، ولا يعني حتى الاعتراف بما تحمله من معان، فإن كانت هذه الكلمات في أصل اشتقاقها تحمل المعاني المذكورة، فإنها أصبحت أسماء لمسميات، فأصبح عيسى علماً على النبي المرسل، وكذلك المسيح أصبح لقباً له، وأصبح الإنجيل علماً على الكتاب الذي أنزله الله عليه.

وحتى لو كان معنى كل اسم من هذه الأسماء مقصوداً، فليس على عقيدتهم الوثنية، ولكن عيسى مخلص للمؤمنين به من عذاب الله لكونه سبباً في هدايتهم، والمسيح معين ليكون نبياً وقد كان، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى لا ما بأيديهم مما افتروه على الله، فيه بشرى للمؤمنين، وهذا الفهم لا ينكره القرآن، بل يقرر أن المرسلين مبشرون ومنذرون أما كثرة ذكر عيسى ابن مريم في القرآن الكريم فليس اعترافاً بألوهيته؛ ولكن لأنه لم يقل أحد قولاً عظيماً في حق مخلوق مثلما قيل في المسيح فكان تكرار ذكره تأكيداً على أنه بشر ابن بشر ابن مريم ونفياً لألوهيته، ولو كانوا صادقين في

الإيمان بعيسى وفي حبه، لآمنوا بالكتاب الذي اعترفوا بأنه أشاد به، ووضعه في المكانة اللائقة به، ولأخذوا بكل ماجاء فيه عن المسيح وعن غيره، لا أن يزيفوا الحقائق ويقلبوها، ويجرفوا آيات القرآن ويستنتقوها ضلالاً لهم^(١).

٢٨- ادعاء أن بنوة المسيح عليه السلام لله سبحانه وتعالى لا تنافي التوحيد

يدعي بعض المتوهمين أن بنوة عيسى لله ليست بنوة جسدية تناسلية، وإنما هي بنوة روحية كبنوة الفكر للعقل، والأبوة عندهم لها معان عدة؛ فهي قد تكون مجازية كقولك "أبو الخير"، وقد تكون شرعية كـ "التبني" في زعمهم، وقد تكون جوهريّة كـ "تولد النور من النار"، وقد تكون روحانية كـ "بنوة عيسى من الله"؛ ولذلك فإن بنوة المسيح لا تنافي التوحيد في زعمهم.

الجواب:

(١) لو كانت بنوة عيسى لله عز وجل بنوة روحانية كما يزعمون لكان من الأولى أن تكون هذه البنوة لآدم عليه السلام فهو أول من خلقه الله من البشر، ونفخ فيه من روحه.

(٢) محاولة تفسير البنوة بأنها بنوة روحية محاولة باطلة؛ لأن عيسى مثل سائر الخلق في ذلك، هذا فضلاً عن أن نسبة الولد لله عز وجل إنقاص من كمال عظمتة.

(٣) إقرار عيسى ببشريته في الكتاب المقدس وبكونه عبداً لله تأكيد منه على أن ادعاء البنوة لله ينافي التوحيد، فضلاً عن أنها ذريعة للإشراك بالله.

أولاً. إذا كانت بنوة عيسى لله بنوة روحانية كما يزعمون لكان من الأولى أن تكون هذه البنوة لآدم فهو أول من خلق الله من البشر، ونفخ فيه من روحه، لماذا لم يدع المدعون البنوة الروحانية هذه لآدم فمعجزة خلقه أعظم في النفوس البشرية من معجزة عيسى فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم، ثم نفخ فيه من روحه: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٢٩)﴾ (الحجر)، وأما المسيح عيسى فقد خلقه الله من أم بلا أب، فأبي المعجزتين أكبر! آدم الذي خلق من غير أب ولا أم، أم المسيح الذي خلق من أم بلا أب؟! إن مثل عيسى عند الله كمثّل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩)﴾ (آل عمران). ثم إن البشر جميعاً نفخت فيهم الروح، فكل إنسان لا بد أن يوكل به ملك فينفخ فيه الروح: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين (١٤)﴾ (المؤمنون: ١٤)، ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ (السجدة)، ومرتّم وكلّ بها ملك نفخ فيها روح عيسى فجعله الله خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد اعترف النصارى أنفسهم ببشرية المسيح وعدم تميزه في الطبيعة عن غيره من البشر، فهذا النجاشي وكان نصرانياً آنذاك لما سأل جعفر بن أبي طالب قائلاً: ماذا تقولون في عيسى ابن مرتّم؟ قال له جعفر: هو عبد الله ورسوله ورحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضرب النجاشي بيده في الأرض فأخذ عوداً، ثم قال: والله، ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فهذا ملك من ملوك النصارى، يعترف ببشرية المسيح، وصدق القرآن فيما أتى به عن عيسى عليه السلام.

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب المقدس ذكر أن أبا عيسى هو يوسف النجار، ومن ذلك: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة". (يوحنا ١: ٤٥). "ويعقوب ولد يوسف رجل

^١ - راجع: موسوعة بيان الاسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط ١/٢٠١٢.

مریم التي ولد منها يسوع الذي يدعي المسيح". (متى ١: ٥٥). "وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، ويقولون: أليس هذا ابن يوسف؟" (لوقا: ٤: ٢٢).

ثانياً. محاولة تفسير البنوة بأنها بنوة روحية محاولة باطلة؛ لأن عيسى مثل سائر الخلق في ذلك:
الأبوة الروحية إن قصد بها نفخ الروح، فالبشر جميعاً منفوخ فيهم الروح، فلا فرق في ذلك بين سائر البشر وبين المسيح وإن قصد بها أنه مخلوق من أم بلا أب بشري، فإن آدم مخلوق من غير أب ولا أم، فأيهما أولى بالأبوة لو صحت؟! وإن قصدتم بالأبوة الروحية أبوة الشيخ لمريديه، فهي أبوة روحية؛ لأنه يربي أرواحهم، وهم يتأثرون به في أخلاقهم، وصفاتهم المعنوية، لا أنهم يستمدون منه أسباب الحياة الجسدية، فلم يخرجوا من صلبه، ولكنهم نتاج عقله وتهذيبه، وتأثيره الروحي، إن قصد ذلك، فليس عيسى وحده ابناً روحياً لله بل كل المؤمنين الذين تهذبهم وتربيهم تعاليم الإله الواحد أبناء روحانيون لله عز وجل بهذا المعنى.

لكن وصف النصارى للأبوة بأنها أبوة روحية، يتعارض مع عقيدتهم في التجسيد، فإنهم يقولون: إن الكلمة تجسدت فصارت إلهاً، وابناً لله، فكيف تكون روحية، وهي متجسدة وصارت جسد إنسان؟ إن عقيدتهم في يسوع بإقرارهم تقضي بأن المسيح عليه السلام يجب أن يكون إما مجنوناً، أو سيئاً، أو إلهاً^١، وتعالى الله أن يكون العبد المخلوق إلهاً.

والأب والابن من الأمور المتلازمة، فإذا وجد أب، وجد ابن، وإذا وجد ابن وجد أب، فلا وجود لأحدهما بدون الآخر، وذلك في غير آدم، وحواء، وعيسى. والبنوة نتاج زوجين متزوجين شرعاً، أو بطريقة مشروعة، أقرها الشرع وباركها، وقامت على شروط الشرع.

وأما البنوة بالتبني كما زعموا كبنوة زيد بن حارثة لرسول الله فذلك عرف كان سائداً، وهو عرف فاسد باطل، وليس شريعة متبعة، وما عدا الأبوة الحقيقية التي ذكرناها الأبوة الشرعية الناتجة عن زواج مشروع فأبوة وبنوة مجازية، ومن ذلك قولنا: النور ابن النار، أو أبو الخير.

ثالثاً. إقرار عيسى عليه السلام ببشريته في الكتاب المقدس، وبكونه عبداً لله:

يشير د. عبد المنعم فؤاد إلى أن الكتاب المقدس جاء فيه ما يقرر بشرية المسيح على لسان المسيح نفسه، وأنه ليس إلا عبداً لله، أرسله برسالته ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولكن القوم ضلوا، فعبده من دون الله، والمسيح منهم براء، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً.

{ وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (١١٦) } (المائدة)، وجاء في سفر أعمال الرسل قول بطرس عن المسيح: "أيها الرجال الإسرائيليين، اسمعوا هذه الأقوال، يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم، كما أنتم أيضاً تعلمون". (أعمال الرسل ٢: ٢٢)، فلم يقل بطرس: إن المسيح إله، ولا ابن إله، وإنما قال: هو رجل أجرى الله على يده معجزات، وكذلك قال بطرس في السفر نفسه: "يسوع الذي من الناصرة كيف مسح الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس، لأن الله كان معه". (أعمال الرسل ١٠: ٣٨)،

^١ - يعترف موهنس وايلز . أستاذ الإلهيات، والكتاب المقدس في كلية المسيح، بأكسفورد . بأن القساوسة كانوا يعلمونه هذه العبارة في وصف الشيت للخدمة الكهنوتية انظر: أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، جون هك، ترجمة: نبيل صبحي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٨م، ص ٣١.

فقال: إن الله كان معه، كما أن الله مع جميع المرسلين، ولم يقل: إنه إله ولا ابن إله، وكل هذا يبين لنا أن المسيح إنسان بشر، وأنه رسول الله، وأنه ليس إلا نبيا من أنبياء بني إسرائيل.

والمسيح دعا إلى التوحيد الخالص لله رب العالمين، فقد جاء في إنجيل لوقا أنه سأله رئيس المجمع قائلا: "أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله". (لوقا ١٨: ١٨، ١٩).

لقد كان المسيح حريصا على نفي صفة الصلاح عن نفسه، وردّها إلى الله وحده، فكيف يقال بعد ذلك: إن المسيح إله، أو ابن إله، ولما جاء رجل من الكتبة، وسمعهم يتحاورون رأى حسن إجابة يسوع، فسأله: "آية وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد". (مرقس ١٢: ٢٨، ٢٩)، فلم يدع أنه إله يعبد، ولكن موقفه أمام الله كموقف كل أنبياء بني إسرائيل.

هذه هي اعترافات السيد المسيح من كتبهم، فهل بعد ذلك يثبتون للمسيح الألوهية، أو الربوبية أو حتى النبوة؟ {قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤)} (الإخلاص)^(١).

٢٩- قالوا إن المسلمين يشتون العصمة للمسيح وينفونها عن محمد صلى الله عليه وسلم

الجواب: عقيدة المسلمين في جميع الأنبياء والرسل أنهم جميعا معصومون، وليس المسيح عليه السلام وحده، ومن ادعى غير ذلك فهو جاحد لا عقل له، والنبي محمد ﷺ معصوم في قوله، وفعله، وبلاغه عن الله، وهذا ثابت عقلا ونقلا عند جميع المسلمين، ولم يخالف منهم في ذلك أحد.

التفصيل:

العصمة في الاصطلاح الشرعي فلها تعريفات متعددة أوضحها، وأنسبها للمعنى اللغوي أنها: لطف من الله سبحانه وتعالى يحمل النبي على فعل الخير، ويزجره عن الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقا للابتلاء^(٢)، وفي عصمة الأنبياء من المعاصي قبل النبوة يتردد سؤال هو: هل يجوز العقل صدور الذنب من الأنبياء قبل النبوة أو لا؟ وللجواب عن هذا السؤال نوضح أن الذنوب تنقسم قسمين:

الأول: يستقل العقل بإدراك أنه ذنب فينفر صاحبه من ارتكابه كالزنا، والقتل العمد، ونحوهما، فهذا لا يجوز العقل صدوره منهم لأمرين هما:

١. أن عقل الإنسان العادي الصحيح ينفر عنه، والأنبياء أصح الناس عقولا، فهم أولى بالامتناع والنفرة عنه.
 ٢. أن صدور هذا النوع من الذنوب منهم يكون وصمة عار تزعزع الثقة بهم بعد النبوة وتنفر الناس من اتباعهم.
- والثاني: هو ما يتوقف معرفة أنه ذنب على الشرع، كالتعامل بالربا مثلا، فهذا النوع لا مانع لدى العقل من فعله، ولا تشريع قبل البعثة يمنع منه، ولا ينفر أتباع الأنبياء بعد البعثة، ولم ينقل إلينا أن أحدا من الأنبياء قد فعل شيئا منه قبل بعثته.

ولما كان الله لم يرسل إلى خلقه إلا من هو أعقل أهل زمانه، وأقواهم فطرة، وأحسنهم خلقا وخلقاً؛ كان الأنبياء معصومين قبل النبوة وبعدها، ولم يقع ذنب من أحدهم قط.

^١ - المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص ٨٦ وما بعدها. ومناظرة بين الإسلام والنصرانية لمناقشة العقيدة الدينية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، دار الحديث، القاهرة، ط ٢، ١٤١٢هـ.

^٢ - لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، مادة: عصم، نسيم الرياض، أحمد شهاب الدين الخفاجي، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة، د. ت، ج ٤، ص ٣٩. راجع: موسوعة بيان الاسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار نخضة مصر، ط ١/٢٠١٢.

والأنبياء في هذه العصمة من الذنوب سواء؛ لأنه لا فرق بين نبي وآخر في عصمة الله لهم، وأما صدور الصغائر قبل البعثة منهم فلا مانع من وقوعها عمداً أو سهواً؛ لعدم قيام دليل على المنع. ولا خلاف أن الأنبياء معصومون من الصغائر التي تزري بفاعلها، وتحط منزلته، وتسقط مروءته، وأما وقوع الصغائر من الأنبياء سهواً، أو خطأ في الاجتهاد فيجوز، وعلى هذا يحمل ما نسب إلى بعضهم من ذنوب في القرآن الكريم، والحديث الشريف، عوتبوا عليها، وأشفقوا منها، واستغفروا، وتابوا.^(١)

فما ذكر في القرآن الكريم عن بعضهم يظهر منزلتهم برجوعهم إلى الله واعترافيهم بتقصيرهم في جنب الله، فهذا يظهر مكانتهم ولا يزيي بهم، والأنبياء معصومون زمان النبوة عن الكبائر والصغائر. أما الخطأ على السهو فهو جائز في غير الوحي والتشريع.^(٢)

ثانياً. النبي محمد ﷺ معصوم في قوله وفعله وبلاغه عن الله، وهذا ثابت عقلاً ونقلاً عند جميع المسلمين: اختار الله لنبيه محمداً أصلاً الطاهرين وأرحام الطاهرات من لدن آدم، وحواء إلى أبيه وأمه، وهذا من عناية الله بنبيه من قبل أن يولد. وبعد أن ولد حفظه الله من الشيطان، فلم يجعل له سبيلاً إلى قلب محمد ﷺ فقد شق صدره وقلبه، وهو صغير، واستخرجت منه العلقة السوداء، التي هي حظ الشيطان من الإنسان، ثم غسل قلبه حتى نقي^(٣). وحفظه ربه من قبائح الجاهلية ومساوئها، فلم يتدنس بدنسها، يدل على هذا ما جاء عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله يقول: «ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية أي: ويفعلونه إلا مرتين من الدهر كلتاها عصمني الله منهما؛ قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها: أبصر لي غنمي حتى أسمى هذه الليلة بمكة كما يسمي الفتيان، قال: نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان قد تزوج بغلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الصوت، فغلبتني عينا، فمنت، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فأخبرتة، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك، فوالله ما هممت بشيء من ذلك بعد حتى أكرمني الله سبحانه وتعالى بنبوته»^(٤).

وثبت ﷺ على هجر المآثم، فكان على الطريق المستقيم لم يعدل عنه، وأقسم الحق أن نبيه لم يعدل عن الطريق المستقيم، فقال: {والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى (٢) وما ينطق عن الهوى (٣)} (النجم). قال البيضاوي في معنى الآية: ما عدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم، وما اعتقد باطلاً والمراد نفي ما ينسبون إليه وما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى^(٥).

وقال سبحانه وتعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين (١٦٤)} (آل عمران)، معنى الآية: "لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من جنسهم؛ ليتمكنوا من مخاطبته، وسؤاله، ومجالسته، والانتفاع به، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته، ومراجعته في فهم الكلام عنه؛ ولهذا قال: (يتلو عليهم آياته) يعني القرآن: (ويزكيهم) يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر؛ لتزكو نفوسهم، وتطهر من الدنس، والخبث الذي كانوا

^١ - عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ١١٨، ١١٩.

^٢ - عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ٤١: ٤٧.

^٣ - الطليقات الكبرى، ابن سعد، مطبعة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، د. ت، ج ١، ص ١٣١.

^٤ - حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦٢٧٢)، وحسن إسناده الأرزؤوط في تعليقه صحيح ابن حبان.

^٥ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، تحقيق: عبد القادر عوفات، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٣٤٠.

متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم، (ويعلمهم الكتاب والحكمة): القرآن والسنة، (وإن كانوا من قبل) هذا الرسول (لفي ضلال مبين) لفي غي وجهل ظاهر بين لكل أحد^(١).

ومما وصف به نبينا في التوراة والإنجيل أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، قال سبحانه وتعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر} (الأعراف: ١٥٧)، وإذا كان نبينا آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، فهل يترك معروفا، أو يأتي منكرا؟ كلا. ومن هنا يقطع ببعده عن المآثم والمعاصي، ونزاهته عن كل ما يخالف دعوته، وثبت له العصمة، ثم إن ربه قد وصفه بأنه نور يضيء للناس حياتهم، وتبصر به بصائرهم، ويخرجهم من ظلمات جهالاتهم، قال سبحانه وتعالى: {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٤٥) وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا (٤٦)} (الأحزاب).

ومن كان بهذه المكانة؛ فإنه يكون في أقواله وأفعاله مثالا يحتذى به في فعل كل خير، والبعد عن كل شر؛ لأن من يترك الخير، أو يفعل الشر لا يهدي غيره، ولا يضيء للآخرين حياتهم.

وحتى يستضاء بنوره، ويهتدى بهديه كان متواضعا للمؤمنين رفيقا بهم، كما أمره ربه بذلك في قوله سبحانه وتعالى: {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين (٢١٥)} (الشعراء)، وكان متسامحا يعفو عن المسيئين، ويأمر بالمعروف، ولا يكافئ الجاهلين بمثل أفعالهم تنفيذا لأمر ربه بذلك في قوله سبحانه وتعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (١٩٩)} (الأعراف)، ولا عجب أن يكون على هذا الخلق العالي؛ وقد اقتدى بهدي الرسل جميعا كما أمره ربه بقوله: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} (الأنعام: ٩٠) وتخلق ﷺ بأخلاقهم.

وأخيرا، وبعد زمان طويل بدأ المنتصفون من غير المسلمين في الاعتراف بصدق محمد ﷺ وكمال رسالته، واعتباره "الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحا مطلقا على كلا المستويين: الديني والدينيوي، فهو قد دعا إلى الإسلام، ونزاه كواحد من أعظم الديانات، وبعد أربعة عشر قرنا من وفاته؛ فإن أثره ما يزال متجددا"^(٢).

^١ - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ، ج ١، ص ٤٢٤.

^٢ - انظر: المائة الأعظم أثرا في التاريخ، ميخائيل هارت، ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت. راجع: موسوعة بيان الاسلام، الرد على الافتراءات والشبهات، بقلم كبار العلماء، قسم القرآن، دار تحفة مصر، ط ١/٢٠١٢.

مراجع أساسية للبحث.

- القرآن الكريم.
كتب التفسير.
كتب السنة النبوية وشرحها.
كتب علم اللغة وفقهاها.
الكتاب المقدس. طبعة: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط (النسخة البرتستانتيّة).
الكتاب المقدس. طبعة: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط (النسخة الأرثوذكسية الكاثوليكية).
الكتاب المقدس. طبعة: الرهبانية اليسوعية (نسخة كاثوليكية أصدرها الآباء اليسوعيون). توزع جمعيات الكتاب المقدس في المشرق. بيروت.
الترجمة العربية المشتركة، (أصدرها علماء ولاهوتيون كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت)، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، (الطبعة الرابعة للعهد القديم، الطبعة الثلاثون للعهد الجديد).
الكتاب المقدس. (الأسفار المقدسة العبرانية، الأسفار المقدسة اليونانية). ترجمة العالم الجديد (نسخة شهود يهوه).
الكتاب المقدس. (الأسفار المقدسة العبرانية، الأسفار المقدسة اليونانية). ترجمة العالم الجديد.
إنجيل برنابا. ترجمة: خليل سعادة. ط. دار الوثائق. الكويت، ١٤٠٦ هـ.
موسوعة بيان الاسلام، الرد على الإفتراءات والشبهات، القسم الاول القرآن، بإشراف مجموعة من العلماء والباحثين، نشر دار تحفة مصر ط٢٠١٢/٢٠١٢.
افتراءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح عليه السلام، الدكتور علي بن عتيق الحري، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة د.سامي عامري، ((هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟)) وتحت عنوان جاني (نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم). مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان سنة ٢٠١٠

المصادر والمراجع.

- ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ت/ عبد الرحمن المعلمي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م
ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ت/ محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث، د.ت
ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ت/ محمود الطنجي و طاهر أحمد زاوي، الحلبي، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م
أحمد أبيش، التلمود، كتاب اليهود المقدس، دار قتيبة، ٢٠٠٦م
أحمد البعلبي، مجموعة الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي البعلبي، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م
أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، مكة المكرمة: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م
أحمد عبد الوهاب، الإسلام والأديان الأخرى، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د.ت
"أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن": محمد الأمين بن محمد المختار. (طبع على نفقة سمو الأمير أحمد بن عبد العزيز عام ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).
"إعجاز القرآن العلمي": محمود مهدي الاستانبولي. (الطبعة الثانية مكتبة السوادني للتوزيع - جدة).
أحمد شاكور، عمدة التفسير عن المحافظ ابن كثير، مختصر تفسير القرآن العظيم، للمنصورة: دار الوفاء، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ط٢
أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، ت/ محمد إسماعيل ومسعد السعدني، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م
أكرم ضياء العمري، مرويّات السيرة النبوية، بين قواعد المحدثين وروايات الأخباريين، نسخة الكترونية
أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، للمدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م
الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢٥هـ
البخاري، الجامع الصحيح، الرياض: دار السلام، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م، ط٢
ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت/ عادل مرشد، عثمان: دار الإعلام، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م
ألبير بايه، أخلاق الإنجيل، دراسة سوسولوجية، ت/عادل العوا، دمشق: دار الحصاد، ١٩٩٧م
الألويسي، روح المعاني، ت/محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلاسي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
إبراهيم الجيهان، ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض ١٤٠٤هـ.
إبراهيم خليل أحمد، المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، مكتبة الوعى العربى، القاهرة ١٩٦٤م.
إبراهيم موسى هندواي، الأثر العربي في الفكر اليهودي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣م.
أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، المنتدى الإسلامي، لندن ١٤١١هـ.
أحمد نوفل، سورة يوسف: دراسة تحليلية، دار الفرقان. عمان ١٤٠٩هـ. ١٩٨٩م.
إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ٣٠٠، بترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ط: ١٩٨٤م.
ارنست رينان، ابن رشد والرشدية، عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٧م.
إسماعيل سالم عبد العالم، المستشرقون والقرآن، سلسلة دعوة الحق. عن رابطة العالم الإسلامي، العدد ١٠٤، مكة المكرمة ١٤١٠هـ. ١٩٩٠م.
أعراب عبد الحميد، دائرة المعارف الإسلامية، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي الرياض (٢٠٢٢. ٢٥ رجب ١٤٢٠هـ، ٣١ أكتوبر. ٣ نوفمبر ١٩٩٩م).
ل شاتيله، الغارة على العالم الإسلامي، نشر محب الدين الخطيب. بيروت، د. ت.
أنيس فريخة، مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران. بترجمة إبراهيم مطر. بيروت ١٩٥٧م.
البعوي، معالم التنزيل، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م
بكر أبو زيد، معجم المناهي اللفظية، الرياض: دار العاصمة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م
البهوتي، كشف القناع، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ
البهقي، السنن الكبرى، ت/ محمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ط٣
ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مصر: مطبعة المدني، د.ت
ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م
ابن تيمية، منهاج السنة، ت/ محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦ هـ
ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ت/ علي محمد الجاوي، بيروت: دار الجبل، ١٤١٢هـ، ط١
ابن حجر، لسان الميزان، ت/ عبد الفتاح أبو غدة، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م

ابن حجر، نزعة النظر في توضيح نحية الفكر، ت/ عبد الله الرحيلي، الرياض: مطبعة سفير، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م

ابن حزم، إحكام الأحكام، القاهرة: دار الحديث، ١٤٠٤هـ

ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ت/ محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، د.ت

ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال السير، ت/ محمد العبد الخطراوي ومحيي الدين مستو، المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، د.ت

ابن سعد، الطبقات الكبير، ت/ علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م

أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م

بابا دو بولس، تاريخ كنيسة أنطاكية، منشورات النور، بيروت ١٩٨٤م.

البيجوري، تحفة للميد في شرح جوهر التوحيد، دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٣م.

التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي (الترجمة الكاملة لأعمال مؤتمر كلورادو التبشيري)، دون بيانات.

التهامي نفرة، سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع. تونس ١٩٧٤م.

توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية.

تيودور أبو قرّة، ميمر في وجود الخالق والدين القويم، بتحقيق: اغناطيوس ديك. بيروت ١٩٨٢م.

ترجمة الرهبانية اليسوعية، ط٣، بيروت: دار المشرق، ١٩٩٤م

"تأويل مشكل القرآن": عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. شرح ونشر السيد أحمد صقر، للمكتبة العلمية. للمدينة المنورة (الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

"تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المان": عبد الرحمن بن ناصر السعدي. (مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).

"جامع الدروس العربية": مصطفى الغلاييني. (الطبعة الثامنة عشرة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

"ديوان امرئ القيس": دار بيروت للطباعة والنشر (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

"الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله: أحمد بن محمد بن حنبل. توزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية، السعودية.

"رسالة راهب فرنسا للمسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها: تحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي. طبع ونشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية، الرياض

"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني": محمود الألوسي. (إدارة الطباعة المنيرية).

عبد الجليل شلي، مفترقات المبشرين على الإسلام، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، ط٢

الحاكم، المستدرک على الصحيحين، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي، القاهرة: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م

جلال العالم، دمروا الإسلام وأبدوا أهله، مكتبة الصحابة جدة. مكتبة التابعين، القاهرة. ١٩٩٤م.

جواد علي، يوحنا الدمشقي، مجلة الرسالة (مصر)، (عدد ٦١٠)، والعدد (٦١٢) ربيع الآخر ١٣٦٤هـ. مارس ١٩٤٥م.

جورج عطية، الجدل الديني المسيحي. الإسلامي في العصر الأموي وأثره في نشوء علم الكلام. جامعة اليرموك. عمان ١٩٨٩م.

جوستاف لوبون، حضارة العرب، بترجمة عادل زعير، دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٦٩م.

جولد تسهر، مذاهب التفسير الإسلامي، بترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة ١٩٥٥م.

العقيدة والشريعة في الإسلام، بترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة ١٩٤٨م.

جيمس فيزير، الفلكلور في العهد القديم، بترجمة نبيلة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية، الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٨٨م.

حسن طيل، حول الإعجاز البلاغي للقرآن، مكتبة الإيمان، ط١، مصر ١٤٢٠هـ. ١٩٩٩م.

حسين علي محمد، القرآن ونظرية الفن، القاهرة ١٤١٣هـ. ١٩٩٢م.

حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، أطواره ومذاهبه، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١م

حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، دمشق: دار القلم، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ط٢

حسن ظاظا، اللسان والإنسان، مدخل إلى معرفة اللغة، دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م

ابو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، القاهرة: المختار الإسلامي، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م، ط٤

أبو حيان الأندلسي، البحر المحیط، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م

الخازن، تفسير الخازن للمسعى: لباب التأويل في معاني التنزيل، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م

خالد كبير علال، أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والني محمد صلى الله عليه وسلم، دحض أباطيل عابد الجابري وخرافات هشام جعيط، حول القرآن وني الإسلام، دار المختص، نسخة إلكترونية

الذهبي، تاريخ الإسلام، ت/ عمر عبد السلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م

عبد الراضي محمد عبد المحسن، الغارة التصيرية على أصالة القرآن الكريم، نسخة إلكترونية

رنجي كمال، دروس اللغة العبرية، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ط٣، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م.

دانييل ساهاس، جدل يوحنا الدمشقي مع الإسلام، مجلة الاجتهاد بيروت، عدد (٢٨) السنة السابعة (١٤١٦هـ. ١٩٩٥م).

رشا الصباح، الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى، مجلة عالم الفكر، عدد (٣) المجلد الخامس عشر. وزارة الإعلام، الكويت.

رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية، سلسلة عالم المعرفة العدد (١٠٢). وزارة الإعلام بالكويت.

رشيد رضا، الوحي المحمدي، للمكتب الإسلامي، دمشق ١٣٩١هـ. ١٩٧١م.

روم لاندو، الإسلام والعرب، بترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م.

زهنون كاسيدوفسكي، الحقيقة والأسطورة في التوراة، الأجدية للنشر. دمشق ١٩٩٠م.

رشدي البراروي، موسى وهارون عليهما السلام من هو فرعون موسى؟، نسخة إلكترونية

روبير بندكتي، التراث الإنساني في التراث الكتابي، إشكالية الأساطير الشرقية القديمة في العهد القديم، بيروت: دار المشرق، ١٩٩٠م، ط٢

الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م

الزخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل، ت/ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وفتح حجازي، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م

سعد بن منصور بن كمنوة، تنقيح الأبحاث للمل للثلاث، نشرة موسى برلمان، مطبوعات جامعة كاليفورنيا ١٩٦٧م.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.

سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦م. في ظلال القرآن، دار الشروق. القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

عبد الجواد المحض، أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، الدار المصرية. الاسكندرية ١٤٢٠هـ. ٢٠٠٠م.

- أدب القصة في القرآن الكريم، الدار المصرية بالاسكندرية ١٤٢٠هـ. ٢٠٠٠م.
- عبد الحميد مذكور، الترجمة والحوار مع الآخر، كتاب المؤتمر الدولي الأول للفلسفة الإسلامية المتعدد بدار العلوم. القاهرة ١٩٩٦م.
- عبد الراضى محمد عبد المحسن، أسس فلسفة الأخلاق الإسلامية، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، السنة السادسة. عدد ٦، القاهرة ١٤١٨هـ. ١٩٩٧م.
- موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت ١٩٨٩م.
- عبد الرحمن حنكة الميداني أجنحة المكر الثلاثة، دار العلم، دمشق، ط٥، ١٤٠٧هـ. ١٩٨٦م.
- عبد العزيز العسكر، التنصير ومحاولاته في الخليج العربي، العبيكان، ط١، الرياض ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م.
- عبد اللطيف الطياوي، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، الترجمة العربية للملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث. د. محمد البهي. مكتبة وهبة، ط٨، ١٩٧٥م.
- ابن العسال، الصحائح في جواب النصائح، القاهرة سنة ١٦٤٣ قبطية.
- علي النملة، الاستشراق في الأدبيات العربية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م.
- التنصير، ١٩٩٣م بدون بيانات.
- علي جريشة. محمد النيق، أساليب الغزو الفكري، ط٢، دار الاعتصام. مصر.
- عمر الأشقر، عالم الملايكة، دار النفائس. الأردن ١٩٩٥م.
- عمر رضوان، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، دار طيبة. الرياض ١٤١٣هـ. ١٩٩٢م.
- عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام اللّٰه، ت/ عبد الرحمن اللويحي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م
- عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضدّ متقديه، تعريب/ كمال جاد الله، القاهرة: الدار العلميّة للكتب والنشر، ١٩٩٩م
- سلوى بالحاج صالح، للمسيحية العربية وتطوراتها؛ من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٨م، ط٢
- سهيل زكار، التوراة، ترجمة عربية عمرها أكثر من ألف عام، دمشق: دار قتيبة، ١٤٢٨م، ٢٠٠٧هـ
- سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ط٣
- ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت: دار المعرفة، د.ت
- السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ت/عبد الله التركي، القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، د.ت
- شنودة الثالث، سنوات مع أسئلة الناس، أسئلة عقيدة ولاهوتية-ب، القاهرة: ٢٠٠١
- شوقي أبو خليل، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، دمشق: دار الفكر، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م
- الشوكاني، فتح القدير، بيروت: دار الفكر، د.ت
- صموئيل يوسف خليل، للدخل إلى العهد القديم، القاهرة: دار الثقافة، ٢٠٠٥م، ط٢
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتوير، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ت
- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت
- الطبري، تفسير الطبري، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ
- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦م، ٢٠٠٥م
- عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨م
- ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م
- العكبري، الثبيان في إعراب القرآن، ت/ علي محمد اليحيوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت
- ابن العربي، أحكام القرآن، ت/ محمد عبد القادر عطا، لبنان: دار الفكر، د.ت
- ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت/عبد السلام محمد، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م
- عفيف عبد الفتاح طباره، روح الدين الإسلامي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣م، ط٨
- علي الهس، تحريف مخطوطات الكتاب المقدس، نسخة إلكترونية
- علي علي منصور، مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، بيروت: دار الفتح، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م
- عمر سليمان الأشقر، أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة، عمان: دار النفائس، ١٤١٤هـ، ١٩١٤م، ط٢
- عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، الكويت: مكتبة الفلاح، ط٤، ١٩٨٩م-١٤١٠هـ
- القاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، ت/ طه عبد الرؤوف سعد وخالد بن محمد بن عثمان، القاهرة: مكتبة الصفا، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م
- العيني، عمدة القاري، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت
- عبد الفتاح محمد وهيب، جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، الاسكندرية، منشأة المعارف، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م
- فروح. الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية، للمكتبة العصرية. بيروت ١٩٨٦م.
- ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بتحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٩٣٢م.
- فريد مصطفى سليمان، محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م.
- قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي. الرياض ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.
- كارل ساغان، الكون، سلسلة عالم المعرفة (١٧٨)، وزارة الإعلام بالكويت.
- لويس شيخو، للمخطوطات العربية لكتبة النصرانية، طبع الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٤٢م.
- مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارى، طبع الآباء اليسوعيين. بيروت ١٩٠٦م.
- لويس غزدي. جورج قناتاي، فلسفة الفكر الديني، دار العلم للملايين، ط١، بيروت ١٩٦٧م.
- ابن قتيبة، غريب الحديث، ت/ عبد الله الجبوري، بغداد: مطبعة العاني، ١٣٩٧هـ
- قحطان الدروي، أمية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
- ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ت/ محمد سيد كيلاي، القاهرة: مكتبة التراث، د.ت
- ابن القيم، بدائع الفوائد، ت/ هشام عبد العزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوي وأشرف أحمد، مكة المكرمة: مكتبة نزار، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م
- ابن القيم، زاد المعاد، ت/ شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م
- ابن كثير، أحمد شاكِر، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت
- ابن كثير، البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت: مؤسسة الريان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ط٢
- عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ط١٥
- القسطلاني، المواهب الدنيّة بالملح المحمدية، ت/ صالح الشامي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ط٢
- لؤي فتحي وشذى الدرزي، التايخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تايخ بني إسرائيل المبكر، لندن: دار الحكمة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م
- المباركفوري، تحفة الأحوذى، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت
- محمد بن طاهر البرزنجي ومحمد صبحي حسن حلاق، ضعيف تاريخ الطبري، دمشق- بيروت: دار ابن كثير، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م
- محمد بيومي مهران، إسرائيل، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩
- محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، بيروت: دار النهضة العربية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ط٢
- محمد جمال الدين القندي، الإسلام وقوانين الوجود، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢م
- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت: دار النفائس، ط١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م
- محمد صالح المنجد، ١٠٠ فائدة من قصة يوسف، نسخة إلكترونية
- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، الكويت: دار القلم، د.ت
- محمد عبد الله دراز، بحوث ممهدة في دراسة الأديان، الكويت: دار القلم، د.ت
- محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، ت/عبد الصبور شاهين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٩٦م
- محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ت/ محمد عبد العظيم علي، الكويت: دار القلم، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م
- محمد عبد الله الشرقاوي، في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات، بيروت: دار الجليل، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ط٢
- محمد علي البار، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دمشق: دار القلم، ١٩٩٠م
- محمد عمارة، الإسلام في عيون غربية، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م
- محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيان، دمشق: دار الرشيد، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، ط٣
- المزي، تحذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق/ بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م
- المسعودي، التنبيه والأشرف، ت/ م. ج. دو غوج، لندن: بريل، ١٨٤٣م
- معاذ عليان، عبادة مريم في المسيحية والظهورات المريمية، القاهرة: مكتبة النافذة، ٢٠٠٩
- ابن معين، تاريخ ابن معين، رواية الدوري، دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٠ هـ
- ابن مفلح، الآداب الشرعية، ت/ شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م
- مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م
- مسلم، المسند الصحيح، الرياض: دار المغني، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م
- الناوي، فيض القدير، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ، ١٩٧٢م
- منقذ السقار، هل العهد القديم كلام الله، نسخة الكترونية
- موشيه مردخاي تسوكر، التأثير الإسلامي في التفاسير اليهودية الوسيطة، ت/ أحمد محمود هويدي، القاهرة: مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م
- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، بترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر. دمشق ١٤٠٢هـ. ١٩٨١م.
- محمد أبو فراح، تراجم القرآن الأجنبية في الميزان، مجلة كلية أصول الدين بجامعة الإمام بن سعود الإسلامية. العدد الرابع (عام ١٤٠٢هـ. ١٤٠٣هـ).
- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.
- محمد البهي، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، الإدارة العامة للثقافة. مطبعة الأزهر. القاهرة. د. ت.
- محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، دار عين للبحوث والدراسات. القاهرة ١٩٩٧م.
- محمد السماك، مقدمة إلى الحوار الإسلامي. المسيحي، دار النفائس، بيروت ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
- محمد الشرقاوي، الاستشراق، مطبعة المدينة. القاهرة. د. ت.
- محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.
- محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، دار القلم، الكويت ١٣٩١هـ. ١٩٧١م.
- محمد عبد الواحد عسيري، صورة الإسلام والمسلمين في قاموس الأديان، بحث مقدم إلى ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي المتعددة في الرياض (٢٢. ٢٥. رجب ١٤٢٠هـ / ٣١ أكتوبر ١٩٩٩م).
- محمد عثمان بن صالح، النصرانية والتبشير أم المسيحية والتبشير، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة ١٤١٠هـ. ١٩٨٩م.
- محمد عمارة، استراتيجية التبشير في العالم الإسلامي، مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطة، ١٠، ١٩٩٢م.
- محمد فتحي عبد الهادي، المصادر المرجعية عن الإسلام والمسلمين، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي.
- محمد الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار، ص ٤٦٤. ٣٦٥، دار الفكر العربي. القاهرة ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م.
- محمود العابدي، مخطوطات البحر الميت، دائرة الثقافة والفنون. عمان ١٩٦٧م.
- مونس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دار المعارف. لبنان ١٩٧٧م.
- "مغني اللبيب عن كتب الأعارب": عبد الله بن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي.
- "المفضليات": للمفضل بن محمد الضبي: تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطبعة السابقة، دار المعارف "مصر".
- "من معجزات النبي صلى" عبد العزيز السلطان، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- "النحو الوافي" عباس حسن، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر.
- "نزول عيسى بن مريم آخر الزمان": جلال الدين السيوطي: دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا. ط (١) دار الكتب العلمية بيروت.
- نجيب العتيقي، المستشرقون، دار المعارف، ط٤، مصر.
- ناصر القفاري، أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، عرض ونقد، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ط٢
- ابن النديم، الفهرست، بيروت: دار المعارف، د. ت
- ابن هشام، السيرة النبوية، ت/ عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ط٣
- الهيثمي، مجمع الزوائد، ت/ عبد الله محمد الدرويش، بيروت: دار الفكر، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م
- أبو الوليد الباجي، رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب أبي الوليد الباجي عليها، ت/ محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٦م
- أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ت/ عبد المجيد التركي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠م-٢٠٠١م، ط٣

ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م
بني ميمارس، كالج المخطوطات العربية المكتشفة حديثاً بدير سانت كاترين المقدس بطور سيناء، أثينا: الهيئة القومية اليونانية للبحوث، ١٩٨٥م
يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، بترجمة عمر العالم، ط١، دار قتيبة، دمشق. بيروت ١٤١٧هـ. ١٩٩٦م.

الكتب اليهودية والنصرانية ونقدها.

إظهار الحق. رحمة الله الهندي. تحقيق: محمد أحمد ملكاوي. ط١. دار الحديث. القاهرة، ١٤٠٤هـ.
الإله الذي لا وجود له. أحمد ديدات. ترجمة: رياض أحمد باهري. ط٢. بيت الحكمة. القاهرة، ١٤١٣هـ.
براهين تحتاج إلى تأمل في ألوهية المسيح. محمد حسن عبد الرحمن. ط١. دار الكتاب الحديث، ١٤٠٩هـ.
تاريخ البطركية، ساويرس ابن الملقع، إعداد وتحقيق: عبد العزيز جمال الدين، ط١، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦م.
تجسد الكلمة، البابا أناسيوس، ط٣، مؤسسة القديس أنطونيوس، القاهرة.
التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، مجموعة من العلماء اللاهوتيين.
دعوة الحق بين المسيحية والإسلام. منصور حسين عبد العزيز. ط٢. مكتبة علاء الدين. الإسكندرية، ١٩٧٢م.
سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية بين شيخ وقسيس. عبد الله العلمي (ت ١٣٥٥هـ). ط١، ١٣٩٠هـ.
شرح أصول الإيمان، الدكتور القس أندرواس واطسون، والدكتور القس إبراهيم سعيد، ط٤. دار الثقافة المسيحية.
شرح إنجيل القديس يوحنا، الأب متى المسكين، مطبعة: دير القديس أنبا مقار، ١٩٩٠م.
شرح بشارة لوقا، القس الدكتور إبراهيم سعيد، ط٤، دار الثقافة المسيحية، ١٩٨٦م.
طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون. أحمد عبد الوهاب. مكتبة وهبة. القاهرة.
عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية. حسني يوسف الأطير. ط١. دار الأنصار. ١٤٠٥هـ.
العقائد الوثنية في الديانة النصرانية. محمد طاهر. محمد المجذوب. دار الشواف، ١٩٩٢م.
علم اللاهوت النظامي. جيمس أنس. مراجعة القس منيس عبد النور. الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة. القاهرة
الفارق بين الخالق والمخلوق. عبد الرحمن البغدادي. ضبط وتعليق: عصام فارس الحرساني. ط١. مكتبة دار عمار. عمان، ١٤٠٩هـ.
الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم. محمد علي البار. ط. دار القلم. دمشق، ١٤١٠هـ.
الله واحد أم ثلوث. محمد مجدي مرجان. دار النهضة العربية.
للدخول إلى العهد القديم، د. صموئيل يوسف، ط٢، دار الثقافة المسيحية، القاهرة.
للدخول لدراسة التوراة والعهد القديم. محمد علي البار. دار القلم. دمشق، ١٤١٠هـ.
للمسيح إنسان أم إله. محمد مجدي مرجان. تحقيق: عبد الرحمن دمشقية. مكتبة الحرمين.
للمسيح بين الحقائق والأوهام. محمد وصفي. دار الفضيلة.
للمسيح في مصادر العقائد المسيحية. أحمد عبد الوهاب. ط٢. مكتبة وهبة. القاهرة، ١٤٠٨هـ.
للمسيحية الحقبة التي جاء بها المسيح. علاء أبو بكر. ط١. مكتبة وهبة. القاهرة، ١٤١٨هـ.
للمناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان. أحمد ديدات. جمع وترتيب: أحمد السقا. ط١. مكتبة زهرة، ١٤٠٨هـ.
مناظرة العصر. أحمد ديدات والقس أنيس شروش. ترجمة: علي الجوهري. دار الفضيلة.
مناظرات في استكھولم. أحمد ديدات والقس شويرج. دار الفضيلة.
موجز تاريخ الأديان، فيلسيان شالي. ترجمة: حافظ الجمالي. ط١. دار طلاس للدراسات والترجمة. دمشق. ١٩٩١م.
النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام. أحمد عبد الوهاب. ط١. مكتبة وهبة. القاهرة، ١٤٠٠هـ.
الإنجيل بحسب القديس متى (دراسة وتفسير وشرح)، الأب متى المسكين، ط١، مطبعة دير القديس أنبا مقار، ١٩٩١م.
الإنجيل والصليب. عبد الأحد داود. القاهرة، ١٣٥١هـ.
براهين تحتاج إلى تأمل في ألوهية المسيح. محمد حسن عبد الرحمن. ط١. دار الكتاب الحديث، ١٤٠٩هـ.
التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، مجموعة من العلماء اللاهوتيين.
خدعية الشيطان. أحمد ديدات. ترجمة: رياض أحمد باهري. بيت الحكمة. ط٢. القاهرة. ١٤١٣هـ
الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام. أميمة أحمد الشاهين الجلاهرة. دار زهره الشرق. القاهرة.
دراسة عن التوراة والإنجيل. كامل سغفان. دار الفضيلة. القاهرة.
دعوة الحق بين المسيحية والإسلام. منصور حسين عبد العزيز. ط٢. مكتبة علاء الدين. الإسكندرية، ١٩٧٢م.
دين الله في كتب أنبيائه. محمد توفيق صدقي أفندي. ط١. دار المنار، ١٣٣٠هـ.
شرح بشارة لوقا، القس الدكتور إبراهيم سعيد، ط٤، دار الثقافة المسيحية، ١٩٨٦م.
العقائد المسيحية بين القرآن والعقل. هاشم حودة. ط٢. المركز العربي للنشر والتوزيع.
العقائد الوثنية في الديانة النصرانية. محمد طاهر التنير. محمد المجذوب. دار الشواف، ١٩٩٢م.
عقيدة الصلب والفداء. محمد رشيد رضا. الفتح للإعلام العربي، ١٤١١هـ.
الغفران بين الإسلام والمسيحية. إبراهيم خليل أحمد. ط١. دار المنار. القاهرة. ١٤٠٩هـ.
الفارق بين الخالق والمخلوق. عبد الرحمن البغدادي. ضبط وتعليق: عصام فارس الحرساني. ط١. مكتبة دار عمار. عمان، ١٤٠٩هـ.
قصة موت المسيح وقيامته في ميزان النقد العلمي والكتب المقدسة. محمد أبو الغيط الفرت. ط١. در الطباعة المحمدية، ١٤١٠هـ.
القاموس الموجز للكتاب المقدس: "حنا الله جرحس ووهيب مالك طبع مكتبة كنيسة الأخوة - مصر - عام ١٩٨٣م.
ما هي النصرانية، محمد تقي الخماني. رابطة العالم الإسلامي. مكة المكرمة، ١٩٨٤م.
محاضرات في مقارنة الأديان. إبراهيم خليل أحمد. ط٢. دار المنار. القاهرة، ١٤١٢هـ.
للمسيح بين الحقائق والأوهام. محمد وصفي. دار الفضيلة.
للمسيح في القرآن والتوراة والإنجيل. عبد الكريم الخطيب. ط١. دار الكتب الحديثة، ١٩٦٥م.
للمسيح في مصادر العقائد المسيحية. أحمد عبد الوهاب. ط٢. مكتبة وهبة. القاهرة، ١٤٠٨هـ.
مسيحية بلا مسيح. كامل سغفان. دار الفضيلة، ١٩٩٤م.
للمسيحية الحقبة التي جاء بها المسيح. علاء أبو بكر. ط١. مكتبة وهبة. القاهرة، ١٤١٨هـ.

كتاب المزامير، القمص تادرس يعقوب ملطي، نشر: كنيسة الشهيد مار جرجس بابسويج
 معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير. إبراهيم الجبهان. ط ٤. عالم الكتب للنشر والتوزيع. الرياض، ١٩٨١م.
 "نصرانية عيسى عليه السلام ونصرانية بولس" دراسة مقارنة من خلال أسفار العهد الجديد: علي عتيق الحري بحث ماجستير عام ١٤٠٧هـ.
 "أدلة اليقين في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين للمسيح في الإسلام": عبد الرحمن الجزيري. (الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م).
 "إظهار الحق": رحمت الله بن خليل الهندي. (تحقيق عمر الدسوقي). (المكتبة العصرية في بيروت).
 "الإنجيل والصلب": عبد الأحد دواود. (تعريب مسلم عراقي) (القاهرة، ١٣٥٠هـ).
 "بماذا يؤمن المسيحيون": جورجيا هاركيس (ترجمة إسحاق مسعد القاهرة. (دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية).
 "تفسير انجيل متى": مجموعة من أشهر مفسري الكتاب المقدس: (مكتبة النيل المسيحية).
 "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح": أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية. تحقيق وتعليق د. علي بن حسين ناصر الطبعة الثانية (١٤١٩هـ-١٩٩٩م)
 "رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي يدعو إلى الإسلام ورسالة عبد المسيح إلى الهاشمي يرد بما عليه ويدعوه إلى النصرانية. طبع
 مصر عام (١٨٩٥م).
 "العقائد الوثنية في الديانة النصرانية": محمد طاهر التبر - بيروت - ١٣٣٠هـ.
 "القرآن والمبشرون" الطبعة الثانية: محمد عزة دروزة (١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م).
 "معالم حضارات الشرق الأدنى القديم" محمد عصفور، لبنان دار النهضة ١٩٨١م.
 "المسيحية" أحمد شلبي ط (٧) القاهرة مكتبة النهضة المصرية (١٩٨٣م).
 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، نسخة إلكترونية
 قاموس الكتاب المقدس، نسخة إلكترونية

مراجع باللغات الأجنبية

K. Wells , Outlines of geoloical History , London 1938.
 Adel Theodore Khoury , Der theologische Streit der Byzantiner mit dem Islam.
 Anton Pegis , St. Anselm and the Argument of the Proslogion , Medioeval Studies 28 (1966.)
 B. F. Westcott , The Bible in the Church , Grand Rapids. (U.S.A 1980.)
 Dena John Geanakohlos , Byzantine East and Latin West: Two Worlds of
 Christiandom in Middle Ages and Renaissance , Harpertoneh Books , New York 1966.
 Francis Dvornik , The Ecumenical Concils , Hawthorn Books. New York 1961.
 Goetz schregle , Deutsch – Arabisches Woerterbuch, London – Beirut 1977
 Hans. Joachim Kraus , Geschichte der historisch – Kritischen Erforschung des Alten Tesament ,
 Neukirchen – Vluyn. 1969.
 Hermann Lais , Was sagt die Kirche zum Wunder in: Wunder und Magie , Gesmmelten Beitrage ,
 Wuerzburg 1962.
 Julius Richter , Ahistory of the Protestant Missions in The Near East , New York 1910.
 J. M. Robinson , Die Bedeutung der Bibliothek von Nag Hammadi Fuer die heutige Theologie und das
 Fruhe Christentum ,Bamberg 22.6.93 (vortrag.)
 Katechismus der katholischen kirche. Leipzig – schweis 1993.
 Klaus Hock, Der Islam im Spiegel westlicher Theologie , Deutschland 1989.
 Moses ben Maimone: Sein Leben , Seine Werke und sein Einfluss, Hrsg von W. Bacher. Leipzig 1908.
 Montgomery Watt, The Influence of Islam on Medieval Europe , Edinburgh up 1972.
 R. Smend, Die Entstehung des Alten Testament, Stuttgart – Mainz 1978.
 Rudolf Smend , Epochen der Bibelkritik , Muenschen 1991.
 Religionen der Welt , Bertlsmann Handbuch , Heraus gegeben von:
 Monika und Udo Tworuschka. Muenschen Guetersloh 1992.
 Rudolf Bultmann , Neues Testament und Mythologie , in: Kergma und Mythos , Hrsg. von: Hans –
 Wemer. Hamburg 1960.
 Saint Clair Tisdall, The Original Sourees of the Quran, London , 1905.
 Theologische Realenzklopuedie, London – New York – Bonn.
 Trevor – Roper , Hugh , The Rise of Christian Europe , London 1978.
 Werner. Kuemmel , Einleitung in das Neue Testament, Heidelberg 1983.
 Willim Born, Christlicher Glaube und Naturwissenschaft, Blefeld 1954.
 Zwemer S., The Translation of the Quran , The Muslim World, 1973.